

تألیف : ك . هول و ج لندی
ترجمه : د. فرج احمد فرج . قدری محمود حفنی . لطفی محمد فطیم
مراجعة : د . لوبیس کامل مدیکه

نظريات الشخصية

تأليف : ك . هول ، ج . لاندزى

ترجمة : دكتور فرج أحمد فرج

قدري محمود حمنى

لطفى محمد فطيم

مراجعة : دكتور لويس كامل مليكة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

هذه ترجمة كاملة لكتاب

THEORIES OF PERSONALITY

by

CALVIN S. HALL

GARDNER LINDZEY

New York. John Wiley & Sons, Inc., 1957

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الفصل الأول :	
طبيعة نظرية الشخصية	١١
الفصل الثاني :	
نظرية التحليل النفسي عند فرويد	٤٧
الفصل الثالث :	
نظرية يونج التحليلية	١٠٥
الفصل الرابع :	
النظريات النفسية الاجتماعية : أدلر * فروم * هورني * سوليفان	١٥٥
الفصل الخامس :	
علم الشخصية لدى موراي	٢١١
الفصل السادس :	
نظرية المجال عند اليفين	٢٧٥
الفصل السابع :	
سيكولوجية الفرد عند أولبورت	٣٣٧
الفصل الثامن :	
النظرية الموضوية	٣٨٧
الفصل التاسع :	
علم النفس الجبلي عند شلدون	٤٣٧

الفصل العاشر :

٤٨٩ نظريات العامل

الفصل الحادى عشر :

٥٤١ نظرية المثير - الاستجابة

الفصل الثانى عشر :

٥٩٧ - نظرية الذات عند روجرز

الفصل الثالث عشر :

٦٤٣ نظرية مورفى الاجتماعية - الحيوية

الفصل الرابع عشر :

٦٨٧ وجهة نظر فى نظرية الشخصية

٧١٣ ثبت المصطلحات

تقديم

لا غنى لعلم من العلوم ، طبيعيا كان او انسانيا ، عن النظرية ، تربط ما بين وقائعه فى نظام متناسق ومتكامل ، يفسر هذه الوقائع ، ويوسع من نطاقها ، ويثير من المشكلات بقدر ما يحله منها . والعلم سعى دائم وراء المجهول فى نسق نظامى يستند الى قاعدة تسمح للعالم أن ينظر من عل ، وأن يغير من زواياها ومستوياتها ليعيد النظر من منظور أعلى .

صحيح أن الانسان صنع الجبن والحمر ، واستطاع أن يحفظ اللحوم والأسماك عن طريق تدخينها ، وذلك قبل أن يستطيع البكتريولوجيون والكيميائيون شرح العملية وصحيح أن الصابون قد صنع قبل اكتشاف نظرية الأيونات ، وأن التهجين الانتقائي للحيوان قد طبق قبل أن يصوغ مندل قوانينه فى الوراثة . الا أن التقدم والتطور لا يتحققان قبل أن تتمكن من تفسير الظواهر تفسيريا علميا ، وهو ما تتصدى له النظرية فى العلم ، أى علم . فالعالم فى سعيه لمعرفة الحقائق عن الانسان يحتاج الى تنظيم هذه الحقائق فى نظم من القوانين والنظريات ، ولا يقتصر اهتمامه على الحقائق والعلاقات الثابتة بالدليل وبالبرهان ، ولكنه يهتم أيضا باكتشاف الطرق الاقتصادية لتلخيص هذه الحقائق .

ويضيق بعض منا ، وبخاصة الطالب المتدنى، بهذا العدد العديد من النظريات التى تتناثر أحيانا فى تصوراتها للشخصية ، ويفضل هؤلاء أن يتوفر لدينا عدد محدود من القوانين والغروض البسيطة المحققة فى بنيان وديناميات الشخصية . ويمكس هذا التنوع فى النظريات أمرين : أولهما ، ثراء وتعقد الشخصية ، وثانيهما ، المرحلة المبكرة التى يمر بها علم الشخصية اليوم ، فهو علم حديث جدا لم يبدأ أن يأخذ صورته الحديثة الا قبل مطلع هذا القرن بفترة قصيرة ، وذلك رغم أن المفكرين تصدوا لبعض القضايا الهامة فى علم الشخصية منذ آلاف السنين ،

ورغم أن أفكارهم تشكل جزءاً من الحلفية الفلسفية للنظم النظرية الحديثة .

وقد كان من الممكن أن يتغير الموقف المعاصر لنظرية الشخصية اذا كنا نعرف ما يكفي ! واذا توفر لدينا اطار شامل ؛ لتصور الأمور ، واذا كان هناك اتفاق حول أكثر المفهومات صلاحية للاستخدام في صياغة المشكلات وفي تفسير البيانات . . . كل ذلك من شأنه أن يؤدي الى انقراض بعض النظريات التي لا تصمد أمام محك الاختبار . ورغم أن النظريات تتعرض دوماً للمراجعة وللتعديل ، فإن صمود هذا العدد الكبير منها جنباً الى جنب يشير الى أننا لم نستقر بعد حتى اليوم على المحكّات المناسبة لتقويمها ، ومن أمثلة ذلك نظرية ماكدوجال .

ورغم تشابه بعض النظريات في بعض الجوانب ، فإنها صمدت حتى اليوم لأن كلامها يسهم بشيء لا يسهم به غيرها . والتحدى الأكبر الذي يواجهه الباحث ومنظر الشخصية اليوم ، هو تحقيق تقدم يتجاوز النطاق المحدد الذي تكاد تضيق به النظريات من حيث تصوراتها ومن حيث البيانات التجريبية المتاحة . والعلاقة بين النظرية والبحث علاقة دينامية فقد يبدأ الباحث بالنظرية أو بالبحث ، إلا أنه يتعين عليه عند نقطة ما ، أن يعتبر تأثير عمله على العلاقة بين النظرية والبحث . فاذا ركز جهوده على البحث التجريبي ، تعين عليه أن يفحص دلالاته للنظرية ، واذا ركز جهوده على النظرية تعين عليه أن يختبرها ، وأن يتوسع فيها عن طريق البحث التجريبي .

ولن يتحقق للطالب أو للباحث امكان القيام بهذا العمل الا اذا ألم بمختلف النظم النظرية المتوفرة اليوم في علم الشخصية ، حتى يستطيع أن يستنبط لنفسه عدداً من القضايا التي يمكن على أساسها الموازنة بين هذه النظريات بصورة نظامية تخفف عليه عناء وضع الأفكار المتنافرة في موضعها الصحيح . وذلك هو هدف هذا الكتاب بوصفه محاولة لامداد القارئ بمقدمة في النظريات الرئيسية في الشخصية .

ويبدأ المؤلفان في الفصل الأول بتعريف مدلول النظرية ودورها ومواصفاتها وينتهيان في الفصل الأخير بالموازنة بين النظريات على أسس محدودة . وفيما بين الفصلين ينتقل القارئ في رحلة ممتعة حقاً مع

المؤلفين ، وهما يعترضان خلاصة الفكر لأعلام نظرية الشخصية في مختلف البقاع والعصور .

ويحدد المؤلفان الأسس التي اهتمت بها في اختيار ما يضمنان في كتابهما من النظريات العديدة في الشخصية ، فيذكران أنهما قبلتا أى نظرية عامة في السلوك بوصفها نظرية في الشخصية ، كما أنهما اعتمدا أساسا في تقديرهما لدرجة أهمية نظرية الشخصية على تقييمهما لدرجة تأثير النظرية في البحوث وفي الصياغات السيكولوجية . كما أدخلتا في اعتبارهما أيضا درجة تميز النظرية، فإذا بدا لهما أن النظريتين متشابهتان الى حد كبير ، فقد كانا يعالجانها في فصل واحد ، أو يركزان على نظرية واحدة ويحددان النظرية الأخرى . وهما لا يستبعدان احتمال أن يختلف معهما البعض في حذفهما لنظريات معينة مثل النظرية الفرضية لماكدوجال، ونظرية الدور ، ونظرية الاقتران لجائرى ، ونظرية السلوكية الفرضية لتولمان ، وبعض المواقف النظرية الحديثة مثل موقف كل من دافيد ماكيللاند ، وجوليان روتر ، وجورج كيللي . الا أنهما يقدمان وجهة نظرهما في الأسباب التي دعتهما الى اتخاذ هذا القرار وهي أسباب متنوعة منها ضيق المقام ، ومنها أن تأثير النظرية المهينة غير مباشر ، وأن ملامح النظرية تظهر مستعارة في غيرها من النظريات المقدمة في الكتاب ، ومن أمثلة ذلك نظرية ماكدوجال ومنها أن الأفكار الرئيسية في النظرية برغم قيمتها البالغة ، فإنها لم تدمج بعد في شبكة من المفاهيم التي تعالج السلوك الانساني معالجة شاملة مثل نظرية الدور . وقد فضل الباحثان حذف نظريتي جائرى وتولمان والاكتفاء بنظرية هل في التعزيز ، لان النظريتين السابقتين لم تطبقا تطبيقا شاملا الا بقدر ضئيل في البحوث خارج نطاق التعلم . أما مواقف كل من ماكيللاند وروتر وكيللي ، فإنها لم تقدم شيئا بسبب حداثتها ، وبسبب أنها في بعض الجوانب تشبه نظريات أو مجموعات من النظريات التي قدمت في الكتاب .

وبعد أن استقر المؤلفان على النظريات التي يقدمانها في الكتاب ، واجها مشكلة التنظيم لعرض كل نظرية بطريقة تحقق قدرا من التوحيد في تنظيم العرض دون أن تنتقص من تكامل ووحدة كل نظرية . وقد استقر رأيهما على تنظيم عرض النظرية في اطار من فئات عريضة بالقدر الذي يسمح بحرية تقديمها بالصورة التي أقرب الى طبيعتها . وفي معظم الحالات كان عرض النظرية يبدأ بتقديم تاريخ شخصى موجز لصاحب النظرية ، وتحديد أهم المخطوط التي تأثرت بها النظرية ، ثم ملخص لأبرز

ملاح النظرية وبعد ذلك يخصص الفصل أقساما لمناقشة موقف النظرية من كل من بناء الشخصية ، ديناميات الشخصية ، ارتقاء الشخصية ، البحوث المميزة وطرق البحث ، ويختتم الفصل بمناقشة الموقف الراهن وتقييم للنظرية .

بقي أن نعرف بالمؤلفين :

ولد المؤلف الأول : كالفين سيرنجر هول في يناير ١٩٠٩ وحصل على درجته الجامعية الأولى عام ١٩٣٠ وعلى درجة الدكتوراه عام ١٩٣٣ من جامعة كاليفورنيا في بيركلي . وقد عمل مدرسا لعلم النفس فى نفس الجامعة عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ ، ثم أستاذا مساعدا لعلم النفس فى جامعة أوريجون بين عامى ١٩٣٤ ، ١٩٣٧ ثم أستاذا زميلا فأستاذا فى جامعة ويسترن ريزيرف من عام ١٩٣٧ الى عام ١٩٥٧ ، ثم أستاذا فى جامعة سيراكيوز بين عامى ١٩٥٧ ، ١٩٥٩ ، وأستاذا زائرا فى عام ٥٩ - ١٩٦٠ فى جامعة ميامى ، وأخيرا شغل وظيفة مدير لمعهد بحوث الأحلام فى ميامى من عام ١٩٦٢ حتى الوقت الحاضر . وتشمل اهتماماته نظرية الشخصية وبحوث الأحلام .

أما المؤلف الثانى : جاردنر لندزى ، فقد ولد فى نوفمبر ١٩٢٠ ، وحصل على درجته الجامعية الأولى عام ١٩٤٣ من جامعة بنسلفانيا ، وعلى درجة الماجستير عام ١٩٤٥ من جامعة ستانفورد ، وعلى درجة الدكتوراه عام ١٩٤٩ من جامعة هارفارد وقد تدرج فى عمله من باحث الى مدرس الى أستاذ مساعد الى أستاذ فى عدد من الجامعات منها بنسلفانيا ، ويسترن ريزيرف ، وهارفارد ، وسيراكيوز الى أن استقر به المطاف فى جامعة مينيسوتا عام ١٩٥٧ . كما أنه حصل على زمالة البحث عام ٥٥ - ١٩٥٦ فى مركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية واشتغل فترة بالعمل الاكلينيكي فى مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية وفى العيادات الجامعية . وتتركز اهتماماته فى نظرية وبحوث الشخصية وعلم النفس الاجتماعى والأساليب الاستقراطية .

وقد حاول المترجمون ، وحاول معهم المراجع قدر الامكان الالتزام فى الترجمة وفى المراجعة بحرفية الأصل نصا وروحا وبنينا وشكلا ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير نظرا لتباين أصول هذه النظريات فى خلفياتها تباينا شديدا ، فهى تغطى مدى واسعا من الأصول الفلسفية وتنحت مصطلحات خاصة بها لم تأخذ مكانها بعد فى قواميس اللغة كما أن كل

نظرية منها تهبطنح من المفهومات ما قد يقترب الى حد كبير فى مدلوله من مفهومات نظرية أخرى برغم اختلاف اللفظ ، كما أن المؤلفين أسرفا فى الاقتباس الحرفى من كتابات أصحاب النظريات ولكل منهم أسلوبه الخاص فى التعبير . وقد جهدنا بدورنا أن ننتقى من الألفاظ العربية ما قدرنا أنه أقربها الى الدقة فى التعبير عن مدلول اللفظ فى معناه وفى مبناه .

وغاية ما نرجوه هو أن نوفق فى تزويد المكتبة العربية بمرجع رئيسى فى علم النفس ، وهو العلم الذى بدأ مجتمعا العربى يدرك خطره ودوره فى بناء البشر : أفرادا وجماعات ومجتمعات .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٦٩

لويس كامل مليكه

الفصل الأول

طبيعة نظرية الشخصية

ان الهدف الرئيسي لهذا الكتاب هو ان يقدم ملخصا منظما للنظريات الرئيسية المعاصرة فى الشخصية . وبالإضافة الى تقديم ملخص واضح لكل نظرية ، فسوف نناقش كذلك البحوث المتصلة بها ، كما سنقدم تقريبا كليا للنظريات . وقبل الشروع فى هذه المهمة ، يجب أن يذكر شئ عن ماهية نظريات الشخصية ، وكيف يمكن التفرقة بين هذه النظريات المختلفة .

هذا ، بالإضافة الى ضرورة وضع هذا النظريات فى سياق عام ، وربطها تاريخيا بأحداث علم النفس ، وكذلك تحديد مكانها من السياق المعاصر .

وسنبدا فى هذا الفصل التمهيدي بتخطيط عام ، وغير حاسم الى حد ما ، لدور نظرية الشخصية فى نمو علم النفس ، وستتبع ذلك بمناقشة المقصود من اصطلاح « شخصية » والمقصود من اصطلاح « نظرية » وبعد هذه الاعتبارات يصبح الانتقال يسرا الى مسألة ما الذى يكون نظرية الشخصية . وكذلك فسوف نتناول فى ايجاز بالغ العلاقة بين نظرية الشخصية والأشكال الأخرى من النظريات السيكولوجية . وفى الحتام سوف نعرض عددا من الأبعاد يمكن بهسا الموازنة بين نظريات الشخصية ، وهذه الأبعاد يمكن اعتبارها ممثلة للقضايا النظرية الرئيسية فى هذا المجال .

نظرية الشخصية وأبرج علم النفس

ان نظرة شاملة الى نمو نظرية الشخصية لا بد ان تبدأ بالتأكيد بالتصورات الخاصة بالانسان والتي قدمها المفكرون الكلاسيكيون العظام مثل هيبو قراط وأفلاطون وأرسطو ، كما ان عرض الموضوع عرضا كافيا يتطلب منا تناول اسهام الكثيرين من المفكرين مثل الاكوييني(1) وبنام وكونت وهوبز ولوك وميكافيل ، ممن عاشوا في القرون الوسطى ، ومن لا يزال من الممكن تتبع أفكارهم في الصياغات المعاصرة . ونحن لا نرمى هنا الى محاولة القيام بمثل هذه الاعادة العامة للبناء .

ان هدفنا أكثر تحديدا من ذلك بكثير . وسوف نتناول فقط - في حدود واسعة - الدور العام الذي لعبته نظرية الشخصية في نمو علم النفس خلال العقود الستة أو السبعة الماضية .

ولنبدا بفحص بعض مصادر التأثير الحديثة نسبيا ، في نظرية الشخصية . ان تقليدا هو : الملاحظة الاكلينيكية كان له دور في تحديد طبيعة نظرية الشخصية أكثر من أى عامل آخر بمفرده ، وقد بدأ هذا التقليد شاركو وجانيه ولكن أكثر من أرسى دعائمه أهمية هم فرويد ويونج وماكدوجال .

وستتناول بالفحص بعد قليل بعض تأثير هذه الحركة . ويبدأ المصدر الثاني للتأثير من أصحاب تقليد الجشثالت ومن وليام شتيرن . وقد تأثر هؤلاء أبلغ التأثير بوحدة السلوك ، ومن ثم فقد اقتنعوا بأن الدراسة الجزئية أو المقسمة لعناصر صغيرة من السلوك لا يمكن ان تلقى ضوءا .

ووجهة النظر هذه ، كما سنكتشف ذلك ، قد تعمقت جذورها في التيار المعاصر لنظرية الشخصية . كما ان هناك الوقع الأكثر حداثة لعلم النفس التجريبي بعامة ، ولنظرية التعلم بخاصة . ومن هذا الطريق خرج الاهتمام المتزايد بالبحث التجريبي(٢) المحكم الضبط ، والفهم الأحسن لطبيعة بناء النظرية . وهناك مصدر رابع للتأثير هو التقليد

(١) القديس توماس الاكوييني (المترجم) .

(٢) Empirical

السيكومتري الذي يركز اهتمامه على القياس وعلى دراسة الفروق الفردية .
ويتمثل تأثيره في المهارة والحذق المتزايد في القياس وفي التحليل الكمي
للبيانات . وثمة مسالك أخرى عديدة اثرت في نظرية الشخصية بما في
ذلك علم الوراثة التجريبي والوضعية المنطقية والانثروبولوجيا الاجتماعية ،
الا أنه لا يبدو أن أحدا من هذه جميعا كان له مثل هذا الوزن البعيد المدى
كما هو الشأن بالنسبة للمحددات الأربعة التي أشرنا إليها منذ لحظة .

وتناقش الفصول التالية ، بإيجاز الحلفية النوعية التي خرجت منها
كل من النظريات المعروضة في هذا الكتاب . ويمكن للقارئ أن يرجع
إلى مناقشات عامة لتطور النظرية المعاصرة للشخصية في أولبورت
(١٩٣٧) Allport وبورينج (١٩٥٠) Boring - وماك كينون
(١٩٤٤) MacKinnon ومازلو (١٩٥١) Maslow وميرفي (١٩٤٩)
Murphy

كما يمكنه أن يجد ملخصات للموقف الراهن لنظرية الشخصية
وبحوثها في سلسلة من الفصول التي تظهر في مجلة :

Annual Review of Psychology
'Bronfenbrenner, 1953, Child 1954, Eysenck, 1952.

ولنتناول الآن بعض السمات المميزة لنظرية الشخصية . فبالرغم
من أنه من الواضح أن هذا الهيكل النظري جزء من مجال علم النفس
الواسع فإنه ما زالت هناك فروق ملحوظة بين نظرية الشخصية
وبحوثها ، وبين البحوث والنظرية في مجالات علم النفس الأخرى . وهذه
الفروق تبرز بخاصة فيما يتعلق بالنمو المبكر لنظرية الشخصية ، وتوجد
بالرغم من القدر الكبير من الاختلافات بين نظريات الشخصية نفسها .
وهذه الفروق الفردية بين نظريات الشخصية تعني أن أي زعم - تقريبا -
ينطبق بتفاصيله الدقيقة على نظرية واحدة في الشخصية سيكون على قدر
من عدم الدقة عندما يطبق على نظريات أخرى معينة . وبالرغم من ذلك
فهناك خصائص كيفية شائعة ، أو نزعات مركزية تكمن في معظم نظريات
الشخصية ، وهي ما سوف نركز عليه في مناقشاتنا .

فإذا ما سلمنا أن هناك التقاءات هامة في تيارات التأثير التي حددت
المسارات المبكرة في علم النفس العام وفي نظرية الشخصية ، فلا زالت
هناك فروق لها وزنها .

صحيح أن داروين كان عاملا قويا في تطور الوضعين ، وصحيح أيضا أن فسيولوجيا القرن التاسع عشر كان لها تأثيرها على اصحاب نظريات الشخصية ، كما كان لها اثر ملحوظ في علم النفس العام . ومع هذا فان اللون العام للعوامل التي أثرت في هاتين المجموعتين خلال ثلاثة أرباع القرن الماضي يختلف اختلافا ملموسا . فبينما كان صاحب نظرية الشخصية يستمد أفكاره التي يهتدى بها ، أساسا من التجربة الاكلينيكية، كان عالم النفس التجريبي يتجه باهتمامه صوب نتائج المعمل التجريبي . وبينما كانت أسماء مثل شاركوه وفرويد وجانيه وماكدوجال وشترين تحتل مكان الصدارة في أعمال اصحاب نظريات الشخصية الأوائل ، نجد أسماء هلمهولتز وبافلوف وتورنديك وواطسون وفونت تأخذ دورا مماثلا في علم النفس التجريبي . لقد استمد المجرّبون الهامهم وقيمهم من العلوم الطبيعية ، في حين ظل اصحاب نظريات الشخصية الصق بالبيانات الاكلينيكية ، وباعادة صياغتها صياغة خلاقة . لقد رحبت جماعة بالمشاعر الملهمة وبالاستبصار وازدرد فخاخ العلم بما يفرضه من قيود على الخيال، كما ازدردت الحدود الضيقة للمهارات التكنيكية . اما الجماعة الأخرى فقد رحبت بالصرامة والدقة المميزتين للبحث المحدد ، وابتعدت نافرة عن الاستخدام غير المقيد للحكم الاكلينيكي وللتنفسر المتحرر . وفي النهاية أصبح واضحا أن علم النفس التجريبي المبكر ليس لديه الا القليل ليقوله في المشاكل التي تهّم صاحب نظرية الشخصية ، وأن الأخير يكن القليل من الاحترام للمشاكل ذات الأهمية المركزية عند عالم النفس التجريبي .

ومن المعروف جيدا أن علم النفس نما في أواخر القرن التاسع عشر كإبن للفلسفة والفسيولوجيا التجريبية . أما نظرية الشخصية فتدين في نشأتها بالكثير للمهنة الطبية ولتقتضيات الممارسة الطبية . والحقيقة أن العمالقة الأوائل في هذا المجال (فرويد ويونج وماكدوجال) لم يدرسوا الطب فحسب ، بل ومارسوا العلاج النفسى كذلك . وهذه الصلة التاريخية بين نظرية الشخصية والتطبيق العملى ظلت جلية أثناء تطور علم النفس كما أن لها أهميتها في التمييز بين هذا الضرب من النظرية وبين ضروب أخرى معينة من النظريات السيكولوجية .

ويتفق مع ما ذكرناه حتى الآن تعميان يتعلقان بنظرية الشخصية . اولهما ، أنه من الواضح أن نظرية الشخصية قد اتخذت دور المعارض في تطور علم النفس . فقد كان اصحاب نظريات الشخصية في وقتهم من المتمردين في الطب وفي العلم التجريبي ومن المتمردين على الأفكار

التقليدية المتعارف عليها وعلى الممارسات المعتادة ، ومن المتمردين على المناهج النموذجية وعلى أساليب البحث المحترمة ، وأهم من ذلك كله كانوا من المتمردين على النظرية المعترف بها وعلى المشاكل المياريّة . ولما كانت نظرية الشخصية فى حقيقة الأمر لم تلتحم قط التحاماً عميقاً على الإطلاق بالتيار الرئيسى لعلم النفس الأكاديمى ، فقد كان لذلك العديد من المتضمنات الهامة . فمن ناحية ، أدى ذلك الى تغليب النزعة الى تحرير نظرية الشخصية من القبضة المميّنة للأساليب التقليدية فى الفكر ، والتصورات المسبقة المتعلقة بالسلوك الانسانى . ولقد كان من الأيسر لأصحاب نظريات الشخصية ، نظراً لعدم انغماسهم - نسبياً - فى التنظيم القائم لعلم النفس ، أن يسألوا ، أو أن يرفضوا فروضاً تحظى بقبول واسع من جانب علماء النفس . ومن ناحية أخرى ، حررهم هذا الافتقار الى الانغماس ، من بعض النظام ومن مسئولية الصياغة المنظمة بقدر معقول والتي كانت ارتنا لعالم النفس الذى نشأ تنشئة حسنة .

والتعميم الثانى هو « أن نظريات الشخصية ذات اتجاه وظيفى » . فهى تهتم بالمشاكل ذات الدلالة فى توافق الكائن العضوى . وهى تتركز حول أمور ذات أهمية حاسمة لبقاء الفرد وحياته . ففي الوقت الذى كان فيه عالم النفس التجريبي مهتماً بمشاكل مثل وجود التفكير بلا صور ، أو السرعة التى تنتقل بها الدفعات العصبية ، أو تحديد محتوى العقل الشعورى - السوى - للكائن البشرى ، أو تقدير احتمال أن هناك تحديداً مكانياً للوظائف فى المخ ، كان صاحب نظرية الشخصية يهتم بمعرفة السبب، فى أن أفراداً بعينهم تنمو لديهم أعراض عصبية معوقة برغم غياب المرض العضوى ، وما هو دور الصدمات الطفلية فى توافق الراشد وماهى الظروف التى يمكن فى ظلها استعادة الصحة النفسية ، وما هى الدوافع الأساسية التى تحرك سلوك الانسان . وهكذا فإن صاحب نظرية الشخصية وحده هو الذى كان يعالج فى الأيام الأولى من علم النفس مشاكل يبدو أنها تمثل بالنسبة للشخص العادى محور الاهتمام فى علم النفس الناجح .

ويجب ألا يفهم القارىء ما قنناه بوصفه اتهاماً موجهاً الى علم النفس العام ، وتمجيدياً لنظرية الشخصية . فلازال الفهم غير واضح فى احتمال أن السبيل الى نظرية مفيدة وشاملة للسلوك الانسانى سيتقدم بأسرع ما يكون عن طريق عمل هؤلاء الذين استهدفوا مباشرة مثل هذا الهدف ، أم أنه سيبدى فى نهاية الأمر بالكثير لجهود هؤلاء الذين ركزوا اهتمامهم على

مشاكل نوعية ومحدودة نسبيا . ان استراتيجية التقدم فى علم تجريبي ليس من السهل بحال تحديدها ، كما ان العامة لا يعتبرون عادة محكمة نهائية وصالحة لتقرير نوع المشاكل التى يجب التركيز عليها . بعبارة أخرى ، بالرغم من أننا نقرر واقعا ، عندما نقول ان أصحاب نظريات الشخصية قد تناولوا أمورا تبدو مركزية وهامة للملاحظ النموذجي للسلوك الانساني ، فان علينا أن نتنظر لنرى : هل كانت هذه الرغبة فى معالجة مثل هذه الأمور ستثبت دورها فى تقدم العلم .

وكما سبق أن المعنا ، ليس ثمة غموض فى سبب الاتساع لآفاق نظريات الشخصية واتجاهها العملي ، بالقياس الى صياغات معظم علماء النفس الآخرين . ان الرجال العظماء فى علم النفس الاكاديمي فى القرن التاسع عشر كانوا أشخاصا مثل فونت وهلمهولتز وانبجوس وتشنر وكولب قاموا بأعمالهم داخل نطاق جامعي ودون ضغط يذكر من العالم الخارجى . وقد كان لهم الحرية فى أن يواصلوا اهتماماتهم الذهنية ، مع أقل الزام - أو بغير الزام - بأن يتناولوا ما يعتبره الآخرون ذا أهمية أو دلالة . والحقيقة أنه كان فى إمكانهم ، الى حد كبير أن يحددوا ما له أهمية عن طريق قيمهم ونشاطاتهم هم أنفسهم . وعلى العكس من ذلك ، كان أصحاب نظريات الشخصية الأوائل ممارسين بقدر ما كانوا علماء . وقد واجهتهم مشاكل الحياة اليومية ، التى تضخمها الأعصاب فكان من الطبيعي أن يوجهوا جهودهم الى صياغات تستطيع أن تسهم بشئ فى هذه المشاكل . فمجموعة من الفئات لتحليل الانفعالات يمكن أن يطبقها أفراد مدربون فى موقف فى المعمل شئ غير ذى أهمية لمعالج يلاحظ كل يوم نشاط الانفعالات التى تعوق البشر وتجردهم من قدراتهم بل وقد تقتلهم أحيانا . وعلى هذا فالطابع الوظيفي القوى الذى يميز نظريات الشخصية، واهتمامها بالمشاكل ذات الوزن بالنسبة لبقاء الفرد وحياته ، ينمو نموا طبيعيا تملبه الظروف التى نشأت فى ظلها هذه النظريات .

من الواضح أن أصحاب نظريات الشخصية ينسبون عادة دورا حاسما للعمليات الدفاعية ، وفى وقت كان الكثير من علماء النفس يتجاهلون الدفاعية أو يحاولون الاقلال الى الحد الأدنى فى دراساتهم من اسهام مثل هذه العوامل ، كان أصحاب نظريات الشخصية يرون فى نفس هذه التغييرات المفتاح الى فهم السلوك الانساني . ولقد كان فرويد وماكدوجل أول من أعطوا العمليات الدفاعية اهتماما جادا . ان الهوة الواسعة التى تفصل حلبة الحياة عن النظرية التى طورها علماء النفس المعمليون يصورها

ماكدوجال عندما يبرر محاولاته تكوين نظرية كافية للسلوك الاجتماعى (وهى التى كانت نظرية فى الشخصية أكثر منها فى السلوك الاجتماعى)
فيقول :

- ان ذلك القسم من علم النفس ذى الأهمية الأولية ،
 - للعلوم الاجتماعية هو ذلك الذى يتناول يناهج
 - الفعل الانسانى ، الدوافع التى تقيم النشاط العقلى
 - والبدنى ، وتنظم السلوك ، وهذا القسم ، من بين
 - جميع أقسام علم النفس هو - القسم - الذى
 - لا يزال فى أشد حالات التخلف ، والذى لا زالت
 - الغلبة فيه لأشد درجات الغموض والابهام والحلظ
- (ماكدوجال ١٩٠٨ ، ص ٢ - ٣)

وهكذا ، فالتغيرات التى كانت تضيق عالم النفس التجريبي
أصبحت موضوع دراسة منظمة واهتمام مركز من جانب صاحب نظرية
الشخصية .

ويتصل بهذا الاهتمام بالوظيفى والدافعى اقتناع صاحب نظرية
الشخصية بأن « **الفهم الكافى للسلوك الانسانى سيتمخض فقط عن
دراسة الشخص كله** » فمعظم دارسى الشخصية من علماء النفس يصرون
على ضرورة النظر الى الفرد من حيث الأداء الكلى الوظيفى للشخص فى
مجاله الطبيعى . وقد طالبوا بقوة بدراسة السلوك داخل السياق بحيث
تفحص وتفسر كل واقعة سلوكية من حيث علاقتها ببقية سلوك الفرد .
ووجهة نظر كهذه تعتبر اشتقاقا طبيعيا للممارسة الاكلينيكية حيث يتقدم
الشخص بكليته طلبا للشفاء ، وحيث يكون من العسير حقا قصر الدراسة
على جانب حسى واحد ، أو نطاق محدود من الخبرة .

فاذا قبلنا ما يذهب اليه معظم أصحاب نظريات الشخصية من
الاهتمام بدراسة الشخص الكلى غير الجزأ ، يصبح من اليسير أن نفهم
لماذا يعتبر كثير من الملاحظين « **أن واحدة من أكثر السمات المميزة لنظرية
الشخصية هى وظيفتها بوصفها نظرية تكاملية** » . وبينما يتجه علماء النفس
بعمامة الى التخصص المتزايد ، مما يؤدى الى الشكوى من أنهم يتعلمون
أكثر وأكثر عن أقل وأقل ، نجد صاحب نظرية الشخصية يقلل مسئولية
جزئية على الأقل - عن جمع وتنظيم النتائج المتضاربة للأخصائين . ان

العالم التجريبي قد يعرف الشيء الكثير عن المهارات الحركية ، والسمع والادراك ، أو الإبصار لكنه عادة يعرف القليل نسبيا عن الكيفية التي ترتبط بها هذه الوظائف الخاصة بعضها ببعض الآخر . أما عالم النفس المتخصص في دراسة الشخصية ، فيهتم - في هذا الصدد - بإعادة البناء أو التكامل ، أكثر مما يهتم بتحليل أو دراسة السلوك الجزئي . ومن هذه الاعتبارات يأتي التصور الذي يتسم بشيء من الرومانسية ، لصاحب نظرية الشخصية ، بوصفه الفرد الذي يؤلف بين أجزاء اللغز الذي تقدمه النتائج المتفرقة للدراسات المنفصلة داخل التخصصات المختلفة التي تكون علم النفس .

ما الذي يميز إذن - في عبارات عامة - صاحب نظرية الشخصية عن صاحب النظرية التقليدية في علم النفس ؟ انه أكثر تأملا ، وأقل ارتباطا بالعمليات والاجراءات التجريبية والقياسية . كما أن تأثير الوضعية المنطقية الذي يبعث على الجمود لم يؤثر كثيرا في عالم النفس الذي يدرس الشخصية ، بالقياس الى عالم النفس التجريبي . كما أنه يبنى نظريات متعددة الأبعاد وأكثر تعقيدا من تلك التي تشيع في مجال علم النفس العام ، كما أن نظرياته تنجح بصورة مطردة الى شيء من الإبهام ، وكذلك هي أقل تحديدا من حيث النوعية بالقياس الى نظريات العالم التجريبي . انه مستعد لقبول أى جانب من السلوك له دلالة وظيفية ، بوصفه مادة مشروعة لطاره النظرى ، على حين يقنع معظم علماء النفس التجريبي بتركيز انتباههم على نطاق محدود من الملاحظات أو التسجيلات .

انه يصر على أن الوصول الى فهم كاف للسلوك الفردى لا يمكن تحقيقه الا عندما يدرس في سياق واسع يتضمن الشخص كله في أدائه لوظائفه . ان صاحب نظرية الشخصية يرى الدافعية ، « لماذا ؟ » أو محركات السلوك المشككة الحاسمة ، العملية والنظرية ، على حين ينظر اليها المجربون بوصفها واحدة من مشاكل كثيرة ، ويتصدون لها بوساطة عدد قليل من المفاهيم الوثيقة الصلة بالعمليات الفسيولوجية .

اننا واصلنا نقاشنا حتى الآن ، وكان القساريء والمؤلفين على قدر طيب من الاتفاق فيما يتعلق بما يعنيه اصطلاح الشخصية . وبالرغم من أن الأمر قد يكون كذلك فان ذلك ليس أكيدا ، ويبدو من الحكمة أن نفحص معنى هذا الاصطلاح قبل أن نواصل المزيد من التقدم .

ما هي الشخصية ؟

تحتوى اللغة الانجليزية على كلمات قليلة لها ما لكلمة الشخصية من سحر لدى العامة . وبالرغم من أن الكلمة تستخدم في معان متعددة فإن معظم هذه المعانى الدارجة أو الشعبية تندرج ضمن فئتين . فالاستخدام الأول يقابل معنى الشخصية بالمهارة الاجتماعية والحدق . فشخصية الفرد تقدر بما له من فاعلية تمكنه من استثارة استجابات ايجابية من جانب عديد من الناس في ظروف مختلفة . وهذا هو المعنى الذى تغنيه المدارس التى تتخصص فى اكساب المرأة الأمريكية الجاذبية والسحر ، عندما تشير الى برامجها فى « تدريب الشخصية » وبالمثل ، فالمدرس الذى يشير الى تلميذ على أنه يمثل مشكلة شخصية فان الاحتمال أنه يقصد أن مهاراته الاجتماعية ليست كافية لاقامة علاقات مرضية مع أقرانه من التلاميذ ومع مدرسيه . أما الاستخدام الثانى فيعتبر أن شخصية الفرد تتمثل فى أقوى الانطباعات التى يخلقها فى الآخرين وأبرزها . وبذا يمكن القول أن الشخص له « شخصية عدوانية » أو « شخصية مستكينة » أو « شخصية مخيفة » . وفى كل حالة له من هذه الحالات يختار الملاحظ صفة أو خاصية مميزة أشد التمييز للمفحوص ويفترض أنها جزء هام من الانطباع الكلى يخلقه فى الآخرين ، وتنعين شخصيته بهذه الكلمة أو الصفة . وواضح أن كلا الاستخدامين يتضمنان عنصرا تقويميا . فالشخصيات توصف عادة اما بأنها شريرة أو طيبة .

وبالرغم من أن التباين فى الاستخدام العادى لكلمة الشخصية قد يبدو كبيرا فإن مختلف المعانى التى يضيفها علماء النفس على هذا الاصطلاح قد تغلب عليه . فقد استخلص أولبورت (١٩٣٧) فى مسح شامل للدراسات قرابة خمسين تعريفا مختلفا صنفها الى عدد من الفئات الواسعة . ويجدر بنا هنا أن نقصر اهتمامنا على عدد قليل من هذه التعريفات .

ويهمنا فى البداية أن نفرق بين ما أسماه أولبورت بالتعريفات الحيوية الاجتماعية والتعريفات الحيوية الفيزيائية .

ويبدى التعريف الحيوى الاجتماعى اتفاقا وثيقا مع الاستخدام الشعبى للاصطلاح اذ يساوى بين الشخصية (وبين القيمة التثبوية

الاجتماعية) للفرد . فاستجابة الآخرين للفرد هي التي تحدد شخصيته . وقد يذهب المرء الى حد القول أن الفرد لا يمتلك شخصية عدا تلك التي تعطيها استجابة الآخرين . ويعترض أولبورت بشدة على ما يتضمنه ذلك من أن الشخصية تستقر فحسب في « استجابة الآخر » ، وهو يرى أنه من الأفضل كثيرا الأخذ بالتعريف « الحيوى الفيزيقي » الذى يرسى جذور الشخصية بقوة الخصائص أو الكيفيات التي تميز الفرد وحسب هذا التعريف الأخير أن تمييز الشخصية بجوانب عضوى كما تتميز بجانب مدرك ، ويمكن ربطها بالخصائص الكيفية النوعية للفرد ، والتي تقبل الوصف الموضوعى والقياس .

وهناك نمط آخر هام من التعريف هو « **حقيبة الحرق أو التعريف الجاهع** » وهذا التعريف يحيط بالشخصية عن طريق العد . فيستخدم اصطلاح الشخصية هنا ليشتمل كل شيء يتصل بالفرد ، وعادة ما يدرج صاحب النظرية المفهومات التي يعتبرها ذات أهمية أولية في وصف الفرد والتي يرى أن الشخصية تتكون منها . وهناك تعريفات أخرى تهتم أساسا بالوظيفة التكاملية أو التنظيمية للشخصية . ومثل هذه التعريفات ترى أن الشخصية هي التنظيم أو النمط الذى يخلق على هذه الضروب الجزئية والمتباينة من سلوك الفرد ، أو أن التنظيم نتاج للشخصية التي هي قوة ايجابية فعالة في الفرد . ان الشخصية هي ذلك الذى يعطى تألفا ونظاما لجميع الأشكال المختلفة من السلوك الذى يمارسه الفرد ان عددا من أصحاب النظريات قد اختاروا تأكيد وظيفة الشخصية بوصفها وسيطا في توافق الفرد فالشخصية تتكون من الجهود التي يبذلها الفرد في التوافق وهي جهود متباينة وان كانت مميزة . وثمة تعريفات أخرى ترى الشخصية مرادفا للجوانب **الفريدة** أو الفردية من السلوك . وبهذا المعنى تصبح اصطلاحا يشير الى تلك الأشياء التي يتصف بها الفرد والتي تميزه وتفرق بينه وبين بقية الأشخاص . وأخيرا ، يعتبر النظريون أن الشخصية تمثل **جوهر** الانسان . وترى هذه التعريفات أن الشخصية تشير الى ذلك الجانب من الفرد الذى يمثل أكثر من بقية الجوانب الأخرى ، ليس لأنه الجانب الذى يفرق بينه وبين الأشخاص الآخرين فحسب . ولكن أهم من ذلك ، لأنه هو ما يكون عليه المرء في حقيقته . ويتمثل هذا النوع من التعريف فيما يراه أولبورت من أن « **الشخصية هي ما يكون عليه الانسان في حقيقته** » ومقتضى ذلك أن الشخصية تتكون في نهاية الأمر من أكثر الأشياء تمثيلا وأعمقا تمييزا للشخص .

اننا نستطيع أن نتفق مزيدا من الوقت المثر في تناول مشكلة تعريف الشخصية لولا أن القارىء سوف يجد في الفصول التالية تعريفات كثيرة مفصلة للشخصية في سياقها الطبيعي . فضلا عن ذلك ، فاننا نمتد أنه لا يوجد تعريف بالماهية Substantivo للشخصية يمكن تطبيقه بأي درجة من العمومية ، وتعنى بهذا ببساطة ، أن الطريقة التي يعرف بها فرد معين الشخصية سوف تعتمد كلية على تفضيله النظرى الخاص .

فمثلا اذا كانت النظرية تؤكد تأكيدا كبيرا الكيفيات الفريدة والمنظمة والموحدة للسلوك ، فمن الطبيعي أن يتضمن تعريف الشخصية .

التفرد والتنظيم بوصفهما خصائص هامة فى الشخصية : ان الشخص ما ان يبتكر نظرية معينة فى الشخصية أو يتبناها فان تعريفه للشخصية سيعكس بدرجة واضحة هذه النظرية . وهكذا ، فنحن نقر بأن « الشخصية تعرف بواسطة المفهومات التجريبية الجزئية التي هي جزء من نظرية الشخصية التي يستخدمها الملاحظ » ان الشخصية تتكون عيانا من مجموعة من القيم أو الحدود الوصفية descriptive terms التي تستخدم في وصف الفرد موضوع الدراسة بحسب المتغيرات أو الأبعاد التي تحتل مكانا مركزيا داخل النظرية المعنية المستخدمة .

فاذا بدا هذا التعريف غير مقبول من القارىء ، فليكن عزاءه أنه سيلتقى في الصفحات التالية بعدد من التعريفات النوعية قد يصبح أى منها تعريفه هو ، اذا اختار أن يتبنى هذه النظرية المعنية . بعبارة أخرى، ان ما قلناه هو أنه من المستحيل أن تعرف الشخصية دون الوصول الى اتفاق حول الاطار المرجعي النظرى الذى سينظر الى الشخصية من خلاله .

وإذا كنا سنحاول الوصول الى تعريف فعلى واحد الآن، فان ذلك سيتضمن حسمنا لكثير من الأمور النظرية التي يهدف هذا الكتاب الى ارتيادها .

ماهى النظرية ؟

اذا كان كل فرد يعرف تماما ما تتكون الشخصية ، فان كل فرد يعرف كذلك تماما ما هى النظرية .

ان اكثر المفهومات شيوعا هو أن النظرية توجد فى مقابل الحقيقة . فالنظرية فرض لم يتأيد بعد ، أو تأمل حول الواقع ، لم يتأكد بعد

بصورة تقطع بصحته . وعندما تتأيد النظرية تصبح حقيقة . وثمة قدر من الاتفاق بين هذه النظرية وبين الاستخدام الذى سنأخذ به هنا ، اذ انه من المتفق عليه أن النظريات لا تعرف صحتها . وثمة قدر من الاختلاف كذلك فيما يتعلق بالنظرة الشائعة التى ترى أن النظرية صادقة او حقيقة عندما تجمع البيانات المناسبة واذا كانت هذه البيانات مؤيدة لها . ونحن نرى أن النظريات لا يمكن أن تكون صادقة أو خاطئة ، وان كانت مشتقاتها أو متضمناتها يمكن أن تكون كذلك .

وتمثل الفقرات التالية تلخيصا تقليديا - نسبيا - لتفكير الإحصائيين فى مناهج البحث أو مناطق العلوم . وليس ثمة اتفاق كامل بحال ، بخصوص جميع الموضوعات المثارة الا أن وجهة النظر المعروضة ، يقصد بها أن تكون متوالية ، وان كنا نعتزف أنها متأثرة اشد التأثير بتعاليم الوضعية المنطقية . وقد يجد الطالب المبتدئ قدرا ضئيلا من الصعوبة فى أن يفهم فهما كاملا بعض هذه الأفكار ، كما أنه من الانصاف أن نشير الى أن فهمها ليس ضروريا لقراءة وفهم بقية هذا المجلد . واذا كان من ناحية أخرى ، شديد الاهتمام بهذا المجال ، فانه لم يستغرق بعد فى هذا الجانب من الدراسة العلمية ، فقد يحسن الطالب اذا هو أحاط نفسه علما بمناهج البحث بعمق أكثر وأشمل مما يأمل أن يحققه من هذا الجزء الموجز . وهناك عدد من المصادر الممتازة التى تقدم معالجة مفصلة لهذه الموضوعات (كوهن وناجل ١٩٣٤ ، كونانت ، ١٩٤٧ ، فيجل وبيرووديك ١٩٥٣ ، فيجل وسلزر ١٩٤٩ ، فرانك ١٩٤٩ ، وهبيل ، ١٩٥٢) .

ولنبدا بمناقشة ما هى النظرية ، ثم نخرج بعد ذلك على المشكلة التى هى أكثر أهمية وهى : ماهى وظائف النظرية . نبدا فنقول أن النظرية « مجموعة من التواضعات » خلقها صاحب النظرية . ان اعتبار النظرية « مجموعة من التواضعات » يؤكد ان النظريات فى الحقيقة لا تعطىها الطبيعة أو تحددها سلفا البيانات ، أو أى عملية أخرى محددة فكما تؤدي نفس الحبرات أو الملاحظات بالشاعر أو القصصى الى خلق أى من الأشكال الفنية العديدة المتباينة ، يمكن بالمثل لبيانات البحث أن تدخل فى العديد من المخططات النظرية المختلفة والتى لا عدد لها . ان النظرى عندما يختار اختيارا معيناً ليمثل الوقائع التى يهتم بها ، يمارس اختيارا خلافا حرا يختلف فقط عما يمارسه الفنان فى أنواع الأدلة التى يركز عليها ، والأسس التى سيحكم بها على قيمته وجدواه . اننا نؤكد هنا بطريقة

الخلاقة والتعسفية كذلك ، التي تبنى بهما النظريات ويقودنا هذا - بصورة طبيعية - الى ملاحظة أننا نستطيع أن نحدد كيف يمكن تقويم نظرية أو تقديرها ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد كيف يجب بناء النظرية . فليس هناك ثمة صيغة لبناء النظرية المثمرة أكثر من أن يكون هناك صيغة للاسهام بعمل أدبي باق .

ان حقيقة أن النظرية اختيار تقليدى متواضع عليه ، وليست شيئا لا مفر منه أو تلميه العلاقات التجريبية المصروفة ، يؤكد أن نسبة خصائص كالصدق أو الخطأ الى النظرية ، أمر غير موفق . ان النظرية اما أن تكون مفيدة أو غير مفيدة فقط ويحدد ذلك أساسا - كما - سوف نرى - طبقا لمدى كفاءة النظرية فى توليد التنبؤات أو القضايا المتعلقة بالوقائع الهامة ، والتي يثبت التحقق منها (أى الصادقة) .

ولنحاول أن نكون أكثر تحديدا فيما يتعلق بماهية النظرية . ما هو بالضبط ذلك الذى تتكون منه النظرية فى شكلها المثالى ؟ يجب أن تتضمن النظرية مجموعة من الفروض ذات الصلة بموضوعها - يرتبط بعضها ببعض الآخر ارتباطا منظما ، كما يجب أن تتضمن مجموعة من التعريفات التجريبية !

والفروض يجب أن تكون ذات صلة ، بمعنى أنها تتصل بالوقائع التجريبية التى تهتم بها النظرية . فاذا كانت النظرية للسمع يجب أن تكون للفروض صلة بعملية السمع نفسها وإذا كانت نظرية للادراك فيجب أن تكون للفروض صلة بعملية الادراك . وعادة ما تمثل طبيعة هذه الفروض الخصائص الكيفية المميزة للنظرية . فالنظرى الممتاز هو الشخص الذى يستطيع أن يستخلص فروضا مفيدة أو تنبئية تتصل بالوقائع التجريبية فى مجاله . ويتوقف على طبيعة النظرية احتمال أن هذه الفروض عامة للغاية أم نوعية الى حد ما . فقد يختار النظرى السلوكى أن يفترض أن جميع أنواع السلوك مدفوع ، وأن الأحداث التى تقع فى الطفولة المبكرة أكثر محددات السلوك فى الرشد أهمية وأن سلوك الأنواع الحيوانية المختلفة تحكمه نفس المبادئ العامة ، كما قد يفترض أن القلق المتزايد يؤدي الى تناقص الأداء الحركى أو أن متغيرا معيناً يتوزع توزيعاً اعتدالياً فى جماعة معينة . كما قد تختلف هذه الفروض من حيث الشكل ، ابتداء من دقة الصياغة الرياضية الى الافتقار النسبى الى الدقة والذى يتمثل فى معظم الفروض التى سقناها على سبيل التمثيل .

ويجب ألا تقرر الفروض بوضوح فحسب ، بل يجب كذلك الربط بين الفروض والعناصر داخل النظرية ، ربطا سافرا واقامة الصلة بينها أى انه يجب أن تكون هناك قواعد للتفاعل المنظم بين الفروض ، ويجب ، لكى يتوفر للنظرية التناسق المنطقى ، ولكى تسمح بعملية الاشتقاق ، أن تكون هذه العلاقات الداخلية واضحة وبدون هذا التحديد النوعى يصبح من الصعب أو المستحيل استخلاص نتائج تجريبية من النظرية . وبسبب تشابه هذه القواعد بقواعد النحو يشار إليها أحيانا باسم «نحو» Syntax النظرية ، أو قواعد البناء . وقد سبق أن افترضنا أن المرء يستطيع أن يختار أن يفترض ان ازدياد القلق سيؤدى الى انخفاض الأداء الحركى . ويمكن بالاضافة الى ذلك أن يفترض أن ازدياد تقدير الذات سيؤدى الى تحسن فى الأداء الحركى . واذا لم نعرف شيئا أكثر من ذلك فان العلاقة بين هذين الفرضين ستكون ، كما هو واضح ، غير محددة ، اذ اننا نحتاج الى معرفة شيء عن العلاقة بين القلق وتقدير الذات قبل أن نستطيع القيام باى تنبؤ بما يمكن أن يحدث فى ظل ظروف يدخل فيها المتغيران . ان الصياغة الكافية للفروض النظرية يجب أن تزود مستخدم النظرية بتحديد واضح للعلاقة بين هذين الفرضين .

ان التعريفات التجريبية (التعريفات التنسيقية) تسمح بقدر - يزيد أو يقل - من التفاعل الدقيق بين حدود أو مفهومات معينة داخل النظرية ، بين المادة التجريبية . وهكذا تصل النظرية بوساطة هذه التعريفات فى مناطق معينة محددة سلفا ، الى اتصال محدد بالواقع أو بمادة الملاحظة . وكثيرا ما تسمى هذه التعريفات بالتعريفات الاجرائية اذ أنها تحاول أن تحدد العمليات التى يمكن بها قياس المتغيرات أو المفهومات الهامة . ان الاهتمام بالتعريفات التجريبية سمة أو علامة على الرغبة فى البحث ، كما أن من الأسلم أن نقول : أنه اذا كانت النظرية ستسهم فى نهاية الأمر فى علم تجريبى فلا بد أن تتوفر لها طريقة للترجة التجريبية . ومن ناحية أخرى ، يجب أن يكون واضحا أن هذه التعريفات توجد على متصل يمتد من التحديد الكامل والدقيق الى الزام الصامة للغاية والكيفية . وبالرغم من أنه كلما كانت الدقة أكثر كان ذلك أفضل، فان الاصدار المبكر على التحديد الكامل يمكن أن يحطم مسارات كثيرة مشرة للبحث .

فتعريف الذكاء ببساطة بأنه « ما تقيسه اختبارات الذكاء » أو مساواة القلق ببعض المتغيرات الفسيولوجية فقط، كما يقيسها الجلفانومتر،

قد يكون دقيقا ، الا أنه يبدو أن كلا التعريفين وحدهما لا يحتمل أن يؤدي إلى فكر مثمر أو إلى بحث . ان الاتجاه المناسب إزاء التعريفات التجريبية هو أن تكون دقيقة بقدر ماتسمح به الظروف الراهنة داخل مجال لدراسة المعنى .

لقد تبينا الآن - بصورة عامة ، ما الذى تتكون منه النظرية - والسؤال التالى هو، ما الذى تفعله النظرية؟ ان أزل ماتفعله وأكثره أهمية هو أنها تؤدي إلى جمع أو ملاحظة علاقات تجريبية ذات صلة أو ذات أهمية لم تلاحظ بعد . ويجب أن تؤدي النظرية إلى اتساع منظم للمعرفة المتصلة بالظواهر ذات الأهمية، وهذا الاتساع يجب، مثاليا ، أن يكون الوسيط إليه أو المثير المحرك له قضايا تجريبية نوعية مشتقة من النظرية (أى فروض النظرية أو ما تقرره أو ما تتنبأ به) ، وأن تكون خاضعة للاختبار التجريبي . وبمعنى أساسى ، ان جوهر أى علم يكمن فى اكتشاف علاقات تجريبية ثابتة بين الوقائع أو المتغيرات . ووظيفة النظرية أن تدفع خطى هذه العملية بطريقة منظمة . ويمكن النظر إلى النظرية وكأنها طاحون لافراز القضايا أو الفروض ، تطحن الفروض التجريبية المتصلة بعضها ببعض ، والتى يمكن اذ ذاك اما قبولها أو رفضها ، على ضوء المادة التجريبية المحكمة الضبط . ان المشتقات أو الفروض أو الأفكار المستمدة من النظرية هى وحدها التى يمكن اختبارها تجريبيا . أما النظرية نفسها فهى تفترض ويتحدد قبولها أو رفضها بمقدار نفعيتها utility ، وليس طبقا لصدقها أو خطئها . وبهذا المعنى يصبح لهذه النفعية مكونان - **القابلية للتيقن من الصلح** ، و**الشمول** . وتشير القابلية للتيقن من الصلح إلى قدرة النظرية على توليد التنبؤات التى تتأيد عندما تجمع المعلومات التجريبية المتصلة بها . أما الشمول فيشير إلى مدى هذه المشتقات أو اكتمالها . وقد توجد لدينا نظرية ولدت نتائج كثيرا ما تأيدت ، الا أنها تتناول جوانب قليلة فقط للظواهر ذات الأهمية ويجب على النظرية من الناحية المثالية أن تؤدي إلى تنبؤات دقيقة تتناول بصفة عامة جدا أو شاملة ، الوقائع التجريبية التى تهدف النظرية إلى الاحاطة بها .

ومن المهم أن نفرق بين ما يمكن تسميته التوليد المنظم والتوليد الاستكشافى الموجه heuristic للبحوث . ومن الواضح أنه فى الحالة المثالية تسمح النظرية باشتقاق فروض نوعية قابلة للاختبار ، وهذه بدورها تؤدي إلى دراسات تجريبية نوعية . الا أنه من الواضح كذلك ان كثيرا من النظريات مثل نظرية فرويد ونظرية داروين كان لهما تأثير عظيم

على مسارات البحث دون وساطة القضايا أو الفروض الواضحة . ان هذه المقدرة من جانب النظرية على توليد البحوث ، عن طريق الإيحاء بالأفكار ، أو حتى عن طريق إثارة عدم الايمان والموازنة يمكن الإشارة إليها بوصفها التأثير الاستكشافي الموجه الصادر عن النظرية . وكلا النمطين من التأثير لهما أهمية أكبر ، كما أنهما في المرحلة الراحنة من النمو في علم النفس يستحقان تقديرا متساويا .

والوظيفة الثانية التي يجب على النظرية أن تخدمها هي أن تسمح **بإدخال النتائج التجريبية المعروفة** في اطار يتسم بالتناسق المنطقي والبساطة المعقولة . ان النظرية وسيلة لتنظيم وتكامل كل ما هو معروف عن مجموعة متصلة من الوقائع . فالنظرية الكافية للسلوك الذهاني يجب أن تكون قادرة على تنظيم كل ما هو معروف عن الغصام وغيره من أشكال الذهان في اطار مفهوم ومنطقي . كما أن نظرية التعلم الكافية يجب أن تتضمن بطريقة متناسقة جميع النتائج الموثوق بها والتي تتناول عملية التعلم ان النظريات تبدأ دائما بذلك الذي تمت ملاحظته وتقريره ، وبهذا المعنى تبدأ بمرحلة استقرائية مسترشدة بما هو معروف والى حد ما محكومة به . على أنه اذا كانت النظريات لا تفعل أكثر من أن تنظم وأن تتسق بين ما هو معروف في الحاضر ، فان الوظيفة التي تخدمها تكون وظيفة ثانوية . وفي مثل هذه الظروف فان الباحث العنيد المتأثر يحق له الاعتقاد بأن النظريات مجرد كساء لفظي سطحي، على حين يقوم هو بالعمل العلمي الحقيقي . ان التجريبي الذي يصر على أن النظريات تبريرات تالية على الحقائق ، لما سبق أن ذكره الباحث يخفق في تقدير الوظيفة الرئيسية للنظرية ، وهي ايضاح العلاقات الجديدة التي لم يسبق ملاحظتها . ان حسب النظرية يختبر قبل الحقيقة وليس بعدها .

ان البساطة أو كما تسمى أحيانا الاقتصاد أمر له أهميته هو الآخر، لكنه يأتي بعد اقرار ما يتعلق بالشمول والقابلية للتحقق من الصدق . انه يصبح قضية فقط في ظروف تولد فيها نظريتان نفس النتائج تماما . ولكن طالما اختلفت النظريات من حيث ما يمكن استخلاصه منها من مشتقات تتناول نفس الوقائع التجريبية ، فان اختيار النظرية يجب أن يقرر من حيث مدى اختلاف هذه التنبؤات عند التحقق من صدقها . وهكذا فعندما تكون بإزاء تشابه في النظريات – أي بإزاء نظريتين تصلان الى نفس الاستنتاجات من حدود مختلفة – تصبح البساطة أمرا هاما . ويكفي أن نقول ان هناك أمثلة قليلة لمثل هذه الحالة في العلم على حين لا يوجد شيء من

هذا القبيل اطلاقا - فى حدود ما نعلم - فى علم النفس . ان البساطة فى مقابل التعقيد تصبح من ثم مسألة قيمة شخصية او تفضيلا فى تنظيم الشخصية ، أكثر منها صفة تستوجب بالضرورة التقدير او البحث عنها .

وهناك وظيفة أخرى يجب أن تخدمها النظرية وهى **الحيلولة دون انبهار الباحث تحت وطأة التعقيد البالغ للوقائع الطبيعية او الصائية** . ان النظرية أشبه بمجموعة من « الغمليات » تخبر من يرتديها أنه ليس من الضرورى بالنسبة له أن يشغل باله بجميع جوانب الواقعة التى يدرسها . ان أى واقعة سلوكية على قدر معقول من التعقيد تتيح للملاحظ غير المدرب طرقا مختلفة لا حصر لها لمختلف احتمالات التحليل والوصف للواقعة ، وذلك فى الحقيقة أمر ممكن . وتسمح النظرية للملاحظ القيام بالتجريد من التعقيد الطبيعى بطريقة تتسم بالكفاية والتنظيم . ولا شك ان الباحث يقول بالتجريد والتبسيط سواء استخدم نظرية أم لا . ولكنه ان لم يسترشد بالمخطوط الهادية لنظرية واضحة فان المبادئ المحددة لنظريته ستختفى فى فروض ضمنية واتجاهات لا يفتن إليها . ان النظرية تحدد لمستخدمها عددا محددا من الأبعاد التى قد يختلف مدى تحديدها ، ومن المتغيرات او المقاييس ذات الأهمية الحاسمة . أما الجوانب الأخرى من الموقف فيمكن الى مدى معين تجاهلها من وجهة نظر هذه المشكلة . ان النظرية المفيدة تفضل تعليمات على درجة من الوضوح ، فيما يتعلق بأنواع البيانات التى يجب جمعها فيما يتعلق بمشكلة معينة . ونتيجة ذلك ، وهو ما يمكن توقعه ، يمكن أن يقوم أفراد يحتلون أوضاع نظرية شديدة الاختلاف بدراسة نفس الواقعة التجريبية مع اشتراكهم فى القليل من أساليب الملاحظة العامة .

نظرية الشخصية

لقد اتفقنا على أن الشخصية تعرف بالمفاهيم النوعية المتضمنة فى نظرية معينة تعتبر كافية للوصف الكامل أو لفهم السلوك الانسانى . كما اتفقنا كذلك على أن النظرية تتكون من مجموعة من الفروض المرتبطة، المتعلقة بالظواهر التجريبية المعنية ، والتعريفات التجريبية التى تسمح لمستخدمها بالانتقال من النظرية المجردة الى الملاحظة التجريبية . ويتضمن

الجمع البسيط أن نظرية الشخصية يجب أن تكون مجموعة من الفروض تتصل بالسلوك الانساني بالإضافة الى التعريفات التجريبية الضرورية .
وتتطلب النظرية بالإضافة الى ذلك أن تكون النظرية شاملة نسبيا .
ويجب أن تكون مستعمدة لمواجهة ، أو لاصدار التنبؤات بخصوص نطاق واسع من السلوك الانساني . والحقيقة أن النظرية يجب أن تكون مستعمدة لمواجهة أى ظاهرة سلوكية يمكن أن تتضح دلالتها بالنسبة للفرد .

ان كل ما قلناه حتى هذه اللحظة صادق شكليا ، غير انه لا يستطيع الصمود اذا ما فحصنا عن قرب نظريات الشخصية الراهنة . ان قيمة مناقشاتنا هي في تعيين الحواص التي يطمح جميع أصحاب النظريات الى بلوغها ، كما أنها تزودنا بفكرة ما عما يجب أن تكون عليه نظريات الشخصية في نهاية الأمر . ومن الواضح بالرغم من ذلك ، أنها لا تبدو كذلك في وقتنا هذا ولا بد من أن نقول كلمة حول كيفية اخفاؤها في الوصول الى ما يشبه أن يكون مثاليا وذلك فيما يتعلق بالبناء والوظيفة .
معا .

اولا ، تفتقر معظم النظريات كما سوف نرى ، الى الوضوح . ومن الصعوبة بمركان عموما ، الوصول الى الفروض او الى الأساس البدهي لهذه النظريات . ان نظريات الشخصية كثيرا ما تغلف في كتلة ضخمة من الصور اللفظية الحية التي قد تعمل جيدا بوصفها وسيلة لاقتناع القارىء المتردد ، ولكنها كثيرا ما تعمل على تغطية واخفاء الافتراضات النوعية التي تكمن وراء النظرية بعبارة أخرى لا تعرض معظم النظريات بطريقة مباشرة ومنظمة ، كما أن الكثير منها يبدو أكثر اتجاها نحو الاقناع منه نحو العرض .

ويرتبط بهذا الافتقار الى التحديد خلط ، يتكرر بين ماهو معطى أو مفترض وبين ماهو مقرر على أساس تجريبي وقابل للاختبار . وكما سبق أن اتفقنا ، فإن المشتقات أو التنبؤات التي تولدها النظرية هي وحدها القابلة للاختبار التجريبي . أما بقية النظرية فانه يفترض أو يعطى ولا يجب الحكم عليه على أساس من الاثبات أو النفي ، بل يحكم عليه طبقا لنجاحه في توليد فروض أو قضايا محققة . وبصفة عامة ، فإن التفرقة التي يجب أن تحتفظ بها بين نظرية الشخصية ذاتها وبين متضمناتها أو مشتقاتها تفرقة بالغة الضعف والوهن .

والنتيجة التي لا مفر منها للافتقار الى الوضوح فيما يتعلق بطبيعة الافتراضات التي تقوم عليها النظرية ، هي وجود الخلط الخطير في عملية اشتقاق التقريرات التجريبية من النظرية . لذلك فانه من المحتمل ، ان يصل افراد مختلفون يستخدمون نفس النظرية الى مشتقات متعارضة . والحقيقة ان عملية الاشتقاق في معظم نظريات الشخصية تحدث كيفما اتفق ، كما انها غامضة تفتقر الى الكفاية . ولا يعكس ذلك افتقار هذه النظريات الى الوضوح فحسب بل يعكس ايضا حقيقة وهي ان معظم اصحاب نظريات الشخصية قد اتجهوا نحو التفسيرات التالية على الحقائق بدلا من الاتجاه نحو توليد التنبؤات الجديدة المتعلقة بالسلوك . واخيرا ، فانه من الواضح انه بالرغم من ان نظريات الشخصية تختلف في مبلغ حرصها على تحديد التعريفات التجريبية ، فان نظرية واحدة منها لم تبلغ مستوى رفيعا بصورة مطلقة .

ان الاحكام التي انتهينا الآن منها فيما يتعلق بالمكانة الشكلية لنظريات الشخصية قد تبدو مثبطة لنهم الى حد كبير مما قد يستوجب التخلي عن محاولات بناء مثل هذه النظريات في الوقت الراهن . اذ ليس من الحير ان ننسى في الوقت الحاضر هذه النظريات وأن نركز على الأدوات التجريبية والنتائج التجريبية الجزئية . بالتأكيد لا ! فمثل هذا القرار لا يتضمن التخلي عن نظرية تفتقر الى الكفاية من أجل « لا نظرية » بل انه يتضمن احلال النظرية الضمنية أو المضمرة محل النظرية الواضحة أو المعلنة . فليس هناك شيء مثل « لا نظرية » ، وتبعا لذلك فانه في اللحظة التي نحاول فيها أن ننسى النظرية « في الوقت الراهن » ، فإننا في الحقيقة نستخدم افتراضات مضمرة تحدها عوامل شخصية ، وربما تكون متضاربة ، فيما يتعلق بالسلوك ، وهذه الافتراضات غير المعينة ستحدد ما سوف يدرس وكيفية دراسته . ان ملاحظة أن واقعة عيانية تجريبية تمليها « نظرية » ، ما ، أى أن أشياء بعينها تحظى بالانتباه وأشياء أخرى تقابل بالتغاضي ، وأحد أهداف التنظير هو أن توضح بصورة صريحة القواعد التي تحدد عملية التجريد هذه . ان امكان ادخال التحسينات على الافتراضات التي تتحكم في البحث ، تنتهي في اللحظة التي يتخلى فيها المرء عن محاولة تحديد الأساس النظري الذي يعمل منه .

وبالرغم مما قد تكون عليه نظريات الشخصية من جذب بالموازنة الى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه ، فانها لا تزال تمثل خطوة كبيرة الى الامام بالموازنة الى تفكير الواقعي الساذج الذي يعتقد انه يحيط بالواقع

أو أنه ينظر اليه بالطريقة الوحيدة التي يمكن النظر اليه من خلالها . وبالرغم من أن نظريات الشخصية ليست من الواضح بالقدر الذي قد يرغب المرء فيه ، فإن مجرد وجودها يجعل من الممكن العمل من أجل هذا الهدف بطريقة منظمة . والحقيقة أنه من الواضح أن الحالة الراهنة لنظرية الشخصية تمثل تحسنا مرموقا بالقياس الى مكانتها الشكلية منذ عشرين عاما خلت .

وإذا سلمنا بأن نظريات الشخصية لاتسمح بعملية اشتقاق واضحة بالقدر الذي قد نرغب فيه ، فما هي اذن الوظائف التي تؤديها للشخص الذي يستخدمها ؟ انها تمثل على الأقل تجمعا للاتجاهات (الافتراضات) المتصلة بالسلوك ، والتي تحدد بطريقة واسعة ، أنواع البحوث التي تعتبر مهمة أو حاسمة . فالنظريات بالاضافة الى استثارة أنواع عامة معينة من البحوث ، تزودنا بمقاييس أو أبعاد معينة تعتبر ذات أهمية في الكشف عن هذه المشاكل . وهكذا ، فانه حتى اذا لم تقدم النظرية فروضا دقيقة للاختبار ، فانها توجه صاحب النظرية الى مجالات معينة للمشاكل وتبين له أن متغيرات معينة لها أهمية مركزية في دراسة هذه المشاكل . هذا بالاضافة الى القيمة الاستكشافية الموجهة لهذه النظريات والتي تستأهل الاعتبار . ونظريات الشخصية ، اذا نظرنا اليها في مجموعها ، لها قدرة كبيرة على الاثار ، فقد أدت ، كما سنتبين ذلك ، الى كميات كبيرة من البحوث ، وان كان القليل منها نسبيا نتيجة عملية اشتقاق شكلية . بعبارة أخرى . لقد نتج عن قدرة هذه النظريات على توليد الأفكار واستثارة حب الاسطلاع ، وتحريك الشكوك أو على توليد الاقناع ، نتج عن ذلك ازدهار صحي للبحوث ، بالرغم من افتقارها الى الدقة الشكلية .

نظريات الشخصية والنظريات السيكولوجية الأخرى

لقد قادنا نقاشنا الى حد بعيد الى استنتاج مؤداه أن نظرية الشخصية يجب أن تتكون من مجموعة من الافتراضات الخاصة بالسلوك الانساني ، بالاضافة الى القواعد الخاصة بالربط بين هذه الافتراضات والتعريفات بما يسمح بتفاعلها مع الواقع لتجريبية أو القابلة للملاحظة.

وفي هذا الصدد قد يبرز تساؤل معقول هل : هذا التعريف يفرق
بأية طريقة بين نظريات الشخصية وغيرها من النظريات السيكولوجية .
وقد يساعدنا في الاجابة على هذا السؤال أن نبدأ بالترفة بين نوعين من
النظريات السيكولوجية .

فمن الواضح أن نظريات سيكولوجية معينة تبدو قادرة على تناول
أى واقعة سلوكية يمكن أن يبدو أن لها وزنا في توافق الكائن البشرى .
وتقتصر نظريات أخرى بصورة نوعية على السلوك الذى يحدث فى ظروف
تحدد سلفا تحديدا دقيقا . وهذه النظريات تعترف باقتصار اهتمامها على
جوانب محدودة فقط من السلوك الانسانى . ان النظريات التى تحاول
تناول جميع الظواهر السيكولوجية التى تظهر أهميتها ، يمكن الإشارة
اليها بوصفها نظرية عامة فى السلوك ، فى حين تسمى النظريات التى تتركز
على فئات معينة من الوقائع السلوكية نظريات ذات مجال واحد .

ومن الواضح أن نظريات الشخصية تندرج ضمن الفئة الأولى ،
فهي نظريات عامة فى السلوك . وهذه الملاحظة البسيطة تقيّد فى الفصل
بين نظرية الشخصية وبقية النظريات السيكولوجية الأخرى . فنظريات
الادراك ، والسمع ، والذاكرة الصماء والتعلم الحركى ، والتمييز وغير
ذلك كثير من النظريات الخاصة فى علم النفس هى نظريات ذات مجال
واحد ويمكن التفرقة بينها وبين نظريات الشخصية على أساس من المدى
أو الشمول . وهى لاتدعى أنها نظريات عامة فى السلوك . وتقنع بتطوير
المفاهيم المناسبة للوصف والتنبؤ بمجال محدود من الوقائع السلوكية .
أما نظريات الشخصية ، فى عمومها ، فقد قبلت بصفة عامة التحدى ،
وتصدت لتفسير وتضمين وقائع ذات طبيعة بالغة التباين مادامت تتضمن
وزنا وظيفيا واضحا للفرد .

ويظل السؤال قائما هل : هناك نظريات غير عامة فى السلوك
لا تعتبر عادة نظريات شخصية . ان أحد الاحتمالات هو أن ما يسمى
عادة نظرية فى الدوافع يمكن أن يكون نظرية عامة فى السلوك ، ومع
ذلك تبقى متميزة عن نظرية الشخصية . والحقيقة أنه طالما أن النظرية
تتناول الصلية الدافعية دون غيرها ، فهى ليست نظرية عامة ، وان كان
حا يشار اليه فى المادة بوصفه نظريات للدافعية ، هى فى الحقيقة نظريات

فى الشخصية كذلك ، مثال ذلك ، التحليل النفسى وعلم النفس الفرضى ، ونظرية موراي . وكما سنكتشف ، يحتل الجزء الدافعى من نظريات الشخصية أهمية مركزية فى هذه النظريات . وعلى هذا ، فإذا كانت النظرية تتناول الدافعية فقط ، فهى نظرية ذات مجال واحد ، أما إذا كانت أكثر شمولاً فهى ببساطة نمط من أنماط نظريات الشخصية .

والاحتمال الثانى هو أن نظرية التعلم قد تكون فى بعض الحالات على درجة كافية من التعميم بحيث تكون نظرية عامة فى السلوك . وهذه هى الحالة بوضوح ، وسوف نرى بالتفصيل فيما بعد ، أن عدداً من أصحاب النظريات قد حاول تعميم نظريات التعلم بحيث يمكن مقارنتها من حيث الشمول بأى نظرية عامة أخرى فى السلوك . وفى مثل هذه الحالات ، إذن لا تصبح نظرية التعلم مجرد نظرية فى التعلم ، بل تصبح نظرية فى الشخصية أو إذا راق الأمر للقارئ - نظرية عامة فى السلوك . صحيح أن مثل هذه النماذج المعممة تتسم بخصائص مميزة معينة تبقى أثراً على أصولها ، إلا أنها من حيث الغاية والخصائص المنطقية لا تختلف عن أى نظرية أخرى فى الشخصية .

إن جميع النظريات التى تدين بأصولها إلى معامل الحيوان ، والنظريات التى تدين بأصولها إلى مكاتب المعالين معاً ، قد يبدو لكثير من الملاحظين أمراً مفتعلاً . ولكن إذا نظرنا إلى النظريات من وجهة مآتهفد إليه ومن حيث بناؤها العام ، بدلاً من النظر إليها من حيث مصدرها أو الافتراضات المفصلة التى تتبناها عن السلوك ، فإنه يتضح لنا أن أى نظرية عامة فى السلوك لا تختلف عن غيرها . وبهذا المعنى تكون جميع النظريات العامة فى السلوك نظريات فى الشخصية ، والعكس بالعكس . ويمكن بالطبع داخل نطاق هذه المجموعة الكبيرة من النظريات ، تبيين فروق كثيرة وسيتناول الجزء التالى عدداً من الخصائص التى يمكن عن طريقها الموازنة أو التفرقة بين نظريات الشخصية بعضها والبعض الآخر . وفى استطاعة المرء أن يحدد مجموعات فرعية عديدة أو تصنيفات على أساس من هذه الأبعاد .

المقارنة بين نظريات الشخصية

من الواضح أنه عندما نتناول بالاختبار هياكل من الصياغة على هذه الدرجة من الكثرة والتعقيد كما هو الحال في نظريات الشخصية ، فإن المرء يصبح بازاء كفيات كثيرة يوازن ويفرق بين النظريات على أساسها وسوف نشير هنا الى عدد قليل فقط من أهم هذه الكفيات التي تصلح أساسا لى تعميمات تبدو فى نهاية الأمر جديرة بالتناول فى موضوع نظرية الشخصية المعاصرة . وتساعد هذه الأبعاد كذلك فى التعرف على المشاكل أو القضايا الرئيسية التي تواجه اليوم أصحاب نظريات الشخصية . ومن الطبيعى أن تنقسم هذه الحصاص الى تلك التي تتصل بأمور تتعلق بالكفاية الشكلية للنظرية وتلك التي تتعلق بطبيعة محتوى هذه النظرية .

الحصاص الشكلية : اننا نهتم هنا بمبلغ كفاءة بناء النظرية من حيث تكوينه وتقديمه . وثمة ملامح تقويمية محددة لكل من هذه الحواص ، اذ يقدم كل منها مثلا ، أعلى ، وكلما اقتربت النظرية من هذا المثل الأعلى كان من الممكن استخدامها بمزيد من الكفاءة .

ان مسألة الوضوح والجله مسألة ذات أهمية فائقة . وهى مبلغ وضوح ودقة عرض الافتراضات والمفهومات الأساسية للنظرية . وفى الحالة المحددة يمكن تقرير النظرية فى اطار من الصياغات الرياضية ، مع تعريف دقيق لجميع المصطلحات عدا الأولى منها ، بحيث يصبح بإمكان الشخص الذى نال تدريبا كافيا أن يستخدم النظرية مع أقل قدر من الغموض أو الإبهام . وفى مثل هذه الظروف سوف يصل أشخاص مختلفون يستخدمون نفس النظرية مستقلا كل منهم عن الآخر ، الى صياغات أو اشتقاقات شديدة التشابه . وفى أقصى الطرف الآخر ، نجد النظريات التي تعرض فى فيض من الأوصاف الحية والمعقدة بحيث يصبح من الصعوبة بمكان على من يستخدم النظرية أن يتيقن مجرد ماهيتها أو طبيعتها . وفى ظل هذه الظروف يصبح الاحتمال ضئيلا أن يصل الأفراد الذين يستخدمون هذه النظرية مستقلا كل منهم عن الآخر ، الى نفس الصياغات أو الاشتقاقات . وسيتضح أثناء تقدمنا فى العرض ، أنه لا توجد نظرية فى الشخصية تقترب كثيرا نحو المثل الأعلى للصياغة أو

التعبير الرياضى • كذلك لازلنا نجد مع الاستخدام المر للوصف اللفظى .
تباينا واسعا بين نظريات الشخصية من حيث وضوح العرض •

وثمة مسألة أخرى هى « الى أى حد ترتبط النظرية بالتظاهرات
التجريبية » ويعيننا هنا أن نتبين الى أى حد تكون التعريفات التى يفترض
أنها تترجم المفاهيم النظرية الى عمليات قياسية واضحة وعملية • فى
أقصى الطرفين نجد النظريات التى تحدد سلفا عمليات على قدر نسبي من
الدقة لقياس أو لتقدير كل من المصطلحات التجريبية فى اطار النظرية •
على حين يبدو صاحب النظرية فى حالات أخرى أنه يفترض أن الاسم الذى
يخلعه على المفهوم هو فى حد ذاته عملية تعريف كافية •

وربما كان هذا هو المكان المناسب لنؤكد مرة أخرى اقتناعنا أن كل
ما يتعلق بالكفاءة الشكلية يتضاهل فى أهميته بجانب مسألة « الأبحاث
التجريبية التى تولدها النظرية » فهما كان غموض النظرية وسوء
تكوينها ، ومهما كان عدم كفاية بنائها وتعريفاتها التجريبية ، فانه اذا
أمكن اظهار تأثير واضح لها فى توليد مجالات هامة للبحث ، فانه يتعين
أن نقرر اجتيازها للاختبار الحاسم بنجاح • ان السؤال الحاسم الذى يفوق
فى أهميته ، والذى تتضاهل بجانبه حقيقة جميع الأسئلة التى تتعلق
بالكفاية الشكلية ، هو مبلغ ما أنتجته النظرية من بحوث • صحيح أنه
ليس من السهل الاتفاق على ما هو البحث الهام ، وبخاصة طالما أن
الأهمية ستحدد الى حد كبير بالوضع النظرى للحكم • وصحيح كذلك
أنه ليس من اليسر دائما أن نقول بالضبط ما هى العملية التى أدت الى
القيام ببحث معين ، وبذا قد يكون من الصعب تقدير الدور التوليدى
للتظرية بالرغم من ذلك فهناك فروق واضحة بين نظريات الشخصية
يمكن ادراكها من حيث مدى ترجمتها الى بحوث ذات أهمية عامة •

خصائص المحتوى : بينما تمثل جميع الخصائص الشكلية التى
وصفناها آنفا ، مستوى معياريا أو قيميا ، يمكن على أساسه موازنة كل
نظرية ، فان الخصائص التالية لا تتضمن مثل هذا التقويم • وهى خصائص
محايدة من حيث ما هو طيب أو ردىء ، اذ تعكس فحسب الافتراضات
المحددة التى تتضمنها النظرية فيما يتعلق بالسلوك •

وتعكس بالطبع الفروق فى المحتوى بين نظريات الشخصية الموضوع
الأساسى الذى يوجد فى الوقت الراهن فى هذا المجال • ولذلك فاننا لن
نحدد فحسب فى الصفحات التالية الأبعاد التى يمكن استخدامها فى

الموازنة بين نظريات الشخصية ، بل اننا سوف نشير كذلك الى الاختبارات الاساسية التي تواجه صاحب النظرية في هذا المجال . اننا نستطيع ان نطلق بكل حق على هذا الجزء اسم « قضايا في نظرية الشخصية الحديثة » .

ان التساؤل : هل من الواجب النظر الى الانسان بوصفه صاحب خواص كيفية غائية او غرضية اقدم من تاريخ علم النفس ذاته وبعض نظريات السلوك تخلق نموذجا للفرد تعتبر فيه العمل من اجل الهدف والغرض والسعى جوانب اساسية ومركزية في سلوك الفرد . وتفترض نظريات اخرى ان العمل من اجل الهدف والسعى جانبان من السلوك ليس لهما أهمية ، وتعتقد هذه النظريات انه من الممكن تفسير السلوك بكفاءة بدون الحاجة الى تأكيد هذه الجوانب . ويعتبر هؤلاء انه العناصر الذاتية في العمل من اجل الهدف وفي السعى ظاهرات ثانوية ، تصاحب السلوك ، لكنها لا تقوم بدور محتم في تحريكه وتوصف بعامة النظريات التي تقلل من شأن الغرض أو الغاية بأنها « ميكانيكية » وان كانت هذه التسمية أصبحت تحمل معنى منفردا ، يصبح غير مرغوب فيه ما دننا في النهاية نتناول ببساطة امورا تتعلق بالاختيار النظري .

وثمة جدال قديم آخر يتعلق بالأهمية النسبية للمحددات «الشعورية» و «اللاشعورية» للسلوك . وهذا الموضوع كان يمكن ان يصاغ في شكله القديم في حدود العقلانية النسبية للانسان في مقابل لا - عقلانيته . ويستخدم اصطلاح اللاشعور هنا ليشير ببساطة الى محددات للسلوك لا يفتن لها الفرد أو لا يكون قادرا على العظنة لها ، الا في ظروف خاصة . وتتراوح نظريات الشخصية بين التي ترفض صراحة أي اعتبار للمحددات اللاشعورية للسلوك ، أو ترفض قبول وجود مثل هذه المحددات وبين النظريات التي تعتبرها أشد محددات السلوك أهمية أو قوة . وتحتل مكانا متوسطا تلك النظريات التي ترغب في اعطاء دور مركزي للمحددات اللاشعورية في سلوك الأفراد المضطربين أو الشواذ ، على حين تذهب الى ان الفرد السوي تحكمه قوى الدوافع الشعورية .

وبالمثل تشكل الأهمية النسبية لذنب المتعة أو « الثواب » أو « الأثر » سؤالا شغل دارسي السلوك الانساني طوال قرون . ففي الصياغيات المبكرة ، كما نجدنا عند اصحاب نظرية المنفعة مثل بنتام Bentham و . ج . س ميل J.S. Mill كان السؤال القائل هو : هل الانسان يدفعه اساسا طلب اللذة وتجنب الألم . أما صورته المعاصرة فهي « قانون

الأثر» . و يقرر هذا القانون ان الاستجابات التي يصاحبها الثواب أو التعزيز هي وحدها التي تبقى أو يتعلمها الفرد . والسؤال في الحالتين يدور حول مبلغ أهمية الثواب أو اللذة بوصفهما محددتين للسلوك . ومرة أخرى نجد أن النظريات تختلف ابتداء من تلك التي يكون الدور الحاسم للثواب فيها هو الافتراض الأساسي ، حتى تلك التي تقلل من أهمية الثواب أو تصنف عمله تحت مبادئ نظرية أخرى .

وكما يضع بعض أصحاب النظريات قانون الاثر في مكان مركزي من نظريتهم ، كذلك يعتبر آخرون أن « مبدأ الارتباط » (الاقتران) له الأهمية الأولى . وهؤلاء يعتبرون أن الترتيب الدقيق المنبه المصاحب للاستجابة أكثر أهمية من الثواب أو الاثر الذي يلي استجابة معينة .

بعبارة أخرى ، ان تزامن وقوع المنبه والاستجابة أو قرب هذا التزامن هو الذي يؤدي الى التعلم ، وليس الثواب أو التعزيز الذي يتبع الاستجابة .

ومن الواضح انه ليس من الضروري أن يستبعد أحد هذين المبدأين الآخر ، وكما سوف نعلم ، فهناك أصحاب نظريات قد أعطوا هذين المبدأين دورا مركزيا في نفس النظرية الواحدة .

وثمة تفرقة أساسية بين نظريات الشخصية تتعلق بمدى ما تناه « عملية التعلم » أو تعديل السلوك من اهتمام مفصل وصریح . فبعض أصحاب نظريات الشخصية يرى في فهم عملية التعلم الطريق الى جميع المظاهر السلوكية ، في حين يرى آخرون أن التعلم مسألة عامة لكنها ثانوية . وبالرغم من أنه لا يوجد من بين أصحاب نظريات الشخصية من ينكر دلالة التعلم ، فاننا مسوف نجد أن البعض منهم يفضل التركيز على المكتسبات ، أو على نواتج التعلم أكثر من التركيز على عملية التعلم ذاتها . وبدا يصبح هذا الموضوع مثار خلاف بين أولئك الذين يهدفون الى تناول عملية التغير أساسا ، وأولئك الذين يبدون أكثر اهتماما بالأبنية الثابتة المستقرة أو مكتسبات الشخصية في وقت معين .

وهناك كذلك موضوع قديم قدم فكر الانسان نفسه وهو موضوع الأهمية النسبية للعوامل التكوينية أو الوراثة في تحديد السلوك . ولا يوجد تقريبا من ينكر أن عوامل الوراثة لها بعض التأثير في السلوك ، ولكن لا زال هنا الكثير من أصحاب نظريات الشخصية يقلل بمسورة

أخاذة من أهميتها ، ويصر على أن جميع الظواهر السلوكية الاساسية يمكن فهمها دون حاجة الى الاستعانة بما هو بيولوجى ووراثى . وفى أمريكا يقلل من دور العوامل الوراثية بعامه ، ويفضل عليها نوع من النظرة البيئية ، ولكن لا يزال هناك تباين كبير فيما يتعلق بمبلغ وضوح الرغبة من جانب أصحاب النظريات فى تناول العوامل التكوينية .

وهناك بعد آخر تكشف نظريات الشخصية عن تباين مرموق بصدده ، وهو الاهمية النسبية للخبرات المبكرة فى النمو . وهذه مسألة تتعلق باحتمال أن النظرية لاترى أهمية استراتيجية وحاسمة فى الوقائع التى تحدث فى فترة الرضاة والطفولة والتي لا تناظرها فى الاهمية الوقائع التى تحدث فى المراحل المتأخرة من النمو .

وسوف نتبين أن بعض النظريات تتضمن أن المفتاح الى سلوك الراشد يوجد فى الوقائع التى تحدث فى باكورة سنوات النمو ، على حين تقرر نظريات أخرى بوضوح أكيد أن السلوك يمكن فهمه وتفسيره عن طريق الوقائع الراهنة أو الجارية وحدها . وتتصل بهذه المسألة مسألة أخرى وهى الى أى حد يعتبر أصحاب النظريات بناء الشخصية ، فى فترة معينة من الزمن ، مستقلا ذاتيا أو متميزا وظيفيا عن الخبرات التى وقعت قبل هذه الفترة .

فالبعض لا يرى فقط أن فهم السلوك على أساس العوامل المعاصرة أمر ممكن ، بل أنه السبيل الوحيد المقبول الى الفهم . على حين يرى آخرون أن الفهم المقبول للحاضر لا بد أن يعتمد دائما بصورة جزئية على بعض المعرفة بالوقائع التى حدثت فى الماضى . وطبيعى أن هؤلاء الذين يؤكدون وجهة النظر المعاصرة مقتنعون بالاستقلال الوظيفى لبناء الشخصية فى أى فترة زمنية معينة ، على حين أن هؤلاء الذين يؤكدون أهمية الماضى أو الخبرات المبكرة أقل اقتناعا بتحرر البناء الحالى واستقلاله عن تأثير الوقائع الماضية .

ويرتبط ارتباطا وثيقا بالموضوع السابق مسألة استمرارية السلوك أو عدم استمراريته فى مختلف مراحل النمو . ان معظم النظريات التى تؤكد عملية التعلم أو أهمية خبرات النمو المبكرة تميل الى النظر الى الفرد بوصفه كائنا عضويا مستمر النمو . والبناء الذى يلاحظ فى لحظة معينة من الزمن يرتبط بطريقة محددة بالبناء والخبرات التى وقعت فى فترة سابقة وتميل نظريات أخرى الى النظر الى الكائن العضوى بوصفه يمر عبر مراحل من

النمو على قدر من الاستقلال النسبي والانفصال الوظيفي عن المراحل المبكرة من النمو ويمكن أن يؤدي وجهة النظر الأخيرة الى بناء نظريات تختلف اختلافا جذريا من حيث سلوك الطفل وسلوك الراشد .

ويكمن اختلاف أساسي بين نظريات الشخصية في مدى تضمينها **هباءى، كلية** . أى ، هل تعتبر هذه النظريات أن التجريد والتحليل أمران مشروعان بحيث يفحص جزء صغير فقط من الفرد في وقت معين أو في دراسة معينة ، ان من يتبنى النظرة الكلية يعتبر أن السلوك لا يصبح مفهوما الا في السياق ، بحيث يجب تناول الشخص الكلى في أدائه لوظيفته بالإضافة الى الجوانب الهامة من بيئته معا وفي آن واحد وذلك اذا كنا نرجو الوصول الى نتيجة مثمرة . على حين تقبل نظريات أخرى الحقيقة القائلة أن طبيعة العلم والبحث ذاتها تستلزم التحليل ، وهذه الاوضاع لا تبسدى عادة انزعاجا خاصا لحرق التكامل الكلى للكائن العضوى والذي قد تؤدي اليه الدراسات الجزئية .

ان هذا التأكيد على كلية الفرد وبيئته يمكن تفريعه الى شكلين على قدر من التمايز . أولهما يشار اليه عادة باسم « **الموقف العضوى أو النظرة العضوية** » وهنا يكون التأكيد بالغا على الصلات الوثيقة التى تربط كل ما يفعله الفرد ، وعلى حقيقة أن كل فعل يقوم به يمكن فهمه فقط على ضوء الخلفية التى تزودنا بها بقية أفعاله الأخرى . وليس هناك فقط اعراب عن أن جميع أشكال السلوك مرتبط بعضها ببعض الآخر ، وغير قابلة لأساليب التحليل ، بل وهناك كذلك اهتمام بالدعامات العضوية للسلوك . ويتبع ذلك ضرورة النظر الى السلوك عن طريق المنظور الذى تقدمه الأفعال الأخرى للفرد ، وكذلك المنظور الذى تقدمه العمليات الفسيولوجية والبيولوجية المصاحبة . ان جميع ضروب سلوك الفرد ووظائفه البيولوجية تكون كلا عضويا لا يفهم اذا درس مجزأ .

أما الوضع الكلى الثانى فيشار اليه عادة باسم « **التأكيد الجالى** » وتهتم النظرية هنا بصفة أساسية بالوحدة التى لا تنقسم بين الفعل السلوكى المعين والسياق البيئى الذى يقع فى داخله . ان محاولة فهم شكل معين من أشكال السلوك دون تحديد مفصل « **للمجال** » الذى يقع فيه ، هى محاولة للفهم تفتقر الى قدر كبير من العوامل الهامة .

فبالرغم من أن السلوك - جزئيا - نتيجة محددات تكمن داخل الفرد ، فان هناك بالمثل قوى ملزمة تؤثر على الشخص من الخارج . وعندما تمثل بيئة الفرد الهامة تمثيلا كاملا فانه حينذاك فقط ، يمكن أن تحظى هذه القوى المؤثرة من خارج الشخص وزنها الحقيقى . ويميل

اصحاب النظريات الذين يؤكدون أهمية « المجال » ميلا قويا الى الاقلال من أهمية العوامل الوراثية ، وبالمثل كذلك الوقائع التي تحدث في النمو المبكر . وليس لذلك من ضرورة منطقية ، الا أن معظم أصحاب النظريات الذين يؤكدون بقوة السياق البيئي للفرد ، يميلون في الواقع الى تأكيد الحاضر أكثر من الماضي ، كما أنهم أكثر اهتماما بما هو « موجود في الحجاج » عما هو كامن داخل الفرد .

ويرتبط بموضوع الكلية موضوع « التفرد » أو الفردية فبعض النظريات تؤكد بشدة حقيقة أن كل فرد ، بل وأن كل فعل في الحقيقة فريد ، وأن أى فعل أو فرد آخر لا يتكرر . وهم يبينون أنه توجد دائما خواص مميزة وهامة تميز سلوك أى شخص فرد عن سلوك جميع الأشخاص الآخرين . وبصفة عامة ، يميل الفرد الذى يتبنى وجهة نظر مجالية أو عضوية الى تأكيد التفرد كذلك . وتلك نتيجة طبيعية للحقيقة التى مؤداها أنه لو أنك وسعت بما فيه الكفاية للسياق الواجب أخذه فى الاعتبار بصدد كل واقعة سلوكية فردية فإن هذه الواقعة ستكشف عن عديد من الوجهات من شأنها أن تكشف عن فروق مميزة بالموازنة بجميع الوقائع الأخرى . وتقبل بعض النظريات حقيقة أن كل فرد فريد ، ولكنها تذهب الى أن هذا التفرد يمكن تفسيره عن طريق الاختلافات فى الصياغة النمطية للمتغيرات المكونة . وترى نظريات أخرى أنه من غير الممكن الموازنة بين الأفراد موازنة مثمرة حتى على أساس متغيرات مشتركة أو عامة ، إذ أنها تحرف وتساء التمثيل لتفرد الفرد . وتختلف نظريات الشخصية ابتداء من تلك التى لا تذكر بصفة خاصة التفرد ، حتى تلك التى يحتل فيها التفرد مكانه بوصفه أكثر الافتراضات مركزية .

وسوف نتبين أن بعض أصحاب نظريات الشخصية قد جعلوا وضعهم النظرى يتركز حول أهمية البيئة **السيكولوجية** أو الاطار المرجعى الذاتى . وقوام ذلك تأكيد أن العالم المادى وأحداثه يمكن أن يؤثر فى الفرد فقط عندما يدركهما أو يخبرهما . وعلى هذا فليس الواقع الموضوعى الذى يعمل كمحتم للسلوك . بل الأخرى أنه الواقع كما يدركه الفرد أو طبقا للمعنى الذى يخلعه عليه . انها البيئة النفسية وليست البيئة التى تحدد الكيفية التى سيستجيب بها الفرد . وعلى عكس ذلك ، هناك مواقف نظرية ترى أن النظرية المحكمة للسلوك لا يمكن بحال اقامتها على الرمال المتحركة من تقرير ذاتى ، أو استنتاجات معقدة لازمة

لاستخلاص « معنى » من الوقائع المادية . وتذهب هذه النظريات الى أن
تقدما أكبر يمكن تحقيقه عن طريق التفاوض الى حد كبير عن الفروق الفردية
فى الكيفية التى تخبر بها نفس الواقعة الموضوعية ، عن طريق التركيز
على العلاقات التى تتضمن وقائع خارجية قابلة للملاحظة .

وهناك تفرقة أخرى بين أصحاب نظريات الشخصية تصل بما
إذا كانوا يجدون من الضرورى ، أو من غير الضرورى تقديم « مفهوم -
الذات » .

فالبعض يرى أن أهم خاصية انسانية مفردة هى نظرة الشخص أو
ادراكه لنفسه ، وعملية النظر الى الذات هذه كثيرا ما ينظر اليها بوصفها
المتفاح الى فهم العديد من الوقائع السلوكية المحيرة التى يعرب
عنها أى شخص مفرد . وهناك نظريات أخرى لا وجود فيها لمثل
هذا المفهوم ، حيث يعتبر أن ادراك الشخص لذاته له دلالة عامة قليلة .

إن أصحاب نظريات الشخصية يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا
فى مدى تأكيدهم الصريح للمجتمعات الثقافية ، أو عضوية الجماعة
بوصفها محتتمات للسلوك . فهذه العوامل تنسب لها بعض النظريات دورا
أوليا فى تشكيل السلوك وضبطه ، على حين يكاد يكون التأكيد فى نظريات
أخرى مقصورا على المحتتمات السلوكية التى تعمل مستقلة عن المجتمع أو
الجماعات الثقافية التى يتعرض لها الفرد . وبصفة عامة ، فإن أصحاب
النظريات الذين يسمون بتأكيد قوى للنظرة العضوية يميلون الى الاقلال
من دور محتتمات عضوية الجماعة ، على حين نجد أن هؤلاء الذين يؤكدون
المجال الذى يقع فى داخله السلوك ، أكثر تعاطفا مع دور المحتتمات
الاجتماعية - الثقافية ، أو الخاصة بعضوية الجماعة . وعادة ما يشار
الى الأمثلة المتطرفة لهذا الموقف بوصفها نماذج للمحتمية الثقافية وتوجد
بين أصحاب النظريات من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع ، وأن كان
أصحاب النظريات من علماء النفس يكشفون عن تباين ملموس إزاء هذا
الموضوع .

ويتصل بموضوعات المحتمية الوراثية والمحتمية الثقافية موضوع أعم
وهو مدى وضوح وصراحة صاحب نظرية الشخصية فى محاولته ربط
نظريته بالصياغة النظرية والنتائج التجريبية فى العلوم المجاورة . ويمكن
الإشارة الى ذلك بأنه مسألة التكافل بين العلوم المجاورة -
interdiscipli- nary anchoring فبعض أصحاب نظريات الشخصية يقنع - نسبيا -
بتناول الظواهر السلوكية فى إطار المفهومات والنتائج للبيولوجية ،
مع قليل من الاهتمام ، أو دون اهتمام على الاطلاق بما يدور فى العلوم

المجاورة • على حين يشعر البعض الآخر بأن بناء النظرية السيكلوجية يجب أن يعتمد اعتمادا كبيرا على الصياغات والنتائج في العلوم الأخرى • ويمكن تقسيم أصحاب نظريات الشخصية من علماء النفس من « المتجهين إلى العلوم الأخرى » تقسيما دقيقا إلى نمطين أساسيين : أولئك الذين يتطلعون إلى الاسترشاد بالعلوم الطبيعية (علم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأعصاب وعلم الوراثة) وأولئك الذين يتطلعون إلى الاسترشاد بالعلوم الاجتماعية (علم الاجتماع وعلم الإنسان والاقتصاد والتاريخ) •

وتكشف نظريات الشخصية عن اختلافات كبيرة في عدد المفاهيم الدافعية التي يستخدمونها • ففي بعض الحالات يعتبر واحد أو اثنان من هذه المفاهيم أساسا وراء كل أشكال السلوك على حين يوجد لدى نظريات أخرى عدد بالغ الضخامة من الدوافع المفترضة ، كما لا يزال هناك آخرون يعتبرون - نظريا - عدد الدوافع غير محدود • وهناك كذلك فروق كبيرة بين النظريات في مبلغ الاهتمام الذي تناله الدوافع الأولية أو الفطرية في مقابل الدوافع الثانوية أو المكتسبة وفضلا عن ذلك ، تقدم بعض النظريات صورة مفصلة نسبيا ، للعملية التي تنمو بواسطتها الدوافع المكتسبة ، على حين تبدو نظريات أخرى اهتماما ضئيلا باكتساب الدوافع أو اشتقاقها •

لقد أتمنا الآن قائمة إبعادنا للموازنة بين نظريات الشخصية ، ولكننا نأمل ألا يضعها القارئ بعيدا عن ذهنه فهذا المرشد الشديد الإيجاز الذي قدمناه هنا يمكن إعطاؤه معنى أكثر ثراء وأعظم دلالة إذا أخذت هذه الموضوعات بعين الاعتبار أثناء قراءة الفصول التي تتناول بالوصف النظريات الفردية للشخصية • كما سيتضح كذلك أن أكثر سمات هذه النظريات تمايزا قد تطورت عن القرارات الخاصة بالقضايا التي ناقشناها الآن • وسنعيد تناول هذه الأبعاد في الفصل النهائي على ضوء النظريات النوعية للشخصية والتي سنكون قد لحصناها •

ويؤدي بنا هذا إلى ختام مناقشتنا التمهيديّة ونستطيع الآن أن نتقدم إلى جوهر هذا المجلد - نظريات الشخصية ذاتها • وإذا كان على القارئ أن يستبقى فكرة واحدة مما قيل حتى هذه النقطة ، فلتكن الانطباع البسيط: أن نظريات الشخصية هي محاولات لصياغة أو لتقديم جوانب لها دلالتها من السلوك الإنساني وأن الحكم على جدوى هذه النظريات سيكون أساسا على مبلغ كفاءتها في العمل على تنشيط وعلى حفز البحث •

BIBLIOGRAPHY

- Allport, G.W. *Personality : a psychological interpretation*. New York : Holt, 1937.
- Boring, E.G. *A history of experimental psychology*. 2nd ed. New York : Appleton-Century-Crofts, 1950.
- Bronfenbrenner, U. *Personality*. In C.P. Stone and D.W. Taylor (Eds). *Annual review of psychology*. Vol. 4. Stanford, Calif. : Annual Reviews, 1953, pp. 157-182.
- Child, I. L. *Personality*. In C.P. Stone and D.W. Taylor (Eds). *Annual review of psychology*. Vol. 5. Stanford, Calif. : Annual Reviews, 1954, pp. 149-170.
- Cohen, M.R., and Nagel, E. *An introduction to logic and scientific method*. New York : Harcourt, 1934.
- Conant, J.B. *On understanding science*. New Haven : Yale Univ. Press, 1947.
- Eysenck, H.J. *Personality*. In C.P. Stone and D.W. Taylor (Eds). *Annual review of psychology*. Vol. 3. Stanford, Calif. : Annual Reviews, 1952, pp. 151-174.
- Feigl, H., Brodbeck, May. *Readings in the philosophy of science*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1953.
- Feigl, H., and Sellars, W. *Readings in philosophical analysis*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1949.
- Frank, P. *Modern Science and its philosophy*. Cambridge : Harvard Univ. Press, 1949.
- Hempel, C.G. *Fundamentals of concept formation in empirical science*. Chicago : Univ. of Chicago Press, 1952.
- McClelland, D.C. *Personality*. In P.R. Farnsworth and Q. McNemar (Eds). *Annual review of psychology*. Vol. 7. Stanford, Calif. : Annual Reviews, 1956, pp. 39-62.
- McDougall, W. *An introduction to social psychology*. Boston : Luce, 1908.
- MacKinnon, D.W. *The structure of personality*. In J. McV. Hunt (Ed.) *Personality and the behavior disorders*. New York : Ronald Press, 1944, pp. 3-48.
- MacKinnon, D.W. *Personality*. In C.P. Stone and D.W. Taylor (Eds). *Annual review of psychology*. Vol. 2. Stanford, Calif. : Annual reviews, 1951, pp. 113-136.

- MacKinnon, D.W., and Maslow, A. *Personality*. In H. Helson (Ed.). *Theoretical foundations of psychology*. New York : Van Nostrand, 1951, pp. 602-655.
- Murphy, G. *Historical introduction to modern psychology*. New York : Harcourt, 1949.
- Nuttin, V. *Personality*. In C.P. Stone and D.W. Taylor (Eds.). *Annual review of psychology*, Vol. 6. Stanford, Calif. : Annual Reviews, 1955, pp. 181-186.
- Sears, R.R. *Personality*. In C.P. Stone and D.W. Taylor (Eds.). *Annual review of psychology*. Vol. 1. Stanford, Calif. : Annual reviews, 1950, pp. 105-118.

الفصل الثاني

نظرية التحليل النفسي عند فرويد

عندما ظهر علم النفس كبحث علمي مستقل في ألمانيا في منتصف القرن التاسع عشر حدد هدفه في تحليل الشعور لدى الانسان المرشد السوى . وكان ينظر الى الشعور بوصفه مكونا من عناصر بنائية ترتبط ارتباطا وثيقا بعمليات أعضاء الحس . فالاحساسات البصرية باللون مثلا ترتبط بالتغيرات الكيميائية الضوئية الحادثة في شبكية العين كما ترتبط النفقات الصوتية بما يحدث في الأذن الداخلية . وتنتج الخبرات المركبة من الالتحام بين عدد من الأحاسيس الأولية والصور والمشاعر . وكان هدف علم النفس هو اكتشاف العناصر الاساسية في الشعور وتحديد الكيفية التي تتكون بها مركباته وكثيرا ما كان يشار الى علم النفس بوصفه الكيمياء العقلية . وقد لقي هذا النوع من علم النفس مقاومة من اتجاهات كثيرة ولأسباب مختلفة . فقد كان هناك من يعارض قصر الاهتمام على البناء ، ويصر اصرارا شديدا على أن أبرز خصائص العقل الشعوري هو عملياته الايجابية وليس محتوياته السلبية وكان هؤلاء يؤكدون أن الموضوع الرئيسي لعلم النفس يجب أن يكون - بمعناه الايجابي - الاحساسى وليست الأحاسيس ، التفكير ، وليست الأفكار ، التخيل ؛ وليست الصور ، واعتراض آخرون أن من غير الممكن تشريح الخبرة الشعورية دون تدمير جوهر الخبرة ذاته ، أى خاصة الكلية . وكانوا يذهبون الى أن الفطنة الشعورية المباشرة تتكون من أنماط أو صياغات كلية وليس مجرد عناصر مضافة بعضها الى بعض . كما أكدت جماعة أخرى كبيرة مرموقة أن العقل غير قابل للبحث بأساليب العلم ذلك أنه شيء شديد الخصوصية والذاتية . ولجت هذه الجماعة على أن يحدد علم النفس بدلا من ذلك بأنه علم السلوك .

أما هجوم فرويد على سيكولوجيا الشعور التقليدية ، فقد جاء من

اتجاه مختلف تماما . فقد شبه العقل بجبل من الجليد يمثل الجزء الأصغر الطافي منه على سطح الماء منطقة الشعور على حين يمثل الجزء الأكبر الذي لأيطفو على صفحة الماء منطقة اللاشعور . وفي هذه المنطقة الفسيحة من اللاشعور توجد الدفعات الفريزية ، والشهوات والافكار والمشاعر المكبوتة - عالم سفلي شامع من القوى الحيوية غير المرئية تمارس سيطرة طاغية على افكار الانسان وأفعاله الشعورية - ومن وجهة النظر هذه يصبح علم النفس الذي يقتصر في تحليله على الشعور غير كاف بحال لفهم الدوافع الكامنة لسلك الانسان .

ولقد عكف فرويد طوال ما يزيد على الاربعين عاما على دراسة اللاشعور مستخدما طريقة التداعي الطليق ليطور ما يعتبر - بصيغة عامة - أول نظرية شاملة للشخصية . فحدد معالم أبعادها الطبوغرافية ، ونفذ الى أغوار الينابيع التي تندفق منها طاقاتها ، محددا معالم طريق نموها . وبهذا الذي أنجزه متجاوزا حدود التوقع أصبح فرويد واحدا ممن يدور حولهم أقصى الجدل ويحدثون أكبر التأثير في العصر الحديث .

ولد سيجموند فرويد في مورافيا في السادس من مايو سنة ١٨٥٦ ومات في لندن في الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٣٩ . ولكنه أقام في فيينا ما يقرب من الثمانين عاما ولم يتركها الا عندما استولى النازيون على النمسا . وقد قرر فرويد في شبابه أنه يريد أن يصبح عالما ، وتحقيقا لهذا الهدف الذي ملك عليه فكره دخل كلية الطب بجامعة فيينا في عام ١٨٧٣ . وحصل منها على اجازة الطب بعد ثماني سنوات . ولم يكن فرويد يهدف بحال الى ممارسة الطب ، الا أن كفاف ما يدره البحث العلمي ، والفرص المحدودة للتقدم الأكاديمي اليهودي ، ومضآب أسرة يتزايد عدد أفرادها دفعت جميعها بفرويد إلى ممارسة الطب . وبالرغم من ممارسته لمهنته فانه استطاع أن يجد الوقت للبحث والكتابة ولقد كان لمتجزاته بوصفه باحثا طبيبا الفضل في بلوغه سمعة مرموقة .

وقد أدى اهتمام فرويد بعلم الاعصاب الى التخصص في علاج الاضطرابات العصبية وهو فرع من فروع الطب قد تخلف كثيرا عن مسيرة الفنون العلاجية خلال القرن التاسع عشر . ودرس فرويد ، ورغبة منه في تحسين مهاراته الفنية ، زهاء العسام على الطبيب النفسي الفرنسي الشهير جان شاركوه ، الذي كان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج الهستيريا . وبالرغم من ان فرويد حاول استخدام التنويم المغناطيسي مع مرضاه فانه لم يقتنع بجداؤه كذلك عندما سمع عن طريقة جديدة

ابتكرها طبيب نفسى من أهل فينا هو جوزيف بروير ، تحقق للمريض الشفاء من أمراضه عندما يتحدث عن هذه الأمراض ، جربها ووجد أنها طريقة مشرقة . ومن ثمة تعاون فرويد وبروير فى كتابة بعض من حالات الهيستيريا التى قاما بعلاجها بالاسلوب الكلامى (١٨٩٥) .

الا أن الرجلين لم يلبثا أن اختلفا لاختلافهما حول أهمية العوامل الجنسية فى الهيستيريا . وقد شعر فرويد أن الصراعات الجنسية هى سبب الهيستيريا ، على حين كانت وجهة نظر بروير ذات طابع محافظ . لذلك عمل فرويد وحده بنشاط مطورا تلك الأفكار التى كونت أساس نظرية التحليل النفسى ، والتى توجت بنشر أول أعماله الكبرى « تفسير الاحلام » (١٩٠٠) . ولم تلبث كتب ومقالات أخرى له أن لفتت انتباه الأطباء والعلماء فى مختلف أنحاء العالم الى آرائه . ولم يمض وقت طويل حتى أحاط بفرويد جمع من التلاميذ من مختلف البلاد نذكر منهم ارنست جونر من إنجلترا وكارل يونج من زيوريخ وأ٠٠٠ بريل من نيو يورك وساندور فرنزى من بودابست وكارل ابراهام من برلين والفريد أدلر من فيينا . الا أن يونج وأدلر انسحبا بعد فترة من الدائرة وكونا وجهات نظر منافسة .

ومن المستحيل أن نغطى فى هذا المقام المحدود النقاط الأساسية فى حياة فرويد الشخصية والفكرية فى مطلع شبابه طالبا للطب وباحثا ثم التأثير الحاسم لعالم الفسيولوجيا الألمانى العظيم ارنست بروكه ، الذى كان واحدا من قادة مدرسة هلمهولتز فى الطب والذى تعلم منه فرويد النظر الى الانسان بوصفه نظاما ديناميا خاضعا لقوانين الطبيعة ، ثم زواجه من مارتا برنيز وإخلاصه لها طوال حياته هى وأولاده الستة ، وتتبع واحدة منهم ، وهى أنا خطى والدها - لتصبح محللة نفسية - والعام المثير الذى قضاه مع شاركوه فى باريس ، ثم علاقته الفرية بفهام فليس ، وتحليله النفسى الذاتى الثاقب الذى بدأه عام ١٨٩٠ وواصله طوال حياته ، ثم المحاولة العقيمة لتفسير الظواهر النفسية على أساس من تشريح القشرة المخية ، ثم سنوات العزلة عن المجتمع الطبى بفيينا . ثم دعوة ج . ستانلى هول عالم النفس الأمريكى الشهير ومدير جامعة كلارك له ، ليتحدث فى الاجتماعات المقودة للاحتفال بذكرى تأسيس الجامعة ، ثم تأسيس الاتحاد الدولى للتحليل النفسى ، ثم انشقاق بعض تلاميذه المرموقين عليه كيونج وأدلر ورائك وشتيكل ، ثم تأثير الحرب العالمية الأولى على تفكير فرويد ومراجعتة الشاملة للأفكار الأساسية لنظرية

التحليل النفسي ، كذلك تطبيقه لمفاهيم التحليل النفسي في جميع مجالات الحياة الانسانية ونشاطاتها ، كذلك الصفات الشخصية لفرويد ، وعذاب سرطان الفك وآلامه الطويلة ، وأخيرا هروبه بصورة درامية من قبضة النازيين . ومن حسن الحظ أن جميع دقائق وتفاصيل حياة فرويد الطويلة قد قام بدراستها المحلل النفسي الانجليزي الأشهر أرنست جونز وروى تفاصيلها في مؤلفه ذى الأجزاء الثلاثة الذى يعرض حياة فرويد (١٩٥٣ ، ١٩٥٥) .

كذلك لا يسمح لنا المقام بعرض الاعمال المنشورة لفرويد ، التى تبدأ بمؤلفه « تفسير الاحلام فى عام ١٩٠٠ وتنتهى بالكتاب الذى نشر بعد موته عام ١٩٤٠ ، « معالم التحليل النفسى » .

ان كتابات فرويد السيكولوجية تقع فى أربعة وعشرين مجلداً فى الطبعة الانجليزية النموذجية (١٩٥٣) ونوصى القارىء الذى لا ألفة له بنظرية فرويد فى الشخصية بالرجوع الى المؤلفات التالية : « تفسير الاحلام » (١٩٠٠) ، (١) و « علم النفس المرضى فى الحياة اليومية » (١٩٠٤) ومقدمة عامة فى التحليل النفسى « (١٩١٧) « محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى » (٢) (١٩٣٣) وأخيرا « معالم التحليل النفسى » (١٩٤٠) .

وستقتصر فى العرض التالى لأفكار فرويد على ما يتعلق منها بنظريته فى الشخصية دون تناول نظرية التحليل النفسى فى العصاب ، والتى عرضها على أحسن وجه أوتو فينيكل (١٩٤٥) كما أننا لن نعرض لاساليب التحليل النفسى ، أو للتطبيقات الشاملة لعلم النفس الفرويدى فى العلوم الاجتماعية والانسانية والفنون . وكذلك فإن المجال لن يتسع للإشارة الى تطور تفكير فرويد فيما يتعلق بالمفاهيم الأساسية لنظرية الشخصية عنده .

ويكفينا عرض الآراء النهائية لفرويد بالنسبة لهذه المفاهيم عند مناقشتها . ومن المؤسف أننا لن نستطيع تناول اسهامات أتباعه وهم كثيرون ، كما أنهم - فى بعض الحالات - يمثلون اضافات جوهرية فى نظرية التحليل النفسى .

-
- (١) نشرت دار المعارف ترجمة عربية للكتاب قام بها مصطفى صفوان وراجعها مصطفى زيود . (المترجم)
(٢) نشرت مكتبة الانجلو المصرية ترجمة عربية له قام بها احمد عزت وراجع وراجعها محمد فتحى . (المترجم)

بناء الشخصية

تتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية : **الهو Id** و**الأنا Ego** و**الأنا الأعلى Super-Ego** وبالرغم من أن كل جزء من هذه الأجزاء للشخصية الكلية له وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه التي يعمل وفقها ودينامياته وميكانيزماته ، فإنها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا ، بحيث يصعب ، ان لم يكن مستحيلا ، فصل تأثير كل منها ، ووزن اسهامه النسبي في سلوك الانسان . ان السلوك يكون دائما - في الغالب - محصلة تفاعل بين هذه النظم الثلاثة ، ونادرا ما يعمل أحد هذه النظم بمفرده دون النظامين الآخرين .

الهو وهو النظام الاصل للشخصية ، وهو الكيان الذي يتميز منه الأنا والأنا الأعلى . ويتكون الهو من كل ما هو موروث وموجود سيكولوجيا منذ الولادة بما في ذلك الغرائز ، انه مستودع الطاقة النفسية ، كما أنه يزود العمليات التي يقوم بها النظامان الآخران بطاقتها - والهو وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التي يستمد منها طاقاته . ويطلق فرويد على الهو اسم « الواقع النفسي الحقيقي » ، لأنه يمثل الحبرة الذاتية للعالم الداخلي ولا تتوفر له أية معرفة بالواقع الموضوعي .

ان الهو لا قبل له بتحمل تزايد الطاقة التي يعانها بوصفها حالات من التوتر غير المريح . ونتيجة ذلك ، أنه عندما يتزايد مستوى التوتر لدى الكائن الحي ، سواء كان ذلك راجعا الى تنبسه خارجي ، أم الى تهيجات ناجمة عن الداخل فإن « الهو » يعمل بطريقة من شأنها تخفيف التوتر مباشرة وعودة الكائن الحي الى مستوى ثابت منخفض ومريح من الطاقة . ويسمى مبدأ خفض التوتر الذي يعمل الهو وفقه « **مبدأ اللذة** » .

ولكى يحقق الهو هدفه في تجنب الألم وتحقيق اللذة فإن عمليتين تعملان تحت امرته وهما « الفعل المنعكس » و « العمليات الأولية » ان الافعال المنعكسة أرجاع ولادية وآلية كالعطس والغمز بالعين ، وهي عادة تؤدي الى خفض التوتر مباشرة . ويولد الكائن البشرى مزودا بعدد من مثل هذه الافعال المنعكسة لمواجهة الأشكال البسيطة - نسبييا - من الاستثارة . أما العملية الأولية فتضمن رجعا سيكولوجيا أكثر تعقيدا

بعض الشيء • انها تحاول تفريغ التوتر بتكوين صورة لموضوع. من شأنه أن يزيل التوتر • مثال ذلك ، أن العملية الأولية تزود الشخص الجائع بصورة ذهنية للطعام • ويطلق على هذه الخبرة الهلوسية التي تتضمن حضور الموضوع المرغوب فيه على شكل صورة من الذاكرة مصطلح « تحقيق الرغبة » • وخير مثال للعملية الأولية لدى الأشخاص الأسوياء هو أحلام الليل التي يعتقد فرويد أنها تمثل دائما تحقيق أو محاولة لتحقيق رغبة • وتمثل هلاوس المرضى الذهنيين وأوهامهم نماذج للعمليات الأولية • كذلك يتأثر التفكير الذاتي أو التفكير الراجح (١) - تأثرا بالغا بفعل العمليات الأولية • ان هذه الصور الذهنية المستهدفة لتحقيق الرغبة هي الواقع الوحيد الذي يعرفه « الهو » •

ومن الواضح أن العملية الأولية في ذاتها غير قادرة على خفض التوتر فالشخص الجائع لا يمكنه أن يأكل الصور الذهنية للطعام • ونتيجة لذلك، تظهر عمليات جديدة أو عمليات نفسية ثانوية ، وعندما يحدث هذا فان بناء النظام الثانى للشخصية ، أى الأنا يبدأ فى التكوين •

الأنا : يخرج الأنا الى الوجود لأن حاجات الكائن البشرى تتطلب تعاملات مناسبة ازاء عالم الواقع الموضوعى • فالشخص الجائع عليه أن يبحث عن الطعام وأن يحصل عليه وأن يأكله حتى يستطيع التخلص من التوتر الناتج عن الجوع ، ويعنى هذا أن عليه أن يتعلم كيف يفرق بين صورة عن الطعام مصدرها الذاكرة وبين ادراك فعل للطعام كما يوجد فى العالم الخارجى • وما أن يتم هذا التمييز الحاسم حتى يصبح لزاما عليه أن يحول الصورة - الذهنية - الى ادراك ، يتم بتعيين مكان الطعام فى البيئة • بعبارة أخرى ، يضاهاى الشخص ما لديه من صورة الذاكرة عن الطعام بمنظر الطعام أو رائحته كما يصلان اليه عن طريق حواسه • ان الفرق الأساسى بين الهو والأنا هو أن الأول - الهو - لا يعرف الا الواقع الذاتى للعقل فحسب ، على حين يفرق الأخير - الأنا - بين الأشياء التى توجد فى العقل والأشياء التى توجد فى العالم الخارجى •

ان الأنا يطبق مبدأ الواقع ويمثل وفق العمليات الثانوية • ان غاية مبدأ الواقع هو الميلولة دون تفريغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة • ان مبدأ الواقع يرجع مبدأ اللذة مؤقتا ، لأن

(١) أى التفكير الذى يستهدف تحقيق الرغبة دون اعتبار للواقع (الترجم) •

مبدأ اللغة هو الذى يخدم فى نهاية الأمر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ومن ثم يخفض التوتر .

ان الذى يتناوله مبدأ الواقع فى حقيقة الأمر هو : هل خبرة ما حقيقية أو زائفة أى : هل لها وجود خارجى أولا ، على حين يقتصر اهتمام مبدأ اللغة على احتمال أن الخبرة مؤلمة أو سارة .

ان العملية الثانوية هى التفكير الواقعى . فالأنا يكون بوساطة العمليات الثانوية خطة لاشباع الحاجة ، ثم يختير هذه الخطة ، عادة بوساطة فعل ما ، ليرى : هل كانت صالحة أو غير صالحة . ان الشخص الجائع يفكر فى المكان الذى يمكن أن يجد فيه الطعام ثم يشرع بعد ذلك فى البحث فى هذا المكان ، وهذا ما يسمى « باختبار الواقع » ولا بد للأنا ، للقيام بدوره بكفاءة من أن يسيطر على جميع الوظائف المعرفية والعقلية . ان هذه العمليات العقلية العليا توضع فى خدمة العمليات الثانوية .

ان الأنا هو الجهاز الادارى للشخصية لأنه يسيطر على منافذ الفعل والسلوك ويختار من البيئة الجوانب التى يستجيب لها ، ويقرر الفرائض التى سوف تشبع والكيفية التى يتم بها ذلك الاشباع . ويجب على الأنا عند قيامه بهذه الوظائف الادارية البالغة الأهمية أن يعمل على تكامل مطالب كثيرا ما تتصارع فيما بينها وهى مطالب الهو والأنا الأعلى والعالم الخارجى . ان هذا العمل ليس أمرا سهلا وكثيرا ما يكون عبئا باهظا على الأنا .

ويجب أن يكون واضحا فى أذهاننا ، بالرغم من ذلك ، أن الأنا هو ذلك الجزء المنظم من الهو ، وأنه يخرج الى الوجود ليحقق أهداف الهو ولا يحبطها ، وأن كل قوته مستمدة من الهو . والأنا ليس له وجود منفصل عن الهو ، كما أنه لا يحقق على الاطلاق الاستقلال التام عن الهو . ان دوره الأساسى هو التوسط بين المطالب الفريزية للكائن الحى وظروف البيئة المحيطة به . ان أهدافه الأساسية هى المحافظة على حياة الفرد والعمل على تكاثر النوع .

الأنا الأعلى : ان النظام الثالث والأخير الذى ينمو من الشخصية هو الأنا الأعلى انه الممثل الداخلى للقيم التقليدية للمجتمع ومثله كما يفسرها للطفل والداة كما تفرض عليه بوساطة نظام من الثواب والعقاب . ان الأنا

الأعلى هو الدرع الأخلاقي للشخصية ، وهو يمثل ما هو مثالي وليس ما هو واقعي ، وهو ينزع إلى الكمال بدلا من اللذة ان شاغله الأول أن يقرر هل كان شيء ما صائبا أو خاطئا حتى يستطيع التصرف بناء على القيم الأخلاقية التي يملها ممثلو المجتمع .

ان الأنا الأعلى بوصفه الحكم الخلقى الموصل للسلوك ينشأ استجابة للثواب ، والعقاب الصادر من الوالدين . لكي يحصل الطفل على الثواب ولكي يتجنب العقوبات فإنه يتعلم أن يقود سلوكه في الاتجاهات التي يحددها الوالدان . وكل ما يدينه الوالدان ويعاقبانه على اتيانه ينزع إلى أن يستدخل داخل صميره ، الذي يمثل أحد شقي نظام الأنا الأعلى . وكل ما يوافقان عليه ويثيبانه على اتيانه ينزع إلى ان يستدخل داخل آناه - المثالي الذي يمثل الشق الآخر من نظام الأنا الأعلى ويطلق على' الميكانيزم (الحيلة) التي تتم بها عملية الاستدخال هذه الاستمماج ان الضمير يعاقب الشخص بأن يجعله يشعر بالاثم ، ويثيب الأنا المثالي الشخص بأن يجعله يشعر بالفخر بنفسه . وتكوين الأنا الأعلى يحل الضبط الذاتي محل الضبط الصادر عن الوالدين .

ان الوظائف الأساسية للأنا الأعلى هي :

١ - كف دفعات الهو ، وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنسي أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هي التي يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد الادانة والرفض .

٢ - اقناع الأنا بإحلال الاهداف الأخلاقية محل الاهداف الواقعية .

٣ - العمل على بلوغ الكمال ، أى أن الأنا الأعلى يميل إلى معارضة الهو والأنا معا ، وإلى تشكيل العالم على صورته . الا أنه يشبه الهو فى أنه غير منطقي ، ويشبه الأنا فى محاولته ممارسة التحكم فى الغرائز . ويختلف الأنا الأعلى عن الأنا فى أنه لا يحاول فحسب أرجاء الاشباع الغريزى ، بل انه يحاول الجيلولة دونه على الدوام .

وفى ختام هذا الوصف الموجز للنظم الثلاثة للشخصية ، يجب أن نوضح أن الهو والأنا والأنا الأعلى يجب ألا ينظر إليها بوصفها دمي تحرك الشخصية . فهي مجرد أسماء لعمليات سيكولوجية مختلفة تعمل وفق نظم تختلف مبادئها . وفى الظروف العادية لا تصطدم هذه المبادئ بعضها ببعض الآخر ، كما أنها لا تعمل لتحقيق اغراض متعارضة .

بل على العكس انها تعمل متأزرة كفريق تحت القيادة الادارية للانا . ان الشخصية تعمل فى الظروف السوية بوصفها كلا لا بوصفها ثلاثة قطاعات مختلفة . وبصورة عامة للغاية يمكننا النظر الى الهو بوصفه المكون البيولوجى - الحيوى - من الشخصية ، والانا بوصفه المكون النفسى والانا الاعلى بوصفه المكون الاجتماعى .

ديناميات الشخصية

نشأ فرويد فى ظل تأثير الفلسفة الحتمية الوضعية التى تميز بها بقوة العلم فى القرن لتاسع عشر ، وقد نظرت هذه الفلسفة الى الكائن البشرى بوصفه نظاما معقدا من الطاقة ، يستمد طاقته مما يستهلكه من غذاء ، ويستخدم هذه الطاقة فى أغراض مختلفة كالدورة الدموية والتنفس والنشاط العضلى ، والادراك والتفكير والتذكر . ولم ير فرويد مبررا لافتراض أن الطاقة التى تزودنا بالقوة اللازمة للتنفس او الهضم تختلف بحال - عدا الشكل - ، عن الطاقة التى تزودنا بالقوة اللازمة للتفكير والتذكر . ففى نهاية الأمر كان علماء الطبيعة فى القرن التاسع عشر يصرون بشدة على أن الطاقة يجب تعريفها بحسب ما تؤديه من عمل . فاذا كان قوام هذا العمل نشاطا سيكولوجيا كالتفكير ، فإن من المشروع تماما ، وهذا ما اعتقده فرويد ، أن يسمى هذا الشكل من أشكال الطاقة « طاقة نفسية » . وبناء على مبدأ بقاء الطاقة يمكن أن تتحول الطاقة من حالة الى حالة أخرى ، ولكن لا يمكن فقدانها من النظام الكونى الكلى ، ويتبع ذلك أن الطاقة النفسية يمكن أن تتحول الى طاقة فسيولوجية والعكس صحيح . ونقطة الاتصال أو المعبر بين طاقة البدن وطاقة الشخصية هى الهو وغرائزه .

الغريزة :

تعرف الغريزة بانها التمثيل السيكولوجى الولادى لمصدر بدنى داخلى للتهيج أو الاستثارة . ويسمى التمثيل السيولوجى « الرغبة » ، وتسمى الاستثارة أو التهيج البدنى الذى تنشأ منه الرغبة « الحاجة » ، وعلى ذلك فانه يمكن وصف حالة الجوع فى عبارات فسيولوجية بوصفها حالة

من النقص الغذائي يصيب انسجة الجسم ، على حين تتمثل سيكولوجيا كرهية في الطعام • وتعمل الرغبة كدافع للسلوك • فالشخص الجائع يبحث عن الطعام • لذلك تعتبر الغرائز القوة الدافعة للشخصية ، فهي لا تحرك السلوك فحسب ولكنها تحدد أيضا الاتجاه الذي يأخذه السلوك • بعبارة أخرى تمارس الغريزة الضبط الاختياري للسلوك عن طريق زيادة حساسية الفرد لأنواع معينة من التنبيه • فالشخص الجائع يكون أكثر حساسية لمنبهات الطعام والشخص المستثار جنسيا يزداد احتمال استجابته للمنبهات الشهوية •

هذا بالإضافة الى ما لاحظته انه من الممكن أن تنشط المنبهات من العالم الخارجى للكائن الحى • ولكن فرويد يرى أن هذه المصادر البيئية للاستثارة تقوم بدور أقل أهمية في ديناميات الشخصية بالقياس الى الغرائز الفطرية • وبصفة عامة ، فإن المنبهات الخارجية بالقياس الى الحاجات تفرض على الفرد مطالب أقل ، كما تتطلب أشكالا من التوافق أقل تعقيدا •

وفى استطاعة المرء دائما الهرب من منبه خارجى على حين يستحيل عليه الهرب من حاجة داخلية وبالرغم من أن فرويد وضع المنبهات البيئية في مرتبة ثانوية ، فإنه لم ينكر أهميتها في ظروف معينة • فمثلا ، قد يؤدي التنبيه الزائد عن الحد فى السنوات المبكرة من الحياة ، حين يفترق الأنا غير الناضج الى القدرة على التحكم فى كميات كبيرة من الطاقة الطليقة (التوتر) قد يؤدي الى أضرار بالغة تلحق بالشخصية ، كما سنتبين عندما نتناول نظرية فرويد فى الحصر •

ان الغريزة قلند أو كمية من الطاقة النفسية أو كما يقول فرويد « مقياس لما يطالب به العقل من عمل » (١٩٠٥ ، ص ١٦٨) • وتكون جميع الغرائز مجتمعة المجموع الكلى للطاقة النفسية المتاحة للشخصية • وكما سبق أن ذكرنا ، يختزن الهو هذه الطاقة كما أنه مركز الغرائز ومستقرها • ويمكن اعتبار الهو مولدا ، يقدم الطاقة النفسية اللازمة للقيام بالعمليات العديدة للشخصية • وتستمد هذه الطاقة بالطبع من عمليات الأيض الحيوى (الهدم والبناء) فى الجسم •

وتتميز الغريزة بأربع خصائص مميزة : **مصنوعها وهدفها وموضوعها وقوتها الدافعة** • وسبق أن عرفنا المصدر بأنه الحالة البدنية أو الحاجة • أما الهدف فهو التخلص من الاستثارة أو التهيج البدنى • فهدف غريزة

المجوع مثلا هو التخلص من حالة نقص التغذية ، وهو يتم بالطبع عن تناول الطعام . أما جميع ضروب النشاط التي تقع بين ظهور الرغبة وتحقيقها فتندرج تحت قائمة الموضوع . وعلى هذا فالموضوع لا يشير فحسب الى شيء بعينه أو حالة تشبع الحاجة بل انه يتضمن كذلك كل أشكال السلوك الذي يحدث مستهدفا المحصول على الشيء أو الحالة اللازمة .

فمثلا ، عندما يكون الشخص جائعا فانه يلزمه - عادة - القيام بعدد من الأفعال قبل أن يتسنى له بلوغ الهدف النهائي وتناول الطعام .

أما القوة المحافظة لفريزة ما ، فهي قوتها أو شدتها التي تحددها شدة أو قوة الحاجة المحركة لها . فمع تزايد النقص الغذائي ووصوله حنا مؤديا الى الضعف الفيزيقي ، فان قوة الفريزة تصبح بالتالي أكثر شدة .

ولنتناول الآن في ايجاز بعض المتضمنات التي تنجم عن هذه الطريقة في تصور الفريزة ونجد في المقام الأول ، ان النموذج الذي يقدمه لنا فرويد هو خفض - التوتر - فينشط سلوك الفرد بفعل المهيجات الداخلية ويخمد عندما يتخذ اجراء مناسبة من شأنه أن يزيل أو يخفض هذا المهيج . ويمنى هذا أن هدف الفريزة ذو طابع تكوي أساسا ما دام يعود بالشخص الى حالة سابقة ، كانت قائمة قبل ظهور الفريزة. هذه الحالة السابقة التي تعود اليها الشخصية هي حالة هدوء أو خمود نسبي ، كذلك يقال أن الفريزة محافظة ، لأن هدفها هو المحافظة على توازن الكائن الحى بازالة التهيجات التي تحدث اضطرابا . وعلى هذا يمكننا تصوير الفريزة كعملية تكرر - بقدر ما تظهر - دورة من الأحداث تبدأ بالتهيج أو الاستثارة وتنتهى بالاستجابة . وقد أطلق فرويد على هذا الجانب من الفريزة «جبار التكرار» فالشخصية مجبرة على أن تكرر مرة تلو أخرى الدورة الحتمية من التهيج الى الحمود (يستخدم اصطلاح اجبار التكرار) كذلك في وصف السلوك المتسم بالقصور الذاتي الذي يحدث عندما لا تكون الوسيلة المستخدمة في اشباع حاجة ما غير مناسبة تماما . فقد يواصل الطفل ، بالقصور الذاتي مص ابيهامه عندما يكون جائعا .

ويرى فرويد أن مصدر الفريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ما لم يتغير المصدر أو يزول نتيجة النضج الفيزيقي . ويمكن أن تظهر غرائز جديدة عندما تنمو حاجات بدنية جديدة . وعلى العكس من ثبات مصدر الفريزة وهدفها ، يمكن ، ويحدث أن يتباين الموضوع أو الوسيلة

التي يحاول بها الشخص اشباع الحاجة • تباينا ملموسا خلال حياة الشخص • وسببه امكان هذا التباين في اختيار الموضوع قابلية الطاقة النفسية للازاحة ، فمن الممكن صرفها - أى الطاقة - بطرق مختلفة • ونتيجة ذلك أنه عندما يتمتد الحصول على موضوع ما، سواء كان ذلك لثيابه أو لوجود عوائق داخل الشخص ذاته ، فإن الطاقة يمكن استثمارها في موضوع آخر • فاذا ما ثبت استحالة الوصول الى هذا الموضوع هو الآخر ، فمن الممكن حدوث ازاحة أخرى وهكذا •• حتى يمكن الوصول الى موضوع متوفر • بعبارة أخرى يمكن ابدال الموضوعات بعضها البعض الآخر ، وهو أمر غير ممكن - بالتأكيد - سواء فيما يتعلق بمصدر الغريزة أو بهدفها •

وعندما تستثمر طاقة غريزة ما بصفة دائمة • وان تباينت درجات هذا الاستثمار - فى موضوع بديل ، اعنى فى موضوع ليس هو الموضوع الأصيل المعين فطريا ، سمي السلوك الناجم « مشتق الغريزة » فشلا ، اذا كان الموضوع الجنسى الأول لاختيار طفل ما ، هو مداعبة أعضائه الجنسية ثم الزم التخلي عن هذه اللذة من أجل أشكال أكثر براءة من الاستثارة البدنية كان يصعب ابهامه أو أن يلعب بأصابعه ، فان هذه النشاطات البديلة تكون مشتقات الغريزة الجنسية •

ان هدف الغريزة الجنسية لا يتغير كنهه عندما يحدث ابدال ، فالهدف المنشود لازال هو الاشباع الجنسي •

ان ازاحة الطاقة من موضوع لآخر هي أكثر سمات ديناميات الشخصية أهمية فذلك يفسر لنا المرونة الظاهرة للطبيعة الانسانية والقدرة البارزة على التشكل فى سلوك الانسان • ومن الناحية العملية ، فان جميع اهتمامات الراشد - وتفضيلاته وأذواقه وعاداته واتجاهاته تمثل جميعها عمليات لازاحة للطاقة من الاختيارات الغريزية الأصلية ، للموضوعات • فهى تكاد تكون جميعها مشتقات الغريزة • ان نظرية فرويد فى الدافعية تقوم - بقوة - على افتراض أن الفرائز هي المصادر الوحيدة للطاقة فى سلوك الانسان وسوف يكون لدينا الكثير لنقول عن الازاحة فى الأجزاء التالية من هذا الفصل •

عدد الغرائز وأنواعها :

لم يحاول فرويد أن يعد قائمة بالغرائز لاعتقاده أننا لا نعرف ما فيه الكفاية عن الحالات البدنية التي تعتمد الغرائز عليها . ان تعيين هذه الحاجات العضوية هو عمل عالم الفسيولوجيا وليس عالم النفس . وبالرغم من أن فرويد لم يتظاهر بأنه يعرف عدد الغرائز ، فإنه افترض ان من الممكن ادراجها تحت فئتين عامتين : غرائز الحياة وغرائز الموت .

وتخدم غرائز الحياة غرض الحفاظ على حياة الفرد وتكاثر الجنس . ويندرج تحت هذه الفئة الجوع والعطش والجنس . ويطلق على صورة الطاقة التي تستخدمها غرائز الحياة في أداء عملها اسم « الليبو » .

وغريزة الحياة التي اعطاها فرويد أكبر اهتمامه هي الجنس ، وكان ينسب في السنوات المبكرة من التحليل النفسى كل ما يصدر عن الشخص - تقريبا - الى هذا المحرك الشامل . (فرويد ١٩٠٥) . والحقيقة ان الغريزة الجنسية ليست غريزة واحدة بل غرائز متعددة . أى ان هناك عددا من الحاجات البدنية المنفصلة تؤدى الى قيام رغبات شبقية . ولكل من هذه الرغبات مصدره فى مناطق مختلفة من الجسم ويشار اليها بصيغة الجمع باسم « المناطق الشبقية » . والمنطقة الشبقية جزء من الجلد أو غشاء مخاطى شديد الحساسية للاستثارة وتؤدى معاملته (استثارته) بصورة معينة الى ازالة الاستثارة واحداث الشعور باللذة . وتكون الشفتان والتجويف الفمى احدي هذه المناطق الشبقية . تكون المنطقة الشرجية منطقة ثانية ، والأعضاء التناسلية منطقة ثالثة . ويحدث المص لذة فمية ، والإخراج لذة شرجية ، كما يحدث حك الأعضاء التناسلية وتدليكها لذة تناسلية . وتتميز الغرائز الجنسية فى الطفولة باستقلال نسبي بعضها عن البعض الآخر ، ولكن عندما يصل الشخص الى مرحلة البلوغ تتجنح هذه الغرائز الى الاندماج ، والعمل معا فى خدمة هدف التكاثر .

أما غرائز الموت ، أو كما يسميها فرويد أحيانا ، غرائز التدمير فتقوم بعملها بصورة أقل وضوحا بالمقارنة بغرائز الحياة ، ولهذا السبب لا يعرف عنها الا القليل عدا أنها تنجح فى النهاية فى القيام بدورها . فكل شخص يموت فى النهاية ، وهذه الحقيقة دفعت فرويد الى صياغة قوله الشهير « ان هدف الحياة هو الموت » (١٩٢٠ ص ٣٨) .

وقد افترض فرويد - بخاصة - ان لدى الشخص رغبة - لاشعورية

فى العادة - فى أن يموت . ولم يحاول أن يعين المصادر الجسمية لغرائز الموت وإن كان من الممكن أن يتكهن المرء بوجودها فى عمليات الهضم أو . . . التفطيت التى يقوم بها الجسم . كذلك لم يطلق اسماً على الطاقة التى تستخدمها غرائز الموت فى القيام بعملها .

ويقوم افتراض فرويد الخاص بغرائز الموت على مبدأ الثبات كما صاغه فختنر . ومؤدى هذا المبدأ أن جميع عمليات الحياة تميل الى العودة الى ثبات العالم غير العضوى وفى مؤلف فرويد « ما وراء مبدأ اللذة » (١٩٢٠) (١) نراه يسوق الحجج التالية تأييداً لمفهوم الرغبة فى الموت ، تطورت المادة الحية من مادة غير عضوية بفعل قوى كونية . وكانت هذه التغيرات فى البداية أبعد ما تكون عن الاستقرار ، اذ سرعان ما كانت تعود الى حالتها غير العضوية السابقة . وبالتدرج تزايد طول الحياة بفعل تغيرات تطورية طرأت على العالم ، الا ان هذه الاشكال الحية غير المستقرة كانت تنكص دائماً فى نهاية المطاف الى حالة الاستقرار التى تتميز المادة غير الحية . ومع تطور ميكانيزمات التكاثر استطاعت الأشياء الحية هى ذاتها أن تتكاثر ، ولم تعد فى حاجة الى الاعتماد على خلقها من العالم غير العضوى .

وبالرغم من هذا التقدم فإن أفراد مختلف الأنواع ظلوا خاضعين نغى نهاية الأمر لمبدأ الثبات اذ أن هذا هو المبدأ الذى كان يحكم وجودها عندما منحت الحياة . ويقول فرويد أن الحياة طريق دائرى لبلوغ الموت . فعندما يضطرب الوجود المستقر للمادة العضوية تحاول العودة الى حالة الحمود . ان الرغبة فى الموت لدى الكائن البشرى هى التمثيل السيكولوجى لمبدأ الثبات .

ومن المشتقات الهامة لغرائز الموت الباعث العدوانى . فالعدوانية تعمير الذات وقد اتجهت الى الخارج نحو موضوعات بديلة . فالشخص يقاوم الآخرين وينزع الى التدمير لأن رغبته فى الموت قد عاقتها قوى غرائز الحياة ، بالإضافة الى عقبات أخرى فى شخصيته تتصدى لغرائز الموت . ولقد احتاج فرويد لفترة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ ليقتنع بأن للعدوان قوة لا تقل عن المافع الجنسى .

وقد تمتزج غرائز الموت وغرائز الحياة ومشتقاتها مما ، فيلزم كل منهما الآخر بموقف الحياد أو يحل أحدهما محل الآخر . فالأكل مثلاً ، يمثل امتزاج الجوع بالتدمير فيتحقق اشباعهما بقضم الطعام ومضغه

(١) ترجم هذا الكتاب دكتور أسحق رمزي ونشره دار المعارف بالعنوان المذكور .

وابتلاعه • كما قد يؤدي الحب ، بوصفه أحد مشتقات غريزة الجنس إلى حياذ الكراهية ، وهي من مشتقات غريزة الموت • كما قد يحل الحب محل الكراهية أو الكراهية محل الحب •

ولما كانت الفرائز تتضمن جميع الطاقة التي تستخدمها أنظمة الشخصية الثلاثة في القيام بعملها ، فلنتناول الآن بالمناقشة الكيفية التي يضبط ويستخدم بها الهو والأنا والأنا الأعلى الطاقة النفسية •

توزيع الطاقة النفسية واستغلالها : تقوم ديناميات الشخصية على كيفية توزيع واستخدام الهو والأنا والأنا الأعلى للطاقة النفسية • ولما كان مقدار الطاقة محدود الكمية فإن الأنظمة الثلاثة تتنافس فيما بينها على الطاقة الموجودة • ويتحكم واحد منها في كمية الطاقة الموجودة ويسيطر عليها على حساب النظامين الآخرين • وما أن تتزايد قوة أحد هذه الأنظمة حتى يصبح النظامين الآخرين - بالضرورة - أضعف مالم يضاف إلى النظام الكلي طاقة جديدة •

والأصل أن يمتلك الهو الطاقة كلها وأن يستخدمها في الفعل المنعكس وفي تحقيق الرغبة بوساطة العملية الأولية • ويعمل هذان النوعان من النشاط في خدمة مبدأ اللذة الذي يعمل الهو بمقتضاه بصورة مباشرة • ويطلق على استثمار الطاقة في فعل أو في صورة من شأنها اشباع الغريزة اصطلاح « اختيار غريزي للموضوع » أو « شحنة الموضوع » •

وتتميز طاقة الهو بحالة من السيولة الشديدة مما يعني أنه يسهل نقلها من فعل أو من صورة إلى فعل آخر أو إلى صورة أخرى • وترجع خاصية إمكان نقل هذه الطاقة الغريزية إلى عجز الهو عن تكوين تميزات دقيقة بين الموضوعات • وتعامل الموضوعات المتباينة كما لو كانت متماثلة فالطفل الجائع مثلا يأخذ كل ما يمكنه الإمساك به - تقريبا ليضعه بين شفثته •

ولما كان الأنا يفتقر إلى أي مصدر للقوة خاص به ، فإن عليه أن يستعيرها من الهو • ويصاحب انتقال الطاقة من الهو إلى العمليات التي تكون الأنا ميكانيزم يعرف باسم التمييز • وهو من أهم مفهومات علم النفس الفرويدي ، ومن أصعبها على الفهم • ونستطيع أن نتذكر مما سبق مناقشته أن الهو لا يفرق بين الصورة الذاتية والواقع الموضوعي • فشحن صورة موضوع ما بالطاقة مماثل لشحن الموضوع ذاته • ولكن طالما أن الصورة الذهنية لا تستطيع اشباع الحاجة فإن الشخص يصبح مضطرباً

الى التفرقة بين عالم العقل والعالم الخارجى . وعليه أن يتعلم الفرق بين ذكرى ، أو فكرة تتعلق بموضوع ليس حاضرا ، وبين الانطباع الحسى أو الإدراك الخاص بموضوع حاضر . وعلى ذلك فلكى يستطيع الشخص اشباع حاجته يجب عليه أن يتعلم المضاهاة بين ما فى ذهنه وما يقابله فى العالم الخارجى بوساطة العملية الثانوية . وهذه المضاهاة بين تصور ذهنى وواقع مادى ، بين شىء فى الذهن وشىء فى العالم الخارجى هو ما يقصد بالتميين .

ولما كان الهو لا يفرق بين أى من محتويات العقل ، سواء كانت ادراكا أو صورة من ذاكرة أو أفكار أو هلاوس ، فقد تتكون شحنة خاصة بادراك واقعى بنفس السهولة التى تتكون بها شحنة صورة من ذاكرة مشبعة لرغبة ما . وبهذه الطريقة تتحول الطاقة من العمليات السيكلوجية الاجترارية الذاتية الخالصة التى تميز الهو ، الى العمليات الواقعية الموضوعية الفكرية التى تميز الأنا ، وفى كلتا الحالتين يكون استخدام الطاقة مقصورا على الأغراض السيكلوجية الخالصة فقط . الا أنه فى حالة الهو لا يكون ثمة تفرقة بين الرمز العقلى والمقابل المادى ، أما فى حالة الأنا فتحدث هذه التفرقة . ان الأنا يحاول أن يجعل الرمز يمثل ما يشير اليه بدقة بعبارة أخرى ، يمكن التمييز العملية الثانوية من التفوق على العملية الاولى . ولما كانت العملية الثانوية أكثر توفيقا فى خفض التوتر . فان تكوين شحنات الأنا يتزايد على الدوام . وبالتدريج يستولى الأنا الاكثر كفاءة على مخزون الطاقة النفسية ليتسنى له - عمليا - احتكارها . ولكن هذا الاحتكار نسبي فحسب ، لأن الأنا - يخفق فى اشباع الفرائز . فيعاود الهو تأكيد قوته .

ان الأنا ما أن يستحوذ على قدر كاف من الطاقة ، حتى يستطيع استخدامها فى أغراض أخرى غير اشباع الفرائز بوساطة العملية الثانوية فبعض هذه الطاقة يستخدم فى تحقيق مستوى أعلى من التنمية لمختلف العمليات السيكلوجية كالادراك والتذكر والحكم والتمييز ، والتجريد ، والتصميم والاستدلال المنطقى . كما يستخدم الأنا قدرا من الطاقة لكبح جماح الهو كى لا يتصرف بانفداع ودون مراعاة للتعلل . ويطلق على هذه القوى المقيدة اصطلاح **الشحنات المضادة** على عكس القوى المحركة أو الشحنات . واذا ما أصبح الهو مصدر تهديد بالغ ، فان الأنا ينشئ الدفاعات حيله . وهذه الميكانيزمات الدفاعية التى سنناقشها فى مقام تال ، يمكن استخدامها أيضا فى معالجة ضغوط الأنا الأعلى على الأنا . ويطلب الحفاظ على هذه الدفاعات طاقة بالطبع .

كذلك يمكن ازالة طاقة الأنا لتكوين شحنات موضوعات جديدة .
وبذا تتكون داخل الأنا شبكة كاملة من الاهتمامات والاتجاهات والتفضيلات
المستتقة .

وربما لا تشبع شحنات الأنا هذه الحاجات الأساسية للكائن الحي
مباشرة ، لكنها تتصل بصلات ارتباطية بالموضوعات التي تحقق هذا
الاشباع . فقد تنشعب طاقة باعث الجوع لتشمل على سبيل المثال شحنات
مثل الاهتمام بجمع وصفات للأطعمة المختلفة ، وزيارة المطاعم المألوفة
وبيع الأوعية المصنوعة من الصيني ان هذا الانتشار للشحنات عبر مسارات
لا ترتبط الا من بعيد بالموضوع الأصيل للفريزة يصبح ممكنا بفضل كفاءة
الأنا الكبرى في القيام بعمله الأساسي ، وهو اشباع الغرائز . ان لدى
الأنا فائضا من الطاقة لاستخدامه في أغراض أخرى .

وأخيرا ، يستخدم الأنا ، بوصفه الجهاز الإداري لتنظيم الشخصية
الطاقة لاقامة التكامل بين نظمها الثلاثة . ان هدف هذه الوظيفة التكاملية
للأنا هو ايجاد تآلف داخلي ، داخل الشخصية ، حتى يستطيع الأنا اقامة
صلاته بالبيئة بكفاءة وطلاقة .

كذلك تفسر عملية التعيين الذاتي تزويد نظام الأنا الاعلى بالطاقة .
وهذا أيضا أمر معقد وهو يتم على الوجه التالي . من بين شحنات -
الموضوعات الاولى لدى الطفل شحنات الوالدين ، وتنمو هذه الشحنات
مبكرة وتصبح بالغة القوة شديدة الاستقرار وذلك لاعتماد الطفل كلية
على والديه ، او بدائلهما لاشباع حاجاته . كذلك يقوم الوالدان بدور
مثلي النظام ، فهما يعلمان الطفل القواعد الأخلاقية والقيم التقليدية والمثل
العليا للمجتمع الذي يتربى فيه الطفل . وهما يفعلان ذلك عن طريق
مكافأة الطفل عندما يفعل ما يجب عليه ، كما أنهما يعاقبانه عندما يخطئ .
فيا يجب عليه . والثواب هو أى شيء يخفض التوتر او يعد بذلك .
فقطعة الحلوى ، والابتسامة والكلمة الحنون ، قد تكون ثوابا مشمرا . والعقاب
هو كل ما من شأنه أن يزيد التوتر . وقد يكون عن طريق ضرب الطفل ،
او نظرة تنم عن عدم الرضا ، او الحرمان من لذة ما . وبذلك يتعلم الطفل
كيف يتعين ، أى أن يقارن بين سلوكه وبين ما يفرضه والده من ائابة
او تحريم ويستمتع الطفل نواهي الوالدين الأخلاقية بفضل ما لديه لهما
من شحنات أصلية بوصفهما مصادر لارضاء حاجاته . انه يشحن مثلهما
العليا التي تصبح اناه المثالي . انه كذلك يشحن تحريمانهما التي تصبح

ضميره • وبذا يقترب الأنا الأعلى من مخزون الطاقة في الهوع عن طريق
تعيين الطفل ذاتيا بوالديه •

ان العمل الذى يقوم به الأنا الأعلى يتعارض كثيرا ، ولكن ليس دائما
بصورة مباشرة ودفعات الهوع • وسبب هذا الامر ان المعايير الاخلاقية
تمثل محاولة المجتمع التحكم ، بل وربما كف ، التعبير عن الدفوعات
البدائية ، وبخاصة العدوانية والجنسية منها • فعادة ما يعنى كون المرء
طيبا ، أنه مطيع لا يقول ولا يفعل أشياء « قدرة » كما يعنى كونه شريرا
أنه غير مطيع ومتمرد ومستسلم لشهواته • ان الشخص الفاضل يكف
دفعاته أما الأثم فيسرف فيها • إلا أن الأنا الأعلى قد يفسده الهوع أحيانا
ويحدث هذا ، مثلا ، عندما يندفع الشخص فى نوبة من الحساس الأخلاقى
فى أعمال عدوانية حيال من يعتبرهم أشرارا آثمين • ان التعبير عن العدوان
فى مثل هذه الأحوال يتخفى وراء قناع من الغضب للحق والفضيلة •

وما أن تتحول طاقات الفرائز الى مسارات الأنا والأنا الأعلى بواسطة
عملية التمييز حتى يصبح ممكنا التشابك والتفاعل المركب بين القوى
المحركة والقوى الكابحة ، المقيدة • ونستطيع أن نتذكر أن الهوع يحتوى
فقط على قوى محركة أو شحنات ، أما طاقة الأنا والأنا الأعلى فانها تستخدم
لأتابة أهداف الفرائز كما تستخدم لأحباطها ، ان على الأنا أن يضبط كلا
من الهوع والأنا الأعلى • اذا أراد أن يحكم الشخصية حكما عاقلا ، ومع هذا
يجب أن يتبقى لديه قدر كاف من الطاقة للقيام بالصلوات الضرورية بالعالم
الخارجى • أما اذا قام الهوع بالسيطرة على قدر كبير من الطاقة فان سلوك
الشخص يصبح طابعه الاندفاع والبدائية • وعلى عكس ذلك ، اذا كان
التحكم للأنا الأعلى فى قدر زائد عن الحد من الطاقة فان الاعتبارات الخلقية
ستكون لها الغلبة على أداء الشخصية لوظائفها • بدلا من الاعتبارات
الواقعية • ان شحنات الضمير المضادة قد تقيد الأنا بقيود أخلاقية وتحويل
دون أى نوع من العمل ، على حين أنه قد تضع شحنات الأنا - المثال معايير
بالغة الارتفاع بحيث يجد الشخص نفسه فى احباط مستمر ، وقد ينتهى به
المطاف الى الشعور المكتئب بالفشل •

وفضلا عن ذلك ، فان الانتقالات المفاجئة والتي لا يمكن التكهّن بها
للطاقة من نظام لآخر ومن الشحنات الى الشحنات المضادة أمر عام ،
وبخاصة فى العقدين الأول والثانى من العمر قبل أن يتحقق لتوزيع الطاقة
استقرار متباين الدرجات • ان هذه التحولات فى الطاقة تجعل الشخصية
فى حالة تغير دينامى مستمر • ولقد كان فرويد متشائما فيما يتعلق

بالفرص المتاحة لعلم النفس ليصبح علما مضبوطا ودقيقا للغاية وذلك لانه كما اوضح هو ، يمكن ان يؤدي تفسير ضئيل للغاية فى توزيع الطاقة الى تحول التوازن فى اتجاه شكل من اشكال السلوك بدلا من الاتجاه المقابل (فرويد ١٩٢٠ ب) . فمن ذا الذى يستطيع ان يعرف : هل شخص ما جالس على حافة نافذة سيقفز منها اولا او هل لاعب الكرة سيحرز ضربة موفقة او لا ؟

ان ديناميات الشخصية تقوم فى نهاية المطاف على تفاعل وتشابك القوى الدافعة والشحنات والقوى المقيدة الكابحة والشحنات المضادة . وجميع الصراعات فى الشخصية يمكن ارجاعها الى تعارض هاتين المجموعتين من القوى . فكل توتر يطول يرجع الى فعل مضاد لقوى دافعة من جانب وقوى كابحة . وسواء كانت هذه القوى شحنات الأنا المضادة للمعارضة لشحنات الهو أو الشحنات المضادة للأنا الأعلى المعارضة لشحنات الأنا فان النتيجة فيما يتعلق بالتوتر تظل واحدة . وقد كان فرويد مشغوقا هو نفسه بترديد أن التحليل النفسى هو « التصور الدينامى الذى يختزل الحياة العقلية الى تفاعل متبادل بين قوى تلح وتدفع وقوى تصد وتضبط » (١٩١٠ ب ص ١٠٧) .

المحصر :

تتحكم فى ديناميات الشخصية الى حد كبير ضرورة اشباع حاجات الفرد بالاتصال بموضوعات العالم الخارجى . ان البيئة المحيطة تمد الكائن الحى الجائع بالطعام ، والعطشان بالماء . ويقوم العالم الخارجى بالاضافة الى دوره كمصدر للامدادات ، بدور آخر فى تشكيل مصير الشخصية . ان البيئة تحتوى على مناطق خطيرة وغير آمنة ، فهى قد تهدد كما قد تشبع .

ان للبيئة القدرة على احداث الألم وزيادة التوتر كما أن لها القدرة على تحقيق اللذة وخفض التوتر . انها تحدث الاضطراب ، كما تشبع الراحة .

ان الاستجابة المعتادة للفرد للتهديدات الخارجية بالألم والدمار الذى لا يكون متاهبا لمواجهة هى أن يحس بالخوف . ان الشخص المهمد يكون فى العادة شخصا خائفا . ان غلبة التنبيه الزائد الذى يعجز الأنا عن السيطرة عليه ، يؤدي الى غرق الأنا فى فيضان المحصر .

ويعرف فرويد ثلاثة أنماط من الحصر : حصر الواقع ، والحصر العصابي ، والحصر الخلقى ، أو مشاعر الأثم . (١٩٢٦ ب) . والنمط الأساسي هو حصر الواقع أو الخوف من الأخطار الواقعية في العالم الخارجي . ويشقت منه النمطان الآخران والحصر العصابي هو الخوف من عدم القدرة على السيطرة على الغرائز ، الأمر الذي يقود الشخص الى القيام بشيء يعاقب عليه . وهو الخوف من الغرائز ذاتها بقدر ما هو خوف من العقاب الذي يمكن أن يترتب على الاشباع الغريزي . ان للحصر العصابي أساسا من الواقع ، فالعالم ، كما يمثله الوالدان وغيرها من السلطات يعاقب الطفل على أفعاله الاندفاعية . أما الحصر الأخلاقي فهو الخوف من الضمير . فالشخص الذي ارتقى أنه الأعلى في التطور ، يميل الى الشعور بالأثم عندما يفعل شيئا ، بل وحتى يفكر في أن يفعل شيئا مخالفا للمعايير الأخلاقية التي تربي عليها . وهنا يقال أنه يحس بوخز الضمير . ان للحصر الأخلاقي أساسا واقعيا أيضا ، فقد عوقب الشخص فيما مضى لخروجه على المعايير الأخلاقية ، وقد يعاقب مرة أخرى .

ان وظيفة الحصر هي تحذير الشخص من خطر وشيك الوقوع . انها اشارة للأننا مؤداهما أنه ما لم تتخذ اجراءات مناسبة فان الخطر قد يتزايد حتى يقهر الأنا . ان الحصر حالة من التوتر . انه باعث كالجوع والجنس ، ولكنه بدلا من أن ينشأ عن ظروف الانسجة الداخلية ، ينشأ أساسا بفعل أسباب خارجية . وعندما ينشأ الحصر فانه يدفع الشخص الى القيام بشيء ما . فقد يهرب من المنطقة التي تهدده ، أو يكف الدفعة الخطرة ، أو يطبع صوت الضمير .

ويطلق على الحصر الذي لا يمكن معالجته بالطرق المجدية اصطلاح « صمى » فهو يؤدي بالشخص الى حالة عجز طفلي . . والحقيقة ان النمط الاولي لكل الأنواع اللاحقة من الحصر هو صلصة الميلاد . فالوليد يقذف بفيض غامر من المنبهات من العالم الخارجي لا يكون متاهبا لها بعد ، كما أنه لا يستطيع التكيف لها . ان الوليد في حاجة الى بيئة تتولى حمايته حتى يجد أنه فرصة النمو الى الدرجة التي يستطيع معها السيطرة على المنبهات القوية الصادرة من البيئة . وعندما يجز الأنا عن معالجة الحصر بالطرق المنطقية فان عليه أن يرتد الى طرق غير واقعية . وهذه هي ما يطلق عليها اسم ميكانيزمات الدفاع التي يستخدمها الأنا والتي ستناقشها في القسم التالي .

تطور الشخصية

ربما كان فرويد أول صاحب نظرية سيكولوجية يؤكد الجوانب التطورية في الشخصية ويؤكد - بخاصة - الدور الحاسم لسنوات الطفولة المبكرة والطفولة المتأخرة ، في ارساء الحصاص الأساسية لبناء الشخصية والحقيقة أن فرويد يرى أن الشخصية يكتمل القدر الأكبر منها عند نهاية السنة الخامسة من العمر ، وأن ما يلي ذلك من نمو يقوم في معظمه على صياغة البناء الأساسي . وقد وصل الى هذا الاستنتاج على أساس خبراته مع المرضى الذين يعالجون بالتحليل النفسي . فقد كانت استكشافاتهم العقلية دوما الى خبرات الطفولة المبكرة التي تبين أنها حاسمة في تطور العصاب بعد ذلك . وقد اعتقد فرويد أن الطفل هو والد الرجل . والطريف أنه مع هذه النظرة التي تميل بقوة الى التفسيرات التطورية لسلوك الراشد ، فإن فرويد نادرا ما درس صفات الاطفال مباشرة . وإنما كان يفضل إعادة صياغة ماضى الشخص عن طريق الأدلة التي تقدمها ذكرياته في رشده .

ان الشخصية تتطور استجابة لأربعة مصادر رئيسية للتوتر :
١ - عمليات النمو الفسيولوجي ٢ - الاحباطات ٣ - الصراعات -
٤ - التهديدات .

وكنتيجة مباشرة لتزايد التوتر الناتج من هذه المصادر يجد الشخص نفسه ملزما بتعلم أساليب جديدة لخفض التوتر . وهذا التعلم هو المقصود بتطور الشخصية .

ان التعيين والازاحة طريقتان رئيسيتان يتعلم الشخص عن طريقهما حل احباطاته وصراعاته وما يعانيه من ضروب الحصر .

التعيين : سبق أن قدمنا هذا المفهوم في قسم سابق ليساعدنا في تفسير تكوين الأنا والأنا الأعلى أما في هذا السياق فيمكننا تعريف التعيين بوصفه الطريقة التي يتمثل بوساطتها الشخص سمات شخص آخر ويجعلها جزءا مكونا لشخصيته ذاتها . فهو يتعلم خفض التوتر بصياغة سلوكه على غرار سلوك شخص آخر . وقد فضل فرويد اصطلاح التعيين على الاصطلاح الآخر الشائع هو التقليد ، لأنه قدر أن التقليد يشير

الى ضرب من السلوك يقوم على المحاكاة العارضة والسطحية ، على حين كان يريد اصلاحا ينقل فكرة اكتساب تحققة الشخصية بدرجة ما من الثبات .

اننا نختار ك نماذج من يبدون أكثر نجاحا منا في اشباع حاجاتهم فالطفل يتعين بوالديه لأنها يبدوان له من ذوى القدرة المطلقة ، على الأقل خلال سنوات الطفولة المبكرة . ومع تقدم الطفل في العمر يجد أناسا آخرين يتعين بهم وتبدو له انجازاتهم أكثر اتفاقا مع رغباته الراهنة وتجنب كل فترة من فترات العمر الى اتخاذ موضوعات للتعين خاصة بها . وغنى عن البيان أن معظم هذا التعين يتم لا شعوريا ، وليس كما يبدو ، بقصد شعورى .

وليس من الضرورى أن يتعين شخص بشخص آخر من جميع الجوانب . بل انه عادة ما يختار ويستدمج ، فحسب ، تلك السمات التى يعتقد أنها ستساعده فى بلوغ الهدف الذى يرغب فيه وثمة قدر كبير من المحاولة والخطأ فى عملية التعين لأن المرء لا يكون عادة على ثقة كبيرة بذلك الذى يتسم به الآخر بحيث يتحقق له النجاح . ان الاختيار النهائى هو : هل التعين يساعد على خفض التوتر ؟ فاذا فعل ذلك استدمجت الصفة ، واذا لم يفعل نبذت الصفة .

ويمكن للمرء أن يتعين بالحيوانات والشخصيات الخيالية ، والانظمة والافكار المجردة والموضوعات غير الحية ، بقدر ما يمكنه أن يتعين بالكائنات البشرية الأخرى .

ان التعين أيضا عملية يستطيع المرء بها استعادة موضوع كان قد فقده فبالتعين مع الشخص المحبوب الذى مات أو انفصل عنه المرء يعود الشخص المفقود فيبعث كسمة مستدمجة فى شخصية المرء ذاته فالاطفال الذين يتبذهم آباؤهم يميلون الى التعين بهم بقسوة أملىن بذلك استعادة حبهم لهم . كذلك قد يتعين المرء بشخص آخر بسبب الحروف . فالطفل يتعين بتحريمات والديه تجنباً للمقاب . ان هذا الضرب من التعين هو أساس تكوين الأنا الأعلى .

ويمثل البناء النهائى للشخصية تراكم العديد من التعيينات وهو تراكم يحدث فى فترات متباعدة من حياة الشخص ، وان كان الاحتمال أن الأب والأم هما أهم الشخصيات التى يتعين بهما الطفل فى حياته .

الإزاحة :

عندما يصبح اختيار موضوع أصلي للفريزة غير ممكن بفعل عوائق خارجية أو داخلية (الشحنات - المضادة) فإن شحنة جديدة تتكون ما لم يحدث كبت قوى . فإذا ما أعيقت هذه الشحنة الجديدة كذلك ، حدثت إزاحة أخرى ، وهكذا ، حتى يتم العثور على موضوع يحقق قدرا من التخفف للتوتر المحتبس . وعندئذ يشحن هذا الموضوع حتى يفقد قدرته على خفض التوتر ، واذ ذاك يبدأ بحث آخر عن موضوع هـدف مناسب . وخلال هذه السلسلة من الإزاحات التي تشكل بدرجة كبيرة تطور الشخصية يظل مصدر الفريزة وهدفها ثابتين على حين يتغير الموضوع فقط .

ويندر أن يحقق الموضوع البديل الإشباع أو خفض التوتر الذي يحققه الموضوع الأصلي هذا إذا أمكنه ذلك على الإطلاق ، وكلما قل المقدار المخفض من التوتر زادت الإزاحة بعدا عن الموضوع الأصلي . ونتيجة لهذه الإزاحات العديدة يتراكم التوتر غير المنصرف ليعمل كقوة محركة دائمة للسلوك . والشخص يبحث دائما عن طريق أحدث وأحسن لمخفض التوتر . ويفسر لنا ذلك تباين السلوك وتغيره كما يفسر لنا عدم استقرار الإنسان . هذا على حين تصبح الشخصية بتقدم العمر على درجة - تزيد أو تنقص - من الثبات والاستقرار نتيجة الحلول الوسطى بين القوى الدافعة للفرائز ومقاومات الأنا والأنا الأعلى .

وكما سبق أن ذكرنا في مكان آخر (هال ، ١٩٥٤) :

تتمكن الاهتمامات والارتباطات ومختلف أشكال الدوافع المكتسبة من الاستمرار لأنها تجلب بدرجة ما الاحباط كما تحقق الإشباع .

إنها تبقى لأنها تخفق في تحقيق إشباع كامل . فكل حل وسط هو في نفس الوقت تنازل . والشخص يتنازل عن شيء يريده في حقيقة الأمر ولكنه لا يستطيع الحصول عليه ، ويقبل بدلا منه شيئا يأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة إذ هو خير ما يستطيع الحصول عليه ، (ص:١٠٤).

وقد أبرز فرويد كيف أصبح تطور الحضارة ممكنا بفضل كف الاختيارات البدائية للموضوعات ، وتحويل الطاقة الفريزية الى مسارات مقبولة اجتماعيا وخلافة حضاريا (١٩٣٠) . ويطلق على الإزاحة التي تؤدي الى إنجاز حضارى أرقى اصطلاح التسامى أو الاعلاء . وقد لاحظ

فرويد فى هذا الصدد أن اهتمام ليونارد دافنتشى برسم المادونا كان تعبيرا اعلائيا عن رغبته فى صلات حميمة بامه التى انفصل عنها فى سن ميكرة (١٩١٠) . ولما كان الاعلاء لا يؤدى الى اشباع كامل أكثر من أى ازاحة أخرى ، فإن قدرا من التوتر يتخلف دائما . وقد يتم تفرغ هذا التوتر على هيئة عصبية أو عدم استقرار ، وهذه هى الظروف التى أشار اليها فرويد بوصفها الثمن الذى دفعه الانسان لما وصل اليه من حضارة . (١٩٠٨) .

ويتحدد الاتجاه الذى تأخذه الازاحة بماملين هما : (١) تشابه الموضوع البديل مع الموضوع الاصلى . (٢) التحريمات والاثابات التى يفرضها المجتمع . أما عامل التشابه فهو فى حقيقة الأمر درجة تشابه الموضوعين فى عقل الشخص . فقد رسم دافنتشى المادونا بدلا من أن يرسم امرأة قروية أو ارستقراطية لانه أدرك أن أمه تشبه المادونا أكثر من أى نمط آخر من النساء . ان المجتمع عن طريق الوالدين وغيرها من ذوى السلطة يرخص أنواعا معينة من الازاحات ويرفض أخرى فالطفل يتعلم أن من المسموح به مص الحلوى ولكن ليس مسموحا له مص ابهامه .

والقدرة على تكوين شحنات موضوعات بديلة هى أكثر ميكانيزمات نمو الشخصية قوة على الاطلاق . فالشبكة المعقدة من الاهتمامات والتفضيلات والقيم والاتجاهات والتعلقات ، التى تسم شخصية الكائن البشرى الراشد تصبح ممكنة بفضل الازاحة فلو لم تكن الطاقة النفسية قابلة للازاحة والتوزيع لما كان هناك نمو للشخصية ، ولأصبح الشخص مجرد آلة ميكانيكية تدفع لأداء أنماط ثابتة من السلوك عن طريق الفرائز .

العمليات الدفاعية للانا :

يرغم الأنا أحيانا تحت ضغط الحصر البالغ الى اتخاذ اجراءات متطرفة من الضغط ويطلق على هذه الاجراءات اسم العمليات أو الميكانيزمات الدفاعية . والدفاعات الرئيسية هى الكبت والاسقاط وتكوين رد الفعل والتثبيت والنكوص (أنا فرويد ١٩٤٦) . وتتميز جميع عمليات الدفاع بسمتين مشتركتين : (١) : انها تنكر وتزور وتحرف الواقع (٢) : انها تعمل لا شعوريا بحيث لا يفتن الشخص الى ما يحدث .

الكبت :

الكبت من مفهومات التحليل النفسى المبكرة . فقبل ان يصل فرويد الى صياغته النهائية لنظرية الشخصية بوساطة الهو والانا الاعلى ، قسم العقل الى ثلاث مناطق ، الشعور وما قبل الشعور واللا شعور ، ويتكون ما قبل الشعور من مواد سيكولوجية يمكن أن تصبح شعورية عند الحاجة الى ذلك . أما المواد الموجودة فى اللاشعور ، فقد اعتبرها فرويد غير قابلة - نسبيا - للوعى الشعورى ، فهى - كما يقال - تكون فى حالة كبت .

وعندما راجع فرويد نظريته فى الشخصية استبقى مفهوم الكبت بوصفه أحد ميكانيزمات الانا الدفاعية . ويحدث الكبت عندما يلزم اختيار - موضوع يستثير خوفا زائدا - بالابتعاد عن الشعور بوساطة الشحنات المضادة . فقد يحال ، على سبيل المثال ، بين ذكرى تثير الاضطراب وبين أن تصبح شعورية ، أو قد يحال بين الشخص ورؤية شيء واضح للعيان ، لأن ادراكه قد كبت . ان الكبت يستطيع ، حتى التدخل فى القيام بوظائف الجسم العادية . فقد يصبح شخص ما عاجزا جنسيا لأنه يخاف الدفعة الجنسية ، أو قد يصاب بالتهاب المفاصل نتيجة كبت مشاعر العدوان .

وقد يشق الكبت طريقه خلال شحنات مضادة معارضة أو قد يجد طريقة للتعبير فى صورة ازاحة . ولكى تنجح الازاحة فى منع استثارة الحصر ، فانها يجب أن تتخفى فى صورة رمزية مناسبة . والابن الذى يكبت مشاعره العدوانية نحو والده قد يعبر عن هذه المشاعر العدوانية ضد رموز أخرى للسلطة .

والكبت ما أن يحدث حتى يصعب ازالته . اذ لا بد للشخص من أن يتيقن بنفسه أن الخطر لم يعد قائما ، ولكنه لا يستطيع بلوغ هذا اليقين الا بعد رفع الكبت حتى يستطيع اختبار الواقع . انها دائرة مفرغة . وذلك هو السبب فى أن الراشد يحمل معه قدرا من المخاوف الطفلية ، لأنه لم تتح له الفرصة ليكتشف أن هذه المخاوف لا أسس لها من الواقع .

الاستسقاء : من اليسير - عادة - على الأنا أن يعالج حصر الواقع ، بالقياس الى الحصر العصابى أو الخلقى . ولذلك فانه إذا أمكن أن ينسب مصدر الحصر الى العالم الخارجى بدلا من دفعات الشخص ذاته البدائية ، أو

تهديدات ضميمه ، فان من المحتمل أن يتبع له ذلك قدرا أكبر من التخفف من حالة الحصر أن هذه الميكانيزم التي يتحول بها الحصر العصائبي أو الخلقى الى خوف موضوعي يسمى بالاسقاط . وهذا التحول يحدث بسهولة لأن المصدر الاصلى لكل من الحصر العصائبي والحصر الأخلاقى هو الخوف من العقاب من قبل مصدر خارجى . ففى الاسقاط يقول المرء ببساطة « انه يكرهنى » بدلا من أن يقول « اننى أكرهه » أو « انه يضطهدنى » بدلا من أن يقول « ان ضميرى يؤنبنى » . وكثيرا ما يختم الاسقاط هدفين فهو يخفض الحصر بأن يبدل الخطر بخطر اقل شأنا ، كما يمكن الشخص الذى يستخدم الاسقاط من التعبير عن دفاعاته تحت ستار الدفاع عن النفس ضد أعدائها .

تكوين ود الفعل : تتضمن هذه الوسيلة الدفاعية ابدال أو مشاعر مثيرة للحصر فى الشعور بنقيضها ، فمثلا تبدل الكراهية بالحب . وتظل الدفعة الاصلية موجودة الا انها تغطى أو تقنع بوساطة تلك التى لا تسبب الحصر .

وكثيرا ما يكون التساؤل عن كيفية التمييز بين تكوين رد الفعل وبين التعبير عن دفعة أو شعور أصيل . فمثلا ، كيف يمكن التفرقة بين حب يقوم على رد الفعل وحب أصيل ؟ عادة ما يميز تكوين رد الفعل بالاسراف فى الظاهر - فيسرف الشخص أيضا اسراف فى احتجاجة - كذلك يتميز تكوين رد الفعل بطابعه القهرى . فالصور المتطرفة من السلوك من أى نوع تشير عادة الى تكوين رد الفعل . وينجح تكوين رد الفعل أحيانا فى اشباع الرغبة الاصلية التى يستهدفها الدفاع ، مثال ذلك عندما تفرق الأم طفلها بالحب والانتباه .

التثبيت والنكوص : سوف نرى فى قسم تال انه خلال النمو والتطور السوى ، تمر الشخصية عبر سلسلة أو بالاحرى عبر مراحل محددة المعالم حتى تبلغ النضج الا أن كل خطوة جديدة تخطوها تتضمن قدرا من الاحباط والحصر ، بحيث اذا جاوز ذلك الحد ، فقد يتوقف النمو السوى اما مؤقتا أو بصورة دائمة . بعبارة أخرى ، قد يصبح الشخص مثبتا على احدى مراحل النمو المبكرة لأن الانتقال الى المرحلة التالية يكون عشقونا بالحصر . اعتماد الطفل اعتمادا مسرفا على الآخرين يمثل الدفاع باستخدام التثبيت ، والحصر يمنعه من أن يتعلم كيف يمكن أن يصبح مستقلا .

وثمة نمط آخر من الدفاع وثيق الصلة بذلك وهو النكوص . وفي هذه الحالة يتراجع الشخص الذي يقابل خبرات صارمة الى مرحلة مبكرة من النمو . مثال ذلك الطفل الذي يفزعه اليوم الاول في المدرسة فينغمس في سلوك طفلي ، كالعويل ومص الابهام والتعلق بالمدرسة او الاختباء في الاركان . كما قد تلتصم الزوجة الشابه الامن في منزل والدها حين تواجه صعوبات مع زوجها ، كما قد يلتصم الشخص الذي يفقد وظيفته الراحة في الحضر .

وتحدد التثبيتات السابقة للشخص طريق النكوص عادة . اى ان الشخص يبيل الى النكوص الى مرحلة سبق ان ثبت عليها . فاذا كان طفلا ، فان الاحتمال ان يصبح شديد الاعتماد مرة اخرى عندما يتزايد حصره ويبلغ مستوى لا قبل له باحتماله .

ان التثبيت والنكوص يكونان عادة ظروفنا نسبية ، والشخص يندر ان يثبت او ينكص كلية . وانما يغلب ان تتضمن شخصيته السمات الطفلية ، اى الاشكال غير الناضجة من السلوك ، والاستعداد للسلوك مسلكا طفليا عندما يتعرض للحرمان او الاخفاق . وضروب التثبيت والنكوص مسئولة عن النمو غير الثابت للشخصية .

مراحل النمو : يعتقد فرويد ان الطفل يمر عبر سلسلة من المراحل المتفاضلة ديناميا خلال السنوات الخمس الاولى . ويليهما لمدة تستمر خمس او ست سنوات فترة الكمون فيتحقق قدر من الثبات والاستقرار الدينامي . وعند بداية المراهقة تنبعث القوى الدينامية مرة اخرى ثم تستقر بعد ذلك بالتدرج مع الانتقال من المراهقة الى الرشد . ويرى فرويد ان السنوات القليلة الاولى من الحياة تكون حاسمة في تكوين الشخصية .

وتحدد كل مرحلة من النمو خلال السنوات الخمس الاولى من حيث اساليب الاستجابة من جانب منطقة محددة من الجسم . ففي خلال المرحلة الاولى التي تستمر قرابة العام يكون الفم هو المنطقة الرئيسية للنشاط الدينامي . ويلى المرحلة الفمية نمو الشحنات والشحنات المضادة حول وظائف الاخراج ويطلق على ذلك اصطلاح المرحلة الشرجية . ويستمر ذلك خلال العام الثانى ثم يتبعه المرحلة القضيبية حيث تصبح الاعضاء الجنسية المناطق الشهوية الاساسية . ويطلق على هذه المراحل الثلاث الفمية ، والشرجية ، والقضيبية المراحل قبل التناسلية . ثم يمر الطفل

بعد ذلك بفترة الكمون التي تطول ، وهي المسماة بسنوات الهسدوء من الناحية الدينامية . وتميل الدفعات في هذه الفترة الى البقاء في حالة كبت . وتؤدي عودة النشاط الدينامي في المراهقة الى تنشيط الدفعات قبل التناسلية فاذا اتم الانا بنجاح ازاحة هذه الدفعات والتسامي بها ، فان الشخص ينتقل الى مرحلة النضج الاخيرة ، المرحلة التناسلية .

المرحلة الغمية : ان المصدر الرئيسي للذة المستمدة من الغم هي لذة الاكل . فتناول الطعام يتضمن تنبيهها لمسياً للشفتين وللتجويف الفمي ، كما يتضمن كذلك الابتلاع او البصق والرغض اذا كان الطعام غير سار . وعندما تظهر الاسنان بعد ذلك يستخدم الغم في العض والمضغ . وهذان الضربان من النشاط الفمي ، ابتلاع الطعام والعض ، هما الانماط الاولى لكثير من السمات الشخصية التالية التي تنمو فيما بعد . فاللذة المستمدة من الابتلاع الفمي قد تزاح الى اشكال اخرى من الابتلاع او الاستمتاع كاللذة المستمدة من اكتساب المعرفة او الامتلاك . والشخص الساذج مثلا ، شخص مثبت على المستوى الفمي الاستدماجي للشخصية ، فهو يكاد يبتلع كل شيء يذكر له . وكذلك قد يزاح العض او العدوان الفمي لياخذ صورة السخرية او حب الجدل والمناقشة . وان مختلف صور الازاحة والتسامي ، وكذلك مختلف صور الاساليب الدفاعية حيات الدفعات الغمية البدائية ، تمكن هذين النمطين الاولين للوظيفة الغمية من اعطاء اساس شبكة شاسعة من الاهتمامات والاتجاهات والسمات الشخصية . هذا ، بالإضافة الى انه طالما ان المرحلة الغمية تقع في وقت يكون فيه الطفل معتمدا كلية تقريبا ، على امة للحفاظ على حياته اذ تسهر على تربيته ورعايته وحمايته مما يؤرقه ، فان ذلك يؤدي الى تكوين مشاعر الاعتماد لديه في هذه الفترة . وتميل مشاعر الاعتماد هذه الى البقاء والاستمرار طوال الحياة بالرغم من ضروب النمو والتطور التالية للانا ، وتكون على امة العودة مرة اخرى عندما يستشعر الشخص الحصر وعدم الأمن . ويعتقد فرويد ان اكثر اعراض الاعتماد تطرفا هي الرغبة في العودة الى الرحم .

المرحلة الشرجية : بعد ان يتم هضم الطعام تتراكم المخلفات في النهاية السفلى للفتاة الهضمية ، ليطرد بوساطة الفعل المنعكس عندما يبلغ الضغط على عضلات الشرج العاصرة مستوى معيناً . ان طرد الفضلات يزيل مصادر الضيق ويحدث شعورا بالراحة . وعند البدء في التدريب على النظافة ، وهذا يحدث عادة في السنة الثانية من العمر ، يلتقي الطفل

ياول خبرة حاسمة له مع التنظيم الخارجى لدفعة غريزية • فعليه أن يتعلم
 اوجاه اللذة التى يحققها له تخلصه من توتره الشرجى • وتتوقف نتائج
 هذا التدريب على أسلوب الام الخاص فى تدريبيه على النظافة (ضبط
 التبرز) ومشاعرها حيال التبرز ، وقد يكون لذلك نتائج بعيدة المدى
 على تكوين سمات وقيم نوعية • فاذا كانت طريقة الام شديدة الصرامة
 والكتب ، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويصاب بالامساك • فاذا ما عم
 هذا الاسلوب فى الاستجابة الى مجالات من السلوك فقد ينمو لدى الشخص
 خلق قابض • فيصبح عنيدا شحيحا • كما قد يلتمس الطفل تحت وطأة
 أساليب الكتب مخرجا لفضبه بأن يخرج فضلاته فى اوقات غير مناسبة
 على الاطلاق • وذلك هو النموذج الاوّل لجميع أشكال السمات الطاردة ،
 أو القاذفة كالقسوة والانفاس فى الشهوات ، والميل الى التدمير ، ونوبات
 الغضب والهياج والغوضى وانعدام النظام ، وماتلك الا نماذج قليلة تذكر •
 ومن الناحية الاخرى ، فانه اذا كانت الأم من النوع الذى يتودد الى طفله
 ليخرج فضلاته ، ويسرف فى مديحه عندما يستجيب لذلك ، فان الطفل
 تتكون لديه فكرة قوامها أن النشاط الخارجى بأسره (التبرز) بالغ
 الاعمية • وقد تكون هذه الفكرة أساس الخلق والانتاج • ويقال أن العديد
 من السمات الاخرى ترجع جنورها الى المرحلة الشرجية •

المرحلة القلمبية : فى هذه المرحلة من نمو الشخصية تحتل
 المشاعر الجنسية والعدوانية المرتبطة بوظائف الأعضاء التناسلية مركز
 الثقل • فمشاعر اللذة المرتبطة بالاستمناة وبعياة التخيل لدى الطفل ،
 والتى تصاحب نشاطه الشهوى الذاتى تهيىء السبيل لظهور عقدة أوديب •
 وقد اعتبر فرويد كشف عقدة أوديب واحدا من أكبر اكتشافاته •

وتستمد عقدة أوديب اسمها من ملك طيبة الذى قتل أباه وتزوج
 بأمه •

وعقدة أوديب فى ايجاز هى شحنة جنسية تستهدف الوالد من
 الجنس المقابل وشحنة عدوانية تستهدف الوالد من نفس الجنس •
 فالصبي يرغب فى امتلاك أمه واستبعاد أبيه على حين ترغب الفتاة فى
 امتلاك أبيها وابعاد أمها • وتعرب هذه المشاعر عن نفسها فى تخيلات الطفل
 أثناء الاستمناة وفى التذنب بين الأفعال الدالة على الحب والأفعال المعربة
 عن التمرد والثورة ازاء والديه •

ويتميز سلوك الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من عمره ، الى حد كبير ، بفاعلية عقدة أوديب ، وهي بالرغم من تعديلها وماتلقاه من كبت بعد الخامسة من العمر ، تظل قوة فعالة في الشخصية طوال الحياة . مثال ذلك أن الاتجاهات نحو الجنس المقابل ، ونحو ذوى السلطة من الأفراد تكون - بدرجة كبيرة - رهن العقدة الأوديبية .

ويختلف تاريخ عقدة أوديب ومصيرها لدى الذكر عنه لدى الأنثى . فالطفل من كل من الجنسين يحب الأم في البداية ، لأنها تشبع رغباته وينتم على الأب لاعتباره غريبا له في حب الأم . وتبقى هذه المشاعر لدى الصبي وتتغير لدى الفتاة . ولنتناول أولا تتابع الوقائع التي يتميز بها التطور الأوديبى لدى الذكر .

ان اشتياق الصبي المحرم للام ونقته المتزايدة على الأب تؤدي به الى الصراع مع والديه وبخاصة مع الأب . فهو يتخيل أن منافسه المتسيد سيوقع به الأذى وقد تتأيد مخاوفه بسبب ما يصدر من والد ناغم ومعاقب من التهديدات . ويتركز خوفه مما قد يوقعه به الأب من أذى حول أعضائه التناسلية ، إذ أنها مصدر مشاعره الجياشة بالشهوة ، وهو يخشى أن يستأصل والده الفيور هذه الأعضاء المسيئة . ويؤدي الخوف من الخصاء أو كما يسميه فرويد حصر الخصاء الى كبت الرغبة الجنسية في الأم والعدوان نحو الأب . كما تساعد كذلك على حدوث التبعين الذاتي من جانب الابن بآبيه . ويحصل الصبي بتعيينه الذاتي بالأب على بعض الأشباع البديل لدفعاته الجنسية نحو الأم . وفي نفس الوقت تتسحول مشاعره الشهوية الخطرة نحو الأم الى مشاعر رقيقة حنون لاخطر منها نحوها . كذلك يؤدي كبت عقدة أوديب في النهاية الى آخر مراحل تطور الانا الأعلى . ويقول فرويد أن الانا الأعلى هو وريث عقدة أوديب لدى الذكر . فهو سد منبع حيال الرغبة في المحارم والعدوان .

وأن تتابع الوقائع فيما يتعلق بتطور عقدة أوديب لدى الأنثى وحلها أكثر تعقيدا . ففي المقام الاول تغير الفتاة موضوع حبها الأصلي وهو الأم بموضوع جديد هو الأب - أما سبب حدوث ذلك فيتوقف على استجابة البنت بالشعور بخيبة الأمل عندما تكتشف أن الصبي يمتلك عضوا جنسيا متدا هو القضيب على حين تمتلك هي تجويفا . ويؤدي هذا الاكتشاف الصادم الى عدد من العواقب الهامة . فهي في المقام الأول تتميز أمها مسثولة عن حالة الخصاء هذه مما يضعف شحنتها الخاصة بأمها . ثم ثانيا ، تحول حبها الى أبيها لامتلاكه الضو القيم الذي تأمل مشاركته

لأنه غير أن حبها لأبيها ولغيره من الرجال يمتزج كذلك بمشاعر الحسد
لامتلاكهم شيئا تفتقر إليه . ان حسد القضيبي هو المقابل الأنثوي لحصر
الخصاء لدى الصبي ويطلق عليهما معا اسم عقدة الخصلة . انها تنخيل
انها فقدت شيئا ذا قيمة على حين يخاف الصبي من أن يتعرض لفقده .
وتعوض المرأة الى حد ما افتقارها الى القضيبي عندما تنجب طفلا ، وبخاصة
إذا كان هذا الطفل صبيا .

ان عقدة الخصاء لدى البنت تؤدي الى ظهور عقدة أوديب عن طريق
اضعاف الشحنة المتجهة الى الام وتكوين شحنة تستهدف الأب . وعلى
عكس عقدة أوديب لدى الصبي التي تكبت أو تتغير بفعل حصر الخصاء ،
فان عدة أوديب لدى البنت يقلب أن تستمر وان كانت تتعرض لبعض
التعديل بسبب العوائق الواقعية التي تحول بينها وبين اشباع رغبتها
الجنسية في الأب . ولكنها لا تتعرض للكبت القوي كما هو الشأن بالنسبة
للولد . ان هذه الاختلافات في طبيعة عقدة أوديب والخصاء هي أساس
كثير من الفروق السيكولوجية بين الجنسين .

ويزعم فرويد أن كل شخص هو بحكم تكوينه مزدوج الجنسية ،
فكل جنس يجذب الى أعضاء نفس الجنس كما يجذب الى أعضاء الجنس
الآخر وهذا هو الأساس التكويني للجنسية المثلية ، وان كانت الدفعة
الجنسية المثلية تظل لدى معظم الناس كامنة وتؤدي حالة الازدواج الجنسي
هذه الى تعقيد عقدة أوديب اذ تجعلها تتضمن شحنات جنسية تستهدف
الوالد من نفس الجنس . ونتيجة ذلك أن تصبح مشاعر الابن حيال الأب
والبنت حيال الأم ذات طابع وجداني ثنائي بدلا من أن تكون ذات طابع
أحادي . ويؤيد افتراض الثنائية الجنسية بحوث الفلد الصماء التي تبين
بصورة قاطعة تقريبا أن الهرمونات الجنسية الذكرية والأنثوية توجد معا
لدى كل من الجنسين .

ان ظهور عقدة أوديب والخصاء وتطورهما هما الواقعتان الرئيسيتان
في الفترة القضيبية ، وهما واقعتان تتركان العديد من المخلفات في
الشخصية .

المرحلة التناسلية : تتميز شحنات الفترات قبل التناسلية بأنها ذات
طابع ترجسي ويعنى هذا أن الشخص يحصل على اللذة من تنبيه واستخدام
نفس جسمه ، وأن شحناته تستهدف الآخرين لأنهم فحسب يتيحون له
أشكالا إضافية من اللذة الجسمية . وأثناء المراهقة يتجه بعض هذا الحب
الذاتي أو الترجسية ملتصقا مسارات تقود الى اختيارات موضوع أصيلة .

فللراهن يشرع فى حب الآخريين تصلوه دوافع الايثار وليس لمجرد اسباب انانية او نرجسية . فالجاذبية الجنسية ، والتنشئة الاجتماعية والنشاطات الاجتماعية والتخيل المهني والتاهب للزواج وتكوين أسرة ، تبدأ جميعها فى الظهور . وعند نهاية المراهقة تصبى هذه الشحنات الفورية المطوعة للأهداف الاجتماعية على قدر طيب من الثبات والاستقرار فى صورة الاشكال المعتادة من الازاحة والتسامي والتعيين الذاتى . وبذا يتحول الشخص من طلب اللذة والنرجسية الطفلية الى راشد يستهدف الواقع ويمثل المجتمع الا أنه يجب ألا نعتقد أن الدفعات قبل التناسلية يحل محلها الدفعات التناسلية . بل الأخرى ان شحنات المراحل الفمية والشرجية والقضيبيية تمتزج بالدفعات التناسلية وتتألف معها . لن الوظيفة البيولوجية الاساسية للمرحلة التناسلية هى التكاثر ، وتساعد الجوانب السيكولوجية على تحقيق ذلك بما تتيحه من قدر معين من الاستقرار والأمن .

وبالرغم من حقيقة هى أن فرويد قد ميز بين أربع مراحل فى نمو الشخصية فانه لم يفترض أن هناك أى توقف قاطع أو انتقال مفاجئ . فى الانتقال من مرحلة الى أخرى . فالتنظيم النهائى للشخصية يمثل اسهامات جميع هذه المراحل الأربع .

البحوث المميزة وطرق البحث

ان المعطيات التجريبية التى أقام عليها فرويد نظرياته كانت تتكون أساسا من التعبيرات اللفظية والسلوكية الصادرة عن المرضى أثناء علاجهم السيكولوجى . وبالرغم من أن فرويد درس مناهج العلم الدقيقة فى القرن التاسع عشر ، وكون لنفسه سمعة مرموقة كباحث طبي ، قبل أن يتحول اهتمامه الى علم النفس ، فانه لم يستخدم الاساليب التجريبية او الملاحظة المضبوطة فى دراسته للعقل الانسانى . ان فرويد لم يكن جزءا من حركة علم النفس التجريبي التى بدأها فخر عام ١٨٦٠ وتحولت الى علم على يد فونت wundt خلال العقدين التاليين . ولكنه كان بالطبع على علم بهنئه الحركة ، كما تأثر بفلسفة فخر غير أن فرويد لم يكن عالم نفس تجريبيا . ولم يتم بتجارب سيكولوجية مضبوطة ولم يجمع الوقائع ويحللها كىما كان يفعل علماء النفس الآخرون فى القرن

التاسع عشر • ان المرء لينظر عبثا بحثا عن جدول أو مختلط في كتاباته
الشاسعة • كما أن فرويد لم يحدث أن استخدم اختبارا تشخيصيا أو
أى صورة من صور التقييم الموضوعى للشخصية • وقد نبعت نظرياته أثناء
استماعه الى الوقائع والخيالات التي كانت تروىها له شخصياته المريضة •

غير أنه من الخطأ الجسيم القول بأن أقوال المرضى تحت العلاج كانت
هى المقومات الوحيدة التي صاغ منها فرويد نظرياته • إذ مما لا شك فيه
أنه لا يقل أهمية عن هذه المعطيات الخام ، الاتجاه النقدي الصارم الذي
اصطنعه فرويد في تحليل التداعي الطليق لمرضاه ، ويمكننا اليوم أن نقول
أنه حلل مادته الخام باستخدام منهج الثبات الداخلى • فالاستنتاجات التي
يستخلصها من جزء من المادة يقارنها بالدلائل المؤيدة التي تظهر في الأجزاء
الأخرى ، بحيث تكون الاستنتاجات النهائية المستخلصة من حالة ما مبنية
على شبكة متداخلة من الوقائع والاستنتاجات ان فرويد كان يواصل عمله
بنفس طريقة المخبر السرى الذي يجمع الشواهد أو المحامى الذى يعرض
الحالة على المحلفين • فلا بد من أن يأتلف كل شيء بعضه مع البعض الآخر
بصورة متماسكة قبل أن يرضى عنه فرويد ويحس أنه قد وضع اصبعه
على التفسير الصحيح • وعلينا أن نتذكر بالإضافة الى هذا أن المادة التي
تنتجها حالة واحدة تشهد خمس ساعات في الاسبوع لفترة قد تطول الى
عامين أو ثلاثة هى على قدر هائل من الضخامة ، وأن فرويد كانت تتاح له
فرصة ضخمة ليتيقن ويعاود التيقن من صحة استنتاجاته عشرات المرات
قبل أن يقرر التفسير النهائى • وعلى العكس من ذلك نجد أن المفحوص فى
التجربة السيكولوجية التقليدية التي تتم فى ظروف مضبوطة يفحص أو
يختبر لفترة لا تزيد فى المتوسط على ساعة أو ساعتين • ومما لا شك فيه
أن اسهامين من أهم اسهامات فرويد فى استراتيجية البحث هما الدراسة
المتعمقة لحالة واحدة واستخدام طريقة الثبات الداخلى لاختبار الفروض •

لقد اضطر فرويد مرة اثر أخرى الى مراجعة نظرياته لعدم امكان
تفسير الكشوف الجديدة تفسيراً كافياً بنظرياته الراهنة • لقد كان فرويد
عزوفاً عن التخلي عن موقف نظرى ، بعد أن يتم له صياغة هذا الموقف ،
الا أن تاريخ نظرية التحليل النفسى فى الشخصية منذ بدايته عام ١٨٩٠
حتى أواخر عام ١٩٢٠ يبرهن لنا بصورة حاسمة أن آراء فرويد كان
يحددها فى نهاية الأمر وزن الشواهد كما يراها هو نفسه • وبالرغم مما
قد يكون لرفاقه الحميين من بعض التأثير فى تكوين أفكاره فإنه يسلم
واضحاً بجلده أن الفيصل النهائى لصديق نظرياته هو الى حد كبير نقد
فرويد لنفسه ذاتياً ورغبته فى الاسترشاد بالشواهد الجديدة • انعاصفة

الهجوم الساخطة على التحليل النفسى بمجرد أن أعلن فرويد نظريته فى التفسير الجنسى لنشوء الهستيريا ، والتي استمرت بقية حياته لم تؤثر فى تفكيره . ولم يجب فرويد على ناقديه طوال حياته الا مرات قليلة . بل ان علم رضا زملائه الحميين لم يدفع فرويد الى تغيير نظرياته . ويبدو أن فرويد كان يتمتع بقدر ضخم من الاستقلال الفكرى وهو بلا شك أحد متطلبات العظمة .

عقيدة فرويد العلمية :

عبر فرويد عن آرائه فى الطريقة التى يمارس بها العالم عمله ليطور علمه بوضوح وإيجاز فى مرة من المرات النادرة التى تناول فيها هذا الموضوع فكتب يقول :

« كثيرا ما يدافع عن الرأى القائل بأن العلوم يجب أن تبنى على مفهومات أساسية واضحة وقاطعة التحديد . والحقيقة أنه لا يوجد علم ، ولا حتى أدق العلوم ، يبدأ بمثل هذه التحديدات . ان البدايات الحقيقية للنشاط العلمى تتكون بالأحرى من وصف الظواهر ثم الشروع فى تجميعها وتصنيفها واستخلاص ما بينها من ارتباط . وحتى فى مرحلة الوصف فانه ليس من الممكن تجنب استخدام أفكار معينة مجردة فى معالجة المادة الموجودة وهى أفكار مستمدة من مصادر متباينة . وليست على وجه اليقين - ثمرة الخبرة الجديدة وحدها . وثمة أفكار أكثر أهمية ، وهى تلك التى ستصبح فيما بعد المفهومات الأساسية للعلم ، مع مزيد من الصياغة والتنسيق للمادة . ولا بد لهذه المفهومات فى البداية من أن تتسم بقدر من علم اليقين وليس ثمة امكان بعد لتقييد محتواها وتحديده - ويقدر ما تظل هذه الحالة يقدر ما يكون فهمنا لمعناها بتكرار الإشارة الى مواد الملاحظة وهى التى يبدو أننا قد استتبطننا أفكارنا المجردة منها ولكنها تكون فى حقيقة الأمر خاضعة لهذه الأفكار . وهكذا اذا توخينا الدقة فاننا نجد أنها من نوع الأفكار التقليدية وان كان كل شئ يعتمد على اختيارها بصورة غير تعسفية بل تكون محتومة بما لها من علاقات هامة بالمادة التجريبية - وهى العلاقات التى يبدو أننا نتكيف لها قبل أن نلفظ اليها بوضوح وقبل أن ندل عليها ، ولن يكون من الميسور صياغة المفهومات العلمية فى المجال المعين بوضوح متزايد ، الا بعد مزيد من البحث المنقب فى هذا المجال . ثم نواصل ذلك فنعدل من هذه المفهومات حتى يتسع نطاق امكان تطبيقها وحتى تتسق منطقيا . واذا ذلك ، قد يصبح الموقف مناسباً لاحاطة هذه المادة بالتعريفات

والواقع ان تقدم العلم يتطلب قدرا من المرونة ، حتى في هذه التعريفات .
ويقدم لنا علم الطبيعة تصويرا رائعا للطريقة التي يتغير بها على الدوام
مضمون حتى تلك المفاهيم « الأساسية » التي رسخ قدمها في شكل
تعريفات (١٩١٥ ، ص ٦٠ - ٦١) .

ان فرويد اذن يفضل النمط الاستقرائي الأكثر انفتاحا وغير الصوري
في بناء النظرية ، فهو يظل أوثق اتصالا بالدعائم التجريبية التي يعتمد
عليها ، بالقياس الى النمط الاستدلالي الصوري ، وهو ذلك النمط من
النظريات الذي يبدأ بمفاهيم قاطعة لتعريف ومسلّمات أحسن صياغتها
هي وما يترتب عليها ، مما يمكن من استخلاص فروض قابلة للاختبار
بعد ذلك . وبالإضافة الى هذا ، فان فرويد كما يبين هذا النص كان على
وعى كامل بأهمية « العقل المتأهب » للعالم مما يمكنه من أقصى درجات
استخدام بياناته التجريبية . ويمكن أن تأتي هذه الأفكار المجردة من
مصادر متعددة ، وهي في حالة فرويد القراءات الواسعة للتراث المأثور
وغيره من الآداب ، ومن هوايته لعلم الحفريات ومن ملاحظاته كوالد لستة
أطفال ، ومن خبرات الحياة اليومية بمختلف صورها ، وربما كان أهم من
ذلك كله عاداته التي لازمته طوال حياته ، أعنى تحليله الذاتي لنفسه .

ولنتناول الآن بعض الطرق الخاصة التي يستخدمها فرويد في جمع
المعلومات . وهي تستخدم بالطبع في الموقف العلاجي فهذا هو المجال الذي
يجمع منه فرويد مادته .

التداعي الطليق وتحليل الأحلام :

بعد محاولة قصيرة لطريقة التنويم المغناطيسي (من ١٨٨٧ - ١٨٨٩)
التي شاعت آنذاك شيوعا شديدا وبخاصة في فرنسا ، علم فرويد بأمر
طريقة جديدة يستخدمها زميله وصديقه الدكتور جوزيف بروير بنجاح
في علاج حالة هيستريا . وتقوم هذه الطريقة التي أطلق عليها بروير اسم
« الشفاء بالكلام » أو « التفريغ » قوامها أن يروي المريض التفاصيل التي
لايست ظهور أعراضه للمرة الأولى وكان يعقب ذلك اختفاء الأعراض .
وقد طور فرويد هذا المنهج بالتدرج وخرج منه بطريقته الخاصة به ، وهي
طريقة التداعي الطليق التي يقول عنها أرنست جونر « انه أحد عمليتين
عظيمين في حياة فرويد العلمية » أما الآخر فهو تحليل فرويد لنفسه تحليلا
نفسيا ذاتيا .

ان جوهر طريقة التداعي الطليق هو أن يطلب من المريض أن يقول كل شيء يرد على شعوره مهما بدا ذلك سخيفاً أو غير لائق . ان طريقة التداعي الطليق على عكس طريقة « التفرغ » لا تقف عند منشأ الأعراض . بل انها تسمح . أو بالأحرى تتطلب أن يتحدث المريض عن كل شيء وعن أى شيء يخطر بباله ، دون أى قيود ودون أية محاولة للباس ذلك ثوباً من المنطق والمعنى المنظم المعقول . ودور المعالج دور سلبي الى حد كبير . انه يجلس وينصت ويبحث المريض أحياناً فيسأل عندما يجف معين الكلام لدى المريض ، لكنه لا يقاطع المريض أثناء حديثه . ويستلقى المريض عادة على أريكة في حجرة هادئة بغية خفض تأثير المشتتات الخارجية الى اقصى الحدود .

وقد لاحظ فرويد أن المريض عندما تتحقق هذه الشروط يشرع اذ ذاك في الحديث عن ذكريات تتناول خبرات الطفولة المبكرة . وقد زودت هذه الذكريات فرويد بأول استبصار حقيقي له في تكوين بناء الشخصية وتطورها التالي . ان هذه الطريقة طريقة إعادة صياغة وتكوين الماضي من الأقوال اللفظية الراهنة يمكن مقابلتها بالطريقة الارتقائية التي تقوم على ملاحظة نمو الشخصية وتطورها من الطفولة الى الرشد .

وربما كان أكثر استبصارات فرويد أصالة فيما يتعلق بتجوال أقوال المريض وتقلها دون ضابط ، هو أن كلا من هذه الأقوال يرتبط بصورة ما في معناه ودلالته الدينامية بما قبله من أقوال ، بحيث تكون من البداية الى النهاية سلسلة مستمرة من المستدعيات فكل مايقوله المريض يرتبط بلا استثناء بما سبق له قوله . وقد يكون ثمة التواء أو توقف في الكلام ، الا ان التاريخ العقلي للشخص في نهاية الأمر وتنظيمه الراهن يمكن للمنصت كشفهما اذا تتبع سلسلة المستدعيات عبر المتاهة اللفظية .

وتحليل الأحلام ليس طريقة منفصلة عن طريقة التداعي الطليق . فهو نتيجة طبيعية لما يطلب من المريض من الحديث عن كل ما يخطر بباله وقد تذكر مرضى فرويد الأوائل أحلامهم ثم شرعوا في الادلاء بمستدعياتهم الطليقة لهذه الأحلام . وسرعان ما تحقق فرويد من أن هذه الأحلام المذكورة وما يصاحبها من مستدعيات طليقة كانت مصادر ثرية بصفة خاصة لديناميات الشخصية الانسانية . ونتيجة هذا الاستبصار الذي اختبره فرويد فيما يتعلق بأحلامه هو ، صاغ فرويد النظرية الشهيرة التي تقرّر أن الحلم تعبير عن نشاط محتويات أشد العقل البشري امعانا من البدائية (١٩٠٠) وسمى فرويد العملية البدائية التي تخلق الحلم باسم

« العملية الأولية » وتحاول ، العملية الأولية كما وإينا تحقيق رغبة ، أو تخريف توتر عن طريق ايجاد صورة للهدف المرغوب فيه . وقد استطاع فرويد ، عندما دفع مرضاه الى التداعى الطليق لاحلامهم ، ان يتنفذ الى اعصى وابعاد مناطق العقل الانساني وان يكتشف لب الشخصية وجوهرها .

الحالات التي درسها فرويد :

ان القدر الضخم من المادة الأولية التي صاغ منها فرويد نظريته في الشخصية لن يعرف ابدا . فتاريخ الحالات القليلة الذي اختصار فرويد نشرها تمثل فحسب جزءا ضئيلا للغاية من الحالات التي عالجها . كما ان الاخلاقيات المهنية بخاصة قيدت من عرض فرويد لحالاته على العالم طالما كان خطر تخمين هوية مرضاه قائما من جانب العامة المتطلعين .

وبالاضافة الى تاريخ الحالات التي ظهرت في كتاب « دراسات في الهستيريا » (١٨٩٥) الذي كتبه بالاشتراك مع بروير قبل ان تاخذ نظرية التحليل النفسى شكلها المحدد في ذهن فرويد ، نشر فرويد عرضا لست حالات فقط . واحدى هذه الحالات هي المسماة « بحالة شريبر » (١٩١١) لم تكن لمرضى لفرويد . وانما بنى فرويد تحليله على اساس عرض لسيرة ذاتية لحالة بارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) كتبها القاضي دانيال شريبر . كذلك تتناول حالة اخرى دراسة مخافة (فوبيا) عند طفل في الخامسة من عمره ، وهو هانز الصغير (١٩٠٩) وقد قام بالعلاج والد الصبي نفسه وهو طبيب بتوجيه من فرويد وبحسب تعليماته . أما في الحالات الأربعة الأخرى فكان فرويد هو المعالج ، وتعرف هذه الحالات بالاسماء التالية « دورا » (١٩٠٥ ب) ، و « الرجل الفار » (١٩٠٩ ب) و « الرجل الذئب » (١٩١٨) ، و « حالة جنسية مثلية لاثني » (١٩٢٠ ب) . وقد عرضت كل حالة من هذه الحالات لابرز السمات البارزة لواحد أو أكثر من مفهومات فرويد النظرية .

ويقول فرويد أن نشر حالة دورا كان بهدف ابراز كيف أن تحليل الاحلام يمكن المرء من استخراج الجوانب الخفية والمكبوتة من العقل الانساني ولتوضيح كيف أن الاعراض الهستيرية تحركها الدفعة الجنسية . وقد أتبع فرويد العرض المطول بدرجة ملموسة للعوامل الخلفية والصورة الاكليتنيكية الراهنة ، بتقديم تحليل مفصل حلمين لدورا .

ويتضمن الكثير من المادة عرضا لفظيا لمستدعيات دورا الطليقة ولتفسيرات فرويد ويقدم لنا صورة واضحة أخاذة ، ودقيقة للكيفية التي

تفسر بها الأحلام • ونرى في تاريخ هذه الحالة ، كما نرى في غيرها ، كيف
يجمع فرويد خيوط الشخصية ويستخلص نسيجها من تلك الخيوط اللغوية-
المتشابهة لشخص يقاس ، ونستطيع أن ننفذ بأبصارنا إلى موهبة فرويد-
غير العادية في تبيين العلاقات بين أقوال شديدة التفرق •

ولقد كان فرويد وهو يعمل مفترضا أن كل مايقوله المريض أو يفعله-
له معنى وله مكانه داخل اطار الصورة الكلية لتنظيم الشخصية ، كان
ملاحظا ناقد البصر ، يبحث مدققا في أكثر الأقوال بساطة عن معنى أعمق •

ولم يعتبر فرويد موهبته في الملاحظة شيئا غير عادي على الإطلاق كما
يدل على ذلك النص التالي :

• عندما حددت لنفسي هدف الكشف عما يخفيه البشر داخل نواياهم
لا بواسطة القوة القاهرة للتنويم المغناطيسي ، وإنما بملاحظة ما يقولون
وما يظهرون ، ظننت العمل أصعب مما هو في حقيقة الأمر • فكل ذى
عينين يرى بهما وأذنين يسمع بهما ، يستطيع أن يقنع نفسه أنه ليس ثمة
شخص فان يقدر على إخفاء السر • فإذا أطبق شفتيه ترثر بأطراف أنامله-
ويتصعب الاعتراف منه من كل منفذ • وهكذا نجد أن العمل على إبراز
أعمق الأعماق الخفية من العقل إلى الشعور ، أمر ممكن ومن الميسور تحقيقه
(١٩٠٥ ب ص ٧٧ - ٧٨) •

ان قدرة فرويد المرموقة على استخلاص الاستنتاجات ذات الدلالة-
الكبرى من السلوك المألوف البسيط تظهر على خير وجه فيما يحتمل
أن يكون أكثر كتاباته شعبية وهو « علم النفس المرضى في الحياة اليومية »
(١٩٠٤) • ان هذا الكتاب يفيض بأمثلة لها أهميتها الدينامية لزلات
اللسان البسيطة ، وأخطاء الذاكرة ، والحوادث العارضة ، ومختلف أنواع
الأخطاء •

وقد أتاحت حالة هانز الصغير الفرصة الأولى للتحقق من صدق
نظريته في الجنسية الطفلية - التي صاغها على أساس من ذكريات الراشدين
- بملاحظات تجرى على طفل صغير • وكان هانز يخاف من أن جوادا سوف
يمضه اذا غامر وخرج الى الشارع • وقد استطاع فرويد بوساطة-
المذكرات الدقيقة التي دونها والد الصبي والتي عرض فرويد الكثير منها
كما هي لفظيا في العرض المنشور للحالة ، استطاع فرويد بهما أن
يبين أن هذه المخافة - أو الغويا - كانت تعبيرا عن أهم عقدةين جنسيتين
في الطفولة المبكرة • عقدة أوديب وعقدة الحياء • وتمثل لنا حالة هانز
الصغير نموذجا يؤيد نظرية الجنسية الطفلية كما قدمها فرويد عام ١٩٠٥

أما حالة الرجل الفأر Rat Man الذى كان يعاني من حواز يلازمه حوذاه أن صديقتة ووالده سوف يعاقب كل منهما بأن يرتق بمؤخرتيهما وعاء مليء بالفئران الجائعة الشرهة . وقد ربط فرويد بين ما تتضمنه هذه الحالة من ديناميات وصلات فكرية عصابية حوازية . وبالرغم من أن العرض جزئى ، فإن الحالة تصور بوضوح كيف واصل فرويد حنه للتناقضات الظاهرية والتحريفات والسخافات التى تسم شخصية مريضة تتعلم بين جوانبها الصلات ، فحولها الى نمط منطقي ملتئم . ويذكر لنا فرويد فى عرضه لهذه الحالة أنها تعتمد على مذكرات كانت تدون مساء يوم العلاج . وليست على مذكرات كانت تدون أثناء جلسات التحليل نفسها . وكان فرويد يعارض أى محاولة لاخذ مذكرات من جانب المعالج أثناء فترة العلاج لأنه يعتقد أن سحب اهتمام المعالج سيرقل تقدم العلاج . وكان يعتقد أن المعالج سيتذكر على أى حال المادة الهامة وينسى التفاصيل ائتافهة .

أما تحليل فرويد لحالة شربير فإنها تعتمد على عرض شربير نفسه لمرضه العقلى الذى شخص على أنه جنون البارانونيا (العظمة والاضطهاد) وقد برر فرويد استخدامه لكتاب يقدم السيرة الذاتية لمؤلفه ، على أساس أن البارانونيا نمط من الاضطراب يكون فيه تاريخ الحالة المكتوب على نفس القدر من الكفاية كالمعرفة الشخصية بالحالة . والمرض المميز لجنون البارانونيا هو النظام الهجاسى الاليم الذى يكونه المريض . وقد كانت هواجس شربير تتكون من اعتقاده أنه مخلص وأنه قد تحول الى امرأة . وقد بين فرويد فى تحليل متشابك لهذين الهجاسين أنهما مرتبطان ، وأن القوة الدافعة لكليهما ، وللجوانب الأخرى كذلك من الحالة هى الجنسية المثلية الكامنة . وقد قدم فرويد فى دراسة هذه الحالة فرضه الذائع عن العلاقة العلية بين الجنسية المثلية وجنون البارانونيا . وتصور حالة شربير تصويرا جميلا ولع فرويد باستخلاص تعميمات ذات قوة بعيدة المدى من مجموعة من الوقائع النوعية .

أما حالة « الرجل الذئب » فهى عرض لصاب طفلى أخرج الى السطح أثناء تحليل شاب صغير السن ، ووضع ارتباطه الدينامى بالحالة الراهنة للمريض . وقد لاحظ فرويد أن تحليل خيرة وقعت منذ قرابة خمسة عشر عاما مضت لها فائدتها ، كما أن لها ضررها ، عندما تقارن بتحليل حادثة بعد حدوثها بفترة قصيرة . والعييب الأساسى هو عدم امكان الثقة بالذاكرة بالنسبة للخبرات المبكرة . ولكن من ناحية أخرى ، اذا حاول المرء أن يحلل طفلا صغيرا للغاية فإن مساوى ذلك أنه لن يستطيع التعبير عن نفسه - أى الطفل - لغويا . والرجل الذئب هو الراشد المناظر لها تزن

الصغير ، وتتضح قيمة الطريقتين ، طريقة اعادة التكوين والبناء والطريقة الارثاقية بوصفهما مصدرين للدلائل التجريبية لنظريات التحليل النفسى . ان السمة الرئيسية لتاريخ هذه الحالة هى التحليل المستفيض. لحلم الذئب الذى تذكره الطفل من طفولته المبكرة والذى فسر بوصفه نتيجة استجابة الطفل « لمشهد اولى » وهو الاصطلاح الذى استخدمه فرويد لمشاهدة الطفل أو لتخييله - قيام والديه بجماع جنسى .

اما آخر الحالات التى ذكرها فرويد ، فهى حالة اضطر الى قطعها لمقاومة المريضة مقاومة بالغة للتخل عن جنسيتها - المثلية ، حتى استحال حدوث أى تقدم . وبالرغم من ذلك ، فتاريخ الحالة كما هى منشورة بين. أن فرويد قد استطاع أن يصل الى فهم كامل لمنشأ الجنسية المثلية وتطورها وترجع الجنسية المثلية لدى الجنسين الى عاملين أوليين ، ثنائية جنسية موروثية لدى جميع الكائنات الحية ، وقلب العقدة الأوديبية ، فبدلا من أن تحب هذه المرأة أباه وتتمين ذاتيا بأهها ، تعين ذاتيا بالأب وشحنت الأم . أما فى حالة الجنسية المثلية لدى الذكر فان التعيين الذاتى يكون بالأم والمحب للأب . وتتضمن هذه الحالة كذلك بعض آراء فرويد فى الانتحار ، اذ أن السبب فى ذهاب المرأة الى فرويد كان فى المقام الأول محاولتها تدمير نفسها .

ومن المستحيل أن نقول بأية درجة من اليقين : هل تاريخ هذه الحالات وبخاصة تلك التى اختار فرويد نشرها كانت هى المصادر الحقيقية التجريبية للنظريات التى تجسدها ، أو : هل كانت مجرد نماذج مناسبة وواضحة للصياغات النظرية التى كانت قد تكونت من قبل فى ذهن فرويد . والحقيقة أن الأمر لا يختلف كثيرا سواء كانت حالة شربير - على سبيل المثال - هى الحالة التى كشفت لفرويد عن ديناميات جنون البارانونيا أو أنه كان قد وصل الى هذا الكشف الأساسى على أساس من حالات سابقة ثم طبقه على هذه الحالة بعينها فحسب . وعلى أية حال فنوع المادة التى جمعها فرويد ، ونوع الأساليب الفنية التى استخدمها ، والطريقة التى فكر بها تكشف عنها دراسة هذه الحالات الست . وإى شخص يريد الاقتراب من المادة الخام التى استخدمها فرويد يجب أن يقرأها .

وعلى المرء ألا يخلط بين تاريخ هذه الحالات وتطبيق نظرية التحليل النفسى بقصد فهم أحسن للآداب والفنون أو لأغراض النقد الاجتماعى . ان فرويد لم يتعلم شيئا عن التسامى من دراسته لحياة ليوناردو دافنتشى كما أنه لم يكتشف عقدة أوديب من قراءته لسوفوكليس أو شكسبير أو

جوستويفسكي . كما انه لم يصل الى اعماق اللامنتطقية في تفكير الانسان من ملاحظة للسلوك الديني أو السياسي . وان تفسير عمل أدبي أو تحليل نظام اجتماعي باستخدام ماتزودنا به نظرية التحليل النفسي من استبصار قد يكون ذا عون في تأييد صلاحية هذا الاستبصار ، بل وربما في اثبات صدقه وشرعيته وعموميته ، الا أن الأدب والانتاج الفني ، والنظم الاجتماعية ، لا تشكل في حد ذاتها أي جانب من مادة فرويد التجريبية .

تحليل فرويد لذاته تحليلا نفسياً :

ان المادة التي انتزعها فرويد من لا شعوره هو نفسه ، قد شكلت مصدرا هاما من المادة التجريبية عند فرويد . وكما يقول ارنست جونر (١٩٥٣) بدأ فرويد تحليله الذاتي في صيف عام ١٨٩٧ بتحليل أحد أحلامه . ومن هذا الفحص المنقب لذاته تأكدت لدى فرويد بالقدر الذي يرضيه نظرية الأحلام ونظرية الجنسية الطفلية . ولقد وجد في شخصيته هو ذاته ما لاحظته في مرضاه من الصراعات والتناقضات واللامنطق ، وربما كانت خبرته هو ذاته التي أقنعته أكثر من أي شيء آخر بصحة أفكاره في أساسها . والحقيقة أن فرويد كان عازفاً عن تقبل صدق أي فرض . حتى يختبر صدقه في نفسه ذاتها . وقد واصل فرويد تحليله الذاتي لنفسه طوال حياته فكان يحتفظ بنصف الساعة الأخير من كل يوم لهذا النشاط .

المكانة الراهنة والتقييم :

لقد كان فرويد ، أثناء حياته « كبير بنائي » نظرية التحليل النفسي . وهو وحده الذي أرسى معالم مسار تطورها ، وتحمل وحده مسئولية مراجعاتها الكبرى . واذا ما حدث وقسم أي من تلامذته نظريات خاصة تنحرف انحرافا له دلالتة عن المخطوط الرئيسية لتفكير فرويد ، فإنه كان يستبعد من العائلة الرسمية للتحليل النفسي . وقد يستطيع تابع التحليل النفسي التقليدي (أو الأرثوذكسي) أن يسهم بأفكار جديدة لكنها لا بد أن تحظى بقبول فرويد وأن تندرج داخل اطار نظريته . لقد تولى فرويد في غيره حراسة انجازاته الأثيرة لديه من هجوم الآخرين واعتدائهم .

وعندما مات فرويد واجه تابعوه مهمة عسيرة ، وهي أن يقرروا ما يجب عمله بالنسبة لمستقبل تطور نظرية التحليل النفسى . ولقد كان المسار الذى اختاروه ، كما تشهد عليه كتاباتهم النظرية هو تنمية وإكمال الجوانب التى لم يكتمل تطورها فى نظام فرويد ، وإبراز بعض مسلمات فرويد بصورة واضحة ، وتحديد تعريفات بعض المفهومات الأساسية تحديدا دقيقا ، ومد آفاق الظواهر التى تنطويها التفسيرات التحليلية النفسية ، وكذلك استخدام طرق للملاحظة غير المقابلة التحليلية النفسية بهدف التحقق من صلتها القضايا المستمدة من النظرية الفرويدية . ولكن من الكتابات الحديثة التى يسهم بها المفكرون التحليليون ، تخصص الفقرات الافتتاحية لمرض ما يقوله فرويد عن الموضوع الذى يتناولونه بالمرض ، ثم يتبعون ذلك بإضافات الكاتب وتوضيحاته للموضوع . فيشار الى كتابات فرويد بوصفها السلطة الأولية ، وتنشر المقطعات منها بسخاء على طول المقال لتبرير النقاط المختلفة التى يبرزها الكاتب . وبالرغم من هذا الولاة : لقوى لفرويد من جانب تابعيه وميلهم المفهوم الى معاملة المنشور من أعماله بوصفها كتابات مقدسة ، فان من الممكن كشف اتجاهات جديدة فى كتابات التحليل النفسى التى ظهرت خلال السنوات العشرين الأخيرة .

وسنناقش خمسة من هذه الاتجاهات ، وهى كما يلي :

١ - تطوير الأنا وتنميته بوصفه جهازا للشخصية على قدر ما من

الاستقلال الذاتى .

٢ - تزايد التأكيد على المحتمات غير الفريزية للشخصية .

٣ - دراسات الملاحظة للأطفال والرضع .

٤ - الاختبار التجريبي لفروض التحليل النفسى .

٥ - تزايد الالتقاء بين التحليل النفسى وعلم النفس .

وبالرغم من أن فرويد اعتبر الأنا السلطة الادارية للشخصية الكلية على الأقل فى حالة الشخص الصحيح غير المريض ، فانه لم يسلم له بوضوح قائم على الاستقلال الذاتى ، بل انه يظل دائما تابعا لرغبات الهوى خاضعا لها . وفى آخر ما قاله فى نظرية التحليل النفسى (١٩٤٠) ردد فرويد ما سبق أن قاله مرات كثيرة : « هذا الجزء الأقدم (الهوى) للجهاز النفسى يظل أكثر أهمية طوال الحياة (ص ١٤) ، ان الهوى وغرائزه تعبر عن « الغرض الحقيقى لحياة الكائن الحى الفرد » وليس ثمة تساؤل عما كان

فرويد يشعر به بخصوص العلاقة بين الأنا والهو : ان الهو العضو المسيطر
على هذه الشركة .

ان التفكير الجديد بين منظري التحليل النفسي يزيد من دور الأنا في الشخصية الكلية (كوريه ١٩٤٠ ، هارتمان ١٩٤٥ ، ١٩٥٠ ، وهارتمان وكريس ولوفنشتاين ١٩٤٧ ، رابابورت ١٩٥١ ب ، فرنش ١٩٥٢) . وهؤلاء لم يتناولوا فحسب مشاكل مثل نمو مبدأ الواقع في الطفولة وعمليات الأنا المساعدة في الإدراك ، والتذكر ، والتفكير والفعل ، ودفاعات الأنا ، بل انهم قدموا كذلك مفهوم الاستقلال الذاتي للأنا ، وتبدأ مناقشة وظائف الأنا المستقلة استقلالا ذاتيا عادة بالاستشهاد بنصوص من مقالات فرويد الأخيرة والتي يقول فيها : « ولكن يجب علينا ألا نتجاهل حقيقة أن الهو والأنا هما في الأصل شيء واحد ، وان ذلك لا يعنى اسرافا غيبيا في تقويم الوراثية اذا ما تصورنا أن من المقبول ، وحتى قبل أن يوجد الأنا أن تكون الخطوط التالية لتطوره ، وميوله واستجاباته محددة سلفا . (فرويد ١٩٣٧ ص ٣٤٣ - ٣٤٤) ويتقدم ابتداء من هذا النص ، منظرون بارزون مثل هارتمان وكريس ولوفنشتاين (١٩٤٧) يفترضون أن هناك مرحلة غير متفاضلة في بداية الحياة يتكون خلالها كل من الأنا والهو وبعبارة أخرى ، لا يخرج الأنا من هو موروثا وانما لكل من النظامين أصله في الاستعدادات الموروثة ، كما أن لكل منهما مسار نموه المستقل الخاص به . وبالإضافة الى ذلك فانهم يؤكدون أن عمليات الأنا تعمل بواسطة طاقة جنسية وعدوانية محايدة ، وأن أهداف هذه العمليات يمكن أن تكون مستقلة عن الأهداف الغريزية الحالصة . ومن هذه الفروض خرجت الى الوجود « سيكولوجية الأنا » الجديدة ، وهي سيكولوجية يمثل فيها الأنا كنظام عقلي (منطقي) مستول عن الانجازات العقلية والاجتماعية ، نظام لا يعتمد أداءه لوظائفه ، اعتمادا كليا على رغبات الهو . ان له مصادر طاقاته الخاصة به ، ودوافعه واهتماماته الخاصة وأهدافه الخاصة . ان سيكولوجية للأنا كهذه ، يبدو أنها تشكل خروجا جذريا على تقليد التحليل النفسي .

ويشير مختلف نقاد التحليل النفسي مرة تلو أخرى الى أن فرويد أعطى الوراثية والنضج وزنا أكثر مما يجب ، ووزنا أقل مما يجب للمات الشخصية المكتسبة اجتماعيا . ونتيجة ذلك ، ظهور ميل ملحوظ بين المنظرين الحاليين المنتمين الى تقاليد التحليل النفسي الى الاقلال من دور الفرائز ، وابرار التغيرات السيكولوجية والاجتماعية التي يعتقد أنها تشكل الشخصية . ومثال ذلك أن تجد في التراث ميلا الى استخدام اصطلاح

« البلاء » بدلا من « الفريزة » . أما مفهوم غريزة الموت ، وليس مفهوم المدوان ، فانه إما أن يقابل بالتجاهل أو أن يرفض صراحة بوصفه زعما لا يمكن التمسك به . كما نقل مناقشة موضوع مثل « الفرائز وتقلباتها » أو نظرية « الليبدو » على حين يتزايد الحديث عن اكتساب سمات الشخصية عن طريق الخبرة ونتيجة الظروف الاجتماعية . وبالرغم من أن فرويديين المحدثين قد تولوا قيادة « تجريد التحليل النفسي من علم الحياة » (انظر الفصل الرابع) فان هذا الميل يبدو ملحوظا أيضا في كتابات فرويديين التقليديين وبخاصة هؤلاء الذين يفضلون سيكولوجية الأنا .

ويشير هارتمان وكريس (١٩٤٥) في مقال لهما عن المنهج الارتقائي في التحليل النفسي الى أن تفكير فرويد بالنسبة لتطور الشخصية كان مرتبطا أساسا بنظرية التطور ، وأنه مال نتيجة لذلك الى تفسير انمو من خلال مفهومات تطور الانسان . ويعتقد الكاتبان أن من الممكن تفسير نمو الشخصية بكفاءة أكثر عن طريق تاريخ حياة الفرد . وهما يعتقدان علاوة على ذلك أن مثل هذه التفسيرات أكثر قابلية للاختبار التجريبي . وقد كان الاختبار التجريبي للفروض الارتقائية يستخدم طريقة استعادة التكوين للخبرات المبكرة للشخص عن طريق ذكرياته وهو راشد تلك الذكريات التي تستعاد أثناء العلاج بالتحليل النفسي . ويقترح هارتمان وكريس أن تضاف الى هذه المادة الملاحظات المباشرة للرضع والأطفال . وقد أجرى عدد كبير من الدراسات الارتقائية في السنوات الأخيرة بواسطة باحثين مدربين في التحليل النفسي ، وقد ورد الكثير منها في الأعداد الثانوية لسلسلة الدراسة التحليلية النفسية للطفل « (أنا فرويد وآخرون (١٩٤٥) .

ويرتبط بالاهتمام بالملاحظات المباشرة للأطفال أثناء نومهم ، الاستخدام المتزايد لمناهج أخرى غير تحليلية لاختبار الفروض المستمدة من التحليل النفسي (ازريل ، فارل ، منتجلر ١٩٥١ ، ايزاكس ، لايمان ، ناولس ١٩٥١) . وتعكس هذه النزعة اتجاه بعض المحللين النفسيين وكثيرين من الاخصائيين النفسيين نحو وجوب عدم اعتماد التحليل النفسي لتحقيق فروضه على المادة المستخلصة من المرضى الذين يعالجون فقط بل عليه أن يختبر هذه الفروض في العمل وفي مواقف أخرى يمكن فيها التحكم في المتغيرات والسيطرة عليها . وقد قام سيرز (١٩٤٣ ، ١٩٤٤) ، وهيلجارد (١٩٥٢) وماسرمان (١٩٥٢) ، وكيوبي (١٩٥٢) ، وبلوم (١٩٥٣) بمسح للدراسات التجريبية التي تدل بوجودها سواء بصورة مباشرة أو غير

مباشرة لتأثير نظرية التحليل النفسي ، وقد استخدمت في هذه الدراسات الحيوانات كما استخدم البشر (ليفي ١٩٥٢) .

وكما لاحظنا فيما سبق : ان التحليل النفسي كنظرية سيكولوجية لها قوامها ، وقد تطورت بمعزل عن الخطوط الرئيسية لعلم النفس العام . والحقيقة أنه كان هناك ميل واضح الى النظر الى التحليل النفسي وعلم النفس بوصفهما علمين منفصلين وهو أمر يسبب الحاح للشخص العادي اذ أنه لا يستطيع أن يفهم بسهولة طبيعة الاختلاف بينهما . الا أن هذه الطريقة في التفكير أصبحت أقل شيوعاً في السنوات الأخيرة . فالميل الراهن هو اعتبار التحليل النفسي جزءاً من علم النفس شأنه في ذلك شأن أى نظرية أخرى في السلوك . ان هذا لا يعنى أن جميع الاختصاصيين النفسيين أو غالبيتهم قد اقتنعوا بصدق نظرية التحليل النفسي أو بفائدتها والحقيقة أن كثيرين منهم يرفضونها الا أنهم لم يعودوا ينظرون اليه بوصفه نظرية غريبة على علم النفس فيرفضوها على هذا الأساس . ولقد كان فرويد بالطبع يطابق بين التحليل النفسي وعلم النفس ولم يجعل بخاطره في وقت ما أنه يخلق فرعاً منافساً من فروع المعرفة .

ان الالتقاء المتزايد بين التحليل النفسي وعلم النفس قد مهد له عدد من العوامل (هول ، وليندزى ١٩٥٤) وقد أسهم علماء مرموقون من الجانبين لهم رأيهم المهني في صياغة وإقامة مزيد من الوحدة في وجهة النظر .

وقد اهتم بعض السيكلوجيين اهتماماً عميقاً بنظرية التحليل النفسي ، وقاموا بدراسات شاملة حفزتهم اليها نظرية التحليل النفسي ، ومن هؤلاء كيرت ليفين وهنري موراي والز فرانكل بروتشفيك ودافيد ساندرود وارنست هيلجارد . وقد صاغ دافيد رابابورت ونيفيت في مقال بالغ الأهمية (١٩٥١ أ) نموذجاً تصورياً فكرياً للتحليل النفسي وثيق الاتصال والتداخل بمدد من المفهومات السيكلوجية . ونذكر من بين المحللين ارنست كريس وهينز هارتمان ، وتوماس فرنش ودافيد ليفي واريك اريكسون ، وهذه ليست الا أسماء القليل من المحللين النفسيين الذين يبدون اهتماماً ودوداً نحو علم النفس ويشجعون إقامة علاقات أوثق بين المجالين . وقد أسهمت في إقامة مزيد من الوحدة الفكرية حلقات الدراسة التي تجمع الاختصاصيين النفسيين المهتمين بفحص العلاقات المتبادلة بين المجالين (فرنكل - برنشفيك ، ريسفيلد ، سكريفين وسكينر ١٩٥٤ ، بيان - ميندلبن ١٩٥٢) .

وثمة عامل آخر هو مبلغ شروع ممثلي كل من التقليديين في معالجة المشاكل التجريبية المتداخلة بينهما . وقد تزايد اهتمام السيكلوجيين بالدافعية وأدى ذلك الى تناول أهمية نظرية فرويد وصلتها بهم ، على حين وجد المحللون النفسيون المشتغلون بتطوير نظرية الأنا أنفسهم مضطرين الى الاعتراف بدلالة بعض العمليات السيكلوجية التقليدية . وقد نبه ظهور علم النفس الاكينيكي خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها الكثير من السيكلوجيين الى فائدة نظرية التحليل النفسي . فعندما تطلب الأمر منهم القيام بوظائف التشخيص والعلاج وجدوا لدى فرويد نوع الفروض والمفاهيم التي تساعدهم بمزيد من الكفاءة في تناول حالاتهم . وأصبح لا مفر تقريبا من أن يفيد المعمل من العيادة وبخاصة بالنسبة لحقيقة قائمة وهي أن الاخصائي النفسي هو نفسه كثيرا ما يعمل في العيادة وفي المعمل معاً . هذا بالإضافة الى أن وقع التحليل النفسي على تيار الفكر المعاصر بأسره كان له تأثير شامل لم يكن في إمكان الاخصائيين النفسيين أن يظنوا بعزل عنه . ومع تزايد نمو سمعة فرويد في العالم بأسره أصبح من الصعب على الاخصائيين النفسيين ألا يدعوا انتسابه لهم .

غير أنه لا زال غير صحيح أن نستنتج أن علم النفس والتحليل النفسي قد وجدا أرضاً مشتركة للتفاهم . فلا زال التحليل النفسي ، في الولايات المتحدة على الأقل ، أوثق ارتباطاً بالطب منه بعلم النفس . ومن الصعوبة البالغة أن يصبح المرء محللاً معترفاً به دون دراسة الطب قبل ذلك ، بالرغم من أن فرويد كان يشعر - في الحقيقة - أنه ليس من الضروري الحصول على درجة في الطب لممارسة التحليل النفسي (١٩٢٦) . ولكل من المحللين النفسيين والاختصاصيين النفسيين تنظيمااتهم المهنية ، ونادراً ما يلتقي بعضهم ببعض الآخر مهنياً .

كما أنهم لا يلتقون على مفترق الطرق كثيراً جداً ، في مستوى التدريب في الدراسات العليا . إن جميع هذه العوامل بالإضافة الى قدر لم يصف بعد من الشك المتبادل والعداء يعمل على بقاء المجموعتين متباعدين .

ولم تتعرض أي نظرية أخرى للنقد الناقب ، والمرير كثيراً ، كما تعرض التحليل النفسي . فمن كل جانب وفي كل مضمار يمكن تصوّره تعرض فرويد وتعرضت نظريته للهجوم والنقد والسخرية والتجريح . والحالة الوحيدة المماثلة في العلم الحديث التي تعرضت فيها النظرية وصاحب النظرية للتجريح الحاد هي حالة تشارلز داروين التي هزت نظريته التطورية الجلترا الفيكتورية . إن أخطاء فرويد الاساسية هي أنه نسب

الى الطفل رغبات شهوية وتدميرية ، كما أنه نسب الى جميع البشر دفعات نحو المحارم ونمو الجنسية المثلية ، كما أنه فسّر سلوك الانسان على أساس من دوافع جنسية . لقد روع ذلك ذوى الخلق الرقيق وأغضبهم رأى فرويد فى الانسان فاتهموه بالانحراف والانحلال .

ونحن لا نهدف الى استعراض النقد الذى وجه الى التحليل النفسى طوال نصف قرن . فالكثير منه لا يكاد يكون أكثر من صوت أناس ملكهم الغضب . كما أن قدرا كبيرا من النقد أصبح عتيقا بفضل التطورات التالية فى تفكير فرويد . كما أن قدرا كبيرا من هذا النقد ، كما نستطيع أن نتبين ذلك الآن ، كان يقوم على تفسيرات وتحريفات خاطئة للتحليل النفسى . وأن استعراض الانتقادات المرجحة للتحليل النفسى بشكل مقبول يتطلب كتابا بأسره لا يقل فى ضخامته عن كتابنا هذا . ولكننا سنناقش بدلا من ذلك نماذج متعددة من الانتقادات ووجهت تكرارا الى التحليل النفسى ولازالت تدور حولها المناقشات على نطاق واسع .

ويؤكد نمط من الانتقادات أن ثمة قصورا خطيرا فى الخطوات التجريبية التى استخدمها فرويد فى اثبات صدق فروضه . ويشار الى أن فرويد أجرى ملاحظاته فى ظروف تفتقر الى الضبط كذلك يعترف فرويد أنه لم يسجل لفظيا ما يقوله هو والمرضى وما يفعلونه فى ساعة العلاج ، وإنما كان يعمل من مذكرات يسجلها بعد ذلك بساعات عديدة . ومن المستحيل أن نقرر مبلغ امكان الثقة فى عكس هذه المذكرات للوقائع كما حدثت فعلا . الا أن الحكم بناء على تجارب الشهادة يجعلنا نقول انه ليس من غير المحتمل أن تزحف التحريفات والحذف بمختلف أنواعهما الى السجل . أن زعم فرويد أن المادة ذات الدلالة سوف تذكر وأن الأحداث التافهة سوف تنسى لم تتأكد قط صحتها بل وتبدو غير محتملة .

وكذلك يأخذ الناقدون لمنهج فرويد ، عليه قبوله لما يقوله له مرضاه كما هو ، دون محاولة التيقن منه بوساطة أى شكل من أشكال البرهان الخارجى . وهم يعتقدون أنه كان يجب عليه الحصول على برهان أو دليل من الأقارب أو المعارف أو الوثائق أو نتائج الاختبارات ، والمعلومات الطبية الا أن فرويد كان يرى أن ما هو هام لفهم السلوك للانسانى هو المعرفة الشاملة بالاشعور الذى يمكن الوصول اليه عن طريق التداعى الطليق وحده ، وتحليل الأحلام .

وبهذا السجل الذى لاشك فى أنه غير كامل والذى يحتمل احتمالا كبيرا أنه غير دقيق شرع فرويد فى استخلاص الاستنتاجات والوصول الى

النتائج بواسطة طريقة في الاستدلال المنطقي نادرا ما كانت تبدو سافرة .
 فعظم ما نجده في كتابات فرويد هو النتيجة النهائية لتفكيره - أى
 الاستنتاجات النهائية بدون المادة الأصلية التى يعتمد عليها ، ودون عرض
 وتفسير لمنهجه فى التحليل ودون أى عرض منظم كميما كان أو كيفيما
 لنتائجه التجريبية . والمطلوب من القارىء هو أن يتقبل عن ثقة صدق
 عملياته الاستقرائية والاستنباطية . ونتيجة ذلك أنه يستحيل عمليا
 لكرار أى من بحوث فرويد بأى قدر من الثقة فى أن المرء يسير بحسب
 الحطة الأصلية . وقد يساعد ذلك فى تفسير السبب فى أن باحثين آخرين
 قد وصلوا الى نتائج تختلف تماما ، وكذلك السبب فى أن هناك تفسيرات
 كثيرة لما يبدو أنها نفس الظاهرة .

لقد تجنب فرويد أى معالجة كمية لمواده التجريبية ، الأمر الذى
 يجعل من المستحيل وزن الدلالة الاحصائية لملاحظاته وثباتها فى أى عدد
 من الحالات مثلا ، وجد فرويد ارتباطا بين جنون البارانونيا (العظمة
 والاضطهاد) والجنسية المثلية ، وبين الهستيريا والتثبيت على المرحلة القمية
 وبين الرغبة والخافة (الفوبيا) ، وبين مشهد أولى وعدم الاستقرار والثبات
 وكم عدد الحالات التى درسها ممن تنتمى الى نمط معين ، والى أى الطبقات
 والأصول تنتمى هذه الحالات ؟ وما هى المقاييس والمعايير التى استخدمت
 فى نسبة حالة معينة الى فئة اكلينيكية محددة ؟ وهل كان يحدث أن يراجع
 فرويد تفسيراته على تفسيرات محلل آخر كفء حتى يتيقن ثبات
 حكمه؟ ان هذه الاسئلة وأسئلة عديدة غيرها ذات طبيعة مماثلة هى ماتساور
 عالم النفس الذى يدين بالاتجاه الكمي .

وان عزوف فرويد عن اتباع التقاليد العلمية الكاملة فى تسجيل
 التقارير المتعلقة بمادته يترك الباب مفتوحا لكثير من الشكوك حول
 المسكنة العلمية للتحليل النفسى . ترى - مثلا - هل كان فرويد يرى فى
 الحالات التى يدرسها ما كان يريد أن يعثر عليه فيها ؟ وهل كانت
 استنتاجاته تتأثر بتحيزاته أكثر مما تتأثر بما بين يديه من مادة ؟ وهل
 كان يختار فقط الأدلة التى تتفق مع فروضه معرضا عن الحالات السلبية ؟
 وهل كان التداعى الطليق أو الحر لمرضاه حرا حقا ، أو أنهم كانوا يخبرون
 فرويد بما كان يريد أن يسمعه منهم ؟ وهل قدم فرويد نظرية شاملة
 للشخصية يفترض صلاحيتها لجميع الناس بناء على استنتاجات توصل اليها
 من الأقوال اللفظية لعدد صغير نسبيا من المرضى غير المنطيين ؟ ثم ما هو
 مبلغ الأدلة القاطعة لدى فرويد التى تؤيد تأملاته المتحذقة المتكلفة للفصاحة ؟

وما هي أوجه الحرص التي يتسلح بها حيال مزائق التائر بالذاتية ؟ ان هذا الضرب من الأسئلة القى ظلالة من الشك على نظرية التحليل النفسى .

لقد حص لورانس كيويى المحلل النفسى المرموق القيود التي تقيد التحليل النفسى كعلم أساسى على الوجه الآتى :

« انها بصفة عامة (أى الحدود) يمكن أن نلخصها بالقول بان التخطيط الاساسى لعملية التحليل النفسى يتوفر له الصدق العلمى الاساسى ، الا أن صعوبات التسجيل والاسترجاع فيما يتعلق بالملاحظات الأولية ، والصعوبات المترتبة على ذلك بالنسبة لاستخلاص البناء التصورى الذهنى الاساسى ، والصعوبات فى اختبار العلاقة الدائرية - بدرجة مماثلة من السهولة - من اللاشعور الى الشعور ومن الشعور الى اللاشعور ، وصعوبات التقويم الكسئ للمتغيرات المتعددة وأخيرا صعوبات تقدير تلك الاشياء التي تزيد وتلك التي تنقص من دقة فروضه وصدق تنبؤاته ، هذه جميعها من المشاكل العلمية الأساسية التي تظل تتطلب الحل » (١٩٥٣ - ١٤٣ - ١٤٤) .

ونمط آخر من النقد يهاجم النظرية ذاتها ، ويقول ان النظرية فى الحقيقة نظرية « سيئة » لأن الكثير من اجزائها لا يترتب عليه نتائج تجريبية ، كما انه لا يمكن أن يجعل نتائج تجريبية تترتب عليها .

فعل سبيل المثال ، يستحيل اشتقاق أى فروض تجريبية من افتراض غريزة الموت . ولذلك تظل الرغبة فى الموت « باقية فى غياب الظلام الميتافيزيقى » ولا يكون لها أى معنى بالنسبة للعلم . وبالرغم من أن المرء يمكن أن يستخدم الرغبة فى الموت فى « تفسير » ظاهرات معينة كالانتحارات والحوادث فإن مثل هذه التفسيرات التالية على وقوع الحوادث ذاتها لا تعنى الا القليل جدا . انها مثل الرهان على الحصان بعد اشتراكه فى السباق . ان النظرية الجيدة ، على العكس ، تمكن مستخدمها من التنبؤ مقدما بما سوف يحدث . وقد يفضل بعض الناس جمع حشد من المواد التي يبدو أنها غير مرتبطة بعضها ببعض الآخر وتنظيمها تحت عنوان واحد هو الرغبة فى الموت ، الا أن التفضيلات من هذا النوع تتم عن اهتمامات هذا المنظم وليس عن صدق هذا العنوان أن استخدام الرغبة فى الموت على هذه الصورة ليس أكثر من شعار .

وتتميز النظرية الفرويدية بقصور واضح فى قدرتها على تقديم قواعد علاقية ، يمكن بها الوصول الى أى توقعات محددة لما سوف يحدث اذا ما وقعت لمصلحة معينة . فما هى على وجه الدقة طبيعة العلاقة بين

المجربات الصادمة ، ومشاعر الاثم ، والكبت وتكوين الرمز والحلم ؟ ما الذى يربط تكوين الأنا الأعلى بعقدة أوديب أن هذه الأسئلة وآلانا أخرى غيرها لازالت تنتظر الاجابة فيما يتعلق بالنسيج المتشابك من المفهومات والفروض التى استخلصها فرويد .

والنظرية تلزم الصمت ازاء المشكلة المقعدة ، وهى كيفية قياس التفاعل بين الشحنات المضادة كيميا . والحقيقة أنه لا يوجد أى تحديد لكيفية قيام المرء بتقدير الفروق الكمية حتى ولو بأبعد الطرق عن الدقة . فمثلا الى أى حد يجب أن تكون المجبرة حادة حتى يكون لها اثر صدمى ؟ أو الى أى درجة يجب أن يكون الأنا ضعيفا حتى يمكن للدفعات الفريزية أن تقهره وتسيطر عليه . وبأى الصور تتفاعل الكميات المختلفة بعضها مع البعض الآخر لتؤدى الى نتيجة معينة ؟ وبرغم هذا فكل شىء يعتمد فى التحليل النهائى على مثل هذه التحديدات . وبدون القدرة على الوصول اليها لا يمكن استخلاص القوانين .

وإذا سلم المرء بأن نظرية التحليل النفسى تعانى من نقصين خطيرين على الأقل ، أولهما أنها نظرية « سيئة » وثانيهما أنها لم تتأيد بالطرق العلمية الجديرة بالاحترام ، (بالإضافة الى حقيقة مؤداها أن انتقادات أخرى كثيرة يمكن توجيهها) فإن السؤال الذى يواجهنا يصبح اذن لماذا يأخذ أى شخص نظرية التحليل النفسى مأخذ الجد ، ولماذا لم تنحدر الى غياهب النسيان منذ زمن طويل وكيف يمكننا أن نفسر ما لها من مكانة مرموقة وتأثير قوى فى العالم اليوم ؟

ان حقيقة الأمر أن نظريات السلوك نظريات على قدر من الفقر ، وأنها جميعا تفتقر الى الكثير مما يلزم وجوده ، للبرهنة العلمية . أن أمام علم النفس طريقا طويلا لابد أن يقطعه قبل أن يصبح علما دقيقا . لذلك يجب على الاخصائى النفسى اختيار النظرية التى يزعم اتباعها لأسباب غير تلك التى تتعلق بالكفاءة الشكلية والأدلة والبراهين الحقيقية .

ما الذى تقدمه اذن نظرية التحليل النفسى ؟ ان بعض الناس يحبون اللغة الجميلة التى يستخدمها فرويد فى اسقاط أفكاره . فهم ينجذبون الى الطريقة الماهرة التى يستخدم فيها الاشارات الأدبية والاسطورية ليعرب عن أفكار عميقة ومستفلكة ، والى موهبته فى تحوير الجملة أو فى صياغة تشبيه لغوى ليوضح للقارىء نقطة صعبة . أن أسلوبه فى الكتابة يتسم بخاصية أدبية مثيرة وهو أمر نادر بين العلماء . ويتأثر هذا الأسلوب أفكارا مثيرة هى الأخرى . فكثير من الناس يجدون فى مفهومات فرويد

المجازية والاثارة . ان الجنس بالطبع موضوع له اغراضه وله قيمته في الاستشارة الحسية حتى وان نوقش في الكتب العلمية ؟ (انظر كينزى) ان العدوان والتدمير يثير الانتباه بقدر ما يثيره الجنس ولذلك فانه من الطبيعي أن يتجنب الناس الى كتابات فرويد .

الا أن الأسلوب الأدبي الجميل والموضوع المثير ليسا السببين الرئيسيين للتقدير العظيم الذي يحظى به فرويد . بل الأخرى أن سبب ذلك هو أن أفكاره مثيرة متجددة ، وأن تصوره للانسان شامل وعميق معا ولأن لنظريته دلالتها في عصرنا هذا ربما لم يكن فرويد عالما دقيقا أو واضح نظرية من الطراز الأول ، الا أنه كان ملاحظا صبوراً ومدققاً وثاقب النظر . ومفكراً جسوراً ومنظماً وشجاعاً ومبتكراً . وبالإضافة الى هذا كله ، وأهم من جميع مزايا نظريته هذه الميزة الفريدة : انها محاولة لتصوير انشخص المكتمل الحى الذى يعيش جزئياً - فى عالم الواقع - وجزئياً - فى عالم من الوهم تحاصره الصراعات والتناقضات الداخلية ، وبرغم هذا فهو قادر على التفكير والعمل العقلى ، تحركه قوى لا يعرف عنها الا القليل ، وطموح لا طاقة له على بلوغه ، آناً تختلط الأمور عليه وآناً آخر يصفو ذهنه ، ويتقافزه الاحباط والاشباع ، الأمل ، واليأس ، الأثرة والايثار . انه بايجاز كائن بشرى معقد .

ويرى الكثيرون أن هذا التصور للانسان به قدر جوهرى من الصلح .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Freud, S. *The standard edition of the complete psychological works*. J. Strachey (Ed.). London: Hogarth Press, 1953— .
- Freud, S. The interpretation of dreams. In *Standard edition*. Vols. IV and V. London: Hogarth Press, 1953. (First German edition, 1900).
- Freud, S. The psychopathology of everyday life. In *The basic writings of Sigmund Freud*. New York: Random House, 1938. (First German edition, 1904.)
- Freud, S. Three essays on sexuality. In *Standard edition*. Vol. VII. London: Hogarth Press, 1953. (First German edition, 1905a.)
- Freud, S. *A general introduction to psychoanalysis*. Garden City, N.Y.: Garden City Publishing Co., 1943. (First German edition, 1917.)
- Freud, S. Beyond the pleasure principle. In *Standard edition*. Vol. XVIII. London: Hogarth Press, 1955. (First German edition, 1920a.)
- Freud, S. *Inhibitions, symptoms, and anxiety*. London: Hogarth Press, 1936. (First German edition, 1926b.)
- Freud, S. *New introductory lectures on psycho-analysis*. New York: Norton, 1933. (First German edition, 1933.)
- Freud, S. *An outline of psychoanalysis*. New York: Norton, 1949. (First German edition, 1940.)

REFERENCES

- Blum, G. S. *Psychoanalytic theories of personality*. New York: McGraw, 1953.
- Breuer, J., and Freud, S. Studies on hysteria. In *Standard edition*. Vol. II. London: Hogarth Press, 1955. (First German edition, 1895.)
- Coriat, I. The structure of the ego. *Psychoanal. Quart.*, 1940, 9, 380—393.
- Ezriel, H., Farrell, B. A., and Stengel, E. The scientific testing of psychoanalytic findings and theory. *Brit. J. med. Psychol.*, 1951, 24, 26—51.
- Fenichel, O. *The psychoanalytic theory of neurosis*. New York: Norton, 1945.
- French, T. M. *The integration of behavior*. Vol. I. *Basic Postulates*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1952.
- Frenkel-Brunswik, Else, Richfield, J. Scriven, M., and Skinner, B. F. Psychoanalysis and scientific method. *Sci. Mon.*, 1954, 79, 293—310.

- Freud, Anna et al. (Eds.). *The psychoanalytic study of the child*. New York: International Universities Press, 1945—.
- Freud, Anna. *The ego and the mechanisms of defence*. New York: International Universities Press, 1946.
- Freud, S. *The standard edition of the complete psychological works*. J. Strachey (Ed.). London: Hogarth Press, 1953—.
- Freud, S. The interpretation of dreams. In *Standard edition*. Vols. IV and V. London: Hogarth Press, 1953. (First German edition, 1900.)
- Freud, S. Three essays on sexuality. In *Standard edition*. Vol. VII. London: Hogarth Press, 1953. (First German edition, 1905a.)
- Freud, S. Fragment of an analysis of a case of hysteria. In *Collected papers*. Vol. III. London: Hogarth Press, 1933, pp. 13-148. (First published in German, 1905b.)
- Freud, S. «Civilized» sexual morality and modern nervousness. In *Collected papers*. Vol. II. London: Hogarth Press, 1924, pp. 76-99. (First published in German, 1908.)
- Freud, S. Analysis of a phobia in a five-year-old boy. In *Collected papers*. Vol. III. London: Hogarth Press, 1933, pp. 149-295. (First published in German, 1900a.)
- Freud, S. Notes upon a case of obsessional neurosis. In *Collected papers*. Vol. III. London: Hogarth Press, 1933, pp. 296-389. (First published in German, 1909b.)
- Freud, S. *Leonardo Da Vinci: a study in psychosexuality*. New York: Random House, 1947. (First German edition, 1910a.)
- Freud, S. Psychogenic visual disturbance according to psycho-analytical conceptions. In *Collected papers*. Vol. II. London: Hogarth Press, 1924, pp. 105-112. (First published in German, 1910b.)
- Freud, S. Psycho-analytic notes upon an autobiographical account of a case of paranoia (dementia paranoides). In *Collected papers*. Vol. III. London: Hogarth Press, 1933, pp. 390-472. (First published in German, 1911.)
- Freud, S. Instincts and their vicissitudes. In *Collected papers*. Vol. IV. London: Hogarth Press, 1925, pp. 60-83. (First published in German, 1915.)
- Freud, S. *A general introduction to psychoanalysis*. Garden City, N.Y.: Garden City Publishing Co., 1943. (First German edition, 1917.)
- Freud, S. From the history of an infantile neurosis. In *Collected papers*. Vol. III. London: Hogarth Press, 1933, pp. 473-605. (First published in German, 1918.)
- Freud, S. Beyond the pleasure principle. In *Standard edition*. Vol. XVIII. London: Hogarth Press, 1955. (First German edition, 1920a.)
- Freud, S. The psychogenesis of a case of homosexuality in a woman. In *Collected papers*. Vol. II. London: Hogarth Press, 1933, pp. 202-231. (First published in German, 1920b.)

- Freud, S. *The question of lay analysis*. New York : Norton, 1950. (First German edition, 1926a.)
- Freud, S. *Inhibitions, symptoms and anxiety*. London : Hogarth Press, 1936. (First German edition, 1926b.)
- Freud, S. *Civilization and its discontents*. London : Hogarth Press, 1930. (First German edition, 1930.)
- Freud, S. *New introductory lectures on psycho-analysis*. New York : Norton, 1933. (First German edition, 1933.)
- Freud, S. Analysis terminable and interminable. In *Collected papers*. Vol. V. London : Hogarth Press, 1950, pp. 316—357. (First published in German, 1937.)
- Freud, S. *An outline of psychoanalysis*. New York : Norton, 1949. (First German edition, 1940.)
- Hall, C. S. *A primer of Freudian psychology*. Cleveland : World Publishing Co., 1954.
- Freud, S. Psychopathology of everyday life. In *The basic writings of Sigmund Freud*. New York : Random House, 1938. (First German edition, 1904.)
- Hall, C. S., and Lindzey, G. Psychoanalytic theory and its applications in the social sciences. In G. Lindzey (Ed.) *Handbook of social psychology*. Vol. I. Cambridge : Addison-Wesley, 1954, pp. 143—180.
- Hartmann, H. The mutual influences in the development of ego and id. In Anna Freud et al. (Eds.) *The psychoanalytic study of the child*. Vol. 7. New York : International Universities Press, 1945, pp. 9—30.
- Hartmann, H. Comments on the psychoanalytic theory of the ego. In Anna Freud et al. (Eds.) *The psychoanalytic study of the child*. Vol. 5. New York : International Universities Press, 1950, pp. 74—96.
- Hartmann, H., and Kris, E. The genetic approach in psychoanalysis. In Anna Freud et al. (Eds.) *The psychoanalytic study of the child*. Vol. I. New York : International Universities Press, 1945, pp. 11—30.
- Hartmann, H., Kris, E., and Loewenstein, R. M. Comments on the formation of psychic structure. In Anna Freud et al. (Eds.) *The psychoanalytic study of the child*. Vol. 2. New York : International Universities Press, 1947, pp. 11—38.
- Hilgard, E. R. Experimental approaches to psychoanalysis. In E. Pumphian-Mindlin (Ed.) *Psychoanalysis as science*. Stanford, Calif. : Stanford Univ. Press, 1952, pp. 3—45.
- Isaacs, N., Rickman, J., and Thouless, R. H. Methodology and research in psychopathology. *Brit. J. med. Psychol.*, 1951, 24, 1—25.
- Jones, E. *The life and work of Sigmund Freud*. New York : Basic Books, Vol. 1, 1953 ; Vol. 2, 1955.
- Kubie, L. S. Problems and techniques of psychoanalytic validation and

- progress. In E. Pumpian-Mindlin (Ed.). *Psychoanalysis as science*. Stanford, Calif.: Stanford Univ. Press, 1952, pp. 46—124.
- Kubie, L.S. Psychoanalysis as a basic science. In F. Alexander and Helen Ross (Eds.). *20 years of psychoanalysis*. New York: Norton, 1953, pp. 120—154.
- Levy, D. Animal psychology in its relation to psychiatry. In F. Alexander and Helen Ross (Eds.). *Dynamic psychiatry*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1952, pp. 483—507.
- Masserman, J. H. Experimental approaches to psychoanalytic concepts. *Samiksa*, 1952, 6, 243—261.
- Pumpian-Mindlin, E. (Ed.). *Psychoanalysis as science*. Stanford, Calif.: Stanford Univ. Press, 1952.
- Rapaport, D. The conceptual model of psychoanalysis. *J. Pers.*, 1951a, 20, 56—81.
- Rapaport, D. The autonomy of the ego. *Bull. Menninger Clin.*, 1951b, 15, 113—123.
- Sears, R. R. Survey of objective studies of psychoanalytic concepts. *Soc. Sci. Res. Council Bull.*, 1943, No. 51.
- Sears, R. R. Experimental analyses of psychoanalytic phenomena. In J. McV. Hunt (Ed.). *Personality and the behavior disorders*. Vol. I. New York: Ronald Press, 1944, pp. 306—332.

الفصل الثالث

نظرية بونج التحليلية

ان شخصية لها من القوة ما لفرويد كثيرا ما تجذب اليها الشخصيات الاخرى القوية ثم تنفرها . وهذا هو تاريخ علاقة كارل يونج بفرويد وافكاره . فقد قرأ يونج كتاب فرويد «تفسير الأحلام» عقب نشره مباشرة، وشرع في جمع البراهين على صدق بعض أقوال فرويد . وفي عام ١٩٠٦ بدأت المراسلة المنتظمة بين فرويد ويونج ، وفي العام التالي قام يونج بزيارته الأولى لفرويد في فيينا . وقد كان اعجاب كل منهما بالآخر عظيما ، وقرر فرويد أن يكون يونج خليفته . وعندما أسس الاتحاد الدولي للتحليل النفسي عام ١٩١٠ أصبح يونج أول رئيس له ، وظل في هذا المنصب حتى عام ١٩١٤ وفي عام ١٩٠٩ سافر فرويد ويونج معا الى جامعة كلارك في ورشستر بولاية ماسشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية فقد دعيا كلاهما للقاء سلسلة من المحاضرات في الاحتفال بالعيد العشرين لانشاء الجامعة . الا أن العلاقات الشخصية بين فرويد ويونج لم تلبث بعد ذلك بثلاث سنوات أن بدأت في الفتور ، حتى انتهى الأمر في النهاية في باكورة عام ١٩١٣ الى انتهاء المراسلات الشخصية ، ثم انهما بعد ذلك بشهور قليلة المراسلات العلمية . وفي أبريل عام ١٩١٤ استقال يونج من رئاسته للاتحاد ، وفي أغسطس من نفس العام انسحب من عضويته . واذ ذاك أصبح الانفصال كاملا . ولم يقابل فرويد أو يونج أحدهما الآخر بعد ذلك قط . (لمعرفة تفاصيل صلة يونج وفرويد وأسباب انفصالهما أنظر فرويد ١٩٣٥ ، ١٩٣٨ ، وجونز ١٩٥٥ ويونج ١٩١٦ ، وفيجات ١٩٤٢) .

وبالرغم من أن أسباب تمزق العلاقة التي كانت وثيقة فيما مضى، معقدة ومتعددة المتنية « وتتضمن اختلافات شخصية وفكرية ، فإن أحد الأسباب الهامة رفض يونج للجنسية الشاملة عند فرويد » . ان

السبب المباشر هو أن فرويد عين منهجه بنظريته في الجنس . وهو ما اعتبرته أمرا لا يمكن قبوله . (من خطاب شخصي من يونيو ١٩٥٤) .
وبدا يونيو بعد ذلك في صياغة نظريته الخاصة في التحليل النفسي ، ومنهجه الخاص في العلاج النفسي والذي أصبح يعرف باسم « علم النفس التحليلي » Analytic Psychology وكان قد وضع خطوطه قبل أن يقابل فرويد وكان مثابرا على العمل في هذا الاتجاه خلال فترة اتصاله بفرويد (يونيو ١٩١٥) .

ولنعرض الآن بإيجاز بعض جوانب حياة يونج ، قبل أن نبدأ في مناقشة الجوانب البارزة والمميزة لوجهة نظره ، ولد كارل جوستاف يونج في كسويل وهي مدينة على بحيرة « كونسطنس » في كانتون بترجو بسويسرا في ٢٦ يوليو عام ١٨٧٥ ونشأ في بازل . وكان والده قسيسا في الكنيسة السويسرية وقد التحق يونج بجامعة بازل وهو يهدف الى أن يصبح من علماء اللغويات التقليديين وإذا أمكن ، عالما في الحفريات . ولكن حلما رآه يعتقد أنه أثار فيه الاهتمام بدراسة العلوم الطبيعية ، وادى به ذلك الى دراسة الطب . وبعد حصوله على أجازة الطب من جامعة بازل أصبح مساعدا في مستشفى يورجولزي العقلية بزوريخ ، والعيادة الطبية النفسية بزوريخ ، وبذلك أصبح الطب النفسي مهنته . وقد ساعد يوجين بلويلر ثم أصبح زميلا له ، وبلويلر هو الطبيب النفسي الشهير الذي طور مفهوم القسام . كما درس لفترة قصيرة على يد بيير جانيه تلميذ شاركوه وخليفته في باريس . وفي عام ١٩٠٩ ترك عمله في مستشفى يورجولزي ، وفي عام ١٩١٣ ترك تدريس الطب النفسي في جامعة زوريخ ليكرس كل وقته لعيادته الخاصة ، وللتدريب والبحث ، وللسفر والكتابة . وكان يعتقد لسنوات كثيرة حلقة دراسية باللفة الانجليزية للطلبة المتكلمين بالانجليزية ، وعقب اعتزاله التدريس الفعلي افتتح معهدا للتدريب يحمل اسمه في زوريخ . وفي عام ١٩٤٤ انشئ كرسى استاذية لعلم النفس الطبي خصيصا ليونج في جامعة بازل ، الا أن سوء صحته حال بينه وبين شغل منصب الاستاذية هذا فترة جاوزت العام طولا . وقد عاش في زوريخ وسط أسرته الكبيرة يواصل القيام بالبحوث والكتابة ورؤية عدد قليل من المرضى . (يمكن العثور على مادة تتناول تاريخ حياة يونج في Current biology ، ١٩٤٣ ، مجلة Time ١٩٥٢ ، Frieda Fordham ، ١٩٥٥) .

ويحظى كارل يونج بالاعتراف به كواحد من اعظم المفكرين . فقد كرس حياته ما يزيد على نصف القرن ، بطاقة ضخمة وبوحداية في الغرض لتحليل عمليات الشخصية الانسانية البعيدة المدى والعميقة الأعمار . ولازال يونج حتى الآن وهو في الحلقة التاسعة من عمره منشغلا ، في نشاط وإيجابية - في القيام بالبحوث والكتابة . ولا زالت كتاباته غزيرة ومدى تأثيره لا يقاس . فهو معروف ليس فحسب بين الاخصائيين في الطب وفي علم النفس ، بل وبين المتعلمين على اختلاف مشاربهم في الحياة . كما منح الكثير من الدرجات الفخرية ، من بينها درجات فخرية من جامعات هارفارد واكسفورد . وكثيرا ماكلن يحاضر في الولايات المتحدة التي له فيها أتباع كثيرون . ويمكن اعتبار يونج ، في المرتبة الثانية بعد فرويد ، أبرز علماء النفس الحديثين .

وبالرغم من أن نظرية يونج في الشخصية تعتبر عادة نظرية في التحليل النفسي بسبب تأكيدها للعمليات اللاشعورية ، فانها تختلف في جوانب تستاهل الاهتمام عن نظرية فرويد في الشخصية . وربما كانت أبرز سمات نظرة يونج الى الانسان وأكثرها تمايزا أنها تجمع بين الغائية والعلية . فسلوك الانسان ليس مشروطا فحسب بتاريخه الفردي والعنصري (العلية) بل وكذلك بأهدافه وبمختلف ضروب طموحه (الغائية) وكل من الماضي كواقع والمستقبل كامكان ، يعقد سلوك المرء في الحاضر . ان نظرية يونج الى الشخصية نظرة الى المستقبل ، بمعنى انها تنظر الى الامام متطلعة الى مستقبل نمو الشخص والى تطوره ، كما انها نظرة الى الخلف بمعنى أنها تأخذ الماضي في اعتبارها . وفي لغة يونج « أن الانسان تحركه الأهداف بقدر ما تحركه الأسباب » وهذا الاصرار على دور المصير أو الغرض في نمو الانسان يفصل بوضوح بين يونج وفرويد فمتد فرويد لا يوجد غير تكرار لا يتوقف للموضوعات الفريزية حتى يأتي الموت . أما عند يونج فيوجد النمو الدائم الذي كثيرا ما يكون خلاقا ، والبحث عن الكل والكمال والشوق الى الميلاد الجديد .

كذلك تتميز نظرية يونج عن بقية المناهج الأخرى في دراسة الشخصية بما تعطيه من تأكيد قوى للأصول العنصرية والخاصة بنمو الجنس البشرى بأسره وفي تكوين الشخصية . ان يونج ينظر الى شخصية الفرد باعتبارها نتاجا ووعاء يحتوى على تاريخ أسلافه .

فالإنسان الحديث قد تشكل وصيغ في شكله الراهن بفعل الخبرات المتراكمة للأجيال الماضية والتي تمتد بعيدا إلى آمام ساحة حيث الأصول المجهولة للإنسان كنوع متفصل . ان أسس الشخصية ضاربة في القدم ، وبدائية ، وفطرية ولا شعورية وربما كانت عالية . ان فرويد يؤكد الأصول الطفلية للشخصية ، على حين يؤكد يونج الأصول العنصرية للشخصية . ان الإنسان يولد مزودا بكثير من الاستعدادات التي يتركها له أسلافه ، وهذه الاستعدادات توجه سلوكه وتحدد - جزئيا - ما سيصبح شعوريا لديه ، وما سيستجيب له في عالم خبراته الخاصة . بمباراة أخرى ، هناك شخصية تتكون ابتداء ذات طابع عنصري وجماعي تتجه نحو عالم الخبرات بصورة اختيارية كما أنها تتعدل وتتطور بفضل ما تتلقاه من خبرات . ان شخصية الفرد نتاج قوى داخلية تمارس فاعليتها حيال القوى الخارجية كما تتأثر بفاعلية هذه القوى .

ان الاحترام العظيم التي يكنه يونج لماضى الإنسان العنصري وما لهذا الماضى من وقع على الإنسان اليوم يعنى أن يونج أكثر من أى عالم آخر من علماء النفس قد نقب في تاريخ الإنسان ليتعلم بقدر ما يستطيع ، الأصول العنصرية للشخصية وتطورها . لقد درس علم الأساطير والدين والرموز القديمة والطقوس وعادات الشعوب البدائية ومعتقداتهم كما درس الأحلام والرؤى ، وأعراض العصابين وهلاوس الذهانيين وهو اجسم كل ذلك في بحثه عن جذور الشخصية الإنسانية ونموها . وربما لا نجد بين علماء النفس المعاصرين من يضارع يونج في دراساته وقراءاته من حيث اتساع المعارف وعمق الفهم معا .

بناء الشخصية :

ان الشخصية الكلية أو النفس Psyche كما يسميها يونج تتكون من عدد من الأنظمة المنفصلة والمتفاعلة برغم ذلك . والأنظمة الرئيسية هي : **الآنا ، والأشعور الشخصى وعقده ، والأشعور الجمعى وأنماطه الأولية ، والقناع « Persona » ثم الأنيما Anima أو « الأنيموس » Animus** وأخيرا **الظل Shadow** . وبالإضافة إلى هذه الأنظمة التي يعتمد بعضها على البعض الآخر ، توجد **« الاتجاهات »** الانطوائية والانبساطية و**« وظائف التفكير والوجدان والاحساس والحس »** وأخيرا توجد **الذات** التي هي الشخصية مكتملة النمو مكتملة الوحدة .

الأنا :

الأنا هو العقل الشعوري . وهو يتكون من المدركات الشعورية والذكريات والأفكار والوجدانات . ان الأنا مسئول عن شعور المرء بهويته واستمراريته . وهو من وجهة نظر الشخص ذاته يعتبر في مركز الشخصية .

الاشعور الشخصي : Personal Unconscious

ان الاشعور الشخصي منطقة مرتبطة بالانا . وهو يتكون من خبرات كانت شعورية فيما مضى ، الا انها كبتت ، وقمعت ونسيت أو تجهلت ، ومن خبرات كانت بانعة الضعف في المقام الأول ، بحيث لاترك انطبعا شعوريا عند الشخص . ومحتويات الاشعور الفردي شأنها شأن مواد ما قبل الشعور عند فرويد ، يمكن للشعور أن يصل اليها ، وثمة قدر كبير من الحركة - في الاتجاهين - بين الاشعور الشخصي والانا .

العقد :

العقد مجموعة منظمة ، أو تجمع ، من الوجدانات والأفكار والمدركات والذكريات توجد في الاشعور الشخصي . انها نواة « تعمل كنوع من المغناطيس ، الذي يجذب اليه » أو « يجمع » مختلف الخبرات .

ولنتناول على سبيل المثال عقدة الأم . ان نواتها تستمد - جزئيا - من الخبرات العنصرية مع الامهات ، وجزئيا من خبرات الطفل مع امه هو ، فالأفكار والوجدان والذكريات المتعلقة بالأم تنجذب الى النواة مكونة عقدة . وكلما كانت القوة النابعة من النواة . قوية زادت الخبرات التي تجذبها اليها . وهكذا ، فالشخص الذي تسيطر على شخصيته الأفكار المتعلقة بالأم يقال ان لديه عقدة أم قوية وأفكاره ووجداناته وأفعاله يوجهها تصوره للأم . فما تقوله وماينتابها من مشاعر يعنى بالنسبة له الكثير كما أن صورتها ستحتل في ذهنه مكانة تفوق ماعداها . وقد تسلك العقدة سلوكا مماثلا لسلوك شخص يتمتع بالاستقلال الذاتي له حياته الذهنية والنفسية والحركية الخاصة به (يونج ١٩٣٨ ، ص ١٤) . وقد تتحكم - العقدة - في الشخصية مسيطرة عليها مستغلة النفس لماربها الخاصة ، ومن ذلك ما يقال من أن تولستوى كانت تتحكم فيه فكرة التبسيط ، وهتلر شهوة القوة .

ان النواة والكثير من العناصر المرتبطة بها لا شعورية في اى وقت معين . الا ان ايا من العناصر المرتبطة او حتى النواة نفسها ، يمكن -- بل وكثيرا -- ما تصبح شعورية .

اللاشعور الجمعى :

ان مفهوم اللاشعور الجمعى او غير الشخصى واحد من اكثر سمات نظرية يونج في الشخصية اصالة وابتكارية ، واثارة للجدل والخلاف كذلك . وهو اكثر نظم النفس قوة وتأثيرا . كما انه في الحالات المرضية يلقى بظلاله على الاتنا واللاشعور الشخصى .

ويبدو ان اللاشعور الجمعى هو مخزن آثار الذكريات الكامنة التى ورثها الانسان عن ماضى اسلافه الاقدمين ، وهو الماضى الذى لا يشمل التاريخ العنصرى للانسان بوصفه نوعا منفصلا فحسب ، بل انه يشمل كذلك اسلافه من قبل الانسان او اسلافه من الحيوان . ان اللاشعور الجمعى هو المتخلفات النفسية لنمو الانسان التطورى . تلك المتخلفات التى تتراكم نتيجة الخبرات المتكررة عبر اجيال كثيرة . انها تكاد تكون منفصلة تماما ، تقريبا ، عن اى شىء شخصى في حياة الفرد ويبدو انها امر مشاع او مشترك بين البشر جميعا . فجميع البشر لديهم نفس اللاشعور الجمعى وان تفاوتت درجاته . ويرجع يونج شيوع اللاشعور الجمعى وعموميته الى تشابه بناء العقل بين جميع اجناس البشر ، ويرجع هذا التشابه بدوره الى التطور المشترك .

ان الذكريات العنصرية او التمثيلات representations لا تورث فى حد ذاتها ، وانما نحن نرث امكان احياء خبرات الاجيال الماضية . فهى استعدادات تعدنا للاستجابة للعالم بصورة اختيارية . وهذه الاستعدادات تسقط على العالم . فمثلا ، طالما ان جميع البشر لهم امهات فان كل طفل يولد ولديه الاستعداد لادراك الام والاستجابة لها . والمعرفة الفردية المكتسبة عن الام امكانات موروثية قد تكونت فى عقل الانسان عن طريق الخبرات الماضية للجنس او العنصر . وكما ان الانسان يولد ولديه القدرة على رؤية العالم من ثلاثة ابعاد ، وكما انه ينمى هذه القدرة عن طريق الخبرة والتدريب ، كذلك يولد الانسان ولديه كثير من الاستعدادات ، للتفكير والوجدان والادراك وفق انماط معينة ومضامين تتحقق بالفعل عن طريق الخبرات الفردية . ان الانسان

لديه الاستعداد للخوف من الظلام أو من الأفاعى لأنه يمكننا أن نفترض أن الانسان البدائي قابل كثيرا من الأخطار في الظلام ، كما كان ضحية الأفاعى السامة . وهذه المخاوف الكامنة ربما لا تنمو لدى الانسان العصرى ما لم تدعمها خبرات نوعية ، الا أن الميل موجود برغم هذا ، وهو يجعل المرء أكثر تعرضا لمثل هذه الخبرات . وبعض الأفكار تكون بسهولة مثل فكرة الكائن الأعلى ذلك أن الاستعداد قد رسخت جذوره في العقل بحيث يحتاج تدعيما طفيفا للغاية عن طريق الخبرة الفردية ليظهر في الشعور ويؤثر على السلوك . ان هذه الذكريات الكامنة أو الممكنة بالقوة تعتمد على ابنية فطرية وعلى ممرات قد حفرت في العقل نتيجة الخبرات المتراكمة للجنس البشرى . ان انكار ووراثة هذه الخبرات القديمة البدائية يعنى انكار تطور المنح ووراثته .

واللاشعور الجمعى هو الأساس العنصرى الموروث للبناء الكلى للشخصية . وعليه يبنى الأنا ، واللاشعور الشخصى وجميع المكتسبات الفردية الأخرى . وان ما يتعلمه الشخص نتيجة الخبرات يتسائر تأثيرا جوهريا باللاشعور الجمعى الذى يمارس تأثيرا ارشاديا أو انتاجيا على سلوك الشخص منذ بداية حياته . ان شكل العالم الذى يولد فيه الشخص يولد معه منذ البداية كصورة جوهريّة قابلة للتحقيق (يونج ١٩٥٣ أ ص ١٨٨) وهذه الصورة الجوهريّة القابلة للتحقيق تصبح ادراكا عيانيا أو فكرة بأن تعين نفسها بموضوعات العالم التى تتفق وهذه الصورة . وتتشكل خبرات المرء فى العالم الى حد كبير بوساطة اللاشعور الجمعى ، وان كان ذلك لا يحدث بصورة كاملة ، والا فما كان هناك اختلاف وارتقاء .

ان المنطقتين اللاشعوريتين فى العقل ، الشخصية والجمعية ، يمكن أن تقدمنا خدمات بالغة للانسان فهو (اللاشعور) « يحمل امكانيات الوعى ، وجميع تلك الأشياء التى قد نسيته أو أهملت ، وكذلك أيضا حكمة وخبرة قرون لا تعد ، تستقر فى أعضائه المنطقية الأولية » (يونج ١٩٥٣ أ ص ١١٤) . ومن ناحية أخرى ، اذا أهمل الأنا حكمة اللاشعور أو تجاهلها ، فإن اللاشعور قد يحدث اضطرابا فى العمليات الشعورية المنطقية وذلك بالسيطرة عليها ، وتحويلها الى اشكال محرفة وتنشأ الأعراض والمخافات المرضية (الفوبيا) والهواجس وغير ذلك من الخرق المنطقى عن عمليات لاشعورية مهملة .

الأنماط الأولية : Archetypes

يطلق على المكونات البنائية للاشعور الجمعي أسماء مختلفة منها: الأنماط الأولية ، أو الميترات dominants أو الصور الأولية البدائية Imagos أو الميترات الاسطورية mythological images أو Primordial images وأنماط السلوك Behaviour pattern إن النمط شكل فكري مشاع وعام يتضمن قدرا كبيرا من الانفعال . وهذا الشكل الفكري يخلق صوراً أو رؤى ، تشابه في حياة اليقظة السوية بعض جوانب الموقف الشعوري . فالنمط الأولي للام مثلا ينتج صورة لشخص الأم تتميز اذ ذاك بالام الحقيقية . بعبارة أخرى ، يرث الطفل تصورا ذهنيا مكونا سلفا للام بعامة ، ويحدد ذلك - جزئيا - كيف سيدرك الطفل امه هو . ان ادراك الطفل يتأثر أيضا بطبيعة الام وبخبراته معها . وبدا تكون خبرة الطفل نتاجا مشتركا لاستعداد داخلي لادراك العالم بصورة معينة والطبيعة الفعلية لهذا العالم . وعادة ما يتفق المحددان معا ويلتقيان ، لان النمط الأول نفسه نتاج الخبرات العنصرية بالعالم ، كما أن هذه الخبرات كبيرة الشبه بتلك التي يعيشها أي شخص حتى في أي عصر وفي أي مكان في العالم . ويعني ذلك أن طبيعة الامهات - أي ما يقمن به من اعمال - قد ظلت على ما هي عليه عبر تاريخ العنصر البشري وبذلك يكون النمط الأولي للام ، الذي يرثه الطفل ، متفقا مع الأم الفعلية التي يتفاعل معها الطفل .

كيف ينشأ النمط الأولي ؟ انه وديعة دائمة في العقل لخبرة تتكرر على الدوام عبر اجيال كثيرة . مثال ذلك أن اجيالا لا حصر لها من البشر قد شاهدت الشمس تقوم برحلتها اليومية من أفق الى آخر . وتكرار هذه الخبرة المؤثرة تنبت في نهاية المطاف في الاشعور الجمعي بوصفها نمطا اوليا للشمس - الاله القوى القهار ، مانع الضوء ، ذلك الجرم السماوي الذي الاله الانسان وعبيده . وثمة أفكار وتصورات ذهنية معينة ، للاله الاعظم تعتبر امتدادا للنمط الأولي للشمس .

وبطريقة مماثلة تعرض الانسان طوال وجوده لأمثلة لا حصر لها لقوى الطبيعة الجبارة كالبراكين ومساقط المياه والفيضانات والأعاصير المدمرة والبرق وحرائق الغابات وما إليها . ومن هذه الحبرات نما نمط

الطاقة الأولى . وهو الاستعداد لإدراك القوة والانبهار بها ، والرغبة في خلق القوة والتحكم فيها . أن ابتهاج الطفل بالصواريخ النارية واهتمام الشباب بالسيارات السريعة ، والاهتمام الحوازي للراشدين باطلاق الطاقات الكامنة للذرة لها جذورها في النمط الأولى للطاقة .

ان الانسان مدفوع بهذا النمط الأولى الى البحث عن مصادر جديدة للطاقات ان عصرنا ، عصر الطاقة يمثل غلبة النمط الأولى للطاقة وسيطرته . اى أن الأنماط الأولية تعمل كمراكز ذات شحنات عالية من الطاقة لها استقلالها الذاتي ، وانها تنجح الى احداث نفس الخبرات وتطويرها في كل جيل .

والأنماط الأولية ليست بالضرورة مزولة بعضها عن البعض الآخر في اللاشعور الجمعى . بل انها تمتزج وتختلط بعضها ببعض الآخر . وعلى هذا فقد يمتزج النمط الأولى للبطل بالنمط الأولى لرجل الحكيم المسن لينتجا مفهوم « الملك الفيلسوف » بوصفه شخصا يستجاب له ويحظى بالاحترام لانه يجمع بين القائد البطل والحكيم النافذ البصيرة . وقد يحدث أحيانا ، وهذا ما يبدو في حالة هتلر ، امتزاج بين النمط الأولى للشيطان والنمط الأولى للبطل بحيث يؤدي ذلك الى القائد الشيطاني .

لقد سبق أن تبينا أن نواة العقدة يمكن أن تكون نمطا أوليا يجنب اليه الخبرات . واذ ذلك يمكن للنمط الأولى أن ينفذ الى الشعور عن طريق تلك الخبرات المرتبطة به والأساطير والأحلام والرؤى والطقوس ، والأعراض العصابية والدهانية والأعمال الفنية تتضمن قدرا كبيرا من مواد الأنماط الأولية ، وتمثل احسن مصادر المعرفة فيما يتعلق بالأنماط الأولية . ولقد قام يونج وزملاؤه بقدر رائع من الدراسات في تمثيل الأنماط الأولية في الأساطير والأحلام (انظر على سبيل المثال يونج ١٩٥٤ ج ، ويونج وكرينى ١٩٤٩ ، وكامبييل . ج ، ١٩٤٩ ، ونيومان ، ي . ١٩٥٤) .

ويفترض أن هناك أنماطا أولية عديدة في اللاشعور الجمعى . ومن بعض تلك التى تم تعيينها ، الأنماط الأولية للولادة ، والولادة من جديد ، والموت ، والقوة والسحر ، والوحدة ، والبطل ، والطفلس ، والله ، والشيطان ، والحكيم المسن ، وأمننا الأرض ، والحيوان (يونج ١٩٥٤ ج - ١٩٥٦) .

وبالرغم من أن جميع الأنماط الأولية يمكن النظر إليها بوصفها نظاما دينامية ذات استقلال ذاتي ، ويمكن أن تكون على قدر من الاستقلال النسبي عن بقية الشخصية فإن بعض الأنماط الأولية قد تطورت الى الحد الذي يسمح بتناولها بوصفها نظاما منفصلة مع الشخصية . وهي القناع والانيما والانيموس ، والظل .

القناع Persona

يطلق على القناع الذي يرتديه الشخص استجابة لمطالب المتعضيات الاجتماعية والتقاليد ، واستجابة لمطالب الشخص ذاته الناجمة عن حاجات النمط الأولى . انه الدور الذي ينسبه المجتمع الى الشخص ، الدور الذي يتوقع منه المجتمع أن يلعبه في الحياة . والغاية من القناع هي احداث انطباع محدد لدى الآخرين ، وكثيرا ما يكون ، وان كان هذا ليس ضروريا ، وسيلة لاختفاء الطبيعة الحقيقية للشخص .

ان القناع هو الشخصية العامة ، هو تلك الجوانب التي يظهرها الشخص للعالم أو التي يثبتها الرأي العام على الفرد في مقابل الشخصية الخاصة والتي توجد قابضة خلف الوجة الاجتماعية .

وإذا توحد الانا بالقناع ، وهو ما يحدث كثيرا ، فان الشخص يصبح أكثر شعورا بالدور الذي يلعبه منه بمشاعره الحقيقية . انه يصبح بعيدا عن ذاته مفتربا عنها ، وتتمس شخصيته بأسرها بكيف سطحي أو ذي بعدين . انه يصبح مجرد شبيه بالانسان ، وانعكاسا للمجتمع أكثر من أن يكون كائنا بشريا له استقلاله الذاتي .

والنواة التي ينمو منها القناع هي نمط أولى وهذا النمط الأولى شأنه شأن جميع الأنماط الأولية ينشأ من خبرات العنصر أو الجنس، والحبرة هنا قوامها التفاعلات الاجتماعية ، التي أدى فيها القيام بالدور الاجتماعي غاية مفيدة عبر تاريخه الاجتماعي بوصفه حيوانا اجتماعيا .

الأنيميا والانيموس The Anima and the Animus

ان المعترف به والمقبول - بدرجة لا بأس بها - ان الانسان حيوان ثنائى الجنسية . فعلى المستوى الفسيولوجى يفرز الذكر الهرمونات الجنسية الذكرية والانثوية كليهما ، والأمر بالمثل لدى الأنثى . وعلى المستوى السيكولوجى توجد الخصائص الذكرية والانثوية لدى الجنسين .

ان الجنسية المثلية هى مجرد احد الظروف ، وان كانت اكثرها اثارا ، التى أدت الى نشوء مفهوم الثنائية الجنسية عند الانسان .

وينسب يونج الجانب الانثوى فى شخصية الرجل والجانب الذكري فى شخصية المرأة الى الأنماط الأولية . ويطلق على النمط الاولى الانثوى لدى الرجل اسم الأنيميا Anima والنمط الذكري الاولى لدى المرأة اسم الانيموس Animus وهذان النمطان الاوليان وان كان من الممكن أن يكونا رهنا بالمورثات الجنسية هما نتاج الخبرات العضوية للرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل . بعبارة أخرى لقد اكتسب الرجل نتيجة حياته مع المرأة عصورا طويلة أنوثة ، على حين اكتسبت المرأة الذكورة .

ان هذين النمطين الاوليين لا يجعلان كل جنس يكشف عن خصائص الجنس الآخر فحسب ، ولكنهما يعملان بوصفهما صورا جمعية تدفع كل جنس الى الاستجابة لأفراد الجنس الآخر ولفهمهم ، فالرجل يتفهم طبيعة المرأة بفضل ما لديه من انيموس Animus كما أن المرأة تفهم طبيعة الرجل بفضل ما لديها من أنيما Anima . ولكن الأنيميا والانيموس قد يؤديان كذلك الى سوء الفهم والشقاق اذا ما أسقطت صورة النمط الاولى دون اعتبار للطابع الحقيقى للشريك . أى اذا ما حاول الرجل ان يعين صورته المثالية للمرأة بالمرأة الفعلية دون أن يدخل فى اعتباره بالقدر الكافى التناقضات بين المثالى والفعلى . وقد يعانى خيبة أمل مريرة عندما يتبين أن الاثنين غير متماثلين . ويجب أن يحدث توفيق بين مطالب اللاشعور الجمعى وحقائق العالم الخارجى حتى يحقق الشخص توافقا على قدر طيب من النجاح .

الظل : Shadow

يتكون النمط الأولي للظل من الفرائز الحيوانية التي ورثها في تطوره من الأشكال الدنيا من الحياة ، ولذلك يمثل الظل ، ابتداءً ، الجانب الحيواني من طبيعة الانسان . والظل بوصفه نمطا أوليا مسئول عن مفهوم الخطيئة الأولى لدى الانسان ، وعندما يسقطه الى الخارج يصبح الشيطان أو العدو .

والنمط الأولي للظل مسئول كذلك عن ظهور الشعور وعن السلوك غير السار وعن الأفكار والمشاعر والأفعال المنبوذة اجتماعيا . وهذه قد يحدد القناع الى اخفائها بعيدا عن انظار العامة الآخرين أو تكبت في اللاشعور الفردي . وهكذا فجانب الظل من الشخصية الذي يدين بنشأته لنمط أولى يتسرب الى الجوانب الخاصة من الأنا وإلى جزء كبير من محتويات اللاشعور الفردي كذلك .

والظل بفرائزه الحيوانية الفياضة بالحياة والشهوة يمنح الشخصية الجسم المكتمل المتلذذ أو خاصية الأبعاد الثلاثة . انه يساعد على اخراج الشخص الكلى وصياغته .

الذات : The self

اعتبر يونج الذات في كتاباته الأولى معادلة للنفس أو الشخصية الكلية . الا أنه عندما شرع في تكشف الأصول العنصرية للشخصية واكتشف الأنماط الأولية ، وجد واحدا منها يمثل محاولات الانسان لتحقيق الوحدة (فيلهلم يونج ، ١٩٢١) . وهذا النمط الأولي يمر عن نفسه عن طريق رموز مختلفة أهمها الماندالة (١) Mandala أو الدائرة السحرية . وقد طور يونج في كتابه علم النفس والكيمياء القديمة (٢) Psychology and Alchemy (١٩١٣ ب) سيكولوجية كلية تقوم على رمز الماندالة والمفهوم الرئيسي لهذه السيكولوجية الخاصة بالوحدة الكلية هو الذات .

-
- (١) الماندالة : رمز الكون عند الهندوس والبوذيين بخاسة : دائرة تطوق مربعا على كل من جاتيبيها رسم اله من قاموس « المورد » .
- (٢) الكيمياء القديمة : كانت تسمى الى تحويل المادن الغيسية الى ذهب واكتشاف وسائل إطالة الحياة . من قاموس « المورد » .

ان الذات هي نقطة الوسط في الشخصية تتجمع حولها جميع النظم الأخرى . وهي تجمع هذه النظم معا وتمتد الشخصية بالوحدة ، والتوازن والثبات .

« اذا صورنا العقل الشعوري بحيث يمثل الانا مركزه ، في مقابل اللاشعور واذا ما أضفنا الآن لصورتنا العقلية عملية تمثل اللاشعور ، فاننا نستطيع التفكير في هذا التمثل بوصفه نوعا من التقارب بين اللاشعور والشعور ، بحيث لا يعود مركز الشخصية متطابقا مع الانا وانما مع نقطة في منتصف الطريق بين الشعور واللاشعور .

وستكون هذه لقطة توازن جديد ، وتمركز جديد للشخصية الكلية ، ومركز عملي يضمن بفضل وضعه البيوري بين الشعور واللاشعور ، اساسا جديدا للشخصية أكثر قوة وثباتا » . (يونج ١٩٥٣ ب ص ٢١٩) .

ان الذات هي هدف الحياة ، الهدف الذي يحاول الناس بلوغه دائما لكنهم نادرا ما يبلغونه . وهي مثل جميع الأنماط الأولية تحرك سلوك الانسان وتدفعه نحو البحث عن الكلية وبخاصة عبر الدروب التي يقدمها الدين . ان التجربات الدينية الحق تصل في اقترابها من الذات الى ما ربما لا يصل اليه بحال معظم الناس ، وان شخصيات كالسليح وبوذا تعبيرات على قدر بالغ السمو من تفاضل النمط الأولى للذات ، كما قد يجده المرء في العالم الحديث .

ولا يدهشنا أن نعلم أن يونج قد اكتشف الذات في دراساته وملاحظاته لديانات الشرق ، التي يحقق فيها البحث عن الكلية والوحدة مع العالم عن طريق مختلف الممارسات الطقوسية كاليوجا مثلا ، تقديما يفوق ما تحققه الديانات الغربية .

ومن الضروري قبل أن تبرز الذات ، أن تحقق مختلف مكونات الشخصية نموا كمللا وتفردا . ولهذا السبب لا يصبح النمط الأولى للذات واضحا قبل أن يصل الشخص الى منتصف العمر . وفي هذا الوقت يبدأ في القيام بمحاولات جادة لتغيير مركز الشخصية من الانا الشعوري الى مركز آخر في منتصف الطريق بين الشعور واللاشعور . وهذه المنطقة الوسطى هي منطقة الذات .

ومفهوم الذات يحتمل ان يكون أكثر اكتشافات يونج السيكولوجية اهمية وهو يمثل قمة دراساته المتعمقة للأنماط الأولية .

الاتجاهات : Attitudes

ميزونج اتجاهين أساسيين أو موقفين تتخذهما الشخصية ،
اتجاه الانبساط Extraversion واتجاه الانطواء Introversion ،
ان الاتجاه الانبساطي يوجه الشخص نحو العالم الخارجي الموضوعي ،
أما الاتجاه الانطوائي فيوجه الشخص نحو العالم الداخلي الذاتي (١٩٣٣) .

ان هذين الاتجاهين المتعارضين يوجد كلاهما في الشخصية ، الا
ان أحدهما يكون عادة أقوى وشعوريا ، على حين يكون الآخر أضعف ،
ولا شعوريا . فاذا كان الأنا تغلب عليه الانبساطية في علاقته بالعالم فان
الاشعور الشخصي يكون منطويا .

الوظائف : the Functions

هناك أربع وظائف سيكولوجية رئيسية هي : **التفكير والوجدان ،
والاحساس ، والحب** . والتفكير عملية ذهنية تقوم على الأفكار فالإنسان
يحاول بوساطة التفكير أن يفهم طبيعة العالم وأن يفهم طبيعة نفسه . أما
الوجدان فهو وظيفة القيمة ، قيمة الأشياء بالنسبة للفرد . ووظيفة الوجدان
تمنح الإنسان خبراته الذاتية باللذة والألم بالفضب والخوف ، والأسف ،
والبهجة ، والحب . أما الاحساس فهو الوظيفة الإدراكية أو الواقعية وهو
يعطى الحقاء العيانية أو تمثيلات العالم . أما الحدس فهو الإدراك بوساطة
عمليات لا شعورية ومحتويات دون الوعي . فالإنسان انقادر على الحدس
يتجاوز الوقائع والوجدانات والأفكار ليكون وليطور نماذج للواقع . ان
الحدس يسكن المرء من النفاذ الى جوهر الواقع (يونج ١٩٣٣) .

ويمكن توضيح طبيعة هذه الوظائف الأربع بالمثال التالي . هب
ان شخصا يقف عند حافة الوادي الكبير عند نهر كولورادو .
فلو أن وظيفة الوجدان هي المسيطرة فانه سوف يعاني الرهبة والعظمة
والجسمال الذي يخطف الأنفاس . أما اذا كانت وظيفة الاحساس
هي المتحكمة فانه سوف ينظر الى الوادي كما هو فحسب ،
أو كما يمكن أن تصوره صورة فوتوغرافية ، أما اذا كانت تسيطر على

الآنا وظيفة التفكير فانه سوف يحاول أن يفهم الوادى من حيث المبادئ والنظريات الجيولوجية . وأخيرا اذا كانت الغلبة لوظيفة الحس فان الناظر سوف ينزع الى رؤية الوادى الكبير بوصفه سرا من أسرار الطبيعة الغامضة له معنى عميق يتكشفه بصورة جزئية ، أو يحسه كخبرة غيبية .

ان الزعم بأن هناك أربع وظائف سيكولوجية بالاضبط ، هو كما يقول يونج « أمر تبينه الوقائع التجريبية » .

« ولكن ، كما توضح الاعتبارات التالية ، ثمة قدر من الاكتمال تحققه هذه الوظائف الأربع . فالمحوسس تقرر ما هو معطى بالفعل ، والتفكير يمكننا من التعرف على معناه ، والوجدان يخبرنا بقيمته ، وفي النهاية يشير لنا الحدس الى احتمالات ما تتضمنه هذه الوقائع المباشرة وتعبئه . وبهذه الطريقة نستطيع أن نحدد لانفسنا اتجاهنا ازاء العالم المباشر ، تحديداً مكملاً ، تماما كما نستطيع ذلك عندما نحدد موقع مكان تحديداً جغرافيا عن طريق خطوط الطول والعرض » (يونج ١٩٢٣ ب ص ١٠٧) ، ويقال ان التفكير والوجدان وظيفتان منطقيتان لانهما يستخدمان المنطق والحكم والتجريد والتصميم . وهما يمكنان الانسان من التعرف على القانون والمشروعية فى العالم .

ويعتبر الاحساس والحدس وظيفتين لامنطقيتين لانهما يقومان على ادراك العياني والجزئى والعرضى .

وبالرغم من أن الشخص يمتلك هذه الوظائف الأربع جميعها فانها لا تنمو بالضرورة نمواً متساوياً . وعادة ما تكون احدى هذه الوظائف على قدر مرتفع من التفاضل بالموازنة بالوظائف الثلاث الأخرى ، بحيث تلعب دوراً غلباً فى الشعور . واذ ذاك تسمى الوظيفة العليا . وعادة ما تعمل احدى الوظائف الثلاث الأخرى مساعدة للوظيفة العليا . واذا ما حيل بين الوظيفة العليا وبين النشاط فان الوظيفة المساعدة تحل محلها بصورة آلية .

اما اقل الوظائف الأربع تفاضلاً فتسمى الوظيفة الدنيا . انها تكبت وتصير لا شعورية . وتعرب الوظيفة الدنيا عن نفسها فى الأحلام والتخيلات . وللوظيفة الدنيا هى الأخرى وظيفة مساعدة ترتبط بها .

ولو اننا وضعنا الوظائف الأربع على أبعاد متساوية بعضها عن البعض الآخر على محيط دائرة ، فان مركز الدائرة سيمثل التآلف

بين الوظائف الأربع المكملة المتفاضل . وفي مثل هذا التآلف لا توجد وظائف عالية وأخرى دائية ، كما لا توجد وظائف مساعدة . ذلك أنها تتساوى من حيث القوة في الشخصية . ومثل هذا التآلف يمكن أن يحدث فقط عندما تتحقق الذات تحققا كاملا . ولما كان التحقق الكامل للذات مستحيلا ، فإن التآلف بين الوظائف الأربع يمثل هدفا مثاليا تحاول الشخصية بلوغه .

التفاعل بين أنظمة الشخصية :

إن النظم والاتجاهات والوظائف المختلفة التي تكون الشخصية الكلية تتفاعل بعضها مع البعض الآخر بثلاث طرق مختلفة . فقد يعرض أحد النظم ضعف نظام آخر ، كما قد يعارض نظام ما نظاما آخر ، كذلك قد يتحد نظامان أو أكثر ليكونا تآلفا .

ويمكننا تصوير التعويض بالتفاعل بين الاتجاهات المتعارضة للانبساط والانطواء فإذا كان الانبساط هو الاتجاه الأعلى أو الغالب في الأنا الشعوري ، فإن اللاشعور سوف يعرض ذلك بأن ينمى اتجاه الانطواء المكبوت . ويعنى هذا أنه إذا كان الاتجاه الانبساطى محبطا بشكل ما ، فإن الاتجاه اللاشعوري الانطوائى الأدنى سيحكم قبضته على الشخصية فإرضا نفسه . وعادة ما يلي فترة السلوك الانطوائى فترة من السلوك الانبساطى الزائد . والأحلام هى الأخرى تعويضية بحيث تكون أحلام الشخص الذى تغلب عليه الانبساطية ذات طابع انطوائى ، والعكس بالعكس ، فأحلام المنطوين تميل أن تكون انبساطية .

كذلك يحدث التعويض بين الوظائف . فالشخص الذى يؤكد التفكير والوجدان في عقله الشعوري ، سيكون نمطه اللاشعوري الحدس والحس . وبالمثل تكون العلاقة بين الأنا والأمينا لدى الرجل ، بين الأنا والانيموس لدى المرأة ، علاقة تعويضية فالأنا السوى لدى الذكر يكون ذكريا ، على حين تكون الأنيسا أنثوية، كما أن الأنا السوى لدى الأنثى يكون أنثويا . على حين تكون الأنيموس ذكورية . وبصفة عامة تكون جميع محتويات العقل اللاشعوري تعويضا عن محتويات العقل الشعوري . أن مبدأ التعويض يتيح نوعا من التوازن أو الاتزان بين عناصر متضاربة ، فيحول دون الانعدام العصابى للتوازن .

والواقع أن جميع اصحاب نظريات الشخصية مهما كانت معتقداتهم أو اتجاهاتهم يفترضون ان الشخصية تتضمن ميولا قطبية قد يتصارع بعضها مع البعض الآخر . ولا يستثنى منهم يونج . فهو يعتقد انه يجب أن تؤسس النظرية السيكولوجية للشخصية على مبدأ التعارض أو الصراع لأن التوترات التي تخلقها العناصر المتصارعة هي لب الحياة ذاتها وجررها . فبدون التوتر ما كانت لتوجد طاقة ومن ثمة ما كانت لتوجد شخصية .

والتعارض يكون في كل مكان في الشخصية ، بين الأنا والظل وبين الأنا واللاشعور الفردي وبين القناع والامينوس ، وبين القناع واللاشعور الجمعي ، وبين اللاشعور الجمعي ، وبين الانبساط ، ويعارض التفكير الوجدان ، كما يعارض الاحساس الحدس . ان الأنا يشبه بالكرة الطائرة تدفع جيئة وذهابا بين المطالب الخارجية للمجتمع والمطالب الداخلية لللاشعور الجمعي . ويتكون نتيجة لهذا الصراع القناع . وعند ذلك يجد القناع نفسه مهاجما من الانماط الأخرى في اللاشعور الجمعي . ان المرأة القسابة داخل الرجل ، أي الأتينا تغزو الطبيعة الذكرية للذكر ، كما أن الامنيوس تحرش بأنوثة المرأة . ان الصراع بين القوى المنطقية والقوى المجافية للمنطق ، في النفس لا يتوقف أبدا ، ان الصراع حقيقة اساسية في الحياة .

ولكن ، هل يجب أن تظل الشخصية دائما منزلا منقسما على نفسه ؟ ان يونج لا يعتقد ذلك فالعناصر القطبية لا تعارض بعضها بعضا فقط ، بل انها تنجذب ويشد بعضها البعض .

والموقف مشابه للزوج والزوج اللذين يتشاجران ، إلا أن نفس الاختلافات التي تثير الشقاق هي نفسها التي تجذبهما . ان وحدة الأضداد تتم بواسطة ما اسماه يونج « الوظيفة المتعاضية »
Transcendental function

وينتج عن عمل هذه الوظيفة تألف بين النظم المتعارضة ، لتكون شخصية متوازنة متكاملة ومركز هذه الشخصية المتكاملة هو الذات .

مثال للتفاعل بين نظم الشخصية :

لكي نصور ضروب التفاعل الذي يحدث داخل النفس ، لنتناول العلاقات بين الانبعا ونظم الشخصية الأخرى . يقول يونج « ان طبيعة الرجل بسرهما تفترض المرأة وتقتضيها .. جهازه معد منذ البداية لاستقبال المرأة ولقائها » ، (يونج ١٩٥٣ ص ١٨٨) . ان الطفل الذكر المزود بنمطه الأولى للمرأة ينجذب غريزيا للمرأة الأولى التي يخبرها والتي تكون أمه في العادة . كما ان علاقة حميمة تدعمها وترعاها الأم بدورها على أنه يتقدم الطفل في السن تصبح هذه الروابط مع الأم مقيدة ومحبطة ان لم تكن بالفعل خطرا على الطفل ، وبدا تكبت عقدة الأم التي تكونت في الأنا وتحول الى اللاشعور الفردي .

وفي نفس الوقت الذي يحدث فيه هذا النمو ، تكبت السمات والاتجاهات الانثوية التي غرست في الأنا عن طريق الأيمينا ، وذلك لأنها غريبة على الدور الذي يتوقع منه المجتمع أن يلعبه بوصفه ذكرا . بعبارة أخرى ، تكبت أنوثته الفطرية بفعل قوة مضادة تصدر عن القناع وغيره من الاماط الأولية الأخرى .

ونتيجة فعلى الكبت هذين تدفع مشاعر الطفل الوجدانية حيال الأم وكذلك تدفع أنوثته ، من الأنا الى اللاشعور الفردي . وبذلك يوجه ادراك الرجل للنساء ومشاعره الوجدانية وسلوكه حيالهن بوساطة القوى المتحدة للاشعور الفردي واللاشعور الجمعي .

ان العمل المتكامل المفروض على الأنا نتيجة هذه التحولات الطارئة على النمط الأولى للام والنمط الأولى الانثوي (الأيمينا) هو أن يعثر على امرأة تشبه صورة imago الأم وتحقق كذلك حاجات الأيمينا لديه . فاذا ما اختار امرأة مخالفة لأحد هذين النموذجين اللاشعوريين أو كليهما ، فانه سيواجه المتاعب ، ذلك أن مشاعره الوجدانية الشعورية حيالها ستفسدها المشاعر الوجدانية اللاشعورية السلبية . وسوف تجعله غير راض عنها يوجه اليها اللوم لمختلف الأخطاء والنقائص انهوومة ، دون أن يفتن الى الأسباب الحقيقية لعدم رضاه . أما اذا كانت الوظيفة المتعالية تعمل بسلاسة فإلها ستوحد جميع دفعاته المتضاربة وتؤدي به الى اختيار رفيق يستطيع أن يجد معه السعادة .

ان جميع القرارات الهامة في الحياة تقتضى ان تنال كل من العوامل اللاشعورية والعوامل الشعورية الاعتبار المناسب اذا ما أريد لهده

القرارات أن تكون موفقة . ويقول يونج أن قدرا كبيرا من سوء التوافق وعدم السعادة يرجع الى نمو من جانب واحد في الشخصية يتجاهل جوانب هامة من طبيعة الانسان . وهذه الجوانب المهملة تخلق الاضطراب في الشخصية والسلوك المجاني للمنطق .

ان الشخصية في نظر يونج بناء على قدر بالغ من التعقيد . فليس بها فحسب العديد من المكونات - عدد الأنماط الأولية الممكنة والمقدد مثلا لا يعد - بل أن التفاعلات بين هذه المكونات كثيرة التداخل والتشابك . وليس هناك من بين اصحاب نظريات الشخصية من قدم مثل هذا الوصف الثرى المتشابك لبناء الشخصية .

ديناميات الشخصية :

يتصور يونج الشخصية أو النفس بوصفها نظاما من الطاقة مغلقا جزئيا . ويقال أنه غير مطلق تماما لأنه لا بد من اضافة طاقات من مصادر خارجية الى النظام ، مثل الأكل ، كما تنتزع من النظام طاقة ، مثال ذلك القيام بالأعمال المضنية . كذلك من الممكن أن تحدث المنبهات البيئية تغيرات في توزيع الطاقة داخل النظام ويحدث هذا - على سبيل المثال ، عندما يعيد تغيير مفاجيء في العالم الخارجى توجيه انتباهنا وإدراكنا . وتعنى حقيقة تعرض ديناميات الشخصية للمؤثرات والتعديلات من المصادر الخارجية أن الشخصية لا يمكن أن تحقق حالة من الاستقرار الكامل وهو ما كان يمكن لو أنها كانت نظاما مغلقا تماما . فهى تستطيع فحسب أن تحقق قدرا نسبيا من الاستقرار (يونج ١٩٤٨ ، ١٩٥٣) .

الطاقة النفسية :

تسمى الطاقة التى تستخدمها الشخصية في اداء عملها الطاقة النفسية والطاقة النفسية مظهر لطاقة الحياة ، التى هى طاقة الكائن العضوى بوصفه نظاما بيولوجيا . وتنشأ الطاقة النفسية بنفس الطريقة التى تنشأ بها كل طاقة حيوية ، أعنى من عمليات الهدم والبناء في الجسم . والاصطلاح الذى يطلقه يونج على طاقة الحياة هو الليبدو الا أنه يستخدم الليبدو أيضا ليعنى به كذلك الطاقة النفسية ،

ولا يتخذ يونج موقفا ايجابيا فيما يتعلق بعلاقة الطاقة النفسية بالطاقة الفيزيقية ، الا انه يعتقد ان ضربا من الفعل المتبادل بين كليهما يمكن اقتراضه .

ان الطاقة النفسية بناء فرضي . فهي ليست مادة او ظاهرة عيانية . لذلك لا يمكن قياسها او الاحساس بها . وتجد الطاقة النفسية التعبير العياني عن نفسها في شكل القوة القائمة بالفعل او بالقوة . فالرغبة والارادة والوجدان والانتباه وبدل الجهد امثلة لقوى فعلية في الشخصية ، كما ان الاستعدادات والقدرات والميول ، والنوازع والاتجاهات امثلة لقوى ممكنة .

القيم النفسية :

ان مقدار الطاقة النفسية المستثمرة في عنصر من عناصر الشخصية تسمى قيمة هذا العنصر . والقيمة مقياس للشدة . فعندما نتحدث عن اعطاء قيمة كبيرة لفكرة او وجدان معين فالتنا نعني ان هذه الفكرة او هذا الوجدان له قوة لها وزنها في حفز السلوك وتوجيهه . والشخص الذي يعطي الحقيقة قيمة سوف ينفق قدرا كبيرا من الطاقة في البحث عنها . والشخص الذي يعطي القوة قيمة كبيرة سوف يكون مدنوعا بقوة للعمل على بلوغها . وعلى العكس من ذلك ، اذا كان لشيء ما قيمة تافهة فانه لن يرتبط الا بقدر ضئيل من الطاقة .

ان القيمة المطلقة لفكرة او وجدان لا يمكن تحديدها على حين يمكن ذلك بالنسبة لقيمتها النسبية . وثمة طريقة بسيطة ، وان لم تكن دقيقة بالضرورة ، لتحديد القيم النسبية وهي ان نسأل الشخص : هل يفضل شيئا ما اكثر من شيء آخر . ويمكن اعتبار ترتيب تفضيلاته مقياسا اجماليا للقوى النسبية لقيمه . او يمكن تصميم موقف تجريبي لاختبار احتمال ان الشخص يبذل للحصول على حافز ما جهدا اكبر مما يبذله للحصول على حافز آخر . ان ملاحظة شخص ما عن قرب لفترة من الوقت لرؤية ما يفعله يعطى صورة على قدر معقول من الوضوح لقيمه النسبية . فاذا كان ينفق قدرا اكبر من الوقت في القراءة ، عما ينفقه في لعب الورق فالتنا نستطيع اذن ان نفترض ان للقراءة عنده قيمة اكبر من قيمة لعب الورق .

قدرة العقدة على التجميع :

ان مثل هذه الاختبارات والملاحظات ، على ما قد يكون لها من قيمة فى تحديد القيم الشعورية ، لا تلقى الكثير من الضوء على القيم اللاشعورية وهذه القيم يجب تحديدها عن طريق تقدير « قدرة العنصر النووى من العقدة على التجميع » (يونج ١٩٢٨) . والقدرة التجميعية للعقدة تتكون من عدد من مجموعات من العناصر التى ترتبط بعضها ببعض الآخر بوساطة العنصر النووى من العقدة .

فمثلا ، اذا كان لدى بعضهم عقدة وطنية قوية فان هذا يعنى ان النواة وهى حب المرء لوطنه ستنتج تجمعات من الخبرات حولها . وقد يتكون احد هذه التجمعات من الأحداث الهامة فى تاريخ وطنه على حين قد يكون تجمع آخر وجدانا ايجابيا نحو القادة والابطال الوطنيين لهذا الوطن . والشخصى الشديد الوطنية يكون لديه الاستعداد لوضع أى خبرة جديدة داخل نطاق احد هذه التجمعات المرتبطة بالوطنية والتأليف بينهما .

ولكن ما هى الوسائل الممكنة لتقدير قدرة العنصر النووى على التجمع ؟ انها كما يلى :-

- ١ - الملاحظات المباشرة بالاضافة الى الاستنتاجات التحليلية .
- ٢ - المؤشرات الدالة على العقدة .
- ٣ - شدة التعبير الوجدانى .

ان المرء يستطيع عن طريق الملاحظة والاستنتاج ان يصل الى تقدير لعدد المستدعيات المتصلة بعنصر نووى . فالشخص الذى يعانى من عقدة أم قوية يميل الى اتحام أمه أو شئ يتصل بها فى كل نقاش سواء آكان ذلك أمرا مناسباً أم لا ! . فهو يفضل القصص والأفلام السينمائية التى تلعب فيها الأمهات دورا كبيرا ، كما انه يهتم اهتماما بالغا بعيد الأم وغير ذلك من المناسبات التى يستطيع ان يكرم فيها أمه . انه يميل الى تقليد أمه وتبنى اهتماماتها وتفضيلاتها ، كما ينجذب الى صديقاتها ومن تعرفهن . ويفضل السيدات المسنات على السيدات المقاربات له فى السن .

ان العقدة لا تعرب عن نفسها دائما بصورة عامة . فقد تظهر في الاحلام او في أى شكل مبهم بحيث يصبح من الضروري استخدام القرائن الدالة عليها لاكتشاف الدلالة الكامنة وراء الخبرة . وهذا هو ما يقصد بالاستنتاج التحليلي .

اما المؤشر الدال على العقدة فهو أى اضطراب في السلوك يدل على وجود العقدة . وقد تكون فلتة لسان مثلا ، كان يقول رجل ما « أمي » على حين كان يقصد أن يقول « زوجتي » . وقد يكون اعاقه غير مألوفة للذاكرة ، كما يحدث عندما يعجز الشخص عن تذكر اسم صديق لأن هذا الاسم يشبه اسم أمه أو يشبه شيئا يرتبط بها . وتظهر المؤشرات الدالة على العقدة كذلك في اختبار تدلعي الالفاظ .

وقد اكتشف يونج وجود العقد في عام ١٩٠٣ بواسطة التجارب التي تستخدم اختبار تداعي الالفاظ (يونج ١٩١٨) . ويستخدم هذا الاختبار الآن على نطاق واسع للغاية في تقدير الشخصية (ليفي ١٩٥٢ ، وروتر ١٩٥١) ، ويتكون من قائمة مقننة من الكلمات تقرأ على الشخص المراد اختباره كلمة اثر أخرى .. ويطلب من الشخص الاجابة بأول كلمة تخطر على باله فاذا ما استغرقت الاستجابة لاحدى الكلمات وقتا طويلا بصورة غير عادية دل ذلك على ارتباط هذه الكلمة بشكل ما بعقدة . اما تكرار كلمة التنبيه وعدم القدرة على الاستجابة على الاطلاق فيشيران كذلك الى وجود عقدة .

وشدة استجابة الشخص الانفعالية للموقف ، مقياس آخر لشدة العقدة . فاذا ما دق القلب بسرعة . وأصبح التنفس أكثر عمقا وامتقع لون الوجه ، فان ذلك كله مؤشرات واضحة تدل على أن عقدة قوية قد استثيرت . وعن طريق الجمع بين المقاييس الفسيولوجية كالنبض والتنفس والتغيرات الكهربائية في توصيل الجلد للتيار ، وبين اختبارات تداعي الالفاظ يمكن ان تحدد بدقة لا بأس بها قوة عقد الشخص .

هذا التبادل : The Principle of Equivalence

يقيم يونج نظريته للديناميات النفسية على مبدئين أساسيين مبدأ التبادل ومبدأ الانتقال Entropy ويقر مبدأ التبادل انه اذا انفتحت الطاقة في تحقيق شروط معينة كالقيام بعمل مثلا ، فان القدر المستخدم سوف يظهر في مكان آخر من النظام . ويعرف هذا المبدأ دارسو علم

الطبيعة باسم المبدأ الأول للديناميك الحرارية ، أو مبدأ ثبات الطاقة كما وضعه هلمهولتز . ويقرر هذا المبدأ كما يستخدمه يونج في الوظيفة النفسية أنه إذا ضاعت قيمة معينة أو اختفت فإن مجموع الطاقة التي تمثلها هذه القيمة لن تفقدها النفس وإنما ستظهر مرة أخرى في قيمة جديدة . وانخفاض قيمة ما يعنى بالضرورة رفع قيمة أخرى . مثال ذلك أنه عندما ينخفض تقدير الطفل لعائلته فإن اهتمامه بأشياء وأناس آخرين سوف يزيد . والشخص الذي يفقد اهتمامه بهواية ما سيجد عادة أن هواية أخرى تحل محلها . وإذا كتبت قيمة ما فإن طاقاتها يمكن استخدامها في خلق الأحلام أو التخيلات . ومن الممكن بالطبع أن توزع الطاقة التي تفقدها قيمة ما على عدد آخر من القيم .

وبالنظر الى الأداء الوظيفي للشخصية الكلية يقرر مبدأ التعادل أنه إذا نقلت الطاقة من نظام ما ، كالأنا مثلا فإتاهما ستظهر في نظام آخر ، وربما كان القناع . ولو أن المزيد من القيم قد كتبت في جانب الظل من الشخصية ، فإن قوته ستزيد على حساب الجوانب الإيجابية من الشخصية . وبالمثل ، فإن تجريد الأنا الشعوري من طاقاته يصاحبه حصول اللاشعور على الطاقة . ان الطاقة تتدفق على الدوام من أحد أنظمة الشخصية الى الأنظمة الأخرى . وهذه التوزيعات المتجددة للطاقة تكون ديناميات الشخصية .

ولا يمكن بالطبع تطبيق مبدأ ثبات الطاقة بأية طريقة جامدة على نظام كالنفس الذي يكون مغلفا بصورة جزئية فقط . فالطاقة تضاف الى النفس أو تنتزع منها كما أن معدل اضافتها أو انتزاعها يمكن أن يتباين وهو أمر محتمل - بدرجة كبيرة . ولذلك فقد يكون ارتفاع القيمة أو انخفاضها راجعا ، لا الى تحويل الطاقة من أحد أجزاء النظام الى جزء آخر فحسب ، بل قد يكون راجعا كذلك الى إضافة الطاقة من مصادر خارج النفس ، أو الى انتزاع الطاقة عند أداء عمل عضلي . والشخص يمتلئ بالقوة البدنية ، والعقلية كذلك بعد تناول وجبة طعام ، أو الخلود الى الراحة ، كما انه يصاب بالاجهاد العقلي والبدني كذلك بعد فترة من العمل أو التدريب . وهذه التبادلات للطاقة بين النفس والكائن العضوي أو العالم الخارجى كذلك ، وبالمثل كذلك هذه الاعادة لتوزيع الطاقة داخل النفس ذاتها ، لها أهمية كبيرة عند يونج وجميع علماء النفس الديناميين .

مبدأ الانتقال : The Principle of entropy

ان مبدأ الانتقال أو المبدأ الثانى للديناميكا الحرارية يقـرر فى الحقيقة انه عندما يوصل جسمان تختلف درجة حرارتهما ، فان الحرارة تنتقل من الجسم الأسخن الى الجسم الأبرد . ومثال آخر على ذلك ، هو جريان المياه التى تكون دائماً فى اتجاه التحرك من المستوى الأعلى الى المستوى الأدنى ، عندما يتاح مسار ما لذلك . وينتج عن سريان مبدأ الانتقال توازن القوى . فالشئ الأسخن يفقد طاقة حرارية يأخذها الشئ الأبرد حتى تتساوى درجة حرارة الشئين . وعند هذه النقطة يتوقف تبادل الطاقة . حيث يقال ان الشئين فى حالة توازن حرارى .

ان مبدأ الانتقال ، كما عدله يونج ليصف ديناميات الشخصية يقرر ان توزيع الطاقة فى النفس ينزع الى التوازن أو الاتزان . وعلى هذا فاذا أخذنا أوسط الأمثلة ، وافترضنا ان قيمتين (شدة الطاقة) غير متساويتين فى القوة ، فان الطاقة ستتجه من القيمة القوية الى القيمة الضعيفة الى ان يتحقق التوازن . ولكن طالما ان النفس ليست نظاماً مغلقاً فان من الممكن اضافة الطاقة أو انتقاصها من أى من القيمتين المتعارضتين فيضطرب التوازن . وبالرغم من انه لا يمكن اقامة توازن دائم بين قوى الشخصية ، فان هذه هى الحالة المثالية التى يهدف اليها دائماً توزيع الطاقة . وهذه الحالة المثالية هى التى توزع فيها الطاقة الكلية بالتساوى على مختلف نظم الذات التى حققت نمواً كاملاً . ولذلك ، عندما يؤكد يونج ان تحقيق الذات هو هدف النمو النفسى فانه يعنى - فيما يعنى - ان ديناميات الشخصية تتحرك نحو توازن كامل بين القوى .

واتجاه سبيل الطاقة من المركز ذى القوة العليا الى المركز ذى القوة الدنيا مبدأ أساسى بحكم توزيع الطاقة بين نظم الشخصية . ويعنى عمل هذا المبدأ ان النظام الضعيف يحاول تحسين مكتنته على حساب نظام قوى وآنه بهذا العمل يخلق التوتر فى الشخصية . فاذا كان الأنا الشعورى مثلاً يقيم تقييماً مفرطاً على حساب اللاشعور فان قدراً كبيراً من التوتر سيتوالد فى الشخصية عن طريق محاولة الطاقة المتحركة من النظام الشعورى الى اللاشعور . وبالمثل فان طاقة الإتجاه الأقوى سواء كان انبساطاً أو انطواءً يميل الى التحرك نحو الاتجاه الأضعف ، والشخص الذى زاد عنده نمو الانبساط يكون تحت ضغط

يستهدف تنمية الجانب المنطوى من طبيعته . والقاعدة الصامدة في سيكولوجية يونج ، ان أى نمو من جانب واحد في الشخصية يخلق الصراع والتوتر والجهد وأن النمو المتبادل لجميع مكونات الشخصية يؤدي الى الانسجام والارتخاء والرضا .

غير أن حالة التوازن الكامل ، وهذا ما يشير اليه يونج ، ستكون حالة تفتقر الى انتاج الطاقة لأن انتاج الطاقة يتطلب اختلافا في القوى بين مختلف مكونات النظام (١٩٥٣ أ) . والنظام ينحدر ويتوقف عندما تصبح جميع اجزائه في حالة توازن متساو ، أو انتقال تام كما يقال . وذلك فانه من المحال أن يصل كائن حى الى الانتقال التام .

استخدام الطاقة :

تستخدم الطاقة النفسية المتاحة للشخصية بأسرها في هدفين عامين فبعضها ينفق في القيام بالأعمال الضرورية للمحافظة على الحياة، ولتكاثر النوع . وهذه هي الوظائف الفطرية الفريزية كما تتمثل في الجوع والجنس . وهي تعمل وفق قوانين بيولوجية طبيعية . وأى طاقة تزيد عن حاجة الفرائز يمكن استخدامها في النشاطات الثقافية والروحية . وهذه النشاطات - طبقا ليونج - تشكل أهداف الحياة التي هي أرقى . فيقدر ما يصبح الشخص أكثر كفاءة في اشباع حاجاته البيولوجية ، بقدر ما يتبقى له من طاقة لتابعة الاهتمامات الثقافية .

نمو الشخصية

ان أبرز سمات نظرية يونج في الشخصية ، بالإضافة الى مفهوم اللاشعور الجمعي وانماطه الأولية ، تأكيدة للطابع المتجه الى امام في نمو الشخصية . ويعتقد يونج أن الانسان يتقدم دائما ، أو هو يحاول التقدم من مرحلة اقل كمالا من النمو لمرحلة أكثر كمالا . كذلك يعتقد ان الجنس البشرى كنوع ، يتطور على الدوام الى اشكال من الوجود أكثر تفضلا » ان كل خفض وكل انحراف عن المسار الذي وضع لنمو

المدنية لا يفعل أكثر من أن يحول الكائن البشرى الى حيوان عاجز «
(يونج ١٩١٦ ص ٢٢٥) .

ما هو هدف النمو ؟ ما هي الغاية التي يتشدد الانسان والجنس البشرى بلوغها ؟ ان الهدف النهائي يلخصه اصطلاح تحقيق الذات . ان تحقيق الذات يعنى اتم اشكالك التفاضل وأكثرها كمالا ، والامتزاج المنسجم لجميع جوانب الشخصية الكلية للانسان . انها تعنى ان النفس قد طورت مركزا جديدا ، وهو الذات ، يحل محل المركز القديم وهو الانا . ان التطور جميعه ، كما يكشف عن نفسه في النمو النفسى ، ابتداء من الكائنات العضوية البدائية الأولى ، حتى ظهور الانسان موكب للتقدم ، وان التقدم لم يتوقف بخلق الانسان فكما ان الانسان يمثل تقدما على جميع الأنواع الأخرى من الحيوانات ، كذلك يمثل الانسان المتحضر تحسنا عن الانسان البدائي . وحتى الانسان المتحضر لا زال امامه الكثير يقطعه قبل أن يصل نهاية المطاف فى رحلته التطورية .

ومستقبل الانسان هو الشيء الذى يجده يونج جديرا بالاهتمام مثيرا للتحدى وهو ما يجد لديه الكثير ليقوله عنه فى كتاباته العريضة (انظر بخاصة يونج ١٩٥٤ ب) .

العلية فى مقابل الغائية : Causality versus Teleology

ان فكرة الهدف الذى يوجه ويرشد الانسان الى مصيره هي فى جوهرها تفسير غائى أو قدرى . وتفسر وجهة النظر الغائية الحاضر فى حدود المستقبل . وبناء على هذه النظرة تفهم شخصية الانسان عن طريق ما يذهب اليه ويتجه نحوه ، لا عن طريق ما كان عليه . ومن ناحية أخرى ، يمكن تفسير الحاضر فى ضوء الماضى . وهذه وجهة نظر العلية التى تذهب الى أن الاحداث الحاضرة نتائج أو آثار مترتبة لاسباب أو ظروف سابقة . فالمرء ينظر الى ماضى الانسان لكى يفسر سلوكه الراهن .

ويلهب يونج الى أن كلتا وجهتى النظر ضرورية فى علم النفس اذا كنا نسعى الى فهم كامل للشخصية (يونج ١٩١٦ ، ١٩٤٨) . وأن الحاضر لا يتحدد عن طريق الماضى (العلية) فقط ، بل ويحدده المستقبل كذلك (الغائية) . ان على عالم النفس فى طلبه للفهم أن يكون

له وجه يانوس (١) فهو ينظر بوجه الى ماضى الانسان ، وينظر بالوجه الآخر الى مستقبل الانسان . وعندما تجتمع هاتين النظرتان ، فانهما تعطيان صورة كاملة للانسان « ان (العقل) يعطى من جانب صورة لما ترسب عن الماضى ، ويعطى من الجانب الآخر صورة للمعرفة المتولدة بكل ما سيحدث ، هذا بقدر ما تخلق النفس مستقبلها بنفسها » (يونج ١٩١٦ فصل ١٣) .

ويعترف يونج بان العلية والغائية مجرد طريقين تصفيين للتفكير يستخدمهما العالم للتنظيم وفهم الظواهر الطبيعية فالعلية والغائية لا يوجدان ذاتيهما فى الطبيعة . ويشير يونج الى ان الاتجاه العلمى الخالص من المحتمل ان يؤدي الى خلق الاستسلام واليساس لدى الانسان ، اذ انه - اى الانسان - من وجهة نظر العلية سجين ماضيه . ولا يستطيع الانسان ابطال ما قد تم بالفعل وقوعه . ومن الناحية الأخرى ، فان الاتجاه الغائى يعطى الانسان شعورا بالأمل وبوجود شىء يعيش من أجله . ان سيكولوجية يونج هى جوهرها سيكولوجية متفائلة .

الوراثة :

تعطى سيكولوجية يونج الوراثة دورا هاما . فهى مسئولة فى المقام الاول عن الفرائز البيولوجية التى تخدم أغراض المحافظة على الذات والتكاثر . وتكون الفرائز الجانب الحيوانى من الطبيعة الانسانية فهى الصلات التى تربطه بماضيه الحيوانى والغريزة دفعة داخلية للعمل بطريقة معينة عندما تنشأ فى الأنسجة حالة معينة . فالجوع مثلا يحرك النشاطات التى تلتصق بالعثور على الطعام واكله ولا تختلف نظرة يونج الى الفرائز عن نظرة علم الحياة الحديث فيها .

الا أن يونج يخرج خروجا شديدا عن الوضع فى علم الحياة الحديث عندما يؤكد انه توجد بالإضافة الى وراثة الفرائز البيولوجية ، وراثة « لخبرات » الأجداد . وهذه الخبرات ، او اذا أردنا أن نتوخى الدقة الشديدة ، امكانيات وجود نفس النظام من خبرات الأجداد ، تورث فى شكل أنماط أولية . وكما سبق ان رأينا ، فان النمط الأولى

(١) يانوس : اله الابواب والبدابات عند الرومان « قاموس المورد » .

هو ذاكرة العنصر التي أصبحت جزءا من ارث الانسان بفضل تكرارها على نظام عام شائع عبر اجيال كثيرة وبقبوله فكرة الوراثة الثقافية ، يربط يونج نفسه بنظرية الطباع المكتسبة ، وهي نظرية يتشكك في صدقها معظم علماء الوراثة المعاصرين .

مراحل النمو :

لا يحدد يونج بالتفصيل ، كما هو الشأن مع فرويد ، المراحل التي تمر بها الشخصية من الطفولة المبكرة حتى الرشد . ففي السنوات المبكرة للغاية يستثمر اللبido في نشاطات ضرورية للبقاء . وقبل سن الخامسة تبدأ القيم الجنسية في الظهور وتبلغ قممها خلال المراهقة . وتبلغ غرائز الحياة الأساسية والعمليات الحيوية في شباب المرء والسنوات الأولى من الرشد ، ذروتها . فالشخص الشاب يكون فياضا بالطاقة والقوة ، ويكون مندفعاً وعاطفياً ، كما انه لا يزال - الى حد كبير معتمداً على الآخرين . وهذه الفترة من الحياة هي التي يتعلم فيها الشخص مهنته ويتزوج وينجب الأطفال ، ويبني لنفسه مكانته في الحياة في مجتمعه .

وعندما يصل الفرد الى أواخر الثلاثينات ، او أوائل الأربعينات يحدث تغير حاسم عبر قيمه . فاهتمامات الشباب وأهدافه تفسد قيمتها ، لتحل محلها اهتمامات جديدة أكثر ثقافية وأقل بيولوجية . ان الشخص في أواسط العمر يصبح أكثر انطواء وأقل اندفاعاً . ويحل التروى محل القوة الفيزيقية والعقلية . وتتسامى قيمه في شكل رموز اجتماعية ودينية ومدنية وفلسفية . انه يتحول الى انسان روحي .

وهذا التحول هو أكثر الوقائع حسماً وأهمية في حياة الشخص . وهو كذلك واحد من أكثرها خطورة ، وذلك لانه اذا أصاب الخلل أى شيء أثناء تحول الطاقة فان الشخصية قد يلحق بها العجز الدائم . ويحدث هذا ، على سبيل المثال ، عندما لا تستخدم القيم الثقافية والروحية لمنتصف العمر جميع الطاقات التي كانت تستثمر فيما سبق في الأهداف الفريزية .

وفي هذه الحالة يصبح فائض الطاقة طليقاً لبيمت الاضطراب في توازن النفس ولقد حقق يونج قدراً كبيراً من النجاح في علاج متوسطى العمر ممن أخفقت طاقاتهم في العثور على مخرج مشبعة .

التقدم والنكوص :

قد يسير النمو في حركة تقدمية مستقيمة ، او في حركة تكوسية متراجعة الى الوراء . ويعنى يونج بالتقدم ان الانا الشعورى يتوافق بشكل مرض لمطالب البيئة الخارجية ، ولطالب اللاشعور معا . وفي التقدم السوى تتحد القوى المتعارضة في سبل متأزر منسجم من العمليات النفسية .

وعندما تعطل الحركة المتقدمة الى الامام بفعل ظرف محيط ، فان الليبدو يمنع اذ ذلك من ان يستثمر في القيم المنبسطة او التى تستهدف البيئة . ونتيجة ذلك ان ينكص الليبدو الى اللاشعور ويستثمر نفسه في قيم انطوائية . اى ان قيم الانا الموضوعية تتحول الى قيم ذاتية . ان النكوص هو الموضوع النقيض للتقدم .

الا ان يونج يعتقد ان الازاحة النكوسية للطاقة ليس لها بالضرورة اثر سببى دائم على التوافق . والحقيقة انه قد يساعد الانا على العثور على طريقة يدور بها حول العقبة ويتحرك مرة اخرى الى الامام . وذلك امر ممكن لان كلا من اللاشعور الشخصى والجمعى يحتوى على معرفة وحكمة الفرد ، والماسضى العنصرى الذى يكون اما مكبوتا او متجاهلا .

وقد يكشف الانا عن طريق القيام بالنكوص معلومات مفيدة فى اللاشعور تمكنه من التغلب على الاحباط . ويجب ان يعطى الانسان اعلامه اهتماما خاصا ، لأنها كشف للنقاب عن مواد لاشعورية . ويعتبر الحلم فى سيكولوجية يونج علامة تشير الى الامام على الطريق الى التعويض المفيد لحالة الاحباط .

ويمكن تمثيل التفاعل بين التقدم والنكوص فى النمو بالمثل المحدد التالى . شاب صغير استقل عن والديه يلقي عقبة لا سبيل له لتخطيها ، فيطلب من والديه النصح والتشجيع . وربما لا يعود فعلا الى والديه بالمعنى المادى بل الاخرى ان الليبدو لديه ينكص الى اللاشعور منشطا الصور الوالديه الموجودة هناك . وهذه الصور الوالديه قد تزوده اذ ذلك بالمعلومات والتشجيع الذى يحتاج اليه لمعالجة الاحباط .

عملية التفرد :

الرأى بأن الشخصية تتجه الى النمو في اتجاه الوحدة المستقرة الشائعة ، سمة مركزية في سيكولوجية يونج . فالتنو تفتح للكل الأصلى غير المتفاضل الذى يولد به الانسان . والهدف النهائى لهذا التفتح هو تحقيق الذاتية .

ومن الضرورى لتحقيق هذا الهدف أن تتفاضل النظم المختلفة للشخصية تفاضلا كاملا وأن يكتمل نموها . ذلك أنه لو أن أى جزء من الشخصية قد أهمل فإن النظم المهملة والتي أقل نموا ستتنشط كمراكز للمقاومة وستحاول الاستيلاء على الطاقة من النظم التي اكتملت في النمو . وإذا نمت مقاومات كثيرة فإن الشخص سيصبح عصائبا . وقد يحدث هذا عندما لا يسمح للأنماط الأولية بالتعبير عن نفسها عن طريق الأنا الشعورى ، أو عند ما تصبح قيود القناع من الثقل بحيث تخنق بقية الشخصية . فالرجل الذى لا يوفر مخرجا يحقق الإشباع لدفعاته الأنثوية أو المرأة التى تخنق ميولها الذكرية ، يختزنان المتاعب وذلك لأن الأمانة أو الامينوس سوف ينزعان في ظل هذه الظروف الى ايجاد طرف غير مباشرة وغير منطقية للتعبير عن نفسيهما . ولكى تتوفر للفرد الشخصية الصحيحة المتكاملة لابد من السماح لكل نظام ببلوغ أقصى درجات التفاضل والنمو . وتسمى العملية التى يتحقق ذلك بوساطتها عملية التفرد individuation .

الوظيفة المتعالية : The transcendental function

عندما يتم بلوغ التباين بفعل عملية التفرد ، تتكامل الوظائف المتفاضلة بفعل الوظيفة المتعالية . وتملك هذه الوظيفة القدرة على توحيد جميع الاتجاهات المتعارضة للنظم المتعددة عاملة على بلوغ الهدف المثالى ، الكلية الكاملة (الذاتية) أن هدف الوظيفة المتعالية هو كشف النقاب عن الانسان الجوهرى و « تحقيق الشخصية فى جميع جوانبها ، وهى التى تكون فى الأصل متخفية فى الجيرم بلازم (١) الجنينى انتاج وتفتح أمانيه الكلية الأصلية ، (يونج ١٩٥٣ أ ص ١٠٨) وثمة قوى أخرى فى الشخصية جدير بالذكر منها : الكبت ، قد تعارض عمل الوظيفة المتعالية ، ولكن ، بالرغم

(١) الجيرم بلازم : بروتوبلازما الخلايا الجرثومية الناقلة للوراثة - فاموس المورد

من أى معارضة فإن الدفع الموحد والمتجه الى الأمام للنمو سيحدث ، ان لم يكن على مستوى شعورى ، فسيحدث اذن على مستوى لا شعورى ، ان التعبير اللاشعورى عن الرغبة فى الكلية يوجد فى الأحلام والأساطير وغير ذلك من التمثيلات الرمزية . ومن بين هذه الرموز رمز يبرز دائما فى الأساطير والأحلام والمعمار ، والدين والفنون وهو رمز **الماندالا** Mandala ، والماندالا كلمة من اللغة السنسكريتية (اللغة الهندية) ويعنى الدائرة .

وقد قام يونج بدراسات شاملة للمندالا ذلك أنها الشعار الكامل للكلية والوحدة فى الديانات الشرقية والغربية (يونج ١٩٣٩ ، ١٩٥٣ : فيلهلم ويونج ١٩٣١) .

الإعلاء والكبت :

ان الطاقة النفسية قابلة للازاحة . ويعنى ذلك أن من الممكن تحويلها عن احدى العمليات فى نظام معين الى عملية أخرى فى نفس النظام أو فى نظام مختلف . ويتم هذا النقل وفق المبادئ الدينامية الأساسية للتعادل والانتقال . أما اذا كان الذى يحكم الازاحة عملية التفرد والوظيفة المتعالية فانه يسمى **اعلاء** أو **تساميا** . ويصف التسامى ازاحة الطاقة من عمليات أكثر بدائية وغريزية وأقل تفاضلا ، الى عمليات ثقافية وروحية أسمى وأكثر تفاضلا . فمثلا ، عندما تسحب الطاقة عن الدفعة الجنسية وتستثمر فى القيم الدينية ، اذ ذلك يقال أن الطاقة قد تسامت ، فقد تغير شكلها ، بمعنى أن نمطا جديدا من العمل يؤدي ، وفى هذه الحالة يحل العمل الدينى محل العمل الجنسى .

أما عندما يعاق تفريخ الطاقة ، سواء كان ذلك بفعل مسارات غريزية أو متسامية فانه يقال أنه قد كبت . والطاقة المكبوتة لا تستطيع أن تختفى فحسب، بل عليها أن تسرى الى مكان ما على حسب مبدأ بقاء الطاقة . ونتيجة ذلك أن تتخذ لنفسها من اللاشعور مستقرا . وقد يصبح اللاشعور ، بإضافة طاقة الى مادته اللاشعورية ، مشحونا بدرجة عالية تفوق الأنا الشعورى . وعندما يحدث هذا فان الطاقة من اللاشعور ستتميل الى الفيضان فى اتجاه الأنا ، على حسب مبدأ الانتقال ، محدثة اضطرابا فى العمليات العقلية المنطقية . بعبارة أخرى ، ستحاول العمليات اللاشعورية

ذات الطاقات العالية اختراق حواجز الكبت ، وإذا ما نجحت في ذلك فإن سلوك الشخص سيكون ذا أسلوب غير عقل ، واندفاعي .

ان للتسامي وللكبت طبيعتين متعارضتين تماما . فالتسامي تقدمي ، والكبت تكوصي . التسامي يؤدي بانفس الى التحرك الى الامام والكبت يؤدي بها الى التحرك الى الخلف . والتسامي يخدم المنطق والكبت يؤدي الى مجافاة المعقول . والتسامي تكاملي والكبت يفسد التكامل .

!لا أن يونج يطلب منا أن نضع نصب أعيننا أنه طالما أن الكبت عملية تكوصية فقد يمكن اشخص من أن يجد الاجابة على مشاكلكه في لاشعوره . وبذلك يتحرك الى الامام ثانية .

الرمز :

للرمز في سيكولوجية يونج وظيفتان أساسيتان . فهو من ناحية يمثل محاولة اشباع دفعة غريزية قد احبطت ، ومن ناحية أخرى تجسيد لمادة نمطية اولية . ان نمو الرقص كشكل فني مثال لمحاولة الاشباع الرمزي لدفعة محبطة كاندفعة الجنسية . ان التمثيل الرمزي للنشاط الغريزي لا يمكن بحال أن يكون مصدر اشباع كامل ، مهما كان الأمر ، ذلك أنه لا يصل الى الموضوع الحقيقي ولا يفرغ كل الليبدو والرقص لا يحل تماما محل الاشكال المباشرة بقدر أكبر في التعبير الجنسي ، ومن ثمة ينشد الشخص دواما اشكالا رمزية أكثر كفاءة في التفسير عن الفرائز المحبطة . ويعتقد يونج أن اكتشاف رموز احسن ، أي رموز تفرغ طاقة أكثر ، وتخفف توترا أكثر ، تمكن المدنية من التقدم الى مستويات حضارية أسمى وأسمى .

على أن الرمز يقوم كذلك بدور المقاومة للدفعة الغريزية ، إذ مادام الرمز يمتص الطاقة فإن ذلك يجعل من غير الممكن استخدامها - أي الطاقة في تفريغ الدفعة الغريزية . فعندما يرقص المرء مثلا ، فإنه لا يكون قائما باتيان نشاط جنسي مباشر . ومن وجهة النظر هذه يكون الرمز مائلا للتسامي ، فهو تحويل في الليبدو .

ان قدرة الرمز على تمثيل خطوط المستقبل في نمو الشخصية ، وبخاصة الجهاد من أجل الكلية ، يلعب دورا بالغ الأهمية في سيكولوجية يونج . فهو يمثل اسهاما متميزا ومبتكرا في نظرية الرمز . ان يونج يعود

مرة اثر اخرى . الى مناقشة الرمزية فى كتاباته ، وقد جعلها موضوع بعض من اهم كتبه (١٩١٦ ، ١٩١٧ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٥٣ ب) وتتضمن هذه الفقرة لب نظرية يونج فى الرمزية « ان مغزى الرمز ليس فى انه اشارة مقنعة الى شئ معروف بصفة عامة ، بل فى أنه محاولة فى ابراز ، بالمماثلة ، لما هو حتى الآن مجهول تماما ، ولا زال رهن عملية التكوين » (يونج ١٩١٧ ص ٤٦٨) .

ان الرموز تعبيرات تمثل النفس . فهى لا تعبر فحسب عن الحكمة الانسانية المخزونة التى اكتسبها الجنس والفرد ، بل انها تستطيع كذلك أن تمثل مستويات من النمو تسبق كثيرا مكانة الانسان الراهنة . ان مصير الانسان ، وأعلى تطور تصل اليه نفسه تحددها له الرموز . ان المعلومات التى يحتوى عليها الرمز لا يعرفها الانسان مباشرة بل يجب أن يحل شفرة الرمز ليستطيع اكتشاف رسالته الهامة .

ان جانبى الرمز ، الجانب الرجعى والذى تقود الغرائز خطاه ، والجانب المستقبل ، والذى تقود خطاه الاهداف النهائية للجنس البشرى ، هما جانبان لعملة واحدة . ويمكن تحليل الرمز لكلا الجانبين . والنمط الرجعى من التحليل يكشف عن الاساس الفريزى للرمز ، اما النمط المستقبل فيكشف عما يطمح الجنس البشرى اليه من كمال وولادة جديدة ، وانسجام ونقاوة وتطهر وما الى ذلك . والنمط الاول من التحليل نمط يقوم على التماس العلية والارجاع الى اسبلب اولية قليلة ، اما النمط الاخير فنمط غائى يقوم على التماس العلل النهائية . وكلاهما ضرورى لتوضيح الرمز توضيحا كاملا . ويعتقد يونج ان الطبيعة المستقبلية للرمز قد اهللت وفضلت عليها النظرة الى الرمز بوصفه نتاج الدفعات المحببة وحدها .

ان الشدة النفسية للرمز تكون دائما اعظم من قيمة السبب الذى انتج الرمز والذى يعنيه هذا هو أن هناك قوة دافعة وقوة جاذبة وراء خلق الرمز . ويأتى الدفع من الطاقة الفريزية ويأتى الجنب من الاهداف المتعالية . ولا يكفى واحد منهما فقط لخلق الرمز . ونتيجة لذلك فان الشدة النفسية للرمز هى النتاج المتجمع للمحددات العلية والغائية . وهى لذلك تكون اكبر من العامل العلى وحده .

البحوث المميزة وطرق البحث

تميز عقلية يونج بأنها واحدة من أكثر العقليات شمولاً ونفاذاً في علم النفس الحديث . فهو يجد وقائمه في كل مكان : في الاساطير القديمة والقصص الخرافية الحديثة ، في الحياة البدائية والمدنية الحديثة ، في ديانات عالمي الشرق والغرب ، في الكيمياء القديمة (حجر الفلاسفة) وعلم التنجيم ، وقرامة الافكار ، وتبادلها على البعد ، في أحلام ورؤى الأسوياء من الناس وفي علم الانسان والتاريخ والأدب ، وفي البحث الاكلينيكي والتجريبي . وقد ابرز يونج في العديد من الكتب والمقالات المادة التجريبية التي اقام عليها نظرياته . ويصر يونج على أنه أكثر اهتماماً باكتشاف الوقائع أو الحقائق ، منه بصياغة النظريات ، ليس لدى نظام أننى أتحدث عن حقائق ، (اتصال شخصي بالمؤلفين ، ١٩٥٤) .

ولما كان من المستحيل كلية عرض القدر الضخم من المادة التجريبية التي جمعها يونج في كتاباته العديدة فاننا سنوطن النفس على عرض جزئ صغير من بحوث يونج المميزة .

الدراسات التجريبية للعقد :

ان أول دراسات نيونج تجذب انتباه علماء النفس استخدمت اختبار تداعي الألفاظ مع استخدام المقاييس الفسيولوجية للانفعال (يونج ١٩١٨)

وفي اختبار تداعي الألفاظ تقرا على أن المفحوص قائمة مقننة من الكلمات واحدة اثر أخرى ويطلب منه الاستجابة بأول كلمة تخطر على باله . ويقاس الوقت المستغرق في الاستجابة لكل كلمة بوساطة ساعة توقيت . وقد قيست في تجارب يونج التغيرات الطارئة على التنفس بجهاز النيوجراف الذي يلف حول صدر المفحوص ، كما قيست التغيرات الطارئة على التوصيل الكهربائي للجلد باستخدام جهاز السيوكولجلفانومتر الذي يربط براحة اليد . ويقدم المقياسان أدلة اضافية على الاستجابات الانفعالية التي قد تظهر للكلمات معينة في القائمة اذ أنه من المعروف جيداً ان التنفس ومقاومة الجلد يتأثران بالانفعال .

وقد استخدم يونج هذه المقاييس لاكتشاف العقد لدى المرضى . فالتأخر في الاستجابة لفترة طويلة ، لكلمة التنبيه ، بالإضافة الى تغيرات التنفس ومقاومة الجلد يشير الى أن عقدة قد أثارها الكلمة . فمثلاً ، اذا

أصبح تنفس الشخص غير منتظم ، وانخبطت مقاومته للتيار الكهربائي بسبب عرق الراحتين وتأخرت بصورة غير عادية استجابته لكلمة « أم » ، فان هذه العوامل توحي بوجود عقدة الأم . وإذا ما تشابحت الاستجابة لكلمات أخرى مرتبطة « بالأم » ، فان ذلك يدعم وجود مثل هذه العقدة . وقد أصبح منهج يونج ممارسة تشخيصية مقننة في علم النفس الاكلينيكي .

دراسة الحالة :

ان دراسة الحالة ، كما سبق أن لاحظنا في مناقشة فرويد ، هي الطريقة الاساسية التي يستخدمها المحللون النفسيون لكشف المادة اللاشعورية ، ولاكتشاف الكيفية التي تتشابك بها خيوط الشخصية لتكون نسيجها ، ويونج ، مثل فرويد أستاذ في فن دراسة الحالة . وعن طريق استخدام التداعي الطليق والأحلام كسأته الاساسية ، استعان يونج بقدراته الخلافة وناقدة التي تحقق لها أعلى درجات النمو ، في الكشف عن عدد من الحالات المعقدة . وليس من الضروري استعراض هذه الحالات هنا لانها تتبع الى حد كبير نفس نمط فرويد على أن يونج قد قدم اسهامين مميزين لطريقة دراسة الحالة . وهما (١) طريقة سلسلة الاحلام . (٢) منهج التخيل الايجابي .

طريقة سلسلة الاحلام :

كان فرويد - كما نذكر - يحلل الأحلام كل منها على حدة عن طريق جعل المريض يتداعي تداعيا طليقا لكل مكون من مكونات الحلم واحدا اثر آخر . واذ ذاك يصل فرويد ، باستخدام مادة الحلم والتداعي الطليق الى تفسير لمعنى الحلم . أما يونج فبرغم أنه لم يرفض هذا المنهج ، فقد طور منهجا آخر لتفسير الاحلام . فبدلا من الحلم الواحد ، استخدم يونج سلسلة من الاحلام يحصل عليها من الشخص .

و ... انها (الاحلام) تكون سلسلة متماسكة يتفتح المعنى خلالها بالتدرج بدرجة أو بأخرى من تلقاء ذاته . والسلسلة هي السياق الذي يقفمه الحالم نفسه . ان الأمر كأننا ، لا بإزاء نص واحد بل قصص كثيرة آمانا ، تلقى بالضوء من جميع الجوانب على الحدود غير المعروفة ،

بحيث تصبح قراءة جميع النصوص كافية لتوضيح الأجزاء الصعبة في كل نص مفرد . . . وينتظر بالطبع أن يكون تفسير كل جزء مفرد قائما على التخمين إلى حد كبير ، ولكن السلسلة ككل تزودنا بجميع المهديات التي نحتاج إليها لتصحيح أي أخطاء ممكنة في الأجزاء السابقة (١٩٥٣) ب ص (١٢) .

وتسمى هذه الطريقة في علم النفس طريقة الثبات الداخلي ، وهي تستخدم على نطاق واسع مع مواد كيفية مثل الأحلام والقصص والتخيلات . والكيفية التي استخدم بها يونج هذه الطريقة عرضها للإفادة منها في كتابه « علم النفس والكيمياء القديمة » ، *Psychology and Alchemy* (١٩٥٣) ب) ويحلل فيه سلسلة بالغة الطول من الأحلام .

طريقة التخيل الإيجابي :

يطلب من المفوض في هذه الطريقة أن يركز انتباهه على إحدى صور الحلم المؤثرة ولكنها غامضة مبهمة ، أو على صورة بصرية تلقائية . ويلاحظ ما يحدث للصورة ويجب إيقاف ملكات النقد وملاحظة ما يحدث وتسجيله بموضوعية مطلقة . فإذا ما روعيت هذه الشروط بأمانة ، فإنه عادة ما تمر الصورة بسلسلة من التغيرات تخرج إلى النور كتلة من المواد اللاشعورية . والمثال التالي مأخوذ من كتاب يونج وكيرني .

« مقال في علم الاساطير *Essay on a science of mythology* ص ٢٢٩ : -

« أرى طائرا أبيض يفرد جناحيه . وقد حط على جسم امرأة ، ترتدى ملابس زرقاء ، وتجلس كتمثال قديم . والطائر يلتقط من راحتها التي توجد بها حبة قمح وقد التقطها الطائر بمنقاره وطار في السماء مرة أخرى » .

ويشير يونج إلى أن من الممكن استخدام الرسم والرسم بالزيت والصلصال للتعبير عن تدفق الصور وفي المثال السابق رسم الشخص صورة لتصاحب الوصف اللفظي . وفي هذه الصورة صورت المرأة ولها نهديان كبيران بحيث أوحى ليونج أن الرؤية تمثل صورة الأم .

وعادة ما يكون للتخيلات الناتجة عن التخيل الإيجابي شكل أحسن مما لأحلام الليل لأن الشعور المستيقظ لا النائم هو الذي يتلقاها .

الدراسات المقارنة للأساطير والاديان وعلوم السحر :

لما كان من الصعب العثور على أدلة على الانماط الاولية من المصادر المعاصرة وحدها ، فقد أوقف يونج قدرا كبيرا من اهتمامه على البحوث فى علم الأساحير والدين وعلم الكيمياء القديمة « السيمياء » و علم التنجيم ، وقد قاده بحثه الى مناطق لم يرتدها الا القليل من علماء النفس ، وقد اكتسب قدرا ضخما من المعلومات بأمور نادرة ومعقدة مثل الديانة الهندوكية والتاوية (١) Taoism واليوجا ودبالة كنفوشيوس ، والقداس المسيحى ، وعلم التنجيم وبحوث علم الأرواح ، والعقلية الجذائية وكيمياء لقديمة .

وأكثر الأمثلة الأخاذة على محاولات يونج ايراد الوثائق الدالة على وجود الانماط الاولية العنصرية ما نجده فى كتابه البالغ التعمق والشمول « علم النفس وكيمياء القديمة » (١٩٥٣ ب) .

ويعتقد يونج أن الرمزية فى الكيمياء القديمة تعبر عن الكثير من الانماط اولائية لدى الإنسان ان لم تكن تعبر عنها كلها . وفى كتابه «علم النفس والكيمياء القديمة » يفحص سلسلة أحلام شاملة جمعت من مريض (ولم يكن من مرضى يونج) ميرزا الحيسوط المتشابهة للرمزية الخاصة بالكيمياء القديمة ويخرج من ذلك بأن السمات الأساسية تظهر فى أنواع من الرمزية . انها رحلة طويلة من التحليل الرمزي يجب قراءتها كلها حتى يمكن فهمها وتقديرها . والأمثلة القليلة التى سنعرضها تهدف فحسب الى تزويد القارئ ببعض الافكار عن طريقة يونج .

وتتكون المادة الاكلينيكية من أكثر من ألف حلم ورؤيا أخذت من شاب صغير السن ويشغل تحليل مختارات من هذه الأحلام النصف الأول من الكتاب . أما بقية الكتاب فيتناول بطريقة أكاديمية علم الكيمياء القديمة وعلاقته بالرمزية الدينية .

فى أحد الأحلام يسير عدد من الناس الى اليسار حول دائرة . ولا يوجد الحالم فى مركز الدائرة وانما يقف عند أحد الجوانب . وهم يقولون أنه يجب إعادة تكوين قرد من نوع الجيبون (ص ١١٩) . ان الدائرة رمز لعمل عالم الكيمياء القديمة الذى يتكون من تضخيم الوحشة الاصلية الفوضوية للمادة الأولى الى أربعة عناصر تمهيدا لاعادة تجميعها

(١) فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسى وتعتبر ، بالإضافة الى الكونفوشيوسية والبوذية أحد اديان الصين الثلاثة . قاموس المورد .

من وحدة أعلى وأكثر كمالاً . وتمثل الوحدة الكاملة في الدائرة ، أي الماندالا .
والتي تظهر في الحلم في هيئة المثلث حول المربع . أما القرد أو الجيبون
فيشير الى مادة الكيمياء القديمة الغامضة المحولة ، وهي المادة التي تحول
المعادن الدنيا الى ذهب . لذلك يعرب هذا الحلم عن ضرورة قيام المريض
بنقل اناء الشعورى من مركز شخصيته حتى يسمح للدفعات والحوافز
القديمة المدارة المكبوتة بالتحول . ويستطيع المريض بلوغ الانسجام
اذا استطاع فقط أن يحقق التكامل بين جميع عناصر شخصيته ، تماما كما
يستطيع عالم الكيمياء القديمة أن يصل الى هدفه (وهو ما لم يحدث قط)
فقط بالخلط المحكم للعناصر الأساسية . وفي حلم آخر يوجد كوب مليء
بمادة جيلاتينية على منضدة أمام الحالم (ص ١٦٨) . ويقابل الكوب
الجهاز الذي استخدمه عالم الكيمياء القديمة في التقطير ، أما المحتويات
فتقابل المادة القديمة الشكل التي يأمل عالم الكيمياء القديمة أن يحولها
الى حجر الفلاسفة Lapis . ان رموز الكيمياء القديمة في هذا الحلم تدل
على أن الحالم يحاول أو يأمل تحويل نفسه الى شيء أحسن .

وعندما يحلم الحالم بالماء فإنه يمثل القوة التوالدية « ماء الحياة »
عند عالم الكيمياء القديمة ، وعندما يحلم بالعثور على زهرة زرقاء فإن
الزهرة تمثل مكان الولادة لالهة السيمياء الخنثى . وعندما يحلم بالقاء
عملات ذهبية على الأرض فإنه يصر بذلك عن احتقاره للمثل الأعلى لعالم
الكيمياء القديمة . وعندما يرسم المريض عجلة فإن يونج يرى ارتباطا
بينها وبين عجلة عالم الكيمياء القديمة التي تمثل عملية الدوران داخل
الدورة الكيميائية التي يفترض أنها تؤدي الى تحول المادة .

وبصورة ماثلة يفسر يونج الماسة التي في حلم المريض بأنها حجر
الفلاسفة المرغوب فيه والبيضة بأنها المادة الأولية الفوضوية التي يبدأ
بها عالم الكيمياء القديمة عمله .

وعبر سلسلة الأحلام جميعها توجد ، كما يوضح يونج ، خطوط
تواز قوية بين الرموز التي يستخدمها الحالم للاعراب عن مشاكله
وأهدافه ، والرموز التي ابتكرها علماء الكيمياء القديمة في العصور
الوسطى للتعبير عن محاولاتهم . والسمة الأخاذة لسلسلة الأحلام هي
تصويرها ، بدقة قد تتباين درجاتها ، للجانب المادي من الكيمياء القديمة .
وقد استطاع يونج أن يبين التطابق الدقيق بين الموضوعات في الأحلام وفي
الصور الموجودة في كتب الكيمياء القديمة . ويخرج من ذلك بأن
ديناميات الشخصية لعالم الكيمياء القديمة في العصور الوسطى كما

يسقطها على بحوثه الكيميائية ، وديناميات الشخصية لدى المريض متطابقتان . وهذا التطابق التام بين الصور يثبت وجود أنماط أولية عالمية . بالإضافة الى أن يونج الذى قام ببحوث فى علم الانسان فى افريقيا وفى اجزاء أخرى من العالم يجد نفس الأنماط الأولية تعبر عنها أساطير الشعوب البدائية . كذلك تعبر عنها الأديان والفنون الحديثة والبدائية معا . « ان الأشكال التى تتبدى بها الخبرة لدى كل فرد قد تكون محدودة التباين ، الا أنها ، مثلها مثل رموز الكيمياء القديمة جميعا صور متباينة لأنماط مركزية ، وهى ما تقع على نطاق شاسع وعام ، (يونج ١٩٥٣ ب ص ٤٦٣) .

الكتابة الراهنة والتقويم :

لنفسولوجية يونج عدد من المعجبين المخلصين والمؤيدين فى جميع أنحاء العالم . وكثير منهم يمارسون التحليل النفسى ويستخدمون منهج يونج فى العلاج النفسى ، كما أنهم يقبلون مسلماته الاساسية فيما يتعلق بالشخصية . وبعضهم من النظريين الذين واصلوا تنمية أفكار يونج . ونذكر من بينهم جيرهارد أدلر Gerhard Adler (١٩٤٨) وميشيل فورد هام (١٩٤٧) Michael Fordham ، ومارى هاردنج (١٩٤٧) Mary Harding وإيريك نيومان Erich Neuman (١٩٥٤ ، ١٩٥٥) وهيربرت ريد Herbert Read (١٩٤٥) وجولاند جاكوبى Jolande Jacobi (١٩٥١) وفرانيسيس ويكس Francis Wickes (١٩٤٨) . وبالرغم من أن يونج فى العقد التاسع من عمره فانه ما زال نشيطا فى كتاباته كما أنه يرى عددا قليلا من المرضى . كذلك يحظى يونج بمؤيدين أقوياء من غير المتخصصين مثل بول ميلون Paul Mellon مدير مؤسسة بولينجن (وقد سميت باسم المقر الريفى ليونج على بحيرة زيورخ) كذلك تتولى مؤسسة بولنجن Bollingen نشر كتب يونج عن طريق مطبعة Pantheon Press بانثيون وأكثر مشروعات مؤسسة بولينجن طموحا الان هو ترجمة ونشر المؤلفات المجمة ليونج الى الانجليزية تحت اشراف ريد وفورد هام وأدلر

ولقد كان ليونج تأثير مرموق خارج علم النفس والطب النفسى . فآرنولد توينبى المؤرخ يعترف بأنه مدين ليونج ، اذ فتح أمامه (بعدا جديدا فى مجال الحياة) . كما أن فيليب ويلي الكاتب يكن اعجابا عظيما ليونج ، كذلك الشأن بالنسبة للويس مفورد ، المؤلف والناقد ، وبول رادين عالم الانسان . وربما كان تأثير يونج الأعظم على الفكر الدينى

المحديث (بروجوف ١٩٥٣) وقد دعى يونج الى جامعة ييل للقائه
محاضرات تيرى Terry عن كتابه « علم النفس والدين » (١٩٣٨) . وقد
تمرض يونج للنقد الحاد لتأييده النازية ، بالرغم من أنه هو واتباعه
ينكرون بشدة هذه التهم ويؤكدون أن يونج قد أسى عرض موقفه .
(هارمز ، ١٩٤٦ ، و Saturday Review ١٩٤٩) .

وقد هوجم يونج من جانب المحللين النفسيين من مدرسة فرويد
ابتداءً من فرويد نفسه . وقد شن جلوفر Glover (١٩٥٠) المحلل النفسي
الانجليزي ما قد يحتمل أن يكون أشمل هجوم تعرض له علم النفس
التحليلي . فهو يسخر من مفهوم الانماط الأولية بوصفها ميتافيزيقية وغير
قابلة للثبات . وهو يعتقد أن الانماط الأولية يمكن تفسيرها تفسيراً
كاملاً ، في نطاق الخبرات ، وأنه من السخف أن نفترض ارتنا عنصرياً .

ويقول جلوفر ان يونج لا يوجد لديه مفهومات ارتقائية يفسر
بوساطتها نمو العقل . على أن انتقاد جلوفر الأساسي ، وهو ما يكرره عدداً
من المرات ، هو أن سيكولوجية يونج هي تراجع الى سيكولوجية الشعور
التي عفى عليها الزمن . ويتهم يونج بتمزيق مفهوم اللاشعور الفرويدي
واقامة أنا شعوريا محله . وجلوفر لا يتظاهر بأنه غير متحيز أو محايد
في تقويمه لسيكولوجية يونج (انظر جرای ١٩٤٩ ب لمقارنة أخرى بين
آراء يونج وفرويد) .

ما هو التأثير الذي كان لنظرية يونج في الشخصية على نمو علم
النفس العلمي ؟ قليل للغاية ذلك التأثير الذي يستطيع المرء ادراكه
مباشرة ، باستثناء اختبار تداعي الكلمات ومفهومي الانطواء والانبساط .
ان اختبار تداعي الالفاظ لم يكن من ابتكار يونج فجولتون هو الذي ينسب
اليه عادة انخضل في ابتكار الاختبار ، كما أن فونت هو الذي قدمه الى
علم النفس التجريبي . لذلك عندما حاضر يونج في طريقة تداعي
الكلمات في جامعة كلارك عام ١٩٠٩ لم يكن ذلك جديداً أو غريباً على علماء
النفس من مستمعيه . بالإضافة الى أن دراسات يونج في تداعي الكلمات
استخدمت منهج البحث الكمي التجريبي الذي كان مقدرًا أن يكسب رضا
علماء النفس الذين يفخرون بأنفسهم لأنهم علميون . ويناقد استخدام
اختبار تداعي الكلمات في عدد من الدراسات المسيحية الحديثة لعلم
النفس الاكلينيكي والاساليب الاسقاطية (بل Bell ١٩٤٨ ، ليفي Levy
١٩٥٢ ، روتر Rotter ١٩٥١) .

على أن الامر يصبح اقل يسرا عند تفسير اهتمام علم النفس بالطرز التي قدمها يونج (تيبولوجية) . فقد أعد عددا من الاختبارات للانطواء - الانبساط ، كما أن هناك كتابات سيكولوجية كثيرة في الموضوع . ولكن النتائج تشير الى أن الناس لا يندرجون في فئتي الانطوائيين أو الانبساطيين ، بل ان كلا الاتجاهين يوجدان بنسب مختلفة لدى جميع الناس تقريبا (انظر موراي لمناقشة فاهمة وناقدة للانطواء الانبساط ، ١٩٤٧ فصل ٢٥) .

ان علم النفس التحليلي لم يتعرض من قبل علماء النفس للمنقد الفاحص الذي تعرض له التحليل النفسي الفرويدى . بل انه لم ينل مكانا مرموقا في التواريخ المقننة لعلم النفس . فيورينج Boring في كتابه « تاريخ علم النفس التجريبي » يخصص لفرويد ست صفحات ، على حين يخصص ليونج اربعة أسطر كما أن بيترز Peters في مراجعته واختصاره لكتاب برين « تاريخ علم النفس» بعد أن يناقش فرويد مناقشة مستفيضة يخصص صفحة واحدة لكل من أدلر ويونج . وهو يجد أن كتابات يونج الاخيرة غامضة حتى أنه يكاد يكون من غير الممكن مناقشتها .

أما كتاب فلوجل «مائة عام في علم النفس» فانه يخصص ليونج وقتا أكبر ، الا أن معظمه كان يدور حول اختبار تداعى الكلمات والتيبولوجية . أما كتاب ميرفى Murphy «مقدمة تاريخية في علم النفس الحديث» فانه يخصص ليونج ست صفحات بالمقارنة بفصل بأكمله من أربع وعشرين صفحة - يخصص لفرويد ، وهذه الصفحات الست تأتي في فصل عنوانه « الاستجابة لفرويد » .

لماذا يتجاهل علم النفس ، علم النفس التحليلي ليونج ، على حين أن العالم كله يحيطه بفدر كبير من الاحترام والتكريم ؟ ثمة سبب أساسى لهذا، وهو أن سيكولوجية يونج تقوم على النتائج الاكلينيكية أكثر منها على البحث التجريبي . فهى لم تنل من جانب التجريبيين الصارمين قبولا أكثر مما نالته افرويدية . بل الحقيقة أن يونج يلقي قبولا أقل بكثير جدا مما يلقاه فرويد ، ذلك لأن الكثير من النقاش في كتاباته يدور حول العلوم الكشفية والفيبيات والدين من الواضح انه ينفر الكثير من علماء النفس . ويشير هذا النقد لدى يونج أشد الغضب فهو يصر على أن اهتمامه بالعلوم الكشفية مثل انكيميااء القديمة وعلم التنجيم وكذلك اهتمامه بالدين لايعنى بأى حال قبول هذه المعتقدات . فهو يدرسها ويبرزها في كتاباته لانها تقدم له الأدلة على نظريته . وسواء كان الله موجودا أو غير موجود فليس

من شأن يونج أن يقرره ، أما إن معظم الناس يؤمنون بالله فهي حقيقة صادقة صلت جريان الماء من أعلى الى أسفل . وان الله حقيقة نفسية وغير فيزيقية واضحة ، أي أنه حقيقة يمكن اقامتها نفسيا وليس ماديا ، (١٩٥٤ ص ١٦٩) .

وبالإضافة الى ذلك ، فان يونج يقبل أفكارا عتيقة مثل الطباع المكتسبة والغائية . ونتيجة لذلك يبدو أن نظريات يونج قد حركت اهتماما طفيفا للغاية وحتى بحدوثا أقل ، بين علماء النفس .

وحقيقة أخرى ، وهي ان اعتبار يونج محللا نفسيا قد أسهم ، كذلك في تجاهل علم النفس لنظامه . فعندما يفكر المرء في التحليل النفسى فإنه يفكر عادة في فرويد ثم بعد ذلك ، وبصورة ثانوية في يونج وأدلر . ان مكانة فرويد الهائلة في التحليل النفسى تحول الانتباه بعيدا عن التتابع في الميدان . ان نشر أعمال يونج المجمة بالانجليزية قد يستطيع تغيير الموقف ، وان كان نشر الكتابات المجمة لفرويد في نفس الوقت قد يلغى هذا الأثر .

وبالرغم من أن يونج لم يكن له تأثير مباشر كبير على علم النفس ، فقد تدين بعض التطورات الحديثة في علم النفس ليونج بفضل لم تظن اليه بعد . ان التأثيرات غير المباشرة يصعب تقديرها ، ذلك أن الافكار المتداولة قد ترجع ، أما الى تأثير رجل واحد ، أو قد تنشأ بتلقائية قد تتباين درجاتها ، في عقول عدد من الرجال في نفس الوقت تقريبا بفعل المناخ الثقافي السائد . وليس من الممكن أن ننكر أن كثيرا من أفكار يونج يعم تدولها ، سواء كان هو المشئول عن ذلك أم لا ولناخذ على سبيل المثال مفهوم تحقيق الذات . فهذا المفهوم ، أو مفهومات متشابهة نجدها في كتابات جولد شتين وروجرز وانجيل وميرفي وأولبورت ومازلو ، وتلك فقط أسماء علماء النفس الذين يعرض هذا الكتاب آراهم . ولا نجد في أي مثال من هذه الأمثلة الاعتراف بفضل يونج في تطوير هذا المفهوم . ولا يعنى هذا في حد ذاته أن يونج لم يكن له تأثير ، سواء كان مباشرا أو غير مباشر على هؤلاء العلماء وقد تكون استعارتهم لا شعورية سواء من يونج أو من آخرين تأثروا بيونج . او فلنتناول فكرة النمو بوصفه تقدما من حالة كلية اجمالية الى حالة متفاضلة الى حالة متكاملة وهي فكرة نجدها لدى يونج وميرفي . فهل أثر يونج في ميرفي (والعكس غير مقبول اذ أن آراء يونج سبقت آراء ميرفي) ، أو هل أثر يونج في شخص آخر ، أثر هذا بدوره في ميرفي ، أو انه ليس ثمة ارتباط بين الرجلين عدا انهما

معاصران يعيشان في الحضارة الغربية . ليس ثمة دليل على أى من هذه الاحتمالات جميعها . وهل يعكس مثلا التفاؤل الذى يتميز به كثير من الآراء الحديثة لرجال مثل روجرز واوبورت تفاؤل يونج ، أو أنه يعكس روح العصر ؟ وهل هيا تأكيد يونج للسلوك الهادف ، المسرح للنظريات الفرضية الأخرى ؟ أو أن الفرضية بوصفها مفهوما نظريا أصبح «موضة» العصر لأن العلم فى القرن التاسع عشر كان ميكانيكيا مسرفا ؟ ان هذه الاسئلة مما يصعب الاجابة عليها ، كما أنه ذلك ليس فى استطاعتنا . واننا نشعر بثقة كبيرة أن ما تحتاج اليه نظرية يونج الآن هو أن تختبر بواسطة الطرق العلمية فى علم النفس ونحن لا نفكر فى الطراز الاكلينيكي من الدراسة (ادلر ١٩٤٩ ، فورد هام ١٩٤٩ هوكاى ١٩٤٧ ، وكيرش ١٩٥٢) ، فقد وضع باش فحوصا فى حالة شبيهة بالنوم وقارن بين انسا تفكر فى اتجاه أكثر تجريبية كما نجده فى أعمال باش Bash (١٩٥٢) ، فقد وضع باش مفحوصيه فى حالة شبيهة بالنوم وقارن بين الاستجابات لاحدى بطاقات رورشاخ (البطاقة التاسعة) والاستجابات لنفس البطاقة فى الحالة العادية . وقد وجدت عدة اختلافات عكسية . ويعتبر باش هذه الاختلافات فى الطرفين تأييدا لنظرية يونج فى العلاقة التعويضية بين العقل للشعورى والعقل اللاشعورى . وعندما يتم مزيد من هذا النمط من الدراسات فان مكانة نظرية يونج بين علماء النفس ستميل الى التحسن، ذلك أن علماء النفس يفضلون النظريات التى تولد الفروض القابلة للاختبار ، والتى تحفز على البحث . وسوف يتطلب الأمر قدرا كبيرا من الأصالة لصياغة فروض قابلة للاختبار بالنسبة لمفهوم الأنماط الأولية ، الا أنه قد يتضح أن لهذا المجهود قيمته .

فى نفس الوقت يواصل يونج خلق الافكار الرائعة الاصاله . ففى واحد من أحدث منشوراته (يونيغ وبولى ١٩٥٥) ، يقترح يونج مبدأ غير على يطلق عليه اسم Synchronicity «التزامن» . وينطبق هذا المبدأ على الاحداث التى تقع معا فى نفس الوقت ، الا أن أحدهما لا يسبب الآخر ، مثال ذلك أن تقترن فكرة بواقعة موضوعية . وكل شخص ، تقريبا ، قد خبر مثل هذا الاتفاق فى الحدوث . فقد يفكر المرء فى شخص ثم يظهر هذا الشخص ، أو قد يحلم المرء بمرض صديق أو قريب أو موته . ثم يسمح بعد ذلك ان هذا قد وقع بالفعل . ويشير يونج الى الكتابات الغزيرة التى تدور حول التخاطر (تبادل الافكار عن بعد) والرؤيا عن بعد وغير ذلك من أنماط الظواهر غير العادية كدليل على مبدأ «التزامن» . وهو يعتقد أن الكثير من هذه الخبرات لا يمكن تفسيرها بوصفها مصادفات عارضة . بل

انها توحى بوجود نوع آخر من التنظيم فى الكون بالاضافة الى التنظيم الذى يقدمه مبدأ العلية . وهو يطبق هذا المبدأ على مفهوم الانماط الاولية زاعما أن النمط الأولى يمكن أن يحقق ذاته نفسيا داخل الفرد ، وأن يعبر عن نفسه ماديا فى العالم الموضوعى . والنمط الأولى لايسبب كلتا الواقعتين بل الأخرى أن كل واقعة توازى الأخرى . ان هنالك توافقا غير على بين انظاهرتين ومبدأ التزامن هذا سيبدو وكأنه تحسين أدخل على فكرة أن التفكير «يسبب» التجسد المادى للشئ الذى يتناوله التفكير .

وبعد ، فكل ما يمكن قوله وفعله ان نظرية يونج فى الشخصية كما طورها فى كتاباته الغزيرة ، وكما تطبق على نطاق واسع من الظاهرات الانسانية ، تقف كواحدة من أبرز الانجازات فى الفكر الحديث . ان اصالة فكر يونج وشجاعته قل أن تجد نظيرا لهما فى تاريخ العلم الحديث، كما أن رجلا - عدا فرويد - لم يفتح عددا أكبر من النوافذ الفكرية على ما يفضل يونج أن يسميه « روح الانسان » .

ان أفكاره تستحق أوثق الاهتمام من كل دارس جاد فى علم النفس .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Jung, C. G. *Collected works*. Editorial committee: Herbert Read, Michael Fordham, and Gerhard Adler. Translator: R. F. C. Hull. In 18 volumes. Published jointly in England by Routledge and Kegan Paul, and in the United States by Pantheon Press. The entire edition constitutes No. XX in the Bollingen Series. This edition will contain revised versions of earlier works by Jung, works, not previously translated, and works originally written in English. The following volumes have appeared to date:
- Volume 5. *Symbols of transformation*. 1956. (A revised edition of the *Psychology of the unconscious*.)
- Volume 7. *Two essays on analytical psychology*. 1953a.
- Volume 12. *Psychology and alchemy*. 1953b.
- Volume 16. *The practice of psychotherapy*. 1954a.
- Volume 17. *The development of personality*. 1954b.
- Jung, C. G. *Collected papers on analytical psychology*. New York: Moffat, Yard, 1917.
- Jung, C. G. *Contributions to analytical psychology*. New York: Harcourt, 1928.
- Jung, C. G. *Psychological types*. New York: Harcourt, 1933a.
- Jung, C. G. *Modern man in search of a soul*. New York: Harcourt, 1933b.
- Jung, C. G. *Psychology and religion*. New Haven: Yale Univ. Press, 1938.
- Jung, C. G. *The integration of personality*. New York: Farrar and Rinehart, 1939.
- Jung, C. G. *Ueber psychische Energetik und das Wesen der Traume*. Zurich: Rascher, 1948.
- Jung, C. G. *Von den Wurzeln des Bewusstseins*. Zurich: Rascher, 1954c.

REFERENCES

- Adler, G. *Studies in analytical psychology*. New York: Norton, 1948.
- Adler, G. A discussion on archetypes and internal objects. III. A contribution of clinical material. *Brit. J. med. Psychol.*, 1949, 22, 16—22.
- Bash, K. W. Zur experimentellen Grundlegung der Jungschen Traum-analyse. (On the laying of an experimental foundation of Jung's

- dream analysis.) Schweiz. Z. Psychol. Anwend., 1952, 11, 282—295.
- Bell, J. E. *Projective techniques*. New York: Longmans, 1948.
- Campbell, J. *The hero with a thousand faces*. New York: Pantheon Press, 1949.
- Current Biography*. Carl Gustav Jung. 1943, pp. 359—362.
- Fordham, Frieda. *An introduction to Jung's psychology*. London: Penguin Books, 1953.
- Fordham, M. S. M. *The life of childhood*. London: Kegan Paul, 1947.
- Fordham, M. S. M. A discussion on archetypes and internal objects. I. On the reality of archetypes. *Brit. J. med. Psychol.*, 1949, 22, 3—7.
- Freud, S. *An autobiographical study*. London: Hogarth Press, 1935.
- Freud, S. The history of the psychoanalytic movement. In A. A. Brill (Ed.). *The basic writings of Sigmund Freud*. New York: Random House, 1938.
- Glover, E. *Freud or Jung*. New York: Norton, 1950.
- Gray, H. Jung's psychological types; meaning and consistency of the questionnaire. *J. gen. Psychol.*, 1947, 37, 177—185.
- Gray, H. Jung's psychological types in men and women. *Stanford med. Bull.*, 1948, 6, 29—36.
- Gray, H. Jung's psychological types; ambiguous scores and their interpretation. *J. gen. Psychol.*, 1949a, 40, 63—88.
- Gray, H. Freud and Jung: their contrasting psychological types. *Psychoanal. Rev.*, 1949b, 36, 22—44.
- Harding Mary E. *Psychic energy, its source and goal*. New York: Pantheon Press, 1947.
- Harms, E. Carl Gustav Jung—defender of Freud and the Jews. *Psychiat. Quart.*, 1946, 20, 199—230.
- Hawkey, M. L. The witch and the bogey; archetypes in the case study of a child. *Brit. J. med. Psychol.*, 1947, 21, 12—29.
- Jacobi, Jolande. *The psychology of C. G. Jung*. Revised edition. New Haven: Yale Univ. Press, 1951.
- Jones, E. *The life and work of Sigmund Freud*. Vol. 2. New York: Basic Books, 1955.
- Jung, C. G. *The theory of psychoanalysis*. New York: Nervous and Mental Disease Publishing Co., 1915.
- Jung, C. G. *Analytical psychology*. New York: Moffat, Yard, 1916.
- Jung, C. G. *Collected papers on analytical psychology*. New York: Moffat, Yard, 1917.
- Jung, C. G. *Studies in word-association*. London: Heinemann, 1918.
- Jung, C. G. *Psychology of the unconscious*. New York: Dodd, 1925.

- Jung, C. G. *Contributions to analytical psychology*. New York: Harcourt, 1928.
- Jung, C. G. *Psychological types*. New York: Harcourt, 1933a.
- Jung, C. G. *Modern man in search of a soul*. New York: Harcourt, 1933b.
- Jung, C. G. *Psychology and religion*. New Haven: Yale Univ. Press, 1938.
- Jung, C. G. *The integration of personality*. New York: Farrar and Rinehart, 1939.
- Jung, C. G. *Ueber psychische Energetik und das Wesen der Traume*. Zurich: Rascher, 1948.
- Jung, C. G. *Collected works*. Vol. 7. *Two essays on analytical psychology*. New York: Pantheon Press, 1953a.
- Jung, C. G. *Collected works*. Vol. 12. *Psychology and alchemy*. New York: Pantheon Press, 1953b.
- Jung, C. G. *Collected works*. Vol. 17. *The development of personality*. New York: Pantheon Press, 1954b.
- Jung, C. G. *Von den Wurzeln des Bewusstseins*. Zurich: Rascher, 1954c.
- Jung, C. G. *Answer to Job*. London: Routledge and Kegan Paul, 1954d.
- Jung, C. G. *Collected works*. Vol. 5. *Symbols of transformation*. New York: Pantheon Press, 1956.
- Jung, C. G., and Kerenyi, C. *Essays on a science of mythology*. New York: Pantheon Press, 1949.
- Jung, C. G. and Pauli, W. *The interpretation of nature and the psyche*. New York: Pantheon Press, 1955.
- Kirsch, J. The role of instinct in psychosomatic medicine. *Amer. J. Psychother.*, 1949, 3, 253-260.
- Levy, S. Sentence completion and word association tests. In D. Brower and L. E. Abl. (Eds.). *Progress in clinical psychology*. Vol. 1. New York: Grune and Stratton, 1952, pp. 191-208.
- Murphy, G. *Personality*. New York: Harper, 1947.
- Neumann, E. *The origins and history of consciousness*. New York: Pantheon Press, 1954.
- Neumann, E. *The great mother*. London: Routledge and Kegan Paul, 1955.
- Progoff, I. *Jung's psychology and its social meaning*. New York: Julian, 1953.
- Read, H. E. *Education through art*. New York: Pantheon Press, 1945.
- Rotter, J. B. Word association and sentence completion methods. In H. H. Anderson and Gladys L. Anderson (Eds.). *An introduction to projective techniques*. New York: Prentice-Hall, 1951, pp. 279-311.

- Saturday Review*. Various writers. 1949, 32, July 9, p. 25; July 16, pp. 21, 23; July 30, pp. 6—8; Sept. 10, p. 27; Oct. 15, pp. 23—25.
- Time*. Biographical sketch of Carl Gustav Jung. 1952, 60, 37.
- Time*. The old wise man. 1955, 65, 62—70.
- Weigert, E. V. Dissent in the early history of psychoanalysis. *Psychiatry*, 1942, 5, 349—359.
- Wickes, Frances G. *The inner world of man*. New York: Holt, 1948.
- Wilhelm, R., and Jung, C. G. *The secret of the golden flower*. New York: Harcourt, 1931.

الفصل الرابع

النظريات النفسية الاجتماعية

آدلر • فروم • هورني • سوليفان

لقد شبت النظريات التحليلية النفسية التي صاغها فرويد ويونج في نفس المناخ الوضعي الذي شكل مسار علم الطبيعة وعلم الحياة في القرن التاسع عشر . فقد اعتبر الانسان اساسا نظاما مركبا من الطاقة يحافظ على نفسه بوساطة علاقاته مع العالم الخارجى . والأغراض النهائية لهذه الصلات هي بقاء وتكاثر النوع والنمو الارتفاعى المستمر . وتخدم مختلف العمليات السيكولوجية التي تكون الشخصية هذه الغايات . وبحسب نظرية التطور تكون بعض الشخصيات أكثر صلاحية من غيرها للقيام بهذه المهام . وقد تأثر نتيجة لذلك تفكير المحللين النفسيين الأوائل بمفهوم التباين والتمييز بين التوافق وسوء التوافق . وحتى علم النفس الأكاديمي ، الذى به فى مدار الداروينية ، وانشغل بقياس الفروق الفردية فى القدرات وبدور العمليات السيكولوجية فى التكيف أى بقيمتها الوظيفية .

وفى نفس الوقت بدأت تظهر اتجاهات فكرية أخرى تخالف التصور الفيزيقي الحيوى الحالى للانسان . ففي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر بدأ علم الاجتماع وعلم الانسان فى الظهور كفرعين مستقلين فى العلم كما أن نموها السريع فى هذا القرن كان ظاهرة تلفت النظر وبينما كان علماء الاجتماع يدرسون الانسان وهو يعيش فى حالة متقدمة من المدنية ووجدوا انه نتاج طبقته وطائفته ونظمه وعاداته الشعبية فان علماء الانسان كانوا يغامرون بالاتجاه الى مناطق قاصية من العالم ، حيث وجدوا الشواهد تدل على أن البشر تتوافر لديهم القابلية للتشكل بقدر يكاد يكون دون حدود وطبقا لهذه العلوم الاجتماعية الجديدة

فان الانسان هو اساسا نتاج المجتمع الذى يعيش فيه وشخصية اجتماعية
أكثر منها بيولوجية .

وبالتدرج بدأت هذه المبادئ الاجتماعية والحضارية المتفتحة فى
التسرب الى علم النفس والى التحليل النفسى لتخفف من قبضة الأسس
الفطرية والفيزيقية لهذه العلوم . وقد سحب عدد من أتباع فرويد
ولاهم للتحليل النفسى التقليدى لعدم رضاهم عن قصور نظريته فيما يتصل
بالظروف الاجتماعية المؤثرة فى نمو الشخصية وشرعوا فى إعادة صياغة
نظرية التحليل النفسى طبقا للخطوط التى يميلها الاتجاه الجديد المتطور
من العلوم الاجتماعية . ومن بين هؤلاء الذين زودوا نظرية التحليل
النفسى بنظرة علم النفس الاجتماعى فى القرن العشرين الأشخاص
الأربعة الذين تكون أفكارهم مضمون هذا الفصل ، الفريد أدلر ، وكارين
هورنى ، وايرك فروم ، وهارى ستاك سليفان . ويمكن اعتبار الفريد
آدلر من بين هؤلاء الأربعة الشخصية المؤسسة للنظرة الاجتماعية
النفسية الجديدة ، لانه فى فترة مبكرة ترجع الى عام ١٩١١ اختلف مع
فرويد حول موضوع الجنسية وشرع فى صياغة نظرية أصبح فيها
الاهتمامات الاجتماعية والعمل من أجل التفوق دعائمتين أساسيتين من
دعاماتها الفكرية . وبعد ذلك شرعت هورنى وشرع فروم فى محاربة
الاتجاه الفريزى القوي فى التحليل النفسى وأصرأ على أهمية التغيرات
النفسية الاجتماعية فى نظرية الشخصية . وأخيرا دعم هارى ستاك
سوليفان فى نظريته عن العلاقات الشخصية المتبادلة مكانة نظرية
الشخصية القائمة على العمليات الاجتماعية . وبالرغم من أن لكل نظرية
فروضها ومفهوماتها الخاصة بها والمميزة لها . فانه توجد فيها خطوط
متوازية أشار إليها كتاب مختلفون (جيمس ١٩٤٧ ، روث مونرو ١٩٥٥ ،
هـ.ل. ، ر.ر. آنسباخر ، ١٩٥٦) .

لقد أمل علينا اختيارنا لهارى ستاك سوليفان شخصية رئيسية
لهذا الفصل اعتقادنا أساسا انه استطاع أن يصل بأفكاره الى مستوى
عال من التصور الفكرى وبالتالي كان تأثيره بوصفه صاحب نظرية أكثر
انتشارا . لقد كان سوليفان أكثر استقلالاً بدرجة كبيرة عن معتقدات التحليل
النفسى الشائعة ، وان كان قد استخدم فى البداية اطارا فرويديا لكنه
طور فى أعماله التالية نظاما يبتعد بدرجة واضحة عن نظام فرويد .
وقد تأثر تأثرا عميقا بعلم الانسان وعلم النفس الاجتماعى . ومن الناحية
الأخرى ، فان هورنى وفروم بقيا فى تفكيرهما داخل نطاق التحليل

النفسي ، اما أدلر ، فيالرغم من انفصاله عن مدرسة فرويد فان أثر صلته المبكرة بفرويد ظلت واضحة طوال حياته . وعادة ما يشار الى هورني وفروم كمراجعين او فرويديين محدثين . اذ ان احدا منهما لم يقم بتطوير نظرية جديدة في الشخصية ، وانما اعتبرا نفسيهما مجددين في النظرية القديمة او منمقين لها . اما سوليفان فكان اقرب كثيرا الى ان يكون مبتكرا وقد كان مفكرا على قدر كبير من الابتكار فجنّب حوله جماعة كبيرة من التلاميذ المخلصين وطور ما يقال احيانا انها مدرسة جديدة في الطب النفسي .

الفريد أدلر

ولد الفريد أدلر في فيينا عام ١٨٧٠ من أسرة من الطبقة المتوسطة ومات في أبردين باسكوتلندا عام ١٩٣٧ عندما كان يقوم بجولة يحاضر فيها . وقد حصل أدلر على اجازة الطب عام ١٨٩٥ من جامعة فيينا وتخصص في البداية في امراض العيون وبعد ان مارس الطب العام لفترة ، اصبح طبيبا نفسيا . وقد كان احد الاعضاء المؤسسين لجمعية فيينا للتحليل النفسي ثم اصبح بعد ذلك رئيسها . الا ان أدلر سرعان ما بدأ في تكوين أفكار مخالفة لأفكار فرويد وغيره من أعضاء الجمعية ، وعندما أصبحت هذه الاختلافات حادة طلب منه ان يعرض آراءه على الجمعية ، وقد قام بذلك عام ١٩١١ ، ونتيجة انتقادات حادة ومعارضة شديدة لموقفه من جانب أعضاء الجمعية الآخرين استقال أدلر من رئاستها ثم انهى بعد ذلك بشهور قليلة صلته بالتحليل النفسي الفرويدي (كولبي، ١٩٥١ ، جونز ، ١٩٥٥ ، هول ، ١٩٥٠ ، و رور - آنسباخر ، ١٩٥٦) .

ثم كون بعد ذلك جماعة خاصة به اصبحت تعرف باسم علم النفس الفرويدي جذبت لها اتباعا من مختلف أنحاء العالم . وقد عمل أدلر في الحرب العالمية الأولى كطبيب في الجيش النمساوي وبدأ يهتم بعد الحرب بارشاد الأطفال وتوجيههم وأنشأ أول عيادات للتوجيه في مدارس فيينا كما كان له الفضل في انشاء مدرسة تجريبية في فينا تطبق نظرياته في التربية .

وقد استقر أدلر عام ١٩٣٥ في الولايات المتحدة حيث واصل ممارسة الطب النفسي كما عمل أستاذا لعلم النفس الطبي بكلية الطب في لونغ ايلند . وكان أدلر كاتباً خصباً فنشر مائة كتاب ومقال أثناء

حياته . وربما كان كتابه «ممارسة ونظرية علم النفس الفردي» (١٩٣٧) هو خير مقدمة لنظرية أدلر في الشخصية ، كما ظهرت ملخصات موجزة لآراء أدلر في « سيكولوجيات عام ١٩٣٠ » ، (١٩٣٠) ، وفي المجلة الدولية لعلم النفس الفردي (١٩٣٥) . وقد نشر حديثا هاينز وروينا آنسباخر مختارات شاملة لفقرات من كتابات أدلر وتقديم لها (١٩٥٦) وهي احسن مصدر وحيد للمعلومات عن علم النفس الفردي عند أدلر . كذلك كتب فيليس بوتوم كتابا عن تاريخ حياة أدلر (١٩٣٩) . وتقوم الجمعية الأمريكية لعلم النفس الفردي بالولايات المتحدة بنشر أفكار أدلر عن طريق فروعها في نيويورك وشيكاغو ولوس انجليس وعن طريق مجلتها « المجلة الأمريكية لعلم النفس الفردي » .

ويناقض أدلر بشدة ما يذهب اليه فرويد من افتراض اساسى مؤداه أن سلوك الانسان تحركه غرائز فطرية ، ويناقض كذلك زعم يونج الرئيسى بأن سلوك الانسان تحكمه أنماط أولية فطرية ، فهو يفترض أن سلوك الانسان تحركه أساسا الحوافز الاجتماعية . فالانسان عند أدلر كائن اجتماعى فى أساسه . وهو يربط نفسه بالآخرين ، وينشغل بنشاطات اجتماعية تعاونية ، ويفضل المصلحة الاجتماعية على المصالح الأنانية . ويكتسب أسلوبا للحياة يفلب عليه الاتجاه الاجتماعى . ولم يقل أدلر : ان الانسان يطبع اجتماعيا لمجرد تعرضه للعمليات الاجتماعية، بل ان الاهتمام الاجتماعى فطرى فيه وان كانت الأنماط النوعية للملاقات بالآخرين والنظم الاجتماعية التى تظهر وتكون تحددها طبيعة المجتمع الذى يولد فيه الشخص . ان أدلر اذن بمعنى ما له وجهة نظر بيولوجية لا تختلف عن وجهة نظر فرويد ويونج . فثلاثتهم يفترضون أن للانسان طبيعة فطرية تشكل شخصيته . وقد أكد فرويد الجنس ، وأكد يونج الأنماط الفكرية الأولية الأثرية ، على حين أكد أدلر الاهتمام الاجتماعى وهذا التأكيد على المحددات الاجتماعية للسلوك ، وهو ما أهمله أو قلل من شأنه فرويد ويونج ربما كان أعظم ما أسهم به أدلر فى النظرية السيكولوجية . فقد حول انتباه الاخصائيين النفسيين الى أهمية المتغيرات الاجتماعية وساعد على تنمية مجال علم النفس الاجتماعى فى وقت كان علم النفس الاجتماعى يحتاج فيه الى التشجيع والتأييد ، وبخاصة من جانب المشتغلين بالتحليل النفسى .

أما ثانى اسهامات أدلر الكبرى فى نظرية الشخصية فهو فكرته عن **الظلمة الخفية** . فعمل عكس الأنا عند فرويد الذى يتكون من مجموعة من

العمليات السيكلوجية التي تخدم اغراض الغرائز الفطرية ، تمثل الذات عند أدلر نظاما شخصيا وذاتيا للغاية ، يفسر خبرات الكائن العضوى ويعبئها معناها . وبالإضافة الى هذا فالذات تبحث عن الحيرت التي تساعد على تحقيق أسلوب الشخص الفريد فى الحياة . واذا لم توجد هذه الحيرت فى العالم فإن الذات تحاول خلقها . ان هذا المفهوم عن ذات خلافة جديد على نظرية التحليل النفسى ، وقد ساعد على تصويض « الموضوعية » المتطرفة فى التحليل النفسى والتقليدى ، الذى اعتمد كلية تقريبا على الحاجات البيولوجية والمنبهات الخارجية لتفسير ديناميات الشخصية . وكما سوف نرى فى الفصول التالية ، فان مفهوم الذات لعب دورا رئيسيا فى الصياغات الحديثة المتعلقة بالشخصية . ويعتبر اسهام أدلر فى هذا الاتجاه الجديد فى التعرف على الذات كسبب هام للسلوك اسهاما له وزنه البالغ (هـ ل ، ر - ر - انساخر ، ١٩٥٦) .

وسمة ثالثة تميز سيكولوجية أدلر وتفصل بينه وبين التحليل النفسى التقليدى هي تأكدها لتفرد الشخصية . فقد اعتبر أدلر كل شخص صياغة فريدة من الدوافع والسمات والاهتمامات والقيم واعتبر أن كل فعل يصدر عن الشخص يحمل طابع أسلوبه الخاص والتميز فى الحياة . وفى هذا المجال ينتمى أدلر الى تقليد وليام جيمس ووليام شتيرن اللذين يقال انهما قد وضعا أسس علم نفس الشخصية . وتقلل نظرية أدلر الى أدنى حد من وزن الغريزة الجنسية التى كانت تقوم فى الصياغة النظرية المبكرة لفرويد بدور يتضاد ماعنده فى ديناميات السلوك . وقد أضاف أدلر الى هذا الحوار الفرويدى الدائر حول الجنس وحده أصواتا أخرى لها وزنها . فالإنسان فى أساسه كائن اجتماعى وليس كائنا جنسيا . والاهتمامات الاجتماعية وليست الجنسية هي التى تحركه . كما أن ما يعانى من مشاعر نقص ليست مقصورة على المجال الجنسى . بل قد تمتد الى جميع جوانب وجوده ، فيزيقية وسيكولوجية . فهو يجاهد من أجل تكوين أسلوب فريد للحياة تلعب فيه الدوافع الجنسية دورا ثانويا . والحقيقة أن الطريقة التى يشبع بها حاجاته الجنسية يحددها أسلوبه فى الحياة وليس العكس وقد قوبلت تنحية أدلر للجنس عن عرشه بالترحيب والارتياح من جانب الكثيرين تخلصا من رقابة النظرة الجنسية الشاملة عند فرويد .

وأخيرا ، جعل أدلر الشعور مركز الشخصية . فالإنسان كائن شعورى ، وهو يعرف فى العادة أسباب سلوكه كما أنه يشعر بتقانه

ويشعر بالأهداف التي يحاول بلوغها . بل أكثر من ذلك ، انه فيرد شاعر بذاته ، قادر على التخطيط لأعماله وتوجيهها مع فطنة تامة لمعناها بالنسبة لتحقيقه لذاته . وهذا هو النقيض الكامل لنظرية فرويد التي أرجعت في واقع الأمر الشعور الى حالة عديمة الكيان ، الى مجرد زبد يطفو على سطح بحر اللاشعور الشاسع الأطراف .

المفاهيم الأساسية :

لقد بدأ الفريد أدلر ، صياغته النظرية في مجال علم نفس الشواذ ، مثله مثل غيره من أصحاب نظريات الشخصية الذين كان تدريبهم الأساسي في الطب والذين مارسوا الطب النفسي ، وقد كون نظريته في الحصاب قبل أن يوسع مجاله النظري ليشمل الشخصية السوية ، وهو ما حدث عام ١٩٢٠ (هـ . ل ، ر . ر . انسباخر ١٩٥٦) . ونظرية أدلر في الشخصية اقتصادية الى أقصى الحدود ، بمعنى أن مفاهيم أساسية قليلة - يقوم عليها البناء النظري كله . ولهذا السبب يمكن تلخيص وجهة نظر أدلر بقدر من السرعة في خطوط عامة قليلة ، وهي :

- ١ - الأهداف النهائية الوهمية .
- ٢ - الكفاح في سبيل التفوق .
- ٣ - مشاعر التقصى وتعويضها .
- ٤ - الاهتمام الاجتماعي .
- ٥ - أسلوب الحياة .
- ٦ - الذات الخلاقة .

الأهداف النهائية الوهمية

بعد أن انفصل أدلر بفترة وجيزة عن الدائرة المحيطة بفرويد وقع تحت تأثير فلسفة هانز فايتهنجر Hans Vaihinger الذي كان كتابه « سيكلوجية كلن » The Psychology of As if (الترجمة الانجليزية) قد نشر عام ١٩١١ ، فقد عرض فايتهنجر للفكرة الفسرية المثيرة وهي أن الانسان يعيش على أفكار كثيرة وهمية تملأ ، لا مقابل لها في الواقع . وهذه الأوهام مثل « لقد خلق الناس متساوين ، و « الأمانة

خير سبيل» و«الغاية تجرر الوسيلة» تتنح الانسان مزيدا من الكفاءة في مواجهة الواقع . فهي صياغات أو مزاعم تساعدنا ولكنها ليست فروضا يمكن اختبارها والتيقن من صحتها - ان - من الممكن التخلي عنها عندما تختفى فائدتها .

وقد أخذ أدلر هذه العقيدة الفلسفية الوضعية المثالية وطوعها بما يناسب منهجه . ولقد ركز فرويد ، كما نتذكر ، تركيزا كبيرا على العوامل التكوينية وخبرات الطفولة المبكرة بوصفها عوامل محددة للشخصية . الا أن أدلر اكتشف في كتابات فابنجر ما يدحض هذه الجنسية التاريخية الجامدة ، ووجد فيها فكرة أن الانسان تحركه توقعاته للمستقبل أكثر مما تحركه خبرات ماضيه . ولا توجد هذه الأهداف في المستقبل كجزء من خطة غائية - ولا يؤمن كل من فابنجر وأدلر بالقدرة أو القدر - فهناك يوجدان بصورة ذاتية نفسية لدى الانسان هنا والآن بوصفهما محاولات أو مثلا تؤثر في السلوك الراهن . فاذا اعتقد الشخص مثلا أن هناك جنة للمتقين وحييا للآثمين ، فإن هذا الاعتقاد ، قد نفترض انه سيكون له تأثير مرموق على سلوكه . ان هذه الأهداف الوهمية هي عند أدلر السبب الذاتي للأحداث السيكولوجية .

وقد اعتبر أدلر نظرية فرويد ، تماما كما اعتبرها يونج كذلك ، نظرية تسير على حسب مبدأ العلية ، أما نظريته فهي تسير على حسب مبدأ الغائية .

« يصر علم النفس الفردي اصرارا مطلقا على استحالة الاستغناء عن الغائية لفهم جميع الظواهرات السيكولوجية . فالأسباب والقوى والعوائق والحوافز وما إليها لا يمكن أن تخدم كبنادى للتفسير . وانما الهدف النهائي هو وحده ، الذي يستطيع تفسير سلوك الانسان . ان الخبرات والصدمات وميكانيزمات النمو الجنسي لا يمكن أن تقدم لنا تفسيراً ، ولكن ما يستطيع ذلك هو المنظور الذي ينظر إليها من خلال أو الطريقة الفردية في النظر إليها ، وهو الذي يخضع الحياة بأسرها للهدف النهائي . » (١٩٣٠ ص ٤٠٠)

وقد يكون هذا الهدف النهائي وهما ، أي مثلا أعلى يستحيل تحقيقه ، ولكنه يرغم ذلك حافز حقيقي ، لا مراء ، يبحث الانسان على بذل الجهد ، وفيه التفسير النهائي لسلوكه .

ويعتقد أدلر ، برغم ذلك أن الشخص السوى قادر على تحرير نفسه من تأثير هذه الأوهام ومواجهة الحقيقة حينما تقتضى الضرورة ذلك ، وهو أمر لا يقدر عليه الشخص العصبي .

الكفاح في سبيل التفوق : ما هي الغاية النهائية التي ينزع جميع البشر الى بلوغها والتي تمنح الشخصية الثبات والوحدة ؟ لقد وصل أدلر في عام ١٩٠٨ الى استنتاج مؤداه أن العدوان أكثر أهمية من الجنس . وبعد ذلك بقليل حلت « ارادة القوة » محل الحافز العدوانى .

وقد عين أدلر القوة بالذكورة ، والضعف بالانوثة . وقد شرع عند هذه المرحلة من تفكيره (١٩١٠) في الاعلان عن فكرة «الاحتجاج الذكري» وهو شكل من أشكال المسالفة الزائدة في التمويضى يمارسه الذكور والاناث معا عند الاحساس بعدم الكفاية وبالنقص . ولكن أدلر تخلى بعد ذلك عن « ارادة القوة » مفضلا عليها « الكفاح في سبيل التفوق » ، الذى ظل متمسكا به بعد ذلك . وعلى هذا فقد مر تفكيره فيما يتعلق بالهدف النهائى للانسان فى ثلاث مراحل : أن يكون عدوانيا ، وأن يكون قويا ، ثم أن يكون متفوقا .

ويبين أدلر بوضوح شديد أنه لا يعنى بالتفوق الامتياز الاجتماعى، أو الزعامة أو المنزلة المرموقة فى المجتمع . وانما يعنى أدلر بالتفوق شيئا يشبه كثيرا فكرة يونج عن الذات أو مبدأ جولد شتين ، تحقيق الذات . انه عمل من أجل بلوغ الكمال التام . انه « الدافع الأعظم الى الأمام » .

« بدأت أرى بوضوح فى كل ظاهرة سيكولوجية الكفاح فى سبيل التفوق ويسير ذلك موازيا للنمو الفيزيقي كما أنه ضرورة داخلية للحياة ذاتها . ويكمن - هذا الحافز - عند جنور حلول مشاكل الحياة ، كما يتجلى فى الكيفية التى نواجه بها هذه المشاكل . فجميع وظائفنا تتبع توجيهات هذا الحافز . فهى تعمل من أجل تحقيق الانتصار والأمن والزيادة ، سواء آكان ذلك فى الاتجاه الصحيح أم الخاطىء . ان الحافز من الناقص الى الزائد لا ينتهى . والدافع من أسفل الى أعلى لا يتوقف . فجميع مايجلم به فلاسفتنا وأخصائيونا النفسيون من أمور حفظ الذات، مبدأ اللذة ، التبادل - هذا كله ليس الا اعرابا مبهما ، لمحاولات التعبير عن الدافع الأعظم الى أعلى » (١٩٣٠ ص ٣٩٨) .

ولكن من أين يأتى الكفاح فى سبيل التفوق أو الكمال ؟ يرى أدلر أنه فطرى وأنه جزء من الحياة ، والحقيقة أنه الحياة ذاتها . فمنذ الميلاد حتى المات يحمل الكفاح فى سبيل التفوق الانسانى من مرحلة نمو الى مرحلة النمو الأعلى . انه مبدا دينامى فعال . وليس ثمة دوافع منفصلة ، فكل دافع يستمد قوته من الكفاح من أجل الكمال . ويعترف أدلر أنه الكفاح فى سبيل التفوق قد يعرب عن نفسه بألاف الطرق المختلفة ، وأن لكل شخص أسلوبه العياني الخاص به لبلوغ الكمال أو محاولة بلوغه . فالشخص العصابى مثلا يكافح من أجل تقدير الذات ، والقوة ، والعظمة ، أو بعبارة أخرى من أجل أهداف انوية أو أنانية على حين يكافح الشخص السوى من أجل أهداف ذات طابع اجتماعى فى أساسها .

ولكن كيف تظهر على وجه الدقة ، الأشكال المحددة للكفاح فى سبيل التفوق لدى الفرد ؟ لا بد للإجابة عن هذا السؤال من مناقشة مفهوم أدلر عن « مشاعر النقص أو الدونية » .

مشاعر النقص والتعويض :

قدم أدلر منذ فترة مبكرة جدا من حياته العلمية ، عندما كان ومازال مهتما بالطب العام فكرة النقص العضوى والتعويض الزائد (الترجمة الانجليزية ١٩١٧) . وقد كان مهتما فى ذلك الوقت بالعثور على اجابة للسؤال الدائم عن السبب الذى يجعل الناس عندما يمرضون أو يعانون من بعض الألم ، يصيبهم المرض أو الألم فى منطقة معينة من الجسم . فقد يصيب الاضطراب عند أحد الاشخاص القلب ، وعند شخص ثان الرئتين ، فى حين يصاب شخص ثالث باللمباجو وقد رأى أدلر أن السبب فى حدوث اصابة معينة هو النقص الأساسى فى تلك المنطقة وهو نقص كان موجودا اما بسبب الوراثة أو بسبب شنوذ فى النمو . ثم لاحظ اذ ذاك أن الشخص المصاب بعجز فى عضو ما ، كثيرا ما يحاول تعويض الضعف بالعمل على تقوية هذا العضو بواسطة التدريب العميق . وأشهر الأمثلة على التعويض عن نقص عضوى هو ديموستين الذى كان يتعلم فى طفولته ثم أصبح واحدا من أعظم خطباء العالم . وثمة مثال آخر أكثر حداثة هو تيودور روزفلت الذى كان عليلا فى طفولته ثم نمى نفسه بواسطة التدريب المستمر فأصبح رجلا متين البنية .

ويعد إن. تشر. أدلر. كتابه « عن العجز العضوي وسع المفهوم ليشمل أي مشاعر بالنقص » تنشأ عن ضروب العجز التي يعانها المرء ذاتياً سيكولوجية كانت أو اجتماعية. كما تشمل تلك التي تنشأ عن ضعف جسمي. فعل. أو عجزهما . وفي ذلك الوقت ساوي أدلر بين النقص والتجرد من المرجولة أو الانوثة. ويسمى التوفيق عن ذلك باسم « الاحتجاج الذكري » . ولكنه بعد ذلك أخضع هذا الرأي لرقى أكثر شمولاً ، وهو أن مشاعر النقص تنشأ عن احساس بعدم الاكتمال أو عدم الاتقان في أي مجال من مجالات الحياة . فالطفل مثلاً تحركه مشاعر النقص لديه ليواجهه من أجل بلوغ مستوى أعلى من النمو . وعندما يصل إلى هذا المستوى يبدأ في احساس بالنقص مرة أخرى فتظهر مرة أخرى الحركة إلى الأمام . ويزعم أدلر أن مشاعر النقص ليست علامة على الشذوذ وإنما هي سبب كل ما يحققه الإنسان من تحسن وقد يبالغ بالطبع في مشاعر النقص بفعل ظروف خاصة كالتدليل الزائد للطفل أو نينه وفي كلتا الحالتين قد يؤدي ذلك إلى مظاهر شاذة معينة كظهور عقدة نقص أو عقدة تفوق تعويضية . أما في الظروف السوية ، فإن مشاعر النقص أو احساس بعدم الكمال تكون قوة دافعة أكبر لدى الإنسانية . وبعبارة أخرى تدفع الإنسان الحاجة إلى التغلب على نقصه كما تجذبه الرغبة في التفوق .

ولم يكن أدلر من مؤيدي مذهب النفعة ، وبرغم أنه اعتقد أن مشاعر النقص مؤلمة ، فإنه لم يعتقد أن التخلص من هذه المشاعر يجلب اللذة بالضرورة فالكمال وليست اللذة هو هدف الحياة عنده .

الاهتمام الاجتماعي

تعرض أدلر في السنوات الأولى لصياغة نظريته لنقد شديد لادعائه أن للإنسان طبيعة عبوانية نزاعة إلى القوة ، وفكرته أن الاحتجاج الذكري تعويض مبالغ فيه للضعف الانثوي ، ولتأكيده الدوافع الأنانية للإنسان ، وتجاهله دوافعه الاجتماعية . وبدأ الكفاح من أجل التفوق شبيهاً بصيحة للحرب يطلقها الإنسان المتفوق « السوبرمان » عند نيتشه ، وقد كان هذا الشعار نعم الرقيق للشعائر الدارويني « البقاء للأصلح » .

وقد كان آدلر نصيرا للعدالة الاجتماعية مؤيدا للديمقراطية الاجتماعية ، ولذلك فقد وسع مفهومه للانسان ليتضمن عامل الاهتمام الاجتماعى (١٩٢٩) وبالرغم من أن الاهتمام الاجتماعى يتضمن أمورا كالتعاون والعلاقات المتبادلة والاجتماعية والتوحد بالجماعة والتعاطف وما إليها . فإنه أكثر اتساعا من هذا كله . فالمعنى النهائي للاهتمام الاجتماعى يقوم على مساعدة الفرد للمجتمع لبلوغ هدفه ، المجتمع الكامل . ان الاهتمام الاجتماعى هو التعويض الحقيقى الذى لا مفر منه لجميع ما يعانىة أفراد الجنس البشرى من ضعف طبيعى ، (آدلر ١٩٢٩ ص ٣١) .

ويعيش الشخص داخل السياق الاجتماعى منذ اليوم الاول لحياته . ويفصح التعاون عن نفسه فى العلاقة بين الطفل و أمه ، ومن ثمة يدخل فى شبكة من العلاقات الشخصية المتبادلة تشكل شخصيته وتزوده بالمخارج العيانية لكفاحه من أجل التفوق . وبذا يأخذ الكفاح من أجل التفوق طابعا اجتماعيا ويحل المثل الأعلى لمجتمع كامل محل الطموح الشخصى الحالى والمنفعة الأنايية . فبالعمل من أجل الصالح العام ، يعرض الانسان ضعفه الفردى .

ويعتقد آدلر أن الاهتمام الاجتماعى فطرى وأن الانسان مخلوق اجتماعى بطبيعته ، وليس بحكم العادة . ولكن هذا الاستعداد الفطرى شأنه شأن أى قدرة طبيعية ، لا يظهر تلقائيا وانما يشمر بالتوجيه والتدريب . ولقد كرس آدلر ، لايمانه بمزايا التربية ، جزءا كبيرا من وقته لانشاء عيادات توجيه الأطفال ، وفى اصلاح المدارس ، وتعليم العامة الاساليب السلمية فى تربية الأطفال .

ان من الجدير أن نتتبع فى كتابات آدلر تغيرا حاسما وان كان تدريجيا ، حدث فى تصوره للانسان ابتداء من السنوات الأولى فى حياته المهنية عندما كان متصلا بفرويد حتى السنوات الأخيرة عندما حقق لنفسه سمعة دولية . فالانسان الشاب عند آدلر تدفقه شهوة لا ترتوى للقوة والسيطرة ليعوض شعورا عميق الجذور وان كان خفيا بالنقص والدونية . اما عند آدلر الرجل الكبير فالانسان يحركه اهتمام اجتماعى فطرى يجعله يخضع الكسب الحاص للصالح العام . لقد نسجت صورة الانسان الكامل الذى يعيش فى مجتمع كامل خيوطها من صورة الانسان القوى المدوانى الذى يسيطر على المجتمع ويستغله . وحل الاهتمام الاجتماعى محل الاهتمام الأنايى .

أسلوب الحياة :

هذا هو شعار نظرية الشخصية عند أدلر . وهو موضوع يتكرر في جميع كتابات أدلر التالية (مثلا ١٩٢٠ ، ١٩٣١) كما أنه أكثر سمات سيكلوجيته تميزا . ان أسلوب الحياة هو هيكلاً النظام الذي تمارس بمقتضاه شخصية الفرد وظائفها ، انه الكل الذي يأمر الأجزاء . وأسلوب الحياة هو المبدأ الأساسى الفردى عند أدلر ، فهو المبدأ الذى يفسر لنا تفرد الشخص . ولكل شخص أسلوب حياة الا أنه لا يوجد شخصان لهما نفس الأسلوب .

ولكن ما هو المقصود بدقة من هذا المفهوم ؟ هذا سؤال تصعب الاجابة عليه لأن أدلر قد ذكر الكثير عنه كما أنه ذكر عنه أشياء مختلفة بل ومتعارضة أحيانا في كتاباته المختلفة . ومن الصعب كذلك أن تميز بينه وبين مفهوم آخر عند أدلر وهو الذات الخلاقة .

وكل شخص له نفس الهدف ، هدف التفوق الا أن هناك طرقا لا حصر لها للعمل لبلوغ هذا الهدف . فقد يحاول شخص أن يصبح متفوقا عن طريق تنمية قدراته العقلية ، على حين يحول آخر جميع جهوده لتحقيق الكمال العضلى . وللمتقف أسلوب للحياة ، وللرياضى أسلوب آخر . فالمتقف يقرأ ويدرس ويفكر ويعيش حياة يظلب عليها الوحدة والجلوس فى مكان بالقياس الى ما يقوم به الرجل النشيط . وهو يرتب تفاصيل وجوده ، عاداته المنزلية ونشاطاته الترفيهية وأسلوبه اليومي الروتيني وعلاقته بأسرته وأصدقائه ومعارفه ونشاطاته الاجتماعية بما يتفق وهدف التفوق العقلى . فكل ما يفعله يفعلهُ وهو يضع نصب عينيه هذا الهدف النهائى . ان سلوك الشخص بأسره ينبع من أسلوب حياته . فهو يدرك ويتعلم ويحتفظ بما يتفق وأسلوب حياته ويتجاهل كل ما عداه . ان أسلوب الحياة يتكون فى فترة مبكرة للغاية من الطفولة قرابة السنة الرابعة أو الخامسة ، ومنذ ذاك الوقت يتمثل الفرد الخبرات ويستغلها على حسب هذا الأسلوب الفريد للحياة . فتثبت اتجاهاته ومشاعره ويثبت تفهمه بصورة آلية فى سن مبكرة ويصبح من المستحيل عمليا أن يتغير أسلوب الحياة بعد ذلك . وقد يكتسب الشخص طرقا جديدة للتعبير عن أسلوب حياته الجديد ولكنها تكون مجرد أمثلة عيانية وخاصة لنفس الأسلوب الأساسى الذى تكون فى سن مبكرة .

ولكن ما الذى يحدد أسلوب الحياة لدى الفرد ؟ لقد قال أدلر فى كتاباته المبكرة أن الذى يحدده ، الى حد كبير - النقائص النوعية التى يعانىها الشخص سواء اكانت متوهمة أم حقيقية ! • فأسلوب الحياة تمريض عن نقص معين • واذا كان الطفل عليل الجسم ، فان أسلوبه حياته سيأخذ شكل القيام بتلك الأشياء التى ستؤدى الى القوة البدنية . والطفل الفبى يكافح من أجل تحقيق التفوق العقلى •

ولقد تحدد أسلوب الحياة عند نابليون وهو الأسلوب القائم على القهر والغزو بفعل قصر قامته ، كما تحدد عشق هتلر للاغتصاب والسيطرة على العالم بجزءه الجنىسى • ولكن هذا التفسير البسيط لمسلك الانسان والذى راق الكثير من قراء أدلر ، واستخدم على نطاق واسع فى تحليل الطابع خلال الأعوام من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ لم يكن محل رضاه أدلر نفسه • فهو بالغ البساطة شديد الآلية • ولذلك فقد بحث عن مبدأ أكثر دينامية ووجهه فى الذات الخلاقة •

الذات الخلاقة :

لقد توج أدلر بهذا المفهوم انجازة كصاحب نظرية فى الشخصية . فعندما اكتشف الذات الخلاقة أخضعت لها جميع مفهوماته الأخرى • ذلك أنه عثر أخيرا على المحرك الرئيسى ، وحجر الفلاسفة ، واكسر الحياة ، والسبب الأول لكل ما هو انساني ، كان أدلر ينقب عنه • ان الذات الموحدة ، الثابتة ، والخلاقة هى صاحبة السيادة فى بناء الشخصية •

والذات الخلاقة ، مثلها مثل جميع الأسباب الأولى يصعب وصفها • اننا نستطيع رؤية آثارها لكننا لا نستطيع رؤيتها ذاتها • انها شئء يحتل مكانا متوسطا بين المنبهات المؤثرة فى الشخص والاستجابات التى يستجيب بها لهذه المنبهات • ونظرية الذات الخلاقة هى فى جوهرها أن الانسان يصنع شخصيته • فهو بينها من المادة الخام •

الوراثة والخبرة :

• ان البيئة لا تزود الانسان بقدرات معينة فحسب ، كما ان البيئة لا تعطيه كذلك انطباعات معينة فحسب . ان هذه القدرات والانطباعات والكيفية التى يختبرها بها ، أى التفسيرات التى يستخلصها من هذه

الحبرات • هي اللبئات التي يستخدمها بطريقته اللاتية « الخلاقة » ، في بناء اتجاهه نحو الحياة • انه أسلوبه الفردي في استخدام هذه اللبئات أو بعبارة أخرى اتجاهه نحو الحياة ، هو الذى يحدد علاقته بالعالم الخارجى (أدلر ١٩٣٥ ص ٥) •

والذات الخلاقة أشبه بالحيرة التي تؤثر على حقائق العالم وتحول هذه الحقائق الى شخصية ذاتية ، دينامية ، وموحدة ، لها طابعها الشخصى وأسلوبها المميز والفريد • ان الذات الخلاقة تعطى الحياة معنى انها تخلق الهدف كما تخلق الوسيلة لبلوغ هذا الهدف • ان الذات الخلاقة هي المبدأ الإيجابى النشط للحياة الانسانية وهي لا تختلف عن مفهوم الروح القديم •

موجز القول اذن ، أن أدلر كون نظرية انسانية فى الشخصية كانت النقيض لمفهوم فرويد فى الانسان • فقد أضفى على الانسان غيرية وانسانية وتعاوننا وابتكارية وتفردا ونطنة ووعيا ، فأعاد للانسان الاحساس بالكرامة والجدارة ، وهو ما حطم التحليل النفسى القدر الأكبر منه • وقد قسم أدلر بدلا من الصورة المادية المجدبة التي أفزعت ونفرت الكثير من قراء فرويد ، صورة للانسان أكثر ارضاء وأكثر بعثا للأمل ، وأكثر تكريما للانسان • ويتفق مفهوم أدلر عن طبيعة الانسان مع الفكرة الشائعة لدى العامة أن الانسان قادر على أن يكون سيد مصيره لا عبده •

البحوث المميزة وطرق البحث :

قام أدلر بملاحظاته التجريبية - فى غالبيتها - فى المجال العلاجى ، وكان يقوم معظمها على إعادة بناء الماضى كما يتذكره المريض ، وتقدير سلوكه الراهن والحكم عليه على أساس التقريرات اللفظية للمريض • ولا يتسع المجال لذكر الكثير من الأمثلة لنشاطات أدلر فى مجال البحث •

ترتيب الميلاد والشخصية :

يتفق مع اهتمام أدلر بالمحددات الاجتماعية للشخصية ملاحظه من احتمال وجود اختلافات كبيرة بين شخصية كل من الطفل الأكبر والأوسط والأصغر فى الأسرة ، (١٩٣١ ص ١٤٤ - ١٤٥) وقد أرجع هذه الاختلافات للخبرات المتميزة التي يمر بها كل طفل بوصفه عضوا فى جماعة اجتماعية •

- ويحظى الطفل الأول أو الأكبر بقدر كبير من الاهتمام حتى يولد الطفل الثاني . واذ ذاك ينزع فجأة عن عرشه ويفقد وضعه المتميز ويصبح عليه أن يشاركه في حب والديه الطفل الجديد . وقد تؤثر هذه الخبرة في الطفل الأكبر بطرق متباينة ، كان يكره الناس ، أو أن يحمي نفسه من التقلبات المفاجئة في الحظ ، أو أن يشعر بعدم الأمن . وكذلك يكون لدى الأطفال الكبار قابلية للاهتمام بالماضي ذلك الوقت الذي كانوا فيه مركز الانتباه . ويلاحظ أدلر أن العصبيين والمجرمين والسكران والمنحرفين كثيرا ما يكونون الأطفال الأواخر . واذ ما عالج الوالدان الموقف بحكمة ، فأعدوا الطفل الأكبر لاستقبال المنافس الجديد ، فلن الاحتمال الأكبر أن ينمو الطفل شخصا قادرا على منح الحماية وتحمل المسؤولية .

أما الطفل الثاني أو الأوسط فيتميز بطموحه . فهو يحاول على الدوام التفوق على أخيه الأكبر . كما يميل كذلك الى التمرد والحسد ، ولكنه يكون في الغالب أحسن توافقا من كل من شقيقه الأكبر والأصغر . أما الطفل الأصغر فهو الطفل المدلل . وهو يلى الطفل الأكبر في احتمال أن يصبح مشكلا وراشدا عصابيا سيئا التوافق .

وقد اختبرت هذه النظرية عددا من المرات ، الا أن معظم النتائج لا تؤيدها (جونز ١٩٣١) .

الذكريات المبكرة :

يعتقد أدلر أن أقدم ما يستطيع الشخص تذكره من ذكريات هي مفتاح هام لفهم أسلوب حياته الأساسى (١٩٣١) . مثال ذلك أن فتاة بدأت سرد أقدم ذكرياتها بقولها : « عندما كنت فى الثالثة من عمرى كان أبى ... » ، ان هذا يشير الى أنها أكثر اهتماما بأبيها من أمها . ثم شرعت بعد ذلك تروى كيف أحضر والدها الى المنزل مهريين لها ولشقيقة تكبرها وكيف ان شقيقتها الكبرى خرجت بمهرها الى الشارع ممسكة بلجامه على حين جرهما مهرها خلفه فى الوحل . ان هذا هو قدر الطفلة الصغيرة - ان تأتى فى المرتبة الثانية فى تنافسها مع اخوتها الذين أكبر منها . ويدفعها هذا الى محاولة التفوق على من سبقها . ان أسلوب حياتها يقوم على الطموح الجامح والرغبة فى أن تكون الأولى ، والشعور العميق بعدم الأمن وخيبة الأمل وتوقع شديد للفشل .

وقد ذكر شاب كان يعالج من نوبة حصر شديد هذا المنظر القديم .
 « عندما كنت في الرابعة من عمري تقريبا جلست الى الشباك اراقب بعض
 على حين العمال يبنون منزلا على الجانب الآخر من الشارع بينما كانت امي
 تصلح الجوارب ، وتشير هذه الذكرى الى أن الشاب الصغير كانت تدله امه
 لان ذاكرته تتضمن أما حنانا . كما ان كونه ينظر الى الآخرين الذين
 يعملون يوحي بأن أسلوب حياته أسلوب المشاهد أكثر منه أسلوب
 المشارك ويوضح ذلك أنه كان يصبح بالفعل قلقا كلما حاول القيام
 بوظيفة ما . وقد اقترح عليه أدلر أن يبحث عن وظيفة يمكنه أن يستغل
 فيها تفضيله للملاحظة والتطلع . وقد عمل المريض بنصيحة أدلر فأصبح
 موزعا ناجحا للأدوات الرياضية .

وقد استخدم أدلر هذه الطريقة مع الأفراد كما استخدمها مع
 الجماعات ووجد أنها طريقة سهلة واقتصادية لدراسة الشخصية .

خبرات الطفولة :

كان أدلر يهتم بصفة خاصة بأنواع المؤثرات المبكرة التي تعد
 الطفل لاتخاذ أسلوب خاطئ، في الحياة . وقد اكتشف ثلاثة عوامل
 حامة هي :

- ١ - أطفال يعانون من مشاعر النقص .
- ٢ - أطفال مدللون .
- ٣ - أطفال مهملون .

ان الأطفال الذين يعانون من عجز بدني أو عقلي ينوعون تحت حمل
 ثقيل ويحتمل أن ينتابهم الشعور بعدم الكفاية في مواجهة أعباء الحياة .
 فهم يعتبرون أنفسهم فاشلين وكثيرا ما يكونون كذلك . ولكن اذا توفر
 لهم آباء متفهمون مشجعون فانهم قد يستطيعون تعويض نقائصهم وتحويل
 ضعفهم الى قوة . فكثير من مشاهير الرجال بدؤوا حياتهم بضعف بدني
 استطاعوا تعويضه . وقد ندد أدلر مرات كثيرة بأخطار التدليل اذ اعتبره
 أكبر نقمة تلحق بالطفل . والأطفال المدللون لا ينمو لديهم شعور
 اجتماعي ، ويصبحون طفلة يتوقعون من المجتمع أن يمثل لرغباتهم
 المتمركزة حول ذواتهم . وقد اعتبره أدلر أنه يتوفر لديهم امكان بأن
 يكونوا أخطر طبقة في المجتمع كما أن افعال الطفل له عواقب غير جيدة ،
 فالأطفال الذين يعاملون معاملة سيئة في طفولتهم يصبحون عند الرشد

أعداء للمجتمع • وتسيطر على أسلوب حياتهم الحاجة الى الانتقام •
هذه الظروف الثلاثة - المجزى العضوى والتدليل والاهمال - تؤدي الى
تكوين مفهومات وتصورات خاطئة عن العالم وتؤدي الى أسلوب حياة
مرضى (بفتح الراء) •

ايريك فروم

ولد ايريك فروم بفرانكفورت ، بألمانيا ، عام ١٩٠٠ ودرس علم
النفس وعلم الاجتماع فى جامعات هايدلبرج وفرانكفورت ، وميونخ وبعد
حصوله على درجة الدكتوراه من جامعة هايدلبرج عام ١٩٢٢ ، تدرب على
التحليل النفسى فى ميونخ وفى معهد برلين الشهير للتحليل النفسى •
وانتقل الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣ كمحاضر فى معهد شيكاغو للتحليل
النفسى ثم فتح بعد ذلك عيادة خاصة فى نيويورك • وقد درس فى عدد
من جامعات ومعاهد الولايات المتحدة وقد لقيت كتبه اهتماما كبيرا لا من
الاحصائيين فى مجالات علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والدين
فحسب ، بل ومن جمهور القراء بعامة •

ان الموضوع الاساسى لجميع كتابات فروم هو أن الانسان يحس
بالوحدة والعزلة لانه قد انفصل عن الطبيعة وعن بقية البشر - وحالة
العزلة هذه لا توجد بين أى نوع آخر من أنواع الحيوان ، بل انها الموقف
الانسانى المميز • فالطفل مثلا يتحرر من الروابط الأولية بوالديه ونتيجة
ذلك أن يشعر بالعزلة وقلة الحيلة • وكذلك انتزع رقيق الأرض فى
النهاية حرته ليجد نفسه فى النهاية ضائعا فى خضم عالم تغلب عليه
الغربة • وعندما كان قنا كان ينتمى الى شخص ما ، وكان لديه الشعور
بالارتباط بالعالم وبالآخرين وان كان غير حر • ويطور فروم فى كتابه
« الهرب من الحرية » (١٩٤١) فكرة أن الانسان بقدر ماكسب من حرية
عبر العصور بقدر ما كان شعوره بالوحدة • وبذا أصبحت الحرية ظرفا
سلبيا يحاول الهروب منه •

ما هى الاجابة عن هذه الأزمة ؟ ان الانسان يستطيع اما أن يربط
نفسه بالآخرين بروح من الحب والعمل المشترك ، أو أن يجد الأمن نى
الخضوع للسلطة والامتثال للمجتمع • وفى الحالة الأولى يستخلم الانسان
حرته لتنمية مجتمع أفضل ، وفى الحالة الثانية يكتسب قيادا جديدا •
لقد كتب « الهروب من الحرية » تحت ظلال الديكتاتورية النازية ويبين

الكتاب أن هذا الشكل من النظم الديكتاتورية الشاملة يصلح هوى لدى الناس لأنه يظهرهم شكلاً جديداً من الأمن . ولكن كما يوضح فروم في كتبه التالية (١٩٤٧ ، ١٩٥٥) يمثل أي شكل من أشكال المجتمعات التي صنعها الإنسان سواء كان اقطاعاً ، أو رأسمالية ، أو فاشسية أو اشتراكية أو شيوعية محاولة لحل هذا التناقض الأساسي لدى الإنسان . وقوام هذا التناقض أن الإنسان هو في آن واحد جزء من الطبيعة ومنفصل عنها ، وأنه في آن واحد حيوان وكائن بشري وهو كحيوان له حاجات فسيولوجية معينة لابد من اشباعها . وهو ككائن بشري يمتلك الشعور بذاته ، والعقل ، والخيال ويكون هذان الجانبان الظروف الأساسية لوجود الإنسان .

« ان فهم نفس الانسان لابد ان يبنى على تحليل حاجات الانسان التابعة من ظروف وجوده » (١٩٥٥ ص ٢٥) .

فما هي الحاجات النوعية الناجمة عن ظروف وجود الانسان ان عدبها خمسة : الحاجة الى الانتماء ، والحاجة الى التعالي ، والحاجة الى الارتباط بالفنور ، والحاجة الى الهوية ، والحاجة الى اطار توجيهي . ان الحاجة الى الانتماء تنبع من الحقيقة الواضحة ، وهي أن الانسان عندما أصبح انساناً قد تمزقت لديه عرى الوحدة الحيوانية الأولية بالطبيعة . فالحيوان قد زودته الطبيعة بما يواجه به الظروف التي يقابلها ، (١٩٥٥ ص ٢٣) أما الانسان بما له من قدرة على التفكير والتخيل فقد فقد هذا الاعتماد المتبادل الوثيق بينه وبين الطبيعة . وبدلاً من هذه الروابط بالطبيعة التي توجد لدى الحيوان ، أصبح على الانسان أن يخلق علاقاته الخاصة به ، وأكثرها تحقيقاً للاشباع هي تلك القائمة على الحب الحلاق . ان الحب الحلاق يتضمن دائماً الرعاية المتبادلة والمسئولية والاحترام والفهم .

أما الحافز الى التعالي فيشير الى حاجة الانسان الى الارتفاع فوق طبيعته الحيوانية ، ليصبح شخصاً خلاقاً بدلاً من أن يظل مخلوقاً . وإذا تأملنا هذه الحوافز الثلاثة فإن الانسان يصبح مدعماً . ويشير فروم الى أن الحب والكرامة ليسا دافعين متناقضين بل ان كليهما اجابة للحاجة الى التعالي على طبيعته الحيوانية . فالحيوان لا يستطيع ان يحب أو أن يكره ولكن الانسان يستطيع .

ان الانسان يرغب في الجنور الطبيعية ، فهو يريد ان يكون جزءا متكاملًا مع العالم ، وأن يشعر أنه ينتمى . وهو كطفل ، ترتبط جنوره بأمه ، ولكن اذا بقيت تلك العلاقة بعد الطفولة فانها تعتبر تشبيها غير صحى - ان الانسان يجد اشد جنوره تحقيقا للشباب وأكثرها صحة فى شعوره بالأخوه تربطه بغيره من الرجال والنساء . ولكن الانسان لا يرغب كذلك فى أن يحس بالهوية الشخصية ، وأن يكون فريدا متميزا . فاذا عجز عن تحقيق هذا الهدف بجهوده الذاتية الخلاقة ، فقد يحقق قدرا من التميز عن طريق التوحد بشخص آخر أو جماعة . فالعبد يتوحد بالسيد والمواطن ببلده والعامل بشركته . وفى هذه الحالة ينشأ الشعور بالهوية من الانتماء الى شخص ما وليس من كون الفرد شخصا ما .

وأخيرا يحتاج الانسان الى اطار مرجعى ، الى طريقة ثابتة مستقرة فى ادراك العالم وفهمه وقد يكون الاطار المرجعى الذى يبنيه رشيدا أساسا أو غير رشيد أساسا ، كما أنه قد يتضمن عناصر من كليهما .

ان هذه الحاجات عند فروم انسانية وموضوعية خالصة . فهى لا توجد لدى الحيوانات كما أنها لا تستمد من ملاحظة ما يقول الانسان أنه يريده وهذه الرغبات لم يخلقها المجتمع ، وانما أصبحت جزءا من طبيعة الانسان خلال التطور والارتقاء . ماهى اذن علاقة المجتمع بوجود الانسان ؟ يعتقد فروم أن الصور النوعية التى تعرب بها هذه الحاجات عن نفسها والطرق الفعلية التى يحقق بها الانسان امكانياته الداخلية تحددما والترتيبات الاجتماعية التى يعيش فى ظلها ، (١٩٥٥ ص ١٤) . فشخصية الانسان تنمو على حسب الفرص التى يتيحها مجتمع معين له فى المجتمع الرأسمالى مثلا قد يتحقق لديه الشعور بالهوية الشخصية عندما يصبح ثريا كما قد ينمو لديه الاحساس بالارتباط بالجنور عندما يصبح موظفا فى شركة كبيرة يمكن الاعتماد عليه والثقة فيه . بعبارة أخرى ان توافق الانسان مع المجتمع يمثل عادة حلا وسطا بين الحاجات الداخلية والمطالب الخارجية فهو ينسى طابعا اجتماعيا يتفق ومقتضيات المجتمع .

ومن وجهة نظر الأداء السليم للوظائف فى مجتمع معين فانه من الضرورى تماما أن تشكل شخصية الطفل لتناسب حاجات المجتمع . ومهمة الوالدين والتربية هى أن تجعل الطفل يرغب فى التصرف بالصورة التى يجب التصرف بها للحفاظ على نظام اقتصادى واجتماعى وسياسى معين . وفى النظام الرأسمالى لابد أن تزرع الرغبة فى التوفير فى الناس ليتوفر رأس المال للاقتصاد الذى يتوسع . كما ان المجتمع الذى ينمى

نظام الائتمان لابد أن يتقن أن الناس سيحسون الزامها داخليا هدمق قروضهم بدقة . ويعطى فروم أمثلة عديدة على أنواع الطبايع التي تنمو فى مجتمع رأسمالى ديموقراطى (١٩٤٧) .

والمجتمع عندما يفرض على الانسان مطالب تنافى طبيعته فانه يحبطه ويقيد انه يجعله غريبا عن «موقفه الانسانى» منكرا عليه تحقيق الشروط الأساسية لوجوده وكل من النظامين الرأسمالى والشىوعى مثلا يحاول أن يجعل الانسان آلة ، وعبدا مأجورا ، مجردا من الهوية وكثيرا ماينجح فى دفعه الى الجنون والأفعال المعادية للمجتمع أو المدمرة للذات . ولا يتردد فروم فى وصف مجتمع بأسره بالمرض عندما يخفق فى ائسبباع الحاجات الأساسية للانسان (١٩٥٥) .

كذلك يشير فروم أنه عندما يتغير فى المجتمع أى جانب هام كما حدث عندما تحول الاقطاع الى الرأسمالية أو عندما حل نظام المصانع محل الحرفية الفردية ، فان مثل هذا التغير يحتمل أن يؤدى الى اضطراب فى الطبايع الاجتماعية للناس فلا يصبح التكوين القديم للطبايع مناسبة للمجتمع الجديد مما يزيد من شعور الانسان بالاعتراب والياس . فقد فصل عن الروابط التقليدية ، ولذلك فهو يحس بالضيايع الى أن يستطيع تكوين جنور وروابط جديدة . واثناء هذه الفترات الانتقالية يصبح ضحية لجميع أنواع المزاعم والادعاءات التي تهيب له ملاذا من الشعور بالوحدة .

ومشكلة علاقات الانسان بالمجتمع تشغل من اهتمام فروم القدر الأكبر ، ولذلك فهو يعمد اليها مرة اتر أخرى . وفروم مقتنع اقتناعا كاملا بصحة هذه القضايا التالية :

- ١ - للانسان طبيعة جوهرية فطرية .
 - ٢ - المجتمع من خلق الانسان ليحقق له هذه الطبيعة الجوهرية .
 - ٣ - لم يوجد بعد المجتمع الذى يواجه الحاجات الأساسية للوجود الانسانى .
 - ٤ - ان من الممكن خلق هذا المجتمع .
- أى نوع من المجتمعات ياترى يقترح فروم ؟ انه مجتمع
- » ... يرتبط فيه الانسان بالانسان برباط المحبة ، تربطه جلدور

من الأخوة والتكاتف ... ، مجتمع يتيح له امكان التعامل مع الطبيعة بالخلق لا بالتدمير ، ويكتسب فيه كل فرد شعورا بذاته عن طريق أن يخبر نفسه كذات لها قواها ، وليس عن طريق الخضوع والامتثال ، مجتمع يوجد فيه نظام للتوجيه والتكريس دون أن يحتاج الانسان الى أن يحرف الواقع الى أن يعبد الأصنام « (١٩٥٥ ص ٣٦٢) . بل ان فروم يذهب الى حد اقتراح اسم لهذه المجتمع الكامل : الاشتراكية الإنسانية الجماعية . ولن يكون هناك شعور بالوحدة أو لعزلة أو اليأس . وسوف يجد الانسان وطنا جديدا ، يتفق و « الموقف الانساني » .

كارلين هورنى

ولدت كارلين هورنى فى هامبورج بالمانيا فى ١٦ سبتمبر ١٨٨٥ وماتت فى مدينة نيويورك فى ٤ ديسمبر ١٩٥٢ . وتلقت دراستها الطبية فى جامعة برلين والتحقّت بمعهد برلين للتحليل النفسى من سنة ١٩١٨ الى ١٩٢٢ ، وقد قام بتحليلها كارل ابراهام وهانز ساكس . وهما من أشهر المحللين المدربين فى أوروبا فى ذلك الوقت . وقد ذهبت الى الولايات المتحدة بدعوة من فرانز الكسندر لتعمل مديرة زميلة لمعهد شيكاغو للتحليل النفسى لمدة عامين . وفى عام ١٩٣٤ ، انتقلت الى نيويورك لتمارس التحليل النفسى . وتدرس فى معهد نيويورك للتحليل النفسى . وعندما أصبحت غير راضية عن التحليل النفسى التقليدى أسست هى وآخرون اقتنعوا بما اقتنعت هى به ، « رابطة تقدم التحليل النفسى والمعهد الأمريكى للتحليل النفسى » وظلت عميدة لهذا المعهد حتى وفاتها .

وترى هورنى أن أفكارها تندرج ضمن اطار علم النفس الفرويدى ، وأنها لا تشكل منهاجا جديدا كل الجدة فى فهم الشخصية . وهى تطمح الى استئصال الأخطاء من التفكير الفرويدى - وجذور هذه الأخطاء ، كما تعتقد هى ، تكمن فى الاتجاه البيولوجى الميكانيكى - وبذلك يستطيع التحليل النفسى أن يحقق جميع إمكاناته كعلم للانسان « ان اعتقادى - لو عبرت فى ايجاز بالغ - هو ان التحليل النفسى يجب أن يتم متخلصا من القيود التى يكبله بها كونه سيكولوجيا غريزية ارتقائية » ، (١٩٣٩ ، ص ٨) .

وتعترض هورنى بشدة على مفهوم فرويد عن حسد القضيبي بوصفه العامل المحدد لسيكولوجية المرأة . ونستطيع أن نتذكر أن فرويد لاحظ

أنه المشاعر والاتجاهات المميزة للمرأة وأن أشد ألوان الصراع لديها ينبعان من شعورها بالنقص التناسلي ومن غيرها من الذكر .

وتعتقد هورنى أن سيكولوجية المرأة تقوم على الافتقار الى الثقة وعلى الاسراف فى تأكيد أهمية علاقات الحب وأن علاقة سيكولوجيتها بتشريح أعضائها الجنسية ضئيل للغاية . أما فيما يتعلق بمقعدة أو ديب فلا تعتقد هورنى أنها صراع جنس - عدوانى بين الطفل ووالديه ، وإنما هى حصر ناتج عن اضطرابات أساسية - كالنيز مثلاً أو الاسراف فى الحماية ، أو العقاب فى علاقة الطفل بأمه وأبيه . أن العدوان ليس فطرياً كما يقرر فرويد وإنما هو وسيلة يحاول بها الإنسان حماية أمنه . كما أن الترجسية ليست حب الذات حقيقة ، وإنما هى تضخم الذات والمبتغى تقديرها نتيجة مشاعر عدم الأمن . كذلك تتخذ هورنى موقفاً من المفهومات الفرويدية التالية : اجبار التكرار ، الهوى ، الأنا ، والأنا الأعلى ، والحصر والمازوشية (١٩٣٩) . أما فيما يتعلق بالجانب الإيجابى فتؤكد هورنى أن اسهامات فرويد النظرية الأساسية هى مبادئ الحمية النفسية والدوافع اللاشعورية ، والدوافع الانفعالية غير المنطقية .

إن مفهوم هورنى الأولى هو الحصر الأساسى وهو الذى تعرفه كما على : -

• • • • • انه الاحساس الذى ينتاب الطفل بعزلته وقلة حيلته فى عالم يحفل باحتمالات العداوة وثمة نطاق واسع من العوامل المعاكسة فى البيئة يمكن أن يؤدى الى هذا الشعور بانعدام الأمن لدى الطفل : التحكم والسيطرة المباشرة وغير المباشرة ، اللامبالاة ، السلوك الشاذ ، عدم احترام الحاجات الفردية للطفل ، الافتقار الى التوجيه الحقيقى ، الاتجاهات المتضاربة ، الاسراف فى الإعجاب أو عدم وجوده اطلاقاً ، الافتقار الى حرارة العاطفة الثابتة ، الاضطراب الى مناصرة أحد الجانبين فى الخلافات الأبوالدية ، المسؤولية الزائدة عن القصد أو القليلة للغاية ، الاسراف فى الحماية ، الانعزال عن الأطفال الآخرين ، عدم العدالة ، التفرقة فى المعاملة ، عدم الوفاء بالوعود ، الجو المعادى وما الى هذا كله « (١٩٤٥ ص ٤١) .

وبوصفة عامة ، فإن كل ما يؤدى الى اضطراب شعور الطفل بالأمن فى علاقته بوالديه يؤدى الى الحصر (القلق) الأساسى .

وبالطفل القلق الذى ينجم لديه بالشعور بالأمن يمتد مختلف الاتجاهات ليواجه بها ما يشعر به من عزلة وقلة حيلة (١٩٣٧) .

يصبح عدوانيا ينزع الى الانتقام لنفسه من هؤلاء الذين نبتوه أو استاءوا
معاملته ، أو قد يصبح سافر الخضوع حتى يستعته مرة أخرى الحب الذي
بحس أنه فقده . وقد يكون لنفسه صورة مثالية غير واقعية ليعوض
ما يشعر به من نقص وقصور (١٩٥٠) وقد يحاول رشوه الآخرين ليجبوه
أو يستخدم التهديدات ليلزم الآخرين به . وقد يفرق نفسه في
الاشفاق على ذاته والرثاء لها ليكسب اشفاق الناس وتعاطفهم .

فاذا لم يستطع الحصول على الحب فقد يعمل على تحقيق القوة
والسيطرة على الآخرين . وبهذه الطريقة يعوض احساسه بالعجز ، ويجد
منفذا للعدوان ، ويستطيع استغلال الناس . وقد يصبح شديد الميل الى
التنافس ، ويصبح الكسب عنده أهم بكثير مما يحققه من انجاز . وقد
يعول عدوانه الى ذاته ويحقر من نفسه .

وقد يصبح أحد هذه الاساليب على قدر من الثبات في الشخصية ،
بعبارة أخرى قد يتخذ أسلوب محدد منها صفة الدافع أو الحاجة المميزة
لديناميات الشخصية . وتقدم هورني قائمة من عشر حاجات تكتسب
نتيجة محاولة العثور على حلول لمشكلة اضطراب العلاقات الانسانية
(١٩٤٢) . وتسمى هذه الحاجات « عصابية » لانها حلول غير منطقية
للمشاكل ، وهي : -

١ - الحاجة العصابية للتحب والتقبل : وتتميز هذه الحاجة بالرغبة
دون تفرقة أو تمييز في ارضاء الآخرين وعمل ما يتوقعونه . فالشخص
يعيش من أجل الفكرة الطيبة عنه لدى الآخرين ، كما أنه يكون بالغ
الحساسية لأي علاقة قائمة على النبت أو عدم الود .

٢ - الحاجة العصابية الى « شريك » يتحمل مسئولية حياة الثرة :
ان الشخص صاحب هذه الحاجة يكون طفليا ، فهو يسرف في تقدير الحب
ويخاف أشد الخوف من أن يهجر وأن يترك وحيدا .

٣ - الحاجة العصابية الى تقييد الفرد لحياته داخل حدود ضيقة :
ان مثل هذا الشخص لا يطلب شيئا ، ويقنع بالقليل ، ويفضل أن يبقى
مفتورا مفضلا للتواضع على كل ماعداه .

٤ - الحاجة العصابية الى القوة : وتفصح هذه الحاجة عن نفسها في
الشوق الى السلطة وحبها لذاتها ، في اطار أساسه عدم احترام الآخرين،
والتجنيك الاعلى للقوة واحتقار الضعفاء . وقد يلجأ من يخافون من

استخدام القوة السافرة ، الى محاولة السيطرة على الآخرين عن طريق
الاستغلال الذهنى والتفوق .

٥ - الحاجة العصابية الى استقلال الآخرين :

٦ - الحاجة العصابية الى المكانة المرموقة : يتحدد تقدير الشخص
لنفسه بمبلغ مايناله من تقدير اجتماعى .

٧ - الحاجة العصابية الى الاعجاب الشخصى : ان من لديه هذه الحاجة
يكون لنفسه صورة متضمنة ويرغب فى أن يكون محط الاعجاب على هذا
الاساس وليس على اساس ما يتصف به فعلا .

٧ - الحاجة العصابية الى الاعجاب الشخصى : ان من لديه هذه الحاجة
يكون لنفسه صورة متضمنة ويرغب فى أن يكون محط الاعجاب على هذا
بانعدام الأمن .

٩ - الحاجة العصابية الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال : ان هذا
الشخص لاختفاه فى محاولاته العثور على السدف والعلاقات المشبعة
بالآخرين ، يعزل نفسه عن الآخرين ، ويرفض أن يربط نفسه بأى شخص
وبأى شيء . انه يصبح ذئبا وحيدا .

١٠ - الحاجة العصابية الى الكمال واستحالة التعرض للهجوم .
ان الشخص الذى يعانى من هذه الحاجة يدفعه الخوف من الوقوع فى أخطاء
تعرضه للنقد يحاول أن يجعل نفسه حصنا لا يهاجم ولا يقع فى الخطأ . انه
ينقب دوما عن عيوبه بغية اخفائها قبل أن تتضح للآخرين .

ان هذه الحاجات العشر هى المصادر التى تنمو منها الصراعات
الداخلية فالحاجة العصابية الى الحب مثلا ، لاترتوى ، فكلما زاد ماناله ،
زادت رغبته . والنتيجة انه لايشبع أبدا . ويصلق ذلك على الحاجة الى
الاستقلال اذ يستحيل اشباعها اشباعا كاملا لأن جزءا آخر من شخصية
العصابى تطلب الحب والاعجاب . ان الحاجة الى الكمال أمر مصيره الاخفاق
منذ البداية . ان جميع الحاجات السابق ذكرها غير واقعية .

وفى كتاب أخير (١٩٤٥) تدرج هورنى هذه الحاجات العشر تحت
ثلاث فئات :

١ - التحرك نحو الناس ، كالحاجة الى الحب مثلا .

٢ - التحرك بعيدا عن الناس مثال ذلك الحاجة الى الاستقلال .

٣ - التحرك ضد الناس ، ومثال ذلك الحاجة الى القوة • وتمثل كل خشة من هذه الفئات اتجاهها أساسيا نحو الآخرين نحو الذات • وتجد هورنى فى هذه الاتجاهات المختلفة الأساس للصراع الداخلى • والفرق الأساسى بين صراع سوى وآخر عصابى فرق فى الدرجة •

• •• ان الاختلاف بين القوى المتصارعة لدى الشخص سوى أقل بكثير منها لدى العصابى • (١٩٤٥ ، ص ٣١) • بعبارة أخرى ، يعانى كل شخص من هذه الصراعات الا أن بعض الناس يعانون من هذه الصراعات بصورة زائدة نتيجة فى المقام الأول للخبرات المبكرة من نبذ واحمال فى الرعاية فى الأشكال الأخرى من المعاملة غير الموفقة من قبل الوالدين •

وبينما يستطيع الشخص سوى حل هذه الصراعات باضفاء التكامل بين هذه الاتجاهات الثلاثة ، طالما أنها لا تتعارض تماما ، نجد أن الشخص العصابى يستخدم بسبب زيادة حضره الأساسى ، حلولا غير منطقية ومفتعلة • فهو يظن شعوريا الى واحد فقط من هذه الاتجاهات ، على حين يسكر أو يكبت الاتجاهين الآخرين • أو قد يخلق صورة مثالية لذاته تختفى فيها - مظهرها - الاتجاهات المتصارعة ، وان ظن: بنية فى الحقيقة • وقد أضافت هورنى فى كتاب أخير (١٩٥٠) الكثير عن العواقب الوخيمة الناتجة عن تكوين تصور غير واقعى للذات ، وعن محاولة العيش على حسب هذه الذات المجددة • وثمة حل ثالث يستخدمه الشخص العصابى لصراعاته الداخلية ، وهو أن يطرحها الى الخارج • وكأنه يقول فى واقع الأمر « اننى لا أريد استغلال الآخرين وانما هم الذين يريدون استغلالى » وهذا الحل يخلق الصراعات بين الشخص والعالم الخارجى •

ويمكن تجنب جميع هذه الصراعات أو حلها اذا ربي الطفل فى أسرة يتوفر فيها الأمن والثقة والحب والاحترام والتسامح والدقة العاطفى • أى أن هورنى ، على عكس فرويد لا تعتقد أن الصراع جزء من طبيعة الانسان وأنه لذلك لا مفر منه • ان الصراع ينتج من الظروف الاجتماعية • إن الشخص الذى يحتمل أن يصبح عصابيا شخص خبر الصعوبات المحددة ثقافيا بصورة حادة ، وغالبا عن طريق خبرات الطفولة ، (١٩٣٧ ص ٢٩-)

هارى ستاك سوليفان

هارى ستاك سوليفان هو خالق وجهة نظر جديدة تعرف باسم « نظرية العلاقات الشخصية المتبادلة في الطب النفسى » . والفرض الرئيسى لها - من حيث صلتها بنظرية الشخصية ، هو أن الشخصية هي «النمط المستمر - نسبيا - للمواقف الشخصية المتبادلة التي تميز الحياة الانسانية » (١٩٥٨ ص ١١١) . فالشخصية كيان فرضى لا يمكن عزله عن المواقف الشخصية المتبادلة ، كما أن السلوك الشخصى المتبادل هو كل ما يمكن ملاحظته كشخصية . لذلك يعتقد سوليفان أن الحديث عن الفرد كموضوع للدراسة حديث أجوف ، ذلك أن الفرد لا يوجد ولا يستطيع أن يوجد بمعزل عن علاقاته بالآخرين . فالوليد ، منذ اليوم الأول للحياة ، جزء من موقف شخصى متبادل ، وطوال حياته يظل عضوا في مجال اجتماعى . وحتى الناسك الذى يعتزل المجتمع يحمل معه الى البرارى ذكريات علاقات شخصية سابقة تواصل تأثيرها على تفكيره وفعله .

وبالرغم من أن سوليفان لم ينكر أهمية الوراثة والنضج في تكوين وصياغة الكائن العضوى فإنه يرى أن ما هو انساني بصورة متميزة هو نتاج التفاعلات الاجتماعية . وبالإضافة الى ذلك ، فإن الخبرات الشخصية المتبادلة للشخص يمكن أن تغير الأداء الفسيولوجى الحاصل لوظائفه ، وتغيره ، بحيث يفقد حتى الكائن العضوى وضعه ككيان عضوى ويصبح كأننا عضويا اجتماعيا له طرقه ذات الطابع الاجتماعى فى التنفس والهضم والإخراج ، والوراثة الدموية وما إليها .

ويرتبط علم الطب النفسى عند سوليفان بعلم النفس الاجتماعى ، وتحمل نظريته فى الشخصية أثر تفضيله القوى للمفهومات والمتغيرات النفسية الاجتماعية ويكتب سوليفان

« يبدو لى أن علم الطب النفسى العام يغطى الكثير من نفس المجال الذى يدرسه علم النفس الاجتماعى ، اذ يجب تعريف الطب النفسى العلمى بأنه دراسة العلاقات الشخصية المتبادلة ويقضى هذا فى النهاية استخدام نفس الاطار التصورى الفكرى الذى نطلق عليه الآن اسم « نظرية المجال » . ومن وجهة النظر هذه تعتبر الشخصية تصورا فرضيا . فذلك الذى يمكن دراسته هو نمط العمليات التي تصف تفاعل الشخصيات فى

مواقف خاصة متكررة أو في مجالات « تتضمن » الملاحظ (١٩٥٠ ،
ص ٩٢) .

ولد هارى ستاك سوليفان فى مزرعة قرب نورويتش بولاية نيويورك
فى فبراير سنة ١٨٩٢ ومات فى ١٤ يناير ١٩٤٩ فى باريس عاصمة
فرنسا فى طريق عودته الى بلاده من اجتماع اللجنة التنفيذية للاتحاد الدولى
للصحة العقلية فى امستردام . وقد حصل على اجازة الطب من كلية
شيكاغو للطب والجراحة عام ١٩١٧ ، وعمل بالقوات المسلحة فى أثناء
الحرب العالمية الأولى . وبعد الحرب عمل ضابطا طبيا فى المجلس الاتحادى
للتربية المهنية ثم عمل ضابطا فى الخدمة الصحية العامة وفى عام ١٩٢٢ .
ذهب سوليفان الى مستشفى سانت اليزابث فى واشنطن العاصمة ،
حيث تأثر يوثيام الانسون هويت وهو من الرواد الأمريكين فى الطب
النفسى العصبى . ومنذ عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٣٠ عمل بكلية الطب
بجامعة ماريلاند وبمستشفى شبردواينوك برات بمدينة توسون فى ولاية
ماريلاند . وفى تلك الفترة من حياته قام سوليفان ببحوث فى الفصام
دعمت سمعته كعالم طبى . وفى عام ١٩٢٣ أصبح رئيسا لمؤسسة وليام
الانسون هويت ، وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٩٤٣ . وفى عام ١٩٣٦ أسهم
فى تأسيس مدرسة واشنطنجتون فى الطب النفسى ثم أصبح مديرها ، وهى
المعهد التدريبى للمؤسسة . كما بدأ فى عام ١٩٢٨ فى نشر مجلة « الطب
النفسى » لتطوير نظرية سوليفان فى العلاقات الشخصية المتبادلة . وقد
اشترك فى رئاسة تحريرها ثم أصبح رئيس تحريرها حتى وفاته . كذلك
عمل سوليفان مستشارا لنظام الخدمة الاختيارية « فى ١٩٤٠ - ١٩٤١ »
وشارك عام ١٩٤٨ فى «مشروع اليونسكو للتوترات» الذى أقامته الأمم
المتحدة لدراسة التوترات المؤثرة فى التفاهم الدولى ، كما عين عضوا للجنة
الدولية التمهيدية للمؤتمر الدولى للصحة العقلية فى نفس العام . وقد
كان سوليفان رجل دولة علميا ، كما كان متحدئا بارزا باسم الطب
النفسى ، ورائد مدرسة هامة فى تدريب الأطباء النفسيين ، ومعالجا له
شأنه وصاحب نظرية يتسم بالجرأة ، وعالما طبيا منتجا . وبهذه الشخصية
الحية والتفكير الابتكارى جذب عددا من الناس أصبحوا تلامذته وتابعيه
وزملاءه وأصدقائه .

وبالإضافة الى تأثير وليام الانسون هويت على نمو سوليفان الفكرى،
كانت ثمة تأثيرات رئيسية لفرويد ، وأدولف ماير ، والفيلسوف الاجتماعى
جورج ميد ، وعالمى الانثروبولوجيا الثقافية ادوارد سايبور و روت بندكت
وعالم الاجتماع ليونارد كوثريل .

وقد أحس سوليفان أن صلته بصفة خاصة بادوارد ساير والنير كان من بين الرواد الذين دافعوا عن إقامة علاقة عمل أوثق بين الانثربولوجيا وعلم الاجتماع والتحليل النفسى ، وقد شرع سوليفان فى صياغة نظريته فى العلاقات الشخصية المتبادلة فى عام ١٩٢٩ وتم له تكامل تفكيره فى منتصف الثلاثينات .

وقد نشر سوليفان فى أثناء حياته كتابا واحدا فقط يعرض نظريته (١٩٤٧) . غير أنه كان يحتفظ بمذكرات مفصلة كما أن الكثير من محاضراته لطلاب مدرسة واشنطنجتون للطب النفسى قد سجلت . وقد سلمت هذه المذكرات والتسجيلات وغيرها من المواد غير المنشورة لمؤسسة وليام . الانسون هويت للطب النفسى . وقد نشر حديثا كتابان مبنيان على مذكرات سوليفان : « نظرية التبادل الشخصى فى الطب النفسى » (١٩٥٣) ويتكون أساسا من سلسلة من المحاضرات أعطاها سوليفان فى شتاء ١٩٤٦ - ١٩٤٧ وهى تمثل العرض الأخير الكامل لنظريته فى العلاقات الشخصية المتبادلة . أما الكتاب الآخر وهو « المقابلة الطبية النفسية » (١٩٥٤) ، فيقوم على سلسلتين من المحاضرات أعطاها سوليفان فى عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ . وسوف تنشر قريبا كتب أخرى مبنية على مقالات سوليفان . وقد أشرف باتريك مولاى وهو فيلسوف من تلامذة سوليفان على تحرير عدد من الكتب تتناول نظرية العلاقات الشخصية المتبادلة . وأحد هذه الكتب « دراسة العلاقات الشخصية المتبادلة » (١٩٤٩) يتضمن مجموعة من المقالات كتبها أناس على صلة بمدرسة واشنطنجتون ومعهد وليام الانسون هويت بمدينة نيويورك . وقد طبعت جميع المقالات فى الأصل فى مجلة « الطب النفسى » ومنها ثلاث مقالات كتبها سوليفان نفسه . وكتاب آخر عنوانه « اسهامات هارى ستاك سوليفان » (١٩٥٢) ويتكون من مجموعة من المقالات قدمها فى حلقة دراسية تذكارية ممثلون لعلوم مختلفة من بينها الطب النفسى وعلم النفس وعلم الاجتماع . ويتضمن هذا الكتاب عرضا موجزا لنظرية العلاقات الشخصية المتبادلة قدمه مولاى وثبتا كاملا للمؤلفات يتضمن كتابات سوليفان حتى عام ١٩٥١ . كذلك يتضمن كتاب مولاى « أوديب - عقدة

واسطورة ، (١٩٤٨) عرضا مائلا مبسطا لآراء سوليفان . كذلك تناولت دورتي بليتني (١٩٥٣) نظرية سوليفان في العلاقات الشخصية المتبادلة في استفاضة . وبالرغم من أن سوليفان كان مقلا في عرضه لنظرية العلاقات الشخصية المتبادلة في كتابات منشورة في أثناء حياته ، فان موقفه المنهجي قد عرضه بالتفصيل الشامل عدد من تلامذته المقتدرين والجادين .

بناء الشخصية

يصر سوليفان تكرارا - على أن الشخصية كيان فرضي خالص ، لا يمكن ملاحظته أو دراسته بمعزل عن المواقف الشخصية المتبادلة . فوحدة الدراسة هي الموقف الشخصي المتبادل وليس الشخص . ويتكون تنظيم الشخصية من الوقائع المتبادلة بين الاشخاص وليس الوقائع الشخصية الداخلية . كما أن الشخصية لاتفصح عن نفسها الا من خلال سلوك الشخص في علاقته مع فرد آخر أو أكثر . وهؤلاء الناس لايتطلب الأمر وجودهم ، بل الحقيقة أن من الممكن أن يكونوا أشخاصا متوهمين أو لا وجود لهم فقد يكون الشخص على علاقة ببطل من أبطال القصة الشعبية مثل بول بوتيان أو شخصية روائية مثل آنا كارنينا . أو مع أسلافه ، أو حتى مع حداثه الذين لم يولدوا بعد . ان الإدراك والتذكر والتفكير والتخيل وجميع العمليات النفسية الأخرى لها طابع العلاقات الشخصية المتبادلة حتى أحلام الليل ذات طابع شخصي متبادل مادامت تعكس في العادة علاقات الحالم بغيره من الناس .

وبالرغم من أن سوليفان يعطى الشخصية مكانة فرضية ، فانه جمع ذلك يؤكد أنها مركز دينامي لعملية تحدث في سلسلة من المجالات الشخصية المتبادلة بل انه علاوة على ذلك يعطى مكانة مرموقة لبعض هذه العمليات وذلك بتعيينها وتسميتها وصياغة المفاهيم المتعلقة ببعض خواصها . والعمليات الأساسية هي :

الديناميات Dynamisms والعمليات المعرفية .

الديناميات Dynamisms :

الدينامية هي أصغر وحدة يمكن استخدامها في دراسة الفرد ويعرفها بأنها « نمط ثابت نسبيا من تحولات الطاقة ، يميز بصورة متكررة الكائن العضوي في استمراره ككائن عضوي حي » (١٩٥٣ ص ١٠٣) . ويوجد تحول الطاقة في أى شكل من أشكال السلوك . وقد يكون سافرا وعماما كالكلام أو خاصا كالتفكير والتخييل .

ولما كانت الدينامية نمطا من السلوك يستمر ويعود ، فهو يكاد يكون مطابقا للعادة ويعرف سوليفان النمط في عبارة مثيرة ، فيقول انه « غلاف يضم فروقا معينة عديمة الوزن » (١٩٥٣ ص ١٠٤) ويعنى هذا أن سمة جديدة يمكن أن تضاف الى نمط ما دون أن تغير هذا النمط ما دامت لا تختلف اختلافا له وزن عن المحتويات الأخرى للغلاف . أما اذا كانت تختلف اختلافا له وزنه فان نمط يتغير الى نمط جديد . مثال ذلك أن تفاحتين قد تختلفان اختلافا جليا في مظهرهما ومع ذلك يتعرف المرء عليهما كتفاحتين لأن الفروق بينهما ليست هامة . ولكن التفاحة والموزة تختلفان في نواح هامة ، لذلك فهما تكونان نمطين مختلفين .

والديناميات ذات الطابع الانساني المميز هي تلك التي تميز علاقات الشخص المتبادلة . فقد يعتاد الانسان مثلا السلوك ، بصورة عدوانية ازاء شخص معين أو جماعة من الأشخاص ، وهذا تعبير عن دينامية شريرة . كما أن الرجل الذي يميل الى البحث عن علاقات ماجنة بالنساء يكشف عن دينامية شهوية . والطفل الذي يخاف الغرباء عنده دينامية الخوف . وإى استجابة معتادة ازاء شخص أو أكثر ، سواء كانت في صورة مشاعر أو اتجاه أو فعل سافر تشكل دينامية . وجميع الناس لديهم نفس الديناميات الأساسية ، الا أن أسلوب التعبير عن الدينامية يختلف بحسب الموقف وخبرات الحياة لدى الفرد .

وتستخدم الدينامية عادة منطقة معينة من الجسم كالقم أو اليدين أو الشرج أو الاعضاء التناسلية لتتفاعل هي والبيئة . وتكون المنطقة من جهاز استقبال لتلقى المنبهات ، وجهاز ارسال للقيام بالعمل ، وجهاز توصيل يسميه « الموصل » Eductor في الجهاز العصبي المركزي يصل ميكانيزم الاستقبال بميكانيزم الارسال . فعندما توضع حلة الحديد في فم الطفل فانها تنبه الغشاء الحساس للشفتين التي تفرغ

التحركات تعتبر الطرق النفسية الى الأعضاء الحركية للفم فيؤدي ذلك الى
حركات المص •

ان معظم الديناميات تخدم غرض اشباع الحاجات الأساسية للكانن
الضوى ولكن هناك دينامية هامة تنشأ نتيجة الحصر • وتسمى دينامية
الذات أو نظام الذات •

نظام الذات :

الحصر نتاج العلاقات الشخصية المتبادلة ، وينقل أساسا من الام
الى الطفل ، ثم فى مقتبل الحياة بعد ذلك عن طريق الاخطار التى تهدد امن
الشخص •

ولكى يتجنب الشخص ، أو يقلل الى ادنى حد ممكن ، الحصر الفعلى
أو المحتمل ، فانه يصطنع اشكالا مختلفة من الأساليب الوقائية والضوابط
الاشرفية لسلوكه • فهو يتعلم مثلا أنه يستطيع تجنب العقاب بالامتنال
لرغبات والديه • ووسائل ضمان الأمن هذه تشكل « نظام الذات » الذى
يرتضى اشكالا معينة من السلوك (الذات الطيبة) ويمنع اشكالا أخرى
(الذات الشريرة) •

ان نظام الذات بوصفه وصيا يرمى أمن الفرد يميل الى أن ينزول
عن بقية الشخصية • وهو يستبعد المعلومات التى لا تتفق وتنظيمه الحالى ،
وبذلك يخفق فى الافادة من الخبرة • ولما كانت الذات تحمى الشخص من
الحصر ، فهى تحاط بالتقدير الكبير وتحمى من النقد • ومع تزايد تعقيد
نظام الذات واستقلاله ، فانه يحول دون قيام الشخص باصدار أحكام
موضوعية على سلوكه ، متغاضيا عن التناقضات الواضحة بين حقيقة
الشخص وبين ما يرضه عنه نظام الذات • وبصفة عامة ، كلما زادت
خبرات الشخص بالحصر ، زاد تضخم نظام الذات ، وزاد انفصاله عن بقية
شخصيته • وبالرغم من أن نظام الذات يخدم غرضا مفيدا وهو خفض
التوتر ، فانه يعوق قدرة الشخص على الحياة البناءة مع الآخرين •

ويعتقد حوليفان أن نظام الذات نتاج جوانب غير منطقية من
المجتمع • ويقضه بذلك أن الطفل الصغير يدفع الى المشور بالقلق لأسباب
لم تكن لتوجد فى مجتمع أكثر تمسكا بالمنطق فهو يدفع الى تبني
أساليب غير طبيعية وغير واقعية فى مجابهة ما يخسه من حصر •

وبالرغم من اعتراف سوليفان بالأهمية المطلقة لنظام الذات لتجنبه
الحصر في المجتمع الحديث ، وربما في أى شكل من أشكال المجتمعات
التي يستطيع الانسان بناؤها ، فهو يترف كذلك أن نظام الذات كما
تعرفه هو « حجر العثرة الرئيسي في وجه التغييرات المستحبة في
الشخصية ، (١٩٥٢ ، ص ١٦٩) » .

التشخصات : Personification

التشخص هو صورة يكونها الشخص لنفسه أو لشخص آخر .
انها مركب من المشاعر والاتجاهات والمفاهيم الذهنية تنمو من الخبرات
مع اشباع الحاجات ، ومع الحصر . فالطفل مثلا يكون تشخصا للام
الطيبة عندما ترعاه وترضعه . وأى علاقة شخصية متبادلة تتضمن
اشباعا تميل الى بناء صورة طيبة لمصدر الاشباع . ومن الناحية الأخرى ،
فان تشخص الطفل للام السيئة ينتج عن خبرات معها تثير فيه الحصر .
والام القلقة تتشخص كأم شريرة . وفي نهاية المطاف يمتزج هذان
التشخصان للام مع غيرها مما قد تكون من تشخصات مثل الأم
المحروسة ، أو الأم المسرفة في الحماية ، لتكون جميعا تشخصا مركبا .

وهذه الصورة التي نحملها معنا في ربوعنا ، نادرا ماتكون أوصافا
دقيقة لمن تشير اليهم من الناس . فهي تتكون في المقام الأول للتعامل
مع الناس في مواقف علاقات شخصية متبادلة معزولة نسبيا ، ولكنها
ما ان تتكون حتى تستمر عادة ، وتؤثر في اتجاهاتنا نحو اناس آخرين .
فالشخص الذي « يتشخص » له والده كرجل وضيق ديكتاتوري قد يسقط
نفس هذا « التشخص » على رجال كبار آخرين ، كالمدرسين مثلا ، ورجال
البوليس وأرباب العمل . وبالتالي ، فان شيئا كان يؤدي وظيفة خفض
الحصر في باكورة الحياة قد يعرقل علاقات الشخص المتبادلة في فترات
تالية من العمر وهذه الصورة المشبعة بالحصر تحرف التصورات الذهنية
للمرء ، لأناس لهم وزنهم الرامن . كذلك قد تتبّع « تشخصات » الذات ،
كالذات الطيبة أو الذات الشريرة نفس المبادئ التي يتبعها تشخص
الآخرين . فتشخص الذات الطيبة تنتج عن خبرات شخصية متبادلة لها
طابع الاثابة ، كما أن تشخص الذات الشريرة تكون نتيجة مواقف مثيرة
للحصر . وتشخصات الذات هذه مثل تشخصات الآخرين تميل الى
الوقوف في طريق التقدير الموضوعي للذات .

والتشخصات التي يشترك فيها عدد من الناس تسمى « الأنماط المصمة الجامدة » Stereotypes وهي تصورات ذهنية ينعقد الإجماع على صحتها ، أى أنها أفكار تحظى بقبول واسع بين أعضاء المجتمع ويتناقلها جيل بعد آخر . ومن نماذج الأنماط المصمة الجامدة الشائعة فى ثقافتنا الأستاذ الغائب الذهن (السرحان) والفنان الحارج على التقاليد ، ورجل الأعمال العنيد الراى .

العمليات المعرفية :

ان اسهام سوليفان الفريد فيما يتعلق بمكان المعرفة فى مسائل الشخصية هو تصنيفه الثلاثى للتجربة . فهو يرى أن التجربة تحدث فى ثلاث صور : الحام Prototaxic والمتتالية Parataxic والتركيبية syntaxie . ويمكن اعتبار التجربة الحام Prototaxic « السلسلة المنفصلة الحلقات للحالات المؤقتة للكائن العضوى الحساس » (١٩٥٣ ص ٢٩) . ويشبهه هذا الطراز من الخبرات مايسميه جيمس « بجرى الشعور » ، أى الأحاميس الحام ، والصور ، والوجدانات التي تعبر ذهن كائن حساس وليس ثمة ضرورة لارتباطها بعضها ببعض كما أنها بلا معنى لدى الشخص الذى يجدها . ان هذه الصورة الحام من التجربة توجد فى أنقى صورها فى الشهور الأولى من الحياة ، كما أنها شرط لابد من توفره لظهور الصورتين التاليتين .

أما الصورة المتتالية فى التفكير فهي تتكون من ادراك العلاقات العلية بين الأحداث التي تقع فى نفس الوقت تقريبا ، لكنها لا ترتبط منطقيا ، ويصور الكاتب التشيكي المشهور فرانز كافكا حالة طريفة للصورة المتتالية من التفكير Parataxic فى احدى قصصه القصيرة . كان كلب يعيش فى حظيرة محاطة بسور مرتفع يتبول ذات يوم عندما أقيت عظمة من فوق السور . واعتقد الكلب أن « تبوله قد جعل العظمة تظهر » . فكان بعد ذلك كلما أراد شيئا لياكله يرفع رجله . ويعتقد سوليفان أن الكثير من تفكيرنا لا يتجاوز مستوى التفكير المتتالى Prototaxis واننا نرى صلات علية بين خبرات لا صلة لها بعضها ببعض . فجميع الخبرات مثلا نماذج لهذا الضرب من التفكير المتتالى .

أما الأسلوب الثالث والأسمى فى التفكير فهو التركيبى Syntaxic الذى يتكون من نشاط رمزى انعقد الإجماع على صدقه ، وبخاصة ما له

طبيعة لفظية - فالرمز الذي يتوقف الإجماع على صدقه هو ذلك الذي اتفق
جماعة من الناس على أن له معنى مفننا .
والكلمات والأعداد أحسن أمثلة على مثل هذه الرموز . أن الاستكواب
التربويين Syntactic يصفى على التجربات نظاما منطقيًا ويمكن الناس من
التواصل بينهم مع للبض الآخر .

ويؤكد سوليفان ، بالإضافة الى هذه الصياغة لأساليب الخبرة أهمية
الاستباق أو بعد النظر في أداء الوظائف المعرفية . « فالإنسان ،
الشخص ، يعيش مع ماضيه ، ومع الحاضر ومع المستقبل القريب ولها
جميعها دلالاتها بوضوح في تفسير فكره وفعله » (١٩٥٠ ، ص ٨٤) .
ويعتقد بعد النظر على ذاكرة الشخص بالنسبة للماضى وتفسير الحاضر .

وبالرغم من أن الديناميات والتشخصات والعمليات المعرفية لاتكمل
جائنة مكونات الشخصية فانها السمات البنائية الأساسية المميزة لنظام
سوليفان .

ديناميات الشخصية :

ينظر سوليفان الى الشخصية ، شأنه في ذلك شأن كثير من أصحاب
تفكيرات الشخصية ، بوصفها نظاما من الطاقة يتكون عمله الاساسى من
تشاطات تخفض التوتر . ويقول سوليفان انه ليس ثمة حاجة الى اضافة
« مصطلح » نفسى ، سواء الى كلمة طاقة أو توتر ، طالما انه يستخدمها بنفس
المعنى المستخدم به فى علم الطبيعة .

التوتر :

يبدأ سوليفان بالمفهوم المألوف ، للكائن العضوي كنظام للتوتر ،
يمكن - نظرياً - أن يتراوح بين حدود الارتخاء التام أو الانشراح كجها
يفضل سوليفان أن يسميه ، والتوتر المطلق كما يتمثل في الهلع البالغ .
وهناك مصطلحان أساسيان للتوتر هما :

١ - التوترات الناشئة عن حاجات الكائن العضوي .

٢ - التوترات الناتجة عن الحصر .

وترتبط الحاجات بالمطالب الفيزيوكيميائية للحياة ، فهي حالات مثل الافتقار الى الطعام أو الماء أو الأوكسجين الذي يحدث علم توثرز في اقتصاديات الكائن العضوى وقد تكون الحاجات ذات طابع عام ، كالجوع ، وقد ترتبط ارتباطا نوعيا بمنطقة من الجسم كالحاجة الى المص . وترتبط الحاجات نفسها فى نظام هرمى ، فتلك التى تحتل المكانة الدنيا من السلم يجب اشباعها قبل ارضاء تلك التى تحتل مكانا أعلى على هذا السلم . وأحد نتائج خفض الحاجة هو خيرة الاشباع ، يمكن اعتبار التوتروحات حاجات الى تغيرات أو تحولات لطاقات معينة تؤدى الى زوال التوتر يصاحبها فى الغالب تغير فى الحالة النفسية فى الشعور والمعرفة يمكن أن نطلق عليه اصطلاحا عاما ، الاشباع ، (١٩٥٠ ص ٨٥) والنتيجة النمطية للاخفاق الطويل فى اشباع الحاجات هو الاحساس بالبلادة الذى يؤدى الى انخفاض عام فى التوتر .

والحصر هو خيرة التوتر الذى ينتج عن أخطار حقيقية أو موهومة تهدد احساس المرء بالأمن . وإذا زاد قدرها خفضت من قدرة الفرد على اشباع حاجاته وأدت الى اضطراب علاقاته الشخصية المتبادلة ، وأدت كذلك الى الخلط فى التفكير . وتختلف شدة الحصر باختلاف خطورة التهديد وفاعلية عمليات الأمن التى تكون فى حوزة الشخص . والحصر الشديد كالضربة على الرأس لا تنقل الى الشخص أى معلومات بل تؤدى بدلا من ذلك الى خلط كامل وربما الى نسيان تام . أما الأشكال التى أقل شدة من الحصر فقد تكون ذات قيمة . والحقيقة أن سوليفان يعتقد أن الحصر هو المؤثر التربوى الكبير الأول فى الحياة . وينتقل الحصر الى الطفل عن طريق الأم التى ترعاه والتى تعبر هى نفسها عن الحصر فى نظراتها ونغمات صوتها ومسلكها العام . ويعترف سوليفان أنه لا يعرف كيف يحدث هذا الانتقال ، وان كان من المحتمل أنه يتم بوساطة نوع من عمليات التعاطف الوجداني تتسم طبيعته بالغموض . ونتيجة هذا الحصر المنتقل عن طريق الأم ، تصبح موضوعات أخرى فى محيطه القريب مشحونة بالحصر بفعل أسلوب الخبرات المتتالية Parataxic التى تترابط فيها الخبرات المتجاورة . فحلمة ندى الأم مثلا تتغير فتصبح حلمة رديئة تؤدى الى ارجاع التجنب عند الطفل . ويتعلم الطفل الابتعاد عن ضروب النشاط والموضوعات التى تزيد الحصر . وعندما يصجز الطفل عن الهرب من الحصر فإنه يميل الى النوم . وهذه الدينامية التى تقوم على الانزعال عن طريق النوم كما يسميها سوليفان هى المقابل للبلادة الانفعالية بوصفها الدينامية

التي تنيرها الحاجات غير المشبعة ، والحقيقة أن هاتين الديناميتين لا يمكن موضوعيا التمييز بينهما ، ويرى سوليفان أن إحدى مهام علم النفس الكبرى أن يكتشف جوانب الضعف الأساسية في القابلية للخطر في العلاقات الشخصية المتبادلة بدلا من أن يحاول مواجهة الأعراض الناتجة عن الخطر .

تحولات الطاقة :

تحول الطاقة عن طريق القيام بالعمل وقد يكون العمل أفعالا سافرة تستخدم العضلات المخططة للجسم وقد يكون نفسيا كالادراك والتذكر والتفكير . وهذه النشاطات السافرة وغير السافرة تستهدف التخفف من التوتر . وهي الى حد كبير رهن بظروف المجتمع الذي ينشأ فيه الشخص . « ان ما يستطيع المرء اكتشافه ببحثه في ماضيه هو أن أنماط التوترات وتحولات الطاقة التي تكون حياته هي الى حد يبعث على الدهشة حقا ، أمور تتعلق بتعلمه كيفية الحياة في مجتمع معين » (١٩٥٠ ص ٨٣) .

ولا يعتقد سوليفان أن الفرائز مصادر هامة للدوافع الانسانية كما انه لا يقبل نظرية الليبيدو عند فرويد . ان الشخص يتعلم أن يسلك بطريقة معينة نتيجة تفاعلاته مع الناس وليس نتيجة امتلاكه حوافز فطرية تلزمه أنواعا معينة من الفعل .

نمو الشخصية :

كان سوليفان شديد الحرص والتدقيق في تحديد تتابع مواقف العلاقات الاجتماعية المتبادلة التي يتعرض لها الشخص في انتقاله من الطفولة الى الرشد ، وفي الكيفية التي تسهم بها هذه المواقف في تكوين الشخصية .

وقد نظر سوليفان الى الشخصية من زاوية مراحل النمو المحددة بصورة فاق فيها أصحاب نظريات الشخصية الآخرين ، مع الاستثناء المحتمل لفرويد . وبينما كان موقف فرويد أن النمو في غالبه تفتح للفرصة الجنسية ، كان سوليفان يلح باصرار على وجهة نظر ذات طابع

اجتماعى نفسى فيما يتعلق بنمو الشخصية ، بحيث ينال اسهام العلاقات الانسانية الفريد ما يستحق من اهتمام . وبالرغم من أن سوليفان لم يرفض العوامل البيولوجية كموامل محددة لنمو الشخصية فانه أخضعها للمحددات الاجتماعية للنمو السيكلوجى بالاضافة الى أنه كان يرى أن هذه المؤثرات الاجتماعية قد تسير أحيانا فى اتجاه مضاد لحاجات الشخص البيولوجية ويكون لها آثار معوقة على الشخصية . ولم يكن سوليفان ليحجم عن التعرف على الآثار المعوقة للمجتمع . والحقيقة أن سوليفان ، شأنه فى ذلك شأن أصحاب النظريات الاجتماعية السيكلوجية الآخرين كان ناقدا حادا وجارحا للمجتمع المعاصر .

مراحل النمو :

يحدد سوليفان ست مراحل فى نمو الشخصية قبل المرحلة النهائية للنضج . وهذه المراحل الست نموذجية بالنسبة الى الحضارات الأوربية الغربية وقد تختلف فى المجتمعات الأخرى . وهى كما يلى :

- ١ - الطفولة المبكرة .
- ٢ - الطفولة .
- ٣ - فترة الصبا .
- ٤ - ما قبل المراهقة .
- ٥ - المراهقة المبكرة .
- ٦ - المراهقة المتأخرة .

وتمتد فترة الطفولة المبكرة منذ الميلاد حتى ظهور الكلام الواضح . وهى الفترة التى تكون فيها المنطقة القمية هى المنطقة الأساسية للتفاعل بين الرضيع وبيئته . وتتيح الحضانه للطفل خبراته الشخصية المتبادلة الأولى . السمة المميزة للبيئة التى تتجلى فى أثناء الطفولة المبكرة هى أنها الموضوع الذى يزود الطفل الجانح بالطعام سواء كان ذلك حلقة تسمى الأم أو حلقة زجاجة الرضاعة ، ويكون الطفل تصورات ذهنية متباينة للحلقة تتوقف على نوع الخبرات التى يكونها معها وهى كما يلى :

- ١ - الحلقة الجيدة بوصفها اشارة للرضاعة علامة على قرب قنوم

الاشباع

- ٢ - الحلمة الجيدة لكن غير المشبعة لأن الطفل ليس جائعا .
- ٣ - الحلمة غير المناسبة لأنها لا تمنح اللبن وتكون علامة على النبذ وما يعقب ذلك من بحث عن حلمة أخرى .
- ٤ - الحلمة السيئة اللام القلقة والتي تكون علامة على التجنب .
- وثمة سمات مميزة للمراحل الطفلية هي :
- ١ - ظهور ديناميات البلادة الوجدانية والانفصال عن طريق النوم .
- ٢ - الانتقال من أسلوب الحبرات الحمام فيصّل الى أسلوب الحبرات المتتالية في التعرف .
- ٣ - تنظيم تشخيصات مثل الأم الشريرة والقلقة والنابذة والمحبطة والأم الطيبة والمسترخية والمتقبلة والمشبعة .
- ٤ - تنظيم الحبرة عن طريق التعلم وبزوغ أوليات نظام الذات .
- ٥ - تفاضل جسم الطفل بحيث يتعلم الطفل اشباع توتراته مستقلا عن الأم التي ترعاه عن طريق مص الإبهام مثلا .
- ٦ - تعلم الحركات المتأزرة التي تستخدم العين واليد ، واليد والقدم ، والأذن والصوت .

والانتقال من الطفولة المبكرة الى الطفولة يصبح ممكنا بفضل تعلم اللغة وتنظيم الحبرة في الصورة التركيبية Syntactic . وتمتد الطفولة ابتداء من ظهور الكلام الواضح الى ظهور الحاجة الى اقران اللعب . ويسمح نمو اللغة - بالاضافة الى اشياء أخرى - بامتزاج التشخيصات المختلفة كالأم الطيبة والأم الشريرة مثلا - ويتكامل نظام الذات الى بناء أكثر تماسكا . ويبدأ نظام الذات في تكوين مفهوم الذكر والمؤنث : فيتعين الصبي الصغير ذاتيا بالدور الذكري كما يرسمه المجتمع وتتعين الفتاة الصغيرة بالمور الأنثوي وتمكن نمو القدرة الرمزية الطفل من التظاهر بأنه شخص كبير - ويسمى سوليفان ذلك باسم أدوات - كان ذات الطابع الدرامي التمثيلي as if performances dramatization شخص مهمته يختلف ضروب النشاط السافر وغير السافر والذي يخدم غرض تجنب العقاب والحصر - ويطلق عليها سوليفان اسم الانشغالات Preoccupations

ومن الوقائع المؤثرة فى الطفولة التحول الشرير ، مشاعر مؤداها ان المرء يعيش بين اعداء . وهذه المشاعر اذا ما قويت تجعل من المستحيل على الطفل ان يستجيب بصورة ايجابية لمحاولات الآخرين الودية . وهذا التحول الشرير يحرف علاقات الطفل المتبادلة ويجعل الطفل يعزل نفسه عن الآخرين . انه يقول فى الحقيقة « لقد كان كل شئ فيما مضى على مايرام وكان ذلك قبل ان يصبح على ان تعامل مع الناس » ، وهذا التحول الشرير تسببه الحبرات المؤلمة المثيرة للحصر مع الآخرين . وقد تؤدى الى التكويس الى مرحلة الطفولة المبكرة التى اقل تهديدا .

ويعرف سوليفان الاعلاء بأنه « ابدال غير عامد لمنط سلوكى يثير الحصر او يصطدم بنظام الذات - بمنط من النشاط يلقى مزيدا من القبول الاجتماعى ويشبع أجزاء من نظام الدوافع الذى سبب المشكلة » « ١٩٥٣ ، ص ١٩٣ » . وهو يظهر خلال الطفولة .

اما التوتر الزائد الذى لا يفرغ عن طريق الاعلاء فيستنفد فى اداعات رمزية كاحلام الليل مثلا .

وتمتد مرحلة الصبا طوال معظم سنوات التعليم الابتدائى . وهى فترة يصبح فيها الطفل اجتماعيا ويكتسب فيها خبرات الانصياع الاجتماعى لمثل السلطة خارج الأسرة . كما يصبح فيها متناقسا ومتعاوننا ويتعلم معنى النبذ الاجتماعى والاقلال من الشأن والمشاعر الجماعية . ان الصبى يتعلم الا ينتبه الى الظروف الخارجية التى لاتثير اهتمامه وأن يخضع سلوكه بضوابط داخلية وأن يصوغ اتجاهاته فى أنماط جامدة ، وأن ينمى أساليب جديدة وأكثر فاعلية من الاعلاء ، وأن يفرق بوضوح أكبر بين الخيال والواقع .

ومن أهم أحداث هذه الفترة ظهور تصور للتوجه فى الحياة .

« ان المرء يكون متوجها فى الحياة ، بقدر ما يصوغ ، أو يمكن ان يدفع بسهولة الى أن يصوغ (أو بقدر ما له من استبصار يمكنه من ذلك) - معطيات من الأنواع التالية :

النزعات الهادفة للتكامل (الحاجات) والتى تميز عادة علاقات الشخص المتبادلة ، والظروف المواتية لاشباعها والتفريخ المتجرد - نسبيا - من الحصر ، والأهداف التى تكون على درجة من البعد التى يتنازل الشخص فى سبيل بلوغها عن الفرص المتاحة من أن لآخر لاشباع

حاجة الشخص الى المكانة المرموقة أو الرفع من شأن هذه المكانة (١٩٥٣ ص ٢٤٣) .

وتتميز فترة ما قبل - المراهقة القصيرة نسبيا بالحاجة الى علاقة حميمة مع رفيق من نفس الجنس ، الى صديق حميم يستطيع أن يثق فيه وأن يتعاون معه في مواجهة أعباء الحياة وحل مشاكلها . وهذه الفترة بالغة الأهمية فهي تحدد بداية العلاقات الانسانية الاصيلة بالآخرين . أما في المراحل المبكرة فيتميز الموقف الشخصي المتبادل باعتماد الطفل على شخص أكبر . ويبدأ الطفل في مرحلة ما قبل المراهقة في تكوين علاقات بالأقران ، تقوم على التساوى أو التكافؤ ، والتبادل بين الأعضاء . ويصبح الصبي فيما قبل المرافقة دون رفيق حميم شخصية الوحيدة اليانسة .

والمشكلة الأساسية لفترة المراهقة المبكرة هي نمو نمط النشاط الجنسي الغيرى فالشباب يخبر التغيرات الفسيولوجية للبلوغ وتبدأ في تأكيد نفسها في الشخصية . وتتضمن دينامية الشهوة بصفة أساسية المنطقة التناسلية ، وإن كانت مناطق أخرى للتفاعل كاللم واليدين تشارك في النشاط الجنسي . وثمة انفصال بين الحاجة الشبقية والحاجة الى صلة حمية وثيقة ، فالحاجة الشبقية تتخذ موضوعها من الجنس المقابل ، على حين تظل الحاجة الى صلة وثيقة وحميمة مثبتة على عضو من نفس الجنس .

وإذا لم تنفصل هاتان الحاجتان فإن الشاب يكشف عن اتجاه جنسي مثل أكثر منه جنسيا غيريا . ويشير سوليفان الى أن الكثير من صراعات المراهقة تنشأ نتيجة الحاجات المتعارضة للاشباع الجنسي والحاجة الى الأمن ، والى العلاقات الحميمة الوثيقة . وتستمر المراهقة المبكرة حتى يستطيع الشخص أن يجد نمطا ما ثابتا للاداءات يشبع دفاعاته التناسلية .

• وتمتد المراهقة المتأخرة ابتداء من تكوين نمط من النشاط التناسل المفضل عبر خطوات لا عدد لها من التعلم والاقتداء حتى يكون بناء من العلاقات الشخصية المتبادلة المكتملة الانسانية أو الناضجة ، بقدر ما تسمح به الفرص الشخصية والثقافية ، المتاحة (١٩٥٣ ص ٢٩٧) .
• بصارة أخرى تكون مرحلة المراهقة المتأخرة ضربا من التدشين أو التنصيب الطويل نسبيا ، لامتيازات وواجبات ، وطرق الاشباع والمسئوليات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية والقيام بدور المواطن . ويكتمل بالتدرج الشكل التام والكامل للعلاقات الشخصية المتبادلة وتنمو الخبرة بالأسلوب

التركيبى Syntactic الذى يسمح بالتوسع فى الآفاق الرمزية للشخص .
وتثبت دعائم نظام الذات ، ويتعلم الفرد أشكالاً من الاعلاء للتوتر أكثر
فاعلية وتتكون أساليب أكثر قوة فى الحماية من الحصر .

وعندما يتم الفرد صعود جميع هذه الدرجات ويبلغ المرحلة النهائية،
مرحلة الرشد يكون قد أتم تحوله - بفصل علاقاته الاجتماعية المتبادلة
الى حد كبير - من كائن عضوى حيوانى الى شخص انسانى . انه لم يعد
حيوانا يتحلّى بمظاهر الحضارة والانسانية ، بل انه أصبح حيوانا تغير
تغيراً جنسياً ، بحيث لم يعد حيوانا بل كائناً بشرياً ، أو اذا طاب لنا :
حيواناً بشرياً .

محددات النمو :

بالرغم من أن سوليفان يرفض بشدة أى نظرية جامدة وقاطعة
للغرائز فإنه يعترف بأهمية الوراثة فى تزويد الفرد بقدرات معينة ،
ومن أهمها قدرات الإدراك وصياغة الخبرات . كذلك فهو يقبل المبدأ
القائل بأن التدريب لن يكون له جدوى قبل أن يشيد النضج الأساسى
البنائى اللازم . وعلى هذا فالطفل لا يستطيع أن يتعلم المثى حتى يصل
التكوين العضلى والعظمى الى مستوى من النمو يمكنه من الوقوف .

إن الوراثة والنضج يقدمان الطبقة السفلى البيولوجية لنمو
الشخصية أى القدرات والاستعدادات والميول ، لكن الحضارة التى تمارس
نشاطها عن طريق نظام من العلاقات الشخصية المتبادلة تتيح الفرصة
لظهور القدرات والأداءات الفعلية (تحولات الطاقة) التى يصل الشخص
عن طريقها الى هدف خفض التوتر وإشباع الحاجة .

والتأثير التربوى الأول هو تأثير الحصر الذى يلزم الطفل التفرقة
بين التوتر المتزايد والتوتر المتناقص ، ويوجه نشاطه فى الاتجاه الأخير .

أما القوة التربوية الكبرى الثانية فهى المحاولة والنجاح . ويميل
النجاح ، كما أشار الى ذلك كثير من علماء النفس ، الى ترك بصماته على
النشاط الذى يؤدى الى الإشباع .

ويمكن مقابلة النجاح بالحصول على المكافآت - كإبتسامة الأم أو
مدح الأب ، كما يمكن مقابلة الفشل بالعقاب - كمنظرة الأم الناهية أو

كلمات الأب غير الراضية • كذلك قد يتعلم المرء عن طريق التقليد والاستنتاج ، ويطلق سوليفان على النوع الأخير من التعلم الاسم الذي اقترحه شارلز سيرمان : **استنتاج العلاقات** •

ولا يعتقد سوليفان أن الشخصية تتكون في سن مبكرة • فمن الممكن أن تتغير في أى وقت عندما توجد مواقف جديدة تتضمن علاقات شخصية متبادلة ، وذلك لأن الكائن المصنوع البشرى على درجة بالغة من المرونة والقابلية للتشكل • وبالرغم من أن الدفعة الى الأمام التي يحققها التعلم والنمو تبقى غالبة مسيطرة ، فإن النكوص يمكن أن يحدث ، ويحدث فعلا عندما يبلغ الألم والحصر والفشل حدا لا يمكن احتماله •

البحوث المميزة وطرق البحث

اكتسب هارى ستاك سوليفان ، شأن أطباء الامراض النفسية الآخرين ، معلوماته العملية التجريبية عن الشخصية عن طريق عمله مع المرضى الذين يعانون من مختلف أنماط اضطرابات الشخصية ، وبصفة أساسية هؤلاء الذين يعانون من الفصام والحواز • وقد اكتشف سوليفان وهو طبيب نفسى شاب أن طريقة التداوى الطليق لا تصلح كما يجب مع الفصامين لأنها تثير قدرا كبيرا من الحصر • وقد حاول طرقا أخرى الا انه تبين أنها تثير هي الأخرى الحصر الذى يعوق عملية التواصل بين المريض والمعالج • ولذلك بدأ سوليفان يهتم بدراسة القوى التي تعوق ، والتي تيسر التواصل بين شخصين • وبهذا تبين له أن الطبيب النفسى أكثر من مجرد ملاحظ ، بل انه يشارك كذلك بدور حيوى فى الموقف الشخصى المتبادل ، فله هو نفسه مخاوفه ، ككفائته المهنية ومشاكله الشخصية التى عليه أن يواجهها • ونتيجة هذا الاكتشاف نى سوليفان مفهومه عن المعالج « كملاحظ مشارك » •

« ان نظرية العلاقات الشخصية المتبادلة تركز اهتماما كبيرا على منهج الملاحظة المشاركة وتضع المعلومات التى تستمد من مناهج أخرى فى مرتبة ثانوية من حيث الأهمية • وهذا يعنى بالتالى أن المهارة التى تتطلبها المقابلة الطبية النفسية القائمة على المواجهة المباشرة بين شخص وآخر ذات أهمية أساسية (١٩٥٠ ص ١٢٢ ، ٤٠ »

المقابلة : ان « المقابلة الطبية النفسية » هي الاصطلاح الذي يطلقه سوليفان على موقف التبادل الشخصي والمواجهة التي تحدث بين المريض والمعالج . وقد تحدث مقابلة واحدة أو سلسلة من المقابلات تستمر مع المريض عبر فترة طويلة من الوقت . ويعرف سوليفان المقابلة بأنها « نظام » أو سلسلة من النظم ، قوامها العمليات الشخصية المتبادلة ناتجة عن الملاحظة المشاركة يستخلص فيها القائم بالمقابلة استنتاجات معينة عن مقدم معه المقابلة » (١٩٥٤ ص ١٢٨) . أما كيف تدار المقابلة والطرق التي يصل بها القائم بالمقابلة الى الاستنتاجات عن المريض فهذا هو موضوع كتاب سوليفان « المقابلة الطبية النفسية »
 (1954) The Psychiatric Interview (١٩٥٤) .

ويقسم سوليفان المقابلة الى أربع مراحل : (١) البداية الرسمية ،
 (٢) الاستكشاف (٣) الاستفسار المفصل ، (٤) الختام .

والمقابلة هي في المقام الاول تواصل لفظي بين شخصين . والمصادر الاساسية للمعلومات للقائم بالمقابلة ليست فقط ما يقوله الشخص بل والكيفية التي يقوله بها ، نغمة صوته وسرعة كلامه ، وغير ذلك من السلوك التصبيري . فيجب أن يكون القائم بالمقابلة يقظا للتغيرات الطفيفة في صوت المريض ، كارتفاع الصوت مثلا ، فهذه الهاديات كثيرا ما تكشف عن دلالات حيوية عن مشاكل المريض الجوهرية ، وعن تغير اتجاهاته نحو المعالج ، ويجب على القائم بالمقابلة أن يتجنب في مرحلة البداية الرسمية القاء أسئلة كثيرة ، بل يجب الحفاظ على اتجاه الملاحظة الهادئة . ويجب عليه أن يحاول تحديد أسباب حضور المريض اليه وشيئا عن طبيعة مشاكله .

ويتخذ سوليفان موقفا واضحا فيما يتعلق بدور المعالج في موقف المقابلة . ويجب عليه ألا ينسى أبدا أنه يحصل على دخله بوصفه شخيرا في مجال العلاقات الشخصية المتبادلة ، وأن من حق المريض أن يتوقع أنه سيتعلم شيئا سيكون ذا فائدة له . ويجب أن يشعر المريض بذلك منذ المقابلة الاولى ، وأنه يجب تدعيم ذلك على الدوام طوال فترة العلاج . وتتكون مثل هذا الاتجاه فقط سيكتشف المريض عن المعلومات التي يستطيع المعالج عن طريقها الوصول الى استنتاجات صحيحة فيما يتعلق بأنماط الحياة التي تسبب المشاكل للمريض . ومن الواضح أن على الطبيب النفسى ألا يستخدم معلوماته كخبير للحصول على اشباع شخصي ، أو

لرفع مكانته الشخصية على حساب المريض . والقائم بالمقابلة ليس مهديقا وليس عمدا ، وليس والدا أو عاشقا ، وليس رئيسا أو مستخدما ، وان كان من الممكن أن ينسب اليه المريض واحدا أو أكثر من هذه الأدوار نتيجة تحريف تفكيره المتتالي Parataxic . ان القائم بالمقابلة خبير في العلاقات الشخصية .

وتتركز مرحلة الاستكشاف حول الوصول الى معرفة كنه المريض . ويصل القائم بالمقابلة الى ذلك عن طريق الاستفسار المتعمق عن ماضي المريض وحاضره ومستقبله . وتندرج هذه الحقائق - المتعلقة بحياة المريض تحت قائمة المعلومات الشخصية أو المعلومات الخاصة بتاريخ الحياة ولا ينصح سوليفان باستخدام النمط السريع المحدد البناء والذي يتمسك بقائمة مقننة من الأسئلة . بل على العكس من ذلك يصر سوليفان على ألا يدع القائم بالمقابلة المريض يتكلم عن أمور تافهة لا قيمة لها . ويجب على المريض أن يتعلم أن المقابلة عمل جاد لا تهريج فيه . كذلك يجب على القائم بالمقابلة ، عادة عدم تسجيل الملاحظات عما يقوله المريض في أثناء فترة العلاج ، ذلك أن تسجيل الملاحظات يشتت الانتباه بدرجة كبيرة كما ينزع الى كف عملية التواصل .

ولا يعتقد سوليفان أن على المرء أن يبدأ بأى « صفة » شكلية من طراز « قل أى شيء يخطر على بالك » . بل على المعالج أن يستفيد من ثغرات الذاكرة لدى المريض أثناء فترة الاستفسار ليعلمه كيف يتداعى تداعيا طليقا . وبهذه الطريقة لا يتعلم المريض التداعى الطليق فحسب ودون أن يخيفه هذا الأسلوب غير المألوف فى التعامل ، بل انه كذلك يخبر فائدة طريقة التداعى الطليق قبل أن يقدم له أى شرح شكلى للهدف منها . ويجب أن يكون الطبيب النفسى قد كون عند نهاية المرحلتين الاوليين من عملية المقابلة عددا من الفروض الاولية فيما يتعلق بمشاكل المريض وأصولها . ويحاول الطبيب النفسى فى فترة « الاستفسار المفصل » أن يحدد : أى هذه الفروض العديدة هو الفرض الصائب . وهو يقوم بذلك عن طريق الاتصاف والقاء الاسئلة ويقترح سوليفان عددا من المجالات يجب الاستفسار عنها - مثل التدريب على التسبول والتبرز ، والاتجاهات نحو الجسم ، عادات الأكل والطموح والنشاطات الجنسية - وهو هنا لا يصر مرة أخرى على استخدام أسلوب شكلى جامد يتبع بدقة فى الاستفسار .

وطالما كان كل شئ يسير فى سلاسة فانه ليس من المحتمل أن يتعلم القائم بالمقابلة أى شئ عن التحولات فى المقابلات ، ومن بين أهم هذه التحولات ، وقع اتجاهات القائم بالمقابلة على قدرة المريض على التواصل ، ولكن عندما تتدهور عملية التواصل فإن القائم بالمقابلة يجد نفسه مضطرا الى القاء هذا السؤال على نفسه ، « ما الذى قلته أو فعلته فجعل المريض يصبح قلقا ؟ » ، فثمة قدر كبير - دائما - من التبادل بين الجانبين - واصطلاح سوليفان فى هذا الصدد هو « **الانفعال المتبادل** » - فكل طرف يعكس على الدوام مشاعر الطرف الآخر . ومن واجب المعالج أن يعرف وأن يسيطر على اتجاهاته هو نفسه لصالح أقصى درجات التواصل . عبارة أخرى يجب عليه ألا ينسى أبدا دوره كخبير فى ملاحظة مشاركة . وتصل سلسلة المقابلات الى ختامها عند ما يصدر القائم بالمقابلة تقريرا نهائيا بما تعلمه ، ويصف للمريض طريقا يتبعه ويزن له النتائج المحتملة لهذه الوصفة على مستقبل حياته .

ويتضح لنا بجلاء من قراءة ملاحظات سوليفان الحكيمة عن المقابلة أنه يعتبرها تحديا بالغا لدقة الملاحظة من جانب الملاحظ المشارك . وقد يهتم القارئ بالمقارنة بين نمط المقابلة الذى يتبناه سوليفان ، والأشكال الواسعة التباين لأساليب المقابلة التى يناقشها ماكوبى (١٩٥٤) Macobys ، وبأساليب المقابلة الاكلينيكية التى يعرضها الكتاب الحديث « **المقابلة الاكلينيكية** (The Clinical Interview ١٩٥٥) الذى أصدره فيلكس دويتش ووليام ميرفى .

ويتكون الاسهام الرئيسى لسوليفان فى البحث فى علم الامراض النفسية من سلسلة من المقالات فى كلية وديناميات وعلاج الفصام . وقد تمت معظم هذه الدراسات فى أثناء فترة زمالاته فى مستشفى واينوك براث بساريلاند ، وقد نشرت فى مجالات الطب النفسى فى الفترة من ١٩٢٤ الى ١٩٣١ . وهى تكشف عن مواهب سوليفان الكبيرة فى الاتصال بالمقل الذهنى وفهمه . وقد كان التعاطف سمة شديدة النمو فى شخصية سوليفان ، استخدمها بما يحقق اعظم الفائدة فى دراسة وعلاج ضحايا الفصام . ولم يكن هؤلاء الضحايا فى نظر سوليفان حالات ميثوسا منها يجب أن تفلق عليها الابواب فى العنابر الخلفية للمؤسسات العقلية ، بل انه من الممكن علاجهم بنجاح اذا كان الطبيب النفسى راغبا فى التحل بالصبر والفهم والملاحظة الثاقبة .

ولقد كان لسوليفان دور فعال في حث الأطباء النفسيين الأخرين والعملاء الاجتماعيين على القيام بالبحوث المتصلة بنظرية العلاقات الشخصية . وقد نشر الكثير من هذه الدراسات في مجلة الطب النفسى التى أسست أساسا لتطوير ونشر أفكار سوليفان .

ونذكر فى هذا الصدد ثلاثة كتب حديثة تدين الى حد كبير لسوليفان وهى «الاتصال : القالب الاجتماعى للطب النفسى» Communication, the social matrix of psychiatry كتبه رويش وباتسون Ruesch, Bateson (١٩٥١) ، ويطبق فيه المؤلفان مفهومات سوليفان على مشاكل العلاقات الانسانية ، وعلى العلاقات المتبادلة بين الحضارة والشخصية . كذلك طورت فريدا فروم ريتشمان فى كتابها ذى الأثر الكبير « مبادئ العلاج النفسى المتعمق » Principles of intensive Psychotherapy (١٩٥٠) كثيرا من أفكار سوليفان فيما يتعلق بالعملية العلاجية . وكذلك تصور الدراسة الحديثة التى قام بها ستانتون وشفارتس « فى مستشفى عقلى » (١٩٥٤) تصويرا واضحا وبالغا أنواع المواقف الشخصية المتبادلة التى توجد فى أى موقف وأثر هذه المواقف على المرضى والماملين على السواء .

وربما كانت نظرية سوليفان فى العلاقات الشخصية المتبادلة ، تمثل من بين النظريات الأربعة المعروضة فى هذا الفصل ، أعظم المنبهات الدافعة الى البحث . واحد أسباب ذلك هو أن سوليفان استخدم لغة أكثر موضوعية فى وصف نظريته ، لغة ساعدت على تضييق الثغرة بين النظرية والملاحظة . فقد حافظ سوليفان على بقاء صيغاته النظرية والتصورية الذهنية وثيقة الصلة بالملاحظات التجريبية ، ونتيجة ذلك أن بدا وكأنه يصف عن قرب سلوك أناس حقيقيين . وبالرغم من الطابع «المجرد لفكره» فإنه لم يصبح مستغلقا على الفهم بحيث يفقد الصلة بالعيانى ، الذى يمثل سلوك الحياة اليومية للأفراد . ان نظرية العلاقات الشخصية مجموعة من الفروض والقضايا الحية الملموسة تدعو الى الاختبار التجريبى وتشجع عليه .

المكانة الراهنة والتطور

تنتمي النظريات الأربع التي تناولها هذا الفصل بعضها الى البعض الآخر ، لأنها جميعها تؤكد تأثير المتغيرات الاجتماعية في تشكيل الشخصية وهى جميعا ، بصورة أو باخرى تشكل رد فعل مقابلا للوضع الفيزيى للتحليل النفسى الفرويدى ، ولكن كل واحد من أصحاب هذه النظريات يعترف بالفضل العلمى لتفكير فرويد عليه . فقد وقفوا جميعا على كفى فرويد وأضافوا امكاناتهم المتواضعة الى صرحه الشامخ . وقد أضفوا على الشخصية ابعادا اجتماعية مساوية فى الأهمية ، ان لم تكن أكثر أهمية للابعاد البيولوجية التى منحها اياها فرويد ويونج وبالإضافة الى ذلك ، ساعدت هذه النظريات على وضع علم النفس داخل مجال العلوم الاجتماعية .

وبالرغم من الأضية المشتركة بين هذه النظريات ، فان كل نظرية منها تؤكد مجموعات مختلفة من المتغيرات الاجتماعية . فإريك فروم يوقف معظم اهتمامه على الكيفية التى يشكل بها بناء وديناميات مجتمع محدد أعضاؤه ، بحيث يتناسب طابعهم الاجتماعى والقيم والحاجات المشتركة لهذا المجتمع . أما كارين هورنى فهى بالرغم من اعترافها بتأثير السياق الاجتماعى الذى يعيش الشخص فى نطاقه فانها تولى العوامل الحميمية داخل نطاق الأسرة اهتماما أكبر من حيث صياغة الشخصية . وفى هذا الصدد تشبه نظرية سوليفان فى العلاقات الشخصية المتبادلة آراء هورنى أكثر مما تشبه آراء فروم . أما عند سوليفان فالعلاقات الانسانية للطفولة المبكرة والطفولة والمراهقة ذات أهمية أكبر وهو أكثر ما يكون اقتدار واقناعا عندما يصف صغيرة العلاقات بين « الأم الحاضنة » والطفل . أما أدلر ، فعلى العكس من ذلك يجب المجتمع دون ما هدف محدد بحثا عن عوامل ذات وزن للشخصية ، وهو يجدها فى كل مكان .

وبالرغم من أن النظريات الاربع جميعها تعارض بشدة نظرية فرويد الفريزية والطبيعة الثابتة - عنده - للانسان ، فان أحدا منهم لا يتبنى موقفا بيثيا متطرفا زاعما أن شخصية الفرد تخلفها - فقط - الظروف الاجتماعية التى يولد فيها . فكل نظرية توافق - بطريقتها الخاصة - على أن هناك شيئا كالتبيعة البشرية يولد به الطفل ، فى الغالب

على شكل استعدادات عامة أو امكانيات ، أكثر منها حاجات ومساهمات محددة سلفا . وهذه الامكانيات العامة تتمثل عند أدلر في الاهتمام الاجتماعي ، وعند فروم في الحاجة الى التعالي ، وهي تتحقق بالفعل في أشكال عيانية عن طريق المنظمات التربوية الرسمية وغير الرسمية للمجتمع . وتتفق هذه النظريات على أنه في ظل الظروف المثالية ، يتبادل الفرد والمجتمع الاعتماد ، فيعمل الشخص على تطوير أهداف المجتمع ويساعد المجتمع بدوره الفرد على بلوغ أهدافه . موجز القول أن موقف هذه النظريات الأربع ليس اجتماعيا خالصا أو متمركزا - حول - المجتمع ، كما أنه ليس نفسيا خالصا أو متمركزا حول ما هو نفسى . أنها حقيقة ذات طابع اجتماعى نفسى .

وعلاوة على ذلك ، فإن كل نظرية لا تؤكد فقط أن الطبيعة الانسانية مرنة وقابلة للتشكيل ، بل تؤكد أيضا أن المجتمع من كذلك بدرجة مماثلة وأنه قابل للتشكيل كذلك . فإذا كان مجتمع معين لا يحقق مطالب الطبيعة الانسانية فإن الانسان قادر على تغييره بعبارة أخرى يخلق الانسان ذلك الضرب من المجتمع الذى يعتقد أنه سأل المجتمع - يحقق له القدر الأكبر من الفائدة . ومن الواضح أن ثمة أخطاء تقع فى أثناء نمو المجتمع وتكوينه وعندما تتبلور هذه المساوى فى شكل نظم اجتماعية وعادات فقد يصبح من الصعب تغييرها . ومع ذلك فصاحب كل نظرية - من هذه النظريات - كان متفائلا فيما يتعلق بإمكان التغيير ، وكان كل منهم يحاول بطريقته الخاصة إحداث تغييرات أساسية فى بناء المجتمع . فقد كان أدلر يؤيد الديمقراطية الاجتماعية مطالبا بإصلاح المدارس كما أنه بدأ بإنشاء مراكز لتوجيه الأطفال ، والى على إحداث إصلاحات فى معاملة المجرمين وحاضر على نطاق واسع فى المشاكل الاجتماعية وعلاجها . وأشار كل من فروم وهورلى عن طريق الكتابات والاحاديث الى الطريق الى مجتمع أصح . وقد عبر فروم بخاصة عن بعض الإصلاحات الأساسية التى يجب القيام بها لتحقيق السلامة والاتزان للمجتمع . كذلك انشغل سوليفان - بصورة فعالة وحتى وقت وفاته - فى محاولات تستهدف الإصلاح الاجتماعى عن طريق التعاون الدولى ، وقد توفرت للأربمسة جميعهم ، عن طريق مهنتهم كعالمين نفسيين الخبيرات الصيقة فيما يتعلق بأسباب اضطراب النظم الاجتماعى ، كذلك كان حديثهم عن مسرفة شخصية وخبرة عملية فيما يتعلق بعورهم كناقدين ومصلحين .

وثة افتراضى تتبناه كل نظرية من هذه النظريات مؤداه أن الحصر من نتاج المجتمع . فليس الانسان بالطبيعة « حيوانا قلقا » ولكنه يدفع الى القلق بفعل الظروف الاجتماعية التى يعيش فى ظلها ، مثل شبح البطالة ، وانعدام العدالة والتسامح ، والتهديد بالحرب ، والوالدين العدائين . ويقول اصحاب نظرياتنا هذه ان ازالة هذه الظروف سرعان ما يؤدى الى جفاف الينابيع التى يتدفق منها هذا القلق . كما ان الانسان ليس بالطبيعة همها كما كان فرويد يعتقد . انه قد يصبح مدمرا عندما تحبط حاجاته الأساسية ، ولكن ، حتى فى ظروف الاحباط يمكن التماس سبل اخرى كالمضوع والانسحاب . وكل هذه النظريات باستثناء نظرية سوليفان تؤكد مفهومات تفرد الشخصية والذات الحلاقة . قبالرغم من محاولات المجتمع صب الناس فى قوالب متماثلة ، فان كل شخص يحاول الاحتفاظ بقدر من الفردية الحلاقة . والحقيقة انه بفضل قدرات الانسان الفطرية الحلاقة يستطيع احداث التغيير فى المجتمع . فالتناس يخلقون أنواعا مختلفة من المجتمعات فى أجزاء مختلفة من الكرة الارضية - وفى عصور مختلفة من التاريخ وذلك جزئى لأن الناس مختلفون . والانسان ليس خلاقا فحسب ، بل انه شاعر بذاته كذلك . فهو يعرف ما الذى يريد ويجاهد شعوريا لبلوغ أهدافه . ولا تحظى فكرة الدفاع اللاشعورى بوزن كبير عند اصحاب هذه النظريات الاجتماعية - النفسية .

وبصفة عامة ، وسعت النظريات التى طورها آدلر وفروم وهورنى وسوليفان آفاق علم النفس الفرويدى باقتساح المجال للمحددات الاجتماعية للشخصية ، الا ان عمدا من النقاد قد هون من أصالة هذه النظريات الاجتماعية - النفسية . فهم يقولون ان مثل هذه النظريات تفتقر فحسب واعادة صياغة جانب واحد من التحليل النفسى التقليدى ، أى الأنا ودفاعاته . وقد تبين فرويد بوضوح أن سمات الشخصية كثيرا ما تمثل دفاعات الشخص المعتادة أو استراتيجيته ازاء المخاطر الداخلية والخارجية التى تهدد الأنا . فالمخاطبات والاتجاهات والإساليب والتشخصات والديناميات وما إليها ، مما تناولته النظريات فى هذا الفصل يتناولها علم النفس الفرويدى تحت اسم « دفاعات الأنا » . لذلك يستنتج هؤلاء النقاد أن هذا كله لم يضيف لفرويد شيئا جديدا وأن كثيرا منه قد أخذ من فرويد . وأنه باختزال الشخص الى مجرد نظام الانا فان اصحاب النظريات الاجتماعيه - النفسيه يزعمون الشخصية من المتابع الحيويه

للسلوك الانساني ، وهي المنابع التي ترجع مصادرها النهائي الى تطور الانسان كنوع وان اقتصر هذه النظريات على الطابع الاجتماعي لشخصية الانسان وتضخيمها له ، يؤدي الى اغتراب الانسان عن ارثه البيولوجي العظيم .

وثمة نقد يوجه احيانا لكل من أدلر وفروم وهورني لتصورهم للانسان (وهو لا ينطبق على سوليفان) ، وهو ان نظرياتهم ذات طابع مثالي مسرف في تصوره للانسان . ففي عالم مزقته حربان كبيرتان وتهدده حرب ثالثة ، هذا بالاضافة الى الأشكال الاخرى الكثيرة من العنف ومجافاة العقل التي يفصح عنها الناس ، تليد صورة الانسان العاقل الواعي بذاته ، ذات الطابع لاجتماعي ، غير مناسبة وغير صادقة الى حد بعيد . ويستطيع المرء بالطبع ان يلقي باللوم على المجتمع لا على الانسان ، لما وصلت اليه الامور من حال مؤسفة . وهذا هو ما تفعله هذه النظريات . ولكنهم يقولون ، عند ذلك ، او يعنونونه ضمنا ، ان الانسان العاقل خلق ذلك النوع من التنظيمات الاجتماعية المسئولة عن تجرده من العقل وحرمانه من السعادة . وهذا هو التناقض الاكبر لهذه النظريات فلو ان الانسان على هذا القدر من الوعي بذاته ، وعلى هذا القدر من العقل والطابع الاجتماعي فلماذا اذن طور كثيرا من النظم الاجتماعية القاصرة ؟

وهناك انتقاد آخر اقل خطورة ، لكنه يحمل وزنا اكبر بالنسبة للاخصائين النفسانيين من حيث اختلافهم عن المحللين النفسيين ، وهو عجز هذه النظريات الاجتماعية النفسية عن تحديد وتعيين الوسائل الدقيقة التي يشكل المجتمع بها افراده . كيف يكتسب الشخص طابعه الاجتماعي ؟ كيف يتعلم ان يصبح عضوا في مجتمع ؟ ان الاهمال الواضح لعملية التعلم من نظريات تعتمد هذا الاعتماد الكبير على مفهوم التعلم في تفسير الطرق التي تتكون بها الشخصية يعتبر قصورا كبيرا . هل يكفي مجرد التعرض لطرف اجتماعي حتى يمكن لهذا الطرف ان يؤثر في الشخصية ؟ هل هناك طريقة آلية لطبع السلوك المقبول اجتماعيا ؟ او هل يستجيب الشخص بوساطة الاستبصار والاستباق او التنبؤ للبيئة الاجتماعية مختارا تلك السمات التي يعتقد انها ستؤدي الى تنظيم احسن للشخصية ، نابذا سمات اخرى يحس انها لا تتفق مع تنظيم الذات ؟ وتلتزم هذه النظريات في غالب الامر الصمت فيما يتعلق بطبيعة عملية التعلم ، بالرغم من ان التعلم هو في حقيقة الامر من الموضوعات المركزية في علم النفس الامريكي لعديد من السنوات .

وبالرغم من أن هذه النظريات الاجتماعية - النفسية لم تثر قدرا كبيرا من البحوث بالموازنة مع غيرها من النظريات الاخرى ، فقد ساعدت على احتضان مناخ فكري يمكن فيه للبحث الاجتماعي - النفسى أن يزدهر وقد تحقق ذلك . ان علم النفس الاجتماعى لم يعد ربيب علم النفس .
وانما أصبح جزءا كبيرا من علم النفس له نشاط متزايد وفاعلية بالفة .
ان أدلر وفروم وكارين هورنى وسوليفان ليسوا بمسئولين فحسب عن نهضة علم النفس الاجتماعى . بل ان تأثيرهم كان كبيرا . فكل منهم اسهم بقدر ليس بالضئيل فى تكوين صورة الانسان ككائن اجتماعى .
وهذه هى قيمتهم الكبرى فى الثورة المعاصرة .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Adler, A. *The practice and theory of individual psychology*. New York: Harcourt, 1927.
- Adler, A. Individual Psychology. In C. Murchison (Ed.). *Psychologies of 1930*. Worcester, Mass.: Clark Univ. Press, 1930, pp. 395-405.
- Ansbacher, H. L., and Rowena R. (Eds.). *The Individual-Psychology of Alfred Adler*. New York: Basic Books, 1956.
- Fromm, E. *Escape from freedom*. New York: Rinehart, 1941.
- Fromm, E. *Man for himself*. New York: Rinehart, 1947.
- Fromm, E. *The sane society*. New York: Rinehart, 1955.
- Horney, Karen. *Neurotic personality of our times*. New York: Norton, 1937.
- Horney, Karen. *New ways in psychoanalysis*. New York: Norton, 1939.
- Horney, Karen. *Self-analysis*. New York: Norton, 1942.
- Horney, Karen. *Our inner conflicts*. New York: Norton, 1945.
- Horney, Karen. *Neurosis and human growth*. New York: Norton, 1950.
- Sullivan, H. S. *The interpersonal theory of psychiatry*. New York: Norton, 1953.

REFERENCES

- Adler, A. *Study of organ inferiority and its psychical compensation*. New York: Nervous and Mental Diseases Publishing Co., 1917.
- Adler, A. *Practice and theory of individual psychology*. New York: Harcourt, 1927.
- Adler, A. *The science of living*. New York: Greenberg, 1929a.
- Adler, A. *Problems of neurosis*. London: Kegan Paul, 1929b.
- Adler, A. Individual Psychology. In C. Murchison (Ed.). *Psychologies of 1930*. Worcester, Mass.: Clark Univ. Press, 1930, pp. 395-405.
- Adler, A. *What life should mean to you*. Boston: Little, 1931.
- Adler, A. The fundamental views of Individual Psychology. *Int. J. Indiv. Psychol.*, 1935, 1, 5-8.
- Adler, A. *Social interest*. New York: Putnam, 1939.

- Ansbacher, H. L., and Rowena R. (Eds.). *The Individual-Psychology of Alfred Adler*. New York: Basic Books, 1956.
- Blitsten, Dorothy R. *The social theories of Harry Stack Sullivan*. New York: The William-Frederick Press, 1953.
- Bottome, Phyllis. *Alfred Adler; a biography*. New York: Putnam, 1939.
- Colby, K. M. On the disagreement between Freud and Adler. *Amer. Imago*, 1951, 8, 229-238.
- Deutsch, F., and Murphy, W. F. *The clinical interview*. New York: International Universities Press, 1955.
- Fromm, E. *Escape from freedom*. New York: Rinehart, 1941.
- Fromm, E. *Man for himself*. New York: Rinehart, 1947.
- Fromm, E. *The sane society*. New York: Rinehart, 1955.
- Fromm-Reichmann, Frieda. *Principles of intensive psychotherapy*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1950.
- Horney, Karen. *Neurotic personality of our times*. New York: Norton, 1937.
- Horney, Karen. *New ways in psychoanalysis*. New York: Norton, 1939.
- Horney, Karen. *Self-analysis*. New York: Norton, 1942.
- Horney, Karen. *Our inner conflicts*. New York: Norton, 1945.
- Horney, Karen. *Neurosis and human growth*. New York: Norton, 1950.
- James, W. T. Karen Horney and Erich Fromm in relation to Alfred Adler. *Indiv. Psychol. Bull.*, 1947, 6, 105-116.
- Jones, E. *The life and work of Sigmund Freud*. Vol. 2. New York: Basic Books, 1955.
- Jones, H. E. Order of birth in relation to the development of the child. In C. Murchison (Ed.). *Handbook of child psychology*. Worcester, Mass.: Clark Univ. Press, 1931, pp. 204-241.
- Maccoby, Eleanor E., and Maccoby, N. The interview: a tool of social science. In G. Lindzey (Ed.). *Handbook of social psychology*. Vol. I. Cambridge: Addison-Wesley, 1945, pp. 449-487.
- Mullahy, P. *Oedipus—myth and complex*. New York: Hermitage House, 1948.
- Mullahy, P. (Ed.). *A study of interpersonal relations*. New York: Hermitage House, 1949.
- Mullahy, P. (Ed.). *The contributions of Harry Stack Sullivan*. New York: Hermitage House, 1952.
- Munroe, Ruth. *Schools of psychoanalytic thought*. New York: Dryden Press, 1955.
- Ruesch, J., and Bateson, G. *Communication, the social matrix of psychiatry*. New York: Norton, 1951.

- Stanton, A.^oH., and Schwartz, M. S. *The mental hospital*. New York : Basic Books, 1954.
- Sullivan, H.S. *Conceptions of modern psychiatry*. Washington, D. C. : William Alanson White Psychiatric Foundation, 1947.
- Sullivan, H. S. Tensions interpersonal and international : a psychiatrist's view. In H. Cantril (Ed.). *Tensions that cause war*. Urbana, Ill. : Univ. of Illinois Press, 1950, pp. 79—138.
- Sullivan, H.S. *The interpersonal theory of psychiatry*. New York : Norton, 1953.
- Sullivan, H.S. *The psychiatric interview*. New York : Norton, 1954.
- Vaihinger, H. *The philosophy of «as if»*. New York : Harcourt, 1925.

الفصل الخامس

علم الشخصية لدى موراي

ينفرد هنرى أ . موراي بين أصحاب نظريات الشخصية بالحنق
فى علم الحياة ، وفى الممارسة الاكلينيكية ، وفى علم النفس الاكاديسى
الذى استخدمه فى أعماله النظرية .

ويمتلك موراي أسلوبا بارعا فى الكتابة يفذه اهتمام عميق
ومستمر بالأدب وبالإنسانيات ، ويشكل هذا الأسلوب قوة هائلة تحقق
التكامل بين هذه المواهب المتنوعة وتولى النظرية المستمدة من تلك الاصول
اعتبارا كبيرا للأهمية الحتمية للعوامل البيولوجية ، وتقديرا كاملا
للمعقد الفردى للكائن البشرى ، واهتماما بتناول السلوك بطريقة تجعل
الفحوص المضبوطة نتاجا طبيعيا لتلك التركيبات النظرية .

وتهتم هذه النظرية بالفرد فى جميع تمقدراته ، وتتجلى وجهة النظر
هذه فى اصطلاح « علم الشخصية Personology » الذى أدخله موراي
١٩٣٨ عنوانا لمحاولاته الخاصة ، ولحاولات الآخرين الذين كانوا مهتمين
أساسا بالفهم الكامل للحالة الفردية . ولقد أكد موراي باستمرار الطبيعة
العضوية للسلوك موضحا أنه لا يمكن فهم جزء منفرد منه فى عزلة عن بقية
الشخص القائم به . وموراي - بعكس الكثيرين من المنظرين الآخرين
الذين يشاركونه فى ذلك الاعتقاد - مستعد تماما لتقبل التجريد الذى
يتطلبه القيام بالعديد من أنواع الدراسات المتخصصة ، فهو يصر دائما
على أن مهمة اعادة البناء ينبغى القيام بها بعد أن يكتمل التحليل .
ويتضح مزيد من التعارض بينه وبين أغلب أصحاب النظريات الكلية
فى اهتمامه « المجال » Field فى اصراره على أنه ينبغى أن يكتمل فهم

وتحليل المحتوى البيئي للسلوك قبل أن يصبح في الامكان^٣ لتوصل الى تفسير مناسب لسلوك الفرد . ولم يؤكد موراي على أهمية المحددات البيئية عموما فحسب ، بل أنه قد قدم بمزيد من التحديد مجموعة محكمة من المفاهيم يفرض اظهار تلك القوى البيئية .

ان ماضى الفرد أو تاريخه في رأى موراي له من الأهمية تماما نفس ما للفرد الحاضر وبيئته . وتشارك نظرية موراي التحليل النفسى فى افتراض أن الاحداث التى تقع فى بداية العمر وفى الطفولة انما هى محدّدات حاسمة لسلوك الراشد . وثمة تشابه آخر بين موقف موراي وموقف التحليل النفسى وهو الأهمية الكبيرة التى تعزى الى الدوافع اللاشعورية ، والاهتمام الشديد الواضح بتقارير الفرد اللفظية الذاتية أو الحرة التى تتضمن تخيلاته .

وأكثر سمات تلك النظرية بروزا - فى كثير من النواحي - هى معالجتها للدافعية معالجة شديدة التمييز ودقيقة التخصص . ولقد استخدم تخطيط موراي للمفاهيم الدافعية استخداما واسعا ، وأصبح ذا تأثير كبير . والسمة الأخرى غير العادية لتلك النظرية ، هى تأكيدها المستمر على أن العمليات الفسيولوجية التى تصاحب جميع العمليات النفسية انما توجد معها فى ذات الوقت وترتبط بها وظيفيا . ويؤدى مفهوم موراي عن السيادة *Regnancy* ، الذى سوف نناقشه فيما بعد ، الى توجيه اهتمام صاحب النظرية بصورة مستمرة الى المنح باعتبارها مركزا للشخصية ولجميع الأجزاء المكونة لها . ولقد أكد موراي مرارا على أهمية الوصف التفصيلى باعتباره مدخلا ضروريا للصياغات والفحوص النظرية المعقّنة وتنسّق وجهه النظر هذه مع اهتمامه العميق بعلم تصنيف الاحياء والتصنيفات المستفيضة التى وضعها للكثير من جوانب السلوك .

لقد بذل موراي محاولات جادة لتحقيق حل وسط بين ما يفرضه التعقيد الاكليتيكى من متطلبات كثيرا ما تتعارض مع ما تتطلبه اقتصاديات الفحص . ولقد ابتكر وسائل للعرض - الجزئى على الأقل - للسلوك الانسانى الشديد التنوع وفى نفس الوقت ركز على مهمة ارساء اجراءات تقدير المتغيرات التى تحتل مكانا مركزيا فى مخططة النظرى . وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الاهتمام المزدوج الى تضيق الهوة بين الممارسة الاكليتيكية وبين مصل علم النفس .

لقد عرفنا الآن الخطوط العامة لعلم الشخصية لدى موراي ولكن ماذا عن الرجل الذي أقام تلك النظرية ؟

ولد هنري موراي في مدينة نيويورك في ١٣ مايو سنة ١٨٩٣ وتلقى تعليمه في مدرسة جروتون وفي كلية هارفارد ، وحصل من تلك الأخيرة على درجة A.B. في سنة ١٩١٥ مع التخصص الرئيسي في التاريخ . والتحق بعد تخرجه من هارفارد بكلية كولومبيا للأطباء والجراحين حيث تخرج على رأس دفعته سنة ١٩١٩ . وفي عام ١٩٢٠ حصل على درجة M.A. في علم الاحياء من كولومبيا وعمل لفترة قصيرة مدرسا لعلم وظائف الأعضاء في جامعة هارفارد ، ثم عمل بعد ذلك مدة سنتين جراحا مقيما في مستشفى برسبايتريان Presbyterian في نيويورك . وانضم بعد ذلك الى معهد روكفلر للبحث الطبى في مدينة نيويورك حيث عمل مساعدا خلال سنتين في بحوث علم الأجنة . وتلت ذلك فترة من الدراسة في جامعة كمبردج حيث قدم بحثا في الكيمياء الحيوية حصل به على درجة دكتوراه الفلسفة في الكيمياء الحيوية من كمبردج عام ١٩٢٧ . ولقد بدأت اهتماماته تتحول تحولا جديدا نحو علم النفس خلال تلك الفترة من الدراسة في أوروبا ولعل كلمات موراي نفسه هي خير ما يصف ذلك التطور الفكرى :

« لقد بدأ في الكلية تكون برعم من الاهتمام بعلم النفس ، سرعان ما واده اتجاه البروفسور مونستربرج Münsterberg الشيط لهمم » وقد بدأت - في منتصف محاضراته الثمانية - أبحث عن اقرب باب للخروج . لقد كان هناك خبز اكثر (واحجار اقل) في علم العيادة ، والكيمياء ، وكذلك الطب فيما بعد . وخلال سنتي الرابعة في كلية الأطباء والجراحين ، وخلال فترات انتظار استعمالي لاجراء عمليات الولادة تمت بعناية متواضعة لخمسة وعشرين من زملائي ، وجدت فيها ارتباطات بين اربعين مقياسا من مقاييس الجسم البشرى واللاين سمه . وقد كنت افكر حينذاك في سيمفونية الفهد الصماء « ، ولقد بدلت فيما بعد بوصفى جراحا مقيما في المستشفى وقتا اكثر مما يشتر مقبولا بالنسبة لجراح في البحث يشغف من العوامل التكوينية النفسية في مرضى . ومهما كان نجاحي في مساعدة بعضهم - كعلمن المختبرات ، وبالع السيوف ، ورياسة الهوى ، ورجل المصابات - فلقد كوئئت باكثر مما استحق حين صبحوني معهم - بعد مفادتهم للمستشفى - الى كحولهم في المسالم السفلى . لقد كان هذا علم نفس بلا رموز ، ولكنه على الاقل قد اعدنى للتعرف على التشابه بين مائتمله الاحياء الوهمية ، وماحلم به الاحياء

لراقية ... لم نحيت علم النفس جانبا ، ولم يعد الى الظهور مرة أخرى الى ان بدأت اسأل - بعد عدة سنوات من البحث في الكيمياء الحيوية وعلم وظائف الأعضاء - لماذا يتشبث في اصرار بعض الذين كنت اصاوم معهم في معهد دوكفلر بوجهات نظر متعارضة على خط مستقيم فيما يتعلق بأبسط الظواهر . ولقد ارسلت استبيانا طويلا الى خمسين من المفكرين المبدعين (اغلبهم من العلماء) والامل يحدثونى في القاء الضوء على التصورات المفضلة **Conceptual Preference** بوصفها وظائف للشخصية . ونظرا لاستمرار حيرتى تلقيت دروسا في الفلسفة على البروفيسور موريس كوهن **Morris Cohen** وبعد ذلك في كمبريدج على البروفيسور برود **Broad** . لكن كتاب يونج ، **الاتصال النفسية Psychological Types** دفعنى - بتقديمه اجابة جوهرية على تساؤلى- الى السعى بجد نحو علم النفس . وكان هناك الى جانب هذا الكتاب ، كتاب آخر ، وامرأة ، وبعض الموسيقى الالمانية ، وعمد من المؤتمرات الثميرة الأخرى التى جعلتنى اشعر وافكر في وقت واحد بدلا من ان يتم ذلك بشكل منفصل .

وفى القمة من كل ذلك ، تمت بولاية الدكتور يونج في زيورخ وفى نيى مناقشة بعض التجريدات ، ولكنى وجدت لدهشتى بعد يوم او يومين ان تقدا من المعارف المؤثرة وجدانيا قد تغير بحيث يكفى لاعمام عالم قبح . ولقد كانت تلك هى فرصى الاولى لوضع التحليل النفسى في الميزان ، ولقد زكيت به بوصفه طريقة من طرق قياس قيمة اى مجال في علم الشخصية ، نلتاخذ اسرارك ، واعقد مشكلاتك ، الى المسر اللاتم في نظام معين ولتحكم على هذا الاخر وفقا لتصوره على تنظيم كل كيانك ولقاء الضوء عليه ... وفى عام ١٩٢٥ لم يكن لدى مقاييس للحكم على الدكتور يونج ، فهو اول من قابلتهم اصالة واحاطة وذكاء ، وهو الرجل الذى اسماه برنزهورن **Prinzhorn** الحكيم «انضج الثمار على شجرة معرفة التحليل النفسى» . لقد تحدثنا لساعات ، وهدرنا البكرة ، ودخنا امام المدفأة في صومته القاوستية لقد فتحت الى اوسع مدى بوابات فيضان من عالم العجب ، ولقد رايت اشياء لم تعلم بها فلسفتى على الاطلاق ، وحل عدد كبير من امعد المشكلات خلال شهر وانطلقت ميمما صوب علم نفس الامماق . لقد غيرت اللاشعور وهو ما لا يمكن استخلاصه من الكتب (موراى ، ١٩٤٠)

وهكذا عاد موراي الى وطنه مشغولاً في عمق بعلم النفس وعمل مساعداً مدة عام في معهد روكفلر قبل قبوله في عام ١٩٢٧ دعوة من جامعة هارفارد للعمل محاضراً في علم النفس . لقد كان مورتون برنس Morton Prince قد انتهى بثوبه من انشاء عيادة هارفارد النفسية ، وهو الذي رتب هذا الاختيار غير المتوقع لرجل غير عادي وغير متمرس في علم النفس الاكاديمي لقسم من أرق اقسام علم النفس التقليدي . ولقد تم تمويل العيادة بشرط محدد واضح هو أن تخصص للدراسة وتدریس علم النفس الدينامي وعلم نفس الشواذ ، ولقد انتهى برنس في بحثه من عالم شاب يرجي منه ليوحه مستقبل العيادة الى اختيار موراي . وفي عام ١٩٢٨ أصبح موراي أستاذاً مساعداً ومديراً للعيادة النفسية ، وفي عام ١٩٣٧ أصبح أستاذاً زميلاً ، ولقد كان واحداً من الأعضاء المؤسسين لجمعية بوسطن للتحليل النفسي وفي عام ١٩٣٥ كان قد أتم تدريبه في التحليل النفسي تحت اشراف فرانتز الكسنر وهانز ساكس . ولقد ضمن موراي تلك الحصيلة الرائعة لتحليله ولاجتهاته نحو التحليل النفسي في مجموعة مقالات تدور حول علماء النفس والتحليل النفسي (موراي ١٩٤٠) .

خلال حوالي خمسة عشر عاماً ، وقبل اندلاع الحرب ، كانت عيادة هارفارد النفسية تحت القيادة الفكرية والروحية لهنري موراي مسرحاً لأعمال نظرية وتجريبية تتميز بالطابع الخلاق العميق ، ولقد جمع موراي حوله مجموعة من الدارسين الشبان القادرين ، الذين كانت جهودهم المتضافرة لتحديد ودراسة الشخصية الانسانية مشورة الى أبعد الحدود . ويتضمن مجلد استكشافات في الشخصية Exploration in Personality (١٩٣٨) تسجيلاً جزئياً لخصب هذه الحقبة ، ولكن أكثر المنجزات أهمية قد تحققت في مجال تشكيل القيم والتصورات والمقاصد بواسطة أفراد مثل دونالد و . ماكينون Donald W. Mackinnon وسول روزنزفايج Saul Rosenzweig و ر . نفيت سافنورد Silvan Tomkins R. Nevitt Sanford وسيلفان س . توميكنز Robert W. White وقد هيات العيادة ولأول مرة لنظرية التحليل النفسي جمهوراً من الاكاديميين الجادين ، وقد بذلت جهود مضيئة لتوفير أساليب ترجمة اللغات الاكلينيكية الذكية لفرويد الى عمليات تجريبية تسمح الى حد ما بتأكيدها او رفضها على أساس تجريبى . ان موراي لم يكتف بما خلقه من احساس بالاثرة وبالكشف الوشيك لدى تلامذته لكنه فتح أبواب العيادة أمام كبار العلماء من

مختلف المجالات (أريك هومبرجر أريكسون Erik Hombrugger Erikson
وكورا دويوا Cora du Bois ووالتر دايسك Walter Dyke
وهـ . سكودر ماكييل H. Scudder Mckeel) مما وفر للعمل دفعة
ملحوظة من الجهد التعاوني .

ولقد أذنت تلك الحقبة بالانقضاء حين ترك موراي هارفارد عام ١٩٤٣
ليلتحق بالقسم الطبي في الجيش برتبة ماجور ثم ليفتتانت كولونيل
بعد ذلك ، وحيث أسس وأشرف على قسم التقييم في مكتب الخدمات
الاستراتيجية ، وكانت مهمته القيام بعملية الفرز الصعبة للمرشحين
لمهام سرية وخطرة ومعقدة . ولقد تم تلخيص نشاطات تلك الجماعة
في مؤلف : تقييم الرجال (١٩٤٨) Assessment of Men ولقد أدى عمل
موراي في الجيش الى منحه وسام جوقة الاستحقاق Legion of Merit
في عام ١٩٤٦ وعاد الى هارفارد عام ١٩٤٧ محاضرا بعض الوقت في علم
النفس الاكلينيكي في القسم المنشأ حديثا وهو قسم العلاقات الاجتماعية،
وفي عام ١٩٥٠ عين استاذا لعلم النفس الاكلينيكي . وقد أنشأ عام ١٩٤٩
ملحق العيادة النفسية في جامعة هارفارد حيث أنجز هو وعدد قليل
من الزملاء وطلبة الدراسات العليا مزيدا من دراسات الشخصية .

ان موراي كما أوضحنا الفقرة السابقة - ليس بالشخص الذي
يمكن تصنيف تاريخه الفكري بسهولة ، فالنماذج النظرية التي تعرض
لها تبلغ كثرتها من حيث العدد والتنوع قدرا يجعلنا لا نأمل في أكثر
من اختيار عدد قليل من أبرزها . ومن الواضح أن التحليل النفسي
- باوسع ما يصفه هذا الاصطلاح - قد أسهم كثيرا في تطوره الفكري .
فلقد أثر فيه يونج والكنسندر وساكنس بشكل مباشر وشخصي ، كما كان
لفرويد تأثير كبير عليه من خلال كتاباته أساسا . ويبدو واضحا مدى
عمق تأثير التحليل النفسي على فهم موراي للسلوك في العبارة التالية :

«يصعب على ان اعود بفكري الى تلك الفشاة التي حدثت في فترة
ما ان غسقت جديا من ادراكى للطبيعة البشرية ، فلقد اصبح
طبعيا بالنسبة لي ان القى انطباعات من الرقيات والاسم والافتراضات
التي تكمن وراء الافعال واحاديث كل من انابلهم ١٠ قبلا من ان ارى مجرد
امرئىكى اذيق في سترة رجل الاعمال يذهب الى مكتبه ويعود منه كالنار
في المتاعة مجرد جهل طفيف متحرك من الافعال المنمكة والمصادر
والانماط الجملة والشعرات : مجرد حزمة من الاساطير ، والانطباعات

والولادات لهذه المؤسسة أو تلك - بمباراة أخرى إنسان آلي - بدلاً من ذلك أصبحت تصور نشاط أعضائه الداخلية تياراً من الحياة الدلابة الجارية الشمورية والاشعورية ، دهليزا هامسا يتردد نيه صدى أصوات قادمة من الماضي البعيد ، مجرى دافقا من التخييلات تطفو على سطحه ذكريات حوادث ماضية ، تيارات من المركبات المتصارعة مخططات ومخططات مقابلة، آراء مشبعة بالأمل ومثاليات وقد تبدو مثل الإبعاد بالنسبة لأخصائي الأعصاب سخيقة وقديمة واقرب الى السلادة ، ولكنها في الحقيقة أقرب الى واقعات الحياة الداخلية من رسومه البيانية المرية للأفعال المنكسة واتصالات الأعصاب ان الشخصية بمثابة كونجرس كامل من الخطباء وجماعات الضغط ، من الأطفال والديماجوجيين والشيوعيين والانزاليين وتجار الحروب والمضاربيين وأشياء نيعر وأشياء المسيح وأشياء ميكافيللي وأشياء يهودا ، محافظين وثوار . وان عالم النفس الذي لايرف ذلك في نفسه ، والذي يوسد عقله في وجه تيار التصورات والمشار ، ينفي ان يلتبس العون - بان يحلل نفسيا - حتى يكسب صداقة مختلفاعضاء اسره (موراي ١٩٤٠ ص ١٦٠ - ص ١٦٦) .

ان بحوث موراي وتدريبه الطبي والبيولوجي قد أسهما في اكتسابه احتراما عميقا مطردا لأهمية العوامل الفيزيائية والبيولوجية في السلوك لقد كان تجربته في التشخيص الطبي أثر واضح في اعتقاده بأن الشخصية ينبغي أن تقيم على الوجه الأمثل بوساطة فريق من المتخصصين ، وأنه ينبغي أن تقابل تقارير الشخص عن نفسه - خلال هذا التقييم - بالأصغاء الجاد ، كذلك فان اهتمامه بعلم التصنيف أو تصنيفات السلوك وأيضا اقتناعه بأن الدراسة الدقيقة للحالات الفردية أمر جوهري لتقدم علم النفس في المستقبل يتفقان اتفاقا كبيرا مع ماضيه الطبي . كذلك فان إحاطته التفصيلية بالأعمال الأدبية العظيمة لعصرنا وللعصور الماضية ومعرفته العميقة على وجه الخصوص بمفكّل Melville ومؤلفاته ، كل ذلك قد زوده بمعين لا يتضب من الأفكار المتعلقة بالإنسان وامكانيات الخير وشر لديه ، ولقد زودته عقلية « الفرد نورث وايتهيد » على حين أسهم فكر لورانس ج . هندرسون Alfred North Whitehead الفنة بنموذج للفكر المنطقي التركيبي Lawrence J. Henderson . العنيف والبعقري في نفس الوقت بتقديم نموذج للاتجاه النقدي الصارم . ولقد تشرب فكره أيضا بالكثير من علماء النفس الأكاديميين * وربما كان ليفن Lewin وماكدوجال McDougall هما الأكثر بروزا من بين مصادر التأثير هذه . وقد أسهمت الانثروبولوجيا الحضارية أيضا عن طريق

أبرز علمائها كلايد كلاهون Clyde Kluckhohn بنصيبها في فكره .
ليس هناك غرابة إذن في أن يكون النتاج المولود من مثل تلك الأنساب
المقمنة بناء محكما متعدد الجوانب .

ومن الواضح لدى من عرف موراي أن المعية وتفانيه في دراسة
الشخصية الانسانية لا يظهران الا جزئيا فحسب في أعماله المنشورة . ولقد
قدمت ملاحظاته المعارضة وتأملاته اللامحدودة المتعلقة بموضوعات لانهاية
لتنوعها ، والتي بلغت من الكمال ما جعلها جزءا من الوجبات الرئيسية
في العبادة النفسية ، قدمت لعشرات من تلاميذه وزملائه أفكارا مشيرة
للبحث . ولسوء الحظ لم تصل كل تلك الرسائل إلى أرض خصبة ، ولا
يملك المرء الا أن يشعر بالأسى لأن الكلمة المنطوقة لم تحفظ لتشرى
السجل المكتوب . ان ميلل موراي لأن يكشف عن البعض فقط من ثمار
فريقته يبدو واضحا فيما نشر من نتائج دراسته المتعمقة في هيرمان
ميلفل وهي الدراسة التي استمرت خمسة وعشرين عاما . ان تلك الاعوام
من الدراسة المتخصصة قد اكسبته شهرة لا نظير لها بين دارسي ميلفل
ومع ذلك فلم يزد ما نشره فيما يتعلق بهذا الموضوع الذي استحوذ على
فكره عن مقايين ، الأول تحليل لمآح للمعنى النفسى لموبى ديك Moby Dick
(موراي ١٩٥١ ج) وسوف يكون لدينا مزيد من الحديث عنه فيما بعد .
والثاني هو مقمنة وتحليل نفاذ لبير Pierre (موراي ١٩٤٩ ب) وهي
واحدة من أكثر روايات ميلفل معاة الى الحيرة والبلبلة .

فإذا سلمنا بقصور التسجيل المكتوب ، فإننا نجد أن بحوث موراي
وتنظيراته النفسية تتمثل أفضل ما يكون في كتابه استكشافات في
الشخصية (١٩٣٨) الذي يلخص أفكار وبحوث هيئة العبادة
النفسية في نهاية المقدم الأول من وجودها . ويضم كتاب
دراسة اكلينيكية في العواطف A Clinical Study of Sentiments
(١٩٤٥) الذي كتبه مع كريستيانا مورجان Christiana Morgan
التي زاملته لفترة طويلة يضم تسجيلا جزئيا لبعض البحوث اللاحقة .
أما لتثيرات الرئيسية التي مرت بها معتقداته النظرية خلال الاعوام
التالية ، فتمثل على أفضل وجه في فصل كتبه بالاشتراك مع كلايد
كلاهون (١٩٥٣) وآخر نشر في كتابه « نحو نظرية عامة في الفعل »
Toward a general theory of action (١٩٥١) ومقال في
« ديالكتيكا » Dialectica (١٩٥١) ويعتبر دليل اختبار تفهم الموضوع

Manual of thematic apperception test أفضل مقسمة لتلك الأداة من أدوات الشخصية التي ابتكرها بالاشتراك مع كريستيانا مورجان (مورجان وموراى ١٩٣٥) والتي أصبحت واحدة من أكثر الوسائل التجريبية التي يستخدمها الاكلينيكيون والباحثون في الشخصية أهمية وانتشارا . ان ما أبداه موراي من حساسية وابتكارية في تطوير وسائل تقدير وتحليل قدرات الانسان والنزعات الموجهة له ، يظهر في صورة حية في كتاب تقييم الرجال (١٩٤٨) .

لقد اشارت كتابات موراي النظرية مرارا الى أهمية التغير والتنوع للكائنات البشرية ، ولقد كان موراي متسقا مع نظريته في هذا الخصوص على الاقل حيث أن أفكاره النظرية كانت باستمرار عرضة للتعديل وإعادة البناء . وعلى ذلك فان ما سنعرضه فيما بعد قد يمثل بالدقة الموضوعات الرئيسية في فكر موراي ولكنه غالبا سوف يبعث عن الدقة بالتأكيد بالنسبة لبعض تفصيلات موقفه الراهن .

بناء الشخصية :

لقد شغلت طبيعة الشخصية ومكتسباتها ومنجزاتها جانبا كبيرا من اهتمام موراي النظرى . ولقد تأثرت أفكاره عن بناء الشخصية تأثرا كبيرا بنظرية التحليل النفسى الا أنها تتميز بوضوح فى كثير من جوانبها عن وجهة النظر الفرويدية التقليدية ، وسوف نعرض هنا لتعريف موراي للشخصية والمفاهيم التي صاغها لها في محاولته توضيح طبيعتها الشخصية .

تعريف الشخصية : برغم أن موراي قد وضع تعريفات كثيرة للشخصية فى أوقات مختلفة فإن العناصر الرئيسية لتلك التعريفات تتضمنها النماذج التالية :

«تقصر دلالة اصطلاح الشخصية Personality على البناء القرض للمقل ، الذى تتضح مكوناته وعملياته الطردة أكثر فأكثر مصحوبة ببعض العوامل الفريدة أو الجديدة) فى الوقائع الداخلية والخارجية التى تكون حياة الشخص . وبذلك فان الشخصية ليست سلسلة من وقائع السيرة الذاتية بل هى شيء أكثر عمومية ودواما ، ويستنتج من تلك الوقائع (موراي وكلاكسون ١٩٥٣)

« ان الشخصية هي الجهاز المسيطر على الجسم وهي الكسبة التي
تظل تعمل دون توقف منذ الميلاد حتى الموت في عمليات تحويلية وظيفية
(موراي ١٩٥١ ، ص ٤٣٦) .

تتضمن تلك التعريفات عدة مكونات هامة . فهي أولا توضح الطبيعة
المجردة للشخصية ، أي حقيقة أنها من تركيب صاحب النظرية ، وأنها
برغم ارتباطها بوقائع تجريبية خاصة ليست مجرد تلخيص لتلك الوقائع .
فشخصية الفرد سوف تتغير تماما تبعا لصاحب النظرية الذي يمرضها
أو يصوغها وثانيا فان هناك ما يتضمن أن شخصية الفرد تشير إلى سلسلة
من الوقائع التي تمتد في الحالة المثالية على المدى للكلى لحياة الفرد . ويتضح
هذا الاهتمام بالامتداد الطولي بصورة أقوى في عبارة أن « تاريخ
الشخصية هو الشخصية » وهي العبارة التي ظهرت مرارا في كتابات
موراي . وتتضمن التعريفات ثالثا - أن الشخصية ينبغي أن تعكس
العناصر الدائمة والمتكررة للسلوك كما تعكس أيضا العناصر الجديدة
والفريدة . والشخصية - رابعا - هي العامل المنظم أو الحاكم للفرد ،
فالشخصية هي التي تخلق النظام والتكامل بين الدفعات والضغوط
المتفاوتة التي يتعرض لها الفرد .

ان تصور الشخصية قوة تنظيمية تكاملية يطرح على الفور السؤال
عن ماهية الوظائف الرئيسية للشخصية . وقد وصفها موراي فيما يلي :

« .. ان الوظائف العامة للشخصية هي ان تمارس عملياتها ، وان
تعبّر عن نفسها ، وان تتعلم كيف تولد وكيف تخفف من الحاجات تورث
الحاجة ، وان تضع برامج متتامة لتحقيق الاهداف البعيدة ، وأخيرا ان
تقلل او ان تحل الصراعات بوضع التخطيطات التي تسمح اكثر من غيرها
بتهذئة الحاجات حاجاتها الرئيسية دون احتكاك» (موراي وكلامون ١٩٥٣
ص ٣٩) .

ولقد اضاف موراي الى هذه القائمة فيما بعد وظائف تصديدي
مستويات الطموح بحيث يزيد احتمال بلوغها ، وضبط السلوك بحيث
يوافق التوقعات الاجتماعية .

ان الموضوع الرئيسي الظاهر في كتابات موراي والذي أغفلناه
حتى الآن هو التأكيد على الأرضية الفسيولوجية للشخصية . لقد كان

موراي متسقا مع خبرته في علم الأحياء حين اختار أن يبرز تلك العمليات البيولوجية التي تصاحب أو تكمن وراء كل الوقائع التي يهتم بها عالم النفس . وهو في الحقيقة يرى أنه :

« يمكن تعريف الشخصية بيولوجيا بوصفها العضو المسيطر أو جهاز التنظيم العلوي للجسم ، وهي بذلك تستقر في المخ ، بحيث أنه بدون المخ لا يوجد شخصية » . (موراي ١٩٥١ ب ، ص ٢٦٧) .

وعلى ذلك فقد اختار موراي في جميع كتاباته أن يرمى الشخصية باصرار في المخ مستخلصا ان كل ما نعرفه عن العمليات الفسيولوجية اللازمة للوظيفة السلوكية تدل على أنه ينبغي أن يكون المخ هو مستقر الوظائف التنظيمية والتنفيذية - أي الشخصية .

.. طالا ان السلوك التوافقى المقدر يربط جميعه بوضوح بانارات في المخ ، فان وحدة نمو الكائن وسلوكه لا يمكن ان يفسرا الا بالرجوع الى تنظيمات تحدث في هذه المنطقة . ان عمليات المخ اهمية خاصة لدى عالم النفس اكثر من اهمية تلك العمليات التي تحدث في بقية الجسم ، (موراي ١٩٤٨ ص ٤٥) ..

وكما سنرى فيما بعد ، فليست الشخصية فحسب ، بل ان جميع التغيرات الخاصة المستخدمة في التعبير عن الشخصية ، يعتبر ان لها ما يصاحبها من عمليات المخ .

وبرغم ذلك الاصرار على اعطاء الشخصية مستقرا في المخ ، فاننا نجد ان موراي يعتقد ان عالم النفس ينبغي أن يشق طريقه مستقلا عن اسهامات علم وظائف الاعضاء وعلم الأعصاب ، انه يشعر بأن :

... سلوك الشخصيات البشرية يقع على مستوى مختلف من ستوى الظاهرة الفسيولوجية ، وهو لذلك ينبغي ان يدرس وان تصاغ التصورات الخاصة به دون انتظار علوم اكثر «اساسية» لتقديم صيغة كاملة . (موراي وكلاهمون ١٩٥٢ ، ص ٤٤)

وهكذا فقد اوضحت محاولات موراي لتعريف الشخصية أنه يتجه بشدة نحو الرأي الذي يعطى ماضى الكائن وزنا مناسباً ، والوظيفة التنظيمية للشخصية ، وللسمات المتكررة والحديثة لسلوك الفرد ، والطبيعة المجردة أو المتصورة للشخصية ، وللعمليات الفسيولوجية الكامنة وراء العمليات السيكولوجية .

الشخصية بوصفها تكويناً جزئياً :

لقد أمر موراي على أن المرء يجب أن يتحلى عن الصياغة لا عن التشخيص عند وصف ما يقوم به عالم النفس في تصوير الشخصية . فالتشخيص يتضمن مكوناً أو هوية ثابتة يوازن الفرد بها على حين ما يقوم به فعلا عالم النفس في مجال الشخصية هو « .. ممارسة في التصور البناء ، الفرضي والمؤقت ، بوصفه على أحسن الفروض خطوة في اتجاه النمطية typology » (موراي ١٩٥١ ب ، ص ٢٧٦) . وهكذا فإن اصطلاح الصياغة يبرز حقيقة أن وصف الشخصية ما زال جزئياً عملية فنية مصحوبة بقليل من خطوط التوجيه وقواعد الاجراءات ، ويشير الاصطلاح ايضا الى الطبيعة المجردة للعملية . وهو في انساقه مع تعريف موراي للشخصية ينبه من استخدامه الى أن الشخصية المصوغة انما يحددها جزئياً صاحب النظرية المعين أو البنائيات النظرية المستخدمة . ان وصف الشخصية لا ينبغي أن يعتبر صياغة أكثر منه وصفاً فحسب ، ولكن هذه الصياغة أيضاً تكون دائماً ناقصة أو جزئية وتصمم لحزمة وطاقات خاصة معينة أكثر من أن تصمم للتنبؤ بالسلوك جميعه في كل الاوقات . ان الصياغة الكاملة تتطلب قدراً كبيراً من التفاصيل وهي مرهقة ومربكة الى الحد الذي تصبح معه غير عملية .

الوقائع والتسابعات Proceedings and Serials

ان البيانات الرئيسية لعالم النفس هي وقائع من تفاعلات بين الذات والموضوع أو بين الذات وذات أخرى وهي على قدر من اللغز يكفى لأن يشمل العناصر الجوهرية في أى تتابع سلوكي معين . وفي كلمات موراي:

« ... ان الوقائع هي تلك الأشياء التي نلاحظها ، ونحاول ان نمثل لها في نماذج وان نشرحها ، هي الأشياء التي نحاول ان نتنبأ بها والعلاقات التي نخبر بها كفاءة صياغتنا » (موراي ١٩٥١ ب ، ص ٢٦٩ - ص ٢٧٠) .

وبرغم أنه يمكن في مواقف خاصة تحديد واقعة تحديداً دقيقاً ، كما هو الأمر في حالة الاستجابة اللفظية ورددها مثلاً فإن الممكن عادة هو تقديم تحديد بالغ الصومية فقط ، وفي هذا المعنى يرى موراي أنه « من

الأمثل أن يتحدد دوام الواقعة وفقا لـ (1) بداية و (2) اتمام نمط دينامي من السلوك . . (موراي 1951 ب ، ص 269) .

ان هذا التصور للوحدة الأساسية لعنم النفس باعتبارها تتكون من وقائع يعكس اعتقاد موراي بأنه لا فكاك من التصاق السلوك بعمد الزمن . وهكذا فان الواقعة هي توفيق بين الحدود العملية التي يعرضها فكر الباحث وأساليبه وبين المعطى التجريبي ، وهو وجود السلوك على بعد زمني . ويرى موراي أن الوقائع يمكن تصنيفها في حدود احتمال أنها داخلية (أحلام اليقظة ، وحل المشكلات والتخطيط في عزلة) أو خارجية (التفاعل المتبادل مع الاشخاص أو الموضوعات في البيئة) .

ولقد أكد موراي في مؤلف حديث له لم ينشر بعد أن الفرد قد يكون مشغولا في عدة وقائع في نفس اللحظة . فهو قد يتابع اتليفزيون ، ويتحدث الى صديق ، ويشرب ، ويصق الى صوت طفل وهو يشي ، ويربت على كلبه ، ويعبس في وجه زوجته ، كل ذلك خلال نفس الفترة القصيرة من الوقت . وهكذا فان سلوك الفرد اذا ما فحص بدقة فسوف يكتشف عادة عدد من **الوقائع المتداخلة overlapping proceeding** تحدث في نفس الوقت . ويستخدم اصطلاح **الفترة durance** للدلالة على الوحدة الزمنية للحياة والتي تتضمن جميع الوقائع المتداخلة وهي وحدة تشتمل على التعقيد الطبيعي لوجود الشخص .

ويوضح مفهوم الفترة أن الواقعة المفردة تكون عادة تجريدا من تعقيد السلوك المستمر ولا يمثل سوى اتجاه أو جانب واحد من جوانب كثيرة . ومن الممكن تقسيم حياة الفرد الى فترات طويلة (الطفولة ، والمراهقة ، والعمر المتقدم) أو الى **فترات قصيرة** (الاستجابة الزمنية لمدة دقيقة ، أو خبرة صادمة تستمر لعشر دقائق) .

ان تمثيل السلوك في صورة وقائع يعد أمرا مناسبيا تماما لأغراض كثيرة ، وعلى أي حال فقد يكون من الضروري في بعض الظروف أن تشمل وحدة واحدة أو صياغة واحدة سلوكا يستغرق فترة من الزمن أكثر طولا ، ويشار الى تلك الوحدة الوظيفية الطويلة من السلوك بأنها تتابع **serial**

... ان التوالي المتقطع للوقائع المنتظم في وجهته قد يسمى تتابعا وهكذا ، فان التتابع (مثل الصداقة والزواج والمنة) وحدة وظيفية طويلة نسبيا لا يمكن أن تصاغ الا على وجه التقريب لاسبب ، وينبغي ان يحصل الفرد على تسجيلات للوقائع المبسطة طوال حدوثها ، وان يلاحظ علامت

التطور مثل التغيرات في النزعات وزيادة المعرفة ، وزيادة القدرة ، وتحسن نوع العمل المنجز ، وهكذا ، ولا يمكن فهم واقعة واحدة في تنابع دون الرجوع الى تلك الوثائق التي ادت اليها ودون الرجوع الى مقاصد القائم بها ، وتوثاقه وخطة للمستقبل» (موراي ١٩٥١ ب ، ص ٢٧٢) .

وهكذا فان تمثيل السلوك في صورة تنابعات قد أصبح ضرورياً لأن وقائع معينة يرتبط بعضها ارتباطاً وثيقاً ببعض الآخر بحيث يستحيل دراستها منفصلة بغير تبديد المعنى الكامل لها .

البرامج المتتابعة والمخططات :

تؤدي البرامج المتتابعة وظيفة بالغة الأهمية للفرد ، حيث أنها عبارة عن ترتيبات منظمة للأهداف الفرعية التي تمتد في المستقبل ربما لشهور أو سنوات ، بحيث تؤدي - إذا سارت الأمور كما ينبغي - الى بعض النهايات السارة . وهكذا فقد يطمح الفرد الى هدف أن يصبح طبيباً ولكن يفصل بين موقفه الراهن وهدفه سنوات من الدراسة والتدريب الخاص ، فإذا ما أقام مجموعة من الأهداف الفرعية التي يلعب كل منها دوراً في تقريبه الى شهادته الطبية ، فان ذلك يعتبر برنامجاً متتابعاً .

وتبلغ المخططات نفس الدرجة من الأهمية حيث أنها تمثل وسائل للتخفيف من الصراع بين الحاجات المتنافسة وموضوعات الأهداف وذلك عن طريق ترتيب التعبير عن تلك النزعات في أوقات مختلفة . وقد يستطيع الفرد عن طريق المخطط أن يعبر عن أهدافه المختلفة أقصى تعبير ممكن ، وإذا كان كفتا في انشاء المخططات فسوف يستطيع أن يقلل من كمية وشدة صراعاته الى حد كبير .

ولقد جمع موراي حديثاً بين البرامج المتتابعة والمخططات في اصطلاح الترتيب ordination الذي يضم عملية وضع الحطة كما يضم نتاج تلك العملية ايضاً انه برنامج مؤسس أو مخطط . ووفقاً لآراء موراي الحالية فان الترتيب عملية عقلية عالية على نفس مستوى المعرفة . ان هدف المعرفة هو ان فهم التصوري الكلي للبيئة ، ولكن بمجرد أن يصبح الموقف الخرجي مفهوماً يقدر كاف فان عملية الترتيب تفرض نفسها بهدف توفير وضع السياسة وتخطيط الاستراتيجية والتكيف .

القدرات والنتائج :

لقد أبدى موراي - على تقيض الكثيرين من علماء الشخصية- اهتماما مطردا بالقدرة وبالإنجاز واعتبر هاتين الصفتين جزءا هاما من الشخصية. وتؤدي تلك المكونات وطيفة مركزية في التوسط بين النزعات للفعل وبين النتائج النهائية التي توجه ناحيتها تلك النزعات . وفي جميع بحوث الشخصية التي قام بها موراي ، كان تقييم الأفراد يتم في مجالات مختلفة متنوعة من القدرة والإنجاز : بدنية ، وميكانيكية ، وقيادية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وشهوية ، وفكرية .

أبنية الشخصية :

إننا حتى لو سلمنا بأن الشخصية ظاهرة دائمة التغير فسوف تظل هناك ثوابت وأبنية معينة على مر الوقت ، وهي حاسمة في فهم السلوك . ولقد استعار موراي في عرضه لتلك الأبنية العقلية اصطلاحات الأنا ، والهو ، والأنا الأعلى من التحليل النفسي ، ولكنه أدخل بعض العوامل الخاصة المميزة في تطويره لتلك المفاهيم .

ويتفق موراي مع فرويد في النظر الى الهو بوصفه مستودعا للدفعات البدائية غير المتقبلة ، ففي الهو يوجد أصل الطاقة ومصدر كل الدوافع الفطرية والذات غير المبصرة ، وغير المطوعة اجتماعيا . وفوق ذلك ، يصر موراي على أن الهو يضم دفعات تحظى بقبول من الذات ومن المجتمع . ولتوضيح اختلافه عن نظرية التحليل النفسي التقليدية يقرر :

«لقد أصبح واضحا في الوقت المناسب لدى المحللين الآخرين - أن لم يكن لدى فرويد - أن مفهوم الهو لا يمكن أن يقتصر على الزمات التي لا تلقى تويلا .. ففي السنوات الأولى من العمر مثلا وحين لا يكون جوار الأنا قد وجد بعد أو على أحسن الأحوال يكون بالغ البدائية ، يكون العقل خلية من التلقائيات والانفعالات ، والحساجات اللاإرادية ، والتي لا يكون الكثير منها مقبولا لحسب لدى الطفل وانه خلال تلك السنوات المبكرة بل يظل مقبولا والاکثر من ذلك يشجع حضاريا طوال الحياة . وليس من الصواب القول بأن مصادر التنفس ، وتناول الطعام والخراج والتعبير عن الوجدان والسعي للسيطرة على البيئة وما الى ذلك إنما توجد في الأنا.. ويبدو من الأفضل أن نعتبر أن الهو يشكون من كل الطاقات والانفعالات

والحاجات الأساسية (القيمة - الموجه value-vectors) للشخصية
وبعضها مقبول تماما . - حين يبرهن بصورة مقبولة حضاريا فهو موضوع
مقبول حضاريا وفي مكان مقبول حضاريا وفي وقت مقبول حضاريا (موراي
وكلاكهون ١٩٥٢ ، ص ٢٢٤) .

ان الهو لا يحتوى على الدفعات نحو كل من الخير والشر مما فحسب
بل ان قوة تلك النزعات تختلف من فرد لآخر . وهكذا فان المهمة التي
تواجه مختلف الأفراد في ضبط أو توجيه نزعات الهو لديهم لا تتساوى
مطلقا من حيث الصعوبة .

لقد راينا كيف أن الهو في نظرية موراي ليس شريرا ومعاديا
للمجتمع تماما وفوق ذلك فليس الأنا مجرد جهاز كك أو كبت ، فهو
لا يمنع أو يكبت دفعات أو دوافع معينة فحسب بل ان الأكثر أهمية هو
أنه يجب أن يرتب وأن يضع المخططات وأن يسيطر على الطريقة التي يجب
أن تظهر بها الدوافع الأخرى . ويعتبر الأنا ، كما هو بالنسبة لنظرية
التحليل النفسى ، بمثابة العامل المركزي لتنظيم وتكامل السلوك ، ويهدف
جزء من هذا التنظيم على أى حال الى تيسير أو تشجيع التعبير عن دفعات
معينة في الهو . ان قوة وفعالية الأنا محدد هام لتوافق الفرد .

ويعتبر الأنا الأعلى في نظرية موراي ، كما هو في نظرية فرويد ،
بمثابة غرس حضارى . انه نظام فرعى مستدمج داخليا ويعمل على تنظيم
السلوك بنفس الطريقة التي سبق أن أدته بها المصادر الخارجة عن الفرد .
وتعمل تلك المصادر - التي يمثلها الوالدان أفضل تمثيل - ممثلة للحضارة
بحيث يمثل استدمج مواصفاتها داخليا حركة في اتجاه الاستدمج الداخلى
للمواصفات الحضارية . وتحدد طبيعة الأنا الأعلى الى حد كبير وفقا لأنواع
الخبرات المتعلقة بالوالدين وب نماذج السلطة التي يتعرض لها الفرد .
ويرى موراي أنه بالإضافة الى ذلك المصدر الهام للتأثير فان هناك أيضا
تأثير جماعات الاقران وأيضاً الاسهامات الهامة للشخصيات الادبية
والاسطورية . ان المعايير المكتسبة من تلك المصادر تستدمج داخليا وتعمل
بوصفها مصدرا للثواب أو العقاب طبقا لمضى اتفاق فصل الفرد مع هذه
المعايير .

ويرتبط الأنا المثالى ارتباطا وثيقا بالأنا الأعلى . ويتكون الأنا المثالى
من صورة مثالية للذات - أى الذات المأمولة ، أو مجموعة المطامح
اشخصية التي يسمى اليها الفرد .

«ان الأنا المثالي واحد من الأبنية العامة للشخصية ، وهو عدسود
تتكامل لتصور الشخص في أفضل مستقبل له» محققا كل مطالبه . وهو
بصورة أكثر تفصيلا ، مجموعة من البرامج المتناوبة لكل منها مستوى
مختلف من الطموح . ان الآتوات المثالية تتراوح على المدى الكبير من
المجرم المائل الى الحكيم الهادي، ويماد خلقها بشكل خيالي خلال النمو
استجابة لانماط تقدمها البيئية : نماذج اسطورية او تلوخيية او حية .
وهكذا يمكن ان يصور تاريخ الذات المثالية بوصفه سلسلة من التوحيدات
التخييلية من الأبطال ومن عبادتهم « موراي وكلاهمون ١٩٥٢ ، ص ٤٠ » .

وقد ينفصل الأنا المثالي تماما عن الأنا الأعلى كما في حالة الفرد الذي
يطمح في أن يكون ديلنجر (١) أو قد يرتبط تماما بالأنا الأعلى حتى أن الفرد
يتحرك نحو مطامحه الشخصية بطريقة تلتزم تماما بالحدود التي يعينها
مجتمعه . واذا ما ساد الأنا الأعلى وقمع الأنا المثالي فإن الشخص قد
يحاول حينئذ أن يخدم « إرادة الله » أو رفاهية المجتمع على حساب
التخل عن كل مطامحه الشخصية .

ومن المهم أن نلاحظ أن مفهوم موراي عن الأنا الأعلى والأنا المثالي
يكفل مدى للتغير وللتطور في السنوات التسالية للطفولة أكبر مما تكفله
نظرة التحليل النفسي التقليدية . وبين موراي أيضا أن الوظيفة الأولى
للأنا الأعلى هي دفع علاقات الزمن - المكان - الأسلوب - الموضوع للتعبير
عن مختلف الحاجات ، أي أن الفرد يستمتع داخليا من نماذج القدوة
المواصفات التي تحدد له متى يجب التعبير عن حاجة معينة ، وأين يجب
أن يعبر عنها ، وكيف يجب أن يعبر عنها ، وإلى أي الموضوعات يجب أن
توجه . وليس الأمر هو أن يكون الفرد عاجزا تماما عن التعبير عن حاجات
معينة بقدر ما هو أن يصبح قادرا على التعبير عن تلك الحاجات في ظروف
مقررة فحسب .

وتتغير العلاقات بين تلك الأبنية الثلاثة خلال التطور السوي فإذا
كان للهو السيطرة العليا في وقت ما فإن الأنا الأعلى ثم الأنا يصبح هما
في آخر أدوار حتمية . وفي أسعد الحالات ، يجتمع « أنا أعلى معتدل
مع أنا قوى مبدع وبارع» على السماح بالتعبير المناسب عن دفعات الهو في
ظل ظروف مقبولة حضاريا .

(١) احد رجال المخابرات المشهورة في امريكا - المترجم .

ديناميات الشخصية :

ان اكثر ما يميز اسمهامات موراي في النظرية السيكولوجية هو تأكيد كفاح الانسان وسعيه ورغباته ومطالبه وارادته . وقد يرى المرء بحق أن موراي يتخذ أساسا موقف علم النفس الدافعي . فالتركيز على العملية الدافعية يتفق تماما مع اعتقاد موراي بأن دراسة النزعات الموجهة للانسان هي المفتاح الى فهم السلوك البشرى .

•••• ان أهم شيء يمكن اكتشافه في الفرد •• هو الموجه أو الموجهات الفاتقة المد لنشاطاته سواء اكانت عقلية أم لفظية أم بدنية ، (موراي ١٩٥١ ، ص ٢٧٦) . وقد أدى اهتمام موراي بموجهات النشاطات الى أكثر نظم الابنية الدافعية تعقيدا وأدقها تحديدا في المسرح النفسى المعاصر . وتتكشف اهتماماته التصنيفية بوضوح في دأبه واستغراقه في تصنيف عناصر السلوك البشرى في ضوء محدداتها الكلمنة أو دوافعها .

ومن المؤكد أن موراي ليس أول من أكد بشدة على أهمية التحليل الدافعي، الا ان صياغاته تميز بعناصر عديدة ، فبينما انصبت الاتجاهات السائدة في علم النفس الى التبسيط والى الاقلال من عدد المفاهيم ، اصر موراي على أن الفهم الملائم للدافع البشرى - يجب أن يعتمد على نظام يستخدم عددا كبيرا وكافيا من المتغيرات حتى يعكس - جزئيا على الأقل - التعقيد الهائل للدوافع البشرية في صورتها الفجة . ولقد بذل موراي أيضا محاولات جادة للوصول الى تعريفات تجريبية لمتغيراته وهي ان لم تكن وافية فهي على الأقل قد تجاوزت الى حد كبير الفعالية الاجرائية لمعظم المخططات السابقة في مجال الدافعية البشرية . وكان نتاج تلك المحاولات مجموعة من المفاهيم تجاسرت على محاولة سد الثغرة بين الوصف الاكينيكي وبين متطلبات البحث التجريبي .

وينبغي عند تناولنا لنظرية موراي في الدافعية أن نبدأ بمناقشة مفهوم الحاجة need :لدى كان منذ البداية محور تصوراته النظرية ، ثم نتبع ذلك بمناقشة المفاهيم المرتبطة به مثل الضغط Press والتخفف من التوتر tension reduction والموضوع thema وتكامل الحاجة من need-integrate ووحدة - الموضوع unity-thema والسيولة regnancy وسوف نعود أخيرا الى مفهومى موراي في القيمة value والموجه Vector اللذين يمثلان تحولا أكثر حداثة في نظرياته .

الحاجة :

برغم أن مفهوم الحاجة قد اتسع استخدامه في علم النفس، فلم يسبق لصاحب نظرية آخر أن وضع هذا المفهوم موضع التحليل الدقيق أو قسم مثل هذا التصنيف الكامل للحاجات كما صنع موراي . وتتضح تفاصيل تحليل موراي لهذا المفهوم من تعريفه :

« الحاجة مركب (تخيل مناسب أو مفهوم فرضي) يمثل قوة ... في منطقة المخ ، قوة تنظيم الإدراك ، والتفهم ، والتنقل ، والنزوع؛ والفعل بحيث تحول الموقف القائم غير المشبع في اتجاه معين . وتستثار الحاجة أحيانا استثارة مباشرة من جرد عمليات داخلية من نوع معين .. ولكن الأكثر شيوعا أن تستثار (في حالة الاستعداد) بوقوع واحد من تلك الضغوط القليلة التي يظن أن تكون ذات تأثير (قوى بيئية) .. وهكذا صبر من نفسها بدلها الكائن إلى البحث عن أنواع معينة من الضغوط أو إلى تجنب الاستطدام بها أو - إذا ما حدث الصدام - إلى الإفشاء والاستجابة إليها .. وكل حاجة يصبحها توجها شعورا أو انفعال خاص وتزوع إلى استخدام أساليب معينة .. لتدمج مجاهها - وهي قد تكون ضعيفة أو قوية ، مؤقتة أو مستمرة . ولكنها عادة ماثناب وتؤدي إلى نمط معين من السلوك الظاهر (أو التخيلي) والذي .. يثير الظروف البادئة بطريقة تكفل للموقف نهاية تهيده (تسكن أو ترضى) الكائن » (موراي ١٩٢٨ ، ص ١٢٢ - ص ١٢٤) .

ونجد في هذا التعريف أن مفهوم الحاجة - شأنه شأن مفهوم الشخصية - يعتبر حالة مجردة أو فرضية ولكنه بالرغم من ذلك ، يرتبط بالعمليات الفسيولوجية الكامنة في المخ . ويتصور موراي كذلك أن الحاجات إما أن تستثار داخليا وإما أن تأخذ في التحرك نتيجة لتنبيه خارجي . وفي أي من الحالتين تؤدي الحاجة إلى نشاط من جانب الكائن ويستمر ذلك النشاط حتى يتغير موقف السكان - البيئة بحيث تقل الحاجة . ويصاحب بعض الحاجات انفعالات أو مشاعر خاصة ، وكثيرا ما ترتبط بأفعال أدائية معينة ذات أثر في أحداث الحالة النهائية المرغوبة .

ويقرر موراي أنه يمكن الاستدلال على وجود الحاجة على أساس :

- ١ - أثر السلوك أو نتيجته النهائية . ٢ - النمط أو الأسلوب الخاص للسلوك المتضمن ٣ - الانتباه الانتقائي والاستجابة لنوع خاص من موضوعات التنبيه ٤ - التعبير عن انفعال أو وجدان خاص ٥ - التعبير عن الإشباع حين يتحقق تأثير خاص أو الضيق حين لا يتحقق ذلك التأثير

(١٩٣٨ ، ص ١٢٤) . وتعتبر التقارير الدائرية بالنسبة للشاعر والمقاصد والأهداف بمثابة محكات إضافية . واتباع التعريف العام والحك المشار إليه لاستنباط أو لتصنيف الحاجات ونتيجة للدراسة المتعمقة لعدد صغير من المفوضين توصل موراي الى قائمة مؤقتة تتكون من عشرين حاجة من الحاجات . وبرغم أن تلك القائمة كانت عرضة لكثير من التحوير والتفصيل فان الحاجات العشرين الأصلية ما زالت قائمة الى حد كبير . ولقد قدم موراي هذه المنفردات في كتاب استكشافات في الشخصية (١٩٣٨) ومعها الخطوط العامة للحقائق المناسبة المتعلقة بكل حاجة ، بما في ذلك فقرات الاستبيان لقياس الحاجة ، والانفعالات المصاحبة لها وشرح بالأمثلة لها . ويشمل الجدول رقم ١ عرضاً وتعريفاً موجزين للحاجات العشرين .

الجدول رقم ١

قائمة توضيحية للحاجات لدى موراي (١)

تعريف موجز	الحاجة
الحضوع في سلبية لقوة خارجية . تقبل الايذاء ، والتأنيب ، والنقد ، والعقاب . الاستسلام .	التحقير Abasement
الأذعان للقدر . التسليم بانضعة ، أو الخطأ ، أو المخالفة ، أو الهزيمة . الاعتراف والتكفير . تأنيب أو تصغير أو تشويه الذات ، البحث عن الألم والعقاب والمرض وسوء الحظ والاستمتاع بها .	
تحقيق شيء صعب . التحكم في الموضوعات الفيزيقية أو الكائنات البشرية ، أو الأفكار وتناولها أو تنظيمها . اداء ذلك بأكبر قدر ممكن من السرعة والاستقلالية . التغلب على العقبات وتحقيق مستوى مرتفع . التفوق على الذات . منافسة الآخرين والتفوق عليهم . زيادة تقدير الذات عن طريق الممارسة الناجحة للمقدرة .	الإنجاز Achievement

الانتماء Affiliation	الاقتراب والاستمتاع بالتعاون أو التبادل مع آخر حليف (آخر يحب الشخص أو يشبهه) • الحصول على اعجاب وحب موضوع مشحون انفعاليا • التمسك بصديق والاحتفاظ بالولاء له •
العُدوان Aggression	التغلب على المعارضة بالقوة • القتال • النار لأذى • مهاجمة أو إيذاء أو قتل آخر • معارضة آخر بالقوة أو معاقبته •
الاستقلال الذاتي Autonomy	الحصول على الحرية والتخلص من المواقف والانطلاق من الحصار • مقاومة التمسك والتقييد • تحاشي النشاطات التي تفرضها السلطات المسيطرة أو التخلى عنها • الاستقلال والحرية في التصرف وفقا للدافع • عدم الارتباط وعدم تحمل المسؤولية • ازدياد العرف.
المضادة Counteraction	السيطرة على الفشل أو مواجهته بالنضال من جديد • ازالة آثار الاذلال بالعمل المستمر • التغلب على الضعف ، وكبت الخوف • ازالة اثر الخزي بالعمل • البحث عن العقبات والصعوبات لتذليلها • الاحتفاظ بالكبرياء واحترام الذات في مستوى رفيع •
الدفاعية Defendance	الدفاع عن الذات ومواجهة الاهانة والنقد والتأنيب . اخفاء أو تبرير الاساءة أو الفشل أو الدلة • تدعيم الأنا •
الانقياد Deference	الاعجاب بالرئيس ، وتأييده • الثناء أو التكريم أو المدح • الاذعان في حماسة لتأثير آخر حليف • الاقتداء بمثل • الانصياع للعادة •
السيطرة Dominance	تحكم المرء في بيئته البشرية • التأثير في سلوك الآخرين أو توجيههم بالإيحاء أو بالاغراء أو بالاقناع أو بالأمر • الثنى عن المقصد ، أو التقييد ، أو المنع •
المرض Exhibition	احداث انطباع • أن يكون المرء مرثيا ومسموعا • أن يثير الآخرين أو يستثير اعجابهم أو يبههم أو يبهجهم أو يصددهم أو يستثير اهتمامهم أو يسليهم أو يستميلهم •

تجنب الألم ، والأذى الجسماني ، والمرض ، والموت . الهرب من الموقف الخطر • اتخاذ اجراءات وقائية •	تجنب الأذى Harm avoidance
تجنب المذلة • الابتعاد عن المواقف المحرجة أو تجنب الظروف التي قد تؤدي الى التصغير : الازدراء أو السخرية أو عدم المبالاة من جانب الآخرين • الكف عن العمل بسبب الخوف من الفشل •	تجنب المذلة Infavoidance
التعاطف مع موضوع عاجز وارضاء حاجاته : طفل أو أى موضوع ضعيف أو متعب أو غير قادر أو تنقصه الخبرة أو عاجز أو مهزوم أو محتقر أو وحيد أو مهموم أو مريض أو مضطرب العقل . مساعدة موضوع في خطر • التغذية والمساعدة والعون والمواساة والحماية والتيسير والتعريض والإبراء •	العطف على الآخر Nurturance
وضع الأشياء في نظام • تحقيق النظافة والترتيب والتنظيم والتوازن والدقة والالتقان والاحكام •	النظام Order
العمل بقصد اللهو ودون هدف أبعد • حب الضحك والتنكيت • البحث عن التخفف المتع من العناء • المشاركة في الألعاب ، والرياضات ، والرقص ، وحفلات الشراب ، ولعب الورق •	اللعب Play
أن يعزل الفرد نفسه عن الموضوع المشحون سلبيًا • استبعاد أو إهمال أو طرد أو عدم الاكتراث بموضوع خفيض • صد موضوع أو الاعراض عنه •	النبذ Rejection
البحث عن الانطباعات الحسية والاستمتاع بها •	الإحساسية Sentience
اقامة وتنمية العلاقة الشهوية • ممارسة الاتصال الجنسي •	الجنس Sex
ارضاء حاجات المرء عن طريق تلقى العون المتعاطف من موضوع حليف • أن يحصل المرء على التعريض والعون والدعم والاحتضان والحماية والمحبة والنصح والارشاد والتسامح والمغفرة والمواساة • البقاء ملتصقا بمن	العطف من الآخر Succorance

يخلص في حمايته . أن يكون هناك من يقدم له العون
دوماً .

الفهم
Understanding
توجيه أسئلة عامة أو الاجابة عنها . الاهتمام بالنظرية
والتأمل ، والصياغة ، والتحليل ، والتعميم .

الانكاح الحاجات :

لقد رأينا كيف يعرف موراي الحاجة واختبرنا المحكات التي يقدمها
تجديدا لها ، ورأينا قائمة ممثلة للحاجات . ومن المهم بالإضافة الى ذلك
أن ننظر في أساس التمييز بين مختلف أنماط الحاجات . فهناك :

أولا التفرقة بين الحاجات الأولية والحاجات الثانوية وتربط
الحاجات الأولية أو ذات الأصل الحشوي visceral بوقائع عضوية
مميزة وترجع تماما الى اشباعات بدنية . ومن أمثلة هذه الحاجات
الأولية : الحاجة الى الهواء والماء والطعام والجنس والرعاية والتبرؤ .
أما الحاجات الثانوية أو ذات الأصل النفسي فيفترض أنها تشتق من
الحاجات الأولية وأنها تتميز بعدم وجود صلة مركزية بينها وبين أى
عمليات عضوية معينة أو باشباعات بدنية . ومن أمثلة هذه الحاجات :
الحاجة الى الاكتساب والبناء والانجاز والتقدير والعرض والسيطرة
والاستقلال والافتقار .

وثانيا لدينا التفرقة بين الحاجات الظاهرة overt needs والحاجات
الباطنة covert needs أى الحاجات الواضحة والحاجات الكامنة . ونحن
نميز هنا بين تلك الحاجات التي يسمح لها بقدر يزيد أو يقل من التعبير
المباشر والغورى وبين تلك التي تقيد أو تكف أو تكبت بصامة . ويمكن
القول : ان الحاجات الظاهرة تعبر عن نفسها عادة فى سلوك حركى على حث
تنتمى الحاجات الباطنة عادة الى عالم التخيل والأحلام . والحاجات الباطنة
توجد الى حد كبير نتيجة نمو الأبنية المستمجة (الأنا الأعلى) والتي تحدد
السلوك الملائم أو المقبول . وهناك حاجات معينة لا يمكن السماح لها بالتعبير
الحرس دون الخروج على العرف أو المعايير التي ينقلها الولدان عن المجتمع
وغالبا ما تعمل هذه الحاجات على المستوى الباطن .

وثالثا ، هناك الحاجات المتركرة Focal needs والحاجات المنتشرة
diffuse needs فبعض الحاجات يرتبط ارتباطا وثيقا بأنواع محدودة من
الموضوعات البيئية ، على حين يسم البعض الآخر بحيث يمكن استخدامه غالبا

فى أى موقف بينى . يشير موراي الى انه ما لم يكن هناك بعض التثبيت غير العادى ، فان الحاجة تكون عرضة دائما لتغيير الموضوعات التى تتجه نحوها والطريقة التى تعالج بها هذه الموضوعات . أى ان دائرة الوقائع البيئية التى تناسب الحاجة قد تتسع أو تضيق ، وان الأفعال الأداة المرتبطة بالحاجة قد تتزايد أو تتناقص . وإذا ما ارتبطت الحاجة ارتباطا شديدا بموضوع غير مناسب فان ذلك يسمى تثبيتا وهو عادة يعتبر مرضيا . وعلى أى حال فكما أوضح موراي قد يكون عجز القدرة عن اظهار أى تفضيل مستمر لموضوع مرضيا بنفس القدر الذى يكون به التثبيت .

ورابعا ، هناك حاجات إيجابية مبادرة Proactive needs وحاجات استجابية reactive needs والحاجة الإيجابية هى تلك التى تتحدد عموما من الداخل ، أى تلك التى تصبح « حركية تلقائيا » نتيجة شئ فى الشخص أكثر من أن تكون نتيجة شئ فى البيئة . أما الحاجات الاستجابية فهى - من الناحية الأخرى تنشط نتيجة لبعض وقائع البيئة أو استجابة لها . وهنا تكون التفرقة عموما بين الاستجابة التى يستثيرها تنبيه مناسب ، وبين الاستجابة التى تحدث دون أن يطرأ أى تغيير هام على المنبه . وقد استخدم موراي تلك المفاهيم أيضا لوصف التفاعل المتبادل بين شخصين أو أكثر حيث يمكن عادة تبين أحد الشخصين بوصفه إيجابيا مبادئا (يبادىء التفاعل ويوجه الأسئلة) ويقوم عموما بتقديم المنبه الذى يتعين على الآخر الاستجابة له (وتبين الآخر بوصفه استجابيا) يستجيب للمنبهات التى يقدمها الإيجابى المبادىء) .

وخامسا ، هناك لتفرقة بين حاجات الأداء Process activity وحاجات الكمال modal needs وحاجات النفع effect needs وعلماء النفس الأمريكيون بتأكيدهم التقليدى على الوظيفة والمنفعة قد أكدوا باستمرار على حاجات النفع - أى الحاجات التى تؤدى الى حالة أو نتيجة نهائية مرغوب فيها . ولكن موراي قد أصر على أنه يتساوى مع حاجات النفع فى الأهمية كل من حاجات الأداء وحاجات الكمال أى التزعة الى أداء أعمال معينة بهدف الأداء فى حد ذاته . ويطلق اسم حاجات الأداء على القيام بمختلف العمليات العشوائية غير المنسقة وغير الوظيفية (الرؤية ، والسمع ، والفكر ، والكلام ، وما الى ذلك) وهى عمليات تبدأ منذ الميلاد وتستمر بعد ذلك ، ووظيفتها مجرد المتعة ، وتؤدى بهدف الأداء .

• ان الخليط الفوضى غير النسق الى حد ما من عمليات عقلية مؤقتة وقصيرة العمر تمر بمرى السنين خلال فترات الراحة واحلام اليقظة فى طرف قص ، وخلال نترات الهياج الانفعالى الشديد

او الجنونى فى الطرف القصى الآخر ، هذا الخليط أساسى واولى يقدر
 اكبر مما تنسب به الأنشطة المتكاملة الهادفة . ولقد اطلقنا اصطلاح
 « حاجات الاداء » على ذلك الخليط المتناثر من الطاقة التلقائية
 المتساوية لغير الحكومة برغم انها مبررة . انه الوجود الخالص اى الحالة
 التى يتحرك فيها العقل بطريقته الفطرية الخاصة لتحقيق منته
 الذاتية . ويشمن ان تصور انطلاق حيوية متحررة ومابتة وغير مسؤولة
 يتم الاستمتاع بها فى حد ذاتها » .

(موراي وكلايهون ١٩٥٢ ، ص ٣٧)

ومن ناحية أخرى تتضمن حاجات الكمال أداء شيء على درجة معينة
 من الامتياز والجمودة وما زال النشاط هو الذى يجرى البحث عنه
 والاستمتاع به ولكنه الآن يكافأ فقط حين يؤدي بدرجة معينة من الكمال .
 وتشبع تلك الحاجات بوساطة :

« ... امتياز الشكل (الاتماط الموسيقية ، الوضوح والتناسك
 المنطقى ، العادات الاجتماعية الخيرة ، الكفاية الادارية بسفها لنا ،
 الانانة اللفظية ؛ جمال الجسم والحركة) وهى تختلف من حاجات الاداء
 يقدر ما تتطلبه من تعبيرات يتحقق لها الكمال ولا يمكن تحقيق اغلبها الا
 بالاجتهاد والانظام فى الممارسة » (موراي ١٩٥١ ، ص ٤٤٦) .

العلاقة المتبادلة بين الحاجات : من الواضح أن الحاجات لا تعمل كل
 منها فى عزلة تامة عن الأخرى وأن لطبيعة هذا التفاعل أو التأثير المتبادل
 أهمية نظرية فائقة . ويوافق موراي على حقيقة أنه يوجد تدرج معين
 (هيراركية) للحاجات تأخذ فيه نزعات معينة أسبقية على أخرى .
 ويستخدم مفهوم أولوية القوة Prepotency للدلالة على الحاجات التى
 «تصبح سائدة فى الحاح كبير اذا لم تشبع» (موراي ١٩٥١ ، ص ٤٥٢) .
 وهكذا فى المواقف التى تستثار فيها حاجتان أو أكثر فى نفس الوقت
 وتطلبان استجابات متناقضة فان الحاجة ذات الأولوية (كالآلم والجوع
 والعطش) هى التى تترجم عادة الى عمل لانه لا يمكن تأجيلها . ومن
 الضرورى تحقيق حد أدنى من الإشباع لئلا تلك الحاجات قبل ان تتمكن
 الحاجات الأخرى من العمل . ويستخدم موراي عادة فى دراساته فى
 الشخصية مجموعة من المفاهيم لتوضيح الصراع conflict الذى يشمل
 الحاجات الهامة . وهكذا فمن الشائع فى بعونه أن يقيم كل فرد من
 أفراد البحث من حيث شدة الصراع فى مجالات رئيسية معينة مثل
 الاستقلال فى مقابل الانعاز والانجاز فى مقابل المتعة .

وتحت ظروف معينة ، قد تشبع حاجات متملدة بأسلوب ملرد من العمل . ويتحدث موراي عن التماس fusion الحاجات حين يكون للحاجات المختلفة نفس النتائج السلوكي . ويشير مفهوم التبعية subsidiation إلى نوع هام آخر من العلاقات بين الحاجات . فالحاجة التابعة هي تلك التي تعمل في خدمة حاجة أخرى ، فمثلا ، قد يبدي الشخص حاجات عدوانية ولكنها قد تكون مستخدمة فحسب لتيسير حاجات اكتسابية . وفي أى حالة يكون عمل أى حاجة مجرد وسيلة لاشباع حاجة أخرى فاننا نتحدث عن الحاجة الأولى بوصفها تابعة للأخرى . وقد يكون لتتبع سلاسل التبعية فائدة أعظم في اظهار دوافع الشخص السائدة أو الجذرية .

لقد اخترنا الآن بأسلوب مؤقت الأسلوب الذى اختار موراي أن يمرض من خلاله الدافعية لدى الفرد . ولكن هذه الدوافع الشخصية على رباط وثيق بالوقائع التي تحلت خارج الفرد . ويبقى علينا أن نتبين الطريقة التي يقترحها موراي لمرض تلك الأحداث البيئية ذات الدلالة . ويحق للمرء أن يعترض على تقرير مناقشة الوقائع البيئية في قسم مخصص « لديناميات السلوك » ولكن حالة الدافعية لدى الفرد تتضافر تماما في رأى موراي مع القوى البيئية العاملة بحيث يصبح الفصل بينهما فى معالجتنا تحريفا خطرا .

الضغط Press

إذا كان مفهوم « الحاجة » يمثل المحددات الجوهرية للسلوك داخل الشخص فإن مفهوم « الضغط » يمثل المحددات المؤثرة أو الجوهرية للسلوك فى البيئة . والضغط فى أبسط معانيه صفة أو خاصية لموضوع بيئى أو لشخص تيسر أو تعوق جهود الفرد للوصول الى هدف معين . وترتبط الضغوط بالأشخاص أو الموضوعات التي لها دلالات مباشرة تتعلق بمحاولات الفرد لاشباع متطلبات حاجته . « ان ضغط الموضوع هو ما يستطيع أن يفعله فى امر ما للشخصى - أى انه القوة التي تتوفر لدى الموضوع لتؤثر فى رفاهية الشخص بطريق أو بآخر » . (١٩٢٨ ، ص ١٢١) . والباحث من خلال تمثيله للبيئة فى صورة ضغوط يأمل لاستخلاص وتصنيف الأجزاء الهامة فى العالم والتي يعيشها الفرد . ومن الواضح أننا سوف نعرف قدرا أكبر مما نعرفه عما يحتمل أن يفعله

الفرد اذا ما كانت لدينا صورة لا عن دوافعه ونزعاته الموجهة فحسب ، بل أيضا صورة عن الطريقة التي يرى ويفسر بها بيئته . وتهدف مفاهيم الضغط الى تحقيق تلك الوظيفة الأخيرة .

لقد قدم موراي قوائم مختلفة للضغوط لأغراض معينة ومن أمثلتها ذلك التصنيف الذي يتضمنه الجدول رقم (٢) الذي صمم لعرض الوقائع أو التأثيرات الجوهرية في الطفولة . ومن الناحية العملية لا يقتصر تعريف تلك الضغوط بوصفها عاملة في خبرة فرد معين ولكنها تعطى أيضا تقديرا كميا للدلالة على قوتها أو على أهميتها في حياة الفرد .

الجدول رقم (٢)

قائمة مختصرة للضغوط (١)

- ١ - ضغط نقص التأييد الأسرى .
 - (أ) التنافر المضاري .
 - (ب) التنافر الأسرى .
 - (ج) التأديب المتقلب .
 - (د) انفصال الوالدين .
 - (هـ) غياب أحد الوالدين (الأب ، الأم) .
 - (و) مرض أحد الوالدين (الأب ، الأم) .
 - (ز) وفاة أحد الوالدين (الأب ، الأم) .
 - (ح) دونية أحد الوالدين (الأب ، الأم) .
 - (ط) تباين الوالدين (الأب ، الأم) .
 - (ي) الفقر .
 - (ك) عدم الاستقرار المنزلي .

(١) نقلا عن موراي ١٩٢٨ ، ص ٢٦١ - ص ٢٦٢ .

- ٢ - ضغط الأخطار والكوارث .
- (أ) الطبيعة ، المرتفعات
 - (ب) الميساه
 - (ج) الوحدة والظلام
 - (د) الجبر القاسى ، البرق
 - (هـ) الحريق
 - (و) الحوادث
 - (ز) الحيوانات
- ٣ - ضغط النقص أو الضياع .
- (أ) فى التفلية
 - (ب) فى المتلكات
 - (ج) فى الصحبة
 - (د) فى التنوع
- ٤ - ضغط الاحتجاز ، الموضوعات الكابحة .
- ٥ - ضغط النبذ ، وعدم الاهتمام ، والاحتقار .
- ٦ - ضغط الخصوم ، الأقران المتنافسين .
- ٧ - ضغط ولادة أشقاء .
- ٨ - ضغط المدوان .
- (أ) سوء معاملة من جانب الذكر الأكبر أو الأثنى الكبرى سناً .
- (ب) سوء معاملة من جانب الأقران
 - (ج) الأقران المشاغبيين
- ٩ - ضغط السيطرة والقسر والمنع .
- (أ) التأديب
 - (ب) التدريب الدينى
- ١٠ - ضغط المطف على الآخر ، التسامح .

١١ - ضغط المطف من الآخر ، طلب الرفق .

١٢ - ضغط الاتقياد ، المدح ، التقدير .

١٣ - ضغط الانتماء ، الصداقات .

١٤ - ضغط الجنس .

(أ) العرض .

(ب) الاغراء : الجنس المثلئ ، الجنس الخفى .

(ج) الاتصال الجنسي بين الوالدين .

١٥ - ضغط المخاللة أو الخداع .

١٦ - ضغط الدونية .

(أ) بدنياً .

(ب) اجتماعياً .

(ج) فكرياً .

ومن المهم أن نميز بين دلالة الموضوعات البيئية كما يدركها الفرد ويفسرها (صفوط بيتا Beta Press) وبين خصائص تلك الموضوعات البيئية كما توجد في الواقع أو كما يظهرها البحث الموضوعي (صفوط ألفا Alpha Press) ويرتبط سلوك الفرد غالباً ارتباطاً وثيقاً بصفوط بيتا ، ولكنه من المهم برغم ذلك اكتشاف المواقف التي تتسع فيها الشقة بين صفوط بيتا التي يستجيب لها الفرد وبين صفوط ألفا الموجودة بالفعل .

الشحنة الانفعالية والمطافة Cathexis and sentiment يتبنى موراي

الاصطلاح الفرويدي التقليدي « الشحنة الانفعالية » للدلالة على قدرة موضوع بيئي على اجتذاب الفرد أو على صده . ويقال بوجود شحنة ايجابية اذا ما كان الفرد يحب أو اذا كان منجذباً الى موضوع معين على حين توجد الشحنة السلبية حين يستثير الموضوع الكراهية والتجنب . وفي الحالات التي يكون فيها الموضوع جاذباً ومنفراً معاً ، فان الفرد يوصف بأنه متناقض وجدانياً تجاه الموضوع .

ويمثل مفهوم « المطافة » طريقة مختلفة للنظر الى نفس الظاهرة ،

فبينما تدل الشحنة على قدرة الموضوع على جذب أو الصده ، تدل المطافة على النزعة داخل الفرد الى أن يتجنب أو الى أن يجنب الى موضوعات معينة

أو أن يصد عنها . ويعرف موراي العاطفة بأنها : « نوعة مستهجرة الى حد كبير أو قليل .. في الشخصية الى الاستجابة بوجودان ايجابي أو سلبي لكيان محدد » (موراي ومورجان ١٩٤٥) . وحين يكون الباحث مهتما أساسا بالموضوع فإنه يستخدم عادة مفهوم الشخصية ولكن حين يكون تركيزه على الفرد فان مفهوم العاطفة يكون هو المفضل عادة .

ويقدم كتاب دراسة اكلينيكية في العواطف (موراي ومورجان ١٩٤٥) تقريرا عن دراسة متعمقة لأحد عشر مفحوصا ، وقد تركزت الدراسة حول العواطف نحو الحرب والدين والوالدين والجنس والمرء أن يرى عن حق أن موراي في هذه الدراسة قد وسع مفاهيم الشحنة والعاطفة حتى أصبح من الممكن تطبيقها على أي شخص أو موضوع أو فكرة يمكن أن يكون للفرد تعامل معه . وهو أيضا يهتم بالعلاقة بين الشحنة والعاطفة وبين المفاهيم النفسية التقليدية الأخرى ويقترح عددا من الصفات وانتميزات المتعلقة بدراسة وفهم تلك الجوانب من السلوك .

تخفيف التوتر Tension Reduction .

لقد سبق أن رأينا أن موراي يتصور أن الفرد يهيا للعمل بمجموعة معقدة من الدوافع . وهو يسلم بالاضافة الى ذلك بأنه حين تستثار الحاجة، فان الفرد يكون في حالة من التوتر ، وأن اشباع الحاجة يتضمن تخفيفا للتوتر . وأخيرا فان الكائن سوف يتعلم ملازمة الموضوعات واداء الأعمال التي سبق أن وجد أنها ترتبط بتخفيف التوتر .

وبرغم أن هذه الصياغة المألوفة تلقى قبولا لدى موراي ، فإنه يعترض بأنها صورة ناقصة . فالفرد لا يتعلم فقط الاستجابة بالطريقة التي تخفف التوتر وتجلب الاشباع ولكنه يتعلم أيضا الاستجابة بالطريقة التي تنمي التوتر حتى يمكن تخفيفه فيما بعد .

« من المهم أن نلاحظ أن حالة انعدام التوتر ليست - كما افترض فرويد - أكثر الحالات بعمق اشباعا للكائن سوى ، بل أن عملية تخفيف التوتر . ولو تساوت بنية السوائل ، تناسب درجة الاشباع على وجه التقريب مع مقدار التوتر الذي يخفف في كل وحدة زمنية .. ان حالة انعدام التوتر قد تكون أحيانا الشيء التالي في حالة من يعانون من القلق الزمن أو الذئب أو الضيق أو احباط حائل الجنس . ولكن على سبيل القاعدة ، فان غياب تولد الحاجة الإيجابية - لا شهية ولا لفسول ولا رغبة في لعالة ولا حماس يكون أمرا محونا جدا .

وذلك يوجه انتباهنا الى حقيقة أن المسادلة التوتري - تخفيف التوتر
 تأخذ في احتيارها جانباً واحداً فقط من دورة الأيض **metabolic cycle**
 وهي نظى جانب الهدم **Catabolism** دون جانب البناء **anabolism**
 (وهو عبارة عن عملية النمو التركيبية التي لا تتجدد بها الأنسجة
 والمخاطات الكثانة فحسب بل لها ترايد بالفصل خلال الشب) . ان
 مبدأ الزان العمليات الحيوية يمثل المحافظة ولكنه لا يمثل البناء ...
 وتؤدي بنا تلك الامتبارات الى أن نقدم بصفة مؤقتة صياغة أكثر شمولاً
 وهي : توليد التوتر تخفيف التوتر . وتمثل هذه الصياغة نظماً
 توترياً من الحالات بدلاً من حالة النهاية . وتمثل طريقاً للحياة أكثر
 من أن تمثل هدفاً ، ولكنها تنطبق فقط على النظم الإيجابية للحاجات .
 أما النظم المحافظة الموجهة نحو الانسحاب ، والتجنب ، والدفاعات
 والمنع فإن قاعدة تخفيف - التوتر تنكسر بها تماماً . (موراي
 وكلاكون ١٩٥٢ ص ٣٦ - ص ٣٧)^{١١}

وهكذا فإن الاشباع أو اللذة يصاحبان التخفف من التوتر وقد
 يزيد الفرد من هذا الاشباع عن طريق زيادة مقدار التوتر الذي
 يتعين عليه أن يخففه . ويجب على المرء أن يلاحظ أن هذه الصياغة
 تنطبق فقط على حاجات النفع . وفي حاجات الأداء وحاجات الكمال
 يكمن الاشباع في النشاط وقد يكون من الشدة في البداية أو في الوسط
 كما هو في النهاية .

ويوافق موراي على افتراض أن الانسان إنما يتصرف بطريقة
 يقصد منها الى زيادة الاشباع وتخفيف التوتر . ولكن ، ذلك مقصد فقط
 أو اعتقاد من جانب الفاعل ولا يتحتم أن يؤدي الى تحقيق الفصل
 لهذا الهدف ، أي تخفيف التوتر والحصول على الاشباع . وفضلاً
 من ذلك فلن الانسان ليس مدفوعاً الى زيادة الاشباع بطلقة ، بل أن
 ما يحاول أن يخففه هو دائماً توتر خاص مرتبط بحاجة بعينها والاشباع
 بذلك يكون الى حد كبير محصلة أو نتاجاً لحالات الحاجة وهو أقربها
 السلوكية . وكما يقول موراي « ان الحاجة متغير أساسي وأن درجة
 الاشباع (hedone) هي أفضل المؤشرات لحالة تقدمها » (موراي
 وكلاكون ١٩٥٢ ، ص ١٨) .

ان الموضوع ببساطة هو وحدة سلوكية كلية تفاعلية تتضمن الموقف الحافز (الضغوط) والحاجة الناشطة . وهكذا فان الموضوع يتناول التفاعل بين الحاجات والضغوط ويسمح بنظرة أكثر شمولاً وأقل اجتزاءً للسلوك . ويمكن للمنظر بوساطة هذا المفهوم أن يصف المواقف التي تحفز أو تؤدي إلى تحريك حاجات معينة كما يمكنه من أن يصف نتائج أو محصلة تحرك تلك الحاجات أيضاً .

وتتنوع الموضوعات من تركيبات بسيطة مكونة من تفاعل واحد بين الذات - الموضوع إلى تركيبات أكثر عمومية وفجاجة من التفاعلات التي تستغرق وقتاً أطول وهي تركيبات تصف تجمع عدد من الموضوعات البسيطة (موضوعات متتابعة Serial themas) . والموضوع باعتباره وحدة تحليلية هو نتاج طبيعي لاعتقاد موراي بأن العلاقات الشخصية المتبادلة يجب أن تصاغ كوحدة زوجية dyadic unit أي أن النظر عليه إلا يقتصر على وصف الذات التي يركز اهتمامه عليها بل ينبئ عليه أيضاً أن يصف وصفاً شاملاً طبيعة الشخص الذي تتفاعل معه الذات وينبئ أن يبدي نفس القدر من الاهتمام بتفاصيل كل من الذات والموضوع إذا ما أراد أن يفهم طبيعة ومحددات السلوك فهما تماماً .

تكمّل الحاجة Need Integrate

برغم أن الحاجات لا ترتبط بالضرورة بموضوعات نوعية في البيئة فكثيراً ما يتوصل الفرد بخبرته إلى ربط موضوعات معينة بحاجات معينة وبالمثل فإن أشكالاً معينة من الاستجابة أو وسائل معينة للتقرب من الموضوعات أو تحاشيها قد تكتسب وترتبط بالحاجة . وحينما يتم ذلك التكمال بين الحاجة وبين صورة أو تصور الموضوع البيئي ، وكذلك الأفعال المؤدية إليه فإن موراي يستخدم تعبير تكمال الحاجة . وتكمال الحاجة هو استمداد موضوعي thematic disposition أي أنه حلجة إلى نوع معين من التفاعل مع شخص معين أو موضوع معين . ان انبعاث الحاجة في ظل الظروف المؤدية إلى مكانتها سوف يؤدي عادة بالشخص إلى أن يبحث بطريقة مناسبة عن الموضوع البيئي الذي يطابق الصورة التي كانت جزءاً من تكمال الحاجة .

الوحدة - الموضوع Unity-thema

ان الوحدة - الموضوع هي في الأساس نمط مفرد من الحاجات والضغوط المتعلقة بعضها ببعض والمشتقة من تلك الخبرة الطفلية التي تضي المعنى واتمسك على الجسائب الأكبر من سلوك الفرد ، وهي تعمل غالباً كقوة لا شعورية . وليس من الممكن في كل الأحوال الكشف عن الوحدة - الموضوع برغم أن المرء يمكنه عادة التوصل للقانون التطوري الذي يلقي الضوء على كل أو أغلب سلوك الفرد والذي لا يمكن بدون تنظيم سلوكه . ويشير موراي الى الوحدة - الموضوع لدى الإنسنان باعتبارها « مفتاح طبيعته الفريدة » ويقول :

« ان الوحدة - الموضوع هي مركب من حاجات سائدة تتشابك في تآزر أو في صراع ، وتربط بالضغوط التي سبق أن تعرض لها الفرد في مناسبة خاصة أو أكثر في طفولته المبكرة سواء كانت تلك الضغوط مشعبة أو صالحة ، وقد يمثل الموضوع خبرة طفلية أولية أو تكويناً عكسياً تالياً لتلك الخبرة ، ولكن مهما كان منشؤها أو طبيعتها نهي تكرر نفسها في العديد من الصور خلال الحياة فيما بعد» (١٩٢٨) ص ٦٠٤ - ص ٦٠٥ .

المليات السائدة Regnant Processes

ان العملية السائدة هي تلك المصاحب الفسيولوجي للعملية النفسية المسيطرة . وقد سبق أن رأينا في تعريف موراي للشخصية وكذلك في مناقشتنا لمفهوم الحاجة أنه يؤكد بشدة على أهمية المليات الفسيولوجية أو العصبية التي تكمن وراء الظاهرة موضوع اهتمام عالم النفس . ان هذا القصد الواضح الى وضغ أو ارجاع جميع المليات النفسية الى وظيفة المنخ قد أدى الى نشوء تصور خاص (السيادة) يهدف الى ابقاء تلك الوحدة بين المنخ والشخصية في مقدمة اهتمام المنظر . ويقول موراي في تعريف هذا المفهوم :

« قد يبدو من اللام ان تشير الى مليات الاعتماد المتبادل التي تكون المليات المسيطرة في المنخ بتعبير المليات السائدة ، وان تشير فعلاً من ذلك الى مجرع مثل تلك المليات التي تحدث في لحظة واحدة (قطاع وثقى موحد من مليات المنخ) بتعبير سيادة . ان الحاجة السائدة تحكم الكائن الى مدى معين » . (١٩٢٨) ص ٤٥) .

ويوضح موراي كذلك أن جميع العمليات الشعورية عملياتٌ سائفة ولكن ليست كل العمليات السائدة عمليات شعورية . وهكذا فإن الشعور إنما هو مجرد حاجة واحدة من خواص العملية النفسية المسيطرة ، وقد توجد أولا في حالة معينة . ويتفق تأكيد موراي على العوامل الفسيولوجية مع رغبته في تقبل العوامل الجبلية كعوامل تلعب دورا هاما في تحديد السلوك . وبرغم أن وجهة النظر هذه لم تلق تأكيدا كبيرا في كتاباته فإن نظرتة الى العوامل التكوينية والجبلية باعتبارها تلعب دورا هاما في السلوك تتضح في كثير من العبارات مثل فكرة توقع أن يكون الانصياع للمقتضيات الحضارية لدى بعض الانماط الجبلية ، اصعب منه لدى غيرها أو الإشارة الى أن الأفراد يختلفون من حيث قوة ميول الهو لديهم .:

خطة الموجه - القيمة Vector-value scheme

إن واحدا من أوجه القصور الرئيسية لمفاهيم الحاجة والضغط كما تم تفصيلها فيما سبق هو أنها لا تبدى اهتماما كافيا بدفائن السلوك أى بمدى ارتباط حاجات معينة بضغط خاصة وباحتياجات أخرى . حقيقة أن هناك مفاهيم التبعية ، وتكامل الحاجة ، والموضوع ، ولكن يصعب أحيانا تطبيق تلك المفاهيم . وعلى أى حال فهى محاولات لعلاج الأخطاء الناجمة عن طريقتة الأصلية في التحليل . ولقد بدل موراي أخيرا محاولات جادة لكي يصف بكفاءة أكبر ذلك التفاعل بين محددات السلوك . فأقام الحجة بشكل خاص على أن الحاجات تعمل دائما في خدمة بعض القيم أو بهدف تمهيد السبيل للوصول الى حالة نهائية . وبذلك فإن القيمة ينبئ أن تكون جزءا من تحطيل الدوافع .

«ظالما إن كلا من الملاحظة والخبرة تدعم حقيقة أن العنوان - مثل كل أنواع الوقائع الأخرى - له امر (وظيفة) يمكن تعريفه كأفضل ما يمكن من خلال بعض الكيانات القيمة valued entity (تركيبه أو بقائه أو التمييز عنه أو امادة خلقه) فإن اطلاق اسم على تلك الكيانات القيمة في التزامها بالإنشغال المهن يجب أن يسهم بقدر كبير في فهمنا لديناميات السلوك» (١٩٥١ ب ، ص ٢٨٨) .

يقترح موراي في هذا التخطيط الحديث أن الميول السلوكية ينبنى أن توصف من خلال الموجهات التي تمثل بدورها اتجاهات النشاط الفيزيقي أو السيكلوجي الرحبة . ان القيم التي تستخدمها تلك الموجهات انما تتمثل في سلسلة من مفاهيم القيم . ويرغم أن التخطيط لم ينجح تماما فان موراي قد قدم قوائم تجريبية للقيم والموجهات . وتتكون الموجهات من الرفض ، والاستقبال ، والاستحواذ ، والإنشاء ، والإبقاء ، والتعبير ، والانتقال ، والطرء ، والتنمير ، والدفاع ، والتحاوش . وتتكون القيم من الجسم (الصحة البدنية) ، والملكية (الأشياء النافعة والثروة) ، والسلطة (القدرة على اصدار القرار) ، والانتماء (الود انشخصى المتبادل) ، والمعرفة (الحقائق والنظريات والعلم والتاريخ) . والشكل الجمالى (الجمال والفن) والابدولوجية (نظام القيم ، والفلسفة ، والدين) . ويستهدف التطبيق أن تربط تلك الموجهات والقيم في مصفوفة من الأعمدة والصفوف المتقاطعة بحيث تمثل كل خلية في المصفوفة سلوكا مقابلا لوجه معين وفي خدمة قيمة خاصة . ويرغم أن نمو تلك المفاهيم يبعد كثيرا عن الاكتمال فقد عرض موراي لعمل القيم والموجهات في صورة مثل تلك المصفوفة بحيث تحتوى كل خلية امثلة أو صوراً للوقائع السلوكية التي تمثل عمل ذلك الوجه في خدمة تلك القيمة .

نمو الشخصية :

لقد درسنا حتى الآن تلك المجموعة المحكمة من المفاهيم التي قدمها موراي لوصف استعدادات الفرد أو مساعيه . ورأينا كذلك تلك المفاهيم التي اقترحها لوصف الوقائع البيئية الهامة . وهكذا أصبح ممكنا الآن أن نعرض الفرد في أى لحظة زمنية كمركب متكامل من الحاجات والصفوف أو الموجهات والقيم وفي نفس الوقت كبنائيات للشخصية وقدرات ومنجزات وعواطف . ولقد تعلمنا أيضا أن « تاريخ الكائن هو الكائن » ويشير ذلك بوضوح الى أن وصف الفرد في لحظة زمنية واحدة غير كاف ، فالدراسة الطويلة أمر على ابر جانب من الأهمية ، ولدى موراي الكثير ليقوله عن مسار النمو النفسى .

ان المتغيرات التي نعرضها لها يمكن أن تطبق بالطبع عند أى نقطة من نقاط النمو وبالإضافة لتلك المفاهيم فقد قام موراي باحكام وتنقية

مفهوم التحليل النفسى من المركب Complex بحيث يصف مجموعة ذات اهمية خاصة من خبرات الطفولة المبكرة . وبرغم ان تنظيرات التحليل النفسى تفوح بشدة من معالجة موراي للنمو فانه يقسم ابعادا جديدة في استخدامه لتلك المفاهيم . وقد كان خلافا على وجه الخصوص في ابتكاره لوسائل قياس بعض هذه المتغيرات الهامة .

وستبدأ في مناقشتنا للنمو بتناول المركبات الطفلية ثم نتبعها بتلخيص موجز لموقف موراي بالنسبة لموضوعات نظرية متنوعة تشمل المحددات الاجتماعية الحضارية ، وتفرد الفرد ، ودور العوامل اللاشعورية وعملية التنشئة الاجتماعى .

المركبات الطفلية :

اذا ما قبلنا حقيقة ان للوقائع التى تحدث مبكرا في حياة الفرد اهمية غير عادية كمحددات لسلوك الراشد ، فلسوف نجد مشكلة تجريبية تقترضها حقيقة ان تلك الوقائع انما تحدث غالبا قبل نمو اللغة . وبالتالي فان طرق التقييم والقياس العادية لا تكون مناسبة ويصبح على الباحث ان يعتمد على الملاحظة الخارجية للطفل وعلى عملية الاسترجاع المهوشة التى يمكن ان يقوم بها الفرد بعد ان تنمو اللغة لديه . وقد ادى الجمع بين هذين المصدرين للبيانات الى فصل مجالات معينة للخبرة لها اهمية خاصة بالنسبة لنمو الطفل ثم الراشد فيما بعد ، ويرى موراي ان تلك المجالات هي :

«... توجد خمس حالات او نشاطات شديدة الامتاع ، وكل منها ينهى او يعبط او يحدد (عند نقطة معينة من النمو) بواسطة توى خرفجية :

١ - الوجود الامن السلبى المتمد داخل الرحم (والذى تنبيهه بشراسة خيرة الولادة المؤلمة) .

٢ - الاستمتاع الحسى بانتصاص التغذية الجيدة من صدر الام (او من الزجاجية) اثناء الاستلقاء في امن واعتماد بين فرامبيا (ويسمى الى نهايته بالفطام) .

٣ - الاستمتاع بلا قيود بالاحاسيس للمسرة المصاحبة للبرز (وقتها تدريبات التظالم) .

٤ - الاضطرابات الحسية السفيرة المصاحبة للتبول .

• - الاضطرابات الاخالة التي يمثتها الميت بالامضاء التناسلية
(ولمنه التهديدات بالمقرب) « (١٩٣٨) ص ٣٦١ - ص ٣٦٢ .

لقد أشار المحللون النفسيون الى كافة تلك المجالات باعتبار انها
تتضمن مشكلات خاصة بالنسبة لنمو الطفل ، وتمثل اضافات موراي
هنا احكاما وتوضيحا لوجهات النظر الفرويدية التقليدية .

وفي تلك الحالات التي يتضح فيها تأثير وعمق تلك الخبرات الطفلية
على السلوك اللاحق ، نانا تكون بصدد ما يطلق عليه المركب Complex
ويقترض بالفعل أن لدى كل الأفراد « مركبات » تختلف من حيث شدتها
وأن ذلك لا يدل على شذوذ الا في الحالات المتطرفة فحسب ، ويدل
اصطلاح المركب لدى موراي على « تكامل دائم (مشتق من إحدى الحالات
المتعة التي أشرنا إليها آنفا) يحدد (لا شعوريا) مجرى النمو اللاحق »
(١٩٣٨ ، ص ٣٦٣) .

لقد قدم موراي تعريفا ومواصفات عامة لمقاييس خمسة مركبات
هي : الصومعى claustral والقمى ral والشرجى anal والتبسولي
urethral والمصائى custeration ويمثل كل منها نتاج وقائع تتضمن
أحد مجالات الخبرات السارة الحس التي حددناها فيما سبق . وتمثل
المركبات الصومعية بقايا خبرة الفرد الرحمية أو السابقة على الولادة .
وقد سبق للمحللين - ومنهم فرويد ورانك - تناول هذا المجال من الخبرة .
وقد جمع موراي بين تلك الآراء ونظمها ، وزاد من احكامها ،
ووضع لها عنوانا مناسباً وهو يرى أن هناك ثلاثة أنماط خلصة من
المركبات تندرج تحت هذا العنوان العام :

١ - مركب يتجمع حول الرغبة في الازداد الى حالات شبيهة بذلك
السائدة قبل الميلاد .

٢ - مركب يتركز حول القلق من العقاب التدميم ، وقلة الحيلة .

٣ - مركب يتجه بالحاح ضد الشعور بالاختناق والتقييد
(١٩٣٨ ، ص ٣٦٣) .

وبعد أن يقدم موراي ذلك التحديد العام للمركبات ، يستمر ليقدم
الأعراض والملاحظات التوضيلية في ضوء ما يمكن أن تعرف به تلك الأنماط
الثلاثة من المركب الصومعى فيتميز المركب الصومعى البسيط (الارتداد

الى الحالات الرجمية) : بالتعلق الانفعالي بالأماكن المخلقة (الأماكن الشبيهة بالرحم) وبالموضوعات اخذائية أو الأموية ، والموت ، والماضي ، ومقاومة التخير ، والحاجة الى السلبية ، وتحاشي الألم والانزالية وتلقى الطفل من الآخر . وهكذا فإن الصورة العامة تكون لشخص سليم معتمد يتجه نحو الماضي ويقاوم الجديد والتغيير عموما ، أما مركب الخوف من الفقر والتدعيم ، فيعبر عن نفسه في الخوف من الأماكن المفتوحة ، ومن السقوط ، ومن الفرق ، ومن الزلازل ، ومن الحريق ومن افتقاد التدعيم الأسرى ، أما مركب الانطلاق فيتعلق بالهرب والرحيل ويمسر عن نفسه في التعلق الانفعالي بالأماكن المفتوحة والهواء الطلق والحاجة الى التحرك والانتقال ، والتعلق الانفعالي بالتغيير ، والخوف المرضي من الأتكن المغلقة ، والحاجة الشديدة للاستقلال الذاتي ، وهكذا فإن التمرد الذي يظهر لديه هذا المركب يعد في أغلب جوانبه نقيض الذي يظهر المركب الصومعى البسيط وتصف المركبات القمية مشتقات من خبرات التغذية المبكرة ، ونجد هنا مرة أخرى أن موراي قد اقترح ثلاثة مركبات فرعية نوعية ، تشمل جميعها الفم ، وان كان كل منها يتضمن نوعا مميزا من النشاط ، ويتضمن مركب تلقي العطف الفمى من الآخر نشاطا قيميا مصحوبا بميول اعتمادية وسلبية ، ويمكن الاستدلال على وجود هذا المركب من الأنشطة الآلية القمية مثل المص ، والتعلق الانفعالي بالموضوعات القمية كالحلمة والثدى أو الإبهام ؛ والأكل والشرب الاجباريين ؛ والحاجة للسلبية وتلقى العطف من الآخر ؛ والتعلق الانفعالي بالكلمات وبالموضوعات المتعلقة بالتغذية ؛ وكف الحاجات العدوانية . أما مركب العدوان الفمى فيجمع بين النشاط الفمى والعدوان ويظهر في النشاطات القمية مثل العض ؛ والتعلق الانفعالي بالموضوعات القمية الصلبة (اللحم ، والعظام) والحاجات العدوانية القوية ، والتناقض الوجداني حيال أشكال السلطة ، واسقاط العدوان الفمى (ادراك البيئة بوصفها مليئة بالموضوعات القمية التي تمارس العض) ، والحاجة الى تحاشي الأذى ، والخوف المرضي من الموضوعات التي تضئ ؛ والتهتمة ، أما مركب التبدل الفمى فيتضمن البصق والاشترزاز من النشاطات والموضوعات القمية . وهو يظهر على وجه أكثر تخصيصا في العلاقة السلبية باطعمة معينة ؛ وقلة الحاجة للطعام ؛ والخوف من التهابات أو جروح الفم ؛ والحاجة الى النبذ ؛ والحاجة الى الانزالية والاستقلال الذاتي ؛ وكراهية موضوعات التغذية . وتستخلص المركبات الشرجية من الأحداث المرتبطة بفصل التبرز والتدعيم . علم الاخراج .

ويرى موراي - مثل فرويد وإبراهيم - أنه يوجد هنا مركبان نوعيان يتعلق أحدهما أساسا بالميل الى الطرد والآخر بالميل الى الإبقاء . ويشمل مركب التبلد الشرجي الاسهال ، والتعلق الانفصالي بالبراز ، ويشمل بالإضافة الى ذلك حاجة اللصوان الذي يتضمن بشكل خاص الشفب والتوسيع أو التلويت ؛ ونظرية الولادة الشرجية ، والحاجة الى الاستقلال الذاتي ؛ والجنسية الشرجية . ويتضمن مركب الإبقاء الشرجي ذلك التعلق الانفصالي الكامن بالبراز ، وان كان يتخفى وراء شعور ظاهر بالاستمزاز وتصنع الحياء ؛ ورد الفعل السلبي تجاه التبرز . ويرتبط هذا المركب أيضا بنظرية الولادة الشرجية والجنسية الشرجية وكذلك بالحاجة الى استقلال الذاتي برغم انه يتخل في هذه الحالة صورة مقاومة الإيحاء أكثر من اتخاذ صورة السعي في سبيل الاعتماد على النفس أو طلب الحرية ، وتكون هناك حاجة قوية للنظام والنظافة وحاجة أيضا للاحتفاظ بالمتلكات . ويؤكد هذا المركب بالطبع تلك الثلاثية الفرويدية الشهيرة « التقتير ، والنظافة ، والعناد » وهي صفات تعتبر نموذجيا « للخلق الشرجي » .

ولقد اعتبر موراي في البداية (١٩٣٨) أن المركب التبولي ذو أهمية أقل نسبيًا ، وقد أشار حينئذ الى أن المركب يتضمن بلل الفرائش ، والتلويت بالبول ، والشبقية التبولية . ولقد أقنعته بحوث ما بعد الحرب بالأهمية البالغة لذلك المجال من الخبرة لدى كثير من الأفراد ، وأخذ منذ ذلك الوقت في تقديم مزيد من الوصف لذلك المركب بالإضافة الى سلسلة من التدابير التجريبية لتقييمه ، برغم أن تلك المادة لم تنشر بعد حتى الآن! . وقد ذكر موراي أيضا أن تلك الزملة ينبغي أن تسمى مركب إيكاروس Icarus أي باسم ذلك الشخص الأسطوري الذي طار قريبا جدا من الشمس متحديا نصيحة والده مما أدى الى انصهار أجنحته الصناعية وسقوطه صريعا ، وقد نشر تاريخ تفصيلي لحالة إيكاروس الأمريكي (موراي ١٩٥٥) . وقد أشار موراي في نظرياته الحديثة الى أن الفرد الإيكاروسي النموذجي يتصف بصفات مثل التعلق بالنار ، والتاريخ البولي السابق ، والحنين الى الخلود ، والترجسية الشديدة ، والطموح الشاقق الذي يتحلل في مواجهة الفشل .

وقد حظى مركب الإخصاء في كتابات موراي المبكرة باهتمام يقل عما نالته المركبات الثلاثة الأخرى ، وهو يرى أن ذلك المركب ينبغي أن

يتخذ معنى أو دلالة أكثر محدودة مما يضيفه عليه عموماً المحللون
النفسيون :

« يبدو لنا من الأفضل أن نقرر اصطلاح مركب الاخصاء على
معناه العرفي أى الملقى التبعث من تعليل أن الاخصيب قد يقطع . وبرغم
انتشار حدوث ذلك المركب فإنه لا يمكن أن يكون هو الاصل لى كل المطلق
الصغير ، وهو يحدث عادة كنتاج للتخييلات المرتبطة بالاستتمه الطفليه
(١٩٢٨ ، ص ٢٨٥) .

لقد اضطررنا لضيق المساحة الى حذف مناقشة موراي التفصيلية
للروابط التجريبية بين تلك الصفات التى حددناها كصفات تشخيصية
لمختلف المركبات ، وتمثل تلك المجموعات من المتغيرات خلاصة بحوث
عديده ، وقد أضفى عليها موراي فى أثناء عرضه لها مزيداً من التسعيم
بالاعتبارات المنطقية والنظرية ، وقد أصبح من المعتاد فى فحوص موراي
الشخصية أن يتم ترتيب أو تقييم كل شخص فى ضوء أهمية كل من تلك
المركبات كمحدد لسلوكه .

المحددات الاجتماعية الحضارية :

لقد عمد موراي الى اسناد دور هام فى النمو الى العوامل البيئية ،
وهو بذلك يتعارض بوضوح مع أغلب اصحاب النظريات النابعة بشكل
وثيق من نظرية التحليل النفسى . ولقد سبق أن رأينا كيف أنه يتميز
عن أغلب من قاموا بدراسة الدافعية بتقديره مجموعة مفصلة من المفاهيم
(الضغوط) التى تستهدف وصف بيئة الفرد . وبالإضافة الى ذلك ،
فقد أشار مرارا الى حقيقة أن مجرى النمو لا يمكن فهمه بكفاءة دون توافر
صورة كاملة للوضع الاجتماعى الذى انبثقت العملية من خلاله . وتقد
تضمنت مفاهيمه عن الوقائع والموضوع thema باستمرار فكرة
تفاعلية ، هى الاعتقاد بأن الفهم الكامل للسلوك لن يتأتى الا حين يتم
اتضح كل من الذات والموضوع . ويتضح من كل تلك الاعتبارات أن
موراي يتقبل بل ويقوى من أهمية النظرة « المجالية » للسلوك .

وبرغم أن تأكيد على المجال قد سبق الفترة التى كان مرتبطاً خلالها
مهتياً بكللايد كلاهون ، فليس هناك من شك فى أن ذلك التصاون مع
صديقه عالم الانثروبولوجيا قد ساهم فى تعميم أفكاره عن المجال وفى

وضع بعض الاعتبارات التي أكثر تحديدا إلى حد ما وبالخاصة بالمتغيرات الحضارية والمتعلقة بالإنسية . وتحمل العبارة التالية لموراي وكلاهمون دليلا قويا على أفكار موراي في هذا المجال :

« ان الشخص هو وجود ضروري من ولي وسط فيزيقي اجتماعي وحضاري معين ، وهو لا يستطيع ان يظهر في حلة من مكانه او من حضارة الجماعة التي يكون عضوا فيها ، او من مكانته (دوره) في بنيان تلك الجماعة . ان كل شخص اما هو اساسا شخص اجتماعي اى جزء متبادل الاعتماد من نظام التعامل الانساني » (١٩٥٢ ، ص ٦) .

ويمارس المجتمع تأثيرا بالقسا على الفرد ، ولذلك فليس من المهم توضيح دلالة العوامل البيئية من خلال مفاهيم كالضغوط بل أيضا من خلال متغيرات تتعلق بوسط الفرد الحضاري .

الفرد Uniqueness

برغم اهتمام موراي بالفئات العامة في التحليل ، قد اعتبر التفرد الجوهري لكل فرد بل وحتى لكل حدث سلوكي بمثابة حقائق غنية عن البيان . ان اهتمامه بالملاحظة الطبيعية الى جانب مواهبه الأدبية الخلاقة والملاحظة قد يسر عليه أن يدرك وأن يعبر بأقتدار عن الفردية وعن التعقيد المزاوغ لكل ذات أو واقعة . ويقول موراي :

« ان كل واقعة نظف ورامها بعد آثار حدوثها - حقيقة جديدة ، او بلرة لفكرة او اعادة تقييم لبعض الأشياء ، او تعلقا أكثر عاطفيا ببعض الأشخاص ، او تحسنا طفيفا في المهارة ، او تجددا في الأمل ، او سببا آخر للحنوط ، وهكذا تنفر الفرد من يوم الى آخر في تابع بسيط لا يحاد يلحف ، وان كان يتم أحيانا فجأة بوثية الى الإمام او انزلاقة الى الخلف . وطلبا ان ارتباطاته المألوفة تنفر أيضا ، فيمكن القول بأنه كلما التقى مرة باحداها فن كليهما يكون مختلفا . وباختصار فن كل واقعة تكون فريدة في بعض جوانبها » (موراي وكلاهمون ١٩٥٢ ، ص ١٠) .

ولقد أدى هذا الاهتمام بتعقيد الفرد وبعمره بموراي الى تقديم مثل ذلك التخطيط المتشعب والمعقد للمتغيرات بهدف تناول السلوك الانساني . وبالإضافة الى ذلك فقد أدى به هذا الاهتمام الى فحص عدد قليل من

الأشخاص فحسنا متمسكا على حين تتحاشى تلك الدراسات التي لا تتضمن
الإحصاء على ما لا يزيد عن مقياسين أو ثلاثة للشخص موضع الدراسة .

وهكذا نجد أن موراي قد أبدى اهتماما كاملا بفردية السلوك
وتفرد ، واتخذ احتياطات مشددة ليكفل لتلك الصفة التمثيل النظرى
المناسب . وعلى أى حال فهو يتقبل أيضا ضرورة التجريد خلال عملية
الفحص التجريبي ، وهو لم يتردد فى الإسهام فى العمليات التي تتضمن
تناولا لمكونات من السلوك فى ضوء متغيرات عامة أو مشتركة . وهو يصر
على أى حال على أن نتائج مثل تلك الدراسات الجزئية لا يمكن أن تفسر
يكفاءة الا حين يعرف الباحث قدرا كبيرا يتعلق بكل فكرة مفحوص .

العمليات اللاشعورية :

لقد كان موراي من بين أوائل علماء النفس الأكاديميين الذين وافقوا
على تقبل ذلك الدور المخاتل والنفاذ للمحدودات اللاشعورية فى السلوك
(موراي ١٩٣٦) . وقد أوضح - كما لاحظنا - فى أول تقاريره النظرية
الرئيسية (١٩٣٨) انه ليس للعمليات السائدة جميعا ما يربطها بالشعور
ومن الطبيعى تماما أن تلك التي ليس لها ذلك الرباط ، إنما يتم تحديدها
للسلوك دون وعى الفرد ، ولا يكون الفرد غير واع لميول معينة تؤثر على
سلوكه فحسب ، بل ان الأكثر أهمية هو ان بعض تلك الميول تدافع بقوة
ضد هذا الشعور أو تدفعه بعيدا عنها . وهكذا فان موراي لم يقبل دور
المحددات اللاشعورية للسلوك فحسب بل انه تحقق أيضا من عمل
ميكانيزمات الكبت والمقاومة اللاشعورية .

ولقد أوضح التمييز بين الحاجات الكامنة والحاجات الظاهرة الذي
سبقته الإشارة اليه ، والأهمية التي يعزوها موراي الى المركبات الطفلية
ان نظريته تسند دورا مركزيا للعمليات اللاشعورية حتى لدى الفرد
السوى ، وعلى أى حال فالمحقيقة أن تركيزه على المحددات اللاشعورية أقل
تطرفا الى حد ما من ذلك الذى لدى المحللين النفسيين التقليديين .

عملية التنشئة الاجتماعية :

أشار موراي الى أن* الشخصية الانسانية توفيق بين دفعات الفرد نفسه وبين مطالب واحتياجات الآخرين . وتبدو مطالب الآخرين هذه متجمعة في الأبنية والأنماط المضارية التي يتعرض لها الفرد * ويطلق موراي على العملية التي يتم من خلالها التوفيق بين دفعات الفرد الخاصة وبين تلك القوى عملية التنشئة الاجتماعية . وعادة ما يتم حل الصراعات بين الفرد والأنماط التي تحظى بالتقبل في وسطه الاجتماعي عن طريق انصياع الفرد لأنماط الجماعة بطريقة ما . ولا يمكن ان يحدث الفرد تضييرا في الأنماط المضارية بحيث يخفف الصراع مع دفعاته هو الا على سبيل الاستثناء ولدى أفراد غير عاديين فحسب أما ما يحدث غالباً فهو أن الشخصية هي التي أكثر قابلية للتشكل وبالتالي فان الصراع يخف عادة بتغير الشخص .

وتختلف الأهداف المحددة للتنشئة الاجتماعية من مجتمع لآخر ولكن هناك أهدافا عامة تظل صحيحة عبر مختلف المجتمعات .

« تبدأ عملية التنشئة الاجتماعية منذ الطفولة وتستمر طوال الحياة . والذي ينبغي أن يتم تعلمه من بين الأشياء الأخرى هو : القدرة على كلف أو تعديل التعبير عن الحاجات غير المقبولة ، والقدرة على نقل التعلق الاتعالي من موضوع الهدف المحرم الى بديل مقبول ، والاستخدام الآلي والآلاف لعدد كبير من أنماط الفعل المقبولة (التناهي والاساليب والاتجاهات الإنمائية) ، والقدرة على تطبيق المخططات (القيام بالأعمال في الوقت المصبوط ، المحافظة على الواعيد .. الخ) » (موراي وكلايكون ، ١٩٥٢ ، ص ٤٥) .

وتعد جميع تلك الأشياء ضرورية اذا ما كان على الفرد أن يحيا في وئام مع نفسه ومع زملائه .

ويعد نمو الأنا الأعلى نمواً مناسباً عنصراً جوهرياً في انجاز الأهداف المشار إليها . وكما سبق أن رأينا فان الفرد ينقل الى الداخل تلك الجوانب التي يتم استئصالها من الشخصيات المسيطرة التي يتعرض لها ، ويتولى هذا البناء الداخلي مكافأة الفرد وعقابه حين يسلك سلوكاً مناسباً أو غير مناسب في ضوء النمط المضاري كما تقسره تلك الشخصيات المسيطرة . ويقتضى ذلك أن يكون الآباء بوصفهم أكثر الشخصيات المسيطرة أهمية هم أهم المصادر الرئيسية لعملية التنشئة الاجتماعية . ويلعب تأثير الآباء

في مكافأة أنماط السلوك المقبولة وعقاب الأنماط غير المقبولة دورا كبيرا في تحديد نجاح تلك العملية التطورية . وبعد تأثير نمو العلاقات الانفعالية المتبادلة بين الوالدين والطفل مكونا هاما لدور الوالدين بحيث تصبح مجرد الموافقة أو الرقص بمثابة ظروف دافعية ذات دلالة في ضبط سلوك الطفل .

ويستخلص موراي أنه من الجائز أن نتحدث عن الحاجة الى الدور لدى الشخص الذي تمت لديه عملية التنشئة الاجتماعية على وجه مرض ، وهي الحاجة الى أن يكون عضوا في جماعة أو جماعات موجودة ، وان يشغل دورا متميزا ومقبولا ومكانة داخل الجماعة . وهكذا فان ميل الفرد الى الانصياع لقوانين مجتمعه انما يتضح جزئيا عن طريق تلك الحاجة العامة للانتماء والمشاركة في جماعة عاملة .

ولا تخلو عملية التنشئة الاجتماعية من صفات سلبية ، فمن الجائز ان تكون عملية التنشئة الاجتماعية مبالغا فيها لدى الفرد ، بحيث يتعرض المجتمع الداخلي للفرد لعمليات من التنشئة الاجتماعية تؤدي الى اضعاف الحياة المثمرة بدلا من التمهيد لها . والانسان - وفقا لما يرى موراي- حيوان من حيث الجوهر ، ويقدر ما تنفي عملية التنشئة الاجتماعية تلك الطبيعة البيولوجية الأساسية فانها قد تحطم تلك التلقائية الخلاقة التي تعد جوهرية في أكثر أنواع التقدم الانساني اهمية .

البحوث المميزة وطرق البحث :

سبق ان استخلصنا ان ابحاث موراي قد تميزت اساسا بابتكاريتها وان تلك الحقيقة المؤكدة تجعل موراي ينفرد بصعوبة التوصل الى نموذج يمثل الفحوص التي اقترحها وأشرف عليها . وقبل أن ننتقل الى المهمة الصعبة في اختيار بحوث ممثلة لتلخيصها ، فلنتناول باختصار شديد عدة صفات تميز اتجاه موراي العام في بحوث الشخصية ، وسوف يجد القارئ المهتم عدة مقالات حدد فيها موراي الخطوط العامة لمهومه عن كيفية متابعة بحوث الشخصية (موراي ١٩٤٧ ، ١٩٤٩) .

الدراسة المتعمقة لأعداد صغيرة من المفحوصين الأسوياء :

تعد الدراسة المتوسعة للسلوك الانساني ، والتي تكون نتائجها من ميول الجماعة أو علاقاتها الشاملة التي لا تنجح الا بصعوبة شديدة في تمييز فرد بمفرده داخل الجماعة ، تمد مجالا محدودا لفهم السلوك الانساني . ويعتقد موراي - في حكمة عالم الطبيعة والطبيب - ان الفهم المناسب للسلوك ينبغي أن يكون تاليا للدراسة الكاملة والتفصيلية للحالات الفردية . وكما قدمت دراسة الحالة مساعدة لا تقدر لنمو وتطور العلوم الطبية ، فان مستقبل علم النفس يرتبط بقبول الباحثين لبذل الجهد والوقت في سبيل الفهم الكامل للحالات الفردية .

والعلاقات الجماعية لاتمد هامة الا حين تكون مصحوبة باستقصاء دقيق للانحرافات داخل الجماعة ، والظروف التي سببت أو صاحبت تلك الانحرافات . فالنتائج التي تميز ٨٠٪ من جماعة خاصة لا يكون لها سوى قيمة ضئيلة اذا لم يكن ممكنا تقديم بعض التفسير لفشل ال ٢٠٪ الآخرين في الاندراج في هذا النمط . وبعد تأكيد موراي باستمرار عنى هذه النقطة واحدا من اسهاماته الرئيسية في مناهج البحث .

اذا ما كنا مهتمين بالمفحوص الفرد ومهتمين كذلك بفهم الافراد الذين يمثلون الاستثناءات من القاعدة العامة ، فمن الواضح اننا سوف نحصل على قدر كبير من المعلومات التي تهتمنا والحاصلة بالمفحوص الذي نتناوله . وهكذا فمن الضروري أن يؤدي موقف موراي به الى الدراسة المتصقة للمفحوصين ويؤدي هذا بالطبع الى تقليل عدد المفحوصين الذين يمكن دراستهم في الوقت الواحد وأيضا عدد الدراسات التي يمكن للفاحص الواحد أن ينجزها في عدد محدود من السنوات .

وتلقى العبارة التالية الضوء ببراعة على الخلاف بين اهتمامات موراي في السلوك الانساني واهتمامات الكثيرين من علماء النفس الأكاديميين .

« لقد دهشت في البداية حين كنت أتوقع بشكل عام انه يجب ان يهتم الطب علماء النفس الأكاديميين بعمل الانسان في بيئته . ولكن الامر لم يكن كذلك على الاطلاق : فقد كان كل فرد تقريبا مشتا الى جهاز معين لقياس جزء صغير من جهازه العصبي كما لو كان معزولا عن بقية الاجزاء . ويمكن ان تتخيل ان موقفي كان اشبه بطالب الطب الذي يتكشف فجأة ان كل علميه متخصصون في العين ، والاذن ، والالفة . ان الظاهرة التي

عاشتني لم تكن لتذكر طابا ان هناك طواهر قابلة للتطبيق التجريبي
المبسوط كالمستوى الذى يحكم الجيولوجيا ، وعلم الطيريات الحيوانية ،
والانثروبولوجيا ، وعلم الاجنة ، وكذلك الطب طوم الطب والاجتماع
والتنبيؤ اللغى . وربما لو كان هدفى الرئيس هو العمل بالصى دقة
علمية « لا كنت قد بارحت المعاملات الكهربائية والمقترات مطلقا . لقد
تفرت بسبب ذلك الاهتمام اللجج بامور اخرى مثل مشكلات الدوافع
والانفعالات . وكانت محاولة اتجاز ذلك على الانسان تجمل منى عالما
نفسيا «النبية» او طبيبا للصحة العقلية يطل من الخارج على علماء النفس
الطيقين الذين كانت تستحوذ عليهم - كما استخلصت - اهداف ملحة
تسلق السلم الاجتماعى للعلماء والانضمام الى تلك النخبة باى لمن .
والا فعلا لم ذلك يمكن ان يفسر ونسجم للوسائل « الاجهزة والاحياء »
بعيدة الى هذا الحد عن الاهداف « اهمية المشاكل موضع الدراسة ؟ »
بحيث ابه مهما كانت نفاة النتائج فان العجرب يعتبر نقيا وظهرا طابا
ان معاملات الارتباط لديه تكون ثابتة « موراي ١٩٤٠ ، ص ١٥٤ » .

لقد كان ذلك - كما استخلص موراي هو انطباع البداية الذى آخذ
فى الحفوت منذ ذلك الوقت ، ولكن بقى لب الشكوى وهو ان جميع علماء
النفس لا يهتمون فى أغلب الاحيان بالنطاق الشامل للسلوك الانسانى .
والصفة الاخرى التى تميز بعونه هى تاكيده على دراسة الافراد الاسوياء
ولقد كانت الدراسات المتعمقة مقتصرة عموما على المجموعات الاكلينيكية
حيث تؤدى دراسة المرض الى ان يصبح المريض موضع اهتمام خاص او ان
تحتم متطلبات نجاح التشخيص او العلاج وجود معلومات متعمقة . وهكذا
فان اختيار موراي للاشخاص الاسوياء كمرکز لبعونه يقدم تكملة طبيعية
لتواريخ الحالة التى تتيحها المواقف السيكياترية .

وكان موراي ايضا واحدا من رواد التعاون المشترك فى بعون
الشخصية ، فلقد كانت هيئة عيادة هارفارد النفسية تضم دائما مثلين
للطب العقل ، وعلم النفس ، والانثروبولوجيا ، ونظم اخرى ، فى عصر
لم يكن ممكنا فيه مثل هذا المكان لن يكون مكانا مشتركا .

الاجتماع التشخيصي :

لقد ابدى موراي تركيزا كبيرا على أهمية الملاحظ او العالم النفسى كاداة في البحث النفسى ، فبرغم أننا قد نستخدم المقاييس المتدرجة ، أو مجموعات التصنيف او الاختبارات النفسية لتقييم الشخصية • فان جميع تلك الأدوات انما هي فى الأساس عبارة عن الملاحظات الدقيقة للفاحص أو للاكليينيكى • ونظرا لمكانة الملاحظ الهامة فان موراي يعتقد ضرورة بذل مزيد من الانتباه الى نقاط ضعفه ومزيد من الجهود المباداة التى تهدف الى تحسين امكاناته فى الملاحظة • وقد أدت به هذه الاعتبارات الى النظر الى عالم النفس نفسه باعتباره « أهم وسائل الدقة » فى البحوث النفسية •

ان احدى الوسائل الواضحة لمراجعة الملاحظات وتحسين نوعها أن يقوم عدد من الملاحظين باختيار نفس البيانات من أبعاد مختلفة • وهكذا فان استخدام عدد من الباحثين فى دراسة نفس الفرد أو الأفراد انما يتيح فوائد عظيمة تتمثل فى التخلص من القيود التى تضعها تحيزات ملاحظين معينين أو القيود التى تفرضها مجموعات متخصصة من البيانات • ولايحتمل ان تكون النتائج النهائية لمثل تلك الملاحظة الجماعية أفضل من الملاحظة الفردية فحسب ، بل ان أعضاء الجماعة سوف يشحطون ويحسنون قدراتهم على الملاحظة كنتيجة للأثر المصحح للملاحظات الآخرين •

ولقد أدت تلك الاعتبارات بموراي الى ابتكار الاجتماع التشخيصي الذى يضم عددا من الملاحظين يدرسون جميعا نفس المفوضين من وجهات نظر مختلفة مع اتاحة الفرصة للمناقشة النهائية والتوصل الى مركب *Synthesis* من تلك المعلومات مشتق من مختلف تلك النقاط المتنازعة • فبعد فترة من الملاحظة الفردية يقوم خلالها كل ملاحظ بدراسة المفوضين من خلال أساليبه المتخصصة بمقد اجتماع لكل مفوض • ويقلم كل فاحص - فى هذا الوقت - بياناته وتفسيرها مع اتاحة الفرصة كاملة للملاحظات وتفسيرات الملاحظين الآخرين لتدعيم التقرير أو اقتراح تصديلات عليه • وكل باحث فرد مسئول مبدئيا عن تجميع وعرض مركب كل حالة ولكن كل عضو فى الاجتماع لديه فرصة غير محدودة للاسهام فى هذا النتاج النهائى •

أدوات قياس الشخصية :

لا يوجد بين علماء النفس المعاصرين من قدم اسهامات أكثر دلالة لتقييم الشخصية من موراي . فلقد ابتكر عددا كبيرا جدا من الوسائل لقياس الشخصية ، التي لم يستغل بشكل منظم الا عدد قليل منها فحسب . وتقدم مؤلفات استكشافات في الشخصية ، وتقييم الرجال تصويرا مسهبا لبراعة وتنوع الأدوات التي ابتكرها أو كان ذا تأثير في تطويرها . وقد أصبحت واحدة من تلك الأدوات وهي اختبار تفهم الموضوع تمد - فييا يلي اختبار رورشاخ - أكثر الوسائل الاسقاطية انتشارا في الاستخدام حاليا .

تتفق أغلب أدوات موراي مع اعتقاده الأساسي بأن الفهم النهائي للسلوك الانساني لن يستمد من دراسة الكائنات الأدنى أو دراسة الانسان في ظروف بالغة التعقيد بل من الدراسة المعقدة للسلوك الانساني ولذلك فقد كان موراي يسمي لتجميع البيانات الحسبة والمتعددة الأشكال التي يمكن أن تتوقع منها أن تمكس مدى واسعا من الميسول والقدرات السلوكية . وهو يرى أن إحدى الميزات الطبيعية لعالم النفس أنه يتعامل مع كائن متكلم وأنه ينبغي أن يستغل ذلك الى أقصى درجة . فالعالم النفس بخلاف عالم البيولوجيا أو عالم الحيوان أو عالم الطبيعة يتعامل مع مفحوص يستطيع أن ينقل اليه قدرًا كبيرًا من المعلومات المتعلقة بالعمليات الداخلية التي يقوم بها وبالأحداث الخارجية التي يلتفت اليها ، وبالحدود الرئيسية للسلوك . وبرغم أن تلك التقارير ينبغي تقييمها بعناية والا تؤخذ دائما بصدقها السطحي فانها تمثل على أي حال بداية حاسمة في محاولة كشف اسرار السلوك الانساني .

وكان من الطبيعي تماما أن يكون موراي - بفضل هذا الاهتمام بالذاتية - رائدا في تطوير أدوات الشخصية التي تستكشف المحتوى العقل الكامل للمفحوص . وأدوات موراي في الأصل لا تقيد متغيرات الاستجابة لدى المفحوص باستخدام الفئات المحددة مسبقا بل انها اميل الى أن تسمح بالعرض الكامل والذاتي من جانب المفحوص وتشجعه ، كما أن تلك الأساليب تتيح مشاركة كاملة للتصور والتخيل . وهي تزود الفاحص ببيانات مكتملة يبعث سخاؤها على الأمل ويثبط تعقدها المهم في نفس الوقت .

استكشافات الشخصية :

بدلا من أن نعطى القارئ بعض اللوحات من بحوث موراي المتنوعة، فقد اخترنا أن نلخص ثلاث دراسات ليصمت جزءا من برنامج للبحث • وتصور تلك الدراسات الأصالة والمهارة التي كان يفرض بها موراي مجالات هامة في بحوث الشخصية • والدراسة الأولى هي ذلك الفحص الرائد لأثر العوامل الانفعالية على الإدراك والثانية استقصاء غريب يتعلق بما يمكن استشفافه من الأحلام ، والثالثة تطبيق للاسس النفسية في محاولة فهم التحفة الأدبية موبى ديك •

أثر الخوف على تقييمات الشخصية :

لقد بدأ موراي بتلك الدراسة في الاستفادة الماهرة من موقف طبيعي في استكشاف المدى الذي تتأثر فيه نسبة الفرد لمصانص شخصية إلى الآخرين بحالته هو الانفعالية • ولقد جمعت بيانات تلك الدراسة خلال حفل منزلي دعت إليه ابنته أربع فتيات من صديقاتها في عطلة نهاية الأسبوع ، وتقرر كجزء من التسلية أن يلعب الأطفال مباراة تسمى «القاتل» وتتم المباراة في جو مظلم تماما ، وتتطلب أولا اجراء قرعة لتعيين أحد المشتركين لدور الشرطي السرى وتعيين آخر (سرا) لدور القاتل • وبعد القرعة ينصرف المشتركون في الظلام ماعدا الشرطي السرى ، ثم يقتل القاتل أحد اللاعبين بلمسه ويعلن الضحية عن مصرعه بالصياح ، ويتجمع المشتركون • وتأتي بعد ذلك مهمة الشرطي السرى ليحدد من ارتكب الجريمة بسؤال اللاعبين وعليهم جميعا ان يخبروه بالحقيقة ماعدا القاتل الذي له أن يخدعه بقدر ما يريد • ولما كانت المفحوصات الخمس لا تتجاوز أعمارهن الحادية عشرة ، ولما كانت أربع منهن في منزل غريب ومظلم • فقد بدا من المعقول افتراض أن تلك التجربة سوف تثير الخوف لديهن ، وقد ثبت نجاح المباراة في هذا الخصوص بعنة ملاحظات : الأولى هي تطوع بعض المفحوصات بذكر حقيقة أنهن قد شعرن بالخوف في أثناء المباراة والثانية - وهي أكثر الملاحظات اقناعا - حقيقة أن إحدى الفتيات قد استيقظت خلال الليلة التالية للمباراة معتقدة انه كان هناك لصوص يفتشون المنزل وأنها قد رأتهم • وبرغم عدم حدوث مثل تلك الواقعة

فقد صدق قصتها اثنتان من الفتيات ارباع على التوالي واصرنا في الليلة التالية على اتخاذ عدة احتياطات لحمايتهن في ثناء الليل من اللصوص المتخيلين .

وقد تم تقييم آثار تلك الخبرة الباعثة للخوف بجعل المفحوصات يصدرن احكاما عن طيبة ثلاثين صورة فوتوغرافية اخذت من الجرائد الاسبوعية . وكانت الصور الثلاثون تنقسم الى سلسلتين تضم كل منهما خمس عشرة صورة بحيث تتساوى السلسلتان تقريبا من حيث المظهر الايجابي والسلبى للوجه . وكانت احدى السلاسل (اى الصور) تقدم فى ظروف محايدة فى نفس اليوم ولكن قبل مباراة القاتل ، على حين تقدم السلسلة الأخرى فى ظروف محايدة أيضا فى اليوم التالي على التجربة . وكانت السلاسل كاملة تقدم فورا بعد مباريتيه من هذا النوع كاختبار تجريبي ، وكان يطلب من الفتيات ترتيب كل صورة وفقا لمقياس من تسع نقاط متدرج من (١) طيبة بالغة (كرم وشفقة وحب وحنان) الى (٩) سوء بالغ (قسوة وحقد وخبث) .

ولقد اظهرت نتائج الدرهمه أن الفتيات قد ابدین فى اثناء ترتيبهن للصور بعد المباراة الباعثة على الخوف مباشرة ميلا واضحا لاعتبارها أكثر شرا او سوءا مما ابدينه فى اى الترتيبين الضابطين . وهكذا تقدم نتائج الدراسة تأكيدا قويا للاعتقاد بأن حالة الفرد الانفعالية تؤثر فى احكامه على شخصيات الآخرين . ولقد تعرض موراي فى كتابته لتلك الدراسة على المحصوص بتفصيل شديد للفروق الفردية فى استجابات المفحوصات رابطة بينها وبين صفات شخصيات الفتيات كما اتضح من ملاحظات خاصة تمت خلال الدراسة .

ولقد ميز موراي فى مناقشته لتلك النتائج بين نمطين رئيسيين من الاسقاط، يشار الى الأول عادة كاسقاط تكميل **Complementary projection** ويبدل على ميل المفحوص الى ادراك بيئته او فهمها بطريقة تجعلها تتفق مع حاجاته وعواطفه ودفعاته او تبررها . اما الثانى فيسمى **الاسقاط الاضافى Supplementary projection** ويخلق المفحوص فى هذه الحالة على الموضوعات او الاشخاص فى البيئة الصفات التى يملكها هو والتي تكون فى المادة غير مقبولة لديه . وتدل نتائج دراسة موراي على ان الاسقاط التكميلى يمثل بوضوح فى ادراك المفحوصين لبيئاتهم كما لو كانت أكثر سوءا مما يعد تكميلا لخوفهم المتزايد .

استشفاف الأحلام :

من المعتقدات الشائعة أن الأحلام تتيح أحيانا بيانا دقيقا لآحداث وقعت في أمكنة بعيدة أو تحت ظروف لا تتيح للحالم أى معلومات حسية مباشرة تتعلق بالحدث ، وبرغم أن ذلك فرض قابل للاختبار ويمكن أن يكون ذا دلالة عظيمة اذا ما تحقق ، فليس من السهل أن تتوافر له البيئات المناسبة . وفوق ذلك فانها مشكلة تبعد عن أن تكون تقليدية بعدا يجعل أغلب علماء النفس ينفرون منها . وقد قام موراي على أى حال بدراسة مفرقة في الخيال (موراي وويلر ١٩٣٧) لاستكشاف امكان الوظيفة الاستشفافية للأحلام وذلك بالحصول على عدد ضخم من الأحلام يدور حول واقعة تحظى باهتمام قومي وسابقة من حيث الوقت على معرفة نتاج هذه الواقعة .

وكانت الواقعة هي اختطاف طفل لندبرج ، وقد نشر موراي بعد عدة أيام من الاختطاف وقبل حل المشكلة اعلانا في جريدة بوسطن يشير الى أن عيادة هارفارد النفسية يهتما بالحصول على الأحلام المتعلقة بواقعة اختطاف الطفل . وقد نتج عن ذلك الاعلان الذى نشر فوراً عبر البلاد أن تسلم الباحث قبل العثور على الطفل ١٣٠٠ حلم تتعلق بالواقعة .

وفي محاولة فحص استشفاف الأحلام اعتبرت الظروف الموضوعية المحيطة بالعثور على الطفل بمثابة حقائق . وقد بين الفحص الطبى أن الطفل قد مات فوراً نتيجة كسر الجمجمة ، وتم العثور على الجثة في قبر قليل العمق يقع في غابة بالقرب من طريق على بعد عدة أميال من منزل لندبرج ، ولم يكن مع الجثة رداء النوم الذى كان يلبسه الطفل عند اختطافه .

وبوضع هذا المستوى الموضوعى في الاعتبار ، استمر الباحثون بقرعهم بعناية كل ال ١٣٠٠ حلم في محاولة التعرف على الأحلام التى تبدي أى علاقة بالحقائق المعروفة ، وقد وجدوا عددا كبيرا من الاحلام تعكس تأملات الصحف الجارية المتعلقة بالمكان المحتمل للطفل ، كان يكون قد أخفى في سفينة بالبحر ، ولكن حوالى ٥٪ فقط من الأحلام أشارت الى أن الطفل قد مات ، من بينها سبعة فيحسب (أقل من ١٪) تضمنت أوصافا تتصل ولو على وجه العموم بتلك التى أوضحت من قبل .

وقد استخلص الباحثون أن هناك أربعة فحسب من الـ ١٣٠٠ حلم كانت تتضمن اشارات خاصة للفقرات الثلاث الرئيسية : الموت ، الدفن في قبر ، والموقع بين الاشجار . وبالإضافة الى ذلك فقد أشاروا الى أن الاحتمالات فيما يتعلق بتلك الوقائع لم تكن محددة على الإطلاق ، فمثلاً قد يكون الطفل حياً أو ميتاً ، وإذا كان ميتاً فقد يكون فوق الأرض أو تحتها أو في الماء . وهكذا فبرغم عدم وجود وسائل للتقدير الدقيق للصدفة والعشوائية ، يبدو من غير المتوقع على الإطلاق أن تمثل الاحلام الأربعة التي اقتربت من الهدف من بين الـ ١٣٠٠ حلم تفلها على عامل الصدفة . ويستخلص المؤلفان ، أن النتائج لا تدعم القسول بأن الوقائع البعيدة ترتبط ارتباطاً سببياً بالاحلام (موراي وويلر ١٩٣٧ ، ص ٣١٣).

معنى هوبو ديك :

إن أروع إبحاث موراي الحديثة هي تلك التي تضمنتها المقالة المعنونة *In Nomine Diaboli* (موراي ١٩٥١) ، التي تلخص نتائج سنوات من الدراسة الدقيقة ، وتقدم تفسيراً نفسياً لمعنى هوبو ديك كما قصده ميلفيل . ويرتكز هذا التفسير على مزيج من الجدالات في النظرية النفسية والمعرفة التفصيلية بميلفيل وكتابه ، والفة وثيقة برواية هوبو ديك . ومن المستحيل أن نقيم ذلك المؤلف تقييماً كاملاً هنا لأن الأسلوب الذي عبر به موراي عن أفكاره ، والتفصيلات التي أرسدت كل تفسير أرساء حاسماً وسط العديد من الملاحظات المدعمة كل ذلك يعد جزءاً مكملاً للتحليل .

إن التحفظات التي يمكن أن نتوقعها من دارس للأدب بالنسبة لمناهج علم النفس قد عبرت عنها تلك العبارة الواردة في صدر هذا الكتاب :

« إن عادة عالم النفس هي أن يحطم بيتان كل شطحية يدرسا إلى عناصر ، وهكذا لا يتطلب الأمر سوى ضربات قليلة ليسقط البيتان مهما كان لجهه - كبتيان - من ميزات . وبالإضافة إلى ذلك ولاسيباب لا حاجة لتكررها هنا ، فإن للمصطلحات الفنية لالجب لكك الضاحمر لتسمينات متفرقة . وبما لذلك حين الصعب حالياً أن يتح أحد الهنئين فيه دون أن يحط من قدر زميل له . ونحن يكون على العطل أن يواجه

بذلك الذى يشر بالكثير وان كان ما زال يعتقد النموذج - اضى الانسان
السوى - فله يتخبط فى حيرة بسبب قلة الافكار المناسبة » .

« والى ما استطعت ان انظب الى حد ما على اى عواقب من هذا
النوع ، فلك ان تزود ذلك الحظ الطيب الى ظروف العناية الالهية .
ان موبى ديك تسبق علم النفس من حيث تتالى خبرتى . فلقد استجنى
عاصفة ميلفيل وهزنى صرته البحرى الرعب قبل ان احصل على ذلك
الزيت الاكاديمى المهدى الذى انصب على المياه الشريرة . وقبل ان
امتلك اسلحة ودوات العلم من رماح وسنابر وقيود نظرية حولة وخرانات
للكتب مما احال ذلك (الشبح البالغ الصخامة) الى مجرد نوع من
الاسماك الهلامية . وقد احدث بنى لنقص تلك الدفاعات . وبدلا من ان
اغمر ذلك الكتاب فقد غمرنى هو !! (ص ٣٦ - ص ٣٧) .

لا تكشف تلك الفقرة فحسب عن اهتمام موراي العميق والمستمر
بموبى ديك * بل عن تلك العقيدة التى تبناها طويلا فيما يتعلق بطبيعة
النظرية النفسية * وهو يقرر فى عبارات مقنعة أن النظرية النفسية تبلغ
ذروتها عندما تتناول السلوك فى احواله السيئة ، وتسودها الحيرة حتى
تواجه مجالات السلوك الايجابية والحلاقة * وهكذا فان موراي قد أعطى
بفهم مزيدا من التاكيد على الجوانب الايجابية والمحددة ذاتيا من السلوك
اكثر الى حد ما مما تعتبره اغلب النظريات النفسية الأخرى صحيحا * .

ولقد تناول موراي ايضا التساؤل عن احتمال أنه لم يكن هناك معنى
لموبى ديك ، بمعنى أن الفنان قد ابداع القصة ببساطة كرواية حية عن
البحر وبالتالي فلا وجود « لمعنى » شعورى أو لا شعورى تتضمنه القصة
سوى ذلك الذى يظهر * ولقد رفض موراي وجهة النظر هذه مرتكنا
اساسا الى عبارات لميلفيل توضح أنه كان يعنى تماما أن يخلق معنى كامنا .

ولقد خصص الجزء الأكبر من المؤلف لعرض وتسجيل عدة فروض
تتعلق بدلالة الشخصيات فى هذه القصة * ويقرر الفرض الأول فى أبسط
عبارة ان كاتبها آهاب إنما يمثل الشيطان أو ابليس وقواه الشريرة *
ويمثل آهاب وفقا للمصطلحات النفسية قوى الهو البديئية التى يظف
عليها الشر * ويتدعم هذا الفرض بالاهتمام المتميز والميل الى الاسهاب
فى سلسلة من العبارات تمثلها العبارة التالية :

« لا يمكن ان نشكك فى ان ميلفيل كان يقصد ان يطلق آهاب فى
صورة الشيطان ، فلقد ذكر لهولورن ان كتابه قد احرق فى نار جهنم وعمد

سراً ولكن ليس باسم الآلهة وإنما باسم إبليس . ولقد أطلق على بطله التراجيدي اسم أحد الحكام في العهد القديم وهو الذي « فاق جميع ملوك إسرائيل الذين سبقوه في الأثرة غضب آله إسرائيل » . ولقد بحث إلى الحياة أيضاً النبي أيليا ففضل اتهام الملك آهاب ليصحب نفس دوره الأصلي - برغم اختصاره الشديد - في عهد ميلفيل . ولقد علمنا أن الكاتبين آهاب ورجل « كافر شبيه باله » وأنه خارج التصراتية روحياً . ولقد كان متعباً لتجديف والإزدراء والاحتقار والسخرية من الآلهة الذين كانوا في نظره « لاعبي كريكت » « وملاكين محترفين » ولقد شاع ذلك حتى أنه يعق ذات مرة في العاصي القدسية في مذبح الكنيسة الكاثوليكية في ستابن . ويقول ستب Stubb « أتني لم أراه يركع على الإطلاق » وبعد ذلك التأكيد السادي لذاته بمثابة التليخ الملزم للخضوع المازوخي الذي بشر به الأب مايل « (١٩٥١ ، ص ٤١١ - ص ٤٢٢) .

والفرض الثاني هو أن موبى ديك نقيض لقوى الشر المنطلقة أي أنه الأنا الأعلى ، وعلى ذلك فإن الموت لا يمثل القوى الأخلاقية داخل الفرد فحسب ، بل يمثل أيضاً الأبنية التقليدية في مجتمع ميلفيل .

« إذا ما استخفنا المفاهيم النفسية ، فإن آهاب يكون قائداً للزعمات التي كتبت حصارياً في الطبيعة البشرية ويسمونها المحلون النفسيون « الهو » وإذا ما كان ذلك صحيحاً فإن خصمه - أي الصوت الابيض - لا يمكن أن يكون سوى ذلك البناء الداخلي المستول عن الكبت وهو على التحديد الأنا الأعلى الفرويدي ، هذا لأن هو افتراضي الثاني أن موبى ديك صوت حقيقي متدفق ، محطم ، عالي الصوت . أنه الصوت الذي كان موضعاً لاستقاط الضمير المسيحي لكاتبين آهاب نظراً لبياهه وبنياه القوى وجماله وأيضاً بسبب فصل غريزي واحد أدى إلى بتر أحد أعضائه . مهاجمه . وبذلك يمكن القول بأنه يجمع بين مفهوم العهد القديم الكفلائي من الآلهة الخيف وتعاليمه الصارمة ، والأخلاقيات الصارمة النابعة من أمريكا القرن التاسع عشر ، وأيضاً المجتمع الذي يحمي تلك الأخلاقيات . وهو يرمز أيضاً - وعلى وجه أكثر خصوصية - للآباء المتحصنين الذين تؤدي عظمتهم ونصائحهم إلى تهريمات قاسية حتى أن الشاب الصغر الجسد لا يستطيع أن يعصل إلى خارج حواجزها فيما دعا بين بعض البوليتيزيين المتساهلين الرحمة الذين يحتمل أن يتخطوها .

إن التأكيد ينبغي أن ينصب على ذلك الحافظ اللاشعوري (وبالتالي لغير المفهوم) من الكلف الذي يقيد المواظف الدافقة لدى البيوريتانيين .

ان آهاب يصيح « كيف يمكن أن يصل المسجون الى الخارج » الا بالانفعاخ
خلال العاطف ؟ ان الصوت الابيض بالنسبة لى هو ذلك العاطف الذى دمع
قريبا منى .. انى ارى فيه قوة فطيمة يدمعها حقد غريب « ومالما يمكن
ان يكون المفضل من ذلك القيطس المعظم العالى الصوت لى اللون الابيض
الداكن ، والذى لا يمكن ان يقهر كرمز للصبر نيو انجلتد المعظم العالى
الصوت ، الابيض الداكن ، الذى لا يمكن قهره » ص ٤٤٣ - ص ٤٤٤ .

تلك اذن هى الكشوف الرئيسية فى تحليل موراي ، وان كان توفير
انطباع مناسب عن قوة وجمال تفسيرات موراي يتطلب ضرورة الرجوع الى
النص الاصلى . وقد يتساءل البعض : هل كان ذلك فى الحقيقة بحثا
نفسيا ، فليس هناك بالتأكيد جماعة ضابطة ولا توزيع للارقام ، ولا معامل
للثبات ، ولا تحليل احصائى * وبرغم مخالفة الطقوس هذه ، فان موراي
قد طرح سؤالا نفسيا هاما ورتب الأدلة التى تتعلق بهذا السؤال * وفوق
ذلك فلقد استخدم فى عملية عرضه للسؤال ونتائجه افتراضات تتعلق
بالسلوك الانسانى وتمد جزءا مكملا للنظرية التى عرضناها ثوا * والاكثر
اهمية من ذلك كله هو حقيقة ان تلك الفقرات تتضمن من التاملات
والتصميمات المتعلقة بالسلوك الانسانى ماله بالتأكيد اثر مثير على القارىء .
ان قلة من المجريين فى علم النفس هم الذين لا يستطيعون الافادة من
التعرض لتلك الأنواع من الأفكار التى يقدمها المؤلف بحماسة واثارة *

المكانة الراهنة والتقييم :

لقد رأينا ان مفاهيم موراي النظرية قد تعرضت لعملية مستمرة من
اعادة الفحص والتعديل ، وفى الحقيقة فانه بمجرد الانتهاء من كتابة هذا
الفصل ، قد تكون نظريته تغيرت جزئيا على الأقل * وبرغم ذلك فهناك
عناصر معينة تقف بثبات فى وجه هذا التيار المستمر فلم يتذبذب فى أى
وقت اهتمامه بالعملية الدافعية ، ولم يبد أى ميل للتخل عن نشاطاته
الوصفية والتصنيفية * وبالمثل فقد أكدت نظريته دائما على أهمية المصادر
اللاشعورية للذوائف ، واهت دائما على العلاقة بين العملية النفسية وعملية
المخ * وهكذا فبرغم أنه يبدو أن التطورات المستقبلية قد تغير النظرية بمعف

فى بعض جوانبها فانه يبدو أيضا أن تأكيدات جوهرية معينة سوف تبقى مستمرة .

ان نظريات موراي لم تكن ذات فائدة فحسب لتلامذته بل أيضا لكثير من الباحثين الآخرين والاكليينكيين المهتمين بدراسة الشخصية . وقد اتسع استخدام مفاهيمه عن الحاجة والضغط وخاصة بين الاكليينكيين والباحثين الذين استخدموا اختبار تفهم الموضوع . ان قلة من الاشخاص المهتمين بتفاصيل تصنيف السلوك الانساني يفشلون فى الاستفادة من التصنيفات الهامة المعديلة التى وضعها موراي . وله - كما أوضحنا - تأثير عميق على المناهج والاجراءات الراضجة لتقييم الشخصية ، ولقد كان لأعماله دور كبير فى التطورات المعاصرة سواء من حيث تطويرها لأدوات نوعية أو فى عرضها لوجهة نظر معينة . وقد كانت مقدره موراي على استدراج واثارة والهام تلامذته وزملائه على نفس القدر من الأهمية الذى لتلك الإضافات الجوهرية . ويمد الحماس والافتناع للذنان شرب بهما تلامذته مسئولين الى درجة كبيرة دون شك عن حقيقة أنهم قد لعبوا مثل هذا الدور الهام فى تطور بحوثه عن الشخصية .

أى ملامح الموقف النظرى لموراي كان أكثر تأثيرا ؟ ربما كان أكثر المكونات تميزا فى موقف موراي - كما سبق أن رأينا - هو معالجته الدقيقة والحساسة للعملية الدافعية . ولقد كان هناك ميل قوى من جانب أصحاب نظريات الشخصية المحدثين الى تناول الدافع عبر طريق أو طريقين أكثر بساطة نوعا . ويرجع الطريق الأول كل السلوك الى عدد بالغ الصغر من الدوافع المركزية بحيث يبدو كل شئ كما لو كان منبعثا من تلك الدوافع الرئيسية . أما الطريق الثانى فيفترض أن عدد الدوافع بالغ الكثرة وان كل فرد انسا توجهه دوافع تبلغ من التعقيد ومن الاختلاف المتفرد عن بقية الأفراد حدا لا يمكن معه تخصيص الدوافع التى يمكن أن تنطبق بشكل مناسب على أكثر من شخص واحد . وينفى هذا الطريق جدوى أى محاولة لتصنيف العام للدوافع . ويتخذ موراي موقفه بوضوح بين هذين الطرفين . انه يسلم بتعدد السلوك الانساني ، ويؤكد بحسب اعتقاده بأن العملية لا يمكن عرضها بكفاءة فى ضوء اثنين أو ثلاثة أو اربعة أو خمسة من الدوافع العامة . وهو يؤكد مع ذلك أن هناك دوافع تكفى عموميتها لامتكان استخدامها مجددا فى عرض سلوك كل أو أغلب الأفراد خلال جماعات مميزة . وهكذا فلقد واجه موراي بشكل واقعى مهمة تطوير مجموعة الأدوات التى تأخذ فى اعتبارها تعدد السلوك

الانسانى وتكون فى نفس الوقت دقيقة التخصص بحيث يمكن لباحثين مختلفين أن يكرروا استخدامها • وكانت النتيجة - كما رأينا - التوصل الى تصنيف للدوافع يحتمل أن يكون أكثر اتساعا فى استخدامه من أى تصنيف مقارن •

لقد لعبت نظرية موراي وبحوثه دورا حاسما فى خلق اهتمام أكثر جدية بنظرية التحليل النفسى لدى علماء النفس الأكاديميين • فلقد كان يغلب على التحليل النفسى - فى الوقت الذى جاء فيه موراي الى عميادة هارفارد النفسية لأول مرة - كونه غريبا ومنبوذا فى مجال علم النفس • ولقد شهدت الأعوام الخمسة والعشرون التالية فرويد وقد استقر تماما كواحد من عمالقة الفكر فى مجالنا ، وترجع تلك النقلة - فى جزء ليس بالصغير - الى أهمية موراي كمثال •

وتمتلك نظريته - كما رأينا - تلك السمة الغريذة الخاصة بالتأكيد المستمر على أهمية ماضى الكائن والمحتوى الحاضر الذى يتم فيه السلوك • ففى العالم السيكلوجى حيث ينشغل أغلب المنظرين فى تهيب بالمجال الحالى أو يتحولون بدلا من ذلك الى ماضى الكائن بوصفه المفتاح الوحيد لفهم السلوك ، من المفيد حقا أن يكون هناك موقف يكفل لكل تلك الفئات من المحددات ما يستحقه • ولقد أدى اهتمام موراي بالمجال والبيئة التى يحدث فيها السلوك الى نظام متميز من مفاهيم الضغط التى تسمح للباحث بتمثيل البيئة المدركة ، والبيئة الموضوعية على حد سواء • أن نتحدث عموما عن أهمية البيئة فهذا شىء ، ولكنه شىء مختلف تماما أن نقدم على تلك المهمة المنهجية والدقيقة لتصنيف الفئات بحيث يمكن أن تمثل الجوانب الجوهرية للبيئة • ولقد كان موراي واحدا من ذلك العدد البالغ الصغر من أصحاب النظريات الذين أخذوا هذه المهمة على عاتقهم •

ان النواحي السلبية فى نظرية موراي تناظر فى كثير من جوانبها النواحي الايجابية ، ويرتبط النقد الأساسى الموجه الى النظرية - الى حد بعيد - ارتباطا وثيقا بأصالة النظرية واتساعها وتعميقها ، ونحن نوافق تماما على أن أخطر ادعاء يوجه ضد أى نظرية هو اتهامها بأنها لا تؤدى الى بحث ، وقد يقوى من هذا النقد أنه بالرغم من أن نظرية موراي تتضمن بالتأكيد مجموعة من المفاهيم ومجموعة متعلقة بها من النتائج التجريبية الا أنه لا توجد مجموعة من القروض السيكلوجية المحددة المرتبطة بتلك المفاهيم بطريقة تكفل قابلية نتائجها للاختبار • وصحيح قطعاً - كما

أوضحت الدراسة التي أشرنا إليها باختصار - ان الدراسات التي قام بها موراي وتلامذته لا يمكن أن تمتد نتائجها لنظريته بأى طريق مباشر . فدراساته لم تتركز على اختبار التنبؤات المشتقة بحسم من موقفه النظرى . وللدفاع عن النظرية ينبغي أن نسلم بأن فروضها ومفاهيمها قد قدمت بالفعل وجهة نظر عامة تتعلق بالسلوك ، وان وجهة النظر هذه لديها الكثير لتقسمه فيما يتعلق بالنظرية النوعية التي ينبغي أن يتم بها تناول مشكلات معينة فى البحث . وبالإضافة الى ذلك فإن التنبؤات التي اهتمت بها النظرية قابلة للتطبيق على أغلب مثل تلك المشاكل أو على كثير منها . وللمرء الحق فى أن يقرر أن تلك الوظائف انما تتعلق بأغلب ما تسمى من أجله النظريات المتعلقة بالشخصية حاليا .

وقد شعر بعض النقاد أن النظرية تتسع كثيرا الى حد يفقدها القوة والصرامة التي تتصف بها وجهات النظر الأكثر تحديدا أو تخصصا . وهكذا فإن تنوع الصفات الذى أدى الى تمعد النظرية والى حيايتها فى نفس الوقت من كثير من أوجه النقد الشائعة التي ترتفع فى مواجهة نظريات الشخصية ، يجب أن ينضم ليقبل من فعالية النظرية كوجهة نظر ملزمة . ويبدو الأمر كما لو أن النظرية تقدم الكثير بحيث لا يوجد شيء منفرد قد تناولته النظرية باكبار واعتقاد يجعله متميزا عن بقية النظرية أو يجعل النظرية نفسها متميزة عنه .

وبرغم عمق وتنوع صياغات موراي النظرية فمن الواضح أنه قد كرس انتباهه للعملية الداقمية أكثر مما فعل لعملية التعلم . وقد دفع ذلك بعض النقاد الى الاعتقاد بأن نظرية موراي تعاني من العجز عن استيعاب الطريقة التي تتشكل بها الدوافع وتتطور . فبرغم تصنيفه ذى الفائدة الفريدة للدوافع ورغم أساليبه ذات الأهمية الفائقة لقياسها ، فلم يكن لديه الا القليل فيما يتعلق بالعملية المحددة التي تتطور من خلالها تلك الدوافع .

لقد أدت مهارة موراي وصبره كعالم فى التصنيف الى خلق الكثير من التمييزات الدقيقة والتصنيفات التفصيلية بحيث أحس بعض الملاحظين انه قد عقد بغير داع من اتجاهه نحو دراسة السلوك . ومن الصحيح تماما أن عدد الفئات المختلفة التي قسمها بجانب ميله الى تفتير وتعديل ذلك مرارا ، وميله الأكثر الى ادخال مصطلحات جديدة لوصف تلك المفاهيم ، كل ذلك قد سبب الكثير من الخلط لدى القارىء العابر . وقد يرى المرء

ان مهمة عالم التصنيف هي أن يعرض الحقيقة بدقة وليس ضروريا أن يجعل القارى سعيدا ، ويتبغى أن نسلم بأن الكثير من متغيرات موراي لم تتعرض لتطبيق مستمر ومتعمق على بيانات تجريبية .

وعموما فان كتابات موراي وبحوثه ليست عصرية في عالمنا النفسى الموجود حاليا فهناك الكثير جدا من الشعر والقليل جدا من الايجابية فى تأليفها . لقد كان موراي فى منزله مع تخيلاته ، وكان يريد أن يتأمل بانطلاق فى موضوعات لا يوجد امكان فورى لترجمتها تجريبيا ، وكان راغبا فى أن يعلن تأملاته الجامحة . وليس فى تلك الصفات ما يؤدى الى تقبل فورى من جانب أبناء المهنة الذين مازالت لديهم حساسية بخصوص وضعهم المعلق بين العلوم الطبيعية والانسانيات . ان هناك ميلا قويا لدى العلماء التجريبيين بدافع من ذاتيتهم فحسب لاستبعاد تلك المشاكل والموضوعات التى يثيرها معاصروهم الذين لا يفضلون الارتباط بالطرق والاساليب التى يمكن تناولها يدويا . وهكذا فمن المفهوم ان الكثير من الباحثين يعتبرون كتابات موراي غير جديرة بالاحترام نظرا لما تبديه من تقدير للأساليب التجريبية ، ومرهقة نظرا للاعتبارات المعقدة التى تضعها كضرورة لفهم السلوك الانسانى فهما مناسبا .

ينبغى على المرء عند أى تقييم لاسهامات موراي أن يجمع بين النظرية والرجل وأبحاثه . ولا يمكن أن يوجد ثمة شك فى أن هذا المزيج قد وضع علامة ساطعة الاصاله فى مجال للبحث كانت تعوزه الحاجة الى مثل تلك الصفات . ان الوقوف دون حراك امام أحداث ثابتة كانت تافهة انما هو على المدى البعيد واحد من أكبر أعداء التقدم النظرى والتجريبى . ولا يوجد من ينقد الفحوص والنظريات التافهة فى بحوث الشخصية بلا هوادة مثلما فعل هنرى موراي .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Murray, H. A. (and collaborators). *Explorations in personality*. New York: Oxford, 1938.
- Murray, H. A. Toward a classification of interaction. In T. Parsons and E. A. Shils (Eds.). *Toward a general theory of action*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1951a, pp. 434-464.
- Murray, H. A. Some basic psychological assumptions and conceptions. *Dialectica*, 1951b, 5, 266-292.
- Murray, H. A., and Kluckhohn, C. Outline of a conception of personality. In C. Kluckhohn, H. A. Murray, and D. Schneider (Eds.). *Personality in nature, society, and culture*. 2nd Ed. New York Knopf, 1953, pp. 3-52.
- Murray, H. A., and Morgan, Christiana D. A clinical study of sentiments. *Genet. Psychol. Monogr.*, 1945, 32, 3-311.

REFERENCES

- Morgan, Christiana D., and Murray, H. A. A method for investigating fantasies. *Arch. Neurol. Psychiat.*, 1935, 31, 239-306.
- Murray, H. A. The effect of fear upon estimates of the maliciousness of other personalities. *J. soc. Psychol.*, 1933, 4, 310-329.
- Murray, H. A. Basic concepts for a psychology of personality. *J. gen. Psychol.* 1936, 15, 241-268.
- Murray, H. A. (and collaborators). *Explorations in personality*. New York: Oxford, 1938.
- Murray, H. A. What should psychologists do about psychoanalysis? *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1940, 35, 150-175.
- Murray, H. A. *Manual of Thematic Apperception Test*. Cambridge, Mass: Harvard Univ. Press, 1943.
- Murray, H. A. Problems in clinical research: round table. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 1947, 17, 203-210.
- Murray, H. A. Introduction. In H. Melville. *Pierre, or the ambiguities*. New York: Farrar Straus, 1949a, pp. viii-ciii.
- Murray, H. A. Research planning: a few proposals. In S. S. Sargeant (Ed.). *Culture and personality*. New York: Viking Fund, 1949b, 195-212.
- Murray, H. A. Toward a classification of interaction. In T. Parsons and E. A. Shils (Eds.). *Toward a general theory of action*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1951a, pp. 434-464.

- Murray, H. A. Some basic psychological assumptions and conceptions. *Dialectica*, 1951b, 5, 266—292.
- Murray, H. A. In *Nomine Diaboli*, *New Eng. Quart.*, 1951c, 24, 435—452. (*Princeton Univ. Library Chronicle*, 1952, 13, 47—62).
- Murray, H. A. American Icarus. In A. Burton and R. E. Harris (Eds.). *Clinical studies in personality*. Vol. 2. New York: Parper, 1955, p. 615—641.
- Murray, H. A., and Kluckhohn, C. Outline of a conception of personality. In C. Kluckhohn, H. A. Murray, and D. Schneider (Eds.). *Personality in nature, society, and culture*. 2nd Ed. New York: Knopf, 1953, pp. 3—52.
- Murray, H.A., and Morgan, Christiana D. A clinical study of sentiments. *Genet. Psychol. Monogr.*, 1945, 32, 3—311.
- Murray, H.A., and Wheeler, D. R. A note on the possible clairvoyance of dreams. *J. Psychol.*, 1937, 3, 309—313.
- Office of Strategic Services Assessment Staff. *Assessment of Men*. New York: Rinehart, 1948.
- Wolf, R., and Murray, H. A. An experiment in judging personalities. *J. Psychol.*, 1937, 3, 345—365.

الفصل السادس

نظرية المجال عند ليفين

أثرت العلوم التي هي أقدم كالطبيعة والكيمياء كثيرا في مسار العلوم التي هي أحدث ، كعلم النفس مثلا ، وذلك بتزويدها بطرق للتفكير في الظواهر الطبيعية ولتصورها . وما أن تنشأ وجهات نظر جديدة في الطبيعة والكيمياء ، حتى ليكاد يكون حتما - نظرا للوحدة الأساسية بين جميع العلوم - أن تتلقفها العلوم التي أقل نضجا وأن تطبقها في مجالات تخصصها . لذلك فانه مما لا يستوجب الدهشة أن ما يسمى بمفهوم المجال في علم الطبيعة كان له تأثيره في الفكر السيكلوجي الحديث ، وقد بدأ هذا المفهوم بأعمال فاراداي وماكسويل وهيرتز في المجالات الكهرومغناطيسية في القرن التاسع عشر ، وانتهى بنظرية اينشتاين الفائقة في النسبية في القرن العشرين . الا أنه يجب أن نبين . كما فعل دويتش (١٩٥٤) أن ما أخفه علم النفس هو « منهج » تمثيل الواقع ، وليس المفهومات والحقائق الطبيعية الفعلية ذاتها .

ولقد ظهرت أول المظاهر الهامة لتأثير نظرية المجال في الطبيعة على علم النفس في الحركة المعروفة باسم علم النفس الجشطالتي ، والتي بدأها ثلاثة من علماء النفس الألمان هم ماكس فرتيمر وفولفجانج كوهلر وكورت كوفكا ، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى . والفكرة الأساسية في علم النفس الجشطالتي هي أن الطريقة التي يتم بها ادراك موضوع ما يحددها السياق أو الصياغة الكلية Configuration التي يوجد فيها الموضوع . فالعلاقات القائمة بين مكونات المجال الإدراكي ، وليست الخصائص الثابتة لهذه المكونات الفردية ، هي التي تحدد الإدراك .

ولقد زامل كورت ليفين فرتيمر وكوهلر في جامعة برلين في السنوات التالية على الحرب العالمية الأولى . وقد ولد ليفين في بروسيا عام ١٨٩٠

والتحق بجامعة فرايبيرج وميونخ ، وبرلين التي حصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٩١٤ . وبعد خدمة في الجيش الألماني استمرت أربع سنوات ، عاد الى جامعة برلين مدرسا وباحثا مساعدا في معهد علم النفس . وفي عام ١٩٢٦ عين أستاذا للفلسفة وعلم النفس . وعندما وصل هتلر الى الحكم كان ليفين أستاذا زائرا في جامعة ستانفورد . وعاد الى ألمانيا فترة قصيرة لينقل أسرته وليدبر أموره ، وما ان تم له ذلك حتى أقام إقامة دائمة في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد عمل أستاذا لعلم نفس الطفل في جامعة كورنل لمدة عامين من سنة ١٩٣٣ الى سنة ١٩٣٥ ، ثم دعي الى جامعة أيوا Iowa أستاذا لعلم النفس في مركز رعاية الطفل . وفي سنة ١٩٤٥ قبل ليفين أن يعمل أستاذا ومديرا لمركز بحوث ديناميات الجماعة بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا . ومات في نيوتونفيل في ولاية ماساشوستس في الثاني عشر من فبراير عام ١٩٤٧ في السادسة والخمسين من عمره .

والكثيرون من زملاء ليفين يعتبرونه من أكثر الشخصيات نبوغا في علم النفس المعاصر . (ج . و . أولبورت ١٩٤٧ ، تولان ١٩٤٨) . وقد تركت كتاباته النظرية وأعماله التجريبية أثرا لا يحصى في تطور علم النفس (ليفين ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٥١) . ويمثل ليفين أولا ، وبصفة خاصة ، تطبيق نظرية المجال في جميع فروع علم النفس . فنظرية المجال لم تكن بالنسبة لليفين مدرسة جديدة في علم النفس لها مضمونها المحدد ، بل مجموعة من المفاهيم يستطيع المرء بها تمثيل الواقع السيكولوجي (١٩٣٦ ، أ ص ٦ - ٧) . ويجب أن تكون هذه المفاهيم من الاتساع بحيث يمكن تطبيقها على جميع أشكال السلوك وأن تكون في نفس الوقت من النوعية بحيث تمثل شخصا بعينه في موقف عياني ملموس . ويمكن تلخيص السمات الأساسية لنظرية المجال عند ليفين كما يلي :

- ١ - السلوك وظيفية المجال الذي يوجد في الوقت الذي يحدث فيه السلوك .
- ٢ - يبدأ التحليل بالموقف ككل ، ومن المواقف تتمايز الأجزاء المكونة .
- ٣ - من الممكن تمثيل الشخص الفعل - العياني ، والموقف الفعل العياني رياضيا .

ويؤكد ليفين كذلك أهمية القوى التي تسهم في تحديد السلوك ،
ويحرب عن تفضيله للوصف السيكولوجي للمجال على الوصف الفيزيائي
أو الفسيولوجي . ويعرف المجال بأنه : « جماع الوقائع الموجودة معا والتي
تدرك على أنها يعتمد بعضها على البعض الآخر » (ليفين ١٩٥١ أ ص
٢٤٠) .

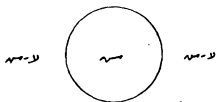
ولقد طبق ليفين مفهومات نظرية المجال على ظاهرات سيكولوجية
 واجتماعية شديدة التباين بما في ذلك سلوك الطفل والرضيع (ليفين
 ١٩٥١ الفصل العاشر) ، والمراهقة (١٩٥١ الفصل السادس) والضعف
 العقلي (١٩٣٥ أ ، الفصل السابع) ، ومشكلات جماعات الأقليات
 (١٩٣٥ ب ، ١٩٤٦) ، وفروق الطابع القومي (١٩٣٦ ب) وديناميات
 الجماعة (ليفين ١٩٤٨) ولم يكن ليفين - شأنه في ذلك شأن الكثيرين
 من أصحاب نظريات الشخصية - مفكرا يعيش في برج عاجي ، يدير
 ظهره لمشاكل العالم . بل كان شخصا له تعاطفه الانساني الواسع وقيمة
 الديمقراطية ، ولقد حاول ، بصورة مباشرة الى حد ما ، أن يعالج بعض
 المشاكل التي تواجه الانسان ، وذلك بقيامه بذلك النمط من البحوث
 الذي يطلق عليه اسم «بحث هو الفعل» Action Research وهدفه هو
 تفسير الظروف الاجتماعية . وتوجد أمثلة البحوث التي قام بها ليفين
 وزملاؤه في كتاب بافيلوس وليفين (١٩٤٢) وليفين (١٩٤٣ ، ١٩٤٦ ،
 ١٩٤٧ ، ١٩٤٨) .

وستركز في هذا الفصل اهتمامنا على نظرية ليفين في بناء
 الشخصية ودينامياتها وارتقائها وتطورها . كما سنتناول البيئة
 السيكولوجية ، طالما أن الشخص وبيئته هما منطقتان تتوقف كل منهما
 على الأخرى وتعتمد عليها داخل « حيز الحياة » Life Space وهو اللفظ
 الذي استخدمه ليفين للتعبير عن المجال السيكولوجي الكلي .

بناء الشخصية : Structure of Personality

ان الخطوة الأولى في تعريفنا للشخص كمفهوم بنائني أن نمثل
 كيان منفصل عن كل ما عداه في العالم . ويمكن أن يحدث هذا الفصل
 بواسطة الكلمات ، كما يفعل تعريف قاموس ، فمثلا الشخص كائن
 انساني فرد (تعريف قاموس وبستر) كما يمكن أن يحدث بوساطة
 التمثيل المكاني للشخص . ولما كان التمثيل المكاني قابلا للمعالجة

الرياضية . على حين لا يمكن ذلك بالنسبة للتعريفات اللفظية المألوفة. فان ليفين يفضل تعريف مفوماته البنائية بواسطة العلاقات المكانية . وبهذه الطريقة يحاول ليفين أن يضمن على مفوماته من البداية طابعا رياضيا . واحدى المزايا الهامة لهذا النمط من الاستراتيجية العملية كما يراه ليفين، ان التمثيل الرياضى يقتضى صياغة دقيقة ، على حين يتزايد احتمال عدم الدقة والابهام فى التعريفات اللفظية . والتمثيل الرياضى ، بالاضافة الى ذلك ، يمكن استخدامه فى ابراز المعلومات الهامة ، باستخدامه - أى التمثيل الرياضى - فى عمليات رياضية مختلفة . والمجهولات يمكن انتماس طول لها ، والمصادقات المنطقية التى تربط بين مختلف المفومات يمكن كتابتها ، والعلاقات الوظيفية يمكن صياغتها ، لمجا الكلمات ، فعلى العكس من ذلك ، تفقد الى المزيد من الكلمات . ويذكرنا ليفين بأن الرياضيات هى اللغة الأصيلة للبحث العلمى ، وان كان النمط الذى يستخدمه ليفين من الرياضيات للتعبير عن المفومات السيكلوجية ، ليس هو النوع الذى يالقه معظم الناس . فالرياضيات التى يستخدمها ليفين رياضيات ذات طبيعة غير مترية ، كما أنها تصف العلاقات المكانية بغير الاصطلاحات الأقليدية . فهى فى جوهرها رياضيات تصف العلاقات والاتصالات القائمة بين المجالات المكانية دون مراعاة الحجم والشكل .



شكل (١)

ويتم الفصل بين الشخص وبقية العالم برسم شكل مفلق كما فى شكل (١)

ويعين محيط الشكل حدود الكيان الذى نطلق عليه اسم الشخص . وكل ما يوجد داخل هذه الحدود فهو ش (أى الشخص) وكل ما يوجد خارج الحدود فهو لا - ش . ولا يختلف الأمر بحال ما اذا كان الشكل المرسوم دائرة أو مربعاً أو مثلثاً ، أو شكلاً من ثمانى أضلاع ، أو حتى شكلاً غير منتظم ، ما دامت له حدوده المطلقة تماما .

ولنتوقف قليلا قبل أن نتناول ما سبق لنا من تصوير ذهني لتمثيل الشخص كشكل مفلق . ونظرا لأن الحجم المطلق أو الشكل من الخصائص غير الهامة في هذا التمثيل ، فإن السمة الهامة الوحيدة في الشكل (1) هي أنه يصور لنا منطقة محددة تماما داخل منطقة أكبر منها . وبذا نتبين أنها بهذا التصور الذهني تعرب عن خاصيتين للشخص برسم دائرة على قطعة من الورق . وهما :

١ - فصله عن بقية العالم برسم حدود مستمرة .

٢ - وضعه داخل منطقة أكبر . ان الخاصية الأولى هي التمايز أو التفاضل Differentiation أما الثانية فهي علاقة الجزء بالكل . Part-whole relationship أي أننا - باختصار نمثل الشخص بوصفه منفصلا عن كل أكبر ، ومندمجا في نفس الوقت داخل هذا الكل . ومثل هذا التصور العقلي لا يخالف الفطنة العامة ، ما دام جلد الشخص أو ملابسه حدودا واضحة تفصله عن عالمه الأوسع الذي يتحرك خلاله ، والذي يكون في نفس الوقت - بلا شك - جزءا منه .

البيئة النفسية :

لو أن اهتمامنا كان مقصورا على الشخص فحسب ، دون العالم الذي هو جزء منه ، لقصرنا انتباهنا على خصائص المنطقة التي تحيط بها الدائرة ، وتجاهلنا الحدود وما خلفها . ولو أننا سرنا على هذه الطريقة ، لكان في ذلك تجاهل للتفاعلات الهامة بين الشخص وبيئته .

ان الخطوة الثانية ، إذن ، في تمثيلنا للواقع السيكولوجي هي أن نرسم شكلا آخر له حدوده يكون أكبر من الشخص ويحيط به . ويفضل ليفين لتمثيل ذلك شكلا بيضاويا تقريبا . ولا بد له أيضا من خصائص اضافية أخرى . فلا يستطيع الشكل الجديد أن يشارك في أي جزء من حدود الدائرة التي تمثل الشخص . فلا بد من ترك فراغ بين حدود الشخص وحدود الشكل الأكبر . وما عدا هذا القيد ، فإن من الممكن وضع الدائرة داخل أي مكان من الشكل البيضاوي . كما أن حجم الشكلين كل واحد منهما بالنسبة للآخر ليس هاما .

ولدينا الآن صورة دائرة ، يحيط بها ، دون أن يلمسها شكلا بيضاوي . أما المنطقة بين المحيطين فهي البيئة النفسية ويرمز إليها بـ «ب»



شكل (٢)

وتسمى المنطقة الكلية داخل الشكل البيضاوي ، بما في ذلك اندائرة بحيز الحياة ، Life Space . أما الفراغ الموجود خارج الشكل البيضاوي فيمثل الجوانب غير النفسية من العالم ،سوليكون الأمر أكثر يسرا، سنسمى هذه المنطقة بالعالم الفيزيقي ، وان كانت غير مقصورة على الواقع الفيزيقي وحدها . فهناك مثلا وقائع اجتماعية كذلك في العالم غير النفسي واذ كان هذا التمرين البسيط في رسم الأشكال قد يبدو عديم الجدوى ، فانه لا غنى عنه لفهم وتقويم نظرية ليفين . وينهب ليفين الى أنه من الضروري الابتداء بصورة شاملة للواقع النفسي ، صورة تتسم باكبر درجات الصسق ، ثم تتقدم بعد ذلك ، خطوة اثر خطوة لتتمايز داخل هذه البانوراما الواسعة التفاصيل التي نستطيع بفضلها الوصول الى فهم دقيق للواقع العياني للموقف النفسي . ذلك ان ليفين يرى أنه لو كانت الصورة العامة للواقع النفسي غير دقيقة ، لما امكن أن تكون الصورة التي أكثر تفصيلا صحيحة .

ان « الدائرة داخل البيضاوي » ليست مجرد تصوير أو وسيلة تلميمية ، بل انها تمثيل أمين لأعم المفهومات البنائية في نظرية ليفين ، أعني ، الشخص والبيئة النفسية . وحيز الحياة . ان « الدائرة - داخل - البيضاوي » خريطة تمثل التصور الفكري للواقع ، ووظيفتها - شأنها في ذلك شأن أي خريطة - أن ترشد مستخدمها عبر منطقة غير مالوفة ، وهي بذلك تعرفه بحقائق جديدة عن الواقع .

حيز الحياة : The Life Space

بالرغم من أننا بدانا بالشخص ، ثم احطناه بعد ذلك بالبيئة النفسية ، فاننا لو كنا قد بدانا بحيز الحياة ثم فاضلنا بداخله الشخص والبيئة لكنا أكثر امتثالا للقاعدة ليفين في الابتداء من الصام الى

الجزئي . ذلك أن حيز الحياة هو عالم الاخصائي النفسى ، انه الواقع
 السيكولوجى بأسره . وهو يحتوى على مجموع الوقائع الممكنة . الفاعلة
 على تحديد سلوك الفرد . انها تتضمن كل ما علينا أن نعرفه حتى
 نستطيع فهم السلوك العيانى لكائن انسانى ما فى بيئة سيكولوجية معينة
 وفى وقت معين . ان السلوك هو وظيفة حيز الحياة أى س = و (ج) .
 ان مهمة علم النفس الدينامى أن يستخلص بصورة لا لبس فيها سلوك
 شخص معين من مجموع الوقائع السيكولوجية الموجودة فى حيز الحياة
 فى لحظة محددة ، (ليفين ١٩٣٦) .



شكل (٣)

وإذا كان صحيحا أن حيز الحياة يحيط به العالم المادى (الفيزيقي) ،
 فان ذلك لا يعنى أن حيز الحياة جزء من العالم الفيزيقي . بل الأخرى أن
 حيز الحياة والفراغ المتاخم له هما مناطق متفاضلة ومنفصلة من كل أكبر .
 وسواء كان هذا الكل الأكبر ، الكون ، محددا ، أم غير محدد ، هيوليا غير
 ذى معالم ، أو له معالم ، فان هذا أمر لا يهم علم النفس الا من ناحية
 واحدة فقط بالغة الأهمية . فالوقائع الموجودة فى المنطقة خارج حدود
 حيز الحياة والمتاخمة له ، وهى المنطقة التى يطلق ليفين عليها اسم « الغلاف
 الغريب على حيز الحياة » Foreign hall ، هذه الوقائع تستطيع أن تحدث
 تأثيرا فعليا فى البيئة النفسية . أى أن الوقائع غير النفسية تستطيع أن
 تغير من الوقائع النفسية ، بل انها تغيرها بالفعل . وقد اقترح ليفين أن
 يطلق على دراسة وقائع الغلاف الغريب اسم « الايكولوجيا السيكولوجية »

« الحراسة النفسية للبيئة » (١٩٥١ ، فصل ٨) . ان الخلوة الاولى فى القيام ببحث سيكولوجى هى ابراز طبيعة الوقائع الموجودة عند حدود حيز الحياة طالما ان هذه الوقائع تساعد على تحديد الممكن وغير الممكن ، ما قد يحدث وما ربما لا يحدث فى حيز الحياة . ولقد قام ليفين بذلك فعلا قبل ان يشرع فى بحث عادات الطعام عند الناس ، وكيف يمكن تغييرها (١٩٤٣ ، ١٩٥١ ، الفصل الثامن) .

كذلك يمكن ان تحدث وقائع البيئة النفسية تغيرات فى العالم المادى . فتمتة اتصال من شعبتين بين الجانبين كذلك ، يقال ان الحدود الفاصلة بين حيز الحياة والعالم الخارجى تنسم بخاصية « النفاذية » . فالحدود تشبه الغشاء النفاذ أو الستارة أكثر مما تشبه الحائط أو الحاجز الصلب : ويجب أن نلاحظ ، بالإضافة الى ما سبق ، أن العالم الخارجى لا يستطيع الاتصال المباشر بالشخص ، كما أن الشخص لا يستطيع أن يتصل مباشرة بالعالم الخارجى . فلا بد أن توجد الواقعة فى البيئة النفسية قبل أن تؤثر فى الشخص أو تتأثر به . ويتضح هذا من الشكل الذى يمثل الشخص وقد أحاطت به منطقة البيئة النفسية احاطة تامة .

ان النفاذية التى تنسم بها الحدود الفاصلة بين حيز الحياة والعالم المادى لها دلالة بعيدة المدى . وطالما أن واقعة ما فى العالم غير السيكولوجى ، قد تغير كليا مسار الأحداث فى حيز الحياة تغيرا جذريا فانه يصبح من غير المجدى التنبؤ على أساس المعرفة بالقوانين النفسية وحدها . وليس بوسع أحد على الاطلاق أن يتيقن مقدما أن واقعة ما من الغلاف الغربى ربما لا تنفذ خلال حدود حيز الحياة لتقلب راسا على عقب كل شئ فى البيئة النفسية . وقد يحدث أن يؤدى لقاء عارض ، أو حديث تليفونى غير متوقع أو حادث سيارة الى تغيير مجرى حياة أى شخص . كذلك يصبح من الأوفق ، كما يؤكد لنا ليفين ، أن يحاول الاخصائى النفسى فهم الموقف النفسى العيائى الراهن ، وذلك بوصفه وتفسيره مستخدما اصطلاحات نظرية مجالية ، بدلا من أن يحاول أن يتنبأ بالكيفية التى سيكون عليها سلوك شخص ما فى فترة من المستقبل .

ولمة خاصة أخرى لحيز الحياة يجب ملاحظتها . فهبالرغم من أن الشخص تحيط به بيئته النفسية ، فانه ليس جزءا من البيئة ، ولا يندرج داخل نطاقها . فالبيئة النفسية تنتهى عند حدود الدائرة تماما ، كما

ينتهي العالم غير النفسى عند حدود البيضاوى • غير أن الحدود الفاصلة بين الشخص والبيئة هى الأخرى قابلة للنفاد • ويعنى هذا أن وقائع البيئة يمكن أن تؤثر فى الشخص ، أى أن ش = و (١) ، كما أن الوقائع الشخصية يمكن أن تؤثر فى البيئة ، أى ب = و (ش) • وقبل أن نتناول طبيعة هذا التأثير لابد من إبراز تفاضل آخر داخل بناء الشخص والبيئة •

الشخص المتفاضل أو المتمايز :

لقد مثلنا الشخص حتى الآن بدائرة فارغة • ولو أن الشخص كان وحدة كاملة ، لكان التمثيل مناسباً ، إلا أنه ليس كذلك • ويذهب ليفين إلى أن بناء الشخص بناء متغاير وليس متجانساً ، أى أنه بناء مقسم إلى أجزاء منفصلة إلا أنها تتبادل التواصل والاعتماد فيما بينها • ولتمثيل هذا الوضع تقسم المساحة الموجودة داخل الدائرة إلى مناطق •

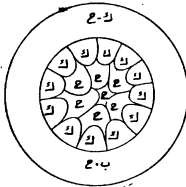
ويتم ذلك باتباع ما يلى : أولاً ، يقسم الشخص إلى جزأين ، وذلك برسم دائرة أصغر داخل الدائرة الكبرى لها نفس المركز • ويمثل الجزء الخارجى المنطقة الإدراكية الحركية (ك - ح) (٢) ، أما الجزء المركزى فيمثل المنطقة الشخصية - الداخلية (د - ش) (٣) • وتحيط المنطقة الشخصية - الداخلية إحاطة تامة بالمنطقة الإدراكية - الحركية ، بحيث لا تتيح لها فرصة الاتصال المباشر بالحدود التى تفصل الشخص عن البيئة •

والخطوة التالية هى تقسيم المنطقة الشخصية - الداخلية إلى خلايا وتسمى الخلايا المجاورة للمنطقة الإدراكية الحركية بالخلايا المحيطية ، أو (م) أما التى توجد فى المركز فتسمى بالخلايا المركزية (ز) ، ولا يأخذ ليفين موقفاً واضحاً شافياً حيال تفاضل المنطقة الإدراكية - الحركية إلى مناطق أصغر •

(١) ش = شخص ، و = وظيفة ، ب = بيئة •

(٢) ك = ادراك ، ح = حركة •

(٣) د = داخلية ، ش = شخصاً •



شكل (أ)



شكل (ب)

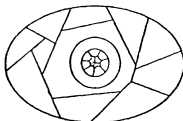
وهو يرى أن النظام الحركي يصل كوحدة ، ولذلك فإنه يستطيع عادة أن يقوم بعمل واحد فقط في وقت واحد . وبالمثل ، فإن النظام الإدراكي يؤدي وظائفه عادة بطريقة موحدة ، أي أن الشخص يستطيع أن ينتبه إلى شيء واحد فقط وأن يدركه في وقت واحد . إلا أنه من الواضح أنه يجب فصل النظام الحركي عن النظام الإدراكي لأن كلا منهما مستقل عن الآخر . أما كيف يتم تصور هذا الفصل مكانياً فهو أمر لم يعلن . وربما كان خير الحلول ، وهو الحل الذي يبدو أن ليفين قد تبناه ، فهو أن يترك النظام الإدراكي الحركي غير موضح البناء والتكوين ، عل أن يكون مفهوماً أنه عندما يكون اتجاه التأثير من البيئة إلى الشخص فإن المنطقة المحيطة بالجال الشخصي الداخلي تمثل العمليات الإدراكية ، وعندما يكون اتجاه التأثير من الشخص إلى البيئة فإن نفس هذه المنطقة تمثل الجانب الحركي . ويتفق هذا مع وجهة النظر المألوفة حيث يتضمن المدخل ادراكاً ، ويتضمن المخرج فعلاً حركياً .

وأمامنا الآن تمثيل تصوري ذهني دقيق لبناء الشخص . فالشخص يعرف بوصفه منطقة متفاضلة في حيز الحياة . والآن لنتناول البيئة .

البيئة المتفاضلة :

البيئة المتجانسة أو غير المتفاضلة هي تلك التي يتساوى فيها تأثير جميع الوقائع على الشخص . ويكون للشخص في مثل هذه البيئة حرية كاملة في الحركة طالما ليست هنالك حواجز تعوقه . ومثل هذه الحرية

الكاملة في الحركة ، لا تمثل ، كما هو واضح ، حقيقة الأمر . لذلك يكون لزاما أن نقسم البيئة الى مناطق جزئية . وليس هناك فرق بين تفاضل البيئة وتفاضل الشخص . وليس من الضروري أن نفرق بين أنواع مختلفة من مناطق البيئة . فالبيئة لا تحتوى على أى شيء يمكن موازنته بالطبقات الإدراكية - الحركية ، أو الغلاف الداخلى الشخصى . فجميع مناطق البيئة متشابهة . وعلى ذلك يمكن لاي نمط متشابه من الخطوط أن يؤدي الغرض المقصود . الا أنه يجب علينا أن نذكر أنه عند التمثيل العياني لشخص ما ، فى موقف سيكولوجى عياني ، وفى فترة محددة ، يصبح من الضروري معرفة العدد الدقيق والأوضاع النسبية للمناطق الجزئية البيئية ، كما يصبح من الضروري كذلك معرفة الرقم الدقيق ، والأوضاع النسبية للغلاف الشخصى الداخلى ، اذا ما أردنا أن نفهم السلوك فالتحليل البنائى الكامل والدقيق يكشف عن مجموع الوقائع النفسية الممكنة فى الموقف الراهن . والتحليل الدينامى ، وهو الموضوع الذى يتعرض له الجزء التالى من هذا الفصل ، يعرفنا بأى من الوقائع الممكنة سوف يحدد فصلا السلوك .

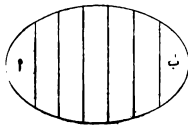


شكل ٢٧

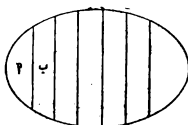
الاتصالات بين المناطق :

- يمثل الآن حيز الحياة بالشخص المتفاضل تحيط به بيئة متفاضلة . ويتم هذا التفاضل عن طريق رسم خطوط تعمل كحدود بين المناطق .
- غير أن الهدف من ذلك ليس هو أن تمثل هذه الحدود حواجز لا يمكن عبورها تقسم الشخص والبيئة الى مناطق مستقلة لا اتصال بينها .
- والقابلية للنفوذ ، كما سبق أن ذكرنا ، هى احدى خصائص الحدود . وعلى هذا ، يتكون المجال الحيوى من شبكة من النظم التى يتبادل فيما بينها الاتصال .

ولكن ، ما الذى نعيه عندما نقول أن المناطق متصلة ؟ لكى نجيب عن هذا السؤال فلنفترض أن كلا من المناطق الجزئية للبيئة يحتوى على واقعة نفسية واحدة ، وأن نفس هذه الواقعة لا تظهر فى أكثر من منطقة فى نفس الوقت . قد يبدو استخدام ليعين لكلمة واقعة fact فى هذا السياق غريبا عند البعض . فالواقعة عند ليعين ليست فحسب شيئا يمكن ملاحظته كالكرسى أو مباراة فى كرة القدم ، بل انها أيضا ، شيء ربما لا يمكن ملاحظته مباشرة ، وانما يمكن استنتاجه من شيء آخر يمكن ملاحظته . بمباراة أخرى ، هناك وقائع تجريبية أو ظواهرية ووقائع فرضية أو دينامية . وائى شيء سواء كان محسوسا أو مستنتجا ، هو واقعة عند ليعين . أما الحادث ، فهو من ناحية أخرى ، نتاج التفاعل بين العديد من الوقائع . فالكرسى والشخص كل منهما واقعة ، أما الشخص الجالس على الكرسى فهو حدث Event . ويقال على منطقتين انهما متصلتان عندما يكون هناك اتصال بين واقعة فى منطقة منهما واقعة أخرى فى المنطقة الثانية . فمثلا ، يقال ان الشخص متصل بالبيئة ، لأن واقعة ما فى البيئة يمكن أن تغير أو تعدل أو تأخذ مكان وقائع أخرى داخل الشخص ، أو أن تزيد أو تقلل من شدتها أو بعبارة أعم ، تستطيع أن تغير من الشخص والعكس صحيح . كذلك يقول ليعين أن منطقتين تصبحان متصلتين عندما تكون وقائع منطقة منهما فى متناول وقائع المنطقة الأخرى . ان امكان الاتصال هذه ، هى المقابل المكافئ للتأثير . وبذا تصبح مشكلتنا المباشرة هى كيف نمثل مبلغ أو مدى التأثير أو الاتصال بين المناطق . ان هناك طرقا عديدة للقيام بذلك . واحدى هذه الطرق ان نضع المناطق قريبة بعضها من البعض الآخر عندما يكون تأثير الواحدة على الأخرى كبيرا (شكل ٧) وأن نضعها بعيدة بعضها عن البعض الآخر عندما يكون التأثير ضعيفا (شكل ٨) . ويمثل عدد المناطق الموجودة بين أ ، ب مدى تأثير كل منهما على الآخر . وهذا النمط من التمثيل أو التصوير يمكن تسميته ببعد ، القرب - البعد » .



شكل (أ)

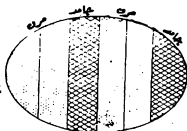


شكل (ب)

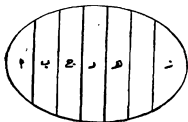
مثال ذلك ، أن المنطقة المدفونة في أعماق الجزء المركزي من الطبقات الشخصية الداخلية قد يبعدها عن المنطقة الإدراكية - الحركية العديد من الخلايا . وفي ظل مثل هذه الظروف قد يصبح من السهول على واقعة بيئية الوصول الى المنطقة المركز القاصية ، وبالمثل كذلك ، قد يصعب ، أو يتعذر على واقعة مكانها المنطقة المركزية أن تتصل بالبيئة . وبذا يكون لكل منهما استقلالها النسبي عن الواقعة الأخرى . وعلى العكس من ذلك قد تجد منطقة محيطية من المجال الشخصي - الداخلي مجاورة للنظام الإدراكي الحركي يسرا بالغا في الاتصال بالوقائع البيئية .

وقد تقترب منطقتان أشد الاقتراب حتى لتكاد تكون حدودهما مشتركة ، ولكن لا تؤثر منطقة منهما في الأخرى أو تكون في متناولها . ودرجة الاتصال أو تبادل الاعتماد ليست ، مسألة عدد الحدود التي يجب اختراقها فحسب ، بل انها تعتمد كذلك ، على قوة المقاومة التي تتسم بها الحدود . فإذا كانت المقاومة بالغة الشدة ، فإن قرب المنطقتين أو بعدهما لن يكون له تأثير كبير . وعلى العكس من ذلك ، قد يكون البعد شاسعا بين منطقة وأخرى ، ويظل برغم ذلك تأثير الواحدة على الأخرى كبيرا ، هذا إذا كانت جميع الحدود الفاصلة بينهما بالغة الضعف .

ويمثل عرض خط الحد مقاومة الحد boundary أو قابليته للنفاذ . فالخط الرفيع للغاية يمثل حدا ضعيفا ، والخط السميك جدا يمثل حدا غير قابل للنفاذ (شكل ٩) ويمكن أن نسمي هذا النمط من التمثيل ببعد



شكل (١)



شكل (٩)

« الضعف - الصلابة » وليس لزاما أن يكون الحد قابلا للنفاذ بنفس الدرجة من الجانبين أي أن واقعة في المنطقة أ قد تؤثر في واقعة في المنطقة ب ، على حين ربما لا يكون لواقعة في المنطقة ب تأثير على واقعة في

المنطقة أ ، وليس هناك طريقة لتمثيل هذا الاختلاف في تبلل التأثير ،
 الا بعمل رسمين ، يكون خط الحد في أحدهما رفيعا ، وفي الآخر سميكاً ،
 وهذا أمر مقبول فكريا ، مادام تأثير أ على ب يمثل موقفا مختلفا نفسيا
 عن الموقف الذي يمثله تأثير ب على أ . وهناك طريقة ثالثة لتمثيل
 الاتصالات بين المناطق ، وذلك بأن نأخذ في اعتبارنا طبيعة الوسط الذي
 تتكون فيه المنطقة . فوسط المنطقة هو خاصيته الأرضية أو السطحية .
 ولقد ميز ليفين خصائص عديدة للوسط ، أهمها جميعا بعد « الجمود -
 المرونة » . فالوسط المرن هو ذلك الذي يستجيب سريعا لأي تأثير يكون
 له وقع عليه . فهو مرن لذن . أما الوسط الجامد فيقاوم التغيير . انه
 جامد غير مرن ، (شكل ١٠) وان منطقتين تتصلبان بينهما منطقة ثالثة
 يتميز سطحها كغيا بالجمود البالغ ، لن يمكنها التواصل فيما بينهما .
 وبشبهه هذا الموقف شخصا يحاول عبور أحد الأعراس أو اختراق منطقة
 ذات شجيرات كثيفة . ومن الممكن تمثيل معظم الارتباطات الممكنة في حيز
 الحياة باستخدام مفهومات القرب - البعد ، والصلابة الضعف ، والمرونة
 - الجمود . ولناخذ كذلك أمثلة عيانية قليلة . فحدود حيز الحياة في
 شكل (١١) سميكة ، علي حين نجدها رقيقة في شكل (١٢) . ويصور
 الشكل رقم (١١) موقفا للعالم الخارجي فيه تأثير ضئيل على حيز الحياة
 كما أن لميز الحياة تأثيرا ضئيلا كذلك على العالم الخارجي . فالشخص يكون
 متقوقا داخل بيئته النفسية ، واتصالاته بالواقع المادي ضئيلة . وذلك
 يدفعنا الى التفكير في فصامي متدهور أو في شخص نائم أو حالما أما
 الشكل (١٢) فيصور لنا الموقف المقابل . فحيز الحياة والعالم الخارجي ،



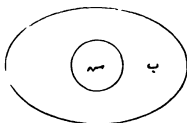
شكل (١٢)



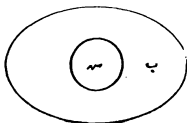
شكل (١١)

على اتصال وثيق والتغيرات الحادثة في العالم الخارجي تؤثر في حالة حيز
 الحياة ، كما تؤثر التغيرات الواقعة في حيز الحياة في العالم الخارجي ،
 وهذه صورة شخص تتجاوب بيئته النفسية تجاوبا وثيقا مع العالم

المادى • فأبسط التغيرات فى « الغلاف الغربى » تنعكس سريعا فى شكل تغيرات فى البيئة النفسية • ويصور لنا الشكلان (١٣) و (١٤) شخصا قابلا للتأثير وآخر غير قابل للتأثر • فأحدهما معزول عن بيئته يحافظ سميكا ، أما الآخر فيمكنه اقامة التبادلات الحرة السهلة مع بيئته النفسية •

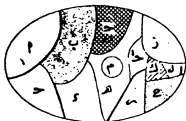


شكل (١٤)



شكل (١٣)

أما الشكل (١٥) فيصور لنا شخصا له بناء أكثر تعقيدا • فالخليتان م ١ ، م ٢ بينهما اتصال وثيق على حين يفصل م ٢ عن م ٣ حد قابل للنفاذ •



شكل (١٦)



شكل (١٥)

أما المنطقة ز (المركز) فاتصالها ضئيل أو معدوم بأى منطقة أخرى • وكان هذه المنطقة ، منطقة منفصلة عن بقية الشخص • أما الخلية ذات الخطوط المتقاطعة فغير قابلة للتأثر لما يتسم به سطحها من خاصية الانفتاح على حين تتأثر المنطقة المنفصلة بسهولة • أما المنطقة م ٤ فان اتصالها بعيد بالمنطقة م ١ ، م ٢ ، م ٣ • ويصور لنا شكل (١٦) بيئة نفسية ذات بناء معقد •

ويجب أن يكون واضحا في أذهانتنا أن هذه الرسوم تمثل مواقف مؤقتة . وليس بها أي ثبات أو جمود ، وأنها تتغير دائما ، نتيجة القوى الدينامية وليس بوسع احد أن يصف شخصا ما بأنه يتصف بكذا وكذا لأية فترة طويلة من الوقت . فمن الممكن أن يتفكك فجأة حد صلب ، وأن يتحول حد ضعيف ليصبح قويا . كما يمكن أن تقترب المناطق البعيدة بعضها من بعض . كما قد يتحول وسط صلب إلى الرخاوة ، وأن يتحول وسط مرن إلى الصلابة بل ، حتى عدد المناطق قد يزيد أو ينقص من لحظة لأخرى . ونتيجة ذلك ، لا يلبث التمثيل المكاني أن يصبح قديما متخلفا عن وقته ، وذلك لأن الواقع النفسي يتغير دائما . ولا يبدى ليفين ثقة كبيرة في السمات الثابتة ، أو العادات الجامدة ، أو أي ثوابت أخرى تتميز بها الشخصية . فمثل هذه المفهومات تميز التفكير الأرسطي . الذي لا يجعله ليفين كثيرا . (١٩٣٥ أ فصل ١) .

عدد المناطق :

ما الذي يحدد العدد الذي ستكون عليه المناطق في حيز الحياة ؟ ان الذي يحدد عدد المناطق ، هو عدد الواقع النفسي المنفصلة التي توجد في أي لحظة معينة من الوقت . فنلما تكون هناك واهتان فحسب ، الشخص والبيئة ، تكون هناك منطقتان فقط في حيز الحياة . وإذا احتوت البيئة ، مثلا ، على واقعتين ، واقعة العمل وواقعة اللعب ، وجب تقسيم البيئة إلى منطقة للعب وأخرى للعمل . وإذا كان هناك عدد من الأنواع المختلفة من وقائع اللعب ، مثال ذلك واقعة لعب كرة القدم ، وواقعة لعب الشطرنج ، وواقعة اللعب بالسهم . . . الخ يصبح من اللازم تقسيم المساحة الخاصة باللعب إلى عدد من المناطق الجزئية بقدر ما يوجد من وقائع منفصلة للعب . وبالمثل ، قد توجد أنواع مختلفة من وقائع العمل يصبح من الضروري أن تكون لكل منها منطقتها المنفصلة . أما إذا لم يكن الأمر يختلف بالنسبة للشخص سواء أكان سيلعب بكرة قدم أم بشطرنج أم بالسهم ؟ طالما أنه يلعب لعبة ما ، فإنه سوف تكون هناك في هذه الحالة منطقة واحدة للعب لا ثلاث مناطق . وبالنسبة للشخص الذي يظبه الفزع على أمره ، فإن البيئة النفسية بأسرها قد تصبح متلثة بواقعة واحدة ، هي الفزع . وقد تختفي جميع الوقائع الأخرى ، تاركة بيئة كاملة التجانس ، وما أن يشرع الشخص في استعادة ثباته ، حتى يستطيع أن يرى أن جزءا من بيئته يمنحه الأمن . وفي تلك اللحظة تبدأ البيئة في التمايز إلى منطقة وأخرى خطيرة . باختصار ، تتفاضل منطقة جديدة من

حين الحياة عندما تظهر الى الوجود واقعة جديدة ، وتختفى منطقة عندما تختفى واقعة او تبرز واقعة اخرى . ان الواقعة النفسية تتسق مع المنطقة النفسية . وكذلك يتحدد عدد المناطق في الشخص بوساطة عدد الوقائع الشخصية الموجودة فعلا . فاذا كان الشعور بالجموع هو الواقعة الوحيدة القائمة ، فان الغلاف الشخصي - الداخلي يتكون من منطقة واحدة فحسب . ولكن اذا كانت هناك بالاضافة الى واقعة الجموع ، حاجة الى انجاز عمل معين فانه يصبح من الضروري تقسيم المنطقة الشخصية - الداخلية الى منطقتين . وكما سنتبين فيما بعد ، تسمى الوقائع الأساسية للمنطقة الشخصية - الداخلية « بالمحاجات » ، *needs* ، على حين تسمى وقائع البيئة النفسية « بالتكافؤات » ، *valences* . وتحتل كل حاجة خلية منفصلة في المنطقة الشخصية - الداخلية ، ويحتل كل تكافؤ منطقة منفصلة في البيئة النفسية .

الشخص في البيئة :

عندما تعرضنا لمناقشة مكان الشخص في البيئة ، سبق ذكر ان المكان الذي تحتله الدائرة داخل البيضاوي ليس بذى أهمية طالما ان حدودها لا تتلامس . ولكن هذا ينطبق فقط على البيئة التجانسة غير المتفاضلة حيث تحتل جميع الوقائع نفس المنطقة الواحدة ، اى عندما تكون جميع الوقائع متماثلة . ولكن ما ان تتفاضل البيئة الى مناطق لها حدودها ، حتى يصبح للمكان الذي تحتله الدائرة أهمية كبيرة . ففي اى منطقة توضع الدائرة تصبح وقائع هذه المنطقة أكثر قربا من الشخص وأشد تأثيرا عليه بالقياس الى وقائع اى منطقة اخرى . لذلك ، يتطلب فهم موقف نفسى عيسى معرفة المكان الذي يحتله الشخص في بيئته النفسية . فقد يكون من الناحية الفيزيقية ، جالسا في حجرة الدراسة ، على حين يكون من الناحية النفسية يعيد لعب مباراة في البيزبول في ساحة الملعب . وبعض الوقائع الموجودة في حجرة الدراسة ، كالكلام الذى يقوله المدرس مثلا ، ربما لا يؤثر فيه على الاطلاق ، على حين قد تؤدي وقائع اخرى مثل ملحوظة من الفتاة الجالسة بجواره ، الى تحويل أفكاره بسهولة عن مباراة الكرة .

الحركة والاتصال :

تمثل الطريقة التى يتم بها تبادل الاتصال بين المناطق التى يتكون منها حيز الحياة ، درجة التأثير او القابلية للتواصل بين المناطق . ولكن

- على وجه الدقة - كيف يعبر هذا التأثير أو التناقل عن نفسه ؟ في مثالنا السابق عن الصبي الذى كان قابلا للتأثر بملاحظة من الفتاة على حين لم يكن قابلا للتأثر بما يقوله المدرس ، تعنى القابلية للتأثر أن الصبي قادر على التحرك بسهولة أكثر الى منطقة الفتاة ، بالقياس الى قدرته على التحرك الى منطقة المدرس . وعندما تؤدى الفتاة الفعل وهو ابداء الملاحظة للصبي ، فقد يتحرك الصبي خارج منطقة البيزبول والى منطقتها . لقد قام بما أسماه ليفين « الحركة locomotion » ويصبح الاتصال بين منطقتين وثيقا ، وتصبح كل منهما قابلة لأن تكون فى متناول الأخرى ، وتتبادل التأثير معها ، اذا كان من الممكن القيام بسهولة بالتحركات بين هاتين المنطقتين . ولا يعنى التحرك فى البيئة النفسية أن يحل الشخص أن يقوم بحركة فيزيقية فى الفراغ ، والحقيقة ، أن معظم التحركات التى تهم الانحوائى النفسى ، لا تتضمن الا قدرا ضئيلا من الحركة الفيزيقية . وهناك تحركات اجتماعية ، كالاشتراك فى ناد ، وهناك تحركات مهنية كالترقية ، وهناك تحركات عقلية كحل مشكلة ، وأنماط أخرى كثيرة من التحركات . وتبين الآن ، أن من الحواص الهامة للبيئة النفسية أنها منطقة من الممكن حدوث التحركات داخلها . ومن الممكن معاملة كل شىء ، يمكن للمرء ككل أن يقوم بالتحركات داخله أو نحوه أو بعيدا عنه على أنه بيئة . (ليفين ١٩٣٦ ، ص ١٦٧) . وعندما يقوم الشخص بالتحرك فإنه يعبر مرارا عبر البيئة . وتحدد اتجاه هذا المر والمناطق التى يمر بها جزئيا ، قوة المدود ومرونة المناطق ، وجزئيا ، عوامل دينامية سنناقشها فيما بعد .

وتأثير مناطق البيئة ، بعضها على البعض الآخر تعبر عنه اذن ، السهولة التى يستطيع الشخص بها الانتقال من منطقة الى أخرى . ولكن، هل التحرك أيضا هو الطريقة التى تكشف بواسطتها مناطق الشخص عن تأثيرها بعضها على بعض ؟ يقول ليفين لا . ان الشخص نفسه لا يمكن اعتباره الوسط الذى من خلاله يقوم موضوع ما بالتحرك من منطقة جزئية الى أخرى . (١٩٣٦ ، ص ١٦٨) . ويقال أن مناطق الشخصية تتواصل فيما بينها ، فالمنطقة الإدراكية تتواصل مع الخلايا المحيطية للمنطقة الشخصية - الداخلية ، وهذه تتواصل بدورها بالخلايا التى أقرب الى المركز . وتستطيع الخلايا الشخصية - الداخلية أن تتواصل فيما بينها، الواحدة بالأخرى ، كما تستطيع أن تتواصل مع الغلاف المركزى . ويحدد المناطق التى يمكن أن تتواصل بعضها مع بعض والمر الذى ينتقل عن

طريقه هذا الاتصال عبر عدد ما من المناطق ، جزئيا ، بخصائص بنائية مثل اتساع الحدود ، وطبيعة الوسط ، وجزئيا كذلك ، بعوامل دينامية .

ويقال أن التحرك والتواصل حدثان events ذلك أنها نتاج التفاعل بين الوقائع . ويجب أن نتذكر أن الواقعة تمثل عن طريق منطقة . وعلى هذا يمثل الحدث تفاعلا بين منطقتين أو أكثر . ويقول لنا ليفين أنه لابد لنا من اتباع ثلاثة مبادئ لاستخلاص وإبراز حدث ما ، كالتحرك أو التواصل مثلا في حيز الحياة . والمبدأ الأول ، الذي يسمى مبدأ الارتباط Relatedness قد سبق لنا ذكره . ويقرر هذا المبدأ أن الحدث دائما نتيجة تفاعل بين واقعتين أو أكثر . فلا يمكن لواقعة واحدة أن تسبب حدثا ، ومن الضروري أن تتوفر على الأقل واقعتان ، مثال ذلك ، الشخص والبيئة قبل أن يمكن حدوث أى تحرك . أما المبدأ الثانى ، مبدأ العيانية Concreteness فيقرر أن الوقائع العيانية أو الفعلية هي وحدها التي يمكن أن يكون لها آثار . ويقصد بالواقعة العيانية تلك التي لها وجود فعلي في حيز الحياة . أما الوقائع المحتملة ، أو الوقائع الممكنة ، أى الوقائع التي يمكن أن توجد أحيانا في المستقبل ، والتي ليس لها وجود الآن ، فلا يمكن أن تكون سببا لأحداث راهنة . ويرتبط ارتباطا وثيقا بمبدأ العيانية مبدأ « التزامن Contemporaneity أى الوقوع في نفس الزمن ، والذي يقرر أن الوقائع الراهنة وحدها هي التي تستطيع أن تحدث سلوكا راهنا أو حاضرا . أما الوقائع التي كانت ذات مرة ، والتي لم يعد لها وجود ، فلا يمكن أن تؤثر في الحاضر . فوقائع الطفولة المبكرة أو الطفولة لا يمكن أن يكون لها وقع على سلوك الراشد ، ما لم يتسن لها المحافظة على شكل من أشكال الوجود طوال السنوات الواقعة بين الطفولة والرشد (ليفين ١٩٣٦ ص ١٨ - ٣٦) .

إعادة بناء حيز الحياة :

ليس التحرك والتواصل هما الحدثان الوحيدان اللذان يمكن أن يقعا نتيجة تأثير واقعة ما (منطقة) على واقعة أخرى (منطقة أخرى) . فقد تتأثر نتائج أخرى . وقد يتزايد عدد المناطق أو يتناقص الشيء الذي يتوقف على إضافة وقائع جديدة أو استبعاد وقائع قديمة من حيز الحياة . وقد يتغير وضع المناطق بنسبة بعضها لبعض . فقد تقترب منطقتان كانتا بعيدتين بعضهما عن بعض ، وتبتعد منطقتان كانتا قريبتين بعضهما عن بعض . كما قد يطرأ التغير على الحدود . وقد يصبح حدا قابلا للنفوذ حدا صلبا ، ويصير حدا قويا حدا ضعيفا . وأخيرا ، قد تطرأ

التغيرات على خصائص السطح في المناطق . فقد تتحول منطقة مرنة الى منطقة متصلبة ، على حين قد تتراخي منطقة جامدة . ويمكن جمع جميع هذه التغيرات البنائية أو الأحداث في فئة عامة واحدة هي : إعادة بناء هيكل الحياة . (ليفين ١٩٥١ ، ص ٢٥١) .

مستويات الواقع :

لقد اكتفينا حتى الآن في مناقشاتنا لمفاهيم ليفين البنائية بالتمثيل ببعدين مكانيين فقط . الا أن بعدا ثالثا ضروري لاعطائنا تمثيلا كاملا لحيز الحياة . ويتلزم هذا البعد الثالث ومفهوم درجات الواقعية واللا واقعية . فالواقعية تتضمن حركة فعلية ، على حين تتضمن اللا واقعية حركة تخيلية أو وهمية . فمثلا ، يستطيع الشخص أن يشترك في ناد . أو أن يغير وظيفته ، أو أن يحل مشكلة ، كما أنه يستطيع أن يخطط للعمل على انجاز هذه الأمور جميعها ، كذلك يستطيع أن يتوهم تحقيقها في أحلام يقظته . ان التخطيط أو التفكير مستوئ متوسط بين أشد مستويات العمل واقعية ، وأشد مستويات التخيل الخالص بعدا عن الواقع . ولا شك ، أن التحركات أيسر بكثير على الأداء عندما يتحرك المرء في اتجاه اللا واقعية ، إذ تصبح الحدود أقل صلابة ، وخصائص السطح للمناطق أكثر مرونة . ويعتقد ليفين أن مفهوم مستويات الواقع لا ينطبق فقط على بناء البيئة ، بل وينطبق كذلك على بناء الشخص . وإذا كان لا يتناول هذه النقطة بالإفاضة ، فإنه يبدو أنه يعنى أن التواصل بين مناطق الشخص يمكن أن يكون أكثر أو أقل واقعية . فمثلا ، قد تؤثر خلية شخصية - داخلية فعلا على المنطقة الحركية ، أو قد يتم هذا التأثير بصورة تخيلية . وقد يعان الشخص فعلا عن رايه ، وقد يعلن فحسب عن هذا الرأى في أحلام يقظته .

البعد الزمني أو المنظور الزمني :

بالرغم من أن السلوك الراهن لا يمكن أن يتأثر بالماضى أو الحاضر ، وذلك على حسب مبدأ التزامن ، فإن اتجاهات الشخص ومشاعره وأفكاره عن الماضى والحاضر قد يكون لها تأثير ملموس على سلوكه . فقد تكون آمال المستقبل أكثر أهمية عند الشخص من مصاعب الحاضر . وكما قد تخفف توقعات الأمور المقبلة من ثقل أعباء الحاضر ، كذلك قد يلقي الماضى ظللا قاتمة على الحاضر . ولذلك فإنه يجب تمثيل الحاضر بوصفه محتويا على الماضى النفسى وعلى المستقبل النفسى (ليفين ١٩٥١ ، ص ٥٣ - ٥٦)

وقد يكون هذا البعد طويلا أو قصيرا • وقد يكون واضح المعالم أو مهتز
المعالم • كما يمكن أن يكون بناؤه بسيطا أو معقدا ، وأن تكون حدوده
ضعيفة أو تكون صلبة •

مجمل :

المبادئ البنائية الأساسية التي ناقشها هذا الجزء من الفصل هي
حيز الحياة الذي يتكون من الشخصي تحيط به بيئة نفسية • ويتميز
الشخص الى منطقة ادراكية - حركية ومنطقة شخصية - داخلية وتقسّم
المنطقة الشخصية - الداخلية بدورها الى مجموعة من الخلايا المحيطية
والخلايا المركزية • كما تتميز البيئة النفسية كذلك الى مناطق • ويحيط
بحيز الحياة الغلاف القريب ، الذي يشكل جزءا من البيئة غير النفسية أو
الموضوعية • ويفصل بين مناطق الشخص ومناطق البيئة حدود تتميز
بخاصية القابلية للنفوذ • وتشابك كل مناطق حيز الحياة فيما بينها ،
بحيث تستطيع واقعة في أحد المناطق أن تؤثر في واقعة في منطقة
أخرى • وعندما يحدث هذا التأثير بين واقعتين فإنه يسمى حدثا • ويحدد
درجة الاتصال بين المناطق ، أو مدى التأثير المتبادل بينها بصلاية الحدود
وعدد المناطق الموجودة بين المنطقتين المتفاعلتين ، وخصائص السطح
للمناطق • ويقال أن مناطق البيئة متصله بعضها ببعض عندما يستطيع
الشخص أن يقوم بالتحرك بين المناطق • كذلك يقال أن مناطق الشخص
متصلة بعضها ببعض عندما تستطيع هذه المناطق الاتصال بعضها مع بعض
ولحيز الحياة بمدان آخران هما : الواقع - اللا واقع ، والماضي - الحاضر •

ويمثل ليفين المفهومات السابق ذكرها بأصطلاحات
مكانية ، بحيث يصبح من الممكن تناولها بوساطة فرع من الرياضيات
يسمى بالطوبولوجيا • ويتناول علم الطوبولوجيا العلاقات المكانية • وهو
لا يهتم بالحجم أو الشكل ، أو المساحة ، أو المسافة ، أو غير ذلك من
الخصائص التقليدية للفراغ أو المسافة • كما يتناول علم الطوبولوجيا
العلاقات المكانية مثل « انمماج شيء ما في شيء آخر » و « الكتل والجزء » ،
و « الاتصال وعدم الاتصال » • ولأن ليفين يمثل مفهوماته البنائية تمثيلا
طوبولوجيا ، لذا يطلق على هذا الجزء من نظريته (أو منهجه) علم النفس
الطوبولوجي (١٩٣٦) •

وكان على ليفين ليمثل المفهومات الدينامية مثل الاتجاه ، والمسافة ،
والقوة ، أن يبتكر نوعا جديدا من المسافة أسماه المساري (أو الهودولوجي) •
Hodology والهودولوجيا هو علم الممرات أو المسارات • والممر أو المسار

تماما . و تنتقل الآن لمناقشة مفهومات ليفين الدينامية التي تشكلت في مجموعها ، ما يسميه ليفين بـ «تكنولوجيا الكميات الموجهة»
Vector Psychology

ديناميات الشخصية :

يشبه التمثيل البنائي لحيز الحياة خريطة الطريق . فخريطة الطريق الجيدة تحتوي على جميع المعلومات التي يحتاج المرء الى معرفتها ليدبر أى نوع من الرحلات ، تماما كما يحتوى التمثيل البنائي الجيد للشخص وبيئته على جميع الوقائع التي يحتاج المرء لمعرفتها ليستطيع تفسير أى نوع من أنواع السلوك المحتملة . ولكن ، كما أن خريطة الطريق لا تستطيع أن تذكر لنا أى الرحلات سيقدر شخص ما أن يقوم بها ، كذلك لا تستطيع أى صورة مفصلة لحيز الحياة أن تخبرنا كيف سيكون سلوك الشخص بالفعل . والمفهوم البنائي أو الطوبولوجية وحدها لا تستطيع أن تفسر السلوك العياني في موقف نفسى فعلى . فمثل هذا النوع من الفهم يحتاج الى مفهومات دينامية .

ومفهوم ليفين الدينامية الرئيسية هي : الطاقة ، التوتر ، الحاجة ، التكافؤ . القوة أو الكمية الموجهة .

الطاقة :

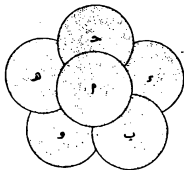
يفترض ليفين ، شأنه في ذلك شأن معظم أصحاب نظريات الشخصية أن الشخص نظام معقد من الطاقة . ويسمى نوع الطاقة التي تقوم بالأعمال النفسية باسم الطاقة النفسية . ونظرا لأن نظرية ليفين نظرية ذات طبيعة نفسية خالصة فإنه لا يجد ضروريا أن يتناول مشكلة علاقة الطاقة النفسية بأنواع الطاقات الأخرى . وتنطلق الطاقة النفسية عندما يحاول الجهاز النفسى (الشخص) العودة الى التوازن بعد أن يوضع في حالة من انعدام التوازن . وينتج انعدام التوازن هذا عن ازدياد التوتر في جزء من أجزاء الجهاز بالقياس الى بقية أجزائه ، سواء أكان ذلك نتيجة تنبيه خارجي أم تغير داخلي . وعندما يتساوى التوتر داخل الجهاز كله مرة أخرى ، يتوقف توليد الطاقة ويتجه بأسره الى الراحة .

التوتر :

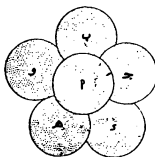
إن التوتر حالة يكون عليها الشخص ، أو - اذا أردنا الدقة - هو حالة المنطقة الشخصية - الداخلية بالقياس الى المناطق الشخصية الداخلية

الأخرى • وعندما يشير ليفين الى الخصائص الدينامية لمنطقة او خلية للخلاف الشخصي - الداخلي فانه يسمي المنطقة **نظاما** •

وللتوتر خاصيتان تصورتان هامتان • الخاصية الأولى هي ان حالة التوتر في نظام يعينه تميل الى معادلة أو مساواة نفسها بكمية التوتر في النظم المحيطة • فاذا كان النظام أ مثلا في حالة توتر مرتفع واذا كانت النظم المحيطة ب ، ح ، د ، و في حالة توتر منخفض (شكل ١٧) فان التوتر يتجه الى الصبور من أ الى ب ، ح ، د ، ه ، و الى أن توجد حالة من تساوى التوتر داخل النظام كله (شكل ١٨) •



شكل (١٨)



شكل (١٧)

وتسمى الوسيلة النفسية التي يتم عن طريقها تعادل التوتر باسم « عملية » Process • وقد تكون « العملية » تفكيرا ، أو تذكرا أو وجدانا ، أو ادراكا ، أو عملا ، أو ما يشبه ذلك • فمثلا ، الشخص الذي يواجهه عمل يقتضى حل مشكلة ما يصبح متوترا في احد نظمه • ولكي يحل هذه المشكلة ، ومن ثم يخفض التوتر ، يقوم بعملية تفكير • ويستمر التفكير حتى يتسنى له الحصول على حل مقبول ، وفي هذا الوقت يعود الشخص الى حالة التوازن • وقد يكون القصد هو تذكرا اسم ما • فتشعر عملية الذاكرة في القيام بالعمل ، مستدعية الاسم ، مما يمكن من انحسار التوتر •

وبالرغم من أن التوتر يتجه دائما نحو حسالة من التوازن ، فان هذه الخاصية التصورية الذهنية تنطبق فقط على النظام ككل ، وليس بالضرورة على جميع النظم الجزئية • فقد يصبح النظام الجزئي بالفعل أكثر توترا ، في الوقت الذي يعود فيه النظام الكلي الى حالة التوازن • ويحدث

هذا عندما يكون على الشخص أن يسلك طريقا ملتويا في حل مشكلة ما .
 فقد يتزايد التوتر خلال هذا الطريق الملتوي في احدى المناطق الجزئية بالرغم
 من أن العملية في مجموعها ستؤدي في نهاية الأمر بالشخص الى حالة من
 التوازن . فمثلا ، قد يشرع شخص في القيام بعمل ، وهو يعلم علم اليقين
 أن عليه أن يحتمل توترا متزايدا ، لكنه يتوقع في نفس الوقت أن النهاية
 الأخيرة ستكون توازنا كاملا بين القوى . ولا تعنى حالة التوازن أن النظام
 يخلو من التوتر . فليس من المحتمل أن يستطيع كائن ما أن يصل الى
 حالة من التخلص التام من التوتر وأن يظل حيا . والتوازن يعنى ، اما
 أن التوتر داخل النظام الكلي متعادل ، أو أن نظاما جزئيا يوجد به قدر
 غير متعادل من التوتر معزول عزلا محكما ومنفصلا عن بقية النظم
 الشخصية - الداخلية (شكل ١٩) .

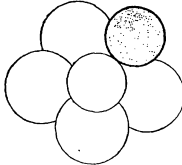


Figure 19.

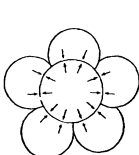
شكل (١٩)

وقد يظل نظام متوتر هكذا بمنزلة لفترة طويلة من الزمن ليكون
 بدرجة ما مخزونا دائما من الطاقة . وقد تحتوى الشخصية على عدد من
 مثل هذه النظم التوترة والمعزولة عزلا محكما ، مما يجعلها مصدرا مستمرا
 للتزويد بالطاقة اللازمة لحوث العمليات النفسية .

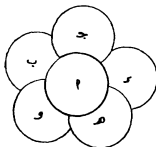
ويختلف الشخص الذى يقيم توازنه على مستوى مرتفع من التوتر
 بدرجة واضحة عن الشخص الذى يقيم توازنه على مستوى منخفض من
 التوتر . ففي الحالة الأولى يكون الضغط على الأجهزة الحركية أشد ، كما
 أن هناك احتمال تسرب الطاقة باستمرار الى الأجهزة الحركية . ويكشف
 مثل هذا الشخص عن قدر كبير من النشاط المشتت غير المستقر .

وثمة خاصية تصورية ذهنية ثانية للتوتر وهي أنه يواصل الضغط على حدود النظام . فإذا كانت الحدود تتميز بالصلابة ، بصفة خاصة ، فإن تشتت التوتر من نظام الى النظم المجاورة له سيحوق ، أما اذا كانت الحدود ضعيفة فإن التوتر ينتقل في سهولة من نظام الى بقية النظم . وعادة ما يشارك نظام توتر معين في حدوده في أكثر من نظام آخر من نظم التوتر . وفي مثل هذه الحالات قد تكون مقاومة جزء من الحدود اضعف من مقاومة أجزاء أخرى من نفس الحدود . ويسمح هذا للتوتر بالمرور في اتجاهات معينة بقدر من الحرية لا يسمح به في اتجاهات أخرى . فقد يكون نظام التوتر أ على اتصال وثيق بنظام التوتر ب بحيث يسهل حدوث تبادل للطاقة ، على حين قد يكون ارتباط أ بالمناطق ج ، د ، هـ من البعد بحيث يصعب حدوث تبادل للطاقة (شكل ٢٠) .

وتمثل الحدود من الناحية الدينامية منطقة مقاومة أو حاجز . فهي كحاجز تمثل قوة صادة أو مانعة . ولكن هل من خصائص الحدود ذاتها أنها نظام للتوتر ؟ لا يعتقد ليفين ذلك . لكن الاحتمال الأكبر هو أن القوة البدولة عند منطقة حدود أ في مواجهة القوة المتولدة داخل أ تحددها حالات التوتر في النظم المحيطة . أي أن القوة المعارضة هي في الحقيقة التوتر الواقع على الحدود من النظم المجاورة (شكل ٢١) .



شكل (٢١)



شكل (٢٠)

الحاجة :

يسبب ازدياد التوتر أو تفريغ الطاقة في منطقة شخصية - داخلية استئثار الحاجة . وقد تكون الحاجة ظرفاً فسيولوجياً كالجوع أو العطش أو الجنس . وقد تكون رغبة في شيء ما ، كوظيفة أو زوج وقد تكون

القصء فى اتيان شىء ما ، أو المحافظة على وعد • فالحاجة ، اذنى ، مفهوم دافعى ، يماثل الاصطلاحات الأخرى كالدافع ، أو الرغبة ، أو الباعث أو المحرك •

ويتجنب ليفين المناقشة المنهجية لطبيعة ومصدر وعدد ونوع الحاجات، ذلك أنه لا يرضى بحال عن المفهوم نفسه ، وهو يحس أن كلمة حاجة لا يبد أن ينتهى بها الأمر الى استبعادها من علم النفس والى تفضيل مفهوم آخر أكثر مناسبة ، مفهوم أكثر قابلية للملاحظة والقياس • كما أنه لا يرى أن هناك ما يستوجب وضع قائمة بالحاجات كما يفعل الكثيرون من علماء النفس • فستكون القائمة – فى المقام الأول – طويلة بلا حدود تقريبا ، وفى المقام الثانى ، فان الشىء الجدير حقيقة بالاهتمام فى وصفنا للواقع النفسى ، هو تمثيل تلك الحاجات الموجودة فعلا فى الموقف فى تلك اللحظة • فتلك هى الحاجات التى تستطيع وحدها أن تحدث تأثيرها • وعلى المستوى المجرد يمكننا القول أن كل شخص قادر على أن يشعر بالجوع ، الا أن دافع الجوع لا يتطلب منا أخذه فى الاعتبار ، الا عندما يحدث فعلا اضطرابا فى توازن الشخص •

ومن الواضح أن ليفين يؤمن الى أبعد الحدود بالكثرة فى مفهومه عن الحاجات • فهناك حاجات من الكثرة بقدر ما هناك مطالب نوعية قابلة للتمييز • فقد تكون لدى شخص ما حاجة الى نوع خاص من اللحوم لا يقدمه الا مطعم واحد محدد ، أو الى سماع جزء معين من سيمفونية تعزفها فرقة موسيقية خاصة • ولا يحاول ليفين أرجاع عدد من الحاجات النوعية الى حاجة واحدة عامة ، وهو يقول فى هذا الصدد :

« تقع مشكلة بزوغ الحاجات على مفترق الطرق بين الانثروبولوجيا وعلم النفس الارتقائى ، وسيكولوجية الدوافع • وقد عاق بحثها المحاولات التأميلية والمفتقرة الى النضج لتصنيف الحاجات فى فئات قليلة • » (١٩٥١ ، ص ٢٨٠) •

فكل حاجة واقعة عيانية ملموسة ، وما لم توصف بكل خصائصها وتفصيلها ، فلن يستطيع المرء فهم الواقع النفسى الحقيقى •

ويذكر ليفين فيما يتطرق بالحاجات أنه يمكن تمييز ثلاث حالات ، حالة الجوع ، والامتلاء ، والامتلاء المفرط « يقابل هذه الحالات تكافؤ

ايجابى ، ومحاييد وسلبى لمنطق النشاط المتصلة بحاجة مميّنة ، (١٩٥١ ، ص ٢٨٢) • ويعنى فرط الامتلاء أن الموضوع أو النشاط الذى كان مرغوبا من قبل قد اصبح غير مستساغ بفعل الجيرة المستمرة به • فالاسراف فى أى شىء يؤدى الى التخمّة • والتقرز •

كذلك يفرق ليفين بين الحاجات وأشياء - الحاجات • فالحاجة ترجع الى حالة داخلية كالجوع ، على حين تماثل شبه - الحاجة قصصا محمدا ، كاطفاء الجوع بتناول الطعام فى مطعم محدد • ويقدر ليفين أن حاجات الشخص تحددها الى حد كبير العوامل الاجتماعية . (١٩٥١ ، ص ٢٨٩) •

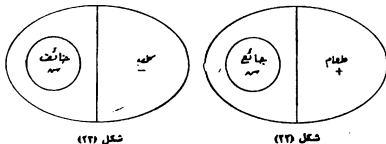
التوتر والنشاط الحركى :

لقد كان اهتمامنا أساسا - حتى الآن - بالديناميات الداخلية لنظم التوتر ، أى بتبادل الاعتماد الدينامى والاتصال بين النظم • ولكن ، ماهى العلاقة بين التوتر والفعل أو النشاط ؟ يستطيع المرء أن يستنتج أن الطاقة المناسبة من منطقة شخصية - داخلية الى الجهاز الحركى ستنتهى مباشرة الى تحرك نفسى • الا أن ليفين يرفض مثل هذا الموقف • فالتوتر الضاغط على الحدود الخارجية للشخص لا يمكن أن يسبب حركة • كذلك ، فهو لا يربط بين الحاجة أو التوتر والنشاط الفعلى عن طريق الجهساز الحركى ، وبين خصائص معينة للبيئة التى تحدد اذ ذاك نوع التحرك الذى سيحدث • وتلك طريقة بالغة البراعة فى الربط بين الدوافع والسلوك • وثمة حاجة الى مفهومين اضافيين لتحقيق هذا الهدف • وهما **التكافؤ والقوة** •

التكافؤ :

التكافؤ خاصية تصويرية ذهنية لمنطقة البيئة النفسية • انها قيمة هذه المنطقة عند الشخص • وهناك نوعان من القيمة ، ايجابية وسلبية • والمنطقة ذات القيمة الايجابية هى تلك التى تحتوى على موضوع هدف يخفض التوتر اذا ما دخل الشخص هذه المنطقة • فمثلا ، المنطقة التى تحتوى على طعام يكون لها تكافؤ ايجابى عند الشخص الجائع (شكل ٢٢) •

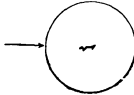
أما المنطقة ذات القيمة السلبية فهي التي تزيد من التوتر . فبالنسبة للشخص الذى يخاف الكلاب ، يكون لاي منطقة تحتوى على كلب تكافؤ سلبى (شكل ٢٣) .



ان التكافؤات الايجابية تجذب ، أما التكافؤات السلبية فتطرد . ويتسق التكافؤ مع الحاجة . ويعنى هذا ان حصول منطقة معينة من البيئة على قيمة ايجابية او سلبية يعتمد مباشرة على وجود نظام فى حالة من التوتر . ان الحاجات تضى على البيئة قيميا ، وهى تنظم البيئة الى نسيج متشابه من المناطق الجاذبة او الطاردة . لكن هذا النسيج المتشابه من التكافؤات يعتمد كذلك على عوامل غريبة او خارجية لاتندرج ضمن القوانين النفسية . ومن الواضح ان حضور أو غياب موضوعات الحاجة نفسها ، يلعب دورا هاما فى تحديد بناء البيئة النفسية . فوجود الطعام والتعرف عليه ، ونوعه وكمه ، وسهولة الحصول عليه ، وقربه من موضوعات لها تكافؤ سلبى ، جميعها عوامل غير نفسية تؤثر فى تكافؤ المنطقة بالنسبة للشخص الجائع . ان التكافؤ كم متغير ، فقد يكون ضعيفا ، أو متوسطا أو قويا . وتعتمد شدة التكافؤ على شدة الحاجة بالإضافة الى جميع العوامل غير النفسية السالف ذكرها . ان التكافؤ ليس قوة ، وهو يوجه الشخص عبر بيئته النفسية ، لكنه لا يمد بالقوة الدافعة للتحرك . وكذلك كما سبق أن رأينا ، لا يؤدي وجود نظام على حالة من التوتر الى حدوث التحرك . فثمة حاجة الى مفهوم آخر . وهذا المفهوم هو مفهوم القوة Force أو الكمية الموجهة Vector

القوة او الكمية الموجهة :

يحدث التحرك عندما تؤثر قوة ذات شدة كافية على الشخص . وتنسق القوة مع الحاجة ، الا انها ليست توترا . وتوجد القوة في البيئة النفسية ، على حين ان التوتر خاصية من خصائص النظام الشخصى - الداخلى والخصائص التصورية الذهنية للقوة هي : الموجهة ، والشدة ، ونقطة الانطباق . وتمثل هذه الخصائص الثلاث رياضيا بوساطة الكمية الموجهة Vector . وتمثل الموجهة التى تشير اليها الكمية الموجهة ، وجهة القوة ، بينما يمثل طول الكمية الموجهة ، شدة القوة ، ويمثل المكان الذى يرتطم به رأس السهم من الحدود الخارجية للشخص نقطة الانطباق . وترسم الكمية الموجهة دائما خارج الشخص لا بداخله على الاطلاق وذلك لأن القوى النفسية من خصائص البيئة وليست من خصائص الشخص (شكل ٢٤) .



شكل (٢٤)

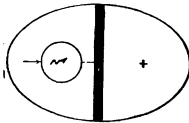
وإذا كانت هناك كمية موجهة (قوة) واحدة فقط تؤثر على الشخص ، فسوف تكون هناك حركة أو ميل الى التحرك فى وجهة الكمية الموجهة . أما اذا كانت هناك كميتان موجهتان أو أكثر تدفمان الشخص الى وجهات عديدة مختلفة فان الحركة الناتجة ستكون محصلة هذه القوى مجتمعة .

والآن نستطيع أن نتبين العلاقة بين التكافؤ والكمية الموجهة . فالمنطقة الحاصلة على تكافؤ ايجابى ، هي تلك التى تتجه اليها القوى المؤثرة على الشخص . أما المنطقة الحاصلة على تكافؤ سلبى فهي تلك التى تشير الكميات الموجهة الى الوجهة المضادة لها . بعبارة أخرى ترتبط وجهة الكمية الموجهة مباشرة بمكان المنطقة ذات التكافؤ السلبى أو الايجابى وترتبط شدة الكمية الموجهة بشدة التكافؤ ، وبالبعد النفسى بين الشخص والتكافؤ ، وبالقوة النسبية للتكافؤات الأخرى .

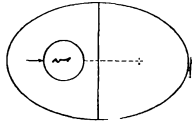
ويمكننا أن نلاحظ أن مفهوم الحاجة هو المفهوم الوحيد الذى ترتبط به جميع التصورات الدينامية الأخرى . فالحاجة تطلق الطاقة ، وتزيد التوتر ، وتعطى القيمة ، وتخلق القوة . انها مفهوم ليقين الرئيسى أو المركزى الذى تنتظم حوله المفهومات الأخرى .

التحرك :

اننا الآن فى موقف يمكننا من تمثيل المر المعين الذى يعبره الشخص فى تحركه خلال بيئته النفسية . فمثلا ، قد يمر الطفل بمحل للحلوى ، وينظر خلال النافذة ويتمنى لو يحصل على بعض منها . ومرأى الحلوى يستثير الحاجة ، وهذه الحاجة تفعل ثلاثة أشياء . انها تطلق الطاقة وبذا تستثير التوتر فى منطقة شخصية - داخلية (الجهاز الراغب فى الحلوى) وهى تضىف تكافؤا ايجابيا على المنطقة التى توجد فيها الحلوى . وهى تخلق قوة تدفع الطفل فى وجهة الحلوى . ولنفترض أن على الطفل أن يدخل المحل وأن يشتري الحلوى . من الممكن تمثيل هذا الموقف بالشكل (٢٥) . ولكن ، لنفترض أن الطفل ليس معه نقود ، فيصبح بذلك الحد الفاصل بينه وبين الحلوى غير قابل للعبور . سيتحرك الطفل مقتربا من الحلوى بقدر ما يمكن ، وربما ضغط بأنفه على الزجاج ، دون أن يستطيع الوصول الى الحلوى (شكل ٢٦) .



شكل (٢٦)

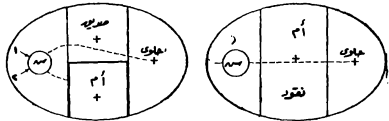


شكل (٢٥)

وقد يقول لنفسه ، « لو كان معى بعض المال ، لأمكننى شراء بعض الحلوى ، ربما تمطينى أمى شيئا من النقود ، بعبارة أخرى ، تخلق حاجة جديدة ، أو شبه - حاجة ، وهى قصد الحصول على بعض النقود من أمه .

ويستثير هذا القصد بدوره ، توترا ، وكمية موجة • وتكافؤا يمثلها شكل (٢٧) • ولقد رسم حد رفيع بين الطفل وأمه على زعم أن عليه أن ينهب إلى المنزل ، وأن يجد أمه ، وأن يطلب منها نقودا • كذلك رسم حد رفيع آخر بين الأم والحلوى لتمثيل المجهود اللازم للعودة إلى المحل وانجاز الشراء • ان الطفل يتحرك في وجهة الحلوى عن طريق الأم •

ولكن ، اذا رفضت الأم اعطاء نقود للطفل ، فقد يفكر في اقتراضها من صديق • وفي هذه الحالة تحاط المنطقة التي توجد بها الأم بحاجز لا يمكن اختراقه ، ويرسم ممر جديد خلال المنطقة التي يوجد بها الصديق (شكل ٢٨) •



شكل (٢٨)

شكل (٢٧)

وهذا التمثيل الطوبولوجي يمكن تعقيده بلا حدود ، وذلك بإدخال مناطق بيئية اضافية وحدود ذات درجات مختلفة من التماسك والصلابة ، وحاجات اضافية وما يلازمها من نظم للتوتر وتكافؤات وكميات موجة •

ويمكننا القول ، بصفة عامة ، أن أي تحرك يمكن تفسيره تفسيراً كاملاً بمفاهيم الحاجة والتوتر والقوة ، والتكافؤ ، والحاجز ، وخصائص الوسط ، وبعد الواقع وإلا واقع والمنظور الزمني •

اعادة تكوين البناء الدينامي للبيئة النفسية :

من الممكن أن تتغير ديناميات البيئة النفسية بأربع طرق مختلفة :

١ - قد تتغير قيمة المنطقة كميًا ، فتنحول مثلا من منطقة أقل ايجابية إلى منطقة أكثر ايجابية ، كما يمكن أن تتغير كميًا ، من منطقة ايجابية إلى منطقة سلبية • ويمكن أن تظهر تكافؤات جديدة وأن تختفي التكافؤات القديمة •

٢ - قد تتغير شدة الكميات الموجهة أو تتغير وجهتها أو تتغير في كليهما .

٣ - قد تصبح المسود أكثر صلابة أو ضعفا ، وقد تظهر أو تختفي .

٤ - وقد تتغير الخصائص المادية للمنطقة ، فتتغير مثلا مرونتها أو جودها .

وقد يحدث إعادة تكوين بناء البيئة النفسية نتيجة تغيرات في نظم التوتر عند الشخص، كنتيجة للتحرك أو كنتيجة لعمليات معرفية . ويحدث إعادة تكوين البناء المعرفي عندما يكشف الشخص طريقة جديدة لحل مشكلة ما (الاستبصار) أو يتذكر شيئا كان قد نسيه ، أو يدرك شيئا في بيئته لم يكن قد لاحظته من قبل . كما قد ينتج إعادة تكوين البناء عن اقتحام عوامل غريبة من الغلاف الغريب ، للبيئة النفسية .

العودة الى التوازن :

الهدف النهائي لجميع العمليات النفسية هو إعادة الشخص الى حالة من التوازن . يمكن بلوغ هذا الهدف بطرق متعددة وهو الشيء الذي يعتمد على نوع العملية الحادثة . وبالرغم من أننا وصفنا بعض العمليات المناقشة السابقة ، فإنه قد يكون من المفيد أن نذكرها كلها الآن .

يعرف انعدام التوازن بأنه حالة من عدم تساوى التوتر داخل النظم المختلفة للشخص . ولنفترض - تبسيطا للأمور - أن واحدا من النظم الشخصية - الداخلية في حالة من التوتر المرتفع على حين يكون مستوى التوتر منخفضا في بقية النظم الشخصية - الداخلية الأخرى . ان إحدى الطرق التي يمكن بها الوصول الى التوازن هي أن ينتشر توتر النظام في جميع أنحاء النظم الأخرى حتى يتعادل التوتر في أنحاء الغلاف الشخصي - الداخلي . فإذا ما افترضنا أن الطاقة لم تفقد من الغلاف الشخصي - الداخلي ، فإن نتيجة هذا الانتشار أن يرتفع مستوى التوتر للنظام بأسره ويتزايد الضغط الواقع على الحدود الفاصلة بين الطبقة الشخصية - الداخلية والطبقة الإدراكية - الحركية . وإذا ما افترضنا أن هذه العملية تتكرر مرارا وتكرارا ، فإن النتيجة ستكون تراكم التوتر في الغلاف الشخصي - الداخلي . ويقال عن مثل هذا الشخص أنه يعاني من

توتر داخلي شديد • وعندما لا يصبح في اماكن حدود المنطقة الشخصية - الداخلية أن تقاوم الضغط الواقع عليها ، فان اندفاعا مفاجئا في الطاقة يحدث ، في الجهاز الحركي يؤدي الى حدوث سلوك تهييجي • ويصف لنا هذا ما يحدث عندما تنتاب الشخص نوبة غضب أو هياج • أما اذا كان الحد الفاصل بين النظام الشخصي - الداخلي والمنطقة الادراكية - الحركية قابلا للنفوذ بدرجة معقولة ، فان التوتر يستطيع التسرب عن طريق النشاط القلق غير المستقر • وهذه طريقة لحفض التوتر بدائية الى حد ما ، ونراها أصلا في الطفولة • فعندما يتزايد جوع الطفل مثلا ، فان عدم استقراره يزداد شدة ، ويقال أن عدم الاستقرار يساعد المرء على التنفيس •

وأكثر الطرق انتشارا في استعادة حالة التوازن هي القيام بتحريك مناسب في البيئة النفسية • والتحريك المناسب هو ذلك الذي يقود الشخص الى منطقة موضوع مشبع للهدف • فإذا كان الشخص مثلا في حالة من التوتر لأنه عاطل ، فان الحصول على عمل يؤدي الى ازالة التوتر • وفي مثل هذه الحالات ، تكون العمليات الادراكية والحركية وسيلة فعالة في تحقيق تخفيف التوتر • وقد يكون بالطبع من الضروري اعادة تكوين بناء البيئة حتى يمكن الوصول الى الهدف المرغوب ، وقد تتضمن عملية اعادة تكوين البناء هذه عملية معرفية معقدة تستغرق وقتا • فالشخص الذي يأمل أن يكون رئيسا قد يقضى سنوات في التعامل مع بيئته قبل أن يتحقق له النجاح • وربما لا ينجح أبدا ، وفي مثل هذه الحالة يكون في حالة من عدم التوازن الدائم •

وقد يؤدي تحريك بديل الى خفض التوتر واستعادة التوازن • وتتطلب هذه العملية أن يكون هناك اعتماد متبادل وثيق بين حاجتين بحيث يؤدي اشباع احدى الرغبتين الى تفرغ التوتر من نظام الحاجة الأخرى • وسنتناول هذا الموضوع بمزيد من الاستفاضة في جزء قادم من هذا الفصل •

وأخيرا ، قد تؤدي تحركات تخيلية خالصة الى خفض التوتر • فالشخص الذي يتخيل أنه قد أنجز عملا صعبا ، أو أنه يشغل منصبا مرموقا يحصل على اشباع بديل عن طريق مجرد أحلام يقظة تدور حول النجاح • بل انه يتوفر لدينا عدد من أحلام اليقظة الجاهزة الصنع في شكل قصص ، ومسرحيات وأفلام سينمائية •

مجمل :

عرضنا وناقشنا في هذا الجزء مفهومات ليفين الدينامية الأساسية مثل : الحاجة والطاقة النفسية ، والتوتر ، والقوة أو الكمية الموجهة ، والتكافؤ . وتحدد المفهومات والأفكار الدينامية بالإضافة الى المفهومات والأفكار البنائية والتي نوقشت في الجزء السابق ، التحركات النوعية للشخصية ، والكيفية التي يحدد بها الشخص بناء بيئته . وتخدم التحركات واعادة تكوين البناء غرض خفض التوتر وذلك بأشباع الحاجات .

نمو الشخصية :

بالرغم من أن ليفين لا يرفض فكرة أن الوراثة والنضج يلعبان دورا في النمو ، فإنه لم يناقش في أى موضع من كتاباته ما لهما من تأثير ممكن ، بأية صورة مفصلة ، كما أنه لا يعطيها أى مكان في تمثيلاته التصورية الفنية . ويتفق هذا مع تفضيل ليفين للنظرية النفسية البحتة . فطالما أن الوراثة والنضج يدخلان ضمن نطاق الوقائع البيولوجية فهما بالتالي يوجدان خارج حيز الحياة مع الظواهر الفيزيائية والاجتماعية ، ولهذا فإن ليفين يتجاهلها ، وهو في مناسبات نادرة ، يذكر أن التغيرات العضوية يمكن أن يكون لها تأثير على النمو النفسى . فهو يلاحظ ، مثلا ، في مناقشته لفترة المراهقة أن التغيرات في وظائف وبناء الجسم تؤثر تأثيرا عميقا على البناء النفسى في اتجاه تزايد انعدام اليقين وعدم الثبات (فصل ٦) .

كذلك لا توجد عند ليفين نظرية للتعلم كما يفهم هذا الاصطلاح عادة في علم النفس الأمريكى . وهو يصف أشكال التغيرات التي تطرأ على السلوك ويرجعها الى عمليات مثل عمليات اعادة البناء المعرفى ، والتفاضل، والتنظيم ، والتكامل ، والدوافع (١٩٥١ ، فصل ٤) .

ومن المهم بالرغم من ذلك ، أن نتذكر لأن أول عمل تجريبي قام به ليفين كان بحثا في التعلم الارتباطى . وكان يعتقد في ذلك الوقت أن التكرار والاقتران بين كلمات التنبيه ترتبط بمحددات هامة في التعلم . الا أن ليفين قد اكتشف أن العناصر الواجب اقترانها يجب أن تنتمى الى نفس نظام التوتر حتى يتكون اتصال بينها . ولقد ألفت نتائج ليفين

الشك حول صدق النظرية الارتباطية في التعلم . ويقدم هيلجارد عرضاً طيباً لهذه المرحلة من عمل ليفين العلمي (١٩٥٦ ، فصل ٨) .

كذلك كتب ليفين مقالا شاملا عن الثواب والعقاب (١٩٣٥ ، فصل ٤) الا ان افكاره في هذا الموضوع لها صلة ضئيلة للغاية بالصياغات المنفعية كقانون الأثر مثلا (ثورنديك) أو مبدأ التعميم (هل) . لقد كان اهتمام ليفين بالثواب والعقاب لا بوصفها يصنعان العادة ، أو يقضيان عليها ، ولكن بوصفها وسيلتين للتحكم في السلوك في مواقف عيانية مؤقتة . ان الثواب والعقاب ، عند ليفين ، لا يدفعان الترابطات الداخلية أو الخارجية كما اعتاد ثورنديك أن يقول ، بل انهما يحدثان تغيرات في الكميات الموجهة ، والتكافؤات ، وحمود البيئة النفسية ، وفي نظم التوتر عند الشخص . وقرر ليفين أن الثواب والعقاب قد يؤديان الى حدوث تحول في تكافؤ الشيء نفسه ، وان كان هذا يتم عندما يكون الثواب أو العقاب جزءا من موقف أكبر يهتم به الشخص .

كذلك يجب ألا ننفل عن حقيقة أن ليفين وتلامذته ، وبخاصة زيجارنيك Zeigarnick (١٩٢٧) قد أسهموا مساهمة ضخمة في فهمنا للذاكرة عندما بينوا أن الأعمال غير المكتملة يسهل تذكرها عن الأعمال المكتملة . الا ان هذه الأعمال لا تشكل نظرية للتعلم . ونحن نتفق مع هيلجارد ، الذي حلل أفكار ليفين من حيث صلتها بسلوكيات التعلم (١٩٤٨ ، فصل ٨) ، على أنه بالرغم من أن الكثير من صياغات ليفين لها صلتها بنظرية التعلم فانها لا تكون نظرية في حد ذاتها . كذلك لم يزعم ليفين نفسه أن هذه الأفكار تكون نظرية للتعلم .

التغيرات السلوكية :

يناقش ليفين في مقاله الهام المسمى « النكوص والتقهقر والارتقاء » (١٩٥١ ، فصل ٥) بعض التغيرات السلوكية التي تحدث خلال الارتقاء . ثم يتبع ذلك بمحاولة توضيح كيف أن هذه التغيرات يمكن تمثيلها بواسطة مركبات المجال .

التنوع :

من الواضح أن تنوع نشاطات المرء وانفعالاته وحاجاته ، ومعلوماته ، وعلاقاته ، الاجتماعية ، تتزايد بتقدمه فى السن ، على الأقل حتى يصل الى سن معينة . ثم بعد ذلك قد ينكمش تنوع سلوكه وتباينه .

التنظيم :

لا تصبح النشاطات أكثر تنوعا بتقدم العمر فحسب، بل إن تغيرات هامة تطرأ عليها من حيث التنظيم . إذ تتسم الوحدة السلوكية بتزايد التعقيد . فالطفل الصغير يستطيع أن يقيم علاقة بطفل آخر واحد فقط فى وقت واحد ، أما الطفل الأكبر فيستطيع أن يقيم علاقات بعدد من الأطفال فى وقت واحد . كذلك يصبح السلوك أكثر تدرجا فى بنائه الهرمى . فقد يلعب الطفل الصغير مثلا بالملكبات الخشبية لمجرد اللذة التى يستمتعها من هذا النشاط ، ولكن عندما تتقدم به السن فقد يصبح اللعب بالملكبات الخشبية وسيلة لبلوغ أهداف أخرى أيضا ، كالرغبة فى الحصول على التقدير ، أو الحاجة الى التفوق على طفل آخر . كذلك قد يصبح أكثر تعقيدا وتشابكا ، بمعنى أن الطفل الأكبر يستطيع أن يقوم بنشاطات متعددة خلال فترة واحدة من الزمن . فيمكن أن يرسم صورة بالألوان ، وأن يتحدث الى صديق ، وأن تقاطعه أمه طالبة منه القيام بمهمة لها ، وأن يعود الى رسمه الملون ، وأن يتحدث مع صديق آخر ، ثم يرد على التليفون ويعود مرة أخرى الى مواصلة رسمه الملون . إن الطفل الصغير أكثر قابلية - الى حد كبير - لتشتيت انتباهه . فهو يقوم بعمل واحد فى الوقت الواحد ، فإذا ما قوطع فى اثنايه فليس من المحتمل أن يعود اليه .

امتداد مناطق النشاطات :

إن حرية الطفل الأكبر فى الحركة أكبر من حرية الطفل الصغير . فهو يستطيع القيام بأعمال كثيرة ، كأن يعبر الطريق مثلا ، وأن يذهب الى المدرسة ، ويزور أصدقائه ، الشيء الذى لا يستطيع الطفل الصغير عمله . كما أن الزمن ، يصبح بالإضافة الى ذلك ، أكثر امتدادا بتقدم السن . الطفل الصغير كائن يعيش حاضره الى حد كبير . وبالنسبة له ، فإن المستقبل ويقدر أقل من الماضى ، لا وجود لهما . ومع تقدم السن ، يبدأ فى التفكير فى الماضى ، وفى التخطيط للمستقبل ، وفى النظر الى الحاضر بوصفه مكونا من قطاع أكبر من الزمن .

الاعتماد المتبادل للسلوك :

من الملاحظات المألوفة أن سلوك الطفل يتضمن أرجاعا مشتتة للجسم بأسره . ويرى ليفين في هذا السلوك مثلا على « الاعتماد المتبادل البسيط أو على حالة علم التفاضل أو التمايز » . ومع تزايد النضج تتمايز أشكال متخصصة ومستقلة من الفعل عن هذا النشاط الكلي . وتؤدي الوحدة البسيطة للسلوك الطفل الى تعدد الأفعال . ويحدث شيء من التكامل عندما تصبح هذه الأفعال المستقلة منظمة تنظيما هرميا ، الا أن التكامل الحقيقي لا يتحقق الا من خلال ما يطلق عليه ليفين اسم تبادل الاعتماد التنظيمي . ويتكون هذا الاعتماد التنظيمي المتبادل من ربط وتكامل أشكال النشاط المنفصل ، أو الحاجات في كل أكبر . فالعزف على البيانو أو بناء منزل به أشجار ، أو كتابة قصة ، تتضمن جميعا التأليف بين العديد من ضروب النشاط المنفصل . ويشير ليفين الى أن النشاطات الكلية تتناقص بتقدم السن ، على حين يتزايد التنظيم الهرمي ، كما تذبذب درجة الوحدة المبنية على تبادل الاعتماد التنظيمي بتقدم السن .

درجة الواقعية :

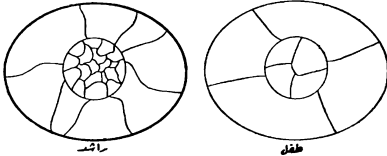
يتزايد اتجاه الشخص نحو الواقع عادة بتقدمه في السن . فالطفل الصغير لا يميز بسهولة بين ما هو حقيقي وما هو متخيل . ولا يرتقى لديه الاحساس بالواقع الا عندما يتعلم التمييز بينهما .

المفاهيم الارتقائية :

بعد أن عين ليفين بعض التغيرات الهامة التي تحدث أثناء النمو كالتغيرات في التباين والاختلاف ، والتعقيد ، والشمول ، والتنظيم ، والتكامل والواقعية ، نراه يشرع في صياغة هذه التغيرات صياغة تصويرية ذهنية . وهو يستخدم صياغات فكرية ماثلة لتلك التي نوقشت في الجزء السابق من هذا الفصل ، ما دام السلوك والنمو وظائف لنفس العوامل البنائية والدينامية (ليفين ١٩٥١ ، ص ٢٢٨) .

التمييز أو التفاضل :

ان التمايز أو التفاضل من المفهومات الأساسية في نظرية ليفين في نمو الشخصية ، وينطبق على جميع جوانب المجال الحيوى . ويعرفه بأنه زيادة في عدد اجزاء الكل . فمثلا ، يتزايد عدد مناطق الغلاف الشخصى الداخلى بتقسيم العمر . وتبين ذلك بمقارنة الطفل بالراشد فى شكل (٢٩) . فنظم التوتر المتمايزة أو المتفاضلة عند الراشد أكثر منها عددا عند الطفل . وبالمثل تصبح البيئة النفسية أكثر تمايزا مع تقدم السن . كما أن بعد الزمن يتمايز الى الماضى البعيد والماضى القريب ، والحاضر ، والمستقبل القريب ، والمستقبل البعيد ، كذلك يؤدي تزايد النضج الى تزايد تفاضل بعد الواقع - اللا واقع . وعندما يصبح الشخص راشدا يكون قد تعلم أن يفرق لا بين الحقيقة والزيف فحسب ، بل وكذلك بين مختلف درجات الامكان والاحتمال .



شكل (٢٩)

خصائص الحدود :

من الواضح أن زيادة التمايز والتفاضل للشخص والبيئة النفسية يعنى تزايد عدد الحدود . غير أن جميع الحدود لا تتشابه . فهي تختلف من حيث القوة . وبصفة عامة ، فإن حدود الطفل أقل صلابة من حدود الراشد ، والحدود الفاصلة ، مثلا ، بين الطفل وبيئته النفسية أضعف من الحدود الفاصلة بين الراشد وبيئته النفسية . وهذا يفسر لنا حقيقة أن الطفل أكثر عرضة لتأثيرات البيئة ، وأنه يستطيع تفريغ التوترات

الداخلية بسهولة أكثر مما يستطيع الراشد . فالطفل أكثر اتصالاً ببيئته من الراشد . والحقيقة ، أنه ربما لا يكون ثمة حدود على الإطلاق ، خلال الأسابيع الأولى من الحياة ، تفصل بين الطفل وبيئته النفسية . ويعنى ضعف الحدود في الغلاف الشخصي - الداخلى للطفل أن حاجة ما يمكن أن تحل محل حاجة أخرى فى سهولة بالفة على عكس الحال مع الراشد . كذلك يتميز الطفل بضعف مائل فى حدود بعد الواقع - اللا واقع ، والمنظور الزمنى .

التكامل :

يمكن أن نفرس الكثير من حقائق الارتقاء على أساس التمايز والخصائص المتغيرة للحدود، إلا أنهما لا يستطيعان تفسير التنظيم والتكامل المتزايدين للسلوك مع تقدم العمر . فلا بد من مفهوم آخر ، وهو ما يسميه ليفين « تبادل الاعتماد التنظيمي » . ولكي نستطيع أن نفهم المقصود بهذا المفهوم ، فقد يساعدنا موازنته بتبادل الاعتماد البسيط للمناطق . فإذا نظرنا ، مثلاً ، إلى نظامين للتوتر أ ، ب متجاورين يتبادلان الاعتماد ، فإننا نجد أنه عندما يصيب النظام أ حالة من التوتر المرتفع ، تتسرب الطاقة من أ إلى ب ، حتى توجد حالة من التساوى فى التوتر بين النظامين . وبالمثل ، إذا ارتفع مستوى التوتر فى ب تتسرب الطاقة إلى أ . إن التأثير متبادل . وهذا هو نوع العلاقة بين نظم التوتر التي يبدو أنها توجد عند الطفل . فالاضطراب الحادث فى إحدى المناطق ينتشر إلى مناطق أخرى فى الغلاف الشخصي - الداخلى ، كما يتجه إلى الخارج عبر الجهاز الحركى فى تنفيس كلى منتشر . فالطفل الجائع لا يهدأ ولا يستقر به الحال .

ومع تقدم الطفل فى النضج ، يبدو أن تأثير نظم التوتر المتجاورة بعضها على بعض تفقد تلك الخاصية المميزة لها ، خاصة التأثير المتبادل . وبدلاً من الاعتماد المتبادل البسيط يستقر نمط من العلاقات قوامه قائد ومقود . فنظام التوتر أ يقود نظام التوتر ب بطريقة تساعد على تفرغ توتره دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى أى مساواة نهائية بين النظامين . وكمثال بسيط لهذا الاعتماد المتبادل التنظيمي الطريقة التي تستطيع بها منطقة شخصية - داخلية أن تسخر الجهاز الحركى لأهدافها أو التي تنظم وتحكم بها منطقة شخصية - داخلية ما سيتم إدراكه .

بل وعلاوة على ذلك ، لا ينتشر التوتر في تبادل الاعتماد التنظيمي ، من منطقة لأخرى على أساس القرب وحده . اذ تظهر الانتقائية ، بحيث قد تسيطر نظم على نظم أخرى بعيدة عنها أو تقودها . ويصبح ممكنا قيام تدرج هرمي كامل يقوم على علاقات السيادة - التبعية فتسيطر المنطقة أ على المنطقة ب ، وتسيطر المنطقة ب على المنطقة ج ، الى آخره . ويفسر لنا هنا ، من بين ما يستطيع تفسيره ، قدرة الشخص المتقدم في السن على تنظيم وتنفيذ خطة معقدة للعمل ، وهي قدرة يبدو أن الأطفال يفتقرون اليها .

ويشبه ليفين الوحدة التنظيمية للشخص بمنظمة لها رئيس واحد . فعندما تنقسم هذه الرئاسة الى رئاسات متعددة ، تتناقص الوحدة ، وعندما يظهر رئيس مركزي جديد ، تزداد الوحدة . وعلى هذا ، فوحدة الشخص الراشد ، تنفزع وتتشعب ، بدلا من أن تنمو في خط مستقيم . . .

مراحل النمو :

لا يناقش ليفين هذا الموضوع بأى تفصيل . فالنمو والارتقاء عند عملية مستمرة يصعب أن نتيين فيها مراحل منفصلة . ولكنه يقول أن تغيرات ارتقائية هامة تحدث في حوالى السنة الثالثة من العمر ، وأن فترة من الاستقرار النسبي تعقبها حتى المراهقة ، التي هي مرحلة من إعادة التنظيم الدينامي ، تنتهى أخيرا باستقرار الرشد . (فصل ٦) . كذلك يذكر أن المناطق الاولى التي تتمايز عند الطفل هي تلك التي تتصل بالأكل والاخراج .

ويعتقد ليفين أن استخدام مقاييس السن ، لوصف النمو لا يكفي في الحقيقة لفهم النمو النفسى . فلا بد في النهاية من الاستفناء عن مقياس العمر وأن تفضل عليه درجات التمايز ، والتنظيم والتكامل وما يشابهها . كما أن على علم النفس أن يتخذ هدفا له اكتشاف الوقائع الدينامية المتزاملة ، والتي تقدم ظروف التغير في الوقت الذى يحدث فيه . فلا يكفي أن نقول أن الاطفال فى السادسة من عمرهم يفعلون أشياء لا يفعلها الاطفال فى الثالثة من عمرهم . ان على المرء أن يفسر هذا التغير باستخدام مفهومات نظرية المجال .

النكوص :

على أى نظرية للنمو والارتقاء أن تدخل فى اعتبارها أشكال النكوص التى تحدث من وقت لآخر . ولقد أسهم ليفين ببعض الاسهامات الهامة ، نظرية وتجريبية فى فهمنا للنكوص (١٩٥١ ، فصل ٥) . فهو يفرق أولا بين الارتداد Retrogression والنكوص Regression فيشير الارتداد الى العودة الى شكل مبكر من أشكال السلوك ، فى تاريخ حياة الشخص ، على حين يشير النكوص الى أى تغير الى شكل أكثر بدائية من أشكال السلوك وبصرف النظر عن احتمال ان الشخص نفسه قد سلك على هذه الصورة فيما مضى . وأنه لاسهل بكثير أن ندرس النكوص ، من أن ندرس الارتداد ، كما يعرف هو هذه الاصطلاحات ، ذلك لأنه ليس من الضروري أن نتحقق من أن السلوك قد وقع فيما مضى فى حياة هؤلاء الافراد . كما أن المجرّب بالإضافة الى ذلك - يستطيع أن يستفيد من معايير السن التى تم تحديدها لمختلف أشكال النشاط . فإذا كان الاطفال فى الثانية من عمرهم - مثلا - يلعبون بالدمى بصورة معينة ، على حين يلعب الاطفال فى الرابعة من عمرهم بالدمى بطرق مختلفة ، فإن المرء يستطيع أن يتساءل تحت أى من الظروف سينكس اطفال الرابعة الى مستوى لعب اطفال الثانية . ولقد أجرى ليفين وزملاؤه تجارب من هذا النوع ، ووجدوا أن الاحباط هو أحد العوامل التى تحدث النكوص . (باركر ، دومبو ، ليفين ، ١٩٤١) .

مجهل :

يستخدم ليفين فى تحليله النظرى للارتقاء مفهومات مجالية ، مثل مفهومات التمايز وتميز ظروف الحدود ، والتنظيم والتكامل . ويمكننا القول ، بصفة عامة ، أنه مع تزايد النضج يتزايد تمايز كل من الشخص والبيئة النفسية ، وتزيد صلابة الحدود ، ويزيد تعقيد شبكة العلاقات التدرجية الهرمية والاختيارية بين نظم التوتر . ان ارتقاء السلوك عند ليفين وطيفة للشخص والبيئة النفسية .

البحوث المميزة وطرق البحث :

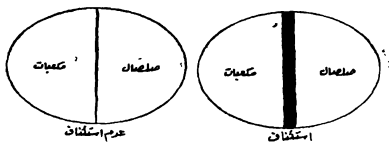
من المحكات التى تحظى باعتراف واسع ، فى الحكم على «صلاحية» نظرية ما ، مدى ما تشره من بحوث . ونظرية ليفين على هذا الاساس تعتبر نظرية «صالحة» أكثر «صلاحية» . فالقليل من نظريات الشخصية الاخرى

كان له الفضل في قيام مثل هذا التجريب الكثير . وحتى ليفين الذى اشتهر هو نفسه كمنظر لامع ، كان دائما عالما نشيطا . كان له فضل السبق في صياغة الاختبارات العملية التجريبية لكثير من فروضه الأساسية . ولقد انتقل حماسه البالغ للبحث لأجيال كثيرة من تلامذته في ألمانيا والولايات المتحدة . وتعتبر سلسلة المقالات التى صدرت بين الأعوام ١٩٢٦ ، ١٩٣٠ Psychologische Forschung أبرز مجموعات الدراسات التجريبية فى الدراسات النفسية . كما أن أفكار ليفين وعبقريته فى تخطيط التجارب البسيطة والمقننة لمفوماته النظرية كانت بمثابة حوافز لكثير من علماء النفس ممن لم يكن بينهم وبينه اتصال على الإطلاق . ومن المستحيل تقدير عدد البحوث التى يحمل طابع تأثير ليفين . وما لا شك فيه أن عددها بالغ الضخامة . ومهما كان مصير نظرية ليفين فى السنوات القادمة . فإن مجموع العمل التجريبي الذى استثاره بشكل اسهاما دائما فى معرفتنا بالشخصية . وكانت الدراسات التجريبية لليفين وتلامذته الكثيرين تدور دائما حول نظريته . أى أنها كانت تجارب تجرى بقصد اختبار الفروض التى توحي بها نظرية المجال . ولم تكن تجرى بحال بقصد مجرد جمع الوقائع . فلم تكن لواقعة بعينها عند ليفين أهمية ، الا بما تلقىه من ضوء على صدق مبدأ عام أو قانون .

وجدير بنا أن نذكر فى هذا الصدد الدراسات التى تمت عن مفهوم ليفين الخاص بنظم التوتر . ويجب أن نتذكر أن الغلاف الشخصى الداخلى للشخصية يتكون من عدد من المناطق أو الخلايا . يفصل كل خلية عن الخلايا المجاورة لها حدود خاصيتها الأساسية أنها تقاوم انتشار الطاقة من خلية الى الخلايا المجاورة . ويمكن أن تختلف صلابة الحدود ، أو هى تختلف فعلا ، ونتيجة ذلك أن تصبح احدى المناطق أوثق اتصالا بمنطقة ما عن بقية المناطق الأخرى . ويعنى هذا ، انه عندما يتزايد مستوى التوتر فى احدى الخلايا بفعل حاجة أو قصد ، فان الطاقة تستطيع أن تنتقل بسهولة أكثر الى منطقة مجاورة عندما يكون الحاجز ضعيفا ، عن احتمال أن الحاجز قوى . ان هذا زعم نظرى الى حد كبير . اذ كيف يمكن اختباره فى بحث تجريبى حاسم .

لقد خطط ليفين الاستراتيجية التجريبية الآتية (١٩٣٥ أ، ص ١٨٠-١٩٣) : لنفترض ، مثلا ، أن طفلا أتاحت له الفرصة ليبنى شيئا ما بالكعبات الخشبية . ولنقل أن القصد الى بناء منزل قد استثير فى الطفل . ولنتذكر أن القصد يتسق مع منطقة شخصية - داخلية فى حالة توتر .

وقبل أن تتاح للطفل فرصة انجاز العمل ، ومن ثم يتخلص من التوتر تماما ، يقطع ويعطى نوع آخر من مواد اللعب ، كالصلصال مثلا . ويستتار فيه قصد جديد ، كبناء حصان مثلا ، ويعنى هذا ، تصوريا ، أن منطقة شخصية - داخلية قد استحدثت فيها حالة من التوتر ويسمح للطفل باتمام المشروع الثانى . ثم يعطى بعد ذلك الفرصة ليعود الى العمل الذى لم ينجزه ، أى بناء المنزل بالمكعبات . فاذا لم يستأنف العمل المقاطع فان هذا يعنى أن التوتر فى النظام الاول قد تم تعريفه عن طريق انجاز العمل الثانى . وبذا يقال : ان العمل الثانى أصبح بديلا للعمل الاول . أما اذا كان الامر على عكس ذلك ، واستأنف الطفل العمل المقاطع ، فقد دل ذلك على أن التوتر الخاص بنظام بناء المكعبات لم يمتصه النشاط الذى اكمل فى بناء الحصان . أى أن النشاط المكتمل ليس له قيمة بديلة بالنسبة للنشاط المقاطع . ويمكن تصوير كل من هاتين النتيجةين بهذا التمثيل التصورى الذهنى (شكل ٣٠) .



شكل (٣٠)

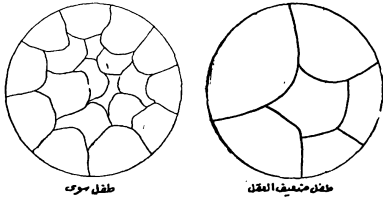
نجد فى الشكل الأيمن أن المنطقتين يفصل بينهما حد قوى غير قابل للاختراق ، بحيث يحول دون تفرغ التوتر من نظام المكعبات عن طريق نظام الصلصال . ان التوتر المتبقى فى نظام المكعبات يجعل الطفل يستأنف البناء بالمكعبات . أما فى الشكل الأيسر ، فالحدود ضعيفة ، والتوتر فى نظام المكعبات يمكن تصريفه بسهولة عن طريق نظام الصلصال . ونظرا لأنه لا يبقى توتر فى نظام المكعبات بعد الانتهاء من اتمام نموذج الحصان، فان الطفل لا يحس بالرغبة فى العودة الى المكعبات . وتتطلب الخطة التجريبية كذلك استخدام مجموعة ضابطة يقطع نشاط أطفالها ، دون أن يتاح لهم استخدام نشاط بديل . والفرض من المجموعة الضابطة

التيقن من أنه يوجد بالفعل عند وقت مقاطعة النشاط بعض التور في النظام . اذ يغير ذلك لن يمكننا اختبار القيمة البديلة للعمل المكنم .

ويطلق على البحوث التجريبية التي تستخدم هذه الخطة الاساسية اسم دراسات الابدال . ومن أول تجارب الابدال التي أجريت تحت تأثير نظرية ليفين للمجال ، التجارب التي قامت بها كيت ليسنر Kate Lissner (١٩٣٣) . وقد كانت تهدف الى تحديد ما تنسم به الاعمال التي يكون لها تأثير على القيمة البديلة لعمل بالنسبة لعمل آخر . ولقد وجدت - وهذا ما يمكن توقعه - أنه كلما زاد وجه الشبه بين العملين ، زاد امكان ابدال احدهما بالآخر ، فاذا كان العمل المقاطع مثلاً يتكون من عمل نموذج لحصان والعمل البديل يتكون من عمل نموذج لاقصى ، كانت درجة الاستئناف اقل بكثير مما لو كان العمل البديل يتكون من رسم صورة أو عمل عقد . ولسوء الحظ ، لا توجد محكات صالحة تحدد بها مقدما درجة التشابه بين الاعمال . وقد يبدو للملاحظ أن العملين شديدا التشابه ، الا أنهما يختلفان تمام الاختلاف في عيني الشخص الذي يقوم بهما ، كما قد يبدو أن العملين أبعد ما يكونان عن التشابه ، الا أنهما ، عند من يقوم بهما ، شديدا التشابه . كذلك اكتشفت لسنر أيضا أنه اذا كان العمل البديل صعبا ، كانت له قيمة بديلة كبيرة ، عما اذا كان سهلا ، هذا اذا تساوت جميع العوامل ، وصعوبة العمل هي الاخرى يصعب الحكم عليها قبل اجراء الاختبار الفعلي . وما قد يكون صعبا بالنسبة لشخص ما قد يكون سهلا بالنسبة لشخص آخر .

ووجد تلميذ آخر من تلامذة ليفين هو ماهلر Mahler (١٩٣٣) أنه كلما زادت درجة واقعية العمل الثاني ، زادت قيمته البديلة بالنسبة للعمل الأول . فمثلا ، اذا قوطع طفل أثناء رسمه لصورة ماء ، ثم سمح له أن يذكر كيف يتمها ، اذا ما أتاحت له الفرصة لذلك ، قل احتمال عودته الى عمله الأصلي ، عما اذا طلب منه أن يفكر أو يتخيل كيف كان سيتمها . فالتحدث عن نشاط ما ، امر يعتقد أنه أكثر واقعية من التفكير فيه . الا أن عمل سليوسبرج Sliosberg (١٩٣٤) يشير الى أن مبلغ امكان حلول الأقل واقعية محل الأكثر واقعية يعتمد على طبيعة الموقف . ففي موقف اللعب حيث الاحساس بالارتخاء ، قد يكون للخيال من القدرة على الاشباع ما للنشاط المحركى الفصل . على حين أنه في موقف أكثر جدية ، ربما لا يكون للخيال أية قيمة بديلة على الاطلاق .

وقد استخدم كوبكة Köpke (ذكره ليفين ١٩٣٥ ، ص ١٨٥) خطة تجربة الابدال لاختبار تطبيق خاص لنظرية ليفين في انشخص . فقد ذكر ليفين اعتقاده أن الحدود بين خلايا الغلاف الشخصى - الداخلى للطفل الضعيف العقل يتبين أن تكون أكثر صلابة عن مثيلاتها عند الطفل العادى . فإذا كان هذا الفرض صحيحا فإن إمكان ابدال الاعمال عند الاطفال المتخلفين يكون أقل منه عند الاطفال العاديين : وقد أيدت نتائج كوبكة هذا الفرض . فحتى بالنسبة للأعمال الشديدة التشابه ، مثل رسم صورة قطة على ورقة حمراء ، ثم رسم نفس القطة على ورقة خضراء ، كان الأطفال الضعاف العقول ، يعودون دائما - فى الغالب - الى العمل الأول لاتمامه بعد اتمامهم للعمل الثانى . ويصور شكل (٣١) هذا الفرق بين خصائص الحدود عند الأطفال العاديين والأطفال الضعاف العقول .



شكل (٣١)

وتدل الحدود الأثقل للمناطق الشخصية - الداخلية للطفل ضعيف العقل على أن الاتصال أقل بين نظم التوتر مما لدى الطفل العادى . وتوجد خلايا أكثر في تمثيل الطفل العادى ، ذلك لأن ليفين يفترض أن الطفل العادى أكثر تمايزا من الطفل ضعيف العقل . ويمكن الرجوع الى ليفين (١٩٣٥ ، فصل ٨) لمعرفة الفروق الأخرى بين الطفل المتخلف والطفل العادى .

وربما كان أكثر البحوث فى الابدال طموحا ، وأشدّها حرصا فى الصياغة على أساس نظرية ليفين وتخليطه التجريبي ما قامت به هارون حنلة

(١٩٤٢) Mary Henle • فلقد وجهت هنلة انتقادات عديدة للدراسات السابقة للإبدال ، وربما كان أوثقها اتصالا بأغراضنا التفسير الدائري الذي قدمته ليسر لنتائجها • وتشير هنلة الى أنه لن يضاف شيء يذكر لما نعرفه عن القابلية للإبدال عندما يقال أن لعمل ما قيمة بديلة لعمل آخر لأن النظامين في حالة اتصال دينامي ، وذلك اذا كان على المرء أن يكتشف بالاختبار الفعلي : هل عمل ما يصبح فعلا بديلا لعمل آخر ؟ • أى - بعبارة أخرى - ان تفسير النتائج بعد أن يتم الحصول على هذه النتائج ليس اختبارا حقيقيا للنظرية ، إذ أن من الممكن استخدام تفسيرات تقوم على نظريات أخرى بنفس الدرجة • ان على المرء أن يكون قادرا على التنبؤ مقدما بما يتوقع أن يجده اذا كانت للنظرية قدرة مفيدة على التفسير • وعلى هذا ، تصدى هنلة لمشكلة الدالة ، وهي إيجاد بعض المبادئ التي يمكن بها التنبؤ مقدما عن أى لأعمال يمكن أن تكون بديلا بعضها للبعض الآخر وأيها لا يمكن أن تكون كذلك •

وقد انتقت هنلة مبادئ من نظرية الجشطالت في الإدراك والتعلم • وتؤكد نظرية الجشطالت أن العوامل البنائية مثل التشابه والقرب والتجانس ، والإغلاق وعلاقات الشكل الأرضية لها أهميتها في أحداث التنظيم الأراكي • وفي تحديد ما يمكن تعلمه • وتتساءل هنلة : هل هذه المبادئ غير فعالة في إبدال العمل • وعلى هذا ، فقد خططت التجربة التالية المبينة على مبادئ التجانس والتقارب • فقد أجرت سلسلة تجارب من خمسة أعمال متجانسة ، واحدة منها حل مسائل تتكون من متاهات بالورقة والقلم ، وقد أجريت على عدد من الطلاب جميعهم من طلاب الجامعة ، وقد تمت في الظروف التالية : سمح للمفحوصين بإتمام المتاهات الثلاث الأولى ، ثم قوطعوا في المتاهة الرابعة ، ثم أتموا المتاهة الخامسة ، ثم سمح لهم بعد ذلك بالعودة الى المتاهة غير المنتهية لاتمامها • وقد تنبأت هنلة بأن المفحوصين سيستأنفون العمل في الأعمال غير المكتملة ، وذلك لان العمليين الأخيرين ، بوصفهما وحدات في سلسلة متجانسة من المتاهات لا يتميزان عن بقية الأعمال • ونتيجة ذلك ، لا يشكل المملان الرابع والخامس زوجا يمكن أن يقال عنهما أنها في حالة اتصال ببعضها ببعض • وبالفعل استأنف كل مفحوص العمل في المتاهة غير المكتملة •

وقد تنبأت هنلة ، استمرارا في هذا الاتجاه في التفكير ، بأنه في السلاسل غير المتجانسة حيث يختلف المملان الرابع والخامس اختلافا واضحا عن الأعمال الثلاثة الأولى ، أن الاستئناف سيكون أقل درجة مما كان عليه في السلاسل المتجانسة • الا أن هذا التنبؤ لم يتحقق • فمثلا ،

عندما كانت الاعمال الثلاثة الاولى تتكون من نماذج زخرافية مصغرة ، والعمل الرابع المقاطع ، والخامس المكتمل يتكونان من حل الغاز ميكانيكية. كانت درجة الاستئناف ماثلة لدرجة الاستئناف فى السلاسل المتجانسة . وتمترف هنلة بان الفضل فى التنبؤ بنتائج التجربة الثانية تنبؤا صحيحا ينفى التأييد المزعوم للفرض فى التجربة الاولى ، ذلك أن كلا التنبؤين قد وضع على أساس نفس المبادئ .

وقد حيرت نتائج التجربة الثانية هنلة ، وذلك لانه فى تجربة سابقة ، حيث استخدم عملاق فقط ، بدلا من سلسلة من الاعمال ، لم تستأنف نسبة كبيرة من المفحصين العمل المقاطع . لماذا اذن توجد هذه الفروق ؟ تقترح هنلة ثلاثة احتمالات . فاولا ، قد تؤدي مقاطعة عمل من سلسلة من الاعمال ، الى تمييز هذا العمل المقاطع بين بقية الاعمال الاربعة الاخرى . وبمزل هذا العمل المقاطع ، قد يفقد اتصاله الديناميكي بالاعمال الاخرى . وعندما يكون هناك عملاق فقط ، فان العمل المقاطع ربما لا يبرز متميزا بهذه الدرجة ، محتفظا بعلاقته بالعمل المكتمل . ونتيجة ذلك أن تصبح القيمة البديلة كبيرة ، عندما يستخدم عملاق فقط . واذا كان هذا هو السبب ، فان الخطة التالية ستزودنا بالبرهان اللازم . وقد استخدمت خمسة أعمال . وكانت الثلاثة الاولى متشابهة ، وكان العملاق الاثنان الاخيران متشابهين ، وبذا تكونت سلسلة غير متجانسة . وقد قوطع العمل الاول والثالث والرابع ، وبذا لم يعد العمل الرابع ، الذى ستختبر درجة استئنافه ، متميزا بوصفه قد قوطع ، ما دام العمل الاول والثالث قد قوطعا كذلك . وكانت النتائج هى نفس النتائج التى وجلت عندما قوطع العمل الرابع وحده . أى أن معظم المفحصين استأنفوا العمل فى العمل الرابع الذى قوطع ، بعد أن أنموا الخامس . يبدو ، اذن ، أن المقاطعة فى حد ذاتها لا تجعل العمل متميزا بارزا ، وتجعل نظام التوتر يفقد اتصاله الديناميكي مع النظم المجاورة .

والعامل الثانى الذى يمكن أن يكون سببا فى تضارب النتائج الخاصة بسلاسل الاعمال فى مقابل الاعمال الزوجية ، هو الجاذبية الكبرى (التكافؤ) فى الاعمال المستخدمة فى السلاسل بالموازنة بتلك المستخدمة فى الاعمال الزوجية . ويمكن - كما تقترح هنلة - أن يكون قبول البدائل بدرجة أقل ، اذا كان المفحوص شديد الاهتمام بالعمل المقاطع . ولتختبر هنلة هذا الافتراض ، استخدمت ، أزواجا من الاعمال تتباين فيما بينها من حيث تكافئها النسبى . وقد يحظى زوج من الاعمال بتفضيل بالغ للغاية ، على حين كان تكافؤ الزوج الثانى متوسطا ، اما الزوج الثالث فقد كان

الاحتمال به منخفض القيمة : وقد بينت النتائج بوضوح أن أعلى درجات الاستئناف كانت بالنسبة للأعمال ذات التكاليف الأكبر ، أما أقلها فكانت بالنسبة للعمل ذي التكاليف الأدنى ، على حين كانت درجة الاستئناف المتوسطة للعمل ذي التكاليف المتوسطة . إن التكاليف القوي يكف الاتصال بين نظم التوتير ويخفض القيمة البديلة ، أو قد يكون التوتير الذي يتسم به العمل ذو التكاليف الأكبر ، من الشئ بحيث لا يستغفنه إنجاز العمل الثاني كما هو الحال بالنسبة للعمل ذي تكاليف أقل ، وبالتالي توتر أقل . وفي أي من الحالتين يمكن تفسير النتائج المتضاربة لزوج من الأعمال منخفض التكاليف ، في مقابل سلسلة من الأعمال مرتفعة التكاليف ، بالفرق في التكاليف . ونتيجة لذلك ، يصبح من الضروري عند التخطيط لتجارب على العوامل البنائية بالقرب والتشابه أن تستخدم أعمال لها تكاليف متساوية في الظروف التجريبية المختلفة .

والعامل الثالث ، الذي تعتقد هنلة أنه قد يكون سببا في اختلاف نتائج التجارب التي تستخدم زوجا من الأعمال والتجارب التي تستخدم سلسلة مكونة من خمسة أعمال ، هو النجاح . وحجتها في تأثير النجاح تجرى بالصورة التالية . يميل المفحوص إلى اعتبار العمل غير المكتمل أكثر صعوبة من العمل المكتمل . وعندما نتاح له الفرصة لاتمام عدد من الأعمال ، عندما تقدم له سلسلة من خمسة أعمال مثلا ، فإنه يكتسب ثقة في قدرته على القيام بالعمل . ونتيجة ذلك ، يميل إلى العودة إلى اتمام العمل المقاطع . أما عندما يكون هناك إعلان فحسب ، فإن الفرصة لا تتاح له ليستشعر ثقة كبيرة في نفسه لخبرته بالنجاح . ومن ثم يقل احتمال عودته إلى استئناف العمل المقاطع .

وقد درست هنلة أهمية هذا العامل على الوجه الآتي : سمح للمفحوصين باتمام ثلاث مهامات تتزايد صعوبتها ، ثم تلا ذلك متاحة قوطعت ، ومتاحة أكملت . وقد عاد جميع المفحوصين تقريبا ، للعمل في المتاحة غير المكتملة . وعندما كانت المتاحةات الثلاث الأولى بالغة السهولة ، فإنها لم تمد المفحوصين بمشاعر النجاح ، ولذلك عاود عدد صغير للغاية من المفحوصين استئناف العمل المقاطع .

وبعد أن خلصت هنلة أن تكاليف العمل ، وصعوبته ، وهما متغيران هامان في تجارب الإبهام عمدت إلى تثبيت هذين العاملين ، على حين غيرت من ظروف تجانس العمل وقربه .

وقد أجريت سلسلة من أعمال غير متجانسة تتكون من ثلاثة من اختبارات شطب الحرف اكملنها جميعا ، واختبارين نماذج مصفرة . قوطع واحد منها واكمل الآخر ، وكان نتيجة هذه الاختبارات أن تناقص استئناف العمل تناقصا كبيرا ، عما هو الحال في سلسلة متجانسة الاعمال ، كان تكون جميع الاختبارات المطبقة لشطب الحروف ، أو أن تكون جميعها اختبارات نماذج مصفرة . ويسمح عدم تجانس الاعمال للاختبارين الآخرين بالبروز ، وبأن يتبادلا الاعتماد دينليا ، على حين يحول التجانس دون حدوث اتصال .

ولكى يختبر عامل القرب استخدمت السلسلتان التاليتان من ثلاثة أعمال ، وكان التتابع في السلسلة الاولى على الوجه الآتي : اتمام العمل الاول ، ومقاطعة العمل الثاني ، واطمام العمل الثالث . وكان الععلان الثاني والثالث متشابهين ، والعمل الاول مختلفا . وكان العمل المقاطع في هذه السلسلة مجاورا لعمل مماثل ومكتمل . ولم يستأنف العمل المقاطع ٧٥٪ من المفحوصين . وتبين هذه النتيجة أن العمل الثالث له قيمة بديلة باغة الارتفاع بالنسبة للعمل الثاني . أما في السلسلة الثانية فكان التتابع على الوجه الآتي : مقاطعة العمل الاول واكمال العمل الثاني واكمال العمل الثالث . وكان الععلان الاول والثالث متشابهين والثاني مختلفا . وقد كان العمل المقاطع في هذه السلسلة منفصلا عن العمل المائل له والمكتمل . وقد بلغت نسبة من لم يستأنف العمل المقاطع ٣٦٪ فقط من المفحوصين . وتؤيد نتائج هاتين المجموعتين من التجارب الفرض القائل بأن الحدود بين نظامين من نظم التوتر تكون أكبر قابلية للنفاد تحت ظروف تجانس العمل واقترا به .

وتمثل دراسات الابدال السابق ذكرها قطاعا صغيرا فقط من العمل التجريبي الذي استثارته نظرية المجال لليفين . ويكاد يكون من المحال أن نوفي جميع البحوث حقها في حدود فصل واحد . ونستطيع أن نشير فقط الى بعض مجالات البحث التي تتصل مباشرة بنظرية المجال عند ليفين في الشخصية ، واتقين من أن القارئ سوف يعرف نفسه بها ، وهي : مستوى الطموح (ليفين ، دمبو ، فستنجر ، سيرز ، ١٩٤٤) والنشاطات المقاطعة (كاتز ، ١٩٣٨ ، زيجارنيك ١٩٢٧) والاشباع النفسي الزائد (كارستن ، ١٩٢٨) والنكوص (باركر ، دمبو ، ليفين ١٩٤١) والصراع (ليفين ، ١٩٥١ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٨) ويمكن أن نجد مسحا مناسبيا للاعمال التجريبية التي قام بها ليفين وزملاؤه في الفصل الخاص به في مرجع في علم نفس الطفل ، ، ١٩٥٤ .

المكانة الراهنة والتقييم :

ان ما تستثيره وجهة نظر علمية ، من جدال واختلاف بين أنصارها وبين ناقدتها مؤشر لحيويتها . وسلوكية واطسن ، والتحليل النفسى ونظرية هل Hull السلوكية والفرضية السلوكية لتولان ، أمثلة لوجهات نظر قسمت علماء النفس الى معسكرات متناقسة ، وفي كل حالة من هذه الحالات ، كان للنظرية تأثير مرموق فى المسار الذى اتخذه علم النفس .

ولقد كانت نظرية المجال عند ليفين موضع خلاف ملموس طوال العشرين عاما المنصرمة . وقد جذبت فى ذلك الوقت جماعة مخلصه من المتمسكين بها ، تواصل ، منذ وفاة ليفين ، العمل الذى بدأه ، وبخاصة دراسة العمليات الجماعية . ويواصل الكثيرون ممن زاملوا ليفين العمل فى مركز بحوث ديناميات الجماعة فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ، يواصلون العمل الآن معا فى جامعة ميتشجان . ولقد أصبحت ديناميات الجماعة ، كما يشير دويتش (١٩٥٤) جزءا متكاملا من علم النفس الاجتماعى .

ولكن نظرية ليفين فى الشخص لن تصادف هذا القدر من النجاح . ولقد كرس ليفين نفسه وجهه خلال السنوات الاخيرة من عمره ، بدرجة كبيرة ، لدراسة عمليات الجماعة وللبحوث من النوع المعروف باسم وبحت هو - الفعل (ليفين ، ١٩٤٨) . ولقد اتجهه اهتمامه الى تطبيق نظرية المجال على العلوم الاجتماعية . ونتيجة لذلك لم تحرز نظرية ليفين فى الشخص تقدما هاما منذ اوائل الاربعينات . غير أن الكثير من مفوماته قد تمثلها علم النفس فى مجراه الرئيسى . فلم تعد اصطلاحاته ، مثل الكمية الموجهة ، والتكافؤ ، ونظام التوتر ، والحاجز ، وحيز الحياة ، كلمات غريبة على اسماع علماء النفس .

ومن الاتجاهات الجديدة الجديرة بالملاحظة ، فى الدراسات المتأثرة بنظرية المجال تزايد الانتباه الذى يوجه الى تأثير العوامل غير النفسية فى حيز الحياة . مثال ذلك ان اسكالونا وليتش (اسكالونا ، ١٩٥٤) فى دراستهما لسلوك الاطفال الصغار ، بينا أن العوامل التكوينية كالمساسية لمختلف المنبهات ، والنشاط الفيزيقي ، وتحمل التوتر ، تؤثر فى البيئة النفسية للطفل . ولقد قام باركر ورايت وزملاؤهما فى جامعة كانساس (باركر ورايت ، ١٩٥١) بدراسة جديرة بالاهتمام فى الايكولوجيا النفسية . وكان هدفهم وصف الظروف السلوكية لجميع الاطفال فى مدينة صغيرة

بوسط غربي الولايات المتحدة . وتقول اسكالونا ان هاتين الدراستين تدلان على أن «الطوبولوجيين قد وسعوا من آفاقهم بأن اهتموا ، لا بطبيعة الموقف السيكلوجي فحسب ، بل وكذلك بأصوله وارتقائه زمنيا » (١٩٥٤ ، ص ٩٨٢) . ويمكننا أن نجمل الانتقادات الموجهة الى نظرية المجال عند ليفين في أربعة انتقادات رئيسية كما يلي :-

لا تأتي تمثيلات ليفين الطوبولوجية والكمية الموجهة بجديد بالنسبة للسلوك الذي يفترض انها تهدف الى تفسيره : ولقد صاغ مختلف الناقدين هذا الاعتراض بصور مختلفة ، فبعضهم مثل جاريت Garrett (١٩٣٩) يزعم أن تمثيلات ليفين تصورات معوقة لمواقف نفسية بسيطة نسبيا ، فهي لا تزيد عن كونها ماثلات تصويرية أو استعارات موضحة (برولير، ١٩٣٦ - ١٩٣٧) . ويرى لندن (١٩٤٤) أنها صور لما نعرفه مقدما وأنها لا تضيف أى معلومات أو استبصار جديد . ويسجل ليندزى (١٩٥٢) فى عرضه لنظرية المجال عند ليفين فى العلوم الاجتماعية ، ميل ليفين الى استخدام ما يسمى بالتصوير التالى على الوقائع ، أكثر مما يستخدم التنبؤات السابقة على الوقائع القائمة على أسس مستمدة من قضايا من نظرية أساسية . كذلك يلاحظ هوسهولدر (١٩٣٩) أن ليفين لا يصوغ قوانين ، كما أنه لا يفسر العمليات اللازمة لتعيين الثوابت فى طرفى المعادلة ، التى يمكن عن طريقها التنبؤ بسلوك شخص ما فى موقف معين . وينكر سينس (١٩٤٤) أن لعمل ليفين التجريبي أى صلة بنظريته ، ويقول «يعد ليفين لنظريته أشد البرامج جاذبية . فإذا ما ربطنا بينه وبين تجاربه المثيرة للاهتمام تغلب علينا الوهم بوجود شىء من الصلة بين كليهما » .

كذلك يثير تولمان نفس المشكلة فى مقاله التقديرى عند وفاة ليفين، فيقول ، « لقد سمعت بالفعل مزاعم تؤكد - بل لقد أغريت أنا نفسى بالايمان بها أحيانا - أن التصور الذهني الصحيح لميز حياة ما ، لا يمكن الا بعد ملاحظة أشكال السلوك التى نفترض أنها نتيجة له ، (تولمان ، ١٩٤٨ ص ٣) . ويؤكد تولمان ، - وهو فى ذلك أكثر كرما من الآخرين- أن الخطأ يرجع الى فشل ليفين فى أن يوضح خطوات معينة فى تفكيره . ويؤكد هايدبريدر Heidbreder (١٩٣٧) فى عرض عميق لكتاب ليفين «مبادئ علم النفس الطوبولوجى » أن ليفين لم يكن يقصد أن تستخدم رسومه الطوبولوجية كنماذج للواقع ، وإنما هى أساليب تصويرية لتمثيل البناء المنطقي للعلاقات نفسها . ويضيف هايدبريدر أن المفاهيم الطوبولوجية

يمكن تطويرها بصفة خاصة لتعبير بدقة ويسر عن شبكة العلاقات المعقدة في الموقف السيكولوجي .

ويرد ليفين على النقد القائل بأن تمثيلاته مجرد صور لوقائع معروفة وأنها لا تسمح لأحد بالتنبؤ مقدما بما سيحدث من سلوك ، بما يلي : ليس من النادر أن يقال أن النظريات التي تشرح فحسب الوقائع المعروفة ليست بذات قيمة مميزة ولكني لا أستطيع الاتفاق مع هذا الرأي وبخاصة إذا كانت النظرية تجمع في نسق منطقي واحد وقائع معروفة كانت تعالج فيما قبل بنظريات منفصلة ، أن ميزتها الاكيدة أنها وسيلة تنظيمية . بالإضافة الى أن الاتفاق مع الوقائع المعروفة يثبت كفاية هذه النظرية ، إلى درجة معينة على الأقل (ليفين ١٩٥١ ، ص ٢٠) .

الا أن ليفين يشرح بعد ذلك في الاعتراف بصدق هذا النقد ، فيقول : «الا أنه من الحقيقي أن من أوضح الاختبارات لكفاية النظرية أن يستطيع المرء التنبؤ عن طريقها ، وأن يثبت هذه التنبؤات تجريبيا . ويبدو أن السبب في هذا الاختلاف هو أن المعطيات التجريبية تسمح عادة بمدى ملموس من التفسيرات والتصنيفات المختلفة ولذلك يكون من السهل عادة ابتكار نظريات مختلفة تغطي هذه المعطيات التجريبية» . (١٩٥١ ، ص ٢٠) . لقد وضع ليفين في هذا الجزء من الجملة الأخيرة أصعبه على السبب فيما يوجه من نقد للتفسيرات التالية على الوقائع ، والسبب في اصرار المنهج العلمي الدقيق على ضرورة أن تقرر التنبؤات التجريبية مقدما لاختبار النظرية .

لا يمكن لعلم النفس أن يتجاهل البيئة الموضوعية :

أثار هذا الاعتراض على نظرية المجال عند ليفين كل من ليبير Leeper (١٩٤٣) وبرونشفيك Brunswik (١٩٤٣) وتولمان Tolman (١٩٤٨) . ويجري الجدل على النحو التالي : ان حيز الحياة ليس نظاما نفسيا مغلقا . فهو ، يتأثر ، من ناحية ، بالعالم الخارجي ، كما أنه يحدث ، من الناحية الأخرى تغييرات في العالم الموضوعي ، كذلك لا بد لتقييم نظرية نفسية تتسم بالكفاية من صياغة مجموعة من المبادئ ، تقرر أنه عندما تتوفر صياغات حيز الحياة لأفراد أو جماعات تتصف بكذا وكذا ، فان ذلك يؤدي الى سلوك يتصف بكذا وكذا من الصفات ، ومجموعة أخرى من المبادئ تقرر أنه اذا التقت متغيرات مستقلة لموقف بيتي وبناء معين للشخصية فان ذلك يؤدي الى كذا وكذا من حيز الحياة الداخلى والخارجي ، (تولمان ، ١٩٤٨ ، ص ٣ - ٤) . ويحقد تولمان أن نظرية ليفين تضيق بخاصة

فى عمم توضيحها كيف تحدث البيئة الخارجية تغييرات فى حيز الحياة ، والاخفاق فى تقديم مثل هذه المبادئ يعنى أن نظرية المجال عند ليفين تسقط فى فخ الذاتية ، الذى لا يستطيع غير الحس انقاذها منه . اى أن على المرء أن يعدس ما يوجد فى حيز الحياة بدلا من اكتشافه بواسطة العمليات العلمية ، فى المتغيرات المستقلة فى البيئة التى تنتج حيز حياة معيناً . فإذا استطاع المرء أن يعرف المتغيرات المستقلة المسؤولة عن أحداث حيز حياة ما ، فإن المرء يستطيع التنبؤ بحيز الحياة والسيطرة عليه بصورة موضوعية .

وتنقسم اجابة ليفين على هذا النقد الى شقين . فهو يقرر فى المقام الاول أنه لا يدخل فى حسابه تلك الجوانب من البيئة الموضوعية التى تؤثر فى حيز الحياة للشخص فى هذا الوقت ، (١٩٥١ ، ص ٥٧) . ومن المؤكد أنه يبدو صحيحاً أن ليفين وزملاءه عندما يقومون بالبحوث يحددون المتغيرات المستقلة والمنبهات الصادرة عن البيئة غير السيكولوجية بنفس الطريقة التى يستخدمها اى باحث تجريبى . وثانياً اقترح ليفين مجالاً للبحث ، هو البيئة النفسية ، وهو الذى يدرس العلاقات بين العوامل السيكولوجية والعوامل غير السيكولوجية (١٩٥١ ، فصل ٨) . ومن الواضح أن الهدف الأساسى لهذا البحث هو التنبؤ بتلك المتغيرات فى البيئة الموضوعية التى يحتمل أنها ستؤثر فى وقت ما فى المستقبل فى حيز الحياة للفرد . ويقدر ما يمكن أن يكون لهذا البرنامج الجديد من قيمة بالنسبة للتنبؤات البعيدة المدى عما قد يحدث فى المستقبل غير المعين ، فانه لا يبدو أنه يجيب على اعتراض ليبير وبرونشفيك وتولمان . فما يطلبونه صياغة فكرية لعوامل البيئة ، التى تؤثر ، بالفعل وبمباشرة ، فى حيز الحياة . ما هى العمليات الوسيطة التى تتحول عن طريقها الوقائع الاجتماعية والمادية الى وقائع سيكولوجية ؟ .

وثمة انتقاد مختلف ، لكنه مرتبط بمشكلة العلاقة بين العالم المادى وحيز الحياة قد صاغه فلويد اولبورت (١٩٥٥) . ان اولبورت يعتقد أن ليفين قد خلط بين ماهو مادى وماهو سيكولوجى، أو «الظاهرالى» وهو الاسم الذى يفضل اولبورت أن يطلقه على حيز الحياة (الوعى المباشر) . فالتحركات فى كتابات ليفين تكون مادية أحياناً ونفسية أو عقلية أحياناً أخرى ، كما ان الصعود تكون أحياناً عوائق حقيقية فى العالم الخارجى وأحياناً عوائق داخلية . ويخلط نموذج ليفين بين العالم الداخلى الظاهراتى والعالم الخارجى المادى ، والنتيجة كما يلعب اولبورت خلط لا مخرج منه . ويعتقد اولبورت أن هذا الخلط لا مفر منه اذا ما تبنى المرء منهج نظرية المجال بسبب

الإغراء الكبير الذى يدفع الى ادراج عوامل تكمن داخل الفرد (ظاهراتية) داخل نفس المجال ، وعوامل توجد خارج الشخص (عوامل مادية) مما . ان الفصل بين هاتين المجموعتين من العوامل - من حيث التصور الذهني- هو وحده الذى يجعل من الممكن اكتشاف قوانين التفاعل بينهما .

ليفين لا يدخل فى اعتباره التاريخ الماضى للفرد :

يقدم ليبير (١٩٤٣) وجاريت (١٩٣٩) بخاصة ، هذا الاعتراض ، فهما يعتقدان أن التفسير الكامل لآى سلوك راهن يقتضى - بالضرورة - النظر فى ماضى الفرد بحثا عن العوامل العلية . ولهذا النقد وزن كبير لدى الاخصائيين النفسيين الذين يعتقدون أن الشخصى تساج الوراثة ، والنضج ، والتعلم .

صحيح أنه يبدو أن مبدأ التزامن عند ليفين يستبعد الماضى ، الا أن ليفين ينكر أن العلية التاريخية يجب أن تستبعد من علم النفس . ويقول ليفين فيما يتعلق بهذا الأمر ما على :

« ان هذا المبدأ (مبدأ التزامن) قد أكله منذ البداية أصحاب نظرية المجال الا أنه كثيرا ما يساه فهمه ويفسر بحيث يعنى أن أصحاب نظريات المجال لا يهتمون بالمشاكل التاريخية ، أو بأثر الخبرات السابقة . ونيس ثمة خطأ أكبر من هذا . فالحقيقة أن أصحاب نظريات المجال شديدو الاهتمام بالمشاكل الارتقائية والتاريخية ، كما أنهم قاموا - بالتأكيد - بدورهم فى توسيع آفاق المدى الزمنى للتجارب السيكلوجية من تجارب زمن الرجوع التقليدية ، التى تستغرق ثوانى قليلة فحسب ، الى المواقف التجريبية التى تتضمن تاريخا يخلق بصورة منظمة وتمتد ساعات وأسابيع ، (١٩٥١ ، ص ٤٥ - ٤٦) .

يسى ليفين استخدام المفاهيم الفيزيقية والرياضية :

بالرغم من أن ليفين قد بذل قصارى جهده لايضاح أنه تبنى فقط منهج نظرية المجال كما يستخدم فى علم الطبيعة فإنه لمستخدم مضمونه، وأنه استخدم تلك الجوانب من الطوبولوجيا المناسبة للتعبير السيكلوجي، ومع ذلك فقد وجه اليه اللوم القاسى لاستخدامه بنون تميز وبصورة خاطئة المفاهيم الرياضية ، والفيزيقية (لندن ١٩٤٤) . ويسمو أن الاعتراض

يعنى أن اصطلاحات مثل القوة الكمية الموجهة ، التكافؤ ، نظام التوتر ، والممر ، والحدود ، والحيز ، والمنطقة وغير ذلك من الاصطلاحات التى يستخدمها ليفين تنتزع من سياقها فى علوم الطبيعة والكيمياء والرياضة ويساء تطبيقها على المفهومات السيكولوجية ، فالتكافؤ فى علم النفس مثلا لا يعنى نفس ما يعنيه عندما يستخدم فى الكيمياء مثلا . هذا بالإضافة الى أن ليفين - كما أشار الى ذلك ليبر (١٩٤٣) وكانترل (١٩٣٥) لا يحدد دائما اصطلاحات بعناية ، مما يؤدى ، وقد ادى بالفعل ، الى الخلط . ذلك أنه اذا لم يكن الاصطلاح المستعار محكم التحديد فى سياقها الجديد ، فإن الاحتمال أن يبقى معناه القديم قائما . وربما كان أقوى الانتقادات التى وجهت الى نظرية المجال عند ليفين هو أنها تتظاهر أنها تقدم نموذجا رياضيا للسلوك يمكن الخروج منها بتنبؤات نوعية ، على حين لا يمكن فى حقيقة الأمر صياغة مثل هذه التنبؤات . فما يسمى بالنموذج الرياضى لليفين ، ليس له فى نظر علماء النفس الرياضيين قيمة ما فى توليد قضايا قابلة للاختيار . ومهما كانت المعالجات الرياضية التى انغمس ليفين فيها ، فقد قام بها بعد القيام بالملاحظة . بعبارة أخرى، لقد جعل معادلاته مناسبة للمادة ، بدلا من أن يستمد المعادلات بوساطة منهج الاستنباط من نظريته بحيث يمكن بعد ذلك اختبارها بوساطة أساليب الملاحظة . ان اكتشاف طريقة للتعبير عما يصل اليه المرء من نتائج بصورة رياضية تمرين مثير للاهتمام ، قوامه ترجمة القضايا اللفظية الى أخرى عديدة أو غير مترية non-metrical ان هذا أمر لا صلة له بتنمية وتطوير نظرية مفيدة . ان نظرية المجال لليفين ليست نظرية رياضية بالرغم من اللغة الطوبولوجية المستخدمة فى صياغة النظرية .

أما من الناحية الايجابية ، فقد وجد علماء النفس الكثير فى عمل ليفين مما يستاهل الاهتمام . فهناك ، قبل كل شيء ، النشاط الهائل فى مجال البحث الذى بعثه أفكار ليفين . فقد فتح لعالم النفس أبوابا جديدة كثيرة ، أبوابا قادت الى جوانب من الشخصية والسلوك الاجتماعى كانت مغلقة قبل ذلك أمام الباحث التجريبي . فالبحوث فى الابدال ، ومستوى الطموح ، والآثار المترتبة على المقاطعة على الذاكرة ، والنكوص والصراع وديناميات الجماعة ، يرجع فضل المبادرة بها الى ليفين . وقد أوضحت ملاحظات المحللين النفسيين أهمية كثير من هذه الظواهر السيكولوجية ، الا أن الامور ظلت حتى جاء ليفين ليقيم الجو النظرى المناسب ، وليبتكر المناهج التى يمكن بها دراسة هذه الظواهر . وبخاصة ، ان

مشكلة الدوافع الانسانية ، التي ثبت أنها مجال مفلق في وجه البحوث باستثناء الدراسات التجريبية للدوافع البيولوجية عند الحيوانات الدنيا ، أصبحت مجالا حيويا للتجريب ، والفضل في ذلك يرجع الى ليفين .

لقد وهبت لليفين القدرة المرموقة على أن يبرز وعلى أن يوضح بصورة عيانية بعض الفروض الضمنية التي يصعب تحديدها معالمها فيما يتعلق بالشخصية . فقد تبين مثلا ضرورة أن توضح بالتفصيل الفروض الأساسية لأصحاب النظريات التحليلية النفسية فيما يتعلق بإبدال نشاط يأخر . وعندما فعل ذلك في اطار تنظيم من نظم التوتر المعزولة التي تصف حدودها بخاصية القابلية للنفاذ ، مهد الطريق للمعالجة التجريبية . كذلك تناول ليفين بطريقة مماثلة المسألة - الشائكة بعض الشيء - وهي الصراع النفسي الذي يحتل دائما دورا مركزيا في نظرية التحليل النفسي ، ووسع نطاقه موضعيا ما هو الصراع وكيف يمكن دراسته تجريبيا . وهذه القدرة على التفكير المحكم والواضح في معالجة المفاهيم الهامة هي إحدى جوانب القوة في ليفين . فقد ألقى الاضواء على مشاكل كثيرة عانت من الانطواء والذبول في ظلال صياغة فكرية غير مكتملة واطار نظري مهتز . فقد كان مؤمنا أن «علماء» لدراسة النفس لا بد له اذا أراد أن يكون ذا قيمة للانسان ، من أن ينفذ الى الوجود ، وأن يكشف تجريبيا الابعاد الهامة لسلوك الانسان . واذا كان ليفين قد يغمض ويصعب فهم صياغاته النظرية ، فإنه نادرا ما كان يخفق في الوصول في نهاية الامر الى حالات عيانية ومواصفات عملية للبحث .

وعلاوة على ذلك ، فقد فطن بوضوح الى أن نظرية تحيط بالجوانب الحيوية لسلوك الانسان لا بد أن تكون آفاقها متعددة الابعاد . بعبارة أخرى ، لا بد أن تكون نظرية مجالية . نظرية تشتمل على شبكة من المتغيرات المتفاعلة وليس على أزواج من المتغيرات . ولقد كان هذا التأكيد المجالي هو ما يحتاج اليه - علم النفس - فيما بين عامي ١٩٢٠ ، ١٩٣٠ ، كقوة مضادة تقابل التأثير والمسكانة المرموقة التي كانت تحتلها سيكولوجية النثر - الاستجابية الساذجة والمسرفة في التبسيط . وبينما كانت سيكولوجية الجشطات تهاجم وتقتحم حصون علم النفس البنسائي الذي كان يمثل آنذاك التحليل العقلي الى عناصر ، كان علم النفس الطوبولوجي ومفهوم الكمية الموجبة لليفين ينافسان شكلا عقيما من السلوكية يرجع سلوك الانسان الى الروابط البسيطة بين المنبه والاستجابة . هذا بالإضافة الى أن هذا النمط من نظرية المجال الذي يتبناه ليفين له طابع سيكولوجي كل ، يتعارض تعارضا حادا مع الاتجاه ذي الطابع الفيزيقي والسيكولوجي

الذى تتسم به السلوكية ، بل ويتعارض حتى مع التحيز الى علم الطبيعة الذى يميز سيكولوجية الجشطالت . لقد ساعدت نظرية ليفين على جعل الاطار المرجعى الذاتى يحظى بالاحترام العلمى فى وقت كانت فيه الموضوعية هى الصوت الغالب فى علم النفس . فما يسمى المحتما الداخلية للسلوك «الموضوعى» ويفضل عليها الافعال المنعكسة الشرطية ، وتعلم الأصم ، والقبول والرفض الآلى لارتباطات المثير والاستجابة . لقد كادت السلوكية أن تنجح فى خفض الانسان الى مستوى الانسان الآلى ، والدمية الميكانيكية التى ترقص استجابة لصوت التنبيه الخارجى أو تهتز مدفوعة بحوافز من المحركات الفسيولوجية الداخلية ، لقد أصبح آلة مجردة من التلقائية والابتكار ، لقد أصبح انسانا أجوف . لقد كانت نظرية ليفين احدى النظريات التى ساعدت على احياء مفهوم الانسان ، بوصفه مجالا معقدا من الطاقة تحركه قوى سيكولوجية ، ويسلك بما له من مقدرة على الاختيار والخلق . لقد امتلا الانسان الأجوف بالحاجات السيكولوجية ، والمقاصد والآمال والمطامح . لقد تحولت الآلة الى كائن بشرى حى . لقد حلت محل المادة الجافة المجردة للسلوكية صورة للانسان أكثر انسانية . وبينما كان علم النفس «الموضوعى» يقدم كثيرا من فروضه التجريبية بحيث يمكن اختبارها على الكلاب والقطط والفئران ، أدت نظرية ليفين الى اجراء البحث فى السلوك الانسانى كما يعبر عنه فى ظروف طبيعية تختلف درجاتها . فالاطفال فى أثناء اللعب ، والمراهقون فى نشاطاتهم الجماعية ، والعمال فى مصانعهم ، وربات البيوت فى اختيارهن لوجبات الطعام ، هذه كانت بعض مواقف الحياة الطبيعية التى اختبرت فيها عمليا الفروض المستمدة من نظرية المجال عند ليفين . لذلك لا يدهشنا ازاء مثل هذه البحوث الحيوية التى تمت بفضل اغراء نظرية المجال أن تصبح وجهة نظر ليفين على هذا القدر من الشيوع . ان قدرة النظرية على توجيه البحث ، بصرف النظر عن كفايتها الشكلية أو ما تزعمه من أنها نموذج رياضى ، تبرر ما تحظى به نظرية المجال عند ليفين من منزلة مرموقة فى علم النفس المعاصر .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Lewin, K. *A dynamic theory of personality*. New York: McGraw, 1935a.
- Lewin, K. *Principles of topological psychology*. New York: McGraw, 1936a.
- Lewin, K. The conceptual representation and measurement of psychological forces. *Contr. psychol. Theor.*, 1938, 1, no. 4.
- Lewin, K. *Resolving social conflicts; selected papers on group dynamics*. Certrude W. Lewin (Ed.). New York: Harper, 1948.
- Lewin, K. *Field theory in social science; selected theoretical papers*. D. Cartwright (Ed.). New York: Parper, 1951.

REFERENCES

- Allport, F. H. *Theories of perception and the concept of structure*. New York: Wiley, 1955.
- Allport, G. W. The genius of Kurt Lewin. *J. Pers.*, 1947, 16, 1—10.
- Barker, R. G., Dembo, Tamara, and Lewin, K. Frustration and regression: an experiment with young children. *Univ. Ia. Stud. Child Welf.*, 1941, 18, no. 1.
- Barker, R. G., and Wright, H.F. *One boy's day*. New York: Harper, 1951.
- Bavelas, A., and Lewin, K. Training in democratic leadership. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1942, 37, 115—119.
- Brolyer, C. R. Review of Lewin's *Principles of topological psychology*. *Character and Pers.*, 1936—37, 5, 257—258.
- Brunswik, E. Organismic achievement and environmental probability. *Psychol. Rev.*, 1943, 50, 255—272.
- Cantril, H. Review of Lewin's *A dynamic theory of personality*. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1935, 30, 534—537.
- Deutsch, M. Field theory in social psychology. In G. Lindzey (Ed.). *Handbook of social psychology*. Cambridge: Addison-Wesley, 1954, pp. 181—222.
- Escalona, Sibylle. The influence of topological and vector psychology upon current research in child development: an addendum. In L. Carmichael (Ed.). *Manual of child psychology*. New York: Wiley, 1954, pp. 971-983.
- Garrett, H.E. Lewin's "topological" psychology: an evaluation. *Psychol. Rev.*, 1939, 46, 517—524.
- Heidbrider, Edna. Review of Lewin's *Principles of topological psychology*. *Psychol. Bull.*, 1937, 34, 584—604.

- Henle, Mary. An experimental investigation of dynamic and structural determinants of substitution. *Contr. psychol. Theor.*, 1942, 2, no. 3.
- Hilgard, E. R. *Theories of learning*. 2nd Ed. New York: Appleton-Century-Crofts, 1956.
- Householder, A. J. Review of Lewin's *Principles of topological psychology*. *J. gen. Psychol.*, 1939, 54, 249-259.
- Karsten, Anitra. Psychische Sättigung. *Psychol. Forsch.*, 1928, 10, 142-154.
- Kartz, Evelyn. Some factors affecting resumption of interrupted activities by pre-school children. *Inst. Child Welf. Monogr. Ser.*, 1938, no. 16.
- Leeper, R. W. Lewin's topological and vector psychology; a digest and critique. *Univ. Ore. Publ. Stud. Psychol.*, 1943, no. 1.
- Lewin, K. *A dynamic theory of personality*. New York: McGraw, 1935a.
- Lewin, K. Psycho-sociological problems of a minority group. *Character and Pers.*, 1935b, 3, 175-187.
- Lewin, K. *Principles of topological psychology*. New York: McGraw, 1936a.
- Lewin, K. Some social-psychological differences between the United States and Germany. *Character and Pers.*, 1936b, 4, 285-293.
- Lewin, K. The conceptual representation and measurement of psychological forces. *Contr. psychol. Theor.*, 1938, 1, no. 4.
- Lewin, K. Forces behind food habits and methods of change. *Bull. Nat. Res. Council.*, 1943, 108, 35-65.
- Lewin, K. Action research and minority problems. *J. soc. Issues*, 1946, 2, 34-46.
- Lewin, K. Frontiers in group dynamics. II. Channels of group life; social planning and action research. *Hum. Relat.*, 1947, 1, 143-153. (Reprinted in K. Lewin. *Field theory in social science*, Chapter VIII.)
- Lewin, K. *Resolving social conflicts; selected papers on group dynamics*. Gertrude W. Lewin (Ed.). New York: Harper, 1948.
- Lewin, K. *Field theory in social science; selected theoretical papers*. D. Cartwright (Ed.). New York: Harper, 1951.
- Lewin, K. Behavior and development as function of the total situation. In L. Carmichael (Ed.). *Manual of child psychology*. New York: Wiley, 1954, pp. 918-970. (Reprinted in K. Lewin. *Field theory in social science*, Chapter X.)
- Lewin, K., Dembo, Tamara, Festinger, L., and Sears, Pauline S. Level of aspiration. In J. McV. Hunt (Ed.). *Personality and the behavior disorders*. New York: Ronald Press, 1944, pp. 333-378.
- Lindzey, G. Review of Lewin's *Field theory in social science*. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1952, 47, 132-133.
- Lissner, Kate. Die Entspannung von Bedürfnissen durch Ersatzhandlungen. *Psychol. Forsch.*, 1933, 18, 218-250.

- London, I. D. Psychologists' misuse of the auxiliary concepts of physics and mathematics. *Psychol. Rev.*, 1944, 51, 266-291.
- Mahler, Wera. Ersatzhandlungen verschiedenem Realitätsgrades. *Psychol. Forsch.*, 1933, 18, 27-89.
- Slosberg, Sara. Zur Dynamik des Ersatzes in Spiel- und Ernstsituationen. *Psychol. Forsch.*, 1934, 19, 122-181.
- Spence, K. W. The nature of theory construction in contemporary psychology. *Psychol. Rev.*, 1944, 51, 47-68.
- Tolman, E. C. Kurt Lewin, 1890-1947. *Psychol. Rev.*, 1948, 55, 1-4.
- Zeigarnik, Bluma. Ueber das Behalten von erledigten und unerledigten Handlungen. *Psychol. Forsch.*, 1927, 9, 1-85.

الفصل السابع

سكولوجية الفرد عند أوليورت

لقد كانت غالبية العقلات العظمى في علم النفس تجد بلا هوادة ، منذ حقيبتين بحثا عن مزيد من الدقة والصياغة الكمية ، أو تسمى دون كلل هادفة الى تعقب الدوافع اللاشعورية في مكانها الخفية . وفي قلب هذا الخضم من الاتجاهات ، تابع جوردون أولبورت في اتزان طريقه الخاص ، مبينا أهمية الدراسة الكيفية للحالة الفردية ، ومؤكدا الدوافع الشعورية . ولقد أدى هذا العزوف عن مجازاة التيارات المعاصرة في التفكير الى ظهور صياغات أولبورت أحيانا بمظهر يبدو عتيقا باليا . وإن كان أولبورت يبدو في مناسبات أخرى مدافعا عن أفكار جديدة وراديكالية . وهو بالرغم من هجومه أحيانا على المعتقدات التقليدية ، ربما يمثل التآلف بين الفكر السيكلوجي التقليدي ونظرية الشخصية خيرا مما يمثله أى من اصحاب النظريات المعاصرة الآخرين .

وبعد موقفه المنهجي استخلاصا وتعديلا لافكار مستمدة - جزئيا - من مصادر ذائعة الصيت كسيكلوجيا الجشطالت ، ووليام شتيرن ، ووليام جيمس ، ووليام ماكدوجال . فقد أخذ من نظرية الجشطالت ومن شتيرن ، عدم الثقة في الطرق التحليلية المألوفة في العلوم الطبيعية والاهتمام العميق بتفرد الفرد ، وكذلك ثبات سلوكه ووحده . أما أثر جيمس فإنه لا ينعكس فحسب في أسلوب أولبورت اللامع في الكتابة وفي اتجاهه نحو السلوك الانساني اتجاها يتسم نسبيا بسعة الأفق والانسانية فضلا عن اهتمامه بالذات بل وكذلك في شكوك دائمة في القدرة المطلقة للمناهج السيكلوجية على اتاحة الوصف الكافي والفهم الكامل للفر السلوك الانساني . ويتشابه موقف أولبورت مع موقف ماكدوجال في تأكيد البالغ على أهمية المتغيرات الدافعية ، وتقبله التام

للدور الهام الذي تلعبه العوامل الجبلية أو التكوينية واستخدامه المتميز لمفومات « الأنا » . ويتضح في كتابات أولبورت - بالإضافة الى تلك التأثيرات الأساسية - احترامه العميق لرسالة الماضي ، كما انه يبدي باستمرار اهتماما كاملا وتفهما للمشكلات الكلاسيكية التي تصدى لها علماء النفس داخل وخارج المعمل خلال السبعين عاما الماضية .

وأولبورت واحد من أربعة أبناء لطبيب . وقد ولد في ولاية انديانا عام ١٨٩٧ لكنه شب في كليفلاند حيث تلقى تعليمه في مدارسها العامة وأتم تعليمه الجامعي في جامعة هارفارد في نفس الوقت الذي كان فيه أخوه الأكبر فلويد يواصل دراساته العليا في علم النفس في نفس الجامعة . وما يثير الاهتمام أن نلاحظ أنه بالرغم من التعاون المبكر المشترك بين الأخوين ، وبالرغم مما قلناه كل منهما من اسهامات جوهرية في علم النفس ، فليس هناك سوى تشابه ضئيل بين أرائهما النظرية الراهنة . ولقد أمضى أولبورت عاما بعد حصوله على درجة الليسانس في الاقتصاد والفلسفة عام ١٩١٩ في كلية روبرت في استانبول كمدرس لعلم الاجتماع واللغة الانجليزية . وعاد بعد ذلك الى جامعة هارفارد وانتهى من الحصول على الدكتوراه في علم النفس عام ١٩٢٢ . وواصل خلال العامين التاليين دراساته في برلين وهامبورج وكمبريدج في إنجلترا . ولا بد أن هذه الخبرة الواسعة في مجالات أكاديمية اجنبية قد أسهمت بدورها في تنمية هذا الاهتمام الراسخ بالشؤون الدولية والذي يبدو شديد الوضوح فيما قام به أولبورت من نشاط خلال العشرين عاما الماضية . كما أدى هذا أيضا الى قيام أولبورت خلال عقد من الزمان أو يزيد بدوره كواحد من أبرز مفسري السيكلوجيا الالمانية في أمريكا . وقد قبل أولبورت عند عودته من أوروبا وظيفة مدرس في قسم الأخلاق الاجتماعية Social Ethics في جامعة هارفارد . ويبدو مرة أخرى أن هناك استمرارا بين وظيفة أولبورت الأمريكية الأولى في التدريس ، واهتمامه الدائم بالقضايا ذات الطابع الأخلاقي والاجتماعي . وبعد انتهاء عامين حصل أولبورت على وظيفة استاذ مساعد في علم النفس في كلية دارتموث وبقي في هذه الكلية أربع سنوات قبل أن يعود الى هارفارد حيث يعمل حتى الآن . ولقد كان أولبورت أحد الشخصيات الأساسية في حركة الجمع بين المناهج المختلفة وهي التي أدت الى تكوين قسم العلاقات الاجتماعية في جامعة هارفارد في محاولة لتحقيق تكامل جزئي بين علم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

ولن يدهشنا بعد هذه السنوات الطوال من التدريس الجامعي

تأن نجد قصدا تعليميا واضحا في الكثير من الكتابات الصلمية لأولبورت .
وعلى خلاف معظم المؤلفين المتخصصين الذين يبدو أن هدفهم الأساسي
هو صياغة عبارات لا مجال لنقدها ولا موضع فيها لثغرة يتقلد منها
النقد ، نجد أن أولبورت أكثر اهتماما بالتعبير عن قضاياها بأسلوب
مثير وأخاذ ، وقد يؤدي هذا أحيانا الى الاسراف ، أو الى التركيز على
قضية بعينها الى حد التفاضى نسبيا عن غير ذلك من المسائل الهامة
لذلك يمكننا القول أن أولبورت من أكثر اصحاب نظريات علم النفس
تعرضا للنقد الحاد ، على أننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن القضايا
التي أثارها أولبورت قد أصبحت أمورا تثير في المادة اهتماما مشتركا
بين علماء النفس .

ولقد نال أولبورت اثناء عمله الكثير من التكريم المهني ، بما في
ذلك انتخابه رئيسا للجمعية النفسية الأمريكية ، وللجمعية النفسية
الشرقية ، ورئيسا لجمعية الدراسات النفسية للقضايا الاجتماعية . وقد
عمل بالإضافة الى ذلك رئيسا لتحرير مجلة « علم نفس الشواذ وعلم
النفس الاجتماعي ، الذائفة الصيت » ويتجلى شمول وتنوع جهوده
الدراسية في مؤلفاته التي نذكر منها : **دراسات في الحركة التعبيرية عام
1933** (باشتراك مع ب . أ فيرنون) ، **Studies in expressive
movement** (باشتراك مع ه . كاتريل)
1935 Psychology of radio و **التشخيصية تفسير سيكولوجي 1937** ،
Personality : A psychological interpretation و **استخدام الوثائق**

التشخيصية في العلم السيكولوجي ، 1942

The use of personal documents in psychological science
« سيكولوجية الاشاعة » (مع ل . بوستان) **1947** **The psychology**
of rumor و **الفرد ودينه . 1950**
و طبيعة الشخصية : مقالات مختارة ، 1950
The nature of personality : selected papers
و « طبيعة التصب » 1954
The nature of prejudice
و الصيرورة : اعتبارات أساسية في سيكولوجية الشخصية ، 1950
Becoming : Basic consideration for a psychology
of personality . وقد اشترك بالإضافة الى ذلك في تأليف اختبارين
نفسيين وسمى الانتشار هما **السيطرة - الخضوع** **The A-S**
Reaction Study (بالاشتراك مع ف . ه . أولبورت) **1928** ،
و دراسة القيم **A study of values** (بالاشتراك مع ب . أ . فيرنون)

١٩٣١ وقد أعيد طبعه وتنقيحه عام ١٩٥١ (باشتراك مع ب. أ. فيرون ،
وج . ليندزي) .

كيف يمكننا أن نتعرف على المعتقدات النظرية لأولبورت ؟ ان كتاباته تكشف عن جهده المستمر في سبيل الاعتراف بتعقيد السلوك الفردي الانساني وتفرده . وبالرغم من ذلك التعقيد المحير للفرد ، فان الصفات الرئيسية التي تميز طبيعته تكشف عما يكمن وراءه من اتساق او وحدة . هذا بالإضافة الى أن المحسّنات الشعورية تمثل أهمية بالغة بالنسبة للفرد السوي على الأقل . وكان من الطبيعي أن يؤدي اتساق السلوك وأهمية الدوافع الشعورية بأولبورت الى التركيز على تلك الظواهر التي كثيرا ما تدرج في نطاق مصطلحي «الذات» و «الأنان» . ويتفق مع هذا التأكيد لأهمية العوامل « العقلية المنطقية » اعتقاد أولبورت أن الفرد نتاجا للحاضر أكثر منه نتاجا للماضي . ويمثل مفهومه عن الاستقلال الذاتي الوظيفي *Functional autonomy* - والذي سنناقشه فيما بعد - محاولة مدروسة لتحرير الباحث أو صاحب النظرية من قيود الاهتمام الذي لا لزوم له بتاريخ الكائن . وتميز نظرة أولبورت الى الإنسان - بصورة عامة - بتأكيد العناصر الشعورية الإيجابية للدوافع ، كما أنه ينظر الى السلوك من حيث اتساقه الداخلي وباعتباره محددًا بعوامل راهنه .

ويرى أولبورت أن هناك انفصالا بين السوي والشاذ ، والطفل والراشد ، والحيوان والانسان . وقد تكون لنظريات كنهية التحليل النفسي فعالية كبيرة باعتبارها معبرة عن السلوك المضطرب أو الشاذ ، ولكنها تصبح على أي حال ذات قيمة ضئيلة عند استخدامها في أية محاولة لتفسير السلوك السوي . وبالمثل فان النظريات التي تقسم مفهومًا نظريًا مناسبًا تمامًا للرضيع أو الطفل الصغير ، لا تكفي لتفسير سلوك الراشد . كذلك يعارض أولبورت باستمرار الإسراف في الاستعارة من العلوم الطبيعية ، فهو يعتقد أن مناهج البحث والنماذج النظرية التي أثبتت فائدتها في العلوم الطبيعية تكون مضللة في دراسة السلوك الانساني المعقد . وقد تجلّى هذا الاعتقاد أكثر ما يكون وضوحًا في مناقشة (أولبورت ١٩٤٧) للأنواع المختلفة للنماذج الشائعة حاليًا في صياغة النظريات النفسية . وهو يتناول النموذج الميكانيكي ، والنموذج الحيواني ، والنموذج الطفلي ، ويلهب الى أنه لا يتوفر في أي منها الأساس الذي يمكن أن تقوم عليه نظرية نافعة للسلوك الانساني . ويتفق مع هذا الارتياح في الاستعارة ، اعتقاده أن التأكيد الفج لأهمية

الاجرائية والاهتمام المدقق بتحديد عمليات القياس التي يتطلبها كل مفهوم تجريبي ، يمكن أن يعوق تقدم علم النفس .

ان تطبيق المنهج والنتائج السيكولوجية في « موقف عملي » يبلل فيه الجهد لتحسين بعض الظروف الاجتماعية غير المرغوب فيها ، لهو امر يحظى باهتمام عميق ودائم لدى اوليورت . فقد ظل لسنوات طوال ينتقد تفوق علم النفس داخل جدران المامل ، كما ان نشاطه في مجالات التعصب والعلاقات الدولية يعد من اكثر الامثلة دلالة على تطبيق علم النفس في القضايا الاجتماعية . ويجدر بنا ان نلاحظ ان اوليورت شأنه شأن الكثيرين من اصحاب النظريات الذين يؤكدون بشدة الطابع الفريد والمميز للسلوك الانساني ، لديه تشاؤم كامن حيال القدرة المطلقة للمنهج والنظرية السيكولوجية على كشف النقاب عن سر السلوك الانساني . ان اللغز الذي يتضمنه تعقد الفرد لهو من الضخامة بحيث يستحيل فهمه على الوجه الاكمل بواسطة مالدى عالم النفس من مناهج ومفاهيم نظرية محدودة . وهكذا فعلى الرغم من اعتراف اوليورت باهمية المنهج التجريبي وضروره الحتمية فى معالجة المشكلات السيكولوجية ، فانه يظل على تحفظه فيما يتعلق بنجاح هذا الجهد فى نهاية المطاف .

ونستطيع ان نتبين - كما سبق ان ذكرنا - اتساقا اساسيا فى وجهة النظر فى كتابات اوليورت . وعلى اى حال ، فانه لا يعتبر نفسه من اصحاب النظريات . وهو يؤكد ان اعماله تتجه دائما نحو المشكلات التجريبية اكثر من اتجاهها نحو تحقيق وحدة نظرية او منهجية . والشخصية لديه لغز ينبغي حله باكثر الطرق الممكنة كفاية باستخدام الادوات المتاحة فى منتصف القرن العشرين . والامر بالمثل ايضا فيما يتعلق بالمشكلات الاخرى التى تصدى لها : الاشاعة ، والراديو والتعصب ، وسيكولوجية الدين ، وطبيعة الاتجاهات ، وغير ذلك من الموضوعات ذات الاهمية الانسانية . وهو يستخدم فى التصدى لهذه المشكلات مفهومات ذات اسلوب توفيقى محاولا بذلك الوصول الى ما يبدو له انه اكثر التفسيرات التى يمكن الوصول اليها كفاية بالنسبة للوضع الراهن لمعارفنا . وهكذا فان المشكلات المتعلقة بالكفاءة الشكلية لنظريته ليست بذات اهمية اكبر لديه .

بناء الشخصية ودينامياتها

لقد اعتدنا في الفصول السابقة أن ننظر الى كل من بناء الشخصية وديناميات الشخصية على حدة . وطى آية حال فإن هذا التمييز لا يبدو قابلا للتطبيق بالنسبة لنظرية أولبورت الى حد كبير حيث يتم عرض بناء الشخصية أساسا من خلال مصطلحات السمات وفي نفس الوقت فإن السمات هي التي تدفع أو تحرك السلوك وهكذا فإن البناء والديناميات تكون في غالب الأحيان شيئا واحدا .

وتتجلى نزعة أولبورت التوفيقية كأوضح ما يكون في ذلك التنوع الثرى من المفاهيم التي يميل الى قبولها باعتبارها تقسوم بدور له بعض الفائدة في وصف السلوك الإنساني . وهو يعتبر أن التصورات الجزئية كالأفعال المنعكسة النوعية والتصورات الشاملة كالسمات الأصلية الجوهر *proprium* لها قدر من الأهمية في فهم السلوك . وهو يرى أن العليات التي تشر إليها هذه المفاهيم إنما تعارض فاعليتها داخل الكائن في شكل هرمي تدرجى بحيث يكون لأكثرها عمومية الأسبقية عادة على الأكثر نوعية . ويذكر أولبورت في عبارة لها أكثر ما في نظريته تفصيلا (١٩٢٧) أن لكل من التصورات التالية بعض الفائدة : الفعل المنعكس الشرطي ، والعادة ، والاتجاه ، والسمة ، والذات ، والشخصية .

وبرغم اعتراف النظرية بجميع تلك التصورات واضفائها أهمية معينة عليها ، فإن تركيزها الأساسي إنما ينصب على السمات ، مع وضع الاتجاهات والمقاصد في مكانة مساوية لذلك تقريبا . والحقيقة أنه كثيرا ما يشار الى نظرية أولبورت بوصفها سيكلوجية سمات . ويحتل السمات في هذه النظرية موضع القوة الدافعة الرئيسية . فالمسمة عند أولبورت تقابل الحاجة عند موراي ، والغريزة عند فرويد ، والمحافظة عند ماكديجال ولنعناول الآن بالفحص تصريح أولبورت للشخصية قبل أن نشرع في تناول مفهوم السمة بالتفصيل .

الشخصية والعقل والزواج : ليست التعريفات لدى أولبورت بالأمور التي تعالج باستخفاف . فهو قبل الوصول الى تعريفه الخاص للشخصية

تناقش خمسين تعريفاً لها يقترحها مختلف الثقافات في هذا المجال ويصنفها
حيث احتمال أنها تشير الى :

- (١) الايثمولوجيا etymology أو اصل المصطلح أو تاريخه المبكر .
(ب) المعاني اللاهوتية . (ج) المعاني الفلسفية . (د) المعاني الفقهية .
(هـ) المعاني الاجتماعية . (و) المظهر الخارجى . (ز) المعاني النفسية

ويحاول أولبورت بعد هذا التلخيص والنقد التفصيليين الجمع
بين أحسن العناصر في التعريفات السابقة مع محاولة تجنب أوجه
قصورها الرئيسية . وهو يشير أولاً الى أنه يجب تعريف الشخصية
بالمجاز بوصفها « ما يكون عليه المرء حقيقة » . وعلى أى حال فإنه
يوافق على أن هذا التعريف بالغ الاجاز بحيث لا يمكن الاستعانة به
كثيراً ولذلك فإنه يقدم هذا التعريف الأكثر شيوعاً :

« الشخصية هي التنظيم الدينامى داخل الفرد ، لتلك النظم ،
« السيكوفيزيكية التي تحدد أسلوبه الفريد في التوافق مع بيئته »
» (١٩٣٧ أ ، ص ٤٨) .

وثمة جوانب معينة من هذا التعريف تستوجب تأكيداً خاصاً .
فعبارة التنظيم الدينامى تؤكد حقيقة أن الشخصية في حالة ارتقاء وتغير .
هذا بالرغم من أنه يوجد - في نفس الوقت - تنظيم او نظام يجمع بين
«لكونات المختلفة للشخصية ويربط بينها . كما أن المصطلح
« سيكوفيزيقي » يذكر القارىء بأن « الشخصية ليست
بناءً نفسياً فحسب كما أنها ليست كذلك بناءً عصبياً فقط ، وأن
التنظيم يستلزم عمل كل من الجسم والعقل وتشابكهما تشابكاً وثيقاً
حتى وحدة شخصية (١٩٣٧ أ ص ٤٨) كما أن كلمة « تحدد » تبرز
جوضوح أن الشخصية إنما تتكون من ميول محددة تلعب دوراً ايجابياً
في سلوك الفرد . « ان الشخصية كينونة (هي شئ) وعمل (وهي
تعمل شيئاً) » ، « أنها ما يمكن وراه الأفعال النوعية وفي ثنايا الفرد »
(١٩٣٧ أ ص ٤٨) .

ويتضح مما قلناه حتى الآن أن الشخصية لدى أولبورت ليست
مجرد بناء يشيده الملاحظ ، كما أنها ليست بالشئ الذى يوجد حين

يكون هناك ثمة شخص آخر يجب الاستجابة له . وفضلا من ذلك فإن للشخصية وجودا حقيقيا يتضمن مصاحباتها العصبية أو الفسيولوجية . والمنصر الهام في التعريف السابق هو كلمة « الفريد » التي تشير الى الأهمية البالغة التي توليها نظرية أولبورت للفردية . وحيث أنه لا يوجد شخصان يقرمان بالدقة بنفس التوافقات حيال بيئتهما ، فإنه لا يوجد شخصان لهما نفس الشخصية . ويعنى أولبورت بعباره « التوافق مع بيئته » اعتقاده بأن الشخصية هي التي تتوسط بين الفرد وبيئته الفيزيقية والنفسية خاضعة لهما أحيانا ومخضعة أحيانا أخرى . وهكذا فإن للشخصية دلالة وظيفية وتوافقية بالغة الأهمية . وتنعكس تلك العناية والتفصيل اللذان طوربهما أولبورت تعريفه للشخصية في كثرة ما استماره منها الآخرون من الباحثين وأصحاب النظريات .

وبرغم أن مصطلحي الشخصية ، والمخلق قد استخدم كل منهما كثيرا محل الآخر ، فإن أولبورت يوضح أن كلمة المخلق إنما تعنى تقليديا نوعا من ميثاق السلوك يمكن في ضوءه تقييم الفرد أو تقييم أفعاله . وهكذا ، فكثيرا ما تستخدم كلمة « جيد » « وسيء » عند وصف خلق الفرد . ويرى أولبورت أن المخلق مفهوم أخلاقي ويقرر أن « المخلق هو الشخصية مقيمة ، وأن الشخصية خلق غير مقيم » (١٩٣٧ ، ١ ، ص ٥٢) .

وكثيرا أيضا ما يختلط تعبيرا : المزاج والشخصية . وعلى أي حال فإن لدينا هنا مرة أخرى أساسا واضحا للتمييز بينهما من حيث الاستخدام الشائع ، فالمزاج يشير عادة الى تلك الاستعدادات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمحددات البيولوجية أو الفسيولوجية والتي لا تبدى باستمرار سوى قابلية ضئيلة نسبيا للتعديل خلال التطور . ومن الطبيعي أن يكون دور الوراثة هنا أكبر الى حد ما منه في بعض الجوانب الأخرى للشخصية . ولذلك فإن الزواج يعد لدى أولبورت قسما فرعيا خاصا داخل الموضوع الأشمل للشخصية ، وهو يعرفه كالآتي :

« يشع الزواج الى تلك الظواهر المميزة لطبيعة الفرد الانفعالية والتي تضمن قابليته للاستتارة الانفعالية ، وقوة وسرعة استجابته المادية ، ونوعية طابمه السائد وكذلك جميع نواحي التمييز والتفكير والشع في الكليج . وينظر الى تلك الظواهر باعتبارها متجمعة على البناء الجيني وبالتالي فلتها من حيث النشأ وراثية الى حد كبير » (١٩٣٧ ، ١ ، ص ٥٤) .

وبعد تلك التمييزات الهامة يصبح ممكنا الآن ان ننظر الى تلك المفاهيم التي تعد أجزاء أكثر تفردا في نظرية أولبورت .

السمة :

السمة هي ميل محدد أو اعتماد مسبق للاستجابة ، ويعرف أولبورت السمة على أنها .

« . نظام نفسى عصبى يتميز بالتعميم والتمركز (ويختص بالفرد) ولديه القدرة على نقل العديد من التنبهات المتبادلة واليها ، وطى الخلق والتوجيه المستمرين لاشكال (متبادلة) من السلوك التميرى والتوافقى »
(١٩٣٧ ، ص ٢٩٥) .

ويجدر بنا ان نلاحظ تأكيد هذا التعريف على الفردية وتضمنه أن الميل لا يرتبط على نطاق ضيق بعدد صفر من المنبهات أو الاستجابات النوعية . ويشير ذكر الانظمة النفسية المصيبة الى ما يقوره أولبورت من اجابة بالايجاب على التساؤل : هل السمات موجودة ؟ هناك حقا . وعندما يقابل أولبورت بين وجهة النظر البيولوجية الاجتماعية (التي تعتبر أن السمات انما توجد فحسب من خلال الملاحظات التي يقوم بها شخص آخر غير الفرد) ووجهة النظر البيولوجية الفيزيقية (التي تصر على أن السمات لا تعتمد على الملاحظات بل ان لها وجودا حقيقيا في الفرد) فانه يقبل وجهة النظر الاخيرة . ولقد أشار أولبورت في محاضراته الى أن السمات هي «الحقائق النهائية للتنظيم النفسى» كما انه قد صاغ ذلك في كتاباته كما يلي :

« ان السمة .. لها اثر من مجرد الوجود الاسمى ، فهي مستقلة عن الاحاط وهي موجودة هناك بالفعل . ولا يعنى ذلك ان كل اسم لسمة يشتر بالضرورة الى وجود سمة بل يعنى ان دراه كل ذلك الخلف في المصطلحات وذلك التمارس في الاحكام وبعبارة من اخطاء واخطايات الملاحظة التجريبية لا يوجد ما هو أصغق من البنات العقلية في كل شخصية لتفسر اساق السلوك » (١٩٣٧ ، ص ٨٩) .

وليس من الضروري أن نوضح فحسب ما يشير اليه هذا المفهوم بل أن نميز أيضا بينه وبين المفاهيم المقاربة له . وتعد كل من السمات والعادات ميولا محددة ولكن السمة أكثر عمومية سواء من حيث المواقف الخاصة بها أو من حيث ما تؤدي اليه من استجابات . وبالفعل فان السمة

تمثل - الى حد بعيد - نتاج الجمع أو التكامل بين عادتين أو أكثر -
ويعد التمييز بين السمة و **الاتجاه** أمراً أكثر صعوبة الى حد ما . ويعتبر
أوليورت أن كلا منهما عبارة عن استعدادات مسبقة للاستجابة ، كما
أن أيا منهما قد يكون فريداً وقد يؤدي أي منهما أيضاً الى خلق أو
توجيه السلوك . كما أن كليهما نتاج مشترك بين العوامل الوراثية
والتعلم . وتبقى برغم ذلك - تميزات معينة بين المفهومين ؛ فالأول ،
يرتبط بالاتجاه بموضوع معين أو بفئة معينة من الموضوعات على حين أن السمة
ليست كذلك وهكذا فإن عمومية السمة تكون دائماً تقريباً أكبر من
عمومية الاتجاه ، وفي الحقيقة فكلما تزايد عدد الموضوعات التي تتعلق
بها الاتجاه أصبح أكثر شبيهاً بالسمة . وقد يختلف الاتجاه في
عموميته من التخصص الشديد الى العمومية النسبية على حين يجب أن
تكون السمة عامة دائماً . وثانياً ، فإن الاتجاه يتضمن عادة تقييماً
(بالقبول أو بالرفض) للموضوع الذي يتجه اليه في حين أن السمة ليست
كذلك . ويقرر أوليورت في تلخيصه لذلك :

« أن كلا من الاتجاه والسمة يعد من المفاهيم التي لا غنى عنها .

وهما في النهاية يظنان فيما بينهما جميع انماط الاستعداد التي يتم بها
علم نفس الشخصية . ويجب عادة استخدام الاتجاه حين يكون الاستعداد
متعلقاً بموضوع ذي قيمة أي حين ينبعث ذلك الاستعداد من فئة محددة
تعالماً من التنبهات وحين يشر الفرد تجاه تلك التنبهات بجاذبية مؤكدة أو
بنفور مؤكدة » (١٩٣٧ ، ١ ، ص ٢٩٥) .

ومن المهم أن مانشره أوليورت فيما يتعلق بالاتجاهات (أوليورت-
١٩٣٥ ، ١٩٣٧) كان له أهمية بالغة في تشكيل التطورات في هذا المجال
الرئيسي من علم النفس الاجتماعي . وأخيراً فإن أوليورت يميز بين السمات
و **الطرز** على حسب مقدار اقتراب كل منهما من الفرد . فمن الممكن القول بأن
الفرد يمتلك سمة معينة وليس طرازاً . والطرز عبارة عن تكوينات
نموذجية يقيمها الملاحظ ويمكن أن يطابق بينها وبين الفرد ، ولكن على
حساب فقدانه لهويته المميزة . والسمة يمكن أن تعبر عن تفرد الشخص
على حين يستلزم الطراز إخفاء ذلك التفرد . وهكذا فإن الطرز تمثل - لدى
أوليورت - تميزات مصنعة ليس لها تشابه وثيق بالواقع ، فهي حين أن
السمات انعكاسات حقيقية لما هو موجود بالفعل .

الفرد والسمات المشتركة

يعد تمييز أوليورت بين الفرد والسمات المشتركة من الأمور الجوهرية لفهم نظريته . وهو يؤكد أنه لا يوجد أبدا في الواقع شخصان لهما نفس السمة بالضبط . وبرغم ما قد يوجد من تشابهات في أبنية السمة لدى أفراد مختلفين فإن الطريقة التي تعمل بها أبنية سمة بالذات لدى شخص معين تكون لها دائما خصائص فريدة تميزها عن جميع السمات المشابهة لدى الأشخاص الآخرين وهكذا فإن السمات جميعا سمات فردية وفريدة ولاتناسب سوى الفرد المنفرد . ويجب أن يلحظ القارئ أن مناقشتنا وتعريفنا للسمات ينطبقان تماما على السمات الفردية فحسب .

وبرغم تسليم أوليورت بأن السمة لا يمكن ملاحظتها لدى أكثر من شخص واحد فإنه يفترض أنه نظرا لمجموعة التأثيرات الشائعة التي تتضمنها الثقافة المشتركة وتشابه السلالات فإن الأفراد يبدون بالفعل « ٠٠ عددا محدودا من أنواع التوافق التي يمكن مقابلتها على وجه التقريب » (١٩٣٧ ، ص ٢٩٨) . وهكذا فإن الباحث يمكنه أن يكون مقاييس تحييط بالمجالات المشتركة للسمات الفردية يكون لها قدرة تنبئية معينة غير دقيقة . تلك هي السمات المشتركة الجمعية Nomothetic وبالطبع فإن ذلك لن يضع في اعتباره تلك الفردية الفريدة لكل شخص ، ولكن يمكن تبرير مثل تلك العملية بسبب كفايتها وملاءمتها . ولقد تركز الكثير من بحوث أوليورت الخاصة حول هذا الاتجاه كما يتضح استخدامه لاختباري دراسة القيم والسيطرة - الخضوع . ويقول أوليورت ملخصا أفكاره في هذا المجال :

« وفقا للمعنى المحدد لتعريف السمات ، فإن السمة الفردية هي فحسب التي يمكن اعتبارها سمة حقيقية : (أ) لأن السمات توجد دائما في الفرد وليس في المجموع بشكل عام . و (ب) لأنها تتطور وتضم إلى استمدادات دينامية بطرق فريدة وفقا لخبرات كل فرد . إن السمة المشتركة ليست سمة حقيقية على الإطلاق ، بل أنها مجرد جانب ضائع للقياس من السمات الفردية المتكاملة » (١٩٣٧ ، ص ٢٩٩) .

وقد يرى المرء ان السمات المشتركة ينبغي أن تغطى عنوانا مختلفا تماما بهدف تمييزها عن السمة الفردية . ويعترض أولبورت على ذلك لان الاصطلاح قد استخدم على نطاق واسع بكل من المعنيين ولان كلا من الاستخدامين يشير الى الاتجاهين الرئيسيين في دراسة الشخصية . فالسمة المشتركة تذكر الباحث بتلك الجوانب من الشخصية التي يمكن في ضوئها مقارنة الأفراد بشكل مفيد . وعلى العموم ، فان أولبورت يشعر بأن دراسة السمات المشتركة يمكن أن تكون ذات نفع طالما ان الباحث لا يخدع نفسه باعتباره أن مثل تلك المفاهيم تمثل الفرد تمثيلا دقيقا .

السمات الأصلية ، والسمات المركزية ، والسمات الثانوية :

تمثل السمات - كما سبق أن أشرنا - استعدادات مسبقة ومعمة للسلوك . وتبقى هنا مشكلة احتمال أن لكل السمات بالتقريب نفس القدر من العمومية ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فكيف نميز بين الدرجات المختلفة من تلك العمومية . ويعرض أولبورت تمييزا بين السمات الأصلية والمركزية والثانوية فيقول عن السمة الأصلية .

« أنها تبلغ من السيادة قدرا لا تستطيع حياله سوى نشاطات قليلة الا تخضع لتأثيرها اما بشكل مباشر او غير مباشر . . ولا يمكن مثل تلك السمة ان تظل مختلطة طويلا ، فالفرد يعرف بها بل انه حتى قد يصح مشهورا بها . ويطلق أحيانا على مثل تلك الصفة السائدة اسم السمة البارزة او الشهوة المسيطرة أو العاطفة السائدة أو اصل الحياة»
(١٩٣٧ أ ص ٣٣٧ - ٣٣٨) .

وهذا النوع من السمات ليس شائعا ولا يمكن - الى حد ما - ملاحظته لدى كل شخص . والسمات المركزية هي التي أكثر شيوعا وهي تمثل الميول التي تميز الفرد تماما والتي كثيرا ما تظهر ويكون استنتاجها سهلا تماما . ولقد أشار أولبورت (١٩٥٥) في كتاب حديث له الى أن عدد السمات المركزية التي يمكن من خلالها التعرف على الشخصية بقدر معقول من الدقة قليل الى حد مدعش وربما لا يتجاوز خمس أو عشر سمات . أما السمة الثانوية فهي أقل حدوثا وأقل أهمية في وصف الشخصية وأكثر تركزا من حيث الاستجابات التي تؤدي إليها ، وأيضا من حيث المنبهات التي تناسبها .

وهناك سمات معينة يمكن اعتبارها سمات **تصيرية** . وتؤثر تلك النزعات على شكل السلوك أو تلوّنه ولكنها لا تكون دافعية لدى أغلب الأفراد (كما هو الحال بالنسبة للميول والقيم والقياسات البعيدة) ومن أمثلة السمات التصيرية السيطرة، والامتدادية ، expansiveness والمثابرة . وقد يظهر الفرد تلك السمات بصرف النظر عن الهدف الذي يسعى إليه . ومن الممكن أيضا أن نعتبر سمات معينة سمات **اتجاهية** ، كما يتضح من تمييز أولبورت بين السمات والاتجاهات ، فهي سمات ذات تأثير محدود في مجالات خاصة معينة من مجالات الحياة .

وتثور هنا مشكلة احتمال أن دور السمات مقصور على إرشاد وتوجيه السلوك فحسب أو أن لها دورا في خلق ودفع السلوك . وليست هناك اجابة بسيطة عن هذه المشكلة فهناك بعض السمات التي أكثر دفعا من سواها أي أن لها دورا دافعيا أكثر أهمية ، وهكذا فإن هناك اختلافات شاسعة بين السمات من حيث مقدار ما تسببه من تثيرات دافعة على الفرد . فضلا عن ذلك ، فإن لنا أن نعتقد - بمعنى ما - أن هناك دائما اثاره مسبقة ترتبط بتنشيط السمة أي أنه يجب ان يسبق عمل السمة دائما منبه خارجي أو حالة داخلية من نوع ما . وعلى أي حال ، فمن الواضح أن أغلب السمات ليست مجرد عاكسات مشابهة للمنبهات الخارجية . وفي الحقيقة فإن الفرد يبحث بنشاط عن المنبهات التي تناسب ممارسة السمة ، فالشخص الذي يتميز بسمة الاجتماعية لا ينتظر الموقف المناسب الذي يجب أن يعبر فيه عن تلك السمة ، بل انه يخلق المواقف التي يستطيع فيها أن يتفاعل مع الناس .

وهناك اعتبار آخر بالإضافة الى ذلك هو **استقلال السمات** . والى أي حد يمكن أن توجد السمات كنظم للسلوك تعمل دون أن تضع النظم الأخرى في اعتبارها ؟ هل هناك دائما ارتباط وعلاقة بين سمة معينة وبين السمات الأخرى وحالتها ؟ يرى أولبورت أن السمة لا يمكن تعريفها من خلال استقلالها الجامد ، بل من خلال صفتها الرئيسية . ولذلك فإن السمة تميل الى أن يكون لها مركز تملس حوله تأثيرها ، ولكن السلوك الذي تؤدي إليه يتأثر في نفس الوقت وبوضوح بالسمات الأخرى ، فليست هناك حدود واضحة تفصل بين سمة وأخرى ، ويحكم هذا التداخل ممارسة السمات الفردية لوظائفها . ان التحديد المتصنف لاستقلال السمات المشتركة - كما يحدث في بعض الدراسات السيكمترية - يمثل أحد جوانب القصور الهامة فيها بوصفها ممثلات دقيقة للسلوك الحقيقي ، وذلك التشابك بين مختلف

السمات يفسر بشكل جزئي أيضا حقيقة أنه ليس في الامكان التوصل الى طرق مرضية تماما لتصنيف السمات .

من الواضح ان النتائج المستخلصة من تعريف السمة تتضمن الاتساق . وهكذا فان السمة بحكم التعريف انما تعرف فحسب بفضل تلك الانتظامات او الاتساقات المعنية في الطريقة التي يسلك بها الفرد . وسرعان ما يبادر أولبورت بملاحظة أن نظريته في السمات لا تتطلب بالضرورة اتساقا كاملا . بل ان مجرد حقيقة أن هناك سمات متعددة ومتداخلة تمارس نشاطها في نفس الوقت يفترض ان عدم الاتساق الواضح في سلوك الكائن قد يكون امرا متوقعا تماما . فضلا عن ذلك ، فلن حقيقة ان السمات انما يتم انتظامها بشكل فريد وفردى، انما يعنى انها قد تضم عناصر قد تبدو متسقة من وجهة النظر المعيارية او الخارجية . وهكذا فاننا قد نلاحظ بعدا واضحا عن الاتساق في السلوك الذى يعكس بالفعل اتساقا داخليا منظما فريدا . ان ما تتضمنه نظرية أولبورت من ملاحظة للتطابق او الاتساق الدقيق في السلوك يقل عما تتضمنه من ملاحظة لوجود ذلك الائتلاف الغامض الذى يوحد بين مختلف المظاهر السلوكية لدى الفرد بأسلوب يصعب الكشف عنه فى اغلب الأحيان . ولا يعنى ذلك أن كل (أو أى) شخصية تحقق تكاملا تاما . فالكبت والتفكك قد يوجدان خلال أى حياة . ولكن هناك عادة قدرا من الاتساق أكبر من ذلك الذى تستطيع مناهج البحث السلوكى المألوفة الكشف عنه .

ولاهتمام أولبورت بالسمات امتداد مفيد وهام يتمثل في تصنيفه المدقق لحوالى ثمانية آلاف اصطلاح تم استخراجها من قاموس غير مختصر . ولقد صنفت تلك المصطلحات - بالتعاون مع أودبرت Odbert - أساسا فى ضوء احتمال أنها تعبر عن سمات حقيقية أو نشاطات راهنة (حالات وقتية) أو تعبيرات تقييمية .

الغاية :

ان التساؤل البسيط عما يقصده الفرد أو يستهدفه فى المستقبل لهُو أكثر أهمية من أى بحث فى ماضى الكائن أو فى تاريخه . فأمال الشخص ، ورغباته وتطلعاته ، ومطلجه ، وخطته ، تندرج تحت هياكل العنقود العام للمقاصد ويتضح هنا أحد الفروق المميزة بين أولبورت وأظب أصحاب نظريات الشخصية الآخرين . فالجدل فى تلك النظرية

ينصب على ان ما يحاول الفرد ان يفعله هو اهم السبل المؤدية الى ما سوف يسلكه في الحاضر (والمسلم به عامة ان الشخص يستطيع ان يخبرنا عما يحاول ان يفعله) وبينما يتجه اصحاب النظريات الاخرى الى الماضى بحثا عن المفتاح الذى سوف يحل لغز السلوك الحاضر ، فن اولبورت يتجه نحو المستقبل الذى يسمى اليه الفرد . ويبنى اولبورت في هذا الخصوص تشابها قويا مع الفرد ادلر وكارل يونج في بعض وجهات نظرهما ، برغم انه نيس ثمة ما يجعلنا نعتقد انه كان هناك اى تأثير مباشر من تلك المصادر .

الجوهر : Proprium :

برغم ان اولبورت قد عرف بانّه من علماء نفس « الانا » ego أو حتى « الذات » self فان هذا التمييز ليس دقيقا تماما . لقد قام اولبورت في عام ١٩٤٣ - (الانا في علم النفس المعاصر) ، ثم مرة أخرى عام ١٩٥٥ (الضرورة : اعتبارات اساسية في سيكولوجية الشخصية) - قام بفحص المعانى العديدة للانا والذات في الكتابات السيكلوجية . ولقد تحاشى اولبورت في اول مراجعه الرئيسية ١٩٣٧ ا بشكل عام المشكلات التى تثيرها تلك المفهومات ، ولكنه يقدم في النهاية على طرح هذا السؤال الحاسم مباشرة « هل يعد مفهوم الذات Self ضروريا ؟ » . وكانت اجابته عليه اجابة متحفظة . وبدافع من الحرص على تحاشي الخلط والتضمينات الخاصة لتلك الاصطلاحات ، اقترح اولبورت تسمية جميع وظائف الذات أو الانا التى سبق وصفها بالوظائف الجوهرية Propriate للشخصية . وهى جميعا (بما تضمنه من الاحساس البدنى وهوية الذات ، وتقدير الذات ، وامتداد الذات self identity (self-esteem self-extension) والتفكير المنطقي ، وصورة الذات ، والكفاح الجوهرى ، ووظيفة المعرفة) اجزاء حقيقية والكفاح الجوهرى من أجل الحياة ووظيفة التعرف اجزاء حقيقية وحيوية من الشخصية . وهى تشترك في حرارتها الظاهرية « واحساس بلاهية » . وهى معا يمكن القول بانها تكون « الجوهر » . ونحن نجد في هذه المنطقة من الشخصية جلدور ذلك اتساق الذى يميز الاتجاهات والمقاصد والتقييمات . وليس الجوهر ولاديا بل انه ينمو مع الزمن . فالاحساس بالجسم ، وهوية الذات ، وتقدير الذات ، هى كل ما يكون الطفل قد انجزه تقريبا في السنوات الثلاث الاولى ، أما الوظائف الجوهرية الاخرى المتعاقبة بالجوهر فانها تتطور فيما بعد .

ويلعل أولبورت أن يتمكن بتناول مشكلة الذات بتلك الطريقة من تحاشي ذلك الموقف الذى يطرح المشكلة والذى يقفه الكثير من أصحاب النظريات ممن تكون الذات أو الأنا لديهم أشبه بقزم أو « بشخص داخل الصدر » يقوم بالتنظيم وجذب الخيوط ، وبادارة نظام الشخصية. وهو يسلم بأهمية جميع الوظائف السيكلوجية التى سبق أن نسبت الى الذات والأنا ، ولكنه يرغب بأى ثمن فى تحاشي ذلك النمط من النظرية الذى يصلح لكل شيء . وهو يرى أن الذات والأنا قد يستخدمان بشكل وصفى للدلالة على الوظائف الجوهرية فى مجال الشخصية (والكثير من الوظائف ليست وظائف جوهرية بل انها مجرد وظائف « انتهازية ») . ولكنه لا يعتقد أن هناك حاجة لوجود اصطلاح ليستخدم كاسم دال على ذلك . فليس هناك ثمة ذات أو أنا يعمل ككيان متميز عن بقية الشخصية .

الاستقلال الذاتى الوظيفى :

والى هنا تكون قد حددنا الأبنية الرئيسية التى يستخدمها أولبورت فى وصف الشخصية ونكون فى نفس الوقت قد ناقشنا ما يعتبره أهم القوى الدافعية التى تعمل داخل الفرد . وعلى أى حال فإن هذه الصورة للدافعية الفردية أبعد ما تكون عن الاكتمال . فنحن بالتحديد لم تقدم صورة واقعية لتزامن الدافعية Contemporaneity motivation : لقد رأينا أن الفرد يتناول الى المستقبل وأن اهدافه تكون بالغة الأهمية كمحددات لسلوكه الراهن . ولكننا قد أدركنا فى نفس الوقت أن السمات متعلمة ، وأنها تظهر من خلال الارتقاء . وإذا كان الأمر كذلك ، أفلا يلعب ماضى الكائن دوراً هاماً فى تحديد ما يدفع الفرد حالياً الى عمله ؟ وهل تختلف السمات بذلك اختلافاً كبيراً عن الدوافع الأخرى التى تعتبر امتداداً للبواعت البدائية أو النسلية والخبرات المبكرة ؟

أن اجابة أولبورت هى « نعم » . والسبب فى اختلافها نجده متضمناً فى مبدأ الاستقلال الذاتى الوظيفى . ولعل هذا ببساطه هو أشهر المفاهيم التى قدمها أولبورت وأكثرها اثرة للجدل . ويحتل هذا المبدأ من نواح كثيرة المركز فى نظام أولبورت ، حيث أن علدا من الملامح المميزة لنظريته إنما ينبع بشكل طبيعى تماماً من هذا الموقف . ويقرر ذلك المبدأ ببساطة أن أى نشاط معين أو شكل من أشكال السلوك قد يصبح غاية أو هدفاً فى حد ذاته ، يرغم حقيقة أنه قد بدى فيه أصلا

لبعض الاسباب الاخرى . ورغم أن أى سلوك ، مركبا كان أو بسيطا قد يكون نابعا أصلا من توترات عضوية أو جزئية فانه قد يكون مقدوره اثبات نفسه على الدوام في غياب أى تدميم بيولوجى .

ويجب على القارئ ان يميز بعناية بين مبدأ الاستقلال الذاتى الوظيفى وبين الفكرة الشائعة عن أن سلوكا معينا قد يستمر من أجل دافع مختلف عن ذلك الذى بعثه أصلا ، وعلى سبيل المثال ، فالصيد يصطاد أصلا بهدف الحصول على الطعام ، ولكن حين يكون هناك فائض من هذا الطعام فانه يصطاد ليمبر عن عدوانه الولادى . ان هذا التكوين النظرى ما زال يرجع بالسلوك الى الدافع الاكثر بدائية أو الى دافع موجود قبلا ، وهو ما يرغب اولبورت في تحاشيه بالتحديد . ويعنى الاستقلال الوظيفى ان الصيد سوف يستمر في الصيد حتى في غياب اية دلالة وظيفية ، أى حتى اذا لم يكن هناك عدوان أو حاجات اخرى أكثر أساسية يقوم ذلك الفعل باشباعها . أى أن الصيد ببساطة قد « يحب » الصيد .

ولقد أشار اولبورت في عرضه لوجهة النظر هذه (١٩٣٧ أ ، ١٩٣٧ ب) الى أنها صدى لصياغات معينة سابقة ، ومن أمثلتها القول المشهور والمألوف عن وودورث (١٩١٨) وهو ان الميكانيزمات قد تتحول الى بواعث ، وكذلك تأكيد شسترن (١٩٣٥) على أن البواعث الظاهرة Phenomotives قد تصبح دوافع حقيقية كامنة genomotives وأيضا فكرة تولمان (١٩٣٥) عن أن الوسائل - الموضوعات قد يكون لها استقلالها الذاتى . وللعمء أن يفترض أن الصياغات النظرية المعاصرة كفكرة هارنو (١٩٥٠) عن الباعث الى المعالجة أو التناول manipulation drive وكذلك افتراض سولومون ووين (١٩٥٤) لفكرة اللاقابلية الجزئية للعودة الى الحالة السابقة Partial irreversibility قد قصدت جميعا تفسير ظواهر شبيهة تماما بتلك التى لعبت دورا هاما في التوصل الى مفهوم الاستقلال الذاتى الوظيفى .

ولقد أشار اولبورت في تبريره للمفهوم الى ملاحظات مستمدة من عدد من المجالات وتشير جميعها الى وجود ميل لدى الكائن للاستمرار في استجابة معينة حتى ولو لم يعد السبب الاصلى للقيام بتلك الاستجابة موجودا . ولقد أشار الى الطابع الدائرى Circularity لسلوك الطفل وكذلك السلوك المصائبى بين الراشدين والعناصر المتكررة في الظاهرة المعروفة بانثر زيغارنيك Zeigarnik (ملاحظة أن الأعمال غير

المكتملة يتم تذكرها بشكل أفضل من الأعمال المكتملة) وكذلك مالموظ كثيرا من انتظامات او ايقاعات زمنية في السلوك لدى الحيوان والانسان على حد سواء ، وكذلك تلك القوة الدافعة للميول والقيم المكتسبة والتي لا يبدو ان لها ثمة دعامة في الدوافع الأساسية ، وهناك ايضا بعض الأدلة المستقاة من علم النفس المقارن ، فلقد تبين من دراسة قام بها أولسون (١٩٢٩) انه حين يوضع غشاء (كولوديون) على اذن الفئران فانها تستمر في حكة محاولة ازالة تلك المادة الغريبة ، وبالإضافة الى ذلك ، فإنه بعد ازالة الشريط وحين لا يصبح هناك أى دليل على تهيج الجلد ، فان الفئران تستمر في الهرش ودون أى انخفاض واضح في درجته . وهكذا فان الهرش قد بدأ كمحاولة وظيفية لمواجهة حالة بدنية ولكنه وبعد تكراره بقدر كاف ، قد أصبح فيما يبدو جزءا متكاملا من سلوك الكائن برغم حقيقة انه لم يعد يستخدم أية وظيفة بيولوجية ، وتشير بالمثل بعض البحوث الهامة التي أجراها أخيرا سيلاي (١٩٥٢) وزملاؤه الى ان الاستجابات التوافقية قد تعمل مستقلة بنظامها الخاص حتى ولو الى حد الحاق الأذى بالكائن ، وهناك تشابه بين هذه الدراسات وتلك التي قام بها اندرسون (١٩٤١ أ ، ١٩٤١ ب ، ١٩٤١ ج ، ١٩٤١ د) لما سماه « نسبة الباعث الى عوامل خارجة عن الذات » externalization of drive فقد تم تعليم الفئران في تلك الدراسات ان تقطع طرقا بمعدلات فائقة من السرعة تحت تأثير باعث الجوع الشديد ثم تكافأ بالطعام في نهاية الطريق . وبعد عدد كبير جدا من المحاولات المدعمة لم تظهر الفئران الانطفاء المألوف للاستجابة حين وضعت في نفس الموقف في حالة باعث ضعيف ، أو في حالة شبع ، أى أنها استمرت في قطع الطرق بنفس معدل السرعة برغم أنها ليست في حالة جوع . وهكذا فاننا نصادف مرة أخرى مشهدا لكائن يؤدي عملا لأسباب بيولوجية واضحة ، ثم تختفى تلك الأسباب ، فيستمر السلوك دون توقف ظاهر . ويفسر أندرسون ذلك بأن هذه الظاهرة قد نجمت من حقيقة ان هناك جوانب من الموقف المنبه قد تم تشريطها لتحقيق ثوابا نانويا ، ولكن أولبورت يفسر ذلك وفقا لقاعدة الاستقلال الذاتي الوظيفي - على أساس ان السلوك قد استمر ببساطة لانه قد تكرر الى ان أصبح غاية أو دافعا في حد ذاته أى أصبح جزءا من « نمط حياة » الفأر .

ولقد واجه أولبورت بعد صيافته الأصلية لهذا المبدأ هجوما قاسيا على يدي بيرتوشى (١٩٤٠) الذي اثار عدة تساؤلات خطيرة . فلقد تساءل - أولا ، هل صحيح حقا ان أى شكل من أشكال السلوك

إذا ما تكرر مرات كافية سوف يصبح مستقلا ؟ اليس ثمة حدود أو شروط يجب أن توضع على هذا التعميم ؟ وثانيا ، إذا ما كان أى شكل من أشكال السلوك قادرا تماما على أن يصبح دائما دائما ، فما الذى يمنع الفرد من التردى فى نوع من الفوضى السيكلوجية تقوم فيها الدوافع المتصارعة والمتخاصمة بالإنشاق داخل الفرد وتمزيقه ؟

ولقد أدت مثل تلك التساؤلات بأولبورت الى توضيح موقفه والإسهاب فيه والى التسليم بنوع من سيكلوجية الأنا ، ويقرر أولبورت أن الأمثلة التى سبق أن ساقها على الاستقلال الذاتى الوظيفى تتضمن فى الواقع نمطين من السلوك المستقل . أحدهما هو **السلوك المتناوم الخاص** لدى الحيوان والانسان على حد سواء . ويتضمن ذلك النمط ، أنماط التكيف الحركى ، والهرش ، وممارسة الإيقاعات ، والأفعال الأخرى التى يبدو أنها لم تعد تحقق فائدة بيولوجية ، تقاوم الانطفاء . أما النمط الثانى فهو القوة الدافعة الكامنة فيما هو مكتسب من ميول وقيم وعواطف وفى أسلوب الحياة ككل . وقد اطلق أولبورت على هذا النوع الأخير من الظواهر اسم **الدوافع الجوهرية** (أولبورت ، ١٩٥٥) فى حين أن السابقة أنماط « انتهازية » توجد فى الشخصيات كافة ، ولكنها لا ترتبط بالجوهر بشكل مركزى (أى أنها ليست من «متضمنات الأنا») . وتقوم تلك الأنماط الجوهرية بخلق القوى المنظمة فى الشخصية ، ويفسر ذلك لماذا لا يتحول الفرد - كما تنبأ بروتوشى - الى شرائح وقطع من دوافع لا رابط بينها .

ونشير مرة أخرى الى أن أولبورت لا يطمح فى أن يكون الأنا كلابع المرائس الذى يتناول الدوافع وصراعاتها بشكل سحرى الى حد ما محققا وحدة الشخصية . فالانساق لا يتحقق بوساطة « رجل صغير داخل الصدر » بل من خلال التكامل التدريجى للأنماط الدينامية التى تتكون من السمات المركزية ، والمقاصد ، والسعى الجوهرى ، وصور الذات ، أو غير ذلك من الوحدات الوظيفية التى قد نتعرف عليها تجريبيا فى الشخصية بعد أن يتم فحصها بدقة بجميع الطرق المتاحة .

وكون الجوهر ظاهرة ارتقائية تنبثق من حالات بدائية وخبرات ماضيه يبدو أنه يوحى - برغم الاستقلال الذاتى الوظيفى - بوجود رابطة مباشرة بالماضى . وحيث أن أشكال السلوك التى سوف تصبح مستقلة تتحدد بتنظيم يدين بالكثير لماضى الكائن ، فانه يبدو أن الماضى يحتفظ لنفسه بدور رئيسى . ويبدو فى النهاية على أى حال أن الموضوع

الأكثر أهمية هنا هو : هل دوافع الشخص الناضج أو الراشد تحتفظ برباط وظيفي مع أصولها في الطفولة أو مع أصولها البيولوجية. ومهما كان الغموض الذي يحيط بالوضع الدقيق لمفهوم الاستقلال الوظيفي ، فمن الواضح أن أولبورت قد سمى بشدة لتأكيد أن أغلب دوافع الراشدين ليست لها علاقة وظيفية بالجدور التاريخية للدافع .

وهناك سؤال آخر كثيرا ما يتردد حول هذا المبدأ ، وهو : هل جميع دوافع الراشدين مستقلة وظيفيا ؟ والاجابة هي « لا » ، فهناك الدافعية الطفلية *infantilism* وغيرها من أنواع الدافعية تحتفظ بروابطها التاريخية مع بداياتها الأولى . وعلى أي حال فإن مدى استقلالية دوافع الفرد يمد مقياسا لنضجه . فكلما كانت دوافعه الراهنة مرتبطة بالماضي وبالحالات البيولوجية الكامنة ، كان أقل نضجا وأقل اعتمادا عن الحالة الطفلية .

ومن الواضح أن أهم الأمثلة التي يمكن أن توجه الى أي مفهوم هو ما الذي سوف يقدمه هذا المفهوم لمن يستخدمه ؟ . ان عواقب الاستقلال الذاتي الوظيفي واضحة ، ويجب على عالم النفس في ضوء تلك العواقب أن يحسد : هل يرغب في اعتناق المفهوم أولا ؟ . وأكثر تلك العواقب أهمية هو حقيقة أن ذلك المفهوم يسمح بكماله نسبي من ماضي الكائن . واذا ما كانت الدوافع الراهنة لا تمتد في استمرارها كليفة على دوافع أكثر أساسية أو أولية ، فإن الباحث قد يحق له أن يولى ظهره لماضي الفرد وأن يركز اهتمامه على الحاضر والمستقبل . وماضي الفرد يصبح أمرا عديم الأهمية نسبيا إذا ما كان الفرد محكوما برغبات ومقاصد مستقلة عما كان يدفعه في فترات سابقة . وهناك نتيجة أكثر أهمية لذلك المبدأ وهي أنه يجعل أمرا لا مناص منه ، تلك المفردية العظيمة الباهرة الفريدة والتي تبرزها نظرية أولبورت كثيرا . واذا كان من المتوقع أن يكون في استطاعة أي من أشكال السلوك الوسيط *instrumental* أن يصبح غاية في حد ذاته ، فالتنا عرف أن هناك قدرا من عدم التجانس في السلوك والمطالب البيئية يكفي لتحقيق ذلك التعقيد والتفرد المحر في الدوافع . وحيث أن البنين الدافعي للفرد الراشد يكون يتحررا من أي مشاركة قد توجد عند الميلاد ، فالتنا يمكن أن نتوقع أن دوافع الافراد المختلفين لن يكون بينها سوى قدر ضئيل من التشابه .

لقد قام أولبورت بكفاءة بتلخيص جوهر ما سبق أن قلناه في العبارة

الآتية :

• ان مبدأ الاستقلال الذاتى الوظيفى يؤكد (١) ان ٠٠ الدوافع انما تكون معاصرة ، اى ان البواعث مهما كانت ، ينبغى أن تمارس عملها الآن ، و مسار ، الدوافع لا يتقيد وظيفيا بأصوله التاريخية أو بأهدافه المبكرة ، بل بأهدافه الراهنة فحسب • (٢) ان الدوافع تغير من طابعها جذريا من الطفولة الى النضج بحيث أننا نستطيع أن نتحدث عن دوافع الراشد باعتبار أنها قد حطت محل دوافع الطفولة • (٣) ان نضج الشخصية يقاس بدرجة ما حققته دوافعها من استقلال ذاتى وظيفى • وحتى برغم أنه يوجد فى كل شخصية بعض الأوليات (الطفوليات ، والنكوصات والاستجابات الانعكاسية) فان نضج الشخص المتحضر والمطبع يظهر بمقدار تخلصه من الاشكال المبكرة للدوافع • (٤) أن الاسلوب المتميز فى التعلم (الذى يعكس قدرا أكبر من التأثيرات البيئية المتنوعة) بتأثيره على تشعب الأمزجة والقدرات يخلق الدوافع التى تتخذ صورة فردية • والبناء الدينامى لكل شخصية يكون بناء فريدا برغم أن التشابهات التى ترجع الى النوع ، والثقافة ، ومراحل الارتقاء ، والجو، قد تودى الى تشابهات معينة تبرز - طالما اعتبرناها تشابهات تقريبية - استخدام الأبعاد العامة بفرض مقارنة الأفراد فى ضوء معيار معين ، أو بفرض التوسل الى أنماط مناسبة تتفق مع الاهتمامات الخاصة بالباحث • وبرغم عدم انكار امكان وجود الفراز فى الطفولة أو حتى استمرار بعض أشكال انشراط الغريزية (أو الانعكاسية) طوال الحياة فان مبدأ الاستقلال الذاتى الوظيفى ينظر الى الشخصية المرتقبة باعتبارها أساسا ظاهرة بعد - غريزية Post instinctive « (١٩٤٠ ص ٥٤٥) .

نحو الشخصية :

والى هنا نكون قد تعرضنا لمكونات الشخصية وفحصنا بفاهيم شاملة تلك الاستعدادات التى تحرك السلوك • وسنهتم هنا بالطريقة التى تبرز بها تلك البنائات ، والفروق فى الطريقة التى يمثل بها الفرد فى مراحل الارتقاء المختلفة • وقد اتضح بالفعل من مناقشتنا لاستقلال الذاتى الوظيفى أن هذه النظرية تفترض حدوث تغييرات هامة بين الطفولة وسن الرشد •

الطفل : فلنبداً بالطفل عند الميلاد • بينما كان أولبورت راديكالياً حين تناول سلوك الراشد ، فإنه كان محافظاً تماماً فى مناقشته لسلوك الطفل • والحقيقة فان الطفل الى أن يعبر السنتين أو السنوات الثلاث الأولى فى

حياته لا يحظى الا بقدر ضئيل القيمة من صياغات أولبورت النظرية ،
وا تبدأ الامور في الظهور بشكل جديد وغير متوقع الا من خلال ارتقاء
هوية الذات فحسب . لكن ذلك سابق لقصتنا ، فلنعد الى الوليد الجديد
كما تنظر اليه هذه النظرية .

يعتبر أولبورت أن الرضيع المولود حديثا هو نتاج الوراثة والباعث
البدائي والوجود الانكاسي بشكل يكاد يكون كليا . فهو لم يطور بعد
تلك الصفات المميزة التي سوف تظهر فيما بعد نتيجة للتعامل مع البيئة .
ومما له دلالة ، أن أولبورت لا يعتبر أن الوليد الجديد يملك شخصية .
فالرضيع يكون مزودا لدى مولده بشكل فطري بإمكانات فيزيقية ومزاجية
معينة يرغم أن تحقيق تلك الامكانات يتوقف على النمو والنضج . وبالإضافة
الى ذلك ، فانه يكون قادرا على الاستجابة ببعض الانكاسات الفائتسة
التخصص كالمص والبلع لبعض أنواع التنبيه الواضحة التحديد الى حد
ما . وهو قد يبدي - فى النهاية - نشاطا كليا أو قدرا كبيرا من
الاستجابات الكبرى غير المتميزة التي يبدو أن جميع أجهزة الفرد العضوية
تشارك فيها .

ولكن - الى جانب هذا التجهيز - كيف يدفع الطفل أو يشرح فى
العمل ؟ يفترض أولبورت أنه يوجد فى البداية مجرى عام للنشاط هو
المنبع الاصلى للسلوك المدفوع . ويكون الطفل الى حد كبير فى هذه النقطة
من الارتقاء كأننا من التوترات ومشاعر اللذة والالم المختزنة . ويحظى
النموذج البيولوجى للسلوك أو النظرية التي تعتمد على أهمية الثواب أو
قانون الأثر أو مبدأ اللذة ، بقبول تام كمرشد لسنوات الحياة الاولى .
وهكذا ، فإن الطفل يشرح فى الارتقاء مدفوعا بالحاجة الى تقليل الالم الى
الحد الأدنى وبلوغ الحد الاقصى من اللذة وبتلك الظروف التي تتحدد عموما
بتقليل التوترات المشوية المجترنة .

وبرغم حقيقة أن الفرد عند الميلاد يفتقد الصفات الفريزية التي
سوف تشكل شخصيته فيما بعد ، فإن تلك الحالة تتغير فى فترة مبكرة
تماما وبطريقة متدرجة . ويعتبر أولبورت أن الطفل حتى فى أول سنوات
حياته يبدأ فى اظهار صفات متميزة كالفروق فى التعبير الحركى والانفعالى
الذى يميل الى الاستمرار ويتحول الى تلك الاشكال من التوافق التي أكثر
نضجا والتي يتم تعلمها مؤخرا . وهكذا فإن بعض سلوك الأطفال يمكن
الترقب عليه بوصفه تمهيدا لأشكال الشخصية التالية عليه ويشير أولبورت

الى أن الطفل يبدأ بالتأكد في النصف الثاني من عامه الأول على الأقل في
إدراك صفات متميزة تمثل بالتقريب الحصائص الدائمة للشخصية .

تحول الطفل :

تتخذ عملية النمو طريقها عبر مسارات متعددة . ويعتبر أوليورت
أن هناك العديد من الميكانيزمات والمبادئ المتنوعة التي تعد مناسبة لوصف
التفسيرات التي تحدث بين الطفولة والنضج . وهو يتناول على وجه
الخصوص، التفاضل والتكامل، والنضج ، المحاكاة ، والتعلم ، والاستقلال
الذاتي الوظيفي ، وامتداد الذات . وهو قد يسلم بالدور التفسيري الذي
يقدمه التحليل النفسي للميكانيزمات والصدمة برغم أن تلك العمليات
لا تقوم بدور نظري رئيسي فيما يسميه بالشخصية السوية .

ولقد كان أوليورت فيما يتعلق بنظرية التعلم توفيقيا تماما ، فهو
يرى أن جميع الملاحظات التي جمعها الباحثون والتي لا حصر لها ، وكذلك
النتائج التي توصلوا إليها ، وجميع النظريات النهائية في التعلم ، يحتمل
أن تكون صحيحة بمعنى ما والى درجة معينة . وهكذا ، فإن التعلم
الشرطي ، ونظرية التدعيم وتدرج العادة جميعا مبادئ صادقة وناجحة
حين تطبق على الحيوان والطفل وفي التعلم العارض . ولكنها لا تكفي لتفسير
التعلم الجوهرى الذي يتطلب قواعد مثل التعبير الذاتى ، والاعتراف
closure والاستبصار المعرفى ، وصورة الذات ، والتبعية لنظم الأنا
النشيطة . ألم يقدم أوليورت نفسه اسهاما منظما في نظرية التعلم ، بل
أنه قد أرسى الاستقلال الذاتى الوظيفى كحقيقة أساسية فى الدافعية
الانسانية التى يجب أن تفسر فى النهاية فى ضوء مبادئ التعلم التى لم يتم
تنسيقها بعد فى مخطط نظرى عريض بما فيه الكفاية . وربما كان اسهامه
الرئيسى فى الموضوع هو نقده الحاد لنظريات التعلم (مثلا أوليورت
1٩٤٦ ب) التى تدعى أنها تتمتع بقدر من الصدق الشامل أكثر مما
يقبله .

وبذلك فإن لدينا كائنا هو وقت ولادته مخلوق بيولوجى ثم تحول
الى فرد يعمل فى ضوء أنا ينمو ، وبناء للسمات يتسع ، ونواة من أهداف
ومطلوح للمستقبل . والدور الذى يلعبه الاستقلال الوظيفى هو بالطبع
دور حاسم بالنسبة لهذا التحول . ويوضح ذلك المبدأ أن ما قد يكون فى
البداية مجرد وسيلة تؤدي الى هدف بيولوجى قد يصبح دافعا مستقلا
يوجه السلوك بكل قوة الباعث العنصرى .

ولعل هذا الانفصال بين البنيان الدافعي المبكر والبنيان الدافعي المتأخر للفرد ، هو السبب الى حد كبير في أنه توجد لدينا أساسا نظريتان للشخصية • وتصلح الأولى - وهي النموذج البيولوجي أو نموذج تخفيض التوتر - عند الميلاد وتصبح أقل صلاحية بالتدرج الى ان يتمكن الفرد من خلال نمو الوعي بالذات من تطوير الدوافع التي ليس لها علاقة مباشرة بتلك التي كانت تدفع السلوك في البداية • وعند تلك النقطة تكون إعادة النظر ضرورية اذا ما أردنا أن يكون فهمنا للفرد شاملا •

الراشد :

اننا نجد الآن في الفرد الناضج ، شخصا تكون لديه المحددات الرئيسية للسلوك ، عبارة عن مجموعة من السمات المنظمة والمتسقة • ولقد اتبعت تلك السمات بطرق مختلفة من ذلك الشتات من الخصائص الدافعية التي تميز الطفل المولود حديثا • وليست هناك أهمية خاصة للمسار الدقيق لتطور تلك النزعات لأنها لم تعد وفقا لمبدأ الاستقلال الذاتي الوظيفي - تستمد قوتها الدافعية من منابع بدائية مهما كانت • ويعبر أولبورت عن ذلك بقوله : « إن ما يدفع السلوك انما يدفعه الآن » ولسنا في حاجة الى معرفة تاريخ الباعث لفهم عمله ، وفعالية تلك السمات تكون شعورية ومنطقية بدرجة كبيرة • فالفرد السوي يعرف - في العادة ما يفعله ولماذا يفعله ، ويتخذ سلوكه نمطا متسقا تكمن في قلبه تلك الوظائف التي يطلق عليها أولبورت الوظائف الجوهرية • ولا يمكن أن يتحقق فهم كامل للراشد دون تصور لأهدافه ومطامحه • فان أغلب دوافعه الهامة ليست صدى للماضي بقدر ما هي اشارات من المستقبل • ولسوف نتحقق لنا - في أغلب الحالات - معرفة أكثر بما سوف يفعله الفرد اذا ما عرفنا خطفه الشعورية عند معرفتنا ذكرياته المكبوتة •

ويسلم أولبورت بأن الصورة التي حددناها بالفعل صورة مثالية الى حد ما ولا يحقق الراشدون جميعا النضج الكامل • وهناك من الأفراد الكبار من تظل دوافعهم ملتصقة بالطفولة • ولا يبدو أن جميع الراشدين يوجهون سلوكهم في ضوء قواعد واضحة ومنطقية • وعلى أي حال فان مقدار تحاشيهم للدوافع اللاشعورية ودرجة استقلالية سماتهم عن الأصول الطفولية يمثل مقياسا لسوائهم ونضجهم • ونحن لا نجد بين بين الراشدين من يملك دون أن يدري سببا لسلوكه الا لدى الأفراد البالغين الاضطراب

والذين يرتبط سلوكهم ارتباطا وثيقا بالوقائع التي تحدث في الطفولة
أكثر من ارتباطه بوقائع تحدث هنا والآن أو في المستقبل .

وعلى نقيض أصحاب نظريات الشخصية الذين يتركز اغلب اهتمامهم
في الجانب السلبي لسجل التوافق ، فإن أوليورت يهتم الى حد ما
بالخصائص اتي تؤدي الي ما هو أكثر من التوافق «المناسب» أو «السوي» .
فالشخصية الناضجة ينبغي أن يتوفر لديها أولا وقبل كل شيء **اعتماد
الذات** . ويعنى ذلك أن حياة الفرد لا ينبغي أن تتقيد في نطاق ضيق
بتلك المجموعة من الأنشطة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بحاجاته هو
وبواجباته المباشرة . وينبغي أن تكون اشباعاته واحباطاته أكثر ميلا
للكثرة والتعدد منها للقلة والنمطية . ويتضمن جزء هام من هذا الامتداد
للذات اسقاطا على المستقبل في صورة تخطيط وآمال . وينبغي أن يتوفر
لدى الفرد أيضا - لكي يتحقق التضجج أن تكون الذات موضوعية
Self-objectification . ويعتبر أوليورت أن هناك مكونين رئيسيين
لتلك الخاصية هما : **المزح humor والاستبصار insight** ومن الواضح
أن ما نعينه بالاستبصار هو قدرة الفرد على فهم نفسه برغم أنه ليس
واضحا على الاطلاق كيف نوفر بالتحديد مستوى مناسباً يمكن أن تقارن
به معتقدات الفرد . ولا يتضمن الاحساس بالفكاهة القدرة على ادراك المتعة
والضحك في مواضيعها المعتادة فحسب ، بل انه يتضمن أيضا القدرة
على اقامة علاقات ايجابية مع الذات ، ومع الموضوعات المحبوبة ، وتوافر
القدرة في نفس الوقت على اكتشاف التناقضات والسخافات المتعلقة بذلك
وأخيرا فإن التضجج يتطلب أن يكون لدى الفرد فلسفة موحدة للحياة .
وبرغم أن الفرد يجب أن يتمكن من أن يكون موضوعيا بالإضافة الى
استمتاعه بالوقائع العادية في حياته ، فانه يجب أن يكون هناك على أي
حال خط من الجدية الكاملة مما يكفل الهدف والمعنى لكل ما يفعله . ويمثل
الدين واحدا من أكثر المنابع أهمية لتوحيد الفلسفات ، برغم أنه ليس
المنبع الوحيد بأي حال لمثل تلك الموضوعات المؤدية الى التكامل .

البحوث المميزة وطرق البحث :

من المهم أن نميز عند تناولنا لبحوث أوليورت بين ماله اعتماده
مباشر على أفكاره النظرية وذلك الذي انبمشن اتجاهات أخرى كاهتمله
بالبحوث المعروفة باسم « بحث - هو - الفعل » action research
وبالمثل فإن استخدامه وتطويره لطرق قياس الشخصية لم يكن مسترشدا

– الا بشكل جزئي فحسب – بأفكاره النظرية . فيرغم ترحيبه بالمناهج والدراسات الفردية (الايديوجرافية idiographic) فان الكثير من بحوثه الخاصة – او لعل أغلبها – كان جمعيا (نوموثيتيا nomothetic) . وسنبدأ في هذا القسم بتناول التفرقة بين الفردى والجمعى ثم نتبع ذلك بمناقشة المناهج المباشرة وغير المباشرة فى قياس الشخصية ، ثم نناقش أخيرا دراسات السلوك التصيرى بوصفها أفضل مثال للدراسات التى تعكس النواحي الرئيسية لموقفه النظرى .

الفردى فى مقابل الجمعى :

لقد أكد أولبورت أن على الباحث أن يختار بين أن يدرس السلوك فى ضوء المبادئ العامة والمتغيرات الشاملة والأعداد الكبيرة من المفوضين وبين أن يختار التركيز على الحالة الفردية مستخدما الطرق والمتغيرات التى تناسب فردية كل شخص. ولقد استعار أولبورت – فى تسميته لهذين الاتجاهين فى دراسته السلوك – من الفيلسوف الألمانى فندلاند اصطلاحى فردى (ايديوجرافى) وجمعى (نوموثيتى) ويرى أولبورت أنه فى علم النفس مجال لكلا الاتجاهين . ولكن التركيز – وبخاصة فى علم النفس الأمريكى – كان بشكل كلى على المناهج الجمعية التى تحتاج الى تعديل جزئى . وتصبح الحاجة الى التعديل ملحّة بوجه خاص طالما أن المنهج الفردى أو الايديوجرافى هو المفضل فى النهاية وهو الذى سوف يؤدى الى تنبؤ وفهم أفضل . ويشير أولبورت فى مقابله بين التنبؤ الفردى والجمعى الى أن :

«سوف يصبح علم النفس أكثر علمية ، اى أقدر على التنبؤ ، حين يعرف كيف يقيم نزعات مفردة بجميع ماحويه من نقد فى الجوهر ، وحين يعرف كيف ينبئ بما سوف يحدث لنسبة ذكاء هذا الطفل اذا ماخرنا بيئته بطريقة معينة» (١٩٤٠ : ب ، ص ١٧٠) .

ويتفق ذلك مع ما أشار اليه أولبورت فى مناقشته لما يجب أن تقدمه دراسة الأدب لعلم النفس أنه من أهم الأشياء التى يستطيع عالم النفس أن يتعلمها هى « . . كيف يحتفظ باهتمام ثابت بشخص واحد مفرد ولفترة طويلة من الوقت» (١٩٣٨ ، ص ٩) . وقد كان انعكاس هذا الاعتقاد – فضلا عن ذلك – فى اشارته الى أنه « . . . طالما اقتصر علم النفس فى تناوله على الشموليات وليس الخصوصيات ، فإنه لن يتناول الكثير – وبخاصة الشخصية الانسانية » (١٩٤٦ ١ ص ٦٦) .

وهذا التأكيد على الاتجاه الفردي أى دراسة الحالة الفردية امتداد منطقي للعديد من صفات الموقف النظرى لأوليورت . فان تأكيد على تفرد كل شخص انما يضع أولا وقبل كل شيء التزاما صارما على الباحث بأن يختار من مناهج الدراسة ما لا يخفى أو يشوه تلك الفردية . وثانيا ، وهو ما يتصل بما سبق اتصالا وثيقا ، التأكيد على أهمية السمات الفردية باعتبارها المحددات الالية للسلوك . فاذا ما كانت تلك السمات هى الوحدات « الحقيقية » للشخصية واذا كانت لا تميز سوى الشخص الفرد فانه يكون من الواضح اذن ان اكثر المناهج فعالية في دراسة السلوك سوف يكون منهج دراسة الفرد .

كل ذلك يترك مشكلة « الممكن » في الطرق الفردية دون اجابة . ويمتقد اوليورت (١٩٤٢) ان تلك الطرق من حيث الجوهر ليست أكثر صعوبة فى استخدامها من المناهج الجمعية ، ولكن يبدو أن نقل الرأى السيكولوجى يقف ضد أوليورت في هذه القضية ، بل ان أوليورت كثيرا ما استخدم فى بحوثه هو الطرق الجمعية أكثر مما استخدم الطرق الفردية .

وربما كان أفضل تصوير للمنهج الذى يكفل اظهار الفردية ، هو استخدام أساليب المزوجة بالطريقة التى اتبعها أوليورت وفيرنون (١٩٣٣) فى دراستهما للسلوك التعبيرى . ويشجع هذا المنهج الباحث على فحص العلاقات دون اللجوء الى اختصار البيانات الى وحدات تحليلية بفرض المقارنة بحيث يمكن مثلا مقارنة تاريخ الحياة مباشرة بالانتاج الفنى ويمثل ظهور أسلوب Q على يدى ستيفنسون (١٩٥٣) وكذلك البحث فى الارتباطات بين السمات داخل الفرد الواحد *Intra individual* والذى قام به أحد تلامذة أوليورت وهو أ . ل . بالدوين (١٩٤٢) ، (١٩٥٠) يمثل التطورات التى تسمح للباحث أن يتناول دراسة الحالة الفردية بشكل أكثر كفاءة الى حد ما عما كان متاثا فى الماضى . ويرتبط اهتمام أوليورت بالوئائق الشخصية (١٩٤٢) ارتباطا وثيقا بالطبع بهذا التركيز على المنهج الفردي فى دراساته للسلوك .

ويبدو منطقيا القول على سبيل التلخيص أن أوليورت متمشيا مع موقفه النظرى قد حفز علماء النفس الى أن يخصصوا لدراسة الحالة الفردية قدرا من وقتهم وجهدهم أكبر من ذلك القدر المعتاد . ويبدو فضلا عن ذلك أن هذا التأكيد قد صلافا قبولاً كبيراً من جانب علماء

النفس المعاصرين بحيث أن ما كان ذات يوم موقفا منحرفا أصبح الآن
يلقى قبولا واسعا .

المقاييس المباشرة وغير المباشرة للشخصية :

لقد شهد العقدان الأخيران في علم النفس الأمريكي تزايدا وتطورا
لا حد لهما فيما يتعلق بالطرق غير المباشرة في تقييم الشخصية . ولقد
ظهر الأثر الرئيسي لنظرية التحليل النفسي في علم النفس الأكاديمي خلال
تلك الفترة ، وقد أدى ذلك بالطبع الى تزايد الاهتمام بالأدوات التي تبدو
حساسية للدوافع والصراعات اللاشعورية . ولقد أصبحت الأساليب
الاسقاطية في ظل هذا الاتجاه ذائعة الصيت ، في حين تضاءلت شهرة
أساليب التقرير الذاتي بما في ذلك المقابلة والاستبيان . وقد عبّر
أولبورت عن ذلك قائلا :

«ان تلك الطرق (الاسقاطية) لاسأل الفرد على الإطلاق عما
يعتم به ، او ماذا يريد ان يفعله او ماذا يحاول ان يفعله » كما انها
لاسأل بشكل مباشر عن علاقة الفرد بوالديه او بنماذج السلطة بل انها
تنتج تلك العلاقة بكاملها من خلال تصرف كلاب ، ولقد انتشر ذلك
التناول التخفي وغير المباشر للعلمية بحيث ان الكثيرين من الاكاديميين
والكثير من المراكز الجامعية ايضا قد اتفقوا على هذا النوع من الطرق
التشخيصية ما يفوق بكثير الوقت الذي انفقوه في أي منهج آخر ... وقد
يكون صحيحا ان اغلب علماء النفس يفضلون تقييم حاجات الشخص
وصراعاته بالالتفاف حولها طويلا . والمشكلة بالطبع هي ان أي انسان حتى
لو كان مصابيا - سوف يوائم نفسه جيدا مع ما يفرضه الواقع عليه من
مطالب ، وهو لن يكشف عن مخاوفه ويفصح عن حاجاته الا في ذلك الموقف
الاسقاطي غير المحدد البناء . ويبدو ان تلك العبارة الحاسمة «... تميز
ذروة حقبة امتدت قرنا من الاستمقولية وبالتالي من عدم الثقة . اليس
من حق الفرد ان تصدقه ؟...» لقد خلق هذا الجو السائد في النظرية نوعا
من الاحتقار للسطح النفسي للحياة . فقد رفض تقرير الفرد الشمورى
باعتباره غير جدير بالثقة ، كما أهمل للضغط الحاضر لدوافعه وفضل
عليه تتبع سلوكه الى مراحلته المكونة الاولى . وبذلك فقد الفرد حقه في
ان يصدق . وبينما الفرد منشغل في توجيه حياته في العاضر متدفع الى
الامام في المستقبل ، أصبح اغلب علماء النفس منشغلين بانتقاء اثر تلك
العيلة في الماضي «... ان الشخص المتكامل ، الواصي بدوافعه ليس هو الذي

يجمع عن نفسه في الاختيار الإسقاطي . بل ان ذلك يتحقق بقدر اكبر في الشخصية المصابية التي تغنى واجبتها المخاوف والكراهيات الكبيرة . داخلها . ومنزل هذا الشخص هو الذي تستدرجه الادوات الاسقاطية ، اما الشخص المتوافق فان استجابته لا تختلف اختلافا جوهريا (١٩٥٣)
ص ١٠٨ - ١١٠) ..

ويتفق موقف أولبورت في هذا الموضوع تماما مع الاهمية التي يضعها على المحددات الشعورية والمنطقية للسلوك . ولقد أدى به اعتقاده بان الفرد السوي يسلك في ضوء دوافع معروفة ومعقولة ائى تأكيد ان للأساليب الاسقاطية اسهاما فريدا في حالة العصاى او المضطرب فحسب حيث قد تتزايد في الحقيقة أهمية الدوافع اللاشعورية . ويرى أولبورت ان الطرق المباشرة وغير المباشرة سوف تسفر عن صورة متسقة في حالة الفرد السوي ، على حين قد يكون هناك اختلاف كبير بين الطرق المباشرة وغير المباشرة لدى الفرد الذى يعانى بشدة من عدم التوافق ويعمم أولبورت قائلا :

» ٠٠ ان الفرد السوي المتوافق الذى يتمتع بتوجيه قوى نحو هدف قد يسلك في الاختبارات الاسقاطية مسلكا من المسلكين التاليين :
(١) اما أن يسفر الاختبار عن تطابق ماضى مع التقرير الشعورى . وفى هذه الحالة لا يكون ثمة حاجة للمنهج الاسقاطي ، (٢) واما أنه لن يقدم أى دليل على دوافعه السائدة ايا كانت « (٩١٥٣ ، ص ١١١) .

ويستنتج أولبورت أن الطرق غير المباشرة قد تكشف عن محددات السلوك اللاشعورية ولكن ذلك لا يتحقق الا بمقارنتها بنتائج الطرق المباشرة . ويتبع ذلك أن الطرق غير المباشرة يجب عدم استخدامها الا اذا كانت مقترنة بالطرق المباشرة . وبالنسبة للشخص السوي تعطى الطرق المباشرة صورة عن البنيان الدافعى للمفحوص اكثر اكتمالا وأكثر فائدة مما تعطيه الطرق غير المباشرة . ويجب ألا نغفل في مقارنة تلك الطرق ما تتميز به الطرق المباشرة من زيادة في كفاءتها وبساطتها .

ويتفق اعداد أولبورت لطرق الاستبيان واستخدامه لها ، مع وجهة النظر التي سبق لنا أن حددنا خطوطها . وينبغى أن نتذكر من ناحية أخرى أن تأكيده على فائدة الوثائق الشخصية بوصفها طريقة لتناول الشخصية ، ودراساته للسلوك التعبيري كل ذلك يمثل اسهاما في التقييم غير المباشر للشخصية .

دراسات السلوك التعبيري :

لقد بدأ أولبورت ومعاونوه منذ فترة مبكرة في عام ١٩٣٠ في انجاز سلسلة من الفحوص المتعلقة بإبراز دلالة واتساق السلوك التعبيري. ويميز أولبورت في تعريفه بهذا المجال من الدراسة ، بين مكونين يوجدان في كل استجابة انسانية . فهناك أولا مكون التكيف أو الواسعة ، وهو يتعلق أساسا بالقيمة الوظيفية للفعل ، أو الاثر الذي ينتج عنه ، أو النهاية التي يؤدي إليها وهناك ثانياً - المكون التعبيري وهو يرجع إلى الطريقة أو الأسلوب الذي يتم به الفعل . والملايين من الافراد يقومون بنفس الأفعال التوافقية ، ولكن لا يوجد فردان يتجزآن تلك الأفعال بنفس الأسلوب أو الطريقة تماما . ويبدو نظرا لما تتضمنه نظرية أولبورت من تأكيد على العناصر الفردية والفريدة في السلوك أنه من المناسب أن يبدى اهتماما عميقا بالسلوك التعبيري - أي المكون الشخصي أو الخاص بالفرد والذي يظهر حتى في أكثر الاستجابات نمطية .

ويبدو ان نظرية أولبورت لا تؤدي بشكل طبيعي الى الاهتمام بالسلوك التعبيري فحسب ، ولكنها أيضا تعد بأن دراسة هذا المجال من السلوك سوف يكون لها دلالة عامة . وإذا كان سلوك الفرد جميعه متفقا ومترابطا فيما بينه ، فان أكثر أفعال الفرد تفاعلة يجب أن ترتبط بالمجالات الرئيسية في بنيان الفرد . وبالتالي ، فان علينا أن ندرس تلك الأفعال التعبيرية غير البارزة بهدف الحصول على معلومات عن أكثر المجالات مركزية في السلوك . ويُقرر أولبورت في مقارنته بين المكونات التعبيرية والتوافقية ما يلي :

« ينتج الجانب التعبيري من السلوك من محددات بالغة العمق ، تعمل كقاعدة بشكل لاشعوري ودون قصد . ومن ناحية أخرى فان الجانب التوافقي هو نظام أكثر تحديدا ، يحكم هدف اللحظة الحاضرة ، ويستند اعتمادا وثيقا على التنبيه وعلى الجهد الإرادي أو على عادات المهارة . وينبغي البحث من سبب لعل السلوك الحاضر في رغبات ومقاصد الفرد الحالية (برغم ان تلك قد تنبعت بدورها من سمات واهتمامات شخصية بالغة العمق) . ولكن أسلوب التنفيذ يتم توجيهه مباشرة ودون لدخل من جانب الاستعدادات الشخصية العميقة والثابتة » (١٩٣٧ ، ص ٤٦٦) ..

وهكذا ، فان أولبورت - متفقا في ذلك مع نظريته - يدرس المجالات التعبيرية للسلوك بوصفها وسائل تكفل مدخلا جاهزا للمناخ الهامة للدافعية والصراع في الفرد .

ان أسلوب السلوك لا تحدده عوامل الشخصية فحسب . ويتقبل أولبورت دور المحددات الاجتماعية الحضارية ، والحالات الوقتية أو الحالات المزاجية ، والظروف العضوية وغير ذلك من المتغيرات . ولا تقلل اسهامات تلك العوامل العديدة من أهمية السلوك التعبيري كمصدر للمعرفة فيما يتعلق بالشخصية ، بل انها تؤدي فحسب الى زيادة تعقيد المهمة التجريبية (الامبيريقية) الى حد ما بالنسبة للفاحص او القائم بالتشخيص ، ومن الممكن تصنيف السلوك التعبيري في ضوء نمط الفعل الذى يتضمنه كالتعبير بالوجه مثلا او بطريقة المشى او الصوت أو الكتابة . ويشير أولبورت الى أن المرء يجب ألا يتجه كلية الى نمط واحد من السلوك التعبيري حيث أن لها جميعا أهميتها وأنها تزيد من معرفتنا بالفرد .

ولقد كانت اصعب المقارنات الجماعية التى عقدها الباحثان ، هى التى قام بها بالاشتراك مع فيليب أ . فيرنون Philip E. Vernon (أولبورت وفرنون ، ١٩٣٣) وكانت موجهة على الخصوص الى مشكلة الاتساق فى الحركة التعبيرية . وقد تم فى أحد أجزاء تلك الدراسة فحص مجموعة من ٢٥ مفحوصا ، مختلفين نوعا من حيث التركيب ، فى ثلاث جلسات مختلفة ، يفصل بين كل جلسة وأخرى فترة حوالى أربعة أسابيع . وكان المفحوص يستجيب خلال كل جلسة لعند كبير من مختلف الاختبارات التى تحتوى على مقاييس لسرعة القراءة والمد وسرعة المشى والعدو ، وطول الخطوة ، وتقدير الاحجام والمسافات المألوفة وتقدير الأوزان ، وقوة قبضة اليد ، وسرعة ضغط الأصبع واليد والرجل فى النقر ، ورسم المربعات والدوائر وغير ذلك من الأشكال ، ومقاييس متعددة للكتابة باليد ، والتوتر العضلى ، وما الى ذلك . وكان يتم الحصول بالإضافة الى ذلك على تقديرات القائم بالملاحظة بالنسبة لمختلف المقاييس مثل شدة الصوت وطلاقة الكلام ، ومقدار الحركات خلال الكلام العادى ، ونظافة المظهر . ومن الواضح أنه قد توفر لدى الباحثين عدد بالغ الضخامة من المقاييس المستخرجة استطاعوا استخدامها فى تحليلهم .

وقد بدأ أولبورت وفرنون فى دراستهما للاتساق ، بفحص ثبات التكرار (اتساق القياس فى مناسبتين مختلفتين) فى مختلف المقاييس التعبيرية . وعلى العموم فقد اتضح أن تقديرات الثبات هذه كانت مرتفعة ارتفاعا ملحوظا وكانت الارتباطات المتبادلة معادلة تقريبا لتقديرات ثبات التكرار بالنسبة لوسائل القياس النفسى التقليدية . وقد استنتج المؤلفان

من هذا الاتساق « أن عادات التعبير بالوجه ، كما قسناها ، هي خصائص ثابتة للأفراد في مجموعتنا التجريبية (١٩٣٣ ، ص ٩٨) . وقد فحص الباحثان بعد ذلك العلاقة بين درجات انجاز نفس المهام بمجموعات عضلية مختلفة كالجانب الأيمن والأيسر من الجسم والأذرع والأرجل ، وما إلى ذلك وقد وجدنا نفس القدر تقريبا من الاتساق . ولتلك النتائج أهمية كبيرة حيث أنها تميل إلى افتراض عامل تكاملي عام أو مركزي يؤدي إلى أسلوب متسق بصرف النظر عن المظهر الخارجي الذي تم اختياره .

لقد كانت أضعب المقارنات الجماعية التي عقدها الباحثان ، هي الارتباطات المتبادلة بين المتغيرات الرئيسية بالنسبة لكل المهام . وقد تم حساب تلك الارتباطات بالنسبة لثمانية وعلائين مقياسا ، وكان الانطباع الأول الذي يمكن الخروج به من مصفوفة معاملات الارتباط هو أن الارتباطات المتبادلة كانت أكثر إيجابية بكثير مما قد يكون متوقعا بسبب المصادفة . وهكذا فإن الدليل المبدئي يشير إلى أن هناك بعض العمومية تكمن في الدرجات الفردية . ولم تسمح البيانات بتطبيق طريقة التحليل التقليدية وبالتالي فقد استخدم الباحثان نوعا من تحليل التجمعات Cluster analysis يقومان فيه بتحديد تجمعات من الارتباطات أو العوامل التي تكون تلك المتغيرات التي أسفرت عن معاملات ارتباط متبادلة ذات دلالة ولم يهتم الباحثان فحسب بالدلالة الاحصائية بل أيضا بالمغزى السيكولوجي للتجمع موضع الفحص .

واتضح في النهاية أن هناك ثلاثة عوامل هي التي تفسر أغلب ما لوحظ من ارتباطات متبادلة . وكان أول تلك العوامل هو ما أطلق عليه « عامل المساحة الطائفي ، A real group factor وهو يشتمل على متغيرات مثل : المساحة الكلية للكتابة ، مساحة الأشكال على السبورة مساحة مربعات القدم ، زيادة تقدير الزوايا ، طول علامات التصحيح الذاتية . ويبدو ذلك نوعا من « الامتدادية الحركية » وقد أطلق على التجمع الثاني « عامل الطرد المركزي الطائفي ، Centrifugal group factor وهو يضم متغيرات مثل : زيادة تقدير بعد المسافة عن جسم بالخطوات ، امتداد المكعبات ، السرعة اللفظية ، نقص تقدير الأوزان ، نقص تقدير بعد المسافة نحو الجسم بالأشبار . وقد كان المؤلفان أقل رضا بذلك العامل عن العامل السابق وإن كانا قد خلاصا إلى « أن العامل الطائفي يرتكز أساسا على المقاييس المتعلقة بقوة الطرد المركزي وقوة الجذب المركزي . » وهكذا يمكن تفسير العامل الطائفي

باعتباره نزعة عامة من الحركة التعبيرية نحو الخارج ونحو التحرر ونحو الانبساط على عكس التحرك المطلق والمقيد والمظهري المتحدلق « (١٩٣٣ ص ١١٢) . وقد أطلق على التجمع الثالث « عامل التأكيد الطائفي » Group factor of emphasis وهو يتضمن مقاييس مثل شدة الصوت ، والحركة خلال الحديث ، وضغط الكتابة وضغط النقر ، وزيادة تقدير الزوايا ، وضغط اليد المرتكزة . وقد أشار الباحثان الى أن هذا العامل غير متجانس نسبيا لكن يبدو أن هناك عاملا مشتركا من التأكيد يكمن في أغلب المقاييس . وهما يشيران الى أن مجرد الضغط أو التوتر البدني لا يبدو أن له دلالة الا باعتباره جزءا من ميل أكثر اتساعا وسيكولوجية نحو أحداث حركات مشددة « (١٩٣٣ ، ص ١١٢) .

ولم يقنع أولبورت وفيرنون تماما بمقارناتهما الجمعية فاتبعوا ذلك التحليل بأربعة من تواريخ الحالات ، تم فيها فحص الحركات التعبيرية للمفحوصين في ضوء شخصياتهم المعروفة . وهما يقولان :

« .. لقد لجأنا الى تلك الفترة الأخلاء القائلة بان المقاييس لا تتعارض من حيث الجوهر مع الاتباع الدائم عن الشخصيات . فالقاييس تسجل بصدق ما تشير اليه النظرة وحتى القاييس غير المناسبة احصائيا يمكن بهذه الطريقة أن تدخل في الصورة .. ولصبح مفهومة ومتسقة سيكولوجيا» (١٩٣٣ ، ص ١٨٠) ، فضلا عن ذلك ، فقد وجد انه في استطاعة الحكمين التوفيق بين عينات الخط والنحنيات الكيموجرافية (التي تدل على الضغط المبلول في اتساع الكتابة) ، وبين الصورة العامة للشخصية ، بشكل يفوق ما يكتفه النجاح بالصدفة» وقد اوردا عبارة ختامية هامة هي : «هناك درجات من الوحدة في الحركة كما ان هناك درجات من الوحدة في الحياة العقلية وفي الشخصية . وهناك ما يدعونا بالتاكيد الى تقرير انه طالما ان الشخصية منظمة فان الحركات التعبيرية تكون منسجمة ومتسقة ذاتيا ، وطالما ان الشخصية غير متكاملة ، فان الحركات التعبيرية تكون متناقضة ذاتيا» (١٩٣٣ ، ص ١٨٢) ..

ولقد أورد أولبورت وفيرنون دراستين اضافيتين تتركز كلتاها حول علم الجرافولوجيا Graphology (دراسة الشخصية عن طريق الخط) . وقد قام ادوين باورز Edwin Powers بأحدى هاتين الدراستين ، وقام الباحثان بالدراسة الثانية بالاشتراك مع د . ب . لوكاس D.B. Lucas وهو متخصص محترف في الجرافولوجيا

وجون ا. دونى June E. Downey وهى اخصائية نفسية معروفة . وقد حاول باورز في دراسته أن يختبر مدى ما يمكن الوصول اليه من احكام دقيقة عن الشخصية من خلال خط اليد . وهو ليح يكن مهتما بالتحليل التفصيلي لخط اليد بل كان مهتما أكثر بالوصول الى احكام عامة من النوع المتضمن في **الزواجة بين عينات الخط وبين الصور الصامتة للشخصية** . وقد كان المفحوصون عشرة من الذكور الراشدين الشديدي الاختلاف من حيث التكوين وكانت عينات الخط تتكون من فقرة من ٤٠ كلمة يقوم المفحوص بنسخها وكتابتها بطريقته المعتادة مستخدما قلمه الخاص . وقد كانت الصور العامة للشخصية تتكون كل منها من حيث الطول من حوالى ٢٥٠ كلمة وقام بالاشتراك في اعدادها ثلاثة من الاخصائيين النفسيين . وفي كل حالة كان احد هؤلاء الاخصائيين - على الاقل - يتعرف على الشخص موضع الفحص ترففا وثيقا . وقد استخدمت ، الدراسة ثلاث مجموعات من المحكمين : ١٤٣ من الطلبة الجامعيين ، ٢٥ من الحاصلين على دراسات عليا ، وزوجاتهم ، و١٧ من الجرافولوجيين المتخصصين . وقد كان عدد المزاوجات المتوقعة عن طريق الصدفة لا يتجاوز واحدا من عشر مزاوجات ، ولقد تجاوزت كل من المجموعات الثلاث هذا المعدل حيث كان متوسط عدد المزاوجات الصحيحة لدى مجموعة الطلبة الجامعيين ١٧٧ ، ولدى مجموعة الحاصلين على دراسات عليا ٨٨ ، ولدى الجرافولوجيين المتخصصين ٢٤١ . وهكذا فإن نتائج المحكمين غير المدربين ، كانت أفضل من الصدفة وان كانت أقل من نتائج المحكمين المدربين . ولقد اعتبر ان تلك النتائج تقدم دليلا معتدلا على الاتفاق بين خط اليد وهو صورة تعبيرية للسلوك - وبين البناء السيكولوجي العام للفرد .

وقد تم فى الدراسة الجرافولوجية الثانية الحصول على عدد من عينات الخطوط من مجموعة من ٢٣ طالبا جامعا بعد أن تمت دراستهم دراسة شاملة باستخدام المقاييس النفسية التقليدية بالإضافة الى تقييمهم بوساطة ملاحظين مختلفين . ثم أعطيت تلك العينات من الخطوط لاثنتين من المعاونين (دونى ولوكاس) اللذين قاما باعداد صورة عامة للشخصية معتمدين فحسب على معرفة خط الفرد . ثم قام الفاحص بعد ذلك بمحاولة التعرف على الصور العامة للشخصية من خلال معرفته التفصيلية بالمفحوص وذلك يتناول المجموعة ككل الى جانب تناول المجموعات الفرعية . ولقد كان نجاح أى من المناهج في التعرف على المفحوصين

تعرفنا صحيحا يفوق ما نتوقمه من المصادفة برغم ان تلك الدقة لم تكن كبيرة بشكل مطلق .

ويستخلص أولبورت وفيرنون بعد عرضهما النهائي للنتائج الايجابية لبحوثهما :

« يبدو من نتائجنا ان كلا من سميرات وجه المرء وخطه يعكس نمطا فرديا ثابتا ومستمر في جوهره . ولا يبدو ان نشاطاته التميرية معزولة ومنفصلة من بعضها البعض ، بل انها تبدو منتظمة ومنمطة . وبالإضافة الى ذلك فان الدلائل تشير الى ان هناك اتفاقا بين الحركة التميرية وبين الاتجاهات والسمات والقيم والاستعدادات الاخرى الخاصة بالشخصية الداخلية . وبرغم ان مسألة تنظيم الشخصية ككل تخرج من نطاق تناولنا ، فانه من الواضح انه لا يمكن الوصول الى أساس لحل مناسب لهذه المشكلة الهامة من خلال القانون الفوضوي للنوعية ، بل من خلال نظريات الانساق الايجابية والبناءة فحسب » (١٩٣٣ ص ٢٤٨) .

وقد انجزت سلسلة من الدراسات المتعلقة بذلك الموضوع على يدي أحد تلامذة أولبورت وهو ستانلي استيس Stanley Estes (١٩٣٨) الذي فحص في ست تجارب قدرة ٣٢٣ من الحكماء على تقييم شخصيات ١٥ مفحوصا ذكرا من خلال سجلات لصور سينمائية لسلوك المفحوصين غير اللفظي في مختلف المواقف . وقد قامت مجموعة من الاخصائيين الاجتماعيين بترتيب المفحوصين وفقا لثلاثة وعشرين متغيرا من سميات الشخصية باستخدام مقياس من ست نقاط وقد كانت التقييمات تقارن بمقاييس مستقلة مشتقة من الدراسة المتعمقة لأولئك المفحوصين . وقد كانت التقييمات المشتركة للمحكمن أكثر دقة - بالنسبة لكل المتغيرات تقريبا - مما يمكن أن نتوقمه بالمصادفة فحسب . وقد أسفرت مقارنة أحسن عشرة محكمن وأسوأ عشرة محكمن عن فروق ملحوظة بين المفحوصين من حيث الدقة التي يستطيعون بها تفسير السلوك . اما التجربة الثانية فقد تضمنت مجموعات من الطلبة الجامعيين وطلبة إحدى المدارس الصيفية وقد قدمت لهم قوائم من الكلمات وطلب منهم استخراج الكلمات المشتر التي أفضل تمييزا لكل من المفحوصين الذين لوحظ سلوكهم التعبيري . وقد قورنت أحكامهم بأحكام دقيقة قام بها خمسة من الاخصائيين النفسيين الاكلينيكيين . ومرة أخرى ، فقد تفوق المحكمن في المتوسط على ما يمكن أن تأتي به المصادفة وكان هناك - مرة أخرى - أيضا - قدر كبير من

الاختلاف بين المحكمين من حيث دقتهم . أما في الدراسة الرابعة ، فقد طلب من مجموعة من الراشدين التوفيق بين سجلات للسلوك التعبيري وبين صور عامة مختصرة للشخصية قائمة على تاريخ حالات المفوضين . وقد كانت التوفيقات الصحيحة تبلغ على العموم ضعف ما قد نتوقه من الصدفة . وقد كان هناك اختلاف عادي بين المحكمين من حيث دقتهم كما كان هناك أيضا قدر كبير من الفروق بين المفوضين فيما يتعلق بالدقة التي يستطيعون بها اصدار أحكامهم . وتشير تلك النتائج الى أن من تضمهم الجماعة من مدرسي الجامعة والاختصاصيين النفسيين كانوا أقل دقة بشكل ملحوظ عن بقية أعضاء المجموعة . كما أن الافراد الذين لهم اهتمام نشيط بالرسم والروايات كانوا أكثر دقة بشكل واضح من بقية أعضاء المجموعة . أما في الدراستين الخامسة والسادسة فقد طلب مرة أخرى من مجموعتين اضافيتين من الطلبة التوفيق بين عينات من السلوك التعبيري وبين صور عامة للشخصية ومرة أخرى كان في استطاعة المحكمين التوفيق بين الصور العامة وبين السلوك التعبيري بنجاح يفوق ماتكفله الصدفة .

وقد اوضحت النتائج المشتركة للدراسات الست أن السلوك التعبيري يسمح بالفعل باستنتاجات تتعلق بالشخصية تفوق من حيث الدقة ما يمكن أن تكفله الصدفة ، وبالإضافة الى ذلك فقد ظهر من بعض الدراسات أن أداء المحكمين كان أفضل حين طلب منهم اصدار أحكام شاملة من النوع الذي تتضمنه تجارب التوفيق عن أدائهم حين طلب منهم ترتيب خصائص نوعية . وتشير النتائج الى أن الحكم على بعض المفوضين كان أسهل منه على غيرهم ، كما أن بعض الخصائص الشخصية أسير في تقييمها عن الأخرى . وأخيرا فإن هناك فروقا ثابتة بين المحكمين فيما يتعلق بمهارتهم في استنتاج الشخصية من خلال السلوك التعبيري وكلما ازدادت تلك المهارة كانوا أقل قدرة بوجه عام على التصور العقلي وأكثر اهتماما بالرسم والروايات وكانوا أقل أيضا من حيث شعورهم التحليل الذاتي بما يصدرونه من أحكام .

ولقد حاول أولبورت وكاتريل (١٩٣٤) في سلسلة من الدراسات، تقدير مدى ما يستطيعه المحكمون من تقييم دقيق للشخصية على أساس الصوت فحسب وقد استخدم ما يزيد عن ٦٠٠ من المحكمين لتقييم ١٦ من المتحدثين . وقد استخدمت ثلاثة أساليب مختلفة في الحكم هي : الصورة العامة للشخصية ، والتوفيق بين المتحدثين وبين أوصاف الشخصية ، وترتيب المتحدثين وفقا لخصائص تم قياسها بشكل مستقل . وقد شملت الخصائص المصاحبة البدنية والتعبيرية كالسن والطول والتركيب البدني

والمظهر الفوتوجرافي وخط اليد ، بالإضافة الى الميول والسماط مثل :
المهنة والتفضيل السياسي ، والانبساط والخضوع .

وتتفق نتائج تلك الدراسات فى الاشارة الى أنه فى استطاعة المحكمين بدقة تفوق ما تكفله الصدفة - الربط بين الصوت وبين خصائص الشخصية وبين خصائص بدنية معينة . وقد كانت مقارنة الاحكام القائمة على الصوت الطبيعي بتلك القائمة على الصوت المسجل توضح أنه كان فى استطاعة المحكمين فى أى من الطرفين أن يقوموا بمهمتهم بشكل افضل من الصدفة الا أن الصوت الطبيعي قد أدى الى نتائج أكثر دقة نوعا من الصوت المسجل . وقد اتضح من فحص مختلف خصائص الشخصية التى قدرت أن المحكمين كانوا أكثر اتساقا ودقة فى تقديراتهم للميول والسماط عنهم بالنسبة للصفات البدنية وخط اليد ، ويستنتج الباحثان من ذلك « أن السماط والاستعدادات المنتظمة لا تفوق الخصائص الخارجية كالبنيان البدنى والمظهر من حيث الاتساق فحسب بل ان تقديرها يكون أكثر صحة أيضا » . (البورت وكاتريل ١٩٣٤ ، ص ٥١) .

وقد قام تلميذ آخر من تلامذة أولبورت هو س . و . C.W. Huntley (١٩٤٠) بالعديد من الدراسات الهامة تستهدف فحص السلوك التعبيري فى ضوء تقييم الذات على وجه الخصوص . وقد نبعت تلك الدراسات من بحوث فيرنر وولف Werner Wolff (١٩٣٣ ، ١٩٤٣) وهى تمثل محاولة لاختبار بعض نتائج وولف تحت ظروف تجريبية مضبوطة بعناية . وفى الدراستين اللتين قام بهما هنتلى طلب من المفحوصين القيام بسلسلة من الاختبارات ، بحيث يتم خلال جلسات الاختبار تسجيل عدد من أشكال التعبير دون أن يدري المفحوص بذلك . ويتضمن ذلك صورا لظهر يد المفحوص ، وصورا جانبية له الى جانب عينات من خطه وصوته . وبعد مرور ستة أشهر على الجلسة الاولى . يعاد استدعاء المفحوصين ، ويطلب منهم الحكم على عينات من الأشكال التعبيرية الخاصة بهم وبالأخرين ، دون أن يعرفوا بالطبع أن أيا من تلك العينات تخصهم هم . وقد كانت تقسم لهم فى كل محاولة أربع عينات : اثنتان من الجنس المخالف وواحدة من نفس الجنس والباقية تخص المفحوص نفسه . وكان يطلب من المفحوص بعدئذ أن يقدم تعريفا شاملا لشخصية صاحب كل عينة ويطلب منه أيضا ترتيب العينات فى ضوء تفضيله هو لها ، أو أن يطلب منه تقدير كل عينة بالنسبة لسلسلة الصفات المتخصصة : الابتكارية ، والجازبية ، والذكاء وما الى ذلك . وكانت النتيجةتان الرئيسيتان تتعلقان بالتعرف على أشكال التعبير الخاصة بالشخص نفسه ، والامتجابه التقييمية

لأشكال التعبير الخاصة بالفرد التي تم التعرف عليها والتي لم يتم التعرف عليها . ويتفق هنتلي في دراسته مع وولف في ظهور انخفاض كبير في مدى التعرف الكامل للشخص على عيناته هو . وبالإضافة إلى أن نتائج تلك الدراسات قد أوضحت أن الفرد حين يقيم عيناته هو دون أن يعرف أنها خاصة به يكون هناك ميل شديد إلى المبالغة في الاستجابة . وقد كان التقييم سلبيا أحيانا ، وإن كان ايجابيا عادة ونادرا جدا ما كان محايدا .

وحيث يكون هناك تعرف جزئي أو غامض للشخص على العينات الخاصة به ، كانت التقييمات تصبح أكثر تفضيلا بشكل واضح ، وحيث يكون هناك تعرف كامل كانت التقييمات تميل لأن تكون محايدة . وقد كانت هناك فروق فردية ملحوظة في التقييمات الذاتية حيث أبدى بعض الأفراد تطرفا مستمرا على حين التزم غيرهم حدود الوسط . وقد قام ليندزي أخيرا - وقد كان أيضا من تلامذة أولبورت - (ليندزي ، وبرنس ، ورايت ١٩٥٢) بإعادة اختيار نتائج هنتلي .

ويعم أولبورت نتائج بحوثه وبحوث الآخرين قائلا :

« إن الصفات التعبيرية للجسم لا تعمل مستقلة ، بل إن أيا منها تتأثر كثيرا بالآخرى وتؤثر فيها بنفس الطريقة . وعلى ذلك فإن لافتات Lavater على حق إلى حد ما حين يقول «إن روحا واحدة تماما تظهر فيها جميعا» . وعلى أي حال ، فإن الاتساق لا يكون تاما على الإطلاق . فالطريق الذي يتبعه تعبير معين لا يكون صورة مطابقة دقيقة للطرق الأخرى كافة . وإذا ما كان الأمر كذلك ، فإن مناهج التشخيص النفسى التى تستهدف عرضا واحدا تكون صالحة تماما . والشخصية قد تظهر كاملة وب نفس الدرجة في كل صفة . فخط الكتابة قد يفصح عن القصة كاملة ، وكذلك أيضا بالنسبة للأعين والأيدى والشفاه . ولكن مقدار ما اتضح من اتفاق لا يبرر المبالغة في تبسيط الموقف . »

إن وحدة التعبير تتحول - كما قد نتوقع بالتأكيد - إلى أن تصبح مسألة كمية كلية . وب نفس الطريقة فإن وحدة الشخصية نفسها تمد أمرا كليا - ويجب ألا نتوقع أن تعكس الصفات التعبيرية للجسم اتفاقا يفوق ما هو متوفر في الشخصية نفسها (كما يجب ألا نتوقع أن تعكس اتفاقا أقل) . فالتعبير يتم تشكيله بطرق معقدة شأنه تماما شأن تشكيل الشخصية نفسها . وهناك اتساقات رئيسية وأخرى ثانوية ، كما إن هناك قدرًا كبيرًا من الاتفاق إلى جانب بعض الصراع والتناقض . وينبغي أن تستهدف التشخيصات النفسية بالتعال نفس ما يستهدفه أى نوع من

الفروع الأخرى لسيكولوجية الشخصية ، أى دراسة الظاهرة المعقدة على مستوى معقد ، (١٩٣٧ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١) .

المكانة الراهنة والتقويم :

لم يكن لأولبورت على الإطلاق مدرسة من النابضين - يعكس الكثيرين من أصحاب النظريات برغم أننا قد نجد ملامح من تأثيره في أعمال تلامذته السابقين مثل أ. ل. بالدوين A.L. Baldwin و ج. س. برونر J.S. Bruner ، و ه. كانتريل H. Cantril و د. ج. ماكجراناهان D.G. McGranahan ، و م. ب. سميث M.B. Smith ولقد كانت أغلب التطويرات التي تمت بالنسبة لنظريته تعتمد على إسهاماته هو ، وهي الإسهامات التي استمرت طوال العشرين عاما الماضية . ولقد كان اهتمامه في البداية بالوحدة المناسبة لوصف الشخصية هو الذي أدى به إلى مفهومة عن السمة . واهتمامه في نفس الوقت بالفرضيات التطورية التي تحدث للدوافع وهو ما تبلور في مفهوم الاستقلال الوظيفي ، قد أدى كل ذلك إلى تفسيره للنظرية بالتدرج بحيث يولى تأكيدا متزايدا للتصديدية ووظائف الأنا (الجوهرية) . وتعرض النظرية حاليا لعملية مستمرة من إعادة التقدير العام حيث أن أولبورت يقوم بمراجعة مؤلفاته الأساسية في هذه المرحلة (أولبورت ١٩٣٧) .

وبرغم أن من اعتنق هذه النظرية في مجملها من بين علماء النفس كانوا قلة فقد كان لها على أي حال تأثير كبير . ولقد وجدت النظرية شيئا من التمدد لغايتها ، في الاستبيان الذي قام بنشره قسم علم نفس الشواذ وعلم النفس الاكلينيكي في الجمعية النفسية الأمريكية (شافر ، و بروج ، وماكاناندلس ١٩٥١) . وقد أرسل ذلك الاستبيان إلى الإحصائيين النفسيين الاكلينيكيين الممارسين ، وطلب منهم تحديد أي من أصحاب نظريات الشخصية كان له أكبر قيمة مباشرة بالنسبة لهم في علمهم الاكلينيكي اليومي . وقد أشارت الغالبية العظمى من الجيبين إلى فرويد باعتباره الأكثر تأثيرا ، ولكن الذي كان يليه من بين أصحاب النظريات المشار إليهم كان أولبورت .

ومن بين أكثر التطورات المعاصرة أهمية فيما يتعلق بهسفه النظرية الطريقة التي أصبحت بها ذات أهمية لدى أصحاب نظريات التحليل النفسي . حيث أن تأكيد أولبورت على الوظائف الجوهرية للأنا إلى جانب مفهومه عن الاستقلال الوظيفي يتفق إلى حد كبير مع التطورات الأخيرة في

سيكلوجية الأنا لدى أصحاب التحليل النفسى . وهكذا فقد أصبح أولبورت برغم حقيقة كونه من أكثر النقاد تشديداً للتحليل النفسى الأرتوذكسى واحداً من أكثر أصحاب النظريات النفسية شعبية بين المحللين النفسيين .

ومهما كانت الحالة التنظيمية النهائية لهذه النظرية ، فمن الواضح أنه ينبغي أن يكون لأكثر جوانبها الحديثة غزارة عواقب بالنسبة للتطورات المستقبلية فى التنظير النفسى . فحيث لا يكون هناك سوى عدد قليل من الانتظامات المستقرة وحيث لا يكون قد تم بعد التعرف الواضح للمتغيرات الرئيسية بشكل مؤكد تقريبا ، فإنه يبدو من المهم إبراز التنوع الواضح فى المواقف النظرية الموجهة للبحث . ومن وجهة النظر هذه ، فإن أولبورت يحتل مكانة حاسمة فى التنظير النفسى حيث أن أفكاره تقدم تأكيدا مقننا للمشكلات والمفاهيم التى كثيرا ما تهملها النظرية النفسية المعاصرة .

ولقد كان من الظواهر البارزة فى الستين عاما الأخيرة فى علم النفس انتهاء مفاهيم الذات والأنا ثم إعادة بعثها من جديد . وربما لا يوجد بين علماء النفس من له مثل هذه الدور المؤثر فى تجديد وتنقية مفهوم الأنا سوى أولبورت . فهو لم يضع المفهوم فى سياقه التاريخى فحسب . ولكنه حاول أيضا باصرار إبراز الضرورة الوظيفية لاستخدام بعض مثل تلك المفاهيم بطريقة تمييزية فى أى محاولة لعرض السلوك الإنسانى السوى والمعقد . وهناك سمة حديثة تميز موقف أولبورت وهى تأكيده على أهمية المحددات الشعورية للسلوك وما ترتب على ذلك من دفاعه عن الطرق المباشرة لتقييم الدافعية الانسانية . وكما سبق أن أشرنا ، فإن هذا الموقف ليس مألوقا على الإطلاق بين علماء النفس المعاصرين وهى وجهة النظر التى ينبغى أن يؤخذ بها إذا ما أردنا تحاشى التناول الأحادى النظرة لموضوعنا . والأكثر اتفاقا مع الصفات الجارية فى علم النفس هو الدفاع الحار الذى قدمه أولبورت عن الدراسة التفصيلية للحالة الفردية . وبرغم أن هناك من الآخرين من يسلم بهذه الفكرة فإنه من الواضح أن أولبورت هو أكثر الشخصيات أهمية فى الحركة التى أدت الى التقليل المعاصر للحالة الفردية كموضوع مشروع للفحوص النفسية وذلك من خلال مقاله فى الاستفادة من الوثائق الشخصية فى علم النفس (١٩٤٣) وتأكيده على المناهج الفردية (الأيديوجرافية) ، ونشره لتسوارينج الحالات بوصفه رئيس التحرير لجلية علم النفس الشواذ وعلم النفس الاجتماعى

Journal of Abnormal and Social Psychology

ولقد أشرنا بالفعل الى حقيقة أن أولبورت يعد واحدا من المنظرين القلائل الذين يقيمون جسرا فعلا بين علم النفس الاكاديمي وتقليده من ناحية وبين مجال علم النفس الاكلينيكي وعلم نفس الشخصية الذي يتسم بسرعة التطور من ناحية أخرى . ولا يؤدي هذا الاستمرار فحسب الى انراء كل من النظم الفرعية بانكار من نظم أخرى بل انه يساعد أيضا في إبراز نوع من الاستمرار العقلي الذي يعد من الامور الهامة بالنسبة للتطور الطويل المدى في علم النفس . وآخر المستجدات في موقف أولبورت هو تأكيده على المستقبل والحاضر الى حد استبعاده للماضي نسبيا . وبلوغ تأثير التحليل النفسي حدا بالغا من الانتشار أصبح من السهل بالنسبة للفاصل أو الممارس أن يتجاهل أهمية المحددات الموقفية والحالية للسلوك في سبيل الوصول الى محدثاته التاريخية ، وبالتالي ، فمن المفيد أن نتناول كتابات أولبورت باعتبارها تذكرة دائمة بأن الماضي لا يمثل الفعالية الكلية للفرد .

ولعل ذلك يكفينا في تسجيل الجانب الايجابي ، ولنفحص اذن السلبيات . لقد تعرضت تلك النظريات بشكل فريد لنقد في العديد من المجالات ، حيث لم تكن هناك قلة في الانتقادات الفعالة كذلك التي قسمها بروتوش (١٩٤٠) وكوتو Coutu (١٩٤٩) وسسيوارد Seward (١٩٤٨) ، وسكاكز Skaggs (١٩٤٥) . وكما أشرنا من قبل فان أولبورت كان يهتم في العادة بعرض وجهة نظره عرضا مقنعا ومؤثرا أكثر مما كان يهتم بحماية نفسه من النقد . ولقد أدى افتقار النظرية للكفامة الشكلية الى الكثير من التعليقات السلبية . ما هو الاساس البيدهي لموقف أولبورت النظري؟ ما الذي يدعيه هذا الموقف ، وما الذي يدعه للاختبار التجريبي؟ كيف امكن على وجه الدقة أن تتكون بين افتراضات النظرية علاقات متبادلة، واین التعريفات التجريبية الدقيقة التي تمكن الباحث من ترجمة المفاهيم النظرية الى مصطلحات الملاحظة؟ ويرتبط بتلك الأسئلة ارتباطا وثيقا - وان كان أكثر منها أهمية بكثير - موضوع نوع وكمية البحث الذي أدت اليه النظرية . وينبغي أن نسلم بأن تلك النظرية - مع احتمال استثناء مجال السلوك التعميري - لم تكن مصدرا كفوفا للاقتراحات الصالحة للاختبار التجريبي . ولقد كانت النظرية شأنها شأن أغلب النظريات الأخرى في مجال الشخصية - أكثر تمكنا عند محاولتها تفسير العلاقات المعروفة عنها عند محاولة التنبؤ بالوقائع غير الملحوظة . وهكذا ، فبرغم أن كتابات وفحوص أولبورت نفسه قد أدت الى قدر كبير من البحوث المتعلقة بها في التمصب ، والاتجاهات الاجتماعية والبيئية ، والاشاعات

على سبيل المثال ، فاننا ينبغي أن نسلم بأن نظريته قد سقطت بصورة
محزنة بوصفها أداة شكلية لتوليد البحوث .

ويشعر الكثير من علماء النفس بأن ما تلقاه النظرية من صعوبة في
التنبؤ يرجع الى أن مفهوم الاستقلال الوظيفي غير قابل للتناول التجريبي ،
هذا فضلا عن صياغة التنبؤات المتعلقة بالوقائع غير الملحوظة . وقد أشرنا
بالفعل الى بعض الارتباكات التي أوجدها هذا المفهوم حين بزغت فكرة
« الجوهرية » كحك لما سوف يصبح مستقلا . ان أساس الاستقلال
الوظيفي هو الفشل في ملاحظة ما نتوقه من انطفاء أو انتهاء لاستجابة
معينة ، ويصرف النظر عن طول مدة ملاحظة تلك الظاهرة المعينة التي
تتلاشى فإن امكان النقد قائم دائما . وقد يقول الناقد انه كان علينا أن
نستمر في الملاحظة لمدة اطول لكي نلاحظ الانطفاء ، أو أنه قد يفسر ما يبدو
من استقلال في الاستجابة في ضوء بعض الدوافع الكامنة التي لم يتمكن
الباحث من فهمها كما يجب . ومن الممكن دائما تفسير أى مثال ملموس
للاستقلال الوظيفي في ضوء صياغات نظرية أخرى ، ولكن بنفس الطريقة
أيضا يمكن تفسير أمثلة تتعلق بقواعد نظرية أخرى في ضوء قواعد
بديلة . وربما كان أخطر الانتقادات لتلك القاعدة هو أن أولبورت لم يقدم
تفسيرا كافيا للعملية أو للميكانيزم الكامن وراء الاستقلال الوظيفي . فقد
ذكرنا أن الظاهرة تحدث دون أن يقدم تفسيرا مرضيا لكيفية أو لسبب
حدوثها .

ولقد تعرضت خاصية أخرى من خواص النظرية لنيران النقد
الشديدة ، وتلك الخاصية هي فكرة أولبورت عن الانفصال الجزئي بين
السوى والشاذ وبين الطفل والراشد . ويعتقد أغلب علماء النفس اعتقادا
راسخا أننا قد أحرزنا معرفة متزايدة بالسلوك السوى من دراستنا
للأفراد الشواذ بحيث تبدو أية محاولة للإشارة الى أن الشاذ منفصل عن
السوى أمرا لا يقل عن الهرطقة بأى حال . وفي الحقيقة ، فإن المدى الذي
ذهب اليه علماء النفس في استعارة المفاهيم التي نشأت خلال ملاحظة
الحيوانات الدنيا ، يجعل من تقبل فكرة الانفصال بين السلالات البشرية
أمرا تكتنفه صعوبة بالغة . ويتفق مع فكرة أولبورت عن أن السلوك
الانسانى لدى الراشد والسوى يختلف عن سلوك الشاذ أو الطفل أو
سلوك الحيوانات الدنيا تفضيله لنموذج من الانسان تبرز فيه جوانب
السلوك الايجابية أو الشائنة تفضيلا . ولقد بلغت شدة تأثير التحليل
النفسى وعلم النفس المقارن حدا أصبحت معه النظرية التي تصر على إبراز
الدوافع المقبولة اجتماعيا أكثر من إبرازها للحاجات البدائية كالجنس

والعدوان تبدو - الى حد ما - كما لو كانت تنتمي الى العصر الفكتوري حاليا . وقد يرى أولبورت نفسه أنه لا ينكر أهمية الدوافع البيولوجية أو اللاشعورية ، ولكنه يود أن يكفل مكانة مناسبة لدور العمليات المنطقية والدوافع التي يتم اكتسابها اجتماعيا ، وهو ما يعتقد أن حقبة انتقالية من اللامنطقية قد تجاهلته . وكيفما كان الأمر فإن الكثير من الانتقادات الموجهة للنظرية توضح أن موقف أولبورت يعبر عن الاتساق بمصطلحات شديدة الشبه بتلك التي يستخدمها رجل الشارع في تفسير سلوكه .

ولا يستطيع أى من علماء النفس المعاصرين التمسك بشدة «بالتفرد» دون أن يعاني من سخط تلامذته الذين يتجهون نحو تجريد السلوك وقياسه . وتمثل العبارة التي قالها كوتو Coutu (١٩٤٩) عن « وهم الشخصية الفريدة » خلافا رئيسيا بين معتقدات أولبورت ومعتقدات أغلب العلماء الاجتماعيين المعاصرين ، فهم يعتقدون أن الفردية يمكن تفسيرها في ضوء مبادئ عامة أو مشتركة مناسبة ، وأن التركيز على الفرد والتفرد في الوضع الحالي من التطور لا يمكن أن يؤدي الا الى تأملات عميقة .

وهناك اعتراض آخر يوجه الى النظرية ، ويرتبط ارتباطا وثيقا بفشلها في خلق افتراضات تجريبية ، وهو عجز النظرية عن تخصيص مجموعة من الأبعاد لاستخدامها في دراسة الشخصية ، فالسمات الفردية - وفقا لتعريفها - لا يمكن وضعها في صورة عامة ، وبالتالي فإن على الباحث اذا ما اتبع المنهج الفردي (الايدويوجرافي) أن يبدأ من جديد في القيام بمهمة اقتراح المتغيرات بالنسبة لكل مفحوص يشرع في دراسته . ومن الواضح أن تلك الحالة تعد مثبطة لهمة الشخص المهتم بالبحث .

وأخيرا ، فإن علماء النفس المعاصرين الذين يتأثرون بإسهام المحددات الاجتماعية الحضارية في السلوك - وهم يشكلون مجموعة كبيرة - لا يجدون في نظرية أولبورت طريقا ميسورا يكفل لتلك العوامل عرضا مناسبيا . وهم يوضحون أن النظرية توجه كل انتباهها الى تبادلية العلاقات في السلوك كله ولكنها تفشل في التعرف على تبادلية العلاقات بين السلوك وبين الموقف البيئي الذي يتم فيه . لقد وجه أولبورت اهتماما بالقسا الى ما يحدث داخل الكائن ولكنه لم يوجه اهتماما كافيا للتأثير المقيد والمفرى للقوى الخارجية .

وينبغي أن نتذكر في أى محاولة للتقييم الشامل لهذا الموقف النظامي أن أولبورت لم يعتبر نفسه في الماضي محصنا ضد النقد . ويعكس

تأكيد الراهن على الوظائف الجوهرية (الأنا) والمقاصد ، شدة وصحة النقد لدى مستشارته صياغاته النظرية الأولى لدى بيروشي وغيره . وهكذا ينبغي ألا نفاجا إذا ما وجدنا في المستقبل نظرية أولبورت تولى انتباهها أكثر جدية للمحددات البيئية للسلوك ولخبرات الطفولة المبكرة ولغير ذلك من العوامل التي يشير إليها تجمع النتائج التجريبية ومن ناحية أخرى فسوف يكون مدعاة للأسف بالتأكيد ، وهو أمر غير محتمل أيضا إذا ما أقدمت النظرية على المبالغة في دقة تعبيرها عن التأكيد الراهن بحيث يفقدها ذلك صفاتها المميزة .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Allport, G. W. *Personality: A psychological interpretation*. New York: Holt, 1937a.
- Allport, G. W. *The nature of personality: Selected papers*. Cambridge, Mass.: Addison-Wesley, 1950a. (Includes the most important of Allport's papers published prior to this date.)
- Allport, G. W. *Becoming: Basic considerations for a psychology of personality*. New Haven: Yale Univ. Press, 1955.

REFERENCES

- Allport, G. W. Attitudes. In C. C. Murchison (Ed.). *A Handbook of Social Psychology*. Worcester, Mass.: Clark Univ. Press, 1935, pp. 798-844.
- Allport, G. W. *Personality: A psychological interpretation*. New York: Holt, 1937a.
- Allport, G. W. The functional autonomy of motives. *Amer. J. Psychol.*, 1937b, 50, 141-156.
- Allport, G. W. Personality: A problem for science or a problem for art? *Revista de Psihologie* (Cluj, Rumania), 1938, 1, 1-15.
- Allport, G. W. Motivation in personality: Reply to Mr. Bertocci. *Psychol. Rev.*, 1940a, 47, 533-554.
- Allport, G. W. The psychologist's frame of reference. *Psychol. Bull.*, 1940b, 37, 1-28.
- Allport, G. W. *The use of personal documents in psychological science*. New York: Soc. Sci. Res. Council, Bull. 49, 1942.
- Allport, G. W. The ego in contemporary psychology. *Psychol. Rev.*, 1943, 50, 451-478.
- Allport, G. W. Geneticism versus ego-structure in theories of personality. *Brit. J. educ. Psychol.*, 1946a, 16, 57-68.
- Allport, G. W. Effect: A secondary principle of learning. *Psychol. Rev.*, 1946b, 53, 335-347.
- Allport, G. W. Scientific models and human morals. *Psychol. Rev.*, 1947, 54, 182-192.
- Allport, G. W. *The nature of personality: Selected Papers*. Cambridge, Mass.: Addison-Wesley, 1950a. (Includes the most important of Allport's papers published prior to this date.)
- Allport, G. W. *The individual and his religion*. New York: Macmillan, 1950b.

- Allport, G. W. The trend in motivational theory. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 1953, 23, 107-119.
- Allport, G. W. *The nature of prejudice*. Cambridge, Mass.: Addison-Wesley, 1954.
- Allport, G. W. *Becoming: Basic considerations for a psychology of personality*. New Haven: Yale Univ. Press, 1955.
- Allport, G. W., and Allport, F. H. *A-S reaction study*. Boston: Houghton, 1928.
- Allport, G. W., and Cantril, H. Judging personality from voice. *J. soc. Psychol.*, 1934, 5, 37-55.
- Allport, G. W., and Cantril, H. *The psychology of radio*. New York: Harper, 1935.
- Allport, G. W., and Odberg, H.S. Trait-names: A psycho-lexical study. *Psychol. Monogr.*, 1936, 47, no. 211, 1-171.
- Allport, G. W., and Vernon, P. E. *A study of values*. Boston: Houghton, 1931. (Rev. ed. with P. E. Vernon and G. Lindzey, 1951.)
- Allport, G. W., and Vernon, P. E. *Studies in expressive movement*. New York: Macmillan, 1933.
- Anderson, E. E. The externalization of drive: I. Theoretical considerations. *Psychol. Rev.*, 1941a, 48, 204-224.
- Anderson, E. E. The externalization of drive: II. The effect of satiation and removal of reward at different stages in the learning process of the rat. *J. genet. Psychol.*, 1941b, 59, 359-376.
- Anderson, E. E. The externalization of drive: III. Maze learning by non-rewarded and by satiated rats. *J. genet. Psychol.*, 1941c, 59, 397-426.
- Anderson, E. E. The externalization of drive: IV. The effect of pre-feeding on the maze performance of hungry non-rewarded rats. *J. comp. Psychol.*, 1941d, 31, 349-352.
- Baldwin, A. L. Personal structure analysis: A statistical method for investigating the single personality. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1942, 37, 163-183.
- Baldwin, A. L. Statistical problems in the treatment of case histories. *J. clin. Psychol.*, 1950, 6, 6-12.
- Bertocci, P.A. A critique of G. W. Allport's theory of motivation. *Psychol. Rev.*, 1940, 47, 501-532.
- Coutu, W. *Emergent human nature*. New York: Knopf, 1949.
- Estes, S. G. Judging personality from expressive behavior. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1938, 33, 217-236.
- Harlow, H. F., Harlow, Margaret K., and Meyer, D. R. Learning motivated by a manipulation drive. *J. exp. Psychol.*, 1950, 40, 228-234.
- Huntley, C. W. Judgements of self based upon records of expressive behavior. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1940, 35, 398-427.

- Lindzey, G., Prince, Blanche, and Wright, H. K. A study of facial asymmetry. *J. Pers.*, 1952, 21, 68-84.
- Olson, W. C. *The measurement of nervous habits in normal children.* Minneapolis: Univ. of Minnesota Press, 1929.
- MacKinnon, D. W., and Maslow, A. H. Personality. In H. Helson (Ed.)
- Schafer, R., Berg, I., and McCandless, B. Report on survey of current psychological testing practices. Supplement to Newsletter, Division of clin. abn. Psychol., Amer. Psychol. Ass., 1951, 4, no. 5.
- Selye, H. *The story of the adaptation syndrome.* Montréal: Acta, 1952.
- Seward, J. P. The sign of a symbol: A reply to Professor Allport. *Psychol. Rev.*, 1948, 55, 277-296.
- Skaggs, E. B. Personalistic psychology as science. *Psychol. Rev.*, 1945, 52, 234-238.
- Solomon, R. L., and Wynne, L. C. Traumatic avoidance learning: The principles of anxiety conservation and partial irreversibility. *Psychol. Rev.*, 1954, 61, 353-385.
- Stephenson, W. *The study of behavior: Q-technique and its methodology.* Chicago: Univ. of Chicago Press, 1953.
- Stern, W. *Allgemeine Psychologie auf personalistischer Grundlage.* The Hague: Nijhoff, 1935. (Engl. translation by H. D. Spoerl. *General psychology: from the personalistic standpoint.* New York: Macmillan, 1938).
- Tolman, E. C. Psychology versus immediate experience. *Phil. Sci.*, 1935, 2, 356-380.
- Wolff, W. The experimental study of forms of expression. *Character & Pers.*, 1933, 2, 168-176.
- Wolff, W. *The expression of personality.* New York: Harper, 1943.
- Woodworth, R. S. *Dynamic psychology.* New York: Columbia Univ. Press, 1918.

الفصل الثامن

النظرية العضوية

منذ قسم ديكرارت في القرن السابع عشر الشخص الى كيانين منفصلين ، وان كانا متفاعلين ، هما الجسم والعقل ، ومنذ امتثل فونت في القرن التاسع عشر لتقاليد المدرسة الارتباطية البريطانية ، ففتت العقل وأرجعه الى جزئيات أولية ، من الأحاسيس والمشاعر ، والصور ، منذ ذلك الوقت والمحاولات تبذل من آن لآخر للجمع بين الجسم والعقل معا مرة أخرى ، ومعاملة الكائن ككل منتظم موحد . ومن بين المحاولات الجديرة بالذكر والتي جذبت أتباعا كثيرين في السنوات الأخيرة وجهة النظر المعروفة باسم « النظرية العضوية Organismic أو الكلية holistic » وقد عبرت هذه النظرية عن نفسها في البيولوجيا النفسية لأدولف ماير Psychobiology (ماير ١٩٤٨ ، ريني ١٩٤٣) وفي الاتجاه الطبي الحديث المسمى بالاتجاه السيكوسوماتي (دنبار ، ١٩٥٤) ، وفي دراسات كوجهيل الأساسية في ترقى الجهاز العصبي وعلاقته بالسلوك (١٩٢٩) وتمثل أهم الطلائع الطبية للمفهوم العضوي في هيولنجز جاكسون ، اخصائي الأعصاب الانجليزي المرموق (١٩٣١) . ويعتبر جان سمعس رجل الدولة والجندى العظيم في جنوب أفريقيا أشهر المؤيدين للفلسفة للنظرية العضوية ، ولقد كان لكتابه الشهير « الكلية والتطور Holism and evolution (١٩٢٦) تأثير كبير . وقد صاغ سمعس كلمة كلية Holism من الاصل اليوناني Holos الذي يعني كاملا أو كليا . أما في علم النفس فقد تبني النظرية العضوية ج. ر. كانتور (١٩٢٤ ، ١٩٣٣ ، ١٩٤٧) ، و ر. ه. هويلر (١٩٤٠) انظر كذلك هيلجارد ، (١٩٤٨) وهاينز فيرنر (١٩٤٨) ، وجاردنر ميرق (انظر الفصل ١٣) . وكارل روجرز (انظر فصل ١٢) . ولقد استمدت النظرية العضوية مدداً من مقال جون ديوي التاريخي وهو مقال « مفهوم الفعل

المنعكس في علم النفس ، (١٨٩٦) . وقد ذكر جون ديوى كلاما من أرسطو وجوته وسبينوزا ووليام جيمس بوصفهم المصادر التي أنشقت منها النظرية العضوية . وبالرغم من أن جميع هؤلاء المؤلفين لم يقدموا نظريات عضوية مكتملة فإن أفكارهم تشير إلى هذا الاتجاه .

ويرتبط ارتباطا وثيقا بوجهة النظر العضوية الحركة الجشطالتيه التي بدأها فيرتمير وكوفكا وكوهلر وهم الذين قادوا في العام السابق على الحرب العالمية الأولى مباشرة تمردا على ذلك الضرب من التحليل العقلي الذي كان يقوم به آنذ فونت وتلامذته . وكانت هذه الحركة تمثل نوعا جديدا من التحليل للخبرة الشعورية . وإبتداء من المجال الإدراكي نُكل شرع هؤلاء المؤلفون في تمييزه إلى شكل وأرضية ثم درسوا كذلك خصائص كل من هذه المكونات وما بينها من تأثيرات متبادلة . أما في مجال التعلم فقد أحلوا مفهوم الاستبصار محل نظرية الترابط . فالشخص يتعلم عملا ما ككل له معناه ، وليس بطريقة جزئية . وبالرغم من أن علم النفس الجشطالتي كان له تأثير بالغ على الفكر الحديث ، ومن أن له بالتأكيد - موقفا وديا من النظرية العضوية ، فاننا لا نستطيع - على وجه الدقة - اعتباره علم نفس عضويا . والسبب في ذلك هو أن علم النفس الجشطالتي كما طوره فيرتمير وكوفكا وكوهلر قد اتجه إلى قصر انتباهه على ظواهر الفطنة الشعورية ، ولم يقل الا أقل القليل عن الكائن العضوي أو الشخصية ككل . ان النظرية العضوية قد استعارت الكثير من مفوماتها من علم النفس الجشطالتي ، كما أن الصلة بين وجهتي النظر ودية للغاية . ويمكننا اعتبار علم النفس العضوي امتدادا لمبادئ الجشطالت إلى الكائن العضوي ككل .

ان أبرز انصار النظرية العضوية الآن هو كورت جولد شتين ، أخصائي الطب النفسي والعصبي المشهور . ولقد كانت ملاحظاته ودراساته للجنود المصابين باصابات مخية في أثناء الحرب العالمية الأولى أكبر الأثر فيما وصل إليه من نتائج مؤداها أن أي عرض خاص يظهر على المريض لا يمكن فهمه بوصفه مجرد نتيجة إصابة عضوية معينة أو مرض ، بل يجب النظر إليه بوصفه تعبيرا عن الكائن العضوي بأسره . فالكائن العضوي يسلك دائما ككل واحد ، وليس أجزاء متميزة . ان العقل والجسم ليسا كيانين منفصلين ، كما أن العقل لا يتكون من ملكات أو عناصر مستقلة ، وكذلك الجسم لا يتكون من أعضاء وعمليات مستقلة . ان الكائن العضوي وحدة مفردة وما يحدث للجزء يؤثر في الكل . والاختصاصي النفسي يدرس الكائن العضوي من منظور واحد ، واختصاصي وظائف

الأعضاء يدوسه من منظور آخر إلا أن كلا الفرعين من فروع العلم عليهما أن يتماونا داخل إطار للنظرية العضوية ، لان أى واقعة سواء كانت نفسية أو عضوية تقع داخل نطاق الكائن العضوى الكلى ، الا اذا عزلت عزلا مصطنعا عن هذا السياق . ان قوانين الكل تحكم أداء هذه الاجزاء المتميزة من الكل ، لوظائفها . لذلك فانه من الضروري ان تكشف القوانين التى يؤدي وفقها الكائن العضوى الكلى وطاقفه حتى يمكن فهم كيفية أداء أى من الاعضاء المكونة للكل لوظائفه . وهذا هو الاساس القاعدى الذى تمتد عليه النظرية العضوية .

ويمكننا ان نلخص السمات الرئيسية للنظرية العضوية من حيث صلتها بسلوكولوجيا الشخص فيما يلى :

١ - تؤكد النظرية العضوية وحدة وتكامل وثبات وتماسك الشخصية انسوية . ان التنظيم هو الحالة الطبيعية للكائن العضوى . أما اختلال هذا التنظيم فشيء مرضى وعادة ما تؤدي اليه بيئة قاسية أو مهددة ، أو بدرجة أقل اشكالا من الشنوذ العضوى الداخلى .

٢ - تبدأ النظرية العضوية بالكائن العضوى كنسق منظم ، ومنه تشرع فى تحليله بايجاد الاجزاء التى تتمايز داخل الكلّ التى يتكون منها هذا الكل . ولا يحدث أن ينتزع جزء من هذه الأجزاء من الكل الذى ينتمى اليه ويدرس ككيان منفصل ، بل ينظر اليه دائما من حيث خاصيته كعضو فى الكيان العضوى الكلى . ويؤمن أصحاب النظرية العضوية باستحانة فهم الكل عن طريق دراسة أجزاء وقطاعات منفصلة ، ذلك أن الكل يؤدي وطاقفه على حسب قوانين لا يمكن استخلاصها من الأجزاء . وثمة شعور بأن وجهة النظر الذرية - الجزئية - تقع فى الحرج بصفة خاصة بعد أن يختزل الكائن الحى الى عناصره ، اذ تجد ضروريا أن تفترض وجود منظم ، يقوم بايجاد التكامل بين العناصر لتصبح كلا منظما . أما النظرية العضوية فلا تتطلب « منظما » ، ذلك أن التنظيم جزء من النظام ابتداء كما أنه لا يسمح بفقدان تكامل الكائن العضوى أو تدميره بالتحليل .

٣ - تقترض النظرية العضوية أن الفرد يحركه دافع واحد رئيسى ، وليس مجموعة من الدوافع ويطلق جولدمشتين على هذه القوة الدافعة الرئيسية اسم «تحقيق الذات» Self-actualization أو Self-realization ويعنى بها أن الانسان يحاول على الدوام تحقيق امكاناته الكامنة أو الاميلة بكل ما يحتاج له من طرق . ان هذه الوجدانية فى الفرض هى التى تحدد حياة الانسان اتجاهها وتمنحها وحدتها .

٤ - بالرغم من أن النظرية العضوية لا تنظر الى الفرد باعتباره نظاما مغلقا ، فانها تميل الى الاقلال من التأثير الأولى والتوجيهي للبيئة الخارجية على الارتقاء السوي ، والى تأكيد الامكانات الكامنة - أو الداخلية - عند الكائن العضوي للنمو . ان الكائن العضوي يختار تلك السمات من البيئة التي سيستجيب لها ، ولا تستطيع البيئة ، الا في ظروف نادرة وغير عادية . ان تفرض على الشخص سلوكا يتنافى وطبيعته . ان الكائن العضوي ان لم يستطع التحكم في البيئة ، فانه يحاول أن يكيف نفسه معها . وبصفة عامة ، ترى النظرية العضوية أنه اذا أتاحت لامكانات الكائن العضوي الفرصة لتتفتح بطريقة منظمة ، يفضل بيئة مواتية فان ذلك سوف يؤدي الى ظهور شخصية سليمة متكاملة ، وإن كان في مقدور قوى البيئة الخبيثة أن تدمر أو تعجز الشخص في أي لحظة . وليس ثمة ما هو «خبيث» في داخل الفرد وإنما هو يصبح «خبيثا» بسبب بيئة غير صالحة . وفي هذا الصدد تتفق النظرية العضوية في الكثير مع آراء الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو ، الذي كان يعتقد أن الانسان الطبيعي خير ، الا أنه كثيرا ما يصبح منحرفا بسبب بيئة لا تتيح للانسان الفرصة ليسلك و لينمو بما يتفق وطبيعته .

٥ - كثيرا ما تستفيد النظرية العضوية من مبادئ علم النفس الجشطالتي ، الا أنها ترى في اسراف الجشطالتيين في الاهتمام بالوظائف المنزلة للكائن العضوي ، كالادراك والتعلم مثلا مالا يسمح الا بقاعدة بالغة الضيق لفهم الكائن العضوي الكلي . لقد وسعت النظرية العضوية هذه القاعدة ، بأن أدخلت في نطاقها كل ما يتميز به الكائن العضوي أو يقوم به . وبالرغم من أن الكثير من مبادئ النظرية العضوية يذكرنا بليفين ، فان طوبولوجيا ليفين ذات طبيعة سيكولوجية خالصة لا تدخل في نطاقها الكائن العضوي البيولوجي بأسره .

٦ - ترى النظرية العضوية أن هناك الكثير الذي يمكن تعلمه عن طريق الدراسة الشاملة لشخص واحد ، بالقياس الى الدراسة الممتدة - لوظيفة سيكولوجية منفصلة تستخلص من عدد كبير من الافراد . ولهذا السبب نجد أن النظرية العضوية غالبا ما تكون أكثر انتشارا بين الاخصائيين النفسيين الاكلينيكين الذين يهتمون بالشكل ككل ، بالمقارنة بالاختصاصيين النفسيين التجريبيين ، الذين يهتمون أساسا بعمليات أو وظائف منفصلة كالادراك والتعلم .

وسنقدم في هذا الفصل عرضاً للنظرية العضوية كما طورها كورت جولدمشتين ، وبعضاً من الأمثلة النموذجية للبحوث التي أدت نظريته إليها ثم نتناول بعد ذلك صياغة أخرى هامة لوجهة النظر العضوية قدمها أندراس أنجيل ، تختلف في بعض الجوانب الأساسية عن صياغة جولدمشتين . كذلك سنعرض في إيجاز لشكلين آخرين للنظرية العضوية ، أحدهما لإبراهام مازلو ، والآخر لبرسكوت لسيكي .

نظرية جولدستين العضوية

تلقي كورت جولدمشتين دراسته في علم الأعصاب وفي الطب النفسي في ألمانيا واحتل مركزاً مرموقاً كأستاذ وعالم في الطب قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ بعد وصول النازيين إلى الحكم . وقد ولد في سيليزيا العليا ، التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من ألمانيا وهي الآن جزء من بولندا ، في السادس من نوفمبر عام ١٨٧٨ ، وحصل على إجازة الطب من جامعة برسلاو في سيليزيا السفلى عام ١٩٠٣ وقد عمل مساعداً لعدد من مشاهير علماء الطب عدة سنوات قبل أن يقبل منصب التدريس والبحث في المستشفى الطبي النفسي في كوينجسبرج Koenigsberg وقد قام خلال ثماني سنوات شغل فيها هذا المنصب بقدر كبير من البحث ، كما كتب الكثير من المقالات دعمت سمعته وأدت إلى تعيينه في السادسة والثلاثين من عمره أستاذاً للأعصاب والطب النفسي ومديراً لمعهد الأمراض العصبية بجامعة فرانكفورت . وقد أصبح خلال الحرب العالمية الأولى مديراً للمستشفى العسكري للإصابات المخية للجنود ، كما كان له الفضل في إنشاء معهد لبحوث الآثار التالية على الإصابات المخية والترتبة عليها . وفي هذا المعهد قام جولدمشتين بالدراسات الأساسية التي أرست أساس وجهة نظره العضوية ، وفي عام ١٩٠٣ ذهب إلى برلين ليعمل أستاذاً لكل الأمراض النفسية والعصبية في مستشفى موبيت Moebit غير أنه ترك هذه المناصب وذهب إلى أمستردام عام ١٩٢٢ ليتم أهم كتبه Der aufbau der Organismus وقد ترجم إلى الإنجليزية بعنوان The Organism عام ١٩٣٩ . وفي عام ١٩٢٥ ذهب إلى الولايات المتحدة وعمل لمدة عام واحد بمعهد الطب النفسي بنيويورك ، وأصبح بعد ذلك رئيساً لمعمل فسيولوجيا الأعصاب بمستشفى مونتيغيور بمدينة نيويورك وأستاذاً أكاديمياً

للأمراض العصبية بكلية الأطباء والجراحين في جامعة كولومبيا . وكان يحاضر في هذه الفترة في علم الأمراض النفسية في قسم علم النفس في جامعة كولومبيا ، كما دعى لالتقاء محاضرات وليام جيمس في جامعة هارفارد ، وقد نشرت تحت عنوان *Human Nature in the light of Psychopathology* (١٩٤٠) .

وكان خلال سنوات الحرب يعمل استاذًا اكلينيكيًا للأمراض العصبية في كلية طب تفتس Tufts بمدينة بوسطن . وقد نشر كتابًا عن الآثار المترتبة على الاصابات المخية في الحرب (١٩٤٢) وفي سنة ١٩٤٥ عاد جولد شستين الى مدينة نيويورك ليمارس في عيادته الخاصة الطب النفسى العصبى والعلاج النفسى . اما الآن فهو على اتصال بجامعة كولومبيا والمدرسة الحديثة للبحث الاجتماعى . اما أحدث كتبه فيتناول اللغة واضطراباتها (١٩٤٨) ، وهي مجال من المجالات التى قام بأبحاث فيها طوال حياته العملية . ولقد ازداد جولدشتين في السنوات الأخيرة اقترابًا من مجال علم النفس واتصالًا به ، وكان له تأثير واضح على تفكير الاحصائيين النفسيين .

كما يربط بينه وبين علم النفس الجشطالتي روابطًا وثيقًا وبخاصة عن طريق عمله مع جلب Gelb (١٩٢٠) في علاقات الشكل للأرضية في الإدراك البصرى ، وذلك بالرغم من أن جولدشتين لا يعتبر نفسه واحداً من الجشطالتيين ، كما أنه يعترض على بعض مبادئهم (الفصل ٨ ، ١٩٣٩) . اعتمدت هذه المادة البيوجرافية اعتمادًا كبيرًا على فرايمان (١٩٥٤ Freiman) .

بنه الكائن العضوى :

يتكون الكائن العضوى من اعضاء متميزة تتأزر فيما بينها ، ولا تنزل هذه الأعضا وتنفصل بعضها عن بعض الا فى ظروف غير عادية أو مصطنعة ، كالقلق البالغ مثلا .

والتنظيم الأولى لوظائف الكائن العضوى يتكون من الشكل والأرضية . والشكل هو أى عملية تبرز وتتمايز خارجة على أرضية وباستخدام اصطلاحات الإدراك ، هو ذلك الذى يشغل مركز الوعى الانتباهى . فمثلا ، عندما ينظر شخص الى شىء ما بالحجرة ، يصبح ادراك هذا الشىء هو الشكل فى مقابل أرضية هى بقية الحجرة اما من حيث

العمل ، فالشكل هو النشاط المستمر للكائن العضوى . فعندما ينشغل المرء بقراءة كتاب ، تصبح القراءة هي الشكل الذى يبرز متميزا عن غيره من ضروب النشاط الأخرى ، كعبث الشخص بشعره ، أو مضغه لقلبه ، أو سماعه لطنين الأصوات المتباعدة من حجرة مجاورة ، وتنفسه . ان الشكل يتميز بحدود محددة ، أو محيط يحيط به ويفصله عما يحيط به . أما الأرضية فمستمرة ، انها لا تحيط بالشكل فحسب ، وانما تمتد من خلفه . انها أشبه بالسجادة يوضع فوقها شيء ما ، أو السماء ترى على صفحاتها طائرة .

وقد يبرز عضو جزئى من أعضاء الكائن الحي كشكل فى مقابل الأرضية المكونة من الكائن العضوى بأسره ، ويظل مع ذلك محتفظا بعضويته فى البناء الكلى للكائن العضوى .

ولكن ، ما الذى يجعل الشكل يبرز من الأرضية الكلية للكائن العضوى ؟ ان الذى يحدده هو العمل الذى تقتضيه طبيعة الكائن العضوى فى هذا الوقت . فمثلا ، عندما يكون العمل الذى يواجه الكائن العضوى الجائع هو الحصول على الطعام ، فان أى عملية تساعد على الحصول على الطعام ترتفع الى مستوى الشكل . وقد تكون هذه العملية تذكر المكان الذى وجد فيه الطعام فيما مضى ، أو ادراكا لموضوعات الطعام فى البيئة ، أو أى نشاط يؤدى الى الطعام . ولكن ، لو أن الكائن العضوى تغير ، كان يصبح الشخص الجائع ، خائفا مثلا ، فان عملية جديدة تظهر كشكل يتناسب مع متطلبات مواجهة الخوف . ومن ثمة تظهر أشكال جديدة بتغير متطلبات الكائن العضوى وأعبائه .

ويفرق جولدمشتين بين الأشكال الطبيعية التى تمتزج وترتبط طبيعيا بالأرضية التى تتكون من الكائن العضوى الكلى ، والأشكال غير الطبيعية التى أصبحت منفصلة عن الكائن العضوى الكلى والتى انفصلت أرضيتها كذلك كجزء من الكائن العضوى الكلى .

وتحدث هذه الأشكال غير الطبيعية نتيجة أحداث صدمية ، أو تدريب متكرر فى ظروف عديمة المعنى بالنسبة للشخص . ويعتقد جولدمشتين أن كثيرا من التجارب السيكلوجية التى تخطط بقصد الدراسة المنعزلة للروابط بين المنبه والاستجابة ترتبط ارتباطا طفيفا أو لا ترتبط على الاطلاق بالسلوك الطبيعى للكائن العضوى ، ومن ثمة لا تمدنا الا بالقليل من المعلومات المفيدة عن القوانين التى تحكم الأداء الوظيفى للكائن العضوى .

ولكن بأى المعايير يمكننا التمييز بين الشكل الطبيعي المتزج بأرضيته والشكل غير الطبيعي المنفصل عنها . يقول جولدشتين أن الشكل يكون طبيعيا إذا مثل تفضيلا من جانب الشخص ، وإذا كان السلوك الذى يؤدى إليه منظما ومرنا ومناسبا للموقف . ويكون شكلا غير طبيعى إذا مثل عملا يفرض على الشخص ، وكان السلوك الناجم عنه جامدا وميكانيكيا . إن الشخص الفارق فى سبلات تنويم مغناطيسى عميق ويؤدى أفعالا مختلفة بإبحاء من النوم كثيرا ما يسلك سلوكا غير طبيعى ، ذلك أن سلوكه يكون منفصلا عن شخصيته السوية بفعل حالة الانفصال التى يكون عليها بسبب التنويم . إن هذه الأفعال لا تمثل أداؤه ، بل أداوات النوم ، وكثيرا ما تكون غير مناسبة على الإطلاق للموقف . أنه يكون أشبه بالآلة منه بالشخص . كذلك فالطفل الذى يلحن كلمات أغنية ما ويفنيها دون أن يعرف ما هذا الذى يفنيه ، يمثل ذلك الضرب من السلوك الآلى الذى يراه جولدشتين شكلا غير طبيعى .

وبالرغم من أن جولدشتين يؤكد الطبيعة المرنة اللدنة للعمليات الطبيعية بالقياس الى الطبيعة الجامدة للعمليات غير الطبيعية ، فإنه يعترف بأن النشاطات المفضلة قد تظل ثابتة نسبيا طوال الحياة دون أن تفقد علاقتها الوثيقة بالكائن العضوى الكلى . إن السمات والعادات لا تتسرب بالضرورة وتفقد صلتها بالصفوة الكلية التى تكون معطورة فيها محاطة بها . والحقيقة أن جولدشتين ينسب الى الكائن الحى كثيرا من الثوابت كالعقبات الحسية ، والأدوات الحركية والخواص العقلية والعوامل الانفعالية وما إليها . وهذه الثوابت ولادية وتعمل كموامل انتقائية للسلوك . ولكن الثوابت تصاغ وتأخذ شكلها بفعل الخبرة والتدريب الى حد معين بحيث تحمل مظاهرها العيانية دائما طابع الثقافة التى ينشأ فيها الشخص .

وبالرغم من أن جولدشتين لم يقل الكثير فيما يتعلق ببناء الكائن الحى عدا التفاضل بين الشكل والأرضية ، فإنه يبين أن هناك ثلاثة أنواع مختلفة من السلوك . وهى **الأدات** **Performances** وهى نشاطات ارادية يخبرها الفرد شعوريا ، و**الاتجاهات** **Attitudes** وهى مشاعر وحالات وجدانية وغيرهما من الخبرات الداخلية ، ثم **العمليات** **Processes** وهى وظائف جسمية لا يمكن خبرتها الا بصورة غير مباشرة (١٩٢٩ ، ص ٣٠٧) .

وثمة تفرقة نهائية أخرى لجولدشتين يستخدمها استخداما ضخما وهي تلك التفرقة بين السلوك العياني والسلوك التجريدي . ويقوم السلوك العياني على الاستجابة للمنبه بطريقة آلية ، واضحة أو مباشرة، على حين يقوم السلوك التجريدي على التصرف ازاء المنبه من جانب الكائن العضوى . فمثلا ، يدرك الشخص صيغة التنبيه في السلوك العياني ويستجيب له كما يبدو في تلك اللحظة ، على حين يفكر الشخص في حالة السلوك التجريدي في **نمط التنبيه** ، وفيما يعنيه ، وعلاقته بغيره من الصيغيات وكيف يمكن استخدامه ، وما هي خصائصه التصورية النهائية . والفرق بين السلوك العياني والسلوك التجريدي هو الفرق بين الاستجابة المباشرة للمنبه والاستجابة للمنبه بعد التفكير فيه . ويعتمد هذان النمطان من السلوك على اتجاهات مقابلة نحو العالم ، وهو ما سنناقشه في الجزء الخاص بالبحوث المميزة ومناهج البحث .

ديناميات الكائن الحي

ان المفومات الدينامية الأساسية التي قدمها جولدشتين هي :

- (1) عملية التعادل Equalization او مركزة الكائن الحي .
- (2) تحقيق الذات Self-actualization
- (3) الالتقاء بالبيئة او الاتفاق معها Coming to terms

التعادل :

يفترض جولدشتين وجود قدر من الطاقة الثابتة - بمقدار - يعيل الى التوزيع بالتساوى داخل الكائن الحي . وهذا القدر الثابت الموزع بالتساوى يمثل الحالة « المتوسطة » للتوتر داخل الكائن ، والى هذه الحالة المتوسطة يعود الكائن الحي دائما او يحاول العودة عقب التنبيه الذى يغير من التوتر . وهذه العودة الى الحالة « المتوسطة » هي عملية التعادل . فمثلا ، يسمع الشخص صوتا آتيا عن يمينه فيحول رأسه فى هذا الاتجاه . وتحويل الرأس هذا يعادل توزيع الطاقة داخل النظام ، الذى فقد توازنه بفعل الصوت .

وتناول الطعام عند الجوع ، والراحة عند التعب ، ومد الأعضاء
عندما تنقص جميعها أمثلة أخرى مألوفة لعملية التعادل .

ان هدف الشخص السوي الصحيح هو ببساطة ليس تفريغ التوتر
وانما معادلته ويمثل المستوى الذي يصبح التوتر عنده متساويا تمرکز
السكانن الحى . وهذا المركز أو خط بليمسول Plimsol يمكن الكائن
الحى من أداء عمله بأكبر كفاءة في مواجهة البيئة وفي تحقيق ذاته في
نشاطات تالية على حسب طبيعته . والتمركز التام أو التوازن الكامل حالة
كلية مثالية ، ويبدو أنه نادرا ما يتحقق .

ويوضح لنا مبدأ التعادل ثبات السلوك وانتظامه بالرغم من المنبهات
المثيرة للاضطراب . ولا يعتقد جولدشتين ان مصادر الاضطراب أساسا
من داخل الكائن العضوى ، الا في ظروف شاذة وبمحصية من شأنها ان
تؤدى الى العزلة والصراع الداخلى . اما في البيئة المناسبة فان الكائن
العضوى يستطيع دائما أن يظل متوازنا الى حد معقول . واعادة توزيع
الطاقة وانعدام التوازن في النظام ينتج من تدخل البيئة ، وحيانا من
صراع داخلى . ونتيجة التضج والخبرة أن تنمو لدى الشخص طرق
مفضلة في السلوك توقف التدخلات والصراعات عند ادنى حد ممكن ،
وتبقى على توازن الكائن العضوى . وتصبح حياة الفرد أكثر تمرکز
وأقل تعرضا للتغيرات العارضة في العالم الخارجى والداخلى ، مع تقدمه
في السن .

تحقيق الذات :

هذا هو الدافع الرئيسى عند جولدشتين . بل الحقيقة أنه الدافع
الوحيد لدى الكائن العضوى . وما يبدو أنه محركات مختلفة كالجوع
والجنس والقوة والانجاز والميل الى الاستطلاع ليس الا مظاهر لفرض
اسمى للحياة ، هو تحقيق المرء لذاته . فعندما يكون الشخص خائفا فانه
يحقق ذاته بتناول الطعام ، وعندما يتطلع الى القوة فانه يحقق ذاته
بامتلاك القوة ويحصل اشباع اى حاجة نوعية المقام الأول عندما تكون
شرطا لتحقيق الذات للكائن العضوى بأسره . وتحقيق الذات هو الاتجاه
الغالب في الطبيعة الانسانية . انه المبدأ العضوى الذى به يصحج
نمو الكائن العضوى أكثر تحققا واكتمالا . فالشخص الجاهل الذى
يرغب في المعرفة يحس بفراغ داخلى ، ويلزمه احساس داخلى وخاص
بعدم الاكتمال .

وبالقراءة والدراسة تتحقق رغبته في المعرفة ويختفي الشعور بالخواء . لقد خلق شخص جديد اذن ، شخص حلت المعرفة لديه محل الجهل . لقد أصبحت رغبته حقيقة . وأى حاجة هي حالة نقص أو افتقار تحرك الى التخلص من هذا النقص . أنها أشبه بشفرة تتردد ان تملأ . وهذا التخلص أو الاشباع للحاجة هو المقصود بتحقيق الذات . وبالرغم من أن تحقيق الذات ظاهرة عامة في الطبيعة ، فان الغايات النوعية التي يحاول الناس تحقيقها تختلف من شخص لآخر . والسبب في ذلك اختلاف الامكانيات الداخلية للبشر التي تشكل غاياتهم . وتوجه مسار نموهم وتطورهم الفردي كذلك اختلاف البيئات والثقافات التي يجب عليهم التوافق معها ، والتي يجب عليهم كذلك الحصول منها على ما يلزم من ضروريات للنمو .

كيف يمكن تحديد الامكانيات الفردية للشخص ؟ يرى جولدشتين ان ذلك يمكن أن يتم بالتوصل الى مايفضله الشخص وما يؤديه على خير وجه . ان تفضيلاته تشير الى امكانياته . ومعنى هذا أنه اذا أردنا أن نعرف ما الذي يحاول الشخص تحقيقه فان علينا أن نتعرف تماما . . على ما يرغب في عمله وما لديه موهبة في أدائه . فلاعب كرة البيزبول يحقق تلك الامكانيات التي تنمو بممارسة لعبة البيزبول ، كما يحقق المحامي تلك الامكانيات التي تحقق من خلال ممارسة القانون .

وبصفة عامة ، يؤكد جولدشتين الدوافع الشعورية أكثر من تأكيده الدوافع اللاشعورية . ان اللاشعور بالنسبة له هو الخلفية التي تترد اليها المادة الشعورية عندما تصبح غير ذات قيمة لتحقيق الذات « ان جميع الخصائص المميزة التي يملدها فرويد كسمات للاشعور تقابل كلية التفسير الذي يطرا على السلوك العادي عند العزلة بسبب المرض » (١٩٢٩ ، ص ٣٢٣) .

الارتقاء بالبيئة والانتقال منها :

بالرغم من أن جولدشتين ، بوصفه صاحب نظرية عضوية ، يؤكد المحددات الداخلية للسلوك ومبدأ أن الكائن العضوي - يجد البيئة التي أكثر مناسبة لتحقيق الذات ، فإنه لا يأخذ الموقف المتطرف الذي يرى الكائن العضوي محصنا ضد ما يدور في العالم من أحداث . فهو يعترف بأهمية العالم الموضوعي كمصدر للاضطراب الذي يجب على الفرد مواجهته ، وكمصدر للاحتياجات التي يحقق بواسطتها الكائن العضوي غايته ، معاً . أي أن البيئة تفرض نفسها على الكائن العضوي بتنبهه

أو بالأسراف في تنبيهه ، حتى يضطرب التوازن العضوى هذا على حين من ناحية أخرى ينتقب هذا الكائن العضوى المضطرب التوازن عن جوانب من البيئة بحثا عن حاجاته حتى يعادل التوتر الداخلى . بعبارة أخرى ، هناك تفاعل بين الكائن العضوى والبيئة .

وعلى الشخص ان يتوافق مع البيئة لسببين ، لانا تمده بالوسائل التى تمكنه من تحقيق ذاتها ولائها تحتوى على العوائق والعقبات فى شكل تهديدات وضغوط تعوق تحقيق الذات . وقد يكون تهديد البيئة أحيانا من الشدة ، بحيث يتجمد سلوك الشخص بفعل الحصر ويصبح عاجزا عن احرار أى تقدم نحو الهدف . وقد يتعوق تحقيق الذات - فى اوقات أخرى - لافتقار البيئة لتلك الموضوعات والشروط اللازمة لهذا التحقيق .

ويذكر لنا جولدشتين ان الكائن العضوى السوى الصحيح هو ذلك الذى « ينشط لديه الميل الى تحقيق الذات من الداخل ويتغلب على الاضطراب الناشئ من الاصطدام بالعالم ، لا تنحية للقلق بل استمتاعا بهذا الانتصار » (١٩٣٩ ، ص ٣٠٥) . ان هذا القول المؤثر يوحى لنا بأن التوافق مع البيئة يقوم أساسا على السيطرة عليها . واذا لم يكن ذلك ممكنا فان على الشخص قبول الصعوبات وان يكيف نفسه بقدر ما يمكن لحقائق العالم الخارجى الواقعية . فاذا كان التناقض بين اهداف الكائن العضوى وحقائق البيئة كبيرا للغاية فاما ان ينهار الكائن العضوى أو ان يتنازل عن بعض من أهدافه محاولا تحقيق ذاته على مستوى أدنى من الوجود .

لقد قدم جولدشتين ملخصا موجزا لآرائه حول تنظيم وديناميات الكائن العضوى فى الفقرة التالية :

«ان هناك تفسيرا مستمرا بالنسبة لذلك «الجزء» من الكائن العضوى الذى يحتل الشكل أو المقدمة ، وذلك الذى يحتل الخلفية . ان الشكل يحدد الهدف الذى ينبغى على الكائن العضوى تحقيقه فى لحظة محددة . اعنى الموقف الذى يجد الكائن العضوى نفسه فيه ، والمطالب التى يجب عليه مجابتهها .

وتحدد الأهداف طبيعة الكائن العضوى ، أى « جوهره » الذى يتحقق خلال تغييرات البيئة التى تؤثر عليه . والتعبيرات عن هذا التحقيق هى أهداف الكائن العضوى . فمن طريقها يستطيع الكائن مواجهة مطالب البيئة المختلفة وتحقيق ذاته . ان امكان تأكيد الكائن لذاته فى الصالم مع الإبقاء على طابعه يعتمد على طريقة الكائن الحى النوعية فى التوافق مع

بيئته • ويحدث هذا بطريقة من شأنها أن يتعادل كل تغير يطرأ على الكائن العضوى بسبب المنبهات البيئية ، بعد وقت معين ، وبذلك يستعيد الكائن العضوى تلك الحالة « المتوسطة » التى تتفق وطبيعته والتى هى « مناسبة » له . وعندما يكون الأمر على هذه الصورة ، فحسب ، يمكن أن تؤدي نفس وقائع البيئة الى ذات التغييرات ، والى ذات التأثيرات والى ذات الحيرتات • وفى هذه الظروف فقط لا يمكن للكائن العضوى المحافظة على ثباته وهويته • أما اذا لم يحدث هذا التعادل نحو الحالة المتوسطة أو المناسبة ، فان وقائع البيئة تؤدي اذ ذاك الى تغيرات مخالفة فى الكائن العضوى • اذ ذاك تفقد البيئة ثباتها بالنسبة للكائن : لعضوى ، وتتغير باستمرار • ويصبح مستحيلا أن ينظم مسار الأداءات • بل يصبح الكائن العضوى فى حالة من عدم الهدوء مرضا فى وجوده للخطر ، كما يصبح بالفعل وبصورة مستمرة كائنا عضويا « آخر » • على أن الأمر حقيقة لا يكون كذلك • بل على العكس يمكننا أن نلاحظ أن اداءات الكائن العضوى تبين ثباتا نسبيا عظيما ، يتذبذب حول متوسط ثابت • ولو لم يكن هذا الثبات النسبى موجودا ما أصبح من الممكن حتى التعرف على الكائن العضوى فى حد ذاته ، ولما أصبح ممكنا حتى الحديث عن كائن عضوى بعينه ، (١٩٣٩ ص ١١١ - ١١٢) •

نمو الكائن العضوى

بالرغم من أن مفهوم تحقيق الذات يوحى بأن هناك أنماطا أو مراحل من الارتقاء يتقدم الشخص عبرها ، فانه لا يوجد لدى جولدشتين الكثير ليقوله فيما يتعلق بمسار النمو ، عدا بعض عموميات تتعلق بأن السلوك يصبح أكثر نظاما واستقرارا ، وأكثر مناسبة للبيئة مع تقدم الشخص فى السن • ويشير جولدشتين الى أن ثمة مهام خاصة بمستويات معينة من العمر ، الا أنه لا يعين ما هى هذه المهام ؟ وهل كانت واحدة عند جميع الأفراد ؟ كذلك يشير ضمينا الى أهمية الوراثة لكنه لا يحدد بصورة واضحة مبلغ اسهامها • كما أن جولدشتين لا يقدم نظرية للتعلم • انه يتحدث عن « إعادة تنظيم » الأنماط القديمة الى أنماط جديدة وأكثر فاعلية، وعن « كبت الاتجاهات والبواعث التى تتعارض مع ارتقاء الشخصية

ككل » ، وعن اكتساب الطرق المفضلة في السلوك ، وخروج الشكل من الخفية وتثبيت أنماط السلوك بسبب المنبهات الصمعية أو الممارسة المتكررة للمنبهات الموزولة ، وعن التفيرات التوافقية ، والتكوينات البديلة إلا أن هذه الأفكار لم تجمع في نظرية منظمة للتعليم .

إن جولدمشتين يقول أنه إذا تعرض الطفل لمواقف يستطيع مواجهتها فإنه ينمو نموا سويا عن طريق النضج والتدريب . وعندما تظهر مشاكل جديدة فإنه يكون أنماطا جديدة لمواجهتها . إن الاستجابات التي لم تعد ذات فائدة لهـدف تحقيق الذات تـذبل . ولكن إذا كانت ظروف البيئة باللغة الصعوبة بالنسبة لامكانات الطفل فإنه ينمي استجابات لا تتساق ومبدأ تحقيق الذات . وفي هذه الحالة تميل العملية إلى أن تصبح منعزلة عن نـط حياة الشخص . وانـمزال عملية ما هو الشرط الأساسي لنمو الحالات المرضية . فالإنسان ، مثلا ليس بحكم طبيعته عدوانيا أو مستسلما لكنه لكي يحقق طبيعته يجد أن عليه أن يكون عدوانيا أحيانا ومستسلما أحيانا أخرى ، ويتوقف ذلك على الظروف . ولكن ما إن تثبت عادة قوية وتكون سواء كانت عدوانية أو مستسلمة فإنها تميل إلى أن تكون ذات تأثير ضار على الشخصية لتأكيدهما لذاتها في أوقات غير مناسبة وبطرق منافية لمصالح الشخص ككل .

البحوث المميزة وطرق البحث :

تدرب كورت جولدمشتين ، بوصفه باحثا على الطب وممارس تخصصه الطبى العصبى النفسى ، وقضى حياته الطويلة المحصبة بدرس الأعراض وأنماط السلوك ، لا كوقائع منفصلة ، وإنما كأرجاع مطورة في ثنايا الكائن الحى الكلى ومعبرة عنه . فالعرض بالنسبة لجولدمشتين ليس ببساطة اعرابا عن تفيرات تطرا على وظيفة أو تركيب معين فى الكائن العضوى ، بلا يجب اعتباره كذلك شكلا من أشكال التوافق من جانب شخص مريض أو به عطب أو عيب . وفى دراسته للحبسة الصوتية (الأناثيا) أو اضطرابات اللغة ، على سبيل المثال ، يرفض النظرية القائلة أن الحبسة الصوتية نتيجة إصابة فى منطقة معينة من المخ ، وينـذهب بدلا من ذلك إلى أنه طالما «إن اللغة وسيلة الرد للتوافق مع العالم الخارجى وتحقيق ذاته»

(١٩٤٨ ، ص ٢٣) فان هذا يعنى « ان الاء اللفظى للفرد لا يمكن فهمه الا من زاوية علاقته بوظيفة الكائن الحى الكلى فى محاولته لتحقيق ذاته بقدر المستطاع فى موقف معين » (١٩٤٨ ، ص ٢١) .

معنى الأعراض :

يفرق جولدشتين - جصدد دراساته للاضطرابات اللغوية - بين أربع مجموعات من الأعراض على حسب أصولها . وهى :

- ١ - الأعراض المباشرة .
- ٢ - الأعراض غير المباشرة أو التابعة .
- ٣ - أعراض ناتجة عن ظروف الية وميكانيزمات وقائية من الظروف الأولية .
- ٤ - أعراض ترجع الى التعب والقصور الذاتى .

والأعراض المباشرة هى تلك الناتجة عن الانحلال المنتظم للوظائف المعنية . ويطلق جولدشتين على هذا الانحلال اصطلاح « زوال التفاضل » dedifferentiation ذلك أنه يمثل تكوصا فى النمو الى حالة مبكرة أقل تفضلا للكائن العضوى . مثال ذلك أن اصابة القشرة المخية بسبب ارتفاع عتبات الأعضاء الحسية ، ولذلك يستجيب المرضى المصابون فى المنح للمنبهات ببطء . والشخص الذى يخفق فى أداء عمل يقدم له بسرعة قد ينجح عندما يجرى - هذا العمل - بمعدل أبطأ . والمرضى المصابون فى المنح أكثر قابلية للتشتت لأن الظروف الخارجية تلعب دورا أكبر بكثير فى تحديد سلوكهم بالقياس الى الأسوياء من الناس .

لذلك قد تنشأ أعراضهم عن عدم القدرة على التركيز وليس بسبب أى نمط معين من الاصابة المخية . كذلك تتداخل الحدود الفاصلة بين الشكل والأرضية بحيث يصبح أكثر صعوبة على المصاب فى مخه أن يميز تميزا صحيحا بين موضوعات البيئسة والكلمات بدلا من أن تبرز كأنماط تميل الى الامتزاج بالأرضية . وأخيرا ، ثمة عطب يصيب الاتجاه التجريدى وهو العطب الذى يحمله جولدشتين مسئولية الكثير من الأعراض التى تتميز بها حالات الاصابات المخية . والاتجاه التجريدى مطلوب للقيام بأى نوع من أنواع التفكير التجريدى أو التصور الذهنى وهو نمط من

التفكير لازم بصفة خاصة للسلوك اللغوى . والشخص يترد الى الاتجاه العياني الأكثر بدائية حيث يرتبط بالخصائص الموضوعية لموضوعات التنبيه دون القدرة على تجاوزها والتعالى عنها .

وبالإضافة الى نط الأعراض المباشرة التي تنتج عن زوال التفاضل للوظائف ، توجد أعراض أخرى ناتجة عن عزل المنطقة غير المصابة من المخ عن المنطقة المصابة والتي كانت وثيقة الاتصال بها فيما مضى . وفى حالتى زوال التفاضل والانزعال يعتمد ظهور الأعراض على تعديل عام للكائن الكلى ، أو على الأقل على تغير يطرأ على مناطق واسعة فى المجال اللحائى وليس على اصابات ضيقة محدودة .

وتنتج طبقة ثانية من الأعراض بتأثير التغيرات فى المنطقة الثالثة على مناطق أخرى من الجهاز العصبى فالجزء المصاب يحدث اضطرابا فى وظيفة أى جزء آخر من الجهاز العصبى يكون له علاقة وظيفية أو تابعة . ويشير جولدشتين الى حقيقة جدية بأكثر الاهتمام ، فالدمار التام لوحدة وظيفية ، كالأبصار قد يكون ما يحدثه من اضطراب فى الأداء الوظيفى للكائن العضوى الكلى أقل مما يحدثه للدمار الجزئى . وسبب ذلك أن الشخص الكفيف تماما يضطر الى الاعتماد على حواسه الأخرى على حين يحاول دوما الشخص المصاب بعصى جزئى ، التوافق مع البيئة بوساطة جهاز حسى غير سليم مما يؤدى الى تأثر أدائه الكلى عادة .

ان أجدر الأعراض بالاهتمام ، من وجهة نظر علم النفس ، تلك التي تنشأ عن ميل الكائن العضوى الى تجنب الفشل . وبلاحظ جولدشتين فى هذا الصدد أن العرض عادة ما يكون حالة متباينة . فقد يستطيع المريض أحيانا أداء عمل ذهنى ، وربما لا يستطيع أحيانا أخرى . وكثيرا ما يوجد سبب هذا التباين فى اتجاه المريض نحو قدرته على أداء العمل بنجاح . فاذا شعر أنه عاجز عن حل مشكلة رياضية بسيطة ، فانه ربما لايقوم حتى بمجرد المحاولة لأنه لا يريد أن يخفق . وفى مناسبة أخرى قد يقبل على مشكلة مماثلة فى ثقة ويؤديها بنجاح . ويذكرنا جولدشتين بأن الشخص المصاب أكثر حساسية نحو قدراته بالقياس الى الشخص العادى ، وأن الحاجة الى تجنب الفشل لديه أكبر . ونظرا لأن حالة عجزه تجعل الفشل أكثر احتمالا ، فإن الشخص المريض يجتنب الى الانسحاب ، من المواقف التي قد يكون قادرا على التوافق معها بصورة مقبولة اذا ما قام بمحاولة فى هذا الصدد . ان بيئة المصاب باصابة مخية أو مجال حياته تجعله يميل الى الانكماش كما أنه يميل الى تنمية نط من الوجود الروتينى فى بيئته المنكشمة .

وأخيرا ، هناك أعراض تنتج عن التنب والقصور الذاتى • ولا يرتبط التنب ببساطة بكمية ما يؤدي من عمل ، ولكن من المحتمل أن يظهر كذلك عندما يبدو أن العمل المطلوب فوق قدرة المريض بعبارة أخرى يستخدم التعب كضرب من الدفاع الوقائى يتيح للمريض الهروب من الموقف القاسى • أما القصور الذاتى ، أو الميل الى تكرار آراءه يستطيع المريض القيام به ، فهو وسيلة أخرى يستطيع الشخص أن يتجنب بها ظروفًا اليمّة •

دراسات حالات الاصابات المخية :

بدأ جولدشتين ملاحظاته على الجنود الذين أصيبوا بجروح فى رؤوسهم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقام بالعديد من البحوث على آثار الإصابة على المخ • وقد جمعت هذه الدراسات ، التى نشر معظمها بالامانية وحصت فى كتاب باسم « الآثار التالية على الاصابات المخية فى الحرب »
After-effects of brain injuries in war (١٩٤٢)

ويقوم هذا الكتاب على ملاحظة قرابة ألفى المريض ، شوهد بعضهم بصورة أو بأخرى ، قرابة عشر سنوات مستمرة • ويقوم – هذا الكتاب – عرضا للاعراض العصبية والنفسية لدى المرضى الذين يعانون من اصابات مخية ، وللمناهج المستخدمة فى اختبار الوظائف النفسية وعلاج هذا النمط من المرضى • ويتخذ جولدشتين فى هذا الكتاب ، وفى غيره من كتاباته المنشورة ، وجهة نظر عضوية ثابتة ، يلقى بها الضوء على سلوك المرضى المصابين مخيا ويفسر هذا السلوك فعلى سبيل المثال ، من السمات البارزة بين سلوك هؤلاء المرضى نظامهم ودقة ترتيبهم فهم ينفقون قدرا كبيرا من الوقت فى ترتيب ممتلكاتهم وتنظيمها والتيقن من أن كل شىء على ما يرام • وهم مرضى مثاليون فى المستشفى ذلك أنهم يتكيفون بسرعة للنشاطات الروتينية ويستترقون بسهولة فى الأعمال المنزلية • وقد وجد جولدشتين أن هذا السلوك عرض ناتج عن عجزهم • فهؤلاء المرضى إذ يوجهون كل اهتمامهم للأعمال الروتينية ، يصبحون قادرين على تجنب المواقف غير المألوفة أو غير المتوقعة • وقد يكون لمثل هذه المواقف تأثير اليم على سلوك المريض • بعبارة أخرى ، ان نظامهم الروتينى تصير عن نضال الشخصية المتغيرة فى واجهة العجز وذلك بتجنب المواقف التى لم يعد ممكنا السيطرة عليها أو التوافق معها • والحقيقة أن كثيرا من

سلوك المصاب المخى ذو طبيعة تعويضية ، يتيح له التوافق مع العالم على أحسن وجه ممكن فى ظل هذه الظروف .

ولقد لاحظ جولدمشتين قدرة الكائن العضوى الشديدة على العودة الى ما كان عليه والتكيف السريع لى تلف موضعى طالما كان الشخص يحس أنه قادر على التوافق مع بيئته وأنه لم يفقد التوازن بفعل ضغوط غير مواتية من العالم الخارجى . وقد كان أحد المرضى عاجزا عن التعرف البصرى حتى على أبسط الأشكال ومع هذا فقد تعلم القراءة . وقد استطاع أن يفرق بين الأبيض والأسود وبذا يمكن عن طريق تتبع الحد الفاصل بين النقاط السوداء للحروف والمناطق البيضاء للخلفية ، ان يتعرف على الكلمات وأن يقرأها . فقد حلت الصور الحركية الناتجة عن التتبع الحركى للنقاط السوداء محل الصور البصرية . ولقد تم هذا الابدال لا شعوريا ولم يعرف المريض كيف فعل ذلك . ففى هذه الحالة ، كما فى حالات أخرى كثيرة يلعب الدافع دورا كبيرا فالمرضى يبذل الجهد ليحقق ذاته بقدر ما يمكن فى البيئة اذا كان هناك بعض الحافز للقيام بذلك .

ان وجهة النظر العضوية فيما يتعلق بالأعراض لها مفرزاها العليل كما أن لها مفرزاها النظرى . فعند اختبار المرضى المصابين مخيا على سبيل المثال ، يصبح أساسيا استخدام الاختبارات وتطبيقها بطريقة تكشف ما طرأ على قدرات المريض من تعديلات هى نتيجة مباشرة للاصابة ، ويميز هذه الأعراض عن تلك التى تنشأ كأرجاع ثانوية لهذه الاصابة . وثمة سبب هام لعمل هذه التفرقة ، وهو أن نوع التدريب والعلاج الذى يستخدم يعتمد على معرفة تلك الأعراض التى يمكن علاجها بصورة مباشرة ، بدرجة أو بأخرى ، وتلك التى يجب تغييرها بالتعامل مع الشخصية ككل وقد يتحسن عجز بصرى فى احدى الحالات بواسطة تدريب نوعى للوظيفة البصرية على حين قد يمكن ازالة عجز بصرى مظهرى ، فى حالة أخرى بوسائل تزيد من ثقة المريض فى نفسه .

كذلك يتطلب التحليل الدقيق لمعنى الأعراض دراسة متعمقة لجميع جوانب الأداء الوظيفى لدى الشخص . ولا يكفى التطبيق المعتاد لبطارية من الاختبارات على المريض تعطى مجموعة من التقديرات الرقمية أو الزائد والنقص . فالمتحيز يجب أن يكون يقظا للسمات الكيفية لأداء المريض منتبها كذلك لأبسط الهاديات التى قد تلقى ضوءا على سلوكه . ويجب عليه الا يعتمد كلية لفهم المريض على الاختبارات التشخيصية ، على ما لها

من قيمة • بل عليه كذلك أن يلاحظ المريض في حياته اليومية في ظروف طبيعية بقدر ما يمكن ، ذلك أن نجاح المريض وإخفاقه في مواجهة المشاكل العامة للحياة اليومية هي الاختبارات النهائية لقدراته • وهذا هو السبب في تفضيل جولدشتين الدراسة المتعمقة لحالة واحدة لفترة من الوقت طويلة نسبياً •

دراسة الحالات الفردية :

تمثل الدراسة المتعمقة لشخص واحد في حالة رجل متوسط العمر أصيب بإصابة متخية ولاحظه جولدشتين وزملاؤه (هانفمان ، ريكز أفزياتكيننا ، جولدشتين ١٩٤٤) لفترة دامت عدة سنوات • وقد أقام هذا الرجل في مؤسسة حيث لوحظ وسجل سلوكه اليومي وكذلك أداؤه للاختبارات المقننة والمواقف الاختبار • وقد استطاع هذا الرجل معرفة طريقه داخل المستشفى بدرجة طيبة ، إلا أن قدرته اعتمدت على تعرفه على الموضوعات العيانية الواضحة ، وليس على أي أطر مرجعية معممة ، مثال ذلك ، أنه كان يعرف حجرة الاختبار لأنها على عكس الحجرات الأخرى ، ذات ثلاث نوافذ • ولكنه مع ذلك ، كان يفتح عددا من الأبواب قبل أن يستطيع العثور على ضالته إذ لم يكن لديه التوجيه الخاص الذي يمكنه من معرفة مكان الحجرة ذات النوافذ الثلاث • لقد تعلم أن يتبع المرضى الآخرين إلى المحل الذي يعمل به وإلى قاعة الطعام ، ولكن إذا حدث وانفصل عنهم ضل سبيله • ولقد كان في استطاعته معرفة حجرة نومه لأنه ربط خيطا في عامود السرير • وقد يعتقد من يراقبه أنه قادر على معرفة الاتجاه والزمان ، إلا أن معرفة أوثق بسلوكه كقيلة - باظهار العكس •

وهو عادة اجتماعي وودود عندما يكون بصحبة الآخرين ، ولكنه لم يكون أي ارتباط ثابت من أي نوع مع شخص آخر • وسبب ذلك أنه لم يكن ليستطيع أن يتذكر أو يتعرف على نفس الشخص من يوم إلى آخر • لقد كشف التحليل الدقيق لسلوكه الكلي أن عجزه عن تكوين علاقات ثابتة بالآخرين وعن أن يكون جزءا دائما من جماعة ، كان يرجع إلى افتقاره إلى معرفة الخصائص التي يمكن تذكرها ، وليس إلى عزوفه عن العلاقات الاجتماعية ، أو رغبة في تجنب الصلات الوثيقة بشخص آخر •

ولقد كان يجد صعوبة بالغة في الانصات الى شخص يقرأ او يروي قصة ، لا لانه كان مشتت الانتباه ولا لانه كان يفتقر الى القدرة على الفهم ، ولكن لانه كان لا يستطيع التفرقة بين الواقع والخيال . ناذما بدأ احدهم القصة قائلا « كان صبي صغير » ، فانه يشرع في النظر فيما حوله بحثا عن الصبي وعندما لا يجده يبدو عليه الضيق الواضح . فكل شيء كان يخبره كان يبدو له قائما هنا الآن . انه لم يعجز فحسب عن التمييز بين الواقع والخيال ولكنه كان يعجز كذلك عن فهم المقصود بالماضي والحاضر والمستقبل .

ولقد حدث ذات مرة أن عرضت عليه صورة حيوان وطلب منه ذكر نوعه ، وعندما لم يستطع أن يقرر هل هي صورة جواد أو كلب ؟ تحدث مباشرة الى الصورة سائلا ، « هل أنت كلب ؟ » . وعندما لم تجبه الصورة انتابه الغضب الشديد . وعندما قدمت له امرأة نظر خلفها بحثا عن الشخص الذي رآه فيها ، وأثاره أنه لم يجد الشخص هناك . وقد يعتقد المرء الملاحظ العارض من ملاحظة سلوك المريض في مواقف مختلفة انه شديد القابلية للاستثارة وأنه غير مستقر انفعاليا ، على حين أنه في حقيقة الأمر شخص على قدر معقول من الوداعة ، وأن استثارته كانت نتيجة ظروف البيئة المهددة ، والتي لا تمثل للشخص العسادي أى تهديد على الاطلاق . والانسان عندما لا يمتلك أى أطر مرجعية ثابتة يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بالزمان والمكان والحقيقة والخيال ، والموضوع والذات ، فان العالم يصبح مكانا لا يمكن التنبؤ به ، كما يصبح مصدرا للاحباط الشديد .

وبالرغم من أن المريض لم يستطع فهم مبدأ المرأة عندما عرضت عليه وحدها ، فان سلوكه كان طبيعيا عندما قدم اليه مشط مع المرأة ، اذ تناول المشط ونظر الى المرأة ، وشرع في تمشيط شعره بطريقة طبيعية تماما . ويوضح هذا السلوك أنه لا يوجد لديه التصور الذهني المجرد للمرأة في ذاتها ، الا أنه يعرف كيف يستخدمها في أداء عمل عياني . وثمة مثال آخر لنفس هذا النمط من السلوك ، هو فضله في التفرقة بين الكرة والبيضة ، حتى اكتشف عن طريق تجربتهما أن الكرة قابلة للنفث بينما البيضة قابلة للكسر والاكل . انه ليس لديه مفهوم مجرد للبيضة وللكرة . والحقيقة أن قدرته على السلوك المجرد لاتكاد تكون موجودة على الاطلاق تقريبا ، وهذا العجز في الاتجاه المجرد هو ما يفسر الكثير من سلوكه غير المألوف .

كذلك درست حالة أخرى دراسة متعمقة بوساطة طريقة نظرية الكائن العضوي لصبي في الحادية عشرة من عمره ، ممن يطلق عليهم « المتوه العالم » idiot savant (شير ، رونمان ، جولدشتين ، ١٩٤٥) .

فبالرغم من نقصه العقل الحطير في بعض الجوانب ، فإن هذا الصبي كان يستطيع القيام بعمليات حسابية محيرة . فقد كان باستطاعته إذا ما ذكر له تاريخ ميلاد شخص ما أن يذكر بسرعة في أى أيام الأسبوع يوجد هذا التاريخ في أى سنة تحدد له . وكذلك اعتبر عبقرية موسيقية لاستطاعته عزف أى قطعة يسمعها على البيانو . والحقيقة أن التحليل الدقيق لسلوكه يكشف أن حساباته الحافظة وأداءه الموسيقى كانا مجرد انتاج ميكانيكى . ولم يكونا يتسمان بأى شيء خلاق ، فقد وهبت له قدرة فطرية على العد واستخدام الأذن ، فركز كل طاقاته في تحقيق هذين الامكانين وقد تعلم وهو صبي صغير جدا أن هذه طرق مشبعة للتوافق مع العالم وبنا أصبحت أدائه المفضلة . ولم يكن لديه - عمليا - أى قدرة على التعامل بالرموز المجردة والمفاهيم الذهنية والكلمات والأشكال والتجريدات الأخرى . كما لم تكن لعلاقاته الاجتماعية عمليا أى وجود ، وإن كان قد تعلم أن يقول الكلمات المهذبة بطريقة آلية . إن عجزه بمختلف صورته ينجم عن عجز في الاتجاه المجرد . وبين المؤلفون أن « مفهوم الاتجاه المجرد يجب استخدامه كإطار مرجعى منهجى .. للفهم هذه الأعراض من وجهة نظر موحدة » (ص ٢٩) .

السلوك المجرد في مقابل السلوك العياني :

لقد قام جولدشتين بأهم دراساته السيكلوجية على السلوك المجرد والعياني . فقد طور هو وزملاؤه عددا من الاختبارات لتشخيص مقدار العجز في الاتجاه المجرد (جولدشتين وشير ، ١٩٤١ ، ١٩٥٣) وتستخدم هذه الاختبارات على نطاق واسع في الممارسة الاكلينيكية وبخاصة في تقدير وجود الإصابة المخية ومقدارها . ويبحث جولدشتين بشدة الفاحص الذى يستخدم هذه الاختبارات الا يقتصر على الجمع الميكانيكى لعدد مرات النجاح والفشل بل أن يلاحظ الجوانب الكيفية من سلوك المرضى أثناء الاختبار كذلك . ويعتقد جولدشتين أن هذه السمات الكيفية قد تكون أكثر توضيحا من التقديرات الرقمية التى يحصل عليها المرضى .

ويكشف التحليل التفصيلي لمجز الاتجاه المجرد الناتج عن اصمابة
الفصوص الجبهية عن جوانب النص التالية :

١ - يميز المريض عن فصل العالم الخارجي عن الخبرة الداخلية
فمثلا ، لا يمكن جعل المريض باصمابة مخيبة يكرر الجملة التالية :
« الشمس مشرقة » عندما يكون المطر منهمرا في الخارج .

٢ - لا يستطيع التأهب للقيام بعمل شيء ما عن ارادة ووعي .
فعندما يطلب منه أن يجمل عقربى الساعة يشيران الى وقت معين ، فانه
لا يستطيع ذلك ، وان كان يستطيع معرفة الوقت عندما تقدم اليه
الساعة .

٣ - لا يوجد لديه شعور بالعلاقات الكافية ، انه يستطيع أن يشير
دون خطأ الى مصدر صوت ما ، لكنه لا يستطيع أن يسمي الاتجاه الذي
يأتى منه الصوت .

٤ - لا يستطيع الانتقال من عمل الى آخر . فعندما يطلب منه أن
يذكر سلسلة من الأرقام تبدأ برقم معين فانه يستطيع ذلك ولكن عندما
يطلب منه أن يبدأ برقم آخر غير السابق فانه يخفق .

٥ - لا يستطيع أن يحتفظ فى عقله بالفرقة طويلا ، فمثلا عندما
يطلب منه شطب حرف معين من فقرة مطبوعة فانه يبدأ بداية صحيحة غير
أنه سرعان ما يتحول الى شطب كل حرف .

٦ - يفترق الى القدرة على الاستجابة الى كل منظم ، أو تقسيم الكل
الى أجزاء ، ثم تأليفها وجمعها مرة أخرى . ويحول هذا العجز بينه وبين
رواية أى قصة منظمة عن أى صورة أنه يستطيع فحسب عد العناصر
الجزئية للصورة .

٧ - لا يستطيع تجريد الحصاص المشتركة للسلسلة من الموضوعات
أو لأمى علاقات تربط الكل بالأجزاء . ويعنى هذا أنه عاجز عن فهم تشبيه
مثل « الحذاء للقدم مثل •• لليد » ؟

٨ - ان الشخص المصاب مخيا ، عاجز عن التخطيط مقدما ، وعن
أن يأخذ فى اعتباره احتمال وقوع شيء ما فى المستقبل ، أو التفكير بصورة
رمزية وقد يكون قادرا على معرفة طريقه وسط بيئة ثابتة ، الا أنه
لا يستطيع رسم خريطة أو تقديم شرح لفظى للكيفية التى ينتقل بها من
مكان لآخر .

ويؤدى نقص الاتجاه المجرى الى تغيرات فى الشخصية ككل ،
ويصيب جميع أشكال السلوك . والاتجاه المجرى ليس تأليفا يجمع بين
الوظائف العقلية الدنيا ، وانما يمثل اتجاها عقليا جديدا تماما يمثل فيه
عامل الإرادة الشعورية أحد سماته الأساسية للغاية . ان افتقار الشخص
الى هذا الاتجاه يجعله مختلفا كليا عن الشخص العادى .

وتصور دراسات جولدشتين التجريبية للسلوك المجرى والعيانى
موقف النظرية العضوية وهو أن أى شىء يحدث لأحد أجزاء الكائن
العضوى يؤثر فيه كله . ففى حالة الإصابة البالغة للمفصوف الجبهية
تكون الآثار شاملة بصفة خاصة . اما أصابات الأنسجة أو الأعضاء
الأخرى . فقد تكون أقل شدة وأقل وضوحا من حيث تأثيرها على الشخص
كله ، ولكن كل ما يحدث ، يحدث للشخص كله ويؤثر فيه كله .

اننا لم نستطع فى هذا المسح الموجز لبحوث جولدشتين ونشاطاته
أن نوفى ثراء مادته التجريبية حقها ، كما لم نستطع أن ننقل للقارىء
الصورة الكاملة لاستبصاراته بأسباب سلوك الانسان . لقد حاولنا أن
نقدم مجرد فكرة عن نوع استراتيجية البحث التى يستخدمها أحد ممثلى
النظرية العضوية . ويمكن تلخيص هذه الاستراتيجية فى المجموعة التالية
من التوجهات الى الباحث الذى يرغب فى القيام ببحث على طريقة النظرية
العضوية :

١ - ادرس الشخص كله .

٢ - قم بدراسات متعمقة للحالات الفردية باستخدام الاختبارات
والاستبصارات والملاحظة فى ظروف طبيعية . ولا تعتمد على نوع واحد
فحسب من الأدلة .

٣ - حاول أن تفهم سلوك الشخص فى اطار من مبادئ مثل تحقيق
الذات ، والتوافق مع البيئة والاتجاه المجرى فى مقابل الاتجاه العيانى
وليس بوصفها استجابات نوعية لمنبهات نوعية .

٤ - استخدم المناهج الكمية والكيفية معا فى جمع المادة وتحليلها .

٥ - لا تستخدم الضوابط التجريدية والظروف المتقنة التى تدمر
تكامل الكائن العضوى وتجعل السلوك مصطنعا وغير طبيعى .

٦ - ليكن واضحا فى الذهن دائما ان الكائن العضوى بناء مركب
وأن سلوكه نتاج شبكة متسمة من المجتمعات .

نظرية انجبال العضوية :

يرى انجبال Angyal مثل جولدشتين أن هناك حاجة الى علم جديد لا يكون في المقام الأول سيكولوجيا أو اجتماعيا ، فسيولوجيا في جوهره ، وانما يحتوى الشخص ككل . ولكن انجبال يصر ، على عكس جولدشتين أن من المستحيل أن نفاضل بين الكائن العضوى والبيئة لتداخلهما مما بطريقة مقلدة بحيث تؤدي أى محاولة لفصلهما الى تدمير الوحدة الطبيعية لهذا الكل ، والى خلق تفرقة مصطنعة بين الكائن العضوى والبيئة .

ويعرف الاخصائيون النفسيون أندراس انجبال أساسا عن طريق كتابه الهام « أسس علم الشخصية » Foundations for a science of personality (١٩٤١) وقد تعلم انجبال فى جامعة فيينا حيث حصل على درجة الدكتوراه Ph. D. عام ١٩٢٧ ثم فى جامعة تورين حصل على دكتوراه الطب M.D. عام ١٩٣٢ ، وانتقل الى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٢ كزميل فى معهد روكفلر فى قسم الانثروبولوجيا فى جامعة ييل Yale . وقد اشتغل عدة سنوات فى مستشفى الولاية بورشستر فى ماساشوستس كمدير للبحث فيما بين عام ١٩٣٧ ، ١٩٤٥ . ثم ترك هذا المنصب وفتح عيادة خاصة للطب النفسى فى بوسطن .

بناء المجال الحيوى

The Structure of the Biosphere

لقد صاغ انجبال اصطلاحا جديدا ، وهو المجال الحيوى biosphere لنقل تصوره للكيان الكلى الذى يتضمن الشخص والبيئة كليهما معا ، لا كاجزاء متفاعلة ، ولا ككائنات لها وجود مستقل ، بل كجانين لحقيقة واحدة يمكن فصلهما عن طريق التجريد فحسب ، (١٩٤١ ، ص ١٠٠) ، ولا يشير المجال الحيوى الى العمليات الجسمية دون غيرها ، كما يوحى الاصطلاح بذلك ، وانما يتضمن عمليات سيكولوجية واجتماعية كذلك . ويتكون الجانب السيكولوجى من الوظائف الرمزية للكائن العضوى أى

الإدراك والتفكير والتذكر والتخيل وما إلى ذلك ، ويتكون الجانب الاجتماعي من تفاعلات الإنسان مع المجتمع .

وبالرغم من أن المجال الحيوي كل غير قابل للتجزئة ، فإنه يمتلك تنظيمًا يقوم على أنظمة أبنية تتصل بعضها ببعض اتصالًا متفاضلاً . وعلى المعالم ذى الاتجاه العضوى أن يتعرف على تلك الخطوط الفاصلة داخل المجال الحيوى والتي يحددها البناء الطبيعى للكل ذاته . وتكون خطوط التقسيم هذه الوحدات الكلية الحقيقية للمجال الحيوى .

وأكبر التقسيمات التى يمكن عملها وأكثرها أساسية فى المجال الحيوى ذلك الذى يفصل بين الكائن العضوى والذى يسمى الذات Subject والبيئة التى تسمى الموضوع Object ويكون الكائن العضوى أحد قطبي المجال الحيوى وتكون البيئة القطب الآخر . وتقوم جميع ديناميات الحياة على التفاعلات بين هذين القطبين . ويرى أنجيل أنه لا العمليات العضوية للكائن وحدها ، ولا أحداث البيئة وحدها تعكس الواقع ، بل أن وقائع المجال الحيوى ذات الطابع القطبي الثنائى هى الواقع الذى يجب على علماء الحياة والاجتماع تناوله ، بدلاً من دراسة « الكائن العضوى » ودراسة البيئة ، وتفاعلهما ، فإننا نقتراح دراسة الحياة ككل موحد ونحاول وصف تنظيم ديناميات المجال الحيوى ، (١٩٤١ ، ص ١٠٠ - ٢١٠) .

ويعترف أنجيل أن من الممكن التفرقة بين العمليات التى يتسودج أكثر تحت سيطرة الكائن العضوى وتلك التى تخضع أكثر لسيطرة البيئة ، وإن كان من المحال أن تكون العمليات داخل أحد النطاقين وحده فحسب . فهى دائماً عمليات المجال الحيوى .

انظمة المجال الحيوى :

يطلق على الوحدات الكلية للمجال الحيوى اسم الأنظمة Systems ويفضل أنجيل تحليل النظام ككل بدلاً من نوع التحليل الشائع فى علم النفس وهو تحليل العلاقات ، للأسباب التالية :

١ - قد يتضمن النظام أى عدد لازم عن الأعضاء لشرح ظاهرة معينة على حين تتضمن العلاقة عضوين فقط . ويرى أنجيل أن اختزال بناء مركب كالمجال الحيوى إلى زوجين متصلين من الأعضاء يؤدي إلى تدمير تماسكه

الطبيعي ووحده ويسرف في تبسيط أنواع الاتصالات الموجودة في المجال الحيوى .

٢ - تتصل مكونات النظام بعضها ببعض بفضل ما لها من أوضاع في النظام ، على حين يتصل أعضاء العلاقة بعضها ببعض بفضل امتلاكها خصائص عامة كاللون والشكل . فموضوعان حمران ، مثلا ، يرتبطان ببعضهما ببعض عن طريق احمرارهما ، أما أجزاء الآلة فتتنظم على حسب أماكنها المحددة في الآلة الكلية . ويعتقد أنجيل أن الوضع أو المكان أكثر أهمية من الصفة في التحليل العضوى . ففي نظام للقوة كالحكومة مثلا أو أى مؤسسة أخرى يكون موضع كل شخص في النظام أكثر أهمية بكثير من أى علاقة نوعية قد تكون بين الشخص وغيره من أعضاء النظام .

٣ - ليس ثمة حاجة لوجود اتصال مباشر بين أعضاء النظام بعضهم وبعض ، على حين لابد من وجود اتصال مباشر بين عضوين بينهما علاقة . وضرورة الاتصال المباشر هذه تقيّد نوع التحليل الذى يمكن عمله باستخدام العلاقات . فمثلا قد يعيش مواطنان فى نفس البلد دون وجود علاقة مباشرة بينهما على الإطلاق ، إلا أنهما بوصفهما وحدتين كليتين يعيشان داخل نفس المنطقة السياسية يخضعان لنفس القوانين والعادات .

ولهذه الأسباب يعتقد أنجيل أن النظم وليس العلاقات هى الوحدات الكلية الحق للمجال الحيوى . ويذكر أنجيل فى مقال عن المنهج الكلى فى الطب النفسى (١٩٤٨) أن تحليل النظام يتكون من خطوات :

١ - تحديد السياق الذى تنتمى إليه ظاهرة معينة .

٢ - تحديد مكانها فى هذا السياق . وعندما تتم هاتان الخطوات يمكن القول أن الظاهرة قد حددت تحديدا دقيقا وفسرت تفسيريا كاملا . (مزيد من المناقشة لنظرية الأنظمة فى علم الحياة وعلم النفس انظر : برتالانفى Bertalanffy ١٩٥٠ ب ، وكرتش Krech ١٩٥٠) .

ومن الخواص الهامة للنظام جموده أو مرونته . فالنظام الجامد تكون لأجزائه أماكن ثابتة وتكون غير قابلة - نسبيا - للتحرك ، أما فى النظام المرن فإن الأجزاء تكون أكثر مرونة كما تستطيع الانتقال لتكون تجمعات جديدة داخل النظام . وكما نستطيع أن نتوقع تكون الوقائع الناتجة عن نظام جامد على قدر كبير من التقنين والثبات ، على حين تكون الناتجة عن نظام مرن لها مدى واسع من التباين الوظيفى . والعمليات التى تحدث فى

نظام جامد يحتمل أن تكون وقائع على قدر من التحديد الموضعي ويكون تأثيرها ضئيلا على النظم المحيطة بها . أما تلك التي تنتمي الى نظام مرنة فتميل الى الانتشار الى النظم المجاورة . ان النظم الجامدة تميل الى الارتباط بدرجة عالية من الثبات البيئي ، على حين تميل النظم المرنة الى الارتباط بدرجة منخفضة من الثبات البيئي . ان عمليات النظام الجامد تتم بصورة أكثر آلية ، ويقدر أدنى من الضبط الشعوري بالقياس الى النظم المرنة . ويوجد هذان النوعان من النظم في المجال الحيوي بدرجات متباينة . فالوظائف الحسية العصبية - العضلية مثلا تميل الى أن تكون أكثر مرونة كما تميل الوظائف الحشوية الى قدر من الجمود .

ويتكون النظام من أجزاء اما أن تكون متفاضلة تفاضلا كاملا ، أولا تزال مطبورة داخل الكل في حالة عدم تمايز . ويحدث تمايز الأجزاء عن الكل عندما تتطلب عملية معقدة تقسيم العمل بين أجزاء النظام . فالأجزاء في كل على قدر كبير من التفاضل ، أكثر فردية ، وعلى قدر أكبر - نسبيا - من الاستقلال الذاتي . ولما كانت مثل هذه الحالة تميل الى احداث عدم وحدة ، وفقدان للتكامل في النظام ، وتؤدي في النهاية الى تدمير النظام اذا ما سمع لها بالاستمرار دون ضبط فلا بد من وجود مبدأ مضاد يستعيد التوازن . وهذا البناء ذو الطبيعة التكاملية يضيف على الوظائف الجزئية المتفاضلة تازرا تحت مبدأ عام للنظام هو امتداد الذات self-expansion ان النظام يمتد عن طريق مراحل متتابعة من التفاضل والتكامل ، وان كان أي نظام يميل الى المحافظة فيما يتعلق بالتفاضل ولا يسمح به فقط الا عندما يصبح ضروريا بصورة أساسية .

والجزء من الكل يعين أن يكون له خاصتان : لابد أن يكون كاملا نسبيا في حد ذاته ، وأن يحتل موقعا في النظام لا يقتضي تدخل نظم وسيطة للحفاظ عليه . بعبارة أخرى يجب أن يكون على قدر من الاستقلال الذاتي النسبي ، وأن يكون مستقلا دون أن يصبح معرولا عن النظام .

أبعاد بنه الشخصية :

توجد ثلاثة أبعاد رئيسية داخل المجال الحيوي . وهي تسمى رأسيا vertical وتقدميا progressive وعبريا transverse ويمتد البعد الرأسي من السلوك السافر على سطح المجال الحيوي عميقا حتى القلب

المركزي للمجال الحيوى ، فالوقائع التى تحدث قرب السطح هى التعبيرات
العيانية أو السلوكية عن عمليات أعمق . والفعل العنوانى على سبيل
المثال تعبير عن اتجاه أعمق إلى العداة ، وهذا الاتجاه يمكن بدوره تتبعه
إلى اتجاهات أكثر عمقا وعمومية .

ويتغير السلوك السطحي بسهولة أكثر بالمقارنة بالعمليات التى هى
أعمق . السلوك السطحي هو خلق حالة فى المجال الحيوى تمثل أشباع حاجة
فى قلب الشخصية . والقاعدة أنه لا يمكن تحقيق الأشباع بفعل سلوكى
واحد ، بل يتطلب الأمر سلسلة متتالية من الأفعال . وسلسلة الأفعال
التى تقترب بالشخص أكثر وأكثر من الهدف النهائى تكون البعد التلقى
وتحدد النقاط عبر هذا البعد من حيث البعد عن الهدف . أما البعد العبرى
فيتكون من تآزر الأفعال الجزئية إلى وحدة سلوكية أكبر وأكثر تكاملا
وفاعلية . وعلى هذا يمكن وصف أى فعل سلوكى كتعبير عن عمليات كامنة
كمرحلة فى التنظيم من الوسيلة إلى الغاية ، وكتآزر للأفعال المتميزة ،
مثال ذلك التقدم للامتحان ، الذى يمثل نشاطا سافرا على سطح المجال
الحيوى ويحقق حاجة أعمق إلى إثبات قدرة المرء العقلية وهو فى نفس الوقت
خطوة على البعد التلقى نحو هدف نهائى ، هو أن يصبح الشخص متعلما
كذلك يمثل تآزر عديد من الوقائع المتميزة التى سبق تعلمها خلال مرحلة
الدراسة .

اللغات الرمزية :

لاحظ أنجيل قدرة الانسان على تكوين الأفكار عن نفسه بوصفه
كائنا عضويا لأن الكثير من عملياته العضوية تصبح شعورية . ويشكل
المجموع الكلى لهذه التصورات **اللغوية للذات** ، الذات الرمزية . على أن
انجيل يحزننا من أن الذات الرمزية لا تكون دائما تعبيرا ثابتا لتمثيل
الكائن العضوى . وإن ما يعتقده الشخص عن نفسه نادرا ما يعطى صورة
صادقة للواقع . لذلك ، إذا كان سلوك الفرد خاضعا للذات الرمزية ،
أى إذا كان يسلك بناء على الصورة التى كونها لذاته ، فربما لا يكون سلوكه
مناسبا للحاجات الحقيقية للكائن العضوى « **لن الانزلال النسبى للذات**
الرمزية يدخل الكائن العضوى ، وبما كان المصنف المتوسط فى تنظيم

الشخصية الانسانية » (١٩٤١ ، ص ١٢١) ، لان الذات الرمزية قد تزور أو تحرف حقيقة المجال الحيوى .

وننتهى مما سبق الى ان جماع كل المكونات المنظمة بحسب وضعها فى النمط الكلى للمجال الحيوى يشكل بناء الشخصية .

ديناميات المجال الحيوى

يتزود المجال الحيوى بطاقاته عن طريق التوترات التى تنشأ بين قطب البيئة وقطب الكائن العضوى . وتنشأ هذه التوترات لأن البيئة تجنب فى اتجاه والكائن العضوى يجذب فى اتجاه آخر . وهذه الميل الى الاتجاهات المتعارضة من جانب الكائن العضوى والبيئة داخل نظام المجال الحيوى يطلق عليها اصطلاحا الاستقلال الذاتى *autonomy* والاندماج أو المشاركة *homonomy* على التوالى . ويتكون الميل الى الاستقلال الذاتى من امتداد الكائن العضوى عن طريق تمثيل البيئة والسيطرة عليها . انه مماثل للباعث الأنىوى ، حيث يحاول الشخص اشباع ما يصبو اليه ، وتحقيق مصالحه ، بأن يسخر البيئة لحاجاته . ويعبر الميل الى الاستقلال الذاتى عن نفسه عن طريق عدد من المسارات النوعية مثل الرغبة فى التفوق والاكتمال والارتياح والى الانجاز . أما الميل الى الاندماج *homonomy* فيدفع الشخص الى تطويع نفسه للبيئة والى المشاركة والاسهام فى شىء أكبر من الشخص نفسه . فهو يفر فرديته مكونا اتحادا متناغما مع الجماعة الاجتماعية ، ومع الطبيعة . ومع ما فوق الطبيعة ، ومع كائن مطلق القوة . ويعرب الاندماج عن نفسه عن طريق دوافع نوعية مثل الرغبة فى المكانة الاجتماعية والرغبة فى أن يكون المرء موضع الانتباه ، وفى حب الطبيعة وفى العواطف الدينية وفى الوطنية .

وقد أطلق انجيمال فى عرض أحدث لآرائه (١٩٥١ - ١٩٥٢) على هذه الاتجاهات للمجال الحيوى اصطلاحا بتصميم الذات *self-determination*

و تصاغ أنماط الوظيفة الكلية في اتجاهين مزدوجين ، أحدهما **تصميم الذات ... والآخر استسلام الذات ...** وهذه الميلان لدى الكائن البشرى ، الميل الى زيادة تصميم الذات واتساع آفاق علمه الشخصى ، والميل الى استسلام الذات ، عن رضا لكل أكثر قوة ، يسكن تلخيصهما بقولنا ان الكائن البشرى يتصرف كما لو كان **كلا له نظام وسيط** . وأعنى بذلك « جزء - جشطات » ، ومثال ذلك الجهاز الدورى ، أو الجهاز العصبى المركزى ، فكل منهما كل ، أى نظام من أجزاء كثيرة ، ولكنه فى نفس الوقت جزء بالنسبة للكل الأكبر وهو الجسم . فالكائن البشرى فى آن واحد موحد ، ومنظم لعالمه الشخصى المباشر وعضو مشارك فيما يتصور أنه الكل الرئيسى الذى ينتمى إليه ، (١٩٥٢ ، ص ١٣٣) .

وبالرغم من أن الاستقلال الذاتى أو تصميم الذات ، والاندماج أو استسلام الذات قد يظهران كما لو كانا متعارضين ، فانهما فى حقيقة الأمر مرحلتان لاتجاه أكثر شمولاً للمجال الحيوى ، وهو امتداد الذات فالشخص نظام مفتوح له مرحلة مدخل input ومرحلة مخرج output وتتكون مرحلة المدخل بالأخذ وتمثل البيئة ، التى هى أساس الاستقلال الذاتى أما مرحلة المخرج أو العطاء فتتكون من الانتاجية ، التى هى أساس الاندماج . وكلتا المرحلتين لازمتان للنمو الكامل للفرد . فالشخص ينمى ذاته باستدماج أشياء من البيئة كما يوسع من بيئته باسهاماته الشخصية فيها . فهو يأخذ ويعطى معا ، وبهذا العمل يوسع آفاق المجال الحيوى كله والذى يتضمن - كما نتذكر - كلا من الكائن العضوى والبيئة أن الميل الى تزايد الاستقلال الذاتى والميل الى تزايد الاندماج أو المشاركة أى الميل الى امتداد الذات ، يشكلان المبدأ الأساسى لنظام المجال الحيوى .

ديناميات النظام :

قد يظهر التوتر اما فى جزء من النظام وينتشر الى الكل أو قد ينشأ فى الكل ويؤثر فى جميع الأجزاء . الا أن تغير التوتر فى جزء لا يستطيع أن يؤثر مباشرة فى منطقة بعيدة ، فهناك دائما انتشار مستمر الى الخارج من الجزء المتأثر الى الأجزاء المجاورة كالحلقات المركزية للأمواج التى تحدث

عند القاء حجر في بركة ما • وهذا الانتشار للتوتر من مصدره الى المناطق المجاورة قانون اساسى لديناميات النظام •

وكما سبق أن ذكرنا يتفاضل الجزء من الكل عندما يقتضى الأمر وظيفة جديدة لذلك يجب اعتبار أجزاء النظام وحدات وظيفية • ولكن قد تشارك وظيفة معينة أو جزء في أكثر من نظام • فقد يستخدم النشاط الحركى في عديد من النشاطات المتآزرة : الكتابة على الآلة الكاتبة والعرف على البيانو وقيادة السيارة وما الى ذلك • والحقيقة أن الكائن العضوى يعمل بشكل اقتصادى باستغلال عدد صغير نسبيا من الوظائف الجزئية فى العديد المتباين من الأنظمة الوظيفية الكبرى • ويتكون النظام من جمع عدد من الأجزاء بواسطة ميكانيزم التآهب setting فمثلا عندما يبدأ الشخص وظيفة جديدة فإن عددا من القدرات المختلفة والمهارات والسمات تتجمع معا من أنظمة متباينة لتساعده فى أداء العمل • أما انحلال نظام سبق اعداده وتكوين نظام جديد فيتم بواسطة ميكانيزم التغير shifting فالتآهب والتغير هما الميكانيزمان الرئيسيان لاي ضرب من النشاط المنظم •

وبالرغم من الكفاءة البالغة لهذه الميكانيزمات فى التزويد بنوع السلوك الذى يشبع الحاجة ويناسب ظروف البيئة معا فإن هناك تداخلا وتنافسا يحدثان بين الأنظمة حينما تحاول استخدام نفس الأجزاء فى وقت واحد • وقد يترتب على هذا التنافس بين الأنظمة نتائج متباينة ، فإذا كان أحد هذه النظم قويا أى اذا كان لديه طاقة أكثر من نظام آخر فإن النظام القوى تظل عليه معالجة الضغط الواقع عليه من للنظام الأضعف • وقد ينشأ نتيجة ذلك مختلف أعراض الضغط كالتيورانيينيا ، والتعب ، والعصبية ، والحصر العام • أما اذا كان النظام المتدخل أكثر قوة مع بقائه أقل قدرة على السيطرة ، من النظام الآخر فقد يقحم نفسه فى نشاطات النظام الأقوى فيسبب الأخطاء والحوادث والخلط فى الأداء • اما اذا كان النظامان على قدر متساو من القوة فإن أحدهما يقوم بغزو الآخر بطريقة متبادلة • ويشكل الخلط العام وانعدام تكامل السلوك أعراض الغزو المتبادل بين النظم التنافسة • ويصبح التدخل فى النظام مرضيا اذا كان النظام المتدخل ماثرا ثابتا بحيث يتطلب الأمر مقاومات قوية يوجهها اليه النظام المسيطر • وقد تلتبس الميول المكفوفة التعبير عن نفسها فى التخيل والأحلام والأعراض الجسمية والسلوك التفعيلى وماشابه ذلك •

وكذلك قد يؤدي انزعال النظم الى اضطراب تكامل المجال الحيوى بحيث تفقد قوتها على التواصل فيما بينها . وقد يحدث الانزعال لآى من ابعاد الشخصية الثلاثة . فالانزعال الرأسى يتكون من انفصال التعبير الخارجى عن الميول العميقة وينتج عن ذلك سلوك سطحي وتظاهر واسراف فى الامتثال ، وما الى ذلك . وهذا النمط من الانزعال يؤدي الى شىء مماثل للقناع عند يونج . أما اذا وقع الانزعال فى البعد التقدمى فان المرء يستطيع الحديث عن الاحباط . فالاحباط يحول دون اغلاق متصل الوسيلة - الى الغاية - فلا يبلغ الهدف المناسب . أما الانزعال فى البعد العبرى فيفصح عن نفسه فى الافتقار الى التأزر والأفعال غير المترابطة .

وعندما تموق عملية جزئية أو أكثر الوظيفة الكلية للكائن العضوى أو تحدث لها اضطرابا فان العلاقة بين الجزء والكل يطلق عليها اصطلاح حيوية سلبية bionegative فالقلق مثلا يكون حيويا سلبيا حين يحاول الشخص حل مشكلة ذهنية . وقد تحدث البيئة صدمة للكائن العضوى بطريقة أو بطريقتين . فقه تتدخل بصورة ايجابية فى الاستقلال الذاتى للكائن العضوى أو قد تكون ناقصة بالنسبة لهذا الذى يشبع حاجات الكائن العضوى . ويطلق على الحالة الأولى صدمة ايجابية وعلى الحالة الثانية صدمة ندرية . ويبين أنجيل أن علينا أن نفرق بين الآثار العلية المباشرة لعامل يؤدي للاضطراب واستجابة الكائن الحى لهذه الآثار . فقد يستجيب الكائن العضوى لنتاج استجابته هو بمزيد من المحاولات التوافقية ، مثال ذلك محاولة الشخص مواجهة الحصر دون تهديد البيئة وهو الذى تسبب عنه فى المقام الأول هذا الحصر .

موجز القول اذن : أن ديناميات المجال الحيوى تتكون من الضغوط والصراع الذى يقع بين القطبين الذى يمثل أحدهما الكائن العضوى الذى ينزع الى الاستقلال الذاتى وتصميم الذات ويمثل الآخر البيئة التى تجنب فى اتجاه الاندماج أو المشاركة واستسلام الذات ، ونتيجة هذا الجنب والشد أن المجال الحيوى يميل الى الكبر والتزايد .

نمو الشخصية :

ينظر أنجيل الى الشخصية بوصفها « جسطالتا زمنيا ، ممتدا ، أو نمطا طرفيه بشدة الماضى والحاضر والمستقبل » ان الشخصية عملية منظمة تمتد عبر الزمان والماضى ليس ثابتا مستقرا ، انه يتغير عندما تكتسب

وقائع الماضي قيمة موضوعية جديدة في المجال الحيوي . فالخبرة التي
أثارت الفزع الشديد عندما تقع في الطفولة قد يتذكرها المرء فيما بعد
كمجرد حادثة يتندر بها . كذلك يتغير على الدوام أثر الماضي على الحاضر .
كما أن المستقبل يكون نشيطا دائما في الحاضر بوصفه امكانا أو استعدادا
وهو الآخر يمكن أن يتغير بتغير المجال الحيوي وإعادة تنظيمه فالآمال الجديدة
تحل محل القديمة مع تقدم الشخص في السن .

ان مسار الحياة ليس مجرد تتابع من الأحداث تظهر خلالها
التوترات وتزول . بل أن له كذلك بناء أو تخطيطا خاصا به أو غاية
داخلية . وهذا التخطيط المركزي للحياة عند انجبال هو الرغبة في
تشكيل المرء لوجوده في كل له مغزاه ، كامل الامتداد يمنح حياة المرء
تماسكا تاما ووحدة . ويتكون الارتقاء من تشكيل نمط قوى وممتد
ومتكامل . ويقدم الارتقاء عبر أبعاد الشخصية الثلاثة . ففي الأبعاد
العصيقة ينمو الشخص من الوضع المتوسط على المقياس الى الخارج كما ينمو
الى الداخل فتتم لديه حاجات أكثر عمقا ، وانماط سلوكية أكثر دقة
وتشعبا ، يشبع بها حاجاته . أما في البعد التقدمي فإن النمو يعني
زيادة الكفاءة الانتاجية ، فيصل الشخص الى أهدافه بصورة مباشرة أكثر
وبضياح أقل في الحركة . أما في البعد العبري فإن النمو يؤدي الى تأزر
أحسن ومرونة أكبر في السلوك . ويزيد النمو المتناسق المتجانس في هذه
الأبعاد الثلاثة من تراء الشخصية واتساعها .

ويقسم مدى الحياة الى مراحل تشكل كل مرحلة منها جزءا مستقلا
استقلالاً ذاتيا نسبيا عن النمط الزمني الكلي . وتحدد المرحلة بالمشكلة
النوعية للحياة التي تشكل موضوع هذه المرحلة وتعطيها معناها النوعي .
وعلى هذا فموضوع المرحلة الأولى من الحياة يتمركز حول الأكل والنوم .
وتكتشف فيما بعد فرص البيئة وما يتصل بها من أمور . وفي الجزء المبكر
من هذه المرحلة لا يعرف الطفل الطبيعة المستقلة للبيئة فيتعامل معها
بطريقة تعسفية وغير واقعية . ويحاول قهر البيئة لتكون ما يريد أن
يكون . وسرعان ما يتبين حدود هذا المنهج فيتعلم بالتدريج أن يكيف نفسه
للخصائص الموضوعية للبيئة . ان ما يتسم به النمو من ثبات عبر المراحل
المتتابعة يرجع الى تسلسل النضج والى تقنين الثقافة ، على أنه من
المستحيل التنبؤ بدقة كاملة بمسيرة حياة الشخص لأن تأثير البيئة
لا يمكن دائما معرفته مقدما . فوقائع البيئة على قدر كبير من الاستقلال عن
سيطرة الشخص وتحكمه واستبصاره فهي متقلبة لا يمكن التنبؤ بها .
وقد نستطيع التنبؤ على أساس من قوانين ارتقاء الشخصية . الا أن هذه

التنبؤات تقريبية فحسب • فقد يستطيع المرء أن يتنبأ بدقة معقولة بأن أحد الشبان سيحترف في نهاية الأمر حرفة ما الا أن التنبؤ بدقة بنوع هذه الحرفة يتضمن قدرا كبيرا من التخمين • على أن تقدم الشخص في العمر يجعله أكثر جمودا ويحدد أساليبه ويجعله أقل تفتحاً لتأثيرات البيئة بحيث يصبح من اليسير التنبؤ بسلوكه •

وبالرغم من أن أنجيل يعترف أن النكوص يمكن أن يحدث ، وهو يحدث ، فإنه يرى مثله في ذلك مثل يونج ، أن النكوص كثيرا ما يخدم الميل الى التقدم الى الامام في نمو الشخصية • أى أن الفرد قد يتعلم شيئا ما من النكوص يمكنه من العودة الى مشاكله الراهنة ، ومواجهتها بمزيد من الكفاءة •

ويعتقد أنجيل كذلك أن الوظائف الرمزية للكائن العضوى كالتفكير مثلا تنمو بتقدم العمر وأن « مركز الجاذبية في الحياة ينتقل أكثر فأكثر نحو المجال السيكلوجي » (١٩٤١ ، ص ٧٧) فمع تقدم الشخص في العمر يميل الى اشباع مزيد من حاجاته بواسطة العمليات النفسية انفعالية • أى أنه ينفق في التفكير وقتا أكبر وفي العمل وقتا أقل •

ان أنجيل لا يتبنى كما أنه لا يقدم أى نظرية لتعلم • لكنه يقنع باستخدام اصطلاحات كالتفاضل واعادة التنظيم والانتقال وما الى ذلك ، ومعظمها مستعار من اصطلاحات سيكلوجية الجشطالت •

نظرة مازلو الكلية الدينامية

قام ابراهام مازلو أستاذ علم النفس بجامعة برنديس Brandies بجمع مختارات من بين كتاباته الكثيرة في كتاب حديث بعنوان « الدافعية والشخصية : Motivation and Personality (١٩٥٤) ، وهو يعتبر نفسه على صلة وثيقة بوجهة النظر العضوية ، أو كما يسميها وجهة النظر الكلية الدينامية • وستتناول بالمناقشة بعض اضافات مازلو لنظرية الكائن العضوى •

ويحمل مازلو حملة عنيفة على علم النفس لتصوره « المتشائم والسلبى والمحدد للإنسان » ويعتقد أن علم النفس قد اهتم بمثالب الإنسان

وجوانب قصوره أكثر من الاهتمام بجوانب القوة فيه وأنه درس دراسة شاملة آثامه وتجاهل فضائله . لقد نظر علم النفس الى الحياة من خلال محاولات الانسان اليائسة لتجنب الألم ، بدلا من النظر الى خطواته الايجابية لنيل اللذة وبلوغ السعادة . ويتساءل مازلو أين علم النفس الذى يدرس الجور والسعادة والحب والرضا بقدر ما يدرس الشقاء والصراع والخجل والعدوان ؟ . « لقد قصر علم النفس نطلق دراسته بمحض ارادته على نصف مجاله المشروع فقط ، وهو النصف القاتم والوضيع » ، ولقد أخذ مازلو على عاتقه تقديم النصف الآخر من الصورة ، النصف المشرق والأحسن ، وأن يقدم صورة للانسان كله .

وهو يقول ما يلي :

« لنحاول أن نقدم الآن في ايجاز ، وبصورة عقائدية جامدة - في البداية - جوهر هذا التصور الحديث لنمو الانسان الصحيح من وجهة النظر الطبية النفسية . اول هذا وأكثره اهمية الايمان القسوى بأن للانسان طبيعة جوهرية خاصة به ، له هيكل من البناء البيولوجي يمكن تناوله ومناقشته بصورة مماثلة لتناولنا لبنائه الفيزيقي . ان له حاجات وقدرات وميولا لها اساسها التكويني النشوي ، وبعضها يميز الجنس البشرى بأسره ، على طول الثقافات وعرضها ، وبعضها الآخر خاص بكل فرد على حدة مقصور عليه وحده . وهذه الحاجات في اطرافها اما بخيرة او محايدة ولكنها ليست شريرة . ثانيا ، ويتضمن ذلك تصورنا ان النمو الكامل والسوى والصحيح المنشود يقوم على تحقيق هذه الطبيعة واشباع هذه الامكانات وفي النمو في اتجاه النضج ، في الاتجاه الذى تحدده هذه الطبيعة الجوهرية الخفية غير الظاهرة والتي تبدو بغير وضوح ، والتي تنمو ايضا من الداخل دون حاجة الى الخارج ليعطيها شكلا ، ثالثا ، نشين الآن بوضوح ان علم النفس المرضي بصفة عامة ينتج عن انكار طبيعة الانسان الجوهرية او اجباطها او تحويلها عن وجهتها الاساسية . ما هو اذن اللخر بهذا القصور ؟ انه أى شيء يؤدي الى هذا النمو المرغوب في اتجاه تحقيق الطبيعة الداخلية للانسان . وما هو الشر او الشاذ اذن ؟ انه أى شيء يحبط أو يوق أو ينكر الطبيعة الاساسية للانسان . وما هو المقصود بالمرض النفسى ؟ انه كل ما يؤدي الى اضطراب أو اجباط أو الانحراف بمسار تحقيق اللذات . ما هو العلاج النفسى أو أى علاج من أى نوع يتصل بهذا الامر ؟ انه أية وسيلة من أى نوع تساعد الشخص على العودة الى طريق تحقيق اللذات ، والنمو عبر المسارات التى تليها طبيعته الداخلية » (١٩٥٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١) .

ويضيف مازلو الى افتراضاته الاساسية في مقال تال هذا القول

الهام :

« هذه الطبيعة الداخلية ليست قوية غلبة منزهة عن الخطأ كغرائز الحيوان بل أنها ضعيفة وهشة كما يسهل على المادة والضبط الثقات والابتهامات الخاطئة حيالها أن تقهرها » ولكن بالرغم من ضعفها فإنها لا يخفى لدى الشخص السوي ، وربما حتى لدى الشخص المريض .
 انها تبقى كلمة وان اتركها صاحبها « (١٩٥٤) ب ٩ .

ويقدم مازلو في هذه الفقرة الرائعة عددا من الفروض الأخاذة فيما يتعلق بالطبيعة الانسانية . ان للانسان طبيعة فطرية خيرة في جوهرها ، ولا تكون شريرة على الاطلاق ، وهذا التصور الذهني جديد . اذ ان الكثير من أصحاب النظريات يفترضون ان الغرائز شريرة ، وأنه يجب ترويضها بالتدريب والتنشئة الاجتماعية .

ان الشخصية تتفتح خلال التضج ويكشف الامكان الخير للانسان عن نفسه بصورة أكثر وضوحا . وعندما يصبح الانسان عصبيا أو شريرا أو بانسا ، فانسبب في ذلك أن البيئة قد جعلته كذلك بسبب الجهل والمرض الاجتماعي . ان الانسان الخير يصبح شريرا لان البيئة شريرة ، وان كان بعض الناس يظنون طبيين برغم تأثير البيئة المفسد . ويمكن للبيئة بالطبع أن تقوم بدور حميد فتساعد الانسان في محاولاته لتحقيق ذاته . اذ أن هذه المساعدة لازمة بصورة قاطعة . فيكفي من البيئة أن تلزم جانبا ولا تتدخل في تحقيق الشخص لذاته . فاندوان والنزعة الى التدمير ، ليسا ، على سبيل المثال صفتين اصيلتين في الانسان . فهو يصبح مجبا للمقاتلة نزاعا الى التدمير حينما تعاق طبيعته الداخلية أو تقابل بالانكار والاحباط . وما أن يرفع الاحباط حتى يخفى العدوان .

وقد قدم مازلو نظرية في الدافعية الانسانية تفترض أن الحاجات تنتظم في تدرج من الأولوية أو القوة . فعندما تشبع الحاجات صاحبة القوة الكبرى أو الأولوية فان الحاجات التالية في التدرج الهرمي تبرز وتلح في طلب الاشباع هي الأخرى ، وعندما تشبع تكون قد سعدنا خطوة أخرى على سلم الدوافع . ونظام التدرج الهرمي للحاجات من أكثرها قوة الى أقلها قوة هو كما يلي :

الحاجات الفسيولوجية كالجوع والعطش وحاجات الامن ، ثم الحاجة الى الانتماء والحب وحاجات التقدير ، وحاجات تحقيق الذات ، ثم الحاجات المعرفية كالتعطش الى المعرفة ، وأخيرا الحاجات الجمالية كالرغبة في الجمال . ودائما ما يكون للجوع والعطش الأولوية على الرغبة في الحصول على انتقبل أو الاعتراف ، ولكن الاخيرة أقوى من الحاجة الى الجمال . ويلاحظ أن هذا التدرج الهرمي لامكان فيه للحاجات المعادية للمجتمع والمهددة للأذى . أن

الانسان يمكن أن يصبح معاديا للمجتمع فقط عندما ينكر عليه هذا المجتمع اشباع حاجاته الفطرية .

ويعتقد مازلو أنه اذا اقتصرت دراسة الاخصائين النفسيين على العجزة والعصابيين والمتخلفي النمو ، فانهم بالضرورة سيقدمون علما عاجزا . ولكي يمكن نمو علم للانسان أكثر اكتمالا وشمولا يصبح حتما على علماء النفس دراسة الذين حققوا امكانياتهم الى أقصى مداها . وهذا هو ما فعله مازلو ، فقد قام ببحث متعمق وشامل لجماعة من الأشخاص حققوا ذواتهم . وهم أشخاص يندر وجودهم ، كما وجد مازلو ، عندما شرع في الوصول الى مجموعته . وبعد العثور على مفحوصين مناسبين ، بعضهم كانوا شخصيات تاريخية كلنكولن وجفرسون وبيتروفن . الخ على حين كان البعض الآخر لازال على قيد الحياة عندما قام بدراساتهم كروزفلت وأينشتين والبعض من أصدقائه ومعارفه ، وقد درسهم مازلو دراسة اكلينيكية لاكتشاف الحصاص المميزة لهم عن بقية الناس العاديين فظهر له أن تلك هي السمات المميزة لهم :

- (١) ان لهم اتجاها واقصيا .
- (٢) انهم يتقبلون أنفسهم والآخرين والعالم الطبيعي كما هم .
- (٣) انهم على قدر كبير من التلقائية .
- (٤) انهم يتركزون حول المشاكل بدلا من أن يتركزوا حول أنفسهم .
- (٥) انهم على قدر من الانفصال والحاجة الى الخصوصية .
- (٦) انهم يتسمون بالاستقلال الذاتي والاستقلال عن الآخرين .
- (٧) ان تقديرهم للأفراد والأشياء متجدد ، دون نمطية جامدة .
- (٨) لمعظمهم خبرات روحية أو غيبية عميقة دون أن تكون بالضرورة ذات طابع ديني .
- (٩) انهم يتوحدون بالبشرية كلها .
- (١٠) ان علاقاتهم الحميمة بأشخاص قليلين يكونون لهم حيسا خاصا يظلم أن تكون عميقة وذات طابع انفعالي عميق دون أن تكون سطحية .
- (١١) ان اتجاهاتهم وقيمهم تكون ديمقراطية .

(١٢) انهم لا يخلطون بين الغاية والوسيلة .

(١٣) ان روح المرح لديهم ذات طابع فلسفي وليست ذات طابع
عدائى .

(١٤) انهم يولعون اشد الولع بالخلق والابتكار .

(١٥) انهم يقاومون الامتثال للثقافة والخضوع لها .

ويبدو ان اسهام مازلو الفريد لوجهة نظر الكائن العضوى هو انشفاله
بالاصحاء من الناس بدلا من المرضى ، واحساسه ان دراسات هاتين المجموعتين
تولد انواعا مختلفة من النظريات . ان جولدمستين وانجيل بوصفهما
اخصائيين فى الطب والعلاج النفسى كانا يتعاملان مع اناس من العجزة
والمضطربين ، ولكن بالرغم من هذه العينة المتحيزة فقد استطاع كل
منهما صياغة نظرية تتضمن الكائن العضوى بأسره ، وتنطبق على المريض
كما تنطبق على الصحيح . اما مازلو فقد اختار الطريق المباشر فدرس
الاصحاء من الناس الذين تتجلى وحدة شخصياتهم وكليتها بوضوح اكثر
وهؤلاء الذين لاحظهم مازلو بوصفهم اشخاصا حققوا ذاتهم هم النموذج
الذى تتجسد فيه النظرية العضوية .

نظرة لى فى اتساق الذات

Lecky's Theory of Self-Consistency

بالرغم من ان برسكوت لى Prescot Lecky لم يؤسس نظرية
شاملة للشخصية ، فان افكاره لها صلة وثيقة جدا بالنظرية العضوية ،
ما يستوجب عرضا موجزا لها كما ضمنها كتابه الصغير « اتساق الذات
Self-Consistency ١٩٤٥ » ويقول جاردنر ميرفى فى مقدمته لكتاب لى
(ص ١) . (لقد طور لى بطريقته الخاصة . . . مفهوما مؤداه ان الشخص
يجب ان يحدد لذاته طبيعة هملنا الكل الذى هو ذاته نفسها . ان عليه ان
يتمثل طوال حياته خبرات جديدة بحيث تكون وتبلو معا وحدة حية ، .

فالشخصية عند لى هى التصور ذهنى المركزى الموحد فى علم
النفس . وجميع الظواهر السيكولوجية تعتبر تعبيرا عن شخصية موحدة .
وجميع نشاطات الانسان تخدم الهدف الاسمى للشخصية ، وهو الحفاظ على
اتساق الذات .

تعتبر الشخصية تنظيماً للقيم التي تتسق بعضها وبعض . والسلوك محاولة من جانب الشخص للحفاظ على ثبات وحدة هذه القيم في بيئة غير مستقرة . وعلى هذا فهناك مصدر واحد فقط للدافعية ، وهو ضرورة المحافظة على وحدة الكائن العضوي وتكامله ، وهدف واحد فقط للنمو ، وهو تحقيق تنظيم موحد له ذاته المتسقة . ويعتقد لكى أن الشخص يحفز به بقوة احساس بالحاجة الى التوحيد ، أكثر من الحاجة الى اللذة ولكن نتيجة تحقيق الوحدة ، فإن الشخص يستمد من ذلك لذة . ان اللذة مجرد نتيجة تالية ، ولكنها ليست الهدف الحقيقي للحياة . وبصفة عامة يقام الفرد الخبرات التي لا تتسق وبناء قيمة ويتمثل تلك التي تتسق وإياه . انه يحاول دائماً أن يتوافق مع بيئته بطريقة تكون متفقة مع بناء قيمة . غير أنه أحياناً ما تخلق البيئة غير الودودة مشكلة أو صراعاً قد يفرض ضغطاً شديداً على الشخص ، فيجد لزاماً عليه ، لكى يستعيد ثباته ، أن يستسلم أو يغير من نظام قيمه . ان النمو اذن يتقدم فى اتجاه تمثل المنبهات من الخارج التي تتفق وقيم الفرد ، أو إعادة تنظيم الفرد لقيمه لكي تتناسب ومطالب البيئة .

وترقى الشخصية نتيجة الاتصالات الفعلية بالعالم ، وتنظيم الخبرات المستفادة من هذه الاتصالات ، فى كل متكامل . وتتزايد مشاكل الحياة صعوبة مع تقدم الطفل فى العمر . وأكثر العوامل ثباتاً فى خبرات الطفل بعد نفسه هم أعضاء أسرته . ويحاول الطفل عن طريق التوحد بالوالدين إقامة علاقة موحدة وثابتة بينه وبينهما . وعندما يصل الطفل الى الخامسة من عمره يتمثل إعادة المواقف الأسرية المعتادة ، وبذا يصبح مستعداً لمواجهة المشاكل خارج نطاق الأسرة . وخلال المراهقة تصبح الحاجة الى الوحدة أشد ما تكون ، اذ أن تلك هى فترة التحول الكبير فى الحياة ، حيث يضطر الحدث الى مراجعة قيمه الطفلية وابدالها بأخرى ناضجة .

ان لكى مثل مازلو متفائل بالنسبة للانسان وقدرته على تنمية شخصية صحيحة تنسم باتساق الذات . وهو مثل جميع أصحاب النظريات العضوية يؤكد تأكيداً كبيراً امكانيات الانسان . ويعتقد لكى أنه لو ترك الانسان وقدراته على النمو لكانت لديه القدرة على خلق شخصيته وتوحيدها .

المكانة الراهنة والتفوييم

حققت النظرية العضوية نجاحا كبيرا بوصفها رد فعل ضد ثنائية العقل والجسم ، وسيكولوجية الملكات وسلوكية المثير والاستجابة . فليس هناك في علم النفس في يومنا هذا ، من لا يؤيد الاتجاهات الأساسية للنظرية العضوية ، كالقول بأن الكل شيء آخر أكثر من مجموع أجزائه ، وأن ما يحدث للجزء يحدث للكل ، وأنه ليس هناك أقسام منفصلة مستقلة داخل الكائن العضوى . وليس هناك اخصائى نفسى يعتقد أن العقل منفصل عن الجسم ، وأنه يخضع لقوانين مختلفة عن تلك التى يخضع لها الجسم . كذلك ليس هناك من يعتقد وجود وقائع منفصلة وعمليات منعزلة ووظائف مستقلة . والقليل جدا اذا كان هناك أحد من الاخصائين النفسيين من لا يزال يتمسك حتى اليوم بوجهة النظر الذرية أو الجزئية . ونحن جميعنا اخصائيون نفسيون ذوو اتجاه عضوى مهما كان اختلافنا .

وبهذا المعنى تصبح النظرية العضوية أقرب ما تكون اتجاها أو موقفا أو 'طارا مرجعيا ، من أن تكون نظرية منظمة في السلوك . فهى تقول فى الحقيقة ، انه طالما أن كل شيء يرتبط بالكل فان الفهم الحقيقى يكون نتيجة وضع الظاهرة فى مكانها الصحيح من السياق الكلى للنظام الكلى . وهى توجه الباحث ليأخذ فى اعتباره نسيج المتغيرات بدلا من الاقتصار على أزواج من المتغيرات ، وأن ينظر الى الواقعة التى يدرسها بوصفها جزءا مكونا لنظام بدلا من كونها حادئا منعزلا . ان فهم لقوانين التى يعمل بمقتضاها النظم هو فى حقيقة الأمر الغاية النهائية لآى عالم ، انه المثل الأعلى الذى يروج دائما بلوغه . وتؤكد وجهة النظر العضوية كما تطبق داخل نطاق علم النفس الانسانى ، ان الشخص الكلى هو الوحدة الطبيعية للدراسة . وطالما أن الكائن الانسانى السوى الصحيح ، أو أى كائن عضوى آخر فى هذا المجال ، يقوم بوظائفه دائما ككل منظم فانه تجب دراسته ككل منظم . وبينما تعترف النظرية العضوية بأن الأساليب الفنية فى البحث والتحليل الكمي ربما لا تسمح للباحث السيكولوجى أن يحقق الهدف العضوى بدراسة الشخص كله ، فانها تحت علم النفس على البحث عن وسائل تصلح لتحقيق ذلك . فاذا كان من المتعذر ايجاد وسائل كمية ، فان استخدام المناهج الكيفية يصبح واجبا . وعلى علم النفس فى هذه الفترة أن يشرع فى العمل من أجل تطوير الطرق التى تقترب به من

الهدف العضوى لفهم الشخص ككل . ونظرية الكائن العضوى بهذا المعنى أقرب الى أن تكون مجموعة من التوجيهات أكثر منها نظاما من الحقائق والمبادئ والقوانين .

وليس هناك نظرية عضوية رسمية واحدة للشخصية ، بل هناك نظريات كثيرة . وتتحدد النظرية العضوية فى الشخصية باتجاه صاحب النظرية ، وليس بمحتوى النموذج المكون للشخصية . فإذا كانت النظرية تركز الاهتمام على الكائن العضوى الكلى بوصفه نظاما موحدا ، بدلا من التركيز على السمات المتميزة أو الدوافع أو العادات ، فإنه يصبح من الممكن إذن أن يطلق على النظرية أنها نظرية عضوية . فجولدشتين ، وأنجيلال ، ومازلو ولكي وأولبورت وموراى وهيرفى وروجرز وفرويد ويونج وجميع أصحاب نظريات الشخصية المعاصرين فى نهاية الأمر يتبنون اتجاها عضويا وإن كانت توجد بين هذه النظريات فروق جذرية . فما يجده جولدشتين فى الكائن العضوى ليس هو على وجه الدقة ما يجده فيه أولبورت أو فرويد ، وإن كان من الممكن أن يندرج ثلاثتهم بدقة ضمن الاتجاه العضوى فى اتجاههم العام .

والقليل جدا من الخطأ يمكن أن يوجه الى المنهج العضوى لأنه يحظى بقبول عام ، ولكن فى استطاعة المرء أن يقوم نظرية عضوية معينة كنظرية جولدشتين أو انجيلال . وربما كان أكثر الاتهامات جديده ذلك الذى وجه الى اتجاه جولدشتين فى النظرية العضوية بزعم أنه ليس كليا بما فيه الكفاية . فجولدشتين يتناول الكائن العضوى كوحدة منفصلة منزعلة عن بقية العالم . والجلد هو الحدود الفاصلة بين الكائن العضوى ، والعالم ، ويتم التبادل عبر هذه الحدود ، ولكن الكائن العضوى والبيئة يعاملان بوصفهما مكانين منفصلين . والاتجاه الكلى الشامل لا يفصل هذا الفصل التمسفى بين ما يحدث داخل الجلد وما يحدث خارجه . بل يجب اعتبار الكائن العضوى جزءا متفاضلا من نظام أكبر ، يشمل العالم كله . وبينما يعترف جولدشتين بصحة هذا النقد ، يجيب بأن الكون بأسره شيء من الضخامة بحيث يصعب على أى عالم دراسته . ويجب على صاحب النظرية الكلية أن يكون واقعا فيما يتعلق بما يمكن أخذه فى الاعتبار وبما لا يمكن أخذه فى الاعتبار . ونحن نستطيع أن نتصور أن وقائع الفضاء الخارجى تؤثر فى سلوكنا ولكننا لا نمتلك الوسائل لادراج هذه الوقائع داخل نطاقنا العلمى . ولن نستطيع معرفة زهرة ثينيسون فى الحائط المشقق غير ثينيسون نفسه ، وانها لحقيقة شعرية مؤثرة القول القائل « الكلى والكلى يجب أن أعرف ، من هو الله ومن هو الانسان » ، ولكن يصعب أن تكون هدفا قابلا للتحقيق

وبالرغم من ارتباط كل شيء بكل شيء آخر فجولدشتين يعتقد أن كثيرا من المكونات التي يتكون منها النسيج الكوني يرتبط ارتباطا بعيدا للغاية بعضها ببعض بحيث يمكن تجاهلها دون أن يحدث ذلك ضررا خطيرا بفهمنا للشخصية . ولكن أين يستطيع المرء أن يضع خطا فاصلا ويقول « وراء هذه الحدود لا تتجاوز التأثيرات صفرًا تقريبًا ؟ » فإذا كان كل شيء جزءاً من مكونات البناء الأعظم للطبيعة فكيف نستطيع أن نعرف دون اجراء اختبار ما له صلة وما ليس له صلة . والإجابة كما هو واضح أن ذلك أمر لا يمكن معرفته ويطلق و « أ هانت في استعراضه لكتاب « الكائن العضوي » (١٩٤٠) The Organism على هذا اسم التناقض العضوي . فصاحب النظرية العضوية ينكر صدق المفهومات الجزئية الا انه يضطر الى استخدامها فإذا كان لجولدشتين مبرر في معالجة جزء ، أى الكائن العضوي ككل منفصل ، فلماذا اذن لا يكون هناك مبرر لاختصائي نفسى آخر فى اعتبار التعلم أو الإدراك أو الانفعال عمليات كلية ان المجال الحيوى عند انجبال محاولة لتوسيع الأساس الكلى للنظرية العضوية . فبحسب هذا التصور يكون الكائن العضوي والبيئة قطبي نظام أكبر ، وإذا كان انجبال يعنى بالبيئة كل شيء فى العالم عدا الكائن العضوي فان النظام الكلى للمجال الحيوى يصبح مطابقا للعالم أو الكون وبذا يحل التناقض .

وتبين لنا الفروض المتضاربة التي وضعت فى تفسير سلوك الانسان أن مسألة تقرير حدود نظام ما ليست أمرا أكاديميا . مثال ذلك أن محاولات جادة قد بذلت ، لتبين أن مسار النجوم يؤثر فى سلوك الانسان . وأن الوقائع التاريخية الدارسة بل وما قبل التاريخ ، وكذلك الوقائع المقبلة ، لها جميعا تأثير على السلوك الراهن . وإذا ثبت أن الفراسة وقراءة الغيب وتبادل الأفكار على البعد أمور حقيقية – والكثيرون يؤمنون هذه الأيام بأن هذه جميعا ظواهر حقيقية – فان حدود النظام الكلى الذى ينتمى اليه الفرد سيستمد امتدادا كبيرا . وعلى ضوء هذه الاعتبارات قد يسأل نقاد جولدشتين السؤال التالى : لماذا نقف عند المجلد أو حتى عند حدود البيئة القريبة ؟

وقد وجه عدد من الانتقادات النوعية المختلفة الى نظرية جولدشتين . انتقد لعلم تفرقة كما يجب بين ما هو فطرى فى الكائن العضوي وما وضعتة الثقافة فيه ، وقد أثار على سبيل المثال كاتسوف Kattsoff (١٩٤٢) هذا السؤال . كذلك اعتبر مفهوم تحقيق الذات عند جولدشتين ذا طبيعة عامة للغاية ، مما يجرده من فائدة القياس بتنبؤات محددة . ويعتبر سكينر (١٩٤٠) Skinner تحقيق الذات مفهوما ميتافيزيقيا لعلم امكان اخضاعه

للاختبار التجريبي . كذلك يعترض بعض الاخصائيين النفسيين على جولدمشتين لاهماله الواضح للتحليل الاحصائي مفضلا عليه الأسلوب الكيفي ، في دوره كباحث . ويمتد هؤلاء الاخصائيون النفسيون أن التحليل الكيفي يتسم بقدر كبير من الذاتية وأن من الصعب تكرار بحث اذا كان قائما على أسلوب كيفي خالص وكذلك لا يتفق اخصائيون نفسيون آخرون مع ما يراه جولدمشتين من انتقادات بخصوص استخدام الاختبارات النفسية فهم يرون أنه يجب اجراء الاختبارات وتقديرها بالطريقة المقتنسة ، وأنه يجب عدم تغييرها لتوافق حاجات الحالة الفردية . كذلك انتقد جولدمشتين لاسرافه في تأكيد النضيج وتجاهل التعلم وفي مبالفته في تأكيد أهمية الاتجاه المجرى في الوظائف النفسية . وأخيرا وجهت اعتراضات لمحاولته فهم الشخصية السوية بدراسة المرضى المضامين باصابات مخية . وبالرغم من هذه الانتقادات النوعية فإن الاتجاه السائد بين الاخصائيين النفسيين نحو الصياغات النظرية لجولدمشتين اتجاها يتسم بأعلى درجات التفضيل .

ولقد كان لأراء جولدمشتين مع غيره من الاتجاهات السيكلوجية الكلية للجشطلتيين مثل ليفين وتولمان تأثير كبير على علم النفس المعاصر كما أن وزنه كصاحب نظرية يصعب أن نبالغ فيه .

وعندما نشر في تقويم عمل انجيلال فاننا نواجه صعوبة أكبر بالمقارنة بجولدمشتين ، فقد قوبل كتاب انجيلال « أسس علم الشخصية ١٩٤٠ » باهتمام نقدي ضئيل عندما نشره كما أن الاستجابة العامة لأرائه خلال الخمسة عشر عاما الماضية كانت قليلة ، وهذا أمر يثير الدهشة ، لأنه كتاب منير للغاية وأنه في جوانب كثيرة على قدر كبير من الابتكار في الاستدلال النظري فحسب ، وانما لأن انجيلال أيضا قام بمحاولة جادة لصياغة نظرية للشخصية وهو أمر لم يتعرض له جولدمشتين . وسبب هذا الاهمال يرجع الى اخفاق انجيلال في أن يمزج تأملاته النظرية بالتربة المحسبة للملاحظات الاكليتنيكية والبحوث التجريبية . وبالرغم من أن انجيلال قد نشر عددا من البحوث فإنه لا يبدو أن بينها وبين موقفه النظري ارتباطا كبيرا . وعلى العكس منه جولدمشتين الذي تميز بشراء مادته الاكليتنيكية والمعملية والتي يؤيد ويصور بها نظريته الصامة . ومهما كان السبب في اخفاق علم النفس في الاستجابة لكتاب انجيلال ؛ فالحقيقة تظل باقية وهو أنه لم يصادف ما يستحقه من اهتمام نقدي .

لقد علق رابابوت عام ١٩٤١ في إحدى المناسبات في عرض له لكتاب من تأليف هاينز فيرر (١٩٤١) قائلا ان النظرية العضوية لم تضع نظرية

في الشخصية . واقترح في هذا الوقت المزج بين نظامي المدرسة العضوية والتحليل النفسي بحيث يزود ذلك علم النفس بنظرية شاملة في الشخصية . وبالرغم من أن نظرية انجيلال لا تتضمن تحليلا نفسيا بدرجة ملحوظة ، فانها نظرية عضوية في الشخصية .

ان مفهوم المجال الحيوي الذي يتضمن الكائن العضوي وبيئته معا لم ينجح تماما في ان يحل مشكلة كيفية ايجاد نوع من الوحدة الكلية بين الشخص والعالم . وعندما نقرا انجيلال يحيرنا ميله الى معاملة الشخص والبيئة لا كقطبين في كرة واحدة وانما ككيانين ، متمايزين يتفاعلان بعضهما وبعض ، فبالرغم من مفهومه عن مجال حيوي شامل فانه يكتب كما لو كان الامر لازال امر كائن عضوي في مقابل بيئة . فالبيئة تفعل للشخص اشياء والشخص يفعل في البيئة اشياء ، ولا يبدو انهما يسلكان بوصفهما مكونين في كل واحد . وبينما يبدو أن ليفين يسقط في شراك عالم سيكولوجي خالص ، يبدو أن انجيلال يضل سبيله في الكون كله . وحيث يناقش انجيلال مشاكل عيانية تتناول تنظيم الشخصية ودينامياتها وارتقاها فانه يدع جانبا فكرة السكل الكوني ويتناول الكائن العضوي والبيئة كنظامين منفصلين وان كان كل منهما يتوقف على الآخر ويعتمد عليه متفاعلا معه .

ان بعض مفهومات انجيلال ، وبخاصة ما يتعلق بتصميم الذات ، واستسلامها تتميز بطابع غيبي يحيط بها ، وان كان الاحتمال أنها لا تزيد في غيبيتها عن بعض مفهومات غيره من اصحاب النظريات العضوية . ان انجيلال يضيف على الشخص امكانيات تستخدم اما للسيطرة على البيئة او الخضوع لها ، لكنه لا يذكر ما محددات هذه الامكانيات ؟ ولماذا يفعل الشخص احد الأمرين دون الآخر . وبالرغم من أن انجيلال لا يتجاوز الحدود فيصيد تقديم مفهوم الروح أو غيره من المبادئ الحيوية من نوع مبدأ برجسون Elan Vital الطاقة الحيوية ، الا أن بعض أفكاره تشبه شيئا قريبا تلك الأفكار الميتافيزيقية .

وختاما يمكننا أن نقول منصفين أن نظرية الكائن العضوي ، بالرغم من كل جوانب ضعفها حاولت اصلاح الخطأ الذي ارتكبه ديكرات منذ ثلاثمائة قرون . فقد اصرت بوعى وحمية على أن الكائن العضوي ليس نظاما مزدوجا من العقل والجسم لكل منهما مبادئه المحركة أو الدافعة وانما هو كيان واحد يتكون من عديد من الوظائف الجزئية . وتستحق وجهة النظر العضوية لنشرها هذا المفهوم الاساسي وتطويره مالها من مكانة وتقدير مرموقين .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Angyal, A. *Foundations for a science of personality*. New York: Commonwealth Fund, 1941.
- Goldstein, K. *The organism*. New York: American Book Co., 1939.
- Goldstein, K. *Human nature in the light of psychopathology*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1940.
- Lecky, P. *Self consistency*. New York: Island Press, 1945.
- Maslow, A. H. *Motivation and personality*. New York: Harper, 1954.

REFERENCES

- Angyal, A. *Foundations for a science of personality*. New York: Commonwealth Fund, 1941.
- Angyal, A. The holistic approach in psychiatry. *Amer. J. Psychiat.*, 1948, 105, 178—182.
- Angyal, A. A theoretical model for personality studies. *J. Pers.*, 1951, 20, 131—142. (Reprinted in D. Krech and G. S. Klein (Eds.) *Theoretical models and personality theory*. Durham, N.C.: Duke Univ. Press, 1952, pp. 131—142.)
- Bertalanffy, L. von. An outline of general system theory. *Brit. J. Phil. Sci.*, 1950a, 1, 134—165.
- Bertalanffy, L. von. The theory of open systems in physics and biology. *Science*, 1950b, 111, 23—29.
- Coghill, G. E. *Anatomy and the problem of behavior*. London: Cambridge Univ. Press, 1929.
- Dewey, J. The reflex arc concept in psychology. *Psychol. Rev.*, 1896, 3, 357—370.
- Dunbar, H. Flanders. *Emotions and bodily changes*. 4th Ed. New York: Columbia Univ. Press, 1954.
- Freiman, I. S. Kurt Goldstein—an appreciation. *Amer. J. Psychother.*, 1954, 8, 3—10.
- Gelb, A., and Goldstein, K. *Psychologische Analysen hirnpathologischer Faelle*. Leipzig: Barth, 1920. (Partially translated in W. D. Ellis (Ed.) *Source book of Gestalt psychology*. New York: Harcourt, 1938, selections 26—30.)
- Goldstein, K. *The organism*. New York: American Book Co., 1939.
- Goldstein, K. *Human nature in the light of psychopathology*. Cambridge: Harvard Univ. Press, 1940.

- Goldstein, K. *After-effects of brain injuries in war*. New York: Grune and Stratton, 1942.
- Goldstein, K. *Language and language disturbances*. New York: Grune and Stratton, 1948.
- Goldstein, K., and Scheerer, M. Abstract and concrete behavior: an experimental study with special tests. *Psychol. Monogr.*, 1941, 53, no. 2.
- Goldstein, K., and Scheerer, M. Tests of abstract and concrete thinking. A. Tests of abstract and concrete behavior. In A. Weider (Ed.). *Contributions toward medical psychology*. New York: Ronald Press, 1953.
- Hanfmann, Eugenia, Rickers-Ovsiankina, Maria, and Goldstein, K. Case Lanuti: Extreme concretization of behavior due to damage of the brain cortex. *Psychol. Monogr.*, 1944, 57, no. 4.
- Hilgard, E. R. *Theories of learning*. New York: Appleton-Century-Crofts, 1948.
- Hunt, W. A. Review of K. Goldstein's *The organism*. *Psychol. Bull.*, 1940, 37, 637-639.
- Jackson, J. H. *Selected writings of John Hughlings Jackson*. J. Taylor (Ed.). London: Hodder and Stoughton, 1931.
- Kantor, J. R. *Principles of psychology*. 2 vols. New York: Knopf, 1924.
- Kantor, J. R. *A survey of the science of psychology*. Bloomington, Ind.: Principia Press, 1933.
- Kantor, J. R. *Problems of physiological psychology*. Bloomington, Ind.: Principia Press, 1947.
- Kattsoff, L. O. Review of K. Goldstein's *Human nature in the light of psychopathology*. *J. gen. Psychol.*, 1942, 26, 187-194.
- Krech, D. Dynamic systems as open neurological systems. *Psychol. Rev.*, 1950, 57, 345-381.
- Lecky, P. *Self-consistency*. New York: Island Press, 1945.
- Maslow, A. H. *Motivation and personality*. New York: Harper, 1954a.
- Maslow, A. H. *Personality problems and personality growth*. Unpublished manuscript, 1954b.
- Meyer, A. *The commonsense psychiatry of Dr. Adolf Meyer*. A Lief (Ed.). New York: McGraw, 1948.
- Rapaport, D. Review of H. Werner's *Comparative psychology of mental development*. *J. genet. Psychol.*, 1941, 59, 429-434.
- Rennie, T. A. C. *Adolf Meyer and psychobiology; the man, his methodology and its relation to therapy*. *Pap. Amer. Congr. gen. Semant.*, 1943, 2, 156-165.
- Scheerer, M., Rothman, Eva, and Goldstein, K. A case of idiot savant: An experimental study of personality organization. *Psychol. Monogr.*, 1945, 58, no. 4.

- Skinner, B. F. Review of K. Goldstein's *The organism*. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1940, 35, 462—465.
- Smuts, J. C. *Holism and evolution*. New York: Macmillan, 1926.
- Werner, H. *Comparative psychology of mental development*. Rev. Ed. Chicago: Follett, 1948.
- Wheeler, R. H. *The science of psychology*. 2nd Ed. New York: Crowell, 1940.

الفصل التاسع

عام النفس الجبى عند شادون

يرى رجل الشارع في الخصائص الجسمانية لأقرانه من البشر ما يلقى ضوءاً على النواحي المتشابهة من انشخصية . فمن « المعروف جيداً » ان الرجل السمين مرح وكسول ، وان النحاف خجولون ومكتئبون ، وان الشعر الاحمر ينبيء عن الغضب السريع العنيف . ويمكن جمع قاموس كبير لمثل هذه الصفات التشخيصية ، وهذا هو بالضبط ما فعله الباحثون الاوائل مثل لافاتر (١٨٠٤) وجول وسبورزهايم (١٨٠٩) وفي السنين الأخيرة قدم غيرهم من دارسي السلوك الانساني (روستان ١٨٤٢ ، فيولا ١٩٠٩ ، سيجود ١٩١٤ ، ناكاراتي ١٩٢١ ، كرتشم ١٩٢١) مكتشفات مماثلة وحاولوا غالباً ادخال الضبط التجريبي عند تبيانهم لمثل تلك العلاقات . وهكذا نجد ان رجل الشارع والكثيرين من مفكري الماضي اشتروا في الاعتقاد بأن السلوك يرتبط من نواح هامة بالالوجه الملاحظة من تكوين الفرد الجسماني . ويدهشنا ان نجد ، على النقيض ان قلة من علماء النفس في بلادنا هذه يبدون اهتماماً بهذه المشكلة .

ان قبول نظرية أو أدلة ما لا يعتمد فقط على المكتشفات التجريبية التي يمكن جمعها لتدعيمها . فهناك اعتبارات كثيرة أقوى بما في ذلك المدى الذي تتلاءم فيه هذه النظريات مع التصورات أو المعتقدات المسبقة السائدة في حضارة و زمن معينين . وتعتبر المصاعب التي واجهت جاليليو في محاولة إقامة مفهوم عن الكون يقبل الرأي الأرسطي المعتم من الكنيسة مجرد مثال درامي لعملية تحدث دوماً في أشكال مخففة داخل كل العلوم التجريبية . وقد كتب مختلف الاساتذة عن نفور معظم علماء النفس المعاصرين من اعطاء فرصة عادلة لسماع البحوث فوق الحسية (الباراسيكولوجي) التي يقوم بها راين وزملاؤه . ويمكن إضافة امثلة كثيرة لهذا المثال ربما تشمل بينها علم النفس الجبل . ويبدو ان

مقاومة معظم علماء النفس الأمريكيين لامكان وجود رباط وثيق بين الجسم والسلوك أمر مرتبط بعدد من العوامل . فقد كانت إحدى النتائج الفرعية الهامة للديموقراطية الأمريكية ، والاخلاق البروتستانتية ، وعقيدة الرجل الذى يصنع نفسه بنفسه هي رفض جميع الصيغ التى تتضمن أن السلوك يمكن أن يكون مشروطا بالهظرة أو لا يتبدل أو قدرا محتوما . ولما كان من الشائع أن الصفات الفيزيقية ترتبط ارتباطا وثيقا بالعوامل الوراثية genetic فان اقتراح أن الصفات الفيزيقية والنفسية الوثيقة الصلة بعضها ببعض يبدو أنه يوحى بتأييد المحتمية الوراثية . ولا يكون من المدهش أن مثل هذا المفهوم لم يستطع أن يجمع حوله التأييد في مواجهة البيئة الطامية لعلم النفس الأمريكى . ويمكننا القول منصفين أن علماء النفس الأمريكيين على وجه العموم قد اهتموا بدرجة كبيرة دراسة هذه الفئة الهامة من التغيرات التى تتناول الوصف الفيزيقي للجسم .

وتقف أعمال ويليام . هـ . شلدون على مسرح الأحداث المعاصرة كإسهام فريد في وجه اللامبالاة أو العداوة لامكان وجود ارتباط قوى بين الصفات البنائية والسلوكية . وسنحاول في هذا الفصل أن نضع أعمال شلدون في مكانها التاريخي ثم نضيف بعد ذلك بحوثه ونظرياته . وقد يبدو من غير الحكمة - من بعض النواحي - أن نركز على عمل رجل واحد على حين عمل الكثيرون في هذا المجال على مر السنين . إلا أن أعمال شلدون من الناحية التجريبية تتفوق تفوقا كبيرا على أعمال أسلافه وبالنسبة لعالم النفس المعاصر فان بحوث شلدون وزملائه هي التى أدت في الاغلب الى جعل هذا الموضوع أمرا له أهميته .

وهناك كلمة يجب أن نقال بشأن المعنى الذى سنستخدم فيه كلمة جبل Constitutional . فهناك تعريفان لها غالبا ما يصادفهما المرء في علم النفس . وتستخدم الكلمة في التعريف الأول لتشير الى تلك العوامل التى توهب أو توجد عند الميلاد . وتكون الكلمة هنا مجرد وسيلة مختصرة للإشارة الى ما تسهم به المورثات genes بالإضافة الى البيئة أما الاستخدام الثانى فيجعل الكلمة معادلة للتكوين الأكثر أساسية للجسم . فنجد شلدون يقول « تشير الجبلية الى تلك النواحي من الفرد اللامتغيرة والتي أكثر ثباتا نسبيا - الموروفولوجيا (الشكل الظاهري) الفسيولوجيا وظائف العدد الصماء . الخ - ويمكن مقابلتها بتلك النواحي التى أكثر مرونة وقابلية للتعديل نسبيا بواسطة الضغوط البيئية أى العادات والاتجاهات الاجتماعية والتربية . الخ » (شلدون ١٩٤٠ ص ٢)

ويصبح علم النفس الجبلي بهذا الشكل ، كما يوحى هذا التعريف هو « دراسة النواحي النفسية للسلوك الانساني كما ترتبط بمورفولوجيا وفسولوجيا الجسم » (شلدون ١٩٤٠ ص ١) . ومن الواضح أن هذين الاستعمالين بينهما شيء كثير مشترك اذ يفترضان أن كلا من البناء الفيزيقي والوظيفة البيولوجية وثيقا الصلة بالمحددات قبل الولادة للسلوك .

وستنتج في هذا الفصل التعريف الذي وضعه شلدون بالطبع وتبقى أمامنا مسألة احتمال أن تعبير جبلة يؤكد بنفس المقدار كلا من البناء الفيزيقي والوظيفة البيولوجية . وهو يجب أن يشمل الاثنين منطقيا . فالمرء الذي يدرس العلاقة بين السلوك والنواحي القابلة للقياس في الجهاز العصبي المستقل أو الغدد الصماء يجب أن يعتبر عالما نفسيا مثله مثل دأرسى الخلقة . ومن الناحية التاريخية فإن العبارة تستخدم عادة لتشير الى المنظرين أو الباحثين الذين ألحوا على العلاقة بين النواحي البنائية للجسم (الخلقة أو البنيان الجسمي) وبين السلوك والنسبة لغرضنا الحالي فإن عالم النفس الجبلي هو الذي يبحث في الأساس البيولوجي للفرد عن عوامل تلعب دوراً في تفسير السلوك الانساني .

ولما كانت المعلومات أكثر توفراً عن المورفولوجيا (الشكل الظاهري) منها عن النواحي الاخرى من هذا الاساس فإن دراستنا بالضرورة ستدور في أغلبها على اعتماد السلوك على الخلقة أو البنيان الجسمي .

وقبل أن نتعرض لنظريات شلدون سنعرض لبعض الاعمال الهامة التي سبقته . وسيكون عرضنا التاريخي موجزاً بالضرورة . ويمكن للقارئ المهتم أن يجد ما يشبع فضوله في كتاب أولبورت (١٩٣٧) وكتاب شلدون (١٩٤٠ - ١٩٤٤) .

علم النفس الجبلي في الماضي

تسبق النظريات التي تقترح وجود صلة بين البنيان الجسمي والسلوك ميلاد علم النفس الاكاديمي بعنة قرون . ولم تبدأ هذه النظريات في اغوار الماضي فحسب بل ان الكثير منها يتطابق بشكل مدعش مع

نظريات لا تزال شائعة . وتمزى بداية البحث في هذا الميدان الى أبو قراط الذى لم يقترح طرزا جسمية Typology فحسب ولكنه اقترح كذلك طرزا مزاجية وتصورا لسوائل الجسم يتفق الى حد كبير مع التأكيد المعاصر على أهمية افرازات الغدد الصماء بوصفها محددات للسلوك (هوسكينز ١٩٤١) . وقد قدم تصنيفا مزدوجا للابنية الجسمية يقسم الافراد الى فئتين : البدين القصير القامة والنحيف الطويل القامة . ومع أن هذا التقسيم يبدو تقسيما بدائيا فانه لا يبعد كثيرا عن العديد من التصنيفات التى اقترحت خلال القرن الماضى . ورأى أبو قراط ان هذه الطرز الجسمية تصبحها اصابات بأمراض متميزة . فالقصر ذو البنيان الجسمى الغليظ اميل الى الاصابة بالسكته أما الطويل النحيف فصبيه غالبا مرض التدرن الرئوى . ومن هنا كان ميلاد الطب الجيلى ، وهو الميدان الذى ينشط فيه حاليا شلدون . وبالإضافة الى ذلك فقد اقترح أبو قراط تقسيم الناس الى أربعة طرز أساسية من الامزجة تنظر عناصر امباذوقليس الأربعة - الهواء ، الماء ، النار ، والتراب . كما يوجد بالجسم أيضا أربع مواد سائلة تحدد السيادة النسبية لأحدهما الطراز المزاجى الذى سينتمى اليه الفرد . ومن هنا نشأ الاقتراح بتصنيف الافراد وفق المزاج بالإضافة الى القول بان اسوائل الموجودة داخل الجسم (افرازات الغدد الصماء) لها تأثير محدد على المزاج الذى سيظهر لدى الفرد .

س وتلا أبو قراط الكثير من الاساتذة والكتاب المتاملين الذين تناولوا هذا الموضوع ولكن بالنسبة لفرضنا فان الاسهامات الهامة التالية قدمها الباحث الفرنسى روستان عام ١٨٢٤ . وتعود أهمية روستان الرئيسية الى توصية بتصنيف رباعى لطرز البنيان الجسمى . وكانت طرزه هى :

الهضمى والمضلى والمخى والتنفسى على التوالي وكانت خطته تشمل طرز أبو قراط مع اضافة ابعاد معينة هامة . وفي الواقع فان طرزه الهضمى والمضلى والمخى تمثل لب معظم الخطط الحديثة للتصنيف الى طرز أو لقياس البنيان الجسمى . وفيما بعد بسط فيولا (١٩٠٩) وهو عالم أنثروبولوجيا ايطالى - خطة روستان واقترح أن يصنف البنيان الجسمى الى ثلاث فئات ، الجسم الصغير macrosplanchnic والجسم العادى normosplanchnic والجسم الكبير microsplanchnic

ويتميز الأول بالجسم الصغير والاطراف الطويلة ، والآخر بالجسم الكبير والاطراف القصيرة ، ويقع الاوسط بين الطرفين . وكانت الاضافة

الخاصة التي قمها فيولا هي أنه كان أكثر اهتماما بتفاصيل عملية القياس عن معظم من سبقوه وقد اقترح عددا كبيرا من القياسات الجسمية النوعية التي يمكن استخدامها في تصنيف الفرد .

وشرح علم النفس الجبلي في مساره الحديث على يد ارنست كرتشمير (١٩٢١) . وكان كرتشمير طبيب امراض عقلية المانيا أسهم اسهامات بارزة في الطب العقل في أوروبا ، الا أنه يشتهر في الولايات المتحدة بدراساته عن العلاقة بين الاضطراب العقلي والبنيان الجسمي . وقد اقتنع كرتشمير خلال ممارسته للطب العقل أن هناك صلات هامة بين البنيان الجسمي والسلوك الظاهري وبخاصة فيما يتعلق بطراز السلوك البادي في الشكلين الأساسيين من الاضطرابات العقلية : الفصام وذهان الهوس - الاكتئاب . والفصام هو أكثر أنواع الاضطرابات الذهانية شيوعا ويتميز بفقدان الوجدان أو التجاوب الانفعالي والانسحاب من العلاقات الشخصية المتبادلة العادية وغالبا ما يصاحبه الهوس والهلديان . أما ذهان الهوس - الاكتئاب فيتميز في شكله المتطرف بتقلب الحالة المزاجية بحيث يكون الفرد حيناً في فترة زائدة النشاط مستثاراً (هوس) يجب كبح جماحه بالقوة حتى يمنع من ايذاء الآخرين ، وحيناً آخر يكون خاملاً متبلداً مكتئباً تجب العناية به كما لو كان طفلاً .

وعلى أساس من هذا الاهتمام العام أسهم كرتشمير في انجاز ثلاث مهام :

(١) ابتكار وسيلة للتصنيف الموضوعي للأفراد من خلال عدد من فئات البنيان الجسمي . (٢) ربط البنيان الجسمي كما تقيسه الفئات التي سبق وضعها بالشكلين الرئيسيين من الدهان الفصام والهوس - الاكتئاب . (٣) الربط بين البنيان الجسمي وبين أشكال السلوك السوية الأخرى .

وكان كرتشمير في قياسه للبنيان الجسمي دقيقاً ومنظماً بدرجة مدهشة فلكي يحقق اتساق القياس وامكان تكراره وضع قائمة فحص Checklist محكمة تمثل الأجزاء الرئيسية من الجسم وحول كل جزء مجموعة من العبارات التي تصفه . وكان الباحث يملأ القائمة خلال وقوف المفحوص عارياً أمامه . ونتيجة للتحليل المركب لهذه التقديرات والمقاييس الموضوعية وصل كرتشمير الى ادراك وجود ثلاثة طرز أساسية للبنيان الجسمي .

ويسمى الطراز الاول الواهن Asthenic ويشير الى البتينان

الجسمى الضعيف الطويل ويقول عنه كرتشمير « ٠٠ » ويتميز بنقص فى الثخانة مع طول غير منقوص فى المتوسط . ويوجد هذا النقص فى نمو الثخانة فى جميع أجزاء الجسم - الوجه والعنق والجذع والأطراف وفى الأنسجة كافة - الجلد والدهن والعضلات والمظام والجهاز اللىورى كله . وبناء على هذا نجد أن الوزن فى المتوسط كذلك محيط الصدر وعرضه أقل من التقدير العام لدى الذكور . . شخص نحيف ضيق البناء ، يبدو أطول مما هو عليه وجلده فقير فى الإفرازات والدم ، ضيق الكتفين تتدل منهما ذراعان نحيفان من عضلات رفيعة بين عظام رقيقة وصدر مستو طويل ضيق نستطيع أن نعد الاضلاع من خلاله ، وهى اضلاع ذوات زوايا حادة ومعدة رقيقة . . « (١١٢٥ ص ٢١) .

أما الطراز الثانى فهو الرياضى athletic وهو ذو بنية جسمى عضلى قوى ويعرف الطراز اللىورى الرياضى بالنمو الشديدي للهيكل العظمى والعضلات وكذلك الجلد . . ويتراوح الحجم بين المتوسط والطول مع كتفين عريضتين بارزتين بشكل خلس ، وصدر فخم ، ومعدة صلبة وجذع يضيق تجاه الخصر بحيث أن الحوض والأرجل الضخمة تبدو أحيانا أكثر رشاقة إذا ما قورنت بحجم الأطراف العليا وبخاصة الكتفان المتضخمتان « (١١٢٥ ص ٢٤) .

والطراز الثالث هو البدنى pyknic ويتميز بالامتلاء وبنائر الطراز الهضمى عند روستان . ويقول كرتشمير « يتميز الطراز البدنى بالنمو المحيطى البارز لتجاويف الجسم (الرأس والصدر والمعدة) وبالميل الى توزيع الدهن حول الجلد . . متوسط الطول مستدير القوام ، وجه ناعم عريض فوق رقبة قصيرة ضخمة تستقر بين الكتفين ويبرز كرش ضخم سمين من الصدر العميق التجويف يتسع فى اتجاه الجزء الاسفل من الجسم (١١٢٥ ص ٢٩) .

وزيادة على هذه الطرز الثلاثة ، أضيف طراز جديد هو المختلط . dysplastic ويشمل مجموعة الحالات التى تظهر فيها جوانب بارزة الانحراف فى بناء الفرد بحيث تبدو حتى لعين الملاحظ الصابر نادرة ومدمجة وقبيحة .

وبدا كرتشمير بناء على هذا التصنيف للبنية الجسمى يقارن بين مرضى العقل فدرس ٢٦٠ مريضا ذهانيا يشملون ٤٣ رجلا ، ٤٢ امرأة من المرضى بجنون الهوس الاكثاب ، ١٢٥ رجلا ، و ٥٠ امرأة من المرضى

بالفصام . وعندنا صنف المرضى وفقا لحطة كرتشمير كان توزيعهم كما هو مبين بالجدول رقم (١) وخرج كرتشمير من مكتشفاته بأن هناك « قرابة بيولوجية واضحة » بين ذهان الهوس - الاكتئاب والبناء الجسمي البدن وارتباطا مائلا بين الفصام والوهن والرياضى وبعض أنواع البنين الجسمى المختلط .

ولا يخفى كرتشمير اعتقاده بأن الحالات الذهانية هي استمرار مباشر للسلوك السوى . ويرى أنه يوجد بالإضافة الى الفصام حالة شبه فصامية schizoid على الحدود الفاصلة وحالة مزاجية شبه فصامية schizothymic وهي سوية ولكنها تشبه الفصامية مع ذلك . وبالمثل توجد شخصية شبه دورية وهي حالة مضطربة نوعا متصلة بذهان الهوس - الاكتئاب وحالة مزاجية شبه دورية سوية ولكنها مرتبطة برغم ذلك بالحالة الذهانية . وبلنظر الى العلاقة بين البنين الجسمى والدهان وكذلك افتراض كرتشمير الاستمرار بين السوى والشاذ من السهل أن نرى أن كرتشمير يتوقع وجود علاقة بين البنين الجسمى وانماط السلوك لدى الأسوياء . الا أن هذه العلاقة تظل مجرد ترجيح لأن كرتشمير لا يمدنا بأى أدلة مباشرة لتدعيم زعمه .

الجدول رقم (١)

تواتر طرز البنين الجسمى فى نوعين من الدهان

عدد الحالات		
الفصام	ذهان الهوس - الاكتئاب	
٨١	٤	الواهن
٣١	٣	الرياضى
١١	٢	الواهن - الرياضى المختلط
٢	٥٨	البدن
٣	١٤	البدن المختلط
٣٤	-	المختلط
١٣	٤	المشوه وغير المصنف
١٧٥	٨٥	

(بتصرف عن كرتشمير . ص : ٣٥)

وبرغم أنه من الواضح أن كرتشمير قد أسهم اسهاما كبيرا في علم النفس الجبيل فإنه من الواضح كذلك أن عمله ليس فوق مستوى النقد . وأهم الاعتراضات التي وجهت إليه أنه فشل في التحكم بدقة في فروق السن بين مرضى الهوس - الاكتئاب ومرضى الفصام . وهكذا فإن ما يلاحظ عموما من أنه مع ازدياد السن يزيد وزن معظمنا ويصبح أقرب شبها بالطراز البدين بالإضافة الى الأدلة على أن الإصابة بنهسان الهوس - الاكتئاب تحدث عادة في فترة متأخرة في العمر عن الإصابة بالفصام - قد يفسر لنا العلاقة التي لاحظها كرتشمير بين البنيان الجسمي والدهان . فضلا عن ذلك فقد صادف مختلف الباحثين صعوبات جمة في تصنيف الأبنية الجسمية وفقا لفئات كرتشمير بطريقة موضوعية قابلة للتكرار .

إن الأعمال التي وصفناها وبخاصة ما قام به ارنست كرتشمير تمدنا بالارضية التي لا غنى عنها والتي نشأت عنها نظريات شلدون ومناهجه . وعلى الرغم من صدق القول بأن عمل شلدون يتفوق تفوقا ساحقا في كثير من النواحي على أعمال سابقيه فإنه من غير المحتمل أن إنجازاته ما كانت لتتم دون الجهود المضنية المبكرة التي سبقته . ونعود الآن الى تناول الأصول التي استند إليها شلدون ونظريته وبحوثه .

وليم . هـ . شلدون

ولد شلدون عام ١٨٩٩ في واردويك ، رود ايلاند حيث نشأ في محيط زراعي . وكان للجو الريفي الذي أحاط ببداية حياته وعلاقته الوثيقة بآبيه الذي كان عالما بالحيوان والنبات ومريبا للماشية ، أثر لا يمحي على قبحه ونظريته الى السلوك الانساني . ويتضح في كتاباته - حتى اليوم - الأثر الواضح لاهتمامه بعالم الحيوان ، ويبدو أن الكثير من أفكاره المتعلقة بمحددات السلوك الانساني قد انبعثت من الفته الحميمة بأساليب وتربية الحيوانات . وقد تعلم في المدارس العامة والتحق بجامعة براون حيث حصل على درجة البكالوريوس في الآداب عام ١٩١٩ ثم حصل على درجة الماجستير في الآداب من جامعة كولورادو ، ثم درجة الدكتوراه في علم النفس من نفس الجامعة ، ثم درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة

شيكاغو عام ١٩٢٦ وعمل مدرسا في علم النفس بجامعة شيكاغو من ١٩٢٤ الى ١٩٢٦ ثم أستاذا مساعدا لعلم النفس لمدة عام واحد بكل من جامعتي شيكاغو ونورث وسترن وعمل بعد ذلك أستاذا مساعدا في جامعة وسكونسن من ١٩٢٧ حتى ١٩٣١ . وبعد أن حصل على بكالوريوس الطب عمل طبيبا مقيما في مستشفى الاطفال بشيكاغو ثم حصل على منحة زمالة مكنته من قضاء علمين للدراسة الطب العقلي في الخارج . وقضى معظم تلك الفترة في زيوريخ مع كارل يونج ولكنه زار فرويد وكرتشمير . ولدى عودته الى بلاده في عام ١٩٣٦ عين أستاذا لعلم النفس بجامعة شيكاغو . وانتقل الى جامعة هارفارد في عام ١٩٣٨ وبقي بها عدة أعوام، تمت خلالها زاملته مع عالم علم النفس التجريبي البارز س . س . ستيفنز .

وبعد قضائه للخدمة العسكرية في فترة الحرب قبل شلدون عام ١٩٤٧ منصب مدير معمل البنيان الجسماني بكلية الأطباء والجراحين بجامعة كولومبيا وقد خلف في هذا المنصب جورج درابر أحد رواد الطب الجبلي ، وكان مثل درابر دارسا نشيطة للعلاقة بين المرض العضوي والبناء الفيزيقي .

وسارت كتابات شلدون المهنية في مجرى أسامي متسق بشكل ملحوظ . ففيا عدا دراستين شائقتين خارج الموضوع ، تمثل كتاباته محاولة لتشخيص ووصف المكونات البنائية الرئيسية للجسم الانساني ، (أنواع البنيان الجسمي للانسان ، ١٩٤٠) ، والمكونات الرئيسية للمزاج (أنواع المزاج ، ١٩٤٢) وتطبيق هذه المكتشفات في مجال الجناح (أنواع الشباب الجانح ١٩٤٩) . وقد عاد شلدون حديثا الى مشكلة وصف البنيان الجسمي في كتابه (أطلس الرجال) (١٩٤٥) . أما أول كتبه (علم النفس والارادة البروميتية ، ١٩٣٦) فهو مقال مثير للاهتمام عن دور الدين في الحياة الحديثة . كما يحدد في ذلك الكتاب ما يعتبره المصادر الرئيسية للصراع لدى الانسان الحديث . والكتاب الآخر الذي لا يرتبط عن قرب بعلم النفس كتاب فني يتناول تصنيف العمليات (السننات الامريكية الاولى ١٧٩٣ - ١٨١٤ ، ١٩٤٩) ويبرهن فيه شلدون على كفاءة في تصنيف العمليات القديمة ماثلة لكفائه في تصنيف الابنية الجسمية للانسان . ويعمل شلدون الآن بهمة في « أطلس النساء » وكتاب آخر حول العلاقة بين البنيان الجسمي والمرض العضوي .

ان اتساع دربة شلدون يجعل من الصعب تحديده شخصيات معينة

أثرت في تطوره المهني وهو على أى حال يوضح بجلاء في كتاباته انه مدين لاسلافه في مجال علم النفس الجليل وخاصة كرتشر وقيولا . وبالإضافة الى ذلك - برغم انه قد عبر بشدة عن تحفظاته بالنسبة لطبيعة تأثير فرويد على علم النفس - فهناك دلائل على بعض التأثير بهذا الجانب وباعمال كارل يونج . كما كان لكتابات وليم جيمس - الذى كان ابا لشيلدون في العاص - تأثير ملحوظ عليه . وانعكس تدريب شلدون الطبي واهتماماته الاولى بتربية الحيوانات بوضوح في اهتمامه المهني بالعوامل البيولوجية والوراثية في السلوك . وفي النهاية ، فقد كان للدقة الاجرائية والقياسية عند س . س . ستيفنز اثرها على شلدون خلال فترة زمالتهما .

ونجد في نظرية شلدون عرضا واضحا قويا للأهمية الحاسمة لبناء الجسم الفيزيقي كمحدد أولى للسلوك . وهو فضلا عن ذلك يشخص مجموعة من المتغيرات الموضوعية يمكن استخدامها كراس جسر لوصف البناء الجسدى والسلوك . ففي هذا المجال الذى كان استخدام الطرز هو القاعدة فيه - تلك الطرز التى اشار اليها هوايتهيد بقوله « انها المنزل الذى يقع فى منتصف الطريق الى القياس » - أدخل شلدون مفهوا المتغيرات المتصلة ودافع بقوة عنه . وزيادة على ذلك فان أساليبه لتقدير الحصائص البنائية للجسم تتضمن استخدام الصور المقننة واجراءات أدق تخصصا وأكثر قابلية للاعادة من تلك التى توصل اليها سابقوه .

ويكمن خلف هذا الالاحاح على البنيان الجسدى وقياسه اقتناع عميق بان العوامل البيولوجية - الوراثية ذات أهمية هائلة في تحديد السلوك واعتقاد بان لغز الكائن الانسانى لن يزاح عنه الخموض الا بفضل ازدياد فهم هذه العوامل فالسيكولوجيا المكتملة لا يمكن أن توجد في فراغ البيولوجى . وهكذا نجد شلدون يتحول عن النظر الى العالم الخارجى في عالم سيكولوجى يركز على التعامل مع البيئة ويحملك بدلا عن ذلك في البناء الفيزيقي الذى يكمن فى سكون وراء جميع الظواهر السلوكية . وهو يفترض انه هنا فى البناء الجسدى يمكن لعالم النفس أن يجد الثوابت ، الابنية النمطية الراسخة التى يحتاج اليها لادخال الانتظام والاتساق فى دراسة السلوك الانسانى . ونجد كل ذلك متضمنا فى عبارته التالية :

« لقد ازداد اتضاح أن الموقف يتطلب علم نفس له اتجاه بيولوجى ، أو أن يتخذ علم النفس كإطار مرجعى اجرائى له وصفا لبناء الكائن الانسانى (وسلوكه) يمكن الدفاع عنه علميا . وربما كان هذا مساويا للقول بان علم النفس يتطلب اثنروبولوجيا فيزيقية كدعامة أساسية

مباشرة . فضلا عن ذلك فانه يتطلب انثروبولوجيا فيزيقية مصوغة في مكونات او متغيرات يمكن قياسها وتحديد كميتها عند كل من الطرفين البناء والسلوكي - الطرفين السيكلوجي والانثروبولوجي - على المتصل البناء - السلوك الذي هو الشخصية الانسانية ، (شلدون ١٩٤٩ ص ٧) .

ونحن لا نرى في وليم شلدون مجرد دارس للبنيان الفيزيقي ومؤمن بأهمية العوامل البيولوجية فحسب وانما نراه مناصرا ذا قدرة جدلية فريدة كذلك . فأسلوبه في الكتابة مباشر وغير تقليدي . وهو أستاذ باحث يسعده ايراد القضايا المتطرفة ويستطيع أن ينسج صورا لفظية اخاذة ليدافع عن هذه القضايا وهكذا نجد فيه ما نرتب من جمع بين الباحث الذي لا يكل والفرد القادر على المجادلة والذي يدافع عن موقع لا يكاد يمثله أحد اليوم في علم النفس الامريكي .

تركيب البنيان الجسمي

ان احد اوجه جاذبية نظرية شلدون في الشخصية يكمن في بساطتها ومخصصها . فعلى عكس الكثير من نظريات الشخصية التي تمدنا بعدد لا نهائي من الثغرات التي يمكن ملؤها بمعادلات سلوكية محيرة ، نجد شلدون يحدد عددا متميزا من المتغيرات الفيزيقية والمزاجية يعتبرها ذات أهمية اولية في تمثيل السلوك الانساني . ومع أنه لا يقلق الباب في وجه مزيد من الاحكام elaboration او التنقية فانه لا يمتذر كذلك عن جدوى هذه حاليا .

ويحاول شلدون ، متسقا مع المدخل الذي اتبعه معظم علماء علم النفس الجليل أن يشخص وأن يوفر مقاييس مناسبة للمكونات الفيزيقية للجسم الانساني . ومن المهم أن ندرك أنه لا يبحث ببساطة عن وسيلة لتصنيف أو وصف الابنية الجسمية . فان هدفه أكثر طموحا - وهو ايجاد مقاييس تشخيص بيولوجي - فهو يفترض أن المحددات الوراثية وغيرها من المحددات البيولوجية تلعب دورا حاسما في تطور الفرد . وهو يعتقد أيضا امكان الحصول على تمثيل ما لهذه العوامل من خلال مجموعة من القياسات قائمة على البنيان الجسمي . ففي رايه أن هناك بناء بيولوجييا مفترضا (الطراز البنياني) morphogenotype يكمن وراء البنيان الجسمي الخارجى الملاحظ (الطراز الظاهري) phenotype يلعب دورا هاما

لا في تحديد النمو الفيزيقي وحسب ولكن في تشكيل السلوك كذلك فالطراز البدني somatotype يمثل محاولة لتقييم البناء البيولوجي رغم انه يجب أن يتناول هذا الهدف بشكل غير مباشر ، وهو في استخلاصه له يعتمد اعتمادا كبيرا على قياسات البنيان الجسمي • physique .
وستتناول هنا معالجة شلدون لقياس النواحي الفيزيكية للفرد .
وتتبع ذلك بفحص جهوده لتشخيص أهم المكونات الكامنة وراء السلوك .

أبعاد البنيان الجسمي :

برغم أن شلدون كان على وعي بمحاولات سارقيه لتصنيف البنيان الجسمي الى طرز أو لقياسه ، فقد بدأ محاولاته بداية استنباطية وكانت اول مشكلة واجهته هي الحصول على عدد كبير من الابنية الجسمية التي يمكن اختبارها واعادة اختبارها . ولكي يجعل طريقته عملية وواقية بالفرض اخترع تكتيكا فوتوغرافيا يتضمن التقاط صور أمامية وجانبية وخلفية للأفراد في وضع موحد أمام خلفية موحدة * وأطلق على هذه الطريقة بعد ذلك اختبار الطراز البدني Somatotype performance test
وقد وصفها شلدون بالتفصيل في كتابه « اطلس الرجال » (١٩٥٤)

وحصل شلدون في أول دراسة هامة له عن البنيان الجسمي الانساني على حوالي أربعة آلاف صورة مقننة لطلبة جامعيين ذكور . وتم فحص هذه الصورة بدقة بعد ذلك بواسطة عدة قضاة بقصد استخراج المتغيرات الأساسية التي تفسر أو تكون أساس النوع في البنيان الجسمي . فإذا ما ظهر احتمال أن سعة معينة يمكن أن تكون مكونا اوليا ثم تقييمها على أساس المحكات التالية (١) هل يمكن ترتيب أربعة آلاف الفحوص جميعا من خلال هذه السمة ؟ (٢) هل يمكن لمختلف القضاة كل على حدة أن يصلوا الى اتفاق بشأن ترتيب الابنية الجسمية وفق هذه السمة ؟ (٣) هل يستحيل تفسير ذلك المتغير عن طريق دمج المتغيرات الأخرى التي سبق تشخيصها ؟ .

المكونات الأولية للبنيان الجسمي :

وبعد فترة كافية من لفحص الدقيق والتقييم لهذه الصور ، وحصل شلدون ، وزملاؤه الى قائمة من ثلاثة مكونات استنفدت امكانيات اكتشاف

أى مكونات جديدة وأصبحت هذه هى الأبعاد الثلاثة لتكنيك تقييم البناء الفيزيقي للجسم ، واحتل قياس هذه المكونات ووصفها الدقيق المرحلة الثانية من بحث شلدون .

وكان المكون الأول هو الداخلى التركيب (الاندومورفي) . فالفرد الذى يتمتع بقدر عال من هذا المكون وقدر منخفض من المكونين الآخرين يتميز بالنعومة والمظهر الكروي . ويرتبط بالنعومة والاستدارة تخلف فى نمو العظام والعضلات وانخفاض نسبي فى نسبة السطح الى الكتلة . ويكون مثل هذا الفرد كثافة نوعية منخفضة ويطفو عاليا على سطح الماء . وتعود تسمية هذا البنيان بلفظ endomorphy الى كون أن الأحشاء الهضمية كبيرة النمو فيه وأن العناصر الوظيفية لتلك الابنية تنمو أساسا من الطبقة الداخلية (طبقة الأندودرم) الجنينية .

أما المكون الثانى فإطلاق عليه المتوسط التركيب mesomorphy

فالبنيان الجسمى ذو النصيب الوافر من هذا المكون والنصيب الأقل من المكونين الآخرين يكون صلبا ومستطيلا مع سيطرة العظام والعضلات . فالجسم المتوسط التركيب قوى ، شديد ومقاوم للاصابات وعادة ما يكون مستعدا لتحمل المطالب الجسمانية الشديدة والملحة . ويفضل أن يكون الرياضى أو المغامر أو الجندى المحترف من أصحاب هذا البنيان . وقد استمدت كلمة المتوسط التركيب من كون أن الأجزاء الرئيسية فى هذا البنيان مستمدة أساسا من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) الجنينية .

وأطلق على المكون الثالث اسم الخارجى التركيب ectomorphy

ويكون الفرد الذى يتطرف فى هذا المكون وينخفض فى المكونين الآخرين طويلا يتميز باستواء الصدر ودقة الجسم . وفنادة ما يكون رفيعا خفيف العضلات . ومساحة السطح عند الخارجى التركيب أكبر منها لدى أنواع البنيان الجسمى الأخرى وذلك بالنسبة لكتلته ، وتتفوق الكتلة لديه على المساحة . كما يوجد لديه أكبر دماغ وجهاز عصبى بالنسبة لحجمه . ويستنتج شلدون من هذا أن بنيانه الجسمى مكون من أنسجة مستخلصة من الطبقة الخارجية (الأكتودرمية) الجنينية أكثر من غيره من الابنية الجسمية والخارجى التركيب اشد تعرضا للمنبهات الخارجية وذلك بسبب مساحة السطح الكبيرة المناسبة لديه . وهو بنيان جسمى فقير الاستعداد بالنسبة للعمل الجسمانى والتنافس المستمر .

وتقع بين التعريف العام للمكونات الأولية للبنيان الجسمي والتصوير النهائي للطرز الجسمية تفاصيل أسلوب موضوعي للقياس .
 فقد تم استخلاص اجراءات قياس مناسبة من خليط متشابك من تقديرات أو ترتيبات المحكمين وشبكة محكمة من القياسات الجسمانية .
 إذ تم تركيب كل واحد من أربعة آلاف المخصوص وتقييمه وفق كل واحد من المكونات الأولية . فامكن أخذ عدد كبير من قياسات الجسم (الانتروبومترية) يتكون معظمها من أقطار مختلف أجزاء الجسم ،
 وتحديد فعالية هذه القياسات في التمييز بين الافراد الذين يأخذون درجات عالية أو منخفضة في تقديرات المحكمين لكل واحد من المكونات .
 وكان يتم الاحتفاظ بالقياسات الجسمية التي تميز بدقة بين الافراد الذين اختلف الحكماء في تقديرهم على كل من المحكات الاولية الثلاثة ، على حين استبعدت بقية القياسات وتنتج عن هذا الاحتفاظ بجملة قياسات انتروبومترية يبلغ عددها ١٧ وكلها أقطار معبر عنها في صورة نسب الى طول الفرد . وسرعان ما اكتشف أن هذه الأقطار يمكن قياسها بنفس الدقة من الصور الفوتوغرافية مثلما تقاس من جسم الفرد نفسه وهكذا استبدل الأسلوب السابق في قياس الجسم مباشرة بقياسه من الصور المقننة .

وعند هذه النقطة كان قد تم ترتيب مجموعة يبلغ عددها أربعة آلاف فرد بواسطة المحكمين وفقا لمدى وجود كل واحد من المكونات الاولية في تكوينهم الجسماني وبالإضافة الى ذلك وضعت درجة لكل فرد تتراوح من ١ الى ٧ لكل واحد من المكونات . وهكذا وجد بالنسبة لكل ترتيب أو درجة على كل متغير عدد من الامثلة الملموسة في شكل أفراد من العينة الأصلية حصلوا على ذلك التقدير . وفضلا عن ذلك وجد بالنسبة لكل فرد مجموعة من القياسات الجسمانية التي ظهر أنها تميز بين الافراد الذين حصلوا على تقديرات مختلفة على المكونات الثلاثة . وأصبح في وسع شلغون عندئذ أن يتكرر عملية يمكن بها اذا ما اكتملت لديه القياسات الجسمانية السبعة عشر أن يستخلص موضوعيا التقدير الملائم المقابل على كل من المكونات الثلاثة . واستطاع أحد زملائه س . س . ستيفنز في مرحلة معينة من البحث أن يتكرر ماكينه برغم انها تدار بواسطة الانسان فانها اختصرت عملية وضع الدرجات الى مجموعة من الطيمات اليدوية بسيطة نسبيا برغم كثرتها . وقد استطاع أن يستخرج باستخدام عامل على غير دراية بعملية استخراج الطراز الجسمي - ولكنه يعرف التطبيقات اللازمة فقط لادارة الآلة - معمل

ارتباط ١٩٤. مائة حالة تم تقديرها بواسطة الآلة - ثم بواسطة طريقة الملاحظة المعتادة . ويقول شلدون (١٩٤٥) أنه وجد عموماً معامل ارتباط يبلغ ٩٠. أو يزيد بين مختلف التقديرات المستقلة التي يقوم بها الأفراد المعتادون على القيام بعملية استخراج الطراز الجسدى لطلبة الجامعة .

ولا تؤدي القياسات الجسمية الى درجة شاملة لكل واحد من المكونات فحسب وإنما تمدنا بتقديرات لهذه المكونات لحس مناطق من الجسم وهي : لرأس - الرقبة ، الصدر - الجذع ، الذراعان ، المعدة - البطن ، والساقان . ويوجد وصف كامل لعملية استخراج الطراز الجسدى للذكر في مؤلف شلدون الأخير « أطلس الرجال » (١٩٤٥) الذى يحتوى على صور فوتوغرافية ممثلة لطرز الجسم لأكثر من ألف رجل مأخوذة من عينة أشمل بلغت ٤٦٠٠٠ صورة .

وبرغم أن تطوير آلة لحساب الطراز الجسدى كان ذا نفع للأغراض التوضيحية فإن شلدون يعتبر أن ذلك الأسلوب فى استخراج طراز الجسم بطلء جدا وميكانيكى وغير مرن . ومن الناحية العملية فإن الطريقة الشائعة فى الوصول الى الطراز الجسدى تبدأ بالجداول التى تمدنا بتوزيع الطرز الجسمية المعروفة بالنسبة لمختلف النسب المستخلصة من قسمة طول الفرد على الجذر التكعيبي لوزنه . وتوجد هذه الجداول للأعمار ابتداء من سن ١٨ الى ٦٥ مقسمة الى فئات مدى كل فئة خمس سنوات ، فإذا عرفنا طول الفرد ووزنه وعمره فإننا بالبحث فى الجدول المناسب سنجد عدداً من الطرز الجسمية المقترحة (لا تزيد عادة عن ٤ أو ٥) باعتبارها الطرز الشائعة لهذه الفئة . ومن الممكن عندئذ اختيار اليق الطرز الجسمية عن طريق فحص القياسات الجسمية الواقعية أو عن طريق الفحص البسيط . ويمكن تسهيل عملية الفحص بالرجوع الى « أطلس الرجال » حيث توجد الصور الفوتوغرافية مرتبة ومفهرسة بحيث يمكن للباحث أن يجد بسرعة صور أى طراز جسدى مطلوب .

والطراز الجسدى للفرد هو تمييز المكونات الاولية للبنيان الجسدى معبرا عنها فى ثلاثة ارقام مستخلصة من القياسات السبعة عشر السابق ذكرها أو من عمليات مشابهة مكافئة لها ، منظورا اليها من خلال تاريخ دقيق للفرد . ويشير أول رقم منها الى المكون الداخلى التركيب (الاندومورفيه) والثانى الى المكون المتوسط التركيب (الميزومورفيه) والثالث الى المكون الخارجى التركيب (الاكثومورفيه) . وتتراوح الأرقام

من ١ إلى ٧ حيث يمثل الرقم ١ الحد الأدنى المطلق للمكون والرقم ٧ أكبر قدر ممكن منه . فإذا كان تقرير فرد ما مثلا ٧ - ١ - ١ فمعناه أن المكون الداخلي التركيب (الاندومورفيه) لديه في أعلى قيمة له ، على حين أن المكون المتوسط التركيب (الميزومورفيه) والمكون الخارجي التركيب في أدنى قيمهما . أما الفرد الذي يحصل على تقدير ٤ - ٦ - ١ فيكون حول المتوسط في المكون الداخلي التركيب (الاندومورفيه) ومرتفعاً جداً في المكون المتوسط التركيب (الميزومورفيه) ومنخفضاً جداً في المكون الخارجي التركيب (الاكثومورفيه) .

ولا تصنف الطرز الجسمية في الممارسة العملية على حسب تلك المقاييس ذات الدرجات السبع بل انها تقع كذلك في المسافات بينها . وهكذا تجد أن بنياناً جسيماً قد يصنف ١ - ١ - ٧ مبيناً أن صاحبه في أقصى درجات المكون الخارجي التركيب (الاكثومورفيه) ومنخفضاً جداً في المكونين الداخلي التركيب (الاندومورفيه) والمتوسط التركيب (الميزومورفيه) ويمكن أن يعطى نفس هذا البنيان تقديراً منخفضاً نوعاً في المكون الخارجي التركيب (الاكثومورفيه) وتقديراً مرتفعاً نوعاً ما في المكون الداخلي التركيب (الاندومورفيه) ويكون تصنيفه ١ - ١ - ٧ - ٢ - ١ - ٦ مبيناً أن تقدير المكون الداخلي التركيب (الاندومورفيه) يقع في المنتصف بين ١ ، ٢ وأن تقدير المكون الخارجي التركيب (الاكثومورفيه) يقع في المنتصف بين ٦ ، ٧ . وهذا يساوي القول بتقدير $\frac{1}{4}$ للمكون الخارجي التركيب (الاكثومورفيه) ، $\frac{6}{4}$ للمكون الداخلي التركيب (الاندومورفيه) إذا كانت التقديرات موزعة على مقياس من ١٣ نقطة بدلاً من ٧ .

وقد بدأ لكثير من القراء أن شلدون عنى في كتاباته الأولى أن الطراز الجسمي يمكن استخلاصه بدقة من مجموعة من صور الطرز الجسمية بمفردها . ولكنه وضع أخيراً أنه يحتاج للمعلومات المتعلقة بتاريخ تغير وزن الفرد وكذلك لسلسلة من الصور التي أخذت في أوقات متفرقة لكي يصل الى قياس أكثر دقة للطراز الجسمي (شلدون ١٩٤٩ ، ١٩٥٤) وتبدو هذه المواصفات الحديثة متعلقة بمعالجة أكثر وضوحاً للطراز البنياني morphogenotype الكامن وراءها . فكما سبق أن ذكرنا ينظر للطراز الجسمي كوسيلة لتقدير أو للاقترب من محددات السلوك الأساسية البيولوجية غير القابلة للتغير أي (الطرز البنائية من خلال قياسات مؤسدة في الأغلب على الجسم الخارجي الملحوظ (الطراز الظاهري) phenotype

ويتميز شلدون : لقد « كتبت المشكلة الرئيسية في بعوث البناء الجسمي ، حتى اليوم ، هي محاولة القاء ضوء تهيئدي على تصنيف سارك الانسان وفقا لطرازه البنائي . الا انك لا تستطيع ان تتناول الطراز البنائي تنوعا مباشرا . فكل ما تستطيع ان تراه او تلمسه او تقيسه او ترنه هو الطراز الظاهري . فالطراز الظاهري هو الجسم الحي كما يمثل أمام الإدراك الحسي في لحظة معينة . والطراز الظاهري يحكم التعريف ليس له بعد رابع ، ليس له امتداد في الزمن .. ولكن تتناول الطراز الاصيلي genotype مباشرة مستحيل اذ انه في الوقت الحاضر ليس الا تصورا تجريديا . لذلك كان من الضروري ادخال مفهوم اخبر وهو الطراز البعني somatotype وهو ليس طرازا ظاهريا وليس طرازا اصليا ولكنه انعكاس للاستمرار الذي يبدو موجودا بين هذين الوجهين من الحياة الضوية .. وتحديد الطراز البعني هو محاولة لعكس الضوء على الطرف الثابت من المتصل عن طريق التسجيل المتكرر للطرف المتغير منه والذي يمثل امام الحواس في اختبارات متتابعة للطراز الظاهري (١٩٥٤ - ص ١٩) .

وهكذا فان الطراز البدني هو حل وسط بين الطراز البنائي والطرز الظاهري . فهو أكثر من البنائي الجسمي physique الحالي للفرد ولكنه أقل من البناء البيولوجي للجسم والمستقل عن التأثيرات البيئية . ويرى شلدون أننا اذا كنا جادين في الحصول على أحسن تقدير للطراز البنائي الكامن ، فيجب - من الناحية المثلى - أن يكون لدينا ، لا مجرد تاريخ كامل للفرد بل وسجل لأجداده ولنسله وفضلا عن ذلك فيجب التقاط صور للطراز البدني على فترات منتظمة خلال حياة الفرد بالإضافة الى تطبيق كل ما يمكن إجراؤه من الاختبارات البيولوجية . والطراز البدني العادي لا يقترب - بالطبع - من هذا المثال ، ولكن يفترض أنه يسير في اتجاهه مبتعدا عن الوصف البسيط الاستاتيكي للبنيان الجسمي الحالي . ويتفق شلدون مع هذا الرأي في أحدث تعريفاته للطراز البدني فيقول :

ان الطراز البعني يحكم التعريف هو تنبؤ بالتتابع القبل للطرز الظاهرية التي سيبدو بها الشخص الحي اذا ظلت التغذية عاملا ثابتا او تغيرت في الحدود العادية فحسب . ونحن نعرف الطراز البعني بشكل اكثر دقة بأنه المسار او العمر الذي سيسلكه الكائن الحي في ظل ظروف التغذية العادية واتمام حالات الاضطراب المرضي الشديدة (١٩٥٤ - ص ١٩) .

وقد استطاع شلدون أن يستخرج من أربعة آلاف الحالة التي درسها أولا ٧٦ نمطا متميزا للطراز البدني . ومع أنه أقر باحتمال اكتشاف أنماط إضافية فإنه لم يتوقع أن يقارب عددها ٣٤٣ وهو الرقم الممكن نظريا . ويتجلى نفاذ بصيرته في هذا الصدد في حقيقة أنه بعد فحص ما يزيد على أربعة آلاف بنيان جسمي استطاع أن يقدم ٨٨ طرازا بدنيا مختلفا فقط .

ويصي شلدون تماما مدى كون الطراز البدني تجريدا من التعقيد البالغ لأي بنيان جسمي ملموس . وتستخدم المكونات الأولية في وضع الحدود لبنيان جسمي مصنف ، ولكن داخل هي تصنيف بذاته للطراز البدني لا يزال يوجد مجال للتنوع الهائل . وهذا التنوع تحصره جزئيا أو تفسره سلسلة من المكونات الثانوية . ويرى شلدون أن المكونات الأولية هي التي ترمي دعائم البنيان الجسمي وتسمح بالتصنيف الوافي الا أنه تظل هناك أبعاد إضافية ذات أهمية للبصاحث الذي يرغب في وصف البنيان الجسمي وصفا أكثر اكتمالا وسننتقل الآن الى هذه المكونات الإضافية .

المكونات الثانوية :

وأهم المكونات الثانوية هي الطراز الخلطي *dysplasia* وقد استعار شلدون هذا التعبير من كرتشور ليعبر به عن « أي خليط غير متسق أو غير مستو من المكونات الأولية الثلاثة في مختلف مناطق الجسم » (٩١٤٠ ص ٦٨) . ويكون مقياسا لعدم الانسجام بين مختلف مناطق البنيان الجسمي . كان يكون الرأس والرقبة لطراز بدني على حين أن الأرجل تمت لطراز بدني آخر . ونصل الى قياس الطراز الخلطي بأخذ تقديرات منفصلة للطراز البدني للمناطق الخمس للجسم وتقسيم الفروق لكل مكون على المناطق الخمس للجسم . ويتعبّر آخر ، يمثل الطراز الخلطي كمية الانحراف في الطراز البدني محسوبة لكل منطقة من مناطق الجسم الخمس . ويمكن استخراج درجات الطراز الخلطي منفصلة لكل مكون من المكونات الثلاثة ودرجة كلية كذلك . وتبين المكتشفات التمهيدية أن الطراز الخلطي أكثر ارتباطا بالكون الخلجي التركيب منه بالمكونين الآخرين . وأنه يوجد بدرجة ملحوظة في البنيان الجسمي الانثوي عنه

في البيان الذكرى . كما وجد شلدون (١٩٤٠) أنه يوجد بدرجة ملحوظة لدى الدهانين منه لدى طلبة الجامعة .

والمكون الثانوى الآخر هو ما أطلق عليه الانثوى التركيب gynandomorphy هو يعبر عن امتلاك البيان الجسمى سمات ترتبط عادة بالجنس الآخر . ويشار اليه « بالعامل G » ويمتلك الذكر الذى يحصل على درجة عالية من هذا المكون جسما لنا ووحضا واسما وعجيزة عريضة بالإضافة الى غير ذلك من السمات الانثوية بما فيها الأهداب الطويلة والملاحم الوجية الصغيرة . والمدى النظرى لهذا التغير يبدأ من (١) حيث لا توجد أى علامات تنتمى للجنس الآخر حتى (٧) الخنثوية . وقد ميز شلدون (١٩٤٩) فى دراسته للجناح بين المكون الأنثوى التركيب الأول والثانى . فالقياس الأول يمثل البيان الجسمى ، كما يرى من بعد أو كما يستخلص من صورة الطراز البدنى ، أما الثانوى فيستخلص من الفحص الفيزيقي أو الملاحظة المباشرة للشخص ويشمل الحركات الجسمية ، والصوت والتعبيرات الوجية .

وربما كان أهم المكونات اثاثوية قاطبة ، وأكثرها زئبقية بالتأكيد هو « الناحية النسيجية » textural aspect ويعتقد شلدون أن هذا المكون ذو دلالة كبيرة ويشبه الشخص المرتفع الدرجة فى هذا البعد بالحيوان النقى ويقول :

يوجد بداخل كل طراز بنى تدرج واضح نوعا ابتداء من النسيج الجسدى الخشن حتى الرقيق جدا .. ويوجد ارتباط مرتفع بين معاملات t-index ونعومة شعر الراس . وقد تربط خشونة النسيج الجسدى مع كبر حجم الخلايا المفردة لمختلف اجزاء الجسم (١٩٤٠ ، ص ٧٦-٧٧)

وفى منشور تال يرى ببساطة مقياس للرضا الجمالى aesthetic pleasingness ويحاول أن يجيب على سؤال رضامن ؟ بقوله :

ان ارتفاع درجة الكون ت بشر الاذياح للبيان لدى اى شخص متوسط الادراك الجمالى او مستوى تلوقه لجمال الشكل والنسب متوسط . وفيما عدا هذه العبارة البسيطة فانه يصعب ان تجعل تعريف ت موضوعيا وذلك بنفس الطريقة وربما لنفس السبب الذى يجعل تعريف الجناح امرا صعبا ولئى التحليل الاخر فانه بالنسبة لك أنت يكون الجناح سلوكا مغيبا للامال وارتفاع درجة ت مشرا للاذياح (١٩٤٩ ، ص ٢٢) .

ويقول شلدون أن المكون ت هو تقييم « للنجاح الجمالى للتجربة البيولوجية العينة التى هى الفرد نفسه (١٩٤٩ ، ص ٢١) » ويخلص الى أن هذا النوع من التقييم للبشر لا يمكن لمجتمع يرغب فى الحياة أن يتجنبه كما لا يمكن لعلم اجتماعى يروم معالجة أهم المشاكل الاجتماعية قاطبة أن يتجنبه كذلك .

وهناك فارق هام بين ت الأولية ، ت الثانوية يقابل التفرقة التى سبقت الإشارة إليها بين المكون الأنثوى التركيب الأولى والمكون الثانوى وتستخلص ت الأولية من صورة الطراز البدنى على حين تستخلص ت الثانوية من الاتصال الوثيق المباشر بالفرد . ويمدنا شلدون (١٩٤٥) بصور للطرز البدنية التى قدر أنها تقع فى الفئات من ١ الى ٦ لكل من الناحية النسيجية والمكون الأنثوى التركيب . ولم يلاحظ بنيان جسمى يستحق النهاية العظمى فى كل من المكونين .

على أننا لم نعرض هنا لجميع المكونات الثانوية بل وضعنا أهمها . وهى تكفى لتبين للفارىء الطريقة التى يتمكن بها شلدون من تكليل واتراء وصف البنيان الجسمى الذى تمدنا به المكونات الأولية .

تحديد الطرز البدنية الأنثوية :

أجرى الجانب الأكبر من العمل البدنى فى أبعاد شلدون الجسمانية على الذكور . ومن الواضح أن القيود على دراسة الجسم الإنسانى العارى فى مجتمعنا أشد قسوة فى حالة الإناث منها فى حالة الذكور . وبالتالي فإنه من الطبيعى أن يبدأ العمل فى هذا المجال بالذكور . وقد ذكر شلدون فى كتابه الأول عن البنيان الجسمى (١٩٤٠) أن الدلائل المتوفرة حتى الآن تبين وجود نفس الطرز البدنية الستة والسبعين التى لوحظ وجودها بين الذكور - لدى الإناث كذلك وإنما تختلف التكرارات . كما أشار الى أن المكون الداخلى التركيب ، مجتمعاً مع المكون الخارجى التركيب أكثر شيوعاً بين النساء على حين يثيب المكون المتوسط التركيب مجتمعاً مع المكون الداخلى التركيب بين الرجال .

ويقرر شلدون فى مطبوع حديث (١٩٥٤) أنه قد تم القيام بعمل

لا بأس به في مجال الطرز البدنية الانثوية وأن « أطلس النساء » في سبيله للظهور وقد «أكدت المكتشفات التي أكثر شمولاً والتي تتوفر لديه الآن ملاحظاته السابقة عن أن الأبنية الجسمية الانثوية يشيع بينها المكون الداخلي التركيب أكثر مما يشيع بين الأبنية الجسمية الذكورية . كما أورد أن النساء يظهرن على أقل من التنوع على المكونات عن الرجال، ومع ذلك فهناك عدد قليل من الطرز البدنية الانثوية لا مثيل لها لدى الذكور .

ثبات الطرز البدنية :

إن إحدى النقاط التي يختلف عندها الرأي العام الشائع مع أصحاب نظرية التكوين الجبلي تتعلق بمدى ثبات أو دوام التصنيف أو الوصف المؤسس على قياس موضوعي للبناء الجسمي . ذلك أن التغيرات المعتادة بسبب التقدم في السن وتنوع الغذاء تبدو أدلة مقنعة لمعظم الناس على قابلية الطراز البدني للتغيير . إلا أن شلدون في كتاباته المبكرة ، يبدى اقتناعاً متفقاً مع غيره من أصحاب نظرية التكوين الجبلي فيقول « ٥٠ من الواضح أن أي تغيرات في الغذاء لا يمكنها أن تجعل مقاييس شخص ينتمي إلى نمط جسمي معين تشابه مقاييس نمط جسمي آخر (١٩٤٤ ، ص ٥٤٠) » ومن الممكن لعوامل التغذية أن تحدث تغييراً في القياسات الشخصية ولكن ذلك لن يغير من الطراز البدني الفعلي . بل ستظهر تلك التغيرات كاختلافات عن الطراز البدني المعتاد أو الأصلي . وقد قدم شلدون هذا التعميم في وجه القياسات التي أجريت قبل وبعد تغيرات في الوزن في حدود ١٠٠ رطل . وهو يلخص موقفه قائلاً :

لقد أمكن تتبع تطور عدة مئات من الأفراد على مدى فترة تبلغ حوالي ١٢ عاماً ، وقد ظهرت لدى الكثيرين منهم لتبديلات حادة في الوزن ومع ذلك فلم تكشف حالة واحدة ظهر فيها تغير مقنع في الطراز البدني . ولكي يتغير الطراز البدني يجب أن يتغير الهيكل العظمي وكذلك شكل الرأس والبناء العظمي للوجه والرقبة والرسغين والساق والركبتين والكعب والذراعين الإماميين ، وعلاقات القوام بالقياسات الأخرى من مواضع لا يتراكم فيها الشحم . إن تراكم أو إزالة الشحم لا يغير من الطراز البدني لأنه لا يغير تغيراً ذا دلالة من أي قياسات إلا في أماكن تراكم الشحم .. ويمكن القول بأنه لم تصادفنا بعد حالة أدى فيها الاضطراب الغذائي إلى أن يصبح البناء الجسمي غير معروف أو يشابه مع طراز بدني آخر بدرجة قوية بحيث يحدث خلط (١٩٤٠ ، ص ٢٢١) .

ويرى شلدون انه اذا كان الجوع الشديد لا يحول كلباً من نوع الماستيف الى كلب من نوع البودل فإن الجوع لا يحول فرداً من الطراز المتوسط التركيب الى فرد من الطراز الخارجى التركيب . ولا يتغير بناء الجسم الفعلى الا فى حالة بعض الأمراض مثل الاكروميغالى (١) وأمراض استهلاك العضلات الا أن مثل هذه الاضطرابات تكتشف بسهولة خلال الفحص ولا تؤدي بذلك الى اى تغيرات غير متوقعة فى انطراز البدنى . ويعتقد شلدون أن ثبات الطراز البدنى مسألة عامة جدا حتى أن معامل الطراز لخلطى ذاته لا يتبدل مع تغير الوزن .

واحد انماط البنيان الجسمى التى طالما أدت الى الاعتقاد بحدوث تغير درامى فى الطراز البدنى هو نمط تككة الرجل البدنى Pyknic practical joke حيث نجد شخصا حاصلًا على تقدير ٤ مثلا فى المكون الداخلى التركيب وعلى تقدير أعلى قليلا فى المكون المتوسط التركيب (الميزومورفى) وليكن (٥) . ويبدو الشخص الذى يتمتع بمثل هذا البنيان الجسمى نحىلا ورياضيا فى اواخر المراهقة وبداية النضج . ولكن بمرور الزمن يؤكد لمكون الاول نفسه ، وتصبح « النكته » واضحة عندما يصبح الفرد سمينا جدا ومستديرا . وبرغم التغير الاثروبيومتري البنيان الجسمى فإن الطراز لبدنى يظل على ما هو عليه . وهناك عامل آخر يجعل من الصعب أن تقدر بدقة ثبات الطراز البدنى وهو المهارة الشديدة المطلوبة لقياس الطراز لبدنى فى لمرهقة المتأخرة او بداية النضج . فما أن يبلغ المرء الثلاثين حتى يتضح طرازه البدنى ولكن فى المراحل المبكرة يتطلب الأمر مهارة أكثر لاكتشافه وذلك رغم أن العلامات موجودة موضوعيا .

وهناك بعض الدلائل المؤيدة لنظرية الثبات تانى من جانب تشابه التوزيع للطرز البدنية فى فئات الأعمار المختلفة . ومثال ذلك ما يورده شلدون (١٩٤٠) من انه يظهر تقريبا لدى الرجال فى سن الأربعين نفس تكرر مختلف الطرز البدنية التى تظهر لدى طلبة الجامعات . ويبدو من المحتمل انه اذا كان التقسم فى السن يؤدي الى تغيرات منتظمة فى الطراز البدنى فإن هذه التغيرات ستعكس فى تغير التكرارات التى تظهر بها مختلف أنواع الطرز البدنية فى فئات الأعمار المختلفة .

(١) acromegaly مرض مزمن يتميز بتضخم اليدين والقدمين والوجه لخل فى الفدة التنخمية (الترجها)

وفيما بعد (١٩٥٤) يبدو أن شلدون عدل أو على الأقل طور آراءه فيما يتعلق بنبات الطراز البدني . وكما لاحظنا من قبل فإن أحدث تعريف للطراز البدني يفترض ثبات الغذاء وانعدام المرض ، وزيادة على ذلك فقد ظهر تأكيد قوى على أهمية وجود تاريخ دقيق للفرد مركزاً على وزنه خلال النمو وبخاصة فيما قبل البلوغ مباشرة وذلك للحصول على طراز بدني مضبوط . وهكذا فإن الفكرة السابقة عن أن الطراز البدني يستخلص من ثلاث صور فوتوغرافية محددة غير خاضعة للتغيرات البيئية قد حل محلها مفهوم أوضح وأكثر شمولاً يوحى باستخلاص الطراز البدني من عدة صورة متتالية بالإضافة إلى تاريخ الفرد مما يترك الباب مفتوحاً أمام مسألة إمكان تعديل هذا النمط الجسمي .

وتلخص الفقرة التالية موقف شلدون بوضوح من هذا الموضوع :
 هل يمكن الاعتماد (أو التنبؤ) بدرجة ما على الطراز البدني كما يقاس عملياً في الواقع ؟ أي هل يمكن متعماً يكون علينا أن نتمد على صورتين أو ثلاث للطراز الظاهري البالغ ، وعلى تاريخ واهل للشخص أن نستخلص تنبؤاً بالطراز البدني « لا يتغير » . يميل البعض إلى الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب القاطع خوفاً من أن تشير أي إجابة أخرى شعوراً غير صحي بالرها لدى أصحاب الحتمية البيئية الذين ربما يقترب البعض منهم من الاعتقاد - على حد قولهم - بأن الطراز البدني « ليس إلا النقاء » . إلا أن الدراسة الطولية الوافية التي تستمر طيلة حياة إنسانية واحدة على الأقل هي التي يمكنها أن تهم مثل هذه الإجابة (١٩٥٤ ص ٢٠) .

تحليل السلوك (الشخصية)

١٣١ ما توفر للباحث في سيكولوجية لتكوين الجبلي وسيلة ثابتة لتقييم النواحي الفيزيقية للبناء الجسمي . فلا زال عليه أن يتكر أو يستعير وسيلة ما لتقييم السلوك إذا أراد أن يستكشف العلاقة بين البناء الجسمي والشخصية . وقد بدأ شلدون بافتراض أنه برغم وجود أبعاد سطحية أو متغيرات متعددة يمكن وصف السلوك من خلالها فإنه يمكن خلفها عدد صغير من المكونات الأساسية التي نتوقع أن تفسر لنا التنوع والتعقيد السطحي . وبدأ في ابتكار تكتيك لقياس هذه المكونات

الأساسية ، يجمع بين حكمة البحوث السابقة في الشخصية وبين معلوماته الاكاديمية وخبرته الاستقرائية .

أبعاد المزاج :

بدأ العمل بفحص دقيق لكل ما كتب عن الشخصية وخاصة فيما يتعلق بتحديد السمات الانسانية واستخلص منه قائمة بـ ٦٥٠ سمة . واضيفت الى هذه القائمة المتغيرات المستخلصة من ملاحظات شلدون نفسه ثم اختصرت هذه القائمة اختصارا شديدا عن طريق الجمع بين الأبعاد المتداخلة واستبعاد ما بدا غير هام منها . وفي النهاية وصل شلدون ومساعدوه الى مجموعة من خمسين سمة بدا لهم أنها تمثل جميع الظواهر المحددة التي تناولتها القائمة الأصلية المكونة من ٦٥٠ سمة .

وكانت الخطوة التالية هي اختيار مجموعة من ثلاثة وثلاثين سائبا معظمهم من طلبة الدراسات العليا والمعيدين ثم اجراء البحث عليهم خلال عام كامل بطريق الملاحظة خلال نشاطهم المهني اليومي وخلال مقابلات اكلينيكية . ويتم قياس كل مفروض بوساطة الباحث على مقياس من سبع درجات لكل سمة من السمات الخمسين . واستخرجت معاملات الارتباط بين الدرجات الناتجة بقصد اكتشاف مجمعات clusters السمات ذات الارتباط الموجب فيما بينها والتي يمكن اعتبار أن هناك متغيرا واحدا كامنا وراءها . وتقرر أنه لكي يمكن اعتبار سمة ما منضمه لمجموعة أو مكون يجب أن نحصل على معامل ارتباط موجب قدره ٠.٦٠ على الأقل مع كل سمة أخرى في المجموعة وأن نحصل على معامل ارتباط سالب قدره - ٠.٣٠ على الأقل مع جميع السمات الأخرى الموجودة في المجموعات الأخرى .

المكونات الأولية للمزاج :

وكشفت نتائج التحليل الارتباطي عن وجود ثلاثة مجموعات رئيسية من السمات تشمل ٢٢ سمة من السمات الأصلية الخمسين . واحتوت المجموعة الأولى سمات الأسترخاء ، حب الراحة ، الاستمتاع بالهضم ، الاعتماد على القبول الاجتماعي ، النوم العميق ، الحاجة الى الناس وقت الشدة . أما السمات التي شملتها المجموعة الثانية فكانت اتخاذ وضع الجرم ، الحيوية ، الحاجة الى الملوسة ، صراحة التصرف ، الصوت

المتطلق ، أن يبدو المرء أكبر من سنه ، الحاجة إلى العمل وقت الشدة وفي النهاية كانت المجموعة الثالثة تحتوي سمات التقييد في الحركة والأوضاع الاستجابية البالغة السرعة ، الخوف من المجتمعات ، كف التخاطب الاجتماعي ، مقاومة العادات ، الصوت المقيد ، قلة النوم ، عزم الشباب ، الحاجة إلى الوحدة وقت الشدة .

وعند تلك المرحلة كان شلدون مقتنعا بأنه قد تعرف مؤقتا على الأقل على مكونات لسلوك أساسية بدرجة تسمح بمزيد من الدراسة . فبدأ في تحسين وتوسيع قوائم السمات الخاصة بكل مكون لكي يخرع مقياسا حساسا يمكن الوثوق به للمكونات الثلاثة فحاول إضافة سمات تمكس التركيب الجبلي للفرد ، تلك التي لا تتغير بدرجة ملحوظة في مواجهة التغيرات البيئية أو الحضارية . ثم قام بشماني محاولات للجمع بمختلف الأشكال بين السمات القديمة والجديدة قبل أن يصل إلى المرحلة النهائية . وفيها قام بدراسة أخيرة على مائة مفحوص مستخدما ثمانيا وسبعين سمة لبحث الارتباط بينهم وانتهى إلى اختيار عشرين سمة لكل مجموعة من المجموعات الثلاث (مجموعها ٦٠) كلها تفي بشرط وجود معامل ارتباط ٠.٦٠ على الأقل بينها وبين بقية السمات في المجموعة ووجود معامل ارتباط سلبى - ٠.٣٠ على الأقل بينها وبين جميع السمات في بقية المجموعات . ويوجد ملخص لهذه السمات في جدول رقم (٢) .

وسمى أول مكون من مكونات المزاج ، الحشوى *Viscerotonia* ويتميز الشخص ذو الدرجة العالية على هذا المكون بالحلب العام للراحة والاجتماعية والنهم إلى الطعام والناس والود . ويتميز باسترخاء في القامة وبطء في الاستجابة وهدوء في الطبع وتسامح في علاقته بالآخرين وهو عموما من الأشخاص الذين يسهل التعامل معهم . ويرى شلدون « أن الشخصية تبدو متركرة حول الإحشاء . فالقناة الهضمية هي الحاكم بأمره ويبدو أن راحتها هي التي تحدد الهدف الأول من الحياة » (١٩٤٤ ، ص ٥٤٣) .

أما المكون الثانى فسمى المزاج البدنى *somatotonia* والدرجة العالية عليه يصحبها عادة حب المفامرات البدنية وركوب المخاطر وحاجة قوية للنشاط العضلى والجسمانى العنيف . ويكون الفرد عدوانيا ، جامدا تجاه عواطف الآخرين ومظهره بأدى النضج ، كثير الجلبسة ، شجاعا ، يميل إلى الخوف من الأماكن المغلقة . وأهم الأشياء لدى ذلك الشخص هي النشاط والقوة والسيطرة .

TABLE 2
THE SCALE FOR TEMPERAMENT

Viscerotonia		Somatotonia		Cerebrotonia	
() 1. Relaxation in posture and movement	() 1. Assertiveness of posture and movement	() 1. Restraint in posture and movement, tightness			
() 2. Love of physical comfort	() 2. Love of physical adventure	2. Physiological over-response			
() 3. Slow reaction	() 3. The energetic characteristic	() 3. Overly fast reactions			
4. Love of eating	() 4. Need and enjoyment of exercise	() 4. Love of privacy			
5. Socialization of eating	5. Love of dominating. Lust for power	() 5. Menstrual overintensity. Hyperatentionality. Apprehensiveness			
6. Pleasure in digestion	() 6. Love of risk and chance	() 6. Secretiveness of feeling, emotional restraint			
() 7. Love of polite ceremony	() 7. Bold directness of manner	() 7. Self-conscious mobility of the eyes and face			
() 8. Sociophilia	() 8. Physical courage for combat	() 8. Sociophobia			
9. Indiscriminate amiability	() 9. Competitive aggressiveness	() 9. Inhibited social address			
10. Greed for affection and approval	10. Psychological callousness	10. Resistance to habit and poor routinizing			
11. Orientation to people	11. Claustrophobia	11. Agoraphobia			
() 12. Evenness of emotional flow	12. Ruthlessness, freedom from squeamishness	12. Unpredictability of attitude			
() 13. Tolerance	() 13. The unrestrained voice	() 13. Vocal restraint and general restraint of noise			
() 14. Complacency	14. Spartan indifference to pain	14. Hypersensitivity to pain			
15. Deep sleep	15. General noisiness	15. Poor sleep habits, chronic fatigue			
() 16. The untempered characteristic	() 16. Overmaturity of appearance	() 16. Youthful intensity of manner and appearance			
() 17. Smooth, easy communication of feeling, extraversion of viscerotonia	17. Horizontal mental cleavage, extraversion of somatotonia	17. Vertical mental cleavage, introversion of alcohol and to			
18. Relaxation and sociophilia under alcohol	18. Assertiveness and aggression under alcohol	18. Resistance to alcohol and other depressant drugs			
19. Need of people when troubled	19. Need of action when troubled	19. Need of solitude when troubled			
20. Orientation toward childhood and family relationships	20. Orientation toward goals and activities of youth	20. Orientation toward the later periods of life			

Note: The thirty traits with parentheses constitute collectively the short form of the scale.
(From Sheldon, 1942, p. 26).

جدول رقم (٢)
مقياس المزاج

المزاج الحشوى :	المزاج البدنى :	المزاج المعنى :
١* - الاسترخاء في الأوضاع والحركة	١* - المسزم في الأوضاع والحركة	١* - التحفظ في الأوضاع والحركة ، التزمته
٢* - حب الراحة الجسدية	٢* - حب المغامرة البدنية	٢ - استجابة فسيولوجية مبالغ فيه
٣* - الاستجابة البيئية	٣* - التمييز بالنشاط والحريوة	٣* - استجابة سريعة بشكل مبالغ فيه
٤ - حب الطعام	٤* - الحاجة الى الممارسة والتفتح بها	٤* - حب المحسومية
٥ - اجتماعية تناول الطعام	٥ - حب السيطرة واشتهاه السلطة	٥* - حدة العقل ، زيادة الانتباه ، الفهم
٦ - التلذذ بالهضم	٦* - حب المغامرة والصدفة	٦* - سرية الصواطف ، تحفظ انفعال
٧* - محبة مظاهر الأدب	٧* - الأسلوب الجريء المباشر	٧* - حركة واسعة للمعنى والوجه
٨* - الخوف الاجتماعي	٨* - شجاعة بدنية للقتال	٨* - مخافة المجمع
٩ - النهم للود ومواقفة الآخرين	٩* - العدوانية التنافسية	٩ - كفاالتغاطب الاجتماعي
١٠ - الود بالنسبة للجميع دون تمييز	١٠ - مقاومة السادة وقلة الانصياع للروتين	١٠ - مقاومة السادة وقلة الانصياع للروتين
١١ - الاتجاه الى الناس	١١ - مخافة الأماكن الضيقة	١١ - مخافة الأماكن المنعومة
١٢* - استواء تيار المواقف	١٢ - القسوة والتخرد من الاطراف في الاحتشام والحساسية	١٢ - صموبة التنبيؤ بالاتجاهات وتحفظ لمن الصوت
١٣* - التسامح	١٣* - صوت منطلق	١٣* - وتحفظ عام في احدات الضوضاء
١٤* - الرضا	١٤ - لا مبالاة اسبرطية بالألم	١٤ - حساسية زائدة للألم
١٥ - النوم الميق	١٥ - احدات ضوضاء عامة	١٥ - قلة النوم وتصب مزمن
١٦* - التميز بين المزاج	١٦* - نطق زائد في المظهر	١٦* - سلوك قصوى ومظهر شبابي
١٧* - نعومة وسهولة التواصل ، البساط الكون المشوى	١٧ - انشقاق أفق مقل	١٧ - انشقاق عقل رأسى ، الاطوار
١٨ - الاسترخاء ومحبة الناس بتأثير الكحول	١٨ - تأكيد الذات والعدوان تحت تأثير الكحول	١٨ - مقاومة الكحول ومخيمه من العقاقير المخدرة
١٩ - الحاجة الى الناس وقت الشدة	١٩ - الحاجة الى الحركة وقت الشدة	١٩ - الحاجة الى الوحدة عند الشدة
٢٠ - الاتجاه نحو الطقوة والعلاقات العائلية	٢٠ - الاتجاه نحو اهداف ونشاطات الشباب	٢٠ - الاتجاه نحو الفترات المتأخرة من الحياة

ملحوظة : السمات الثلاثون التي امامها علامة تكون في مجموعها الصورة المختصرة من المقياس (من شامون ١٩٤٢ ، ص ٣٦) .

وسمى المكون الثالث المزاج المخي *Cerebrotonia* وتعني الدرجة العالية فيه الكبح والكف والرغبة في الاختفاء . ويكون الفرد ميالا الى السرية حساسا شذب المظهر يخاف الناس ويكون أسعد حالا في الأماكن الصغيرة المفلقة وهو يستجيب بسرعة زائدة وينام تواما صيئا ، يفضل الوحدة وخاصة في وقت الشدة ويحاول مثل هذا الشخص بداب أن يتجنب لفت الأنظار اليه .

وتكون هذه الأبعاد الثلاثة العامة مع السمات العشرين المحددة لكل بعد . مقياس المزاج وهو طريقة تقدير محكمة للوصول الى درجات لكل مكون من المكونات الأولية . ويفضل شلدون عند استعمال المقياس مراعاة الآتي :

لاحظ المخصوص من كتب لغة عام على الال في الكبر عند ممكن من المؤلف المختلفة . لم بسلسلة من المقابلات التحليلية معه لا نقل من مشرين ، وذلك بأحسن الطرق الكالمة للموقف والمزاج ومصالح الطرفين . وبعد كل مقابلة اتصرف الى صحيفة الدرجات وضع تقديرا لاكبر عند ممكن من السمات . كزر الملاحظات والمقابلات وأعادة التقدير حتى تقتنع منطقيا ان جميع السمات الستين قد قيمت وقدرت بدقة (١٩٤٢ ، ص ٢٧) .

وهكذا ، بعد فترة طويلة من الملاحظة يضع الباحث تقديرات تتراوح من ١ الى ٧ لكل سمة من السمات التي عرفها شلدون بالتفصيل وتحسب الدرجة الكلية للسمات العشرين داخل كل مكون بجمع درجات الفرد وتحول هذه الى درجة شاملة لكل متغير بالرجوع الى جدول او باستخراج المتوسط . يمكن زيادة مدى التقدير بقسمة الدرجات السبع الى نصفين فيكون المدى بذلك ١٣ درجة اذا أردنا تحليلا أكثر دقة .

وهناك أيضا مكونات ثانوية لوصف السلوك الا انها ليست كثيرة العدد او مقننة الاخراج مثل تلك المستخدمة لتقدير البنيان الجسمي . ولهذا السبب فلن نذكرها هنا . ويمكن للقارئ المهتم أن يرجع الى شلدون (١٩٤٩) فسيجدها فيه بتفصيل واف .

العلاقة بين البنين الجسمي والسلوك (الشخصية)

رأينا كيف استخلص شلدون ما اعتبره المكون الأساسى للبنين الجسمي (البناء) والمزاج (الوظيفة) ورأينا كذلك كيف اخترع الأدوات لقياس هذه المكونات . وبقى أن نلقى نظرة على محاولاته للربط بين هاتين الفئتين من المتغيرات .

ويمكننا - بمعنى ما - أن نعتبر البحوث الأولى ببساطة خطوات تمهيدية للهدف الأهم وهو تقدير درجة العلاقة بين البنين الجسمي والمزاج . وبمعنى آخر من الواضح أن مقياس الطراز الجسدي والمزاج لها قيمة مستقلة في حد ذاتها غير مستخلصة من ناتج الدراسة الواردة هنا . فإيجاد وسيلة دقيقة لقياس البنين الجسمي له قيمة كبيرة بالنسبة لكثير من الباحثين الذين ربما لا يهتمون بعلم النفس الجبلي مثل علماء الانثروبولوجيا الفيزيائية والاختصاصيين في علم النفس التطبيقي وفي الفسيولوجيا وفي الباثولوجيا (علم الأمراض) . وبالمثل فإن إيجاد مجموعة من المقاييس الموضوعية الحساسة للأبعاد الهامة للشخصية سيكون هدية بالنسبة لجميع السيكولوجيين تقريبا سواء كانوا مهتمين بالعلاقة بين البنين الجسمي والسلوك أم لا .

وتدور معظم بحوث شلدون حول موضوع الى أى مدى يوجد ارتباط بين البنين الجسمي والشخصية . الا أننا سوف نقصر حديثنا هنا على وصف دراسة واحدة (ممثلة) تربط بين البنين الجسمي والمزاج لدى طلبة الجامعة من الأسسوياء ومنعروض بايجاز في جزء تال من هذا الفصل دراسات تدور حول الجناح والاضطراب العقلي .

قام شلدون (١٩٤٢) على مر خمس سنوات بدراسة على مائتى مفحوص من الذكور البيض كانوا طلبة في الجامعة أو خريجين يشتغلون بنشاط أكاديمي أو مهني . وقدرت درجات هؤلاء المفحوصين على أبعاد

المزاج كما وردت في مقياس المزاج بعد فترة طويلة من الملاحظة . وبعد ذلك قدرت الطرز البدنية للمفحوصين وفقا للطريقة التي سبق وصفها .

وأهم ما كشفت عنه تلك الدراسة هو ما يتعلق بدرجة الارتباط بين متغيرات المزاج وبين متغيرات البنيان الجسمي مقدره بتكنيك ارتباطي . وتشير النتائج المذكورة في (جدول رقم ٣) بوضوح تام الى أن الارتباط بين أبعاد البنيان الجسمي والمزاج الموازي لها ذو دلالة وأنه مرتفع بدرجة معهشة على حين أن الارتباط بين جميع التجميعات الأخرى للبنيان الجسمي ومتغيرات المزاج سالب بدرجة لها دلالة . وتشير هذه النتائج في وضوح لا لبس فيه الى أنه يوجد تقابل وثيق بين المزاج كما تقيسه تقديرات الملاحظين والبنيان الجسمي كما يستخلص من القياسات المستمدة من صور الطراز البدني . ويقول شلدون :

ان الارتباطات التي ظهرت اظى مما توقعناه ، وهي تشير بعض المسائل على جانب كبير من الاهمية . فلذا كنا ستحبر معامل الارتباط بين حاصل ضرب العزموم Product moment correlation الناتج مقياسا لدرجة تكون متغيرين من عناصر مشتركة بينهما في هذه الحالة يوهي معامل الارتباط الذي يبلغ + 0.8 . بان (المورفولوجي) والمزاج كما نقيسهما هما تعبر - كل منهما عند مستواه - عن مكونات مشتركة في الأساس .. فلذا كنا قد وصلنا فعلا الى العوامل الاساسية في الشخصية فان معاملات الارتباط هذه ليست اظى مما يجب ان نتوقعه . لاننا نكرن بهذين الاسلوبين نقيس نفس الشيء عند مختلف مستويات التعبير منه (١٩٤٢ ، ص ٤٠١) .

جدول رقم (٣)

الارتباط بين مكونات البنيان الجسمي ومكونات المزاج

المزاج الحشوي	المزاج البدني	المزاج المعنى
الطراز البدني (العدد = ٢٠٠)	الداخلي التركيب	المتوسط التركيب
٧٩	٢٩ -	٣٢ -
	٨٢	٥٨ -
		٨٣
الطراز الحشوي (العدد = ٢٠٠)	المتوسط التركيب	الخارجي التركيب
٧٩	٢٩ -	٣٢ -
	٨٢	٥٨ -
		٨٣

(نقلنا عن شلدون ١٩٤٢ ، ص ٤٠٠)

وينتهي شلدون الى أنه اذا ظهر - نتيجة لمزيد من الدراسات - أن هذه القياسات لها هذا المركز الأساسى الذى يامله فانها ستكون اطارا مرجعيا يستطيع علم النفس من خلاله أن يساهم فى دراسة الفروق الفردية فى جميع مجالات السلوك . وسيسهل مثل هذا الامكان التداخل بين علم النفس وبين كل من علم الأحياء والعلوم الاجتماعية .

وهكذا نجد أن بحوث شلدون قد أدت الى تدعيم قوى مدهش لتوقع أصحاب علم النفس الجبلى من أنه يوجد استمرار ملحوظ بين النواحي البنائية أو الفيزيائية للفرد وبين صفاته الوظيفية أو السلوكية . وهى الحقيقية فان حجم الارتباطات الملحظة بين البنيان الجسمى ومكونات المزاج كاف لأن تصغر أمانه الارتباطات التى قدمتها دراسات مشابهه حاولت الربط بين الشخصية وبين المحددات البيئية أو الخبرات . ولننظر الآن فى تفسر هذه العلاقة .

بعض الصياغات النظرية :

من المهم أن ندرك أن نظرية التكوين الجسمى (الجبلى) أكثر اعتمادا على الاستقرار وأقل اعتمادا على الصياغة النظرية من أى نوع من النظريات الأخرى فى علم النفس . فالمكونات الأولية التى وصفت والعلاقات التى استخلصت تجريبيا فيما بينها تحتل المركز الأساسى بدلا من مجموعة البديهيات النظرية ، ويبدو شلدون نفسه أساسا عالما بالأحياء ذا ميل الى التصنيف . وهكذا يبدو فى أحسن حالاته عند القيام بملاحظات فطنة فيما يتعلق بانتظامات السلوك ومحاولة تجميع أو تصنيف الأفراد المتشابهين فى ناحية هامة . ولقد أظهر اهتماما ضئيلا بصياغة أو تنظيم وجهة نظره وربما كان هذا اختيارا واعيا كما يبدو من النص التالى :

إلا بما أننا نغالى فى تأكيد العامل الجبلى خلال هذا الكتاب من طريق استبعاد عامل التأثير البيئى بشكل كبير ، فهذا لا يبنى أننا نحتر هذا العامل الآخر لا أهمية له . وإنما يبنى فقط أننا نقدم هنا الجانب

العمل من الصورة والذى بدوره يبدو علم النفس العام غير الواضح وشالدا
أما مشكلة التأليف بين التفسيرين (التركيب) Synthesis فتأتى
فيما بعد . ففي هذين الكتابين (١٩٤٥ ، ١٩٤٢) . حاولنا ألا نفضل
شيئا سوى تسجيل أسس جانب التكوين الجبلى من هذا البناء ككل ،
وكان هذا في حد ذاته أمرا صعبا بما فيه الكفاية .

ونحن نعتبر علم النفس الجبلى مساهمة فقط في علم النفس العام
وليس بديلا عنه . ويمكن مقارنة موضعه في الضفة العامة بموضع وصف
الهيكل العظمى في علم التشريح وإذا بدأ للقارئ أن وجهة النظر هذه
لم ندافع عنها بحماسة كافية في جميع أصول هذا الكتاب فليرجع ذلك
النقص (كزما منه) الى تأخر وجهة النظر المصداقة (شلدون ١٩٤٢ ،
ص ٤٢٨) .

العوامل القائمة بالربط بين البنين الجسمى والتزاج :

نحن نقر هنا بوجود علاقة ملحوظة بين مقاييس البنين الجسمى
ومقاييس الصفات السلوكية الهامة ونبحث هنا فيما أدى اثنى هذا
الاتفاق البارز . وقد يقال أن الفرد الذى يوهب له طراز
معين من البنين الجسمى يجد أنواعا معينة من الاستجابات
فعالة بشكل خاص ، فى حين يجسد غيره ممن وهب له طراز
آخر أنه من الضرورى أن يتخذ أنواعا مختلفة من الاستجابة . ويعنى
هذا المفهوم أن النجاح أو الإلابة التى تصاحب أسلوبا بعينه من للاستجابة
هو وظيفة لا للبيئة التى يحدث فيها فحسب ولكن كذلك لنوع الشخص
(طراز البنين الجسمى) الذى يقوم بالاستجابة . فائرد ذو الجسم
الواهن الخارجى التركيب لا يستطيع أن يتبع بنجاح سلوكا خشنا عدوانيا
مسيطرا بالنسبة لمعظم الناس على حين يكون ذلك ممكنا تماما فى حالة
الشخص المتوسط التركيب ذى الحجم الضخم . فضلا عن ذلك فإن الطفل
ذا المدد الصغرة أو عتبات الألم المنخفضة قد يتعرض لخبرات متميزة
تختلف اختلافا بينا عن تلك التى يتعرض لها الأفراد ذوو السمات
الفيزيقية المختلفة . والفرد ذو البنين الجسمى المعين فى البيئة الطبيعية
يجد أن أنواعا معينة من الاستجابات غالبا ما تناب على حين تعاقب فى

العادة أنواع أخرى من الاستجابات • ويعنى هذا أن الفرد سينمى أنماطا من السلوك ستتشابه مع سلوك الآخرين الذين ستكون لهم نفس الخبرات بسبب اشتراكهم فى نفس البنيان الجسمى •

وإحتمال آخر هو أن العلاقة بين البنيان الجسمى والمزاج تتم من خلال أنماط السلوك المعممة stereotypes والمقبولة من الجميع والموجودة داخل الحضارة وذلك فيما يتعلق بنوع السلوك المتوقع من الأفراد ذوى الأنواع المختلفة من البنيان الجسمى • وهكذا قد نقترح أن الفرد ذا البنيان الجسمى المعين يقوم بدور اجتماعى يتضمن مجموعة من الموصفات السلوكية ، وأنه خلال المسار العسدى للأحداث سيتوافق مع هذه الموصفات • وستؤدى مثل هذه التوقعات من جانب الحضارة بالفرد ذى البنيان الجسمى المتميز أن يظهر أنماطا متميزة من السلوك وسوف يميل هذا السلوك الى أن يكون مشتركا بين الأفراد الذين لهم نفس النمط من البنيان الجسمى والذين تعرضوا الى نفس التوقعات • ولا تفسر هذه الصياغة أصل أنماط السلوك الجامد المعم • كما أنه ليس لديها ما تقوله فيما يتعلق بالفرد الذى يقع بنيانه الجسمى فى المدى المتوسط ولا يندرج بسهولة تحت أى نمط من أنماط السلوك الجامد المعم •

وهناك أيضا وسيلة أخرى لتفسير هذه العلاقة وذلك من خلال الحبرات أو التأثيرات البيئية التى تميل الى إحداث أنواع بعينها من البنيان الجسمى وتنتج فى الوقت نفسه نزعات سلوكية معينة • وهكذا يمكننا القول بأن تعرض الطفل لأم مبالغة فى العناية سيجعل الطفل أميل الى البدانة كما سينتج لديه فى الوقت نفسه سمات شخصية يمكن تمييزها • وبالمثل يمكن القول أن المشاركة الفعالة فى الألعاب الرياضية سيكون لها تأثير واضح على البنيان الجسمى كما أنها فى الوقت نفسه ستعرض الفرد لتأثيرات الجماعة بطريقة فريدة مما سيميل الى إحداث مظاهر شخصية متميزة • وتتجنب هذه الصياغة مفهوم الحتمية البيولوجية وترى أن كلا من البنيان الجسمى والسلوك تحدده التأثيرات البيئية بصورة كبيرة •

والسبيل الأخير هو تفسير العلاقة بين بناء الجسم والسلوك من خلال النشاط المشترك لعوامل وراثية . وهكذا يمكن القول أن كلا من البنيا الجسمي والنزعات السلوكية يتحدد بدرجة كبيرة بعوامل وراثية وأنه توجد بين هذه العوامل الوراثية صلات ارتباطية معينة بحيث أن أنواعا معينة من السمات الفيزيائية ترتبط بصفات سلوكية معينة . فكما توجد سمات مرتبطة بالجنس sex linked فهناك كذلك سمات مرتبطة بالجسد . فالفرد الذي يمتلك سمات فيزيائية معينة قد يتوقع منه أن يظهر ميولا سلوكية معينة بسبب هذه الصلات الوراثية . gene linkage

ويبدو أن شلدون يميل إلى التركيز على الطريقتين الأولىين في التفسير وهما الخبرة الانتقائية ، والتحديد الحضارى ولو أنه على استعداد كذلك للاعتراف بفاعلية التحديد الوراثي (الجيني) * أما الصياغة الثالثة التي توحي بأن كلا من البنيا الجسمي والسلوك نتاج لعوامل بيئية فهي أقل التفسيرات اتفاقا مع افتراضات أصحاب علم النفس الجبلي بما فيهم شلدون .

الاتجاه البيولوجي والوراثي :

لقد رأى الكثيرون من المنظرين في مجال الشخصية أن يلحوا بالحاح على الطبيعة السيكوبيولوجية للسلوك الانساني (موراي ، مورفي ، فرويد) ومع ذلك فإن القلة منهم قد اظهرت ميلا كافيا لتطويع أساليبها العملية لهذا الافتراض . ويمكننا أن نعتبر أن موقف شلدون في الكثير من تفاصيله ينبع من اقتناع بأن العوامل البيولوجية ذات أهمية غالبية في تفسير السلوك الانساني ومن ثم قراره بمحاولة قياس العناصر الهامة لهذا الأساس البيولوجي للسلوك . وكما وضع لنا من تمييزه بين الطراز الجسمي والطراز البنياي فان قياس البنيا الجسمي هو مجرد وسيلة لتقدير العوامل البيولوجية الكامنة والتي لها مثل هذا التأثير القوي على مجرى الحياة * ومع وضع جميع الأشياء في الاعتبار فاننا في

مامن من القول بأن موقف شلدون أشد التصاقا بالمحددات البيولوجية للسلوك من أى منظر معاصر فى مجال الشخصية .

وبرغم أن عرضنا للعوامل الممكنة التى تقوم بالربط بين البنينان الجسمى والسلوك قد أوضح أن شلدون لايفال فى الإلحاح على الدور القوى للعوامل الوراثية فى تحديد السلوك فانه برغم ذلك ملىء بالأمل فى أن قياس الطراز البدنى قد يسمح بقياس أدق لبعض العوامل الوراثية وبذلك يمكننا تقدير الأثر غير المباشر للعوامل الوراثية على السلوك تقسديرا واقعيا .

الإلحاح على كلية الكائن العضوى ووحده مع مجاله

يبدو شلدون دائم الاهتمام بمشكلة السياق Context وهو ينفر ، كمايتوقع المرء من عالم بالأحياء متفان مثله ، من فحص أى ناحية من نواحي السلوك بحيث يستبعد كل (أو معظم) النواحي الأخرى وعموما فإن اهتمامه بأن يضع فى الاعتبار جميع نواحي الكائن كله أعظم من اهتمامه بالسياق البيئى الذى يحدث السلوك داخله . وطبيعى أن ينبع هذا الموقف من اهتمامه العظيم بالمحددات البيولوجية للسلوك .

وبرغم نجاح شلدون فى عزل وقياس أبعاد لوصف البنينان الجسمى والمزاج فانه لا يعتقد أنه من المثمر فحص هذه الأبعاد الواحد تلو الآخر . فنمط العلاقات بين المتغيرات أكثر أهمية من المستوى المطلق لأى مكون بمفرده . وهو على وعى دائم بالتفرد الأساسى لكل فرد سواء فى سلوكه أو فى مظهره الفيزيقي . وبرغم استعداده لتقسيم هذا الكل الفريد بقياس مكوناته ، فانه يظل يعتبر ناتج مثل هذا القياس مجرد خطوة أولى نحو وصف الكائن . وهو يعتقد اعتقادا جازما أن الملاحظ الحساس ذا الاتجاه الشامل قادر على الإسهام بمعارف لا يأمل أهمر أخصائى فى القياس النفسى الكشف عنها حتى الآن . ويظهر فى كتابات شلدون جميعها اهتمام أساسى بمسألة اخطار التقييم الكمي غير الناضج وكذلك الإلحاح على الموضوعية .

نمو الفرد :

وبالنظر الى ما قلناه عن اهتمام شلدون الشديد بالمحددات البيولوجية للسلوك ، فلن يدهشنا أن نكتشف أن شلدون قد وجه اهتماما الى تفاصيل النمو اقل مما فعله معظم أصحاب نظريات الشخصية وبينما يعترف بصراحة ان أحداث الطفولة المبكرة اذا كانت من نوع معين تنذر بقيام أنماط معينة من التوافق لدى البالغ ، فانه لا يقتنع بأن أحداث الطفولة تلعب دورا سببيا في مثل تلك العلاقات . بل ان الاحتمال الأكبر كما يقول أن هناك استعدادات بيولوجية تؤدي الى أنواع بعينها من الطفولة او الحيرة الطفولية بل ان هذه الاستعدادات نفسها قد تؤدي الى اشكال متميزة من السلوك البالغ وبعبارة أخرى فان العلاقة الظاهرة بين الأحداث المبكرة والسلوك التالي عليها قد يكون بشكل كبير انعكاسا للفعل المطرد للعوامل البيولوجية على مر فترة طويلة من الزمن .

ويهتم شلدون بالعملية الارتقائية على الأقل الى حد التعبير عن اعتقاده بأنه يمكن جعل تلك العملية أكثر كفاءة واقل اجبااطا لجميع الأطراف المعنية اذا ما عنى القائمون على ارشاد الطفل بوضع طرازه البدني في الاعتبار . وبهذا الشكل يمكن للمرء أن يتجنب أن يفرس في الطفل مطامح وتوقعات لا تتفق مع قدراته الفيزيائية والمزاجية . ويوضح هذا الرأي أن شلدون لا يعتبر ارتقاء الفرد مثبتا تماما بوراثته البيولوجية كما تمثل في الطراز البنائي . بل هو أقرب الى اعتبار أن الفرد توهب له استعدادات تشكل وتضع حدودا لامكانات النمو المقبل ولكن الخبرات الخاصة التي يتعرض لها الفرد سيكون لها دور حاسم في تحديد احتمال أنه سيستطيع في النهاية تحقيق المدى الكامل لهذه الاستعدادات .

العمليات اللا شعورية :

يقبل شلدون أهمية المحددات اللا شعورية للسلوك ولكنه يميل الى التسوية بين هذه المحددات وبين العوامل البيولوجية الكامنة . فهو يفترض أنه اذا عرف الفرد المزيد عن بنسائه جسمه والعوامل البيولوجية الفعالة بداخله فسيكون أكثر وعيا بالقوى التي تدفع سلوكه .

ويرى شلدون أن اللا شعور هو الجسم ويرى فضلا عن ذلك أن السبب في وجود الكثير من المصاعب في وجه التعبير اللغوي عن اللا شعور هو ببساطة أن لفتنا ليست معدة لكي تعكس بانتظام ما يدور داخل الجسم . وهكذا فانه يعتبر المحلل النفسي الذي يكتشف اللا شعور انما يتناول بطريقة ملتوية بل وغير ذات كفاءة نفس الشيء الذي يحاول شلدون أن يصل اليه بشكل أكثر موضوعية ومباشرة عن طريق التصنيف الى طرز بدنية .

البحوث المميزة وطرق البحث :

تتميز صياغات شلدون النظرية بأنها أكثر انغماسا في الدراسات التجريبية من أى نظرية أخرى في الشخصية . ولقد أخذنا فكرة ممثلة لبحوثه من خلال ملاحظة كيف صاغ وقاس البنيان الجسمي والمزاج . وسوف نتناول باختصار في هذا الجزء دراستين أخريين بحث فيهما الاضطراب العقلي والجناح في ضوء ما يقدمه قياس الطراز البدني .

البنيان الجسمي والاضطراب العقلي :

لا يتيح علم النفس الجبلي فرصة توفير آفاق جديدة للفهم في دراسة السلوك الانساني السوي فحسب وانما يتيح أيضا امكان فهم أفضل وربما تخفيف أو منع مختلف أنواع الشذوذ النفسي والاجتماعي . وتتفق مع ذلك الاعتقاد الدراسات التي قام بها شلدون للاضطراب العقلي والتي وردت في دراسة واحدة موجزة (ويتمان وشلدون وكاتز) (١٩٤٨) وفي فصل يتناول الجناح في كتابه (شلدون ١٩٤٥ ، ١٩٤٩) . فبعد الفحص الذي قام به لمستوى التشخيص الطبي العقلي (السيكياتري) وصل الى أنه لا يمكن تناول دراسة البنيان الجسمي في علاقاته بالاضطراب العقلي دون أن نوجد أولا مقياسا للاضطراب العقلي أكثر حساسية وموضوعية من التكنيك التشخيصي المعتاد .

وبنفس الطريقة التي أدخل شلدون بها متغيرات متصلة محل الفئات المنفصلة في قياس البنيان الجسمي . اقترح كذلك احلال أبعاد محل الكلليات (الفئات) المرضية في قياس الاضطراب العقلي . وعلى أساس ملاحظته للعديد من مرضى العقل على مر عدد من السنوات استخلص مفهومًا أو

تصورا للاضطراب العقلي يمكن وصفه من خلال ثلاثة أبعاد أولية • وتقابل هذه الأبعاد الثلاثة تقريبا الفئات التشخيصية المستعملة غالبا في التشخيص السيكياترى • المكون السيكياترى الأول هو الوجداني affective وتتجلى قمته في ذهان الهوس - الاكتئاب الحاد (وهو التذبذب بين الاكتئاب الشديد والابتهاج المتطرف) ، والمكون الثاني هو البارانوى paranoid يمثل في قمته ذهان البارانوى (نظام قوى من الهذات يتميز بوجود أفكار الاضطهاد والاحالة الى الذات) ، أما المكون السيكياترى الثالث فهو الهيبيويد Heboid ويمثل الشكل الهيبفرينى Hebephrenic من ذهان الفصام (الانسحاب المتطرف) وتمثل هذه الأبعاد السيكياترى نقصا في مكونات المزاج المخى ، والحشوى والبدنى على التوالي •

ويقرر شلدون صراحة أن عمله في هذا المجال لا يزال في مرحلة تجريبية مبكرة ولكنه يعد بإخراج كتاب في المستقبل يورد فيه تقريرا وافيا عن أبحاثه في هذه المشكلة ويصف تكتيكا للقياس ومكتشفات أكثر تحديدا من تلك المتاحة الآن • وقد أورد شلدون دراسة واحدة توحى بقيمة هذا المنهج في دراسة الاضطراب العقلي • وقد تم هذا البحث في مستشفى الجين الحكومى بولاية إلينوى بالاشتراك مع فيليبس ويتمان (ويتمان وشلدون وكاتز ، ١٩٤٨ ، شلدون ١٩٤٩) فقد جمعت ويتمان كمية كبيرة من المادة الوصفية من السجلات السيكياترى للمستشفى وبعد تنقيتها وتهذيبها توصلت الى قائمة تضم ٢٢١ فقرة سلوكية ظهرت أهميتها فى الوصف السيكياترى للمرضى ثم صنفت هذه الفقرات وفقا للمكونات السيكياترى الثلاثة التى سبق ذكرها وأطلقت على القائمة الناتجة اسم «قائمة فحص السلوك الذهانى» وبعد ذلك تم اختبار مجموعة من ١٥٥ مريضا ذهانيا وتم تحديد طرزهم البدنية بوساطة شلدون مستقلا، ثم قدرت درجاتهم على قائمة فحص السلوك الذهانى بوساطة ويتمان وطبيب عقلى من هيئة المستشفى دون أن يريا المرضى • واستخلصت متوسطات درجاتهم على التفرجات السيكياترى الثلاثة من قائمة الفحص لكل فاحص على حدة واستخرجت معاملات الارتباط بينها • وقد تراوح ثبات معاملات الارتباط للمقدرين من +٠٧٨* الى +٠٩١* ما يمتد أن التقديرات تمت بدرجة معقولة من الموضوعية • ثم استخرجت معاملات الارتباط بين تقديرات ويتمان على قائمة الفحص وبين تقديرات شلدون المستقلة لمكونات البنيان الجسمى فكانت النتائج كما يتضح فى جدول (٤) •

جدول رقم (٤)

مماثلات الارتباط بين الفراز البنني والكونات السجائرية

(عدد النجعة ١٥٥)

الكون السجائري الثالث	الكون السجائري الثاني	الكون السجائري الأول	الوجهاني	الداخل التركيب
المهتوبه	البيانوي			
- ٢٥	- ٢٤	+ ٥٤	+ ٣٤	الداخل التركيب
- ٧٨	+ ٥٧	+ ١٣١	+ ١٣١	التوسط التركيب
+ ٣٤	- ٣٤	- ٦٩	- ٦٩	المارجي التركيب

(يتل عن شانسون ١٩٤٩ ، ص ٦٩)

وقد أدت أبحاث شلدون الاستكشافية الى توقع وجود معاملات ارتباط متوسطة فقط بين هاتين المجموعتين من المتغيرات ، وهذا هو بالطبع ما لاحظته ، وعموماً فإن النتائج تثبت العلاقات المتوقعة . برغم أنه من بين الارتباطات التسعة عكست ثلاثة ارتباطات وجهتها عما توقعه في بداية البحث فإن معاملات الارتباط بين مكونات الطرز البدنية الأولى والثاني والثالث وما يقابلها من مكونات سيكياترية جميعها موجبة وعالية بقدر معتدل ويبدو من هذه المكتشفات أنها توحى بأن التشخيص لسيكياترى والطراز البدنى مرتبطان قطعاً برغم أن طبيعة هذه العلاقة يبدو أنها أكثر تعقيداً مما هو ملاحظ بين البنين الجسمى والمزاج .

ويرى شلدون أن المكونات التى استنبطها لتمثيل السلوك الذهانى لها ما يوازيها فى الأشكال التى أقل حدة من سوء التوافق بل وقد تنعكس فى شكل أرقى أو مكمل للتوافق . وهكذا يناقش بطريقة افتراضية الطريقة التى يمكن بها اعتبار مختلف أنواع الانجذب غير العادى تمثل تطوراً ثرياً غير عادى للإمكانات المتضمنة فى مختلف أنماط المكونات السيكياترية . فيعتبر المكونات السيكياترية مكملة لتقديرات الطراز البدنى والمزاج وتفيد فى زيادة القاء الضوء على السلوك الذى تستطيع تلك المكونات أن تمثله بدقة . ويعتقد شلدون أن الوسائل المعتادة فى التشخيص السيكياترى ستفسح الطريق فى النهاية لوسيلة للوصف والتصنيف شديدة الاعتماد على الوسائل الموضوعية بما فى ذلك « اختبار الطراز البدنى » . وسيبنى هذا صلة وثيقة بالمحددات البيولوجية للسلوك .

البنين الجسمى والجناح :

قام شلدون بدراسته التى استغرقت ثمانى سنوات على الجناحين من الشباب لتكون بمثابة خلفية يقارن بها مكتشفاته من دراسة شباب الجامعات الأسوياء . وقد أجريت هذه الدراسة فى مجلة هايدن جودويل ، وهى إحدى محلات تأهيل الأولاد فى بوسطن بولاية ماساشوسيتس الأمريكية . ودرس شلدون ومعاونوه فى الفترة ما بين ١٩٣٩ ، ١٩٤٢ أربعين شاباً تقريباً ، ثم اختير من هذه العينة مائتان لاجراء دراسة تتبعية عليهم بعد الحرب وكان أساس الاختيار هو اكتمال المعلومات عنهم ووضوح الجناح لديهم . وقد تم فحص جميع أفراد العينة بوساطة اختبار الطراز البدنى وأعطى كل منهم درجته عليه بالإضافة الى درجة أخرى على

المكونات الثانوية للبنيسان الجسمي . كما تم تقييمهم على المكونات السيكياترية وجمعت بيانات وافية عن تواريخ حياتهم شملت معلومات عن أداؤهم العقلي والتعليمي وتاريخ أسرهم ، والتاريخ الطبي والسلوك الجانح ، وأنواع السلوك المميزة .

وجوه التقرير الذي قدمه شلدون عن هذا البحث هو ما سماه تاريخ الحياة السيكولوجي الذي يمثل عرضا موجزا لتاريخ حياة الفرد بالإضافة الى صور طرازه البدني . وقد رتب هذه التراجيم على أساس تصنيف يقسم الشباب الى جماعات وفقا للنقص العقلي ، السيكوباتية ، ادمان الكحول ، الأنثوية الزائدة ، ودرجة الاجرام . وبالإضافة الى هذه التراجيم المصنفة التي تترك عبه استخلاص التعميمات على أكتاف القاري. بدرجة كبيرة ، قدم شلدون رسوما بيانية لتوزيع الطرز البدنية لعينة من الجانحين بالمقارنة مع مجموعة طلاب الجامعة. ومن الواضح انه بينما يظهر طلاب الجامعة تجمعا حول الطرز البدنية المتوسطة (٤ - ٤ - ٤) مع تشتت موزع بالتساوي تقريبا على بقية الرسم فان الجانحين يتكثرون معا في المنطقة «الشمالية الغربية» اذ يغلب أن يكونوا من طراز متوسط التركيب الداخلي للتركيب endomorphic mesomorphs وهناك ارتفاع واضح في الطراز المتوسط التركيب في المجموعة الجانحة وانعدام ملحوظ للأفراد ذوى الدرجات العالية على المكون الخارجى التركيب. ويقدم شلدون أيضا رسوما بيانية مشابهة لكل من الجماعات الفرعية التي تنقسم اليها عينة الجانحين . وتوحى هذه الرسوم بأنه برغم أن النمط الجسمي المميز للجانح هو متوسط التركيب الداخلي التركيب فان هناك تنوعا كبيرا فى الطراز البدني بين الجماعات الفرعية الجانحة . كما أجريت مقارنات بين مختلف الجماعات الفرعية للجانحين على أساس المكونات الثانوية ، والمكونات السيكياترية والمعلومات الديموجرافية وتاريخ الحياة .

ويبدو شلدون فى نهاية دراسته مقتنعا بأنه توجد فروق سلوكية وجبلية هامة لا بين الجانحين والأسوياء فحسب بل وبين الجماعات الفرعية للجانحين . فضلا عن ذلك فانه يدل بتأملات فيما يتعلق بالدور المحتمل للطراز الوامن *asthenia* والطراز الحطى *dysplasia* (التوزيع غير المتساوى للطراز البدني) والطراز المتضخم *burgeoning* (التضخم الهائل وغير الوظيفى للبنيان الجسمي) باعتبارها محددات بيولوجية لامتيز الجانحين فحسب بل وتميز آباهم كذلك وتؤدى به هذه

الملاحظة الى بعض النتائج المتشائمة نسبيا فيما يتعلق بما يحدث للأصول البيولوجية لامته الأمريكية نتيجة للفروق الانتقائية في معدلات الانسال والتي تحيز للجماعات الاجتماعية والاقتصادية التي تظهر لديها طرز الواهن والحلطي والمتضخم .

وكما سبق لنا القول فان شلدون يعمل الآن في جو طبي ، ويهتم اهتماما بالغا بالعلاقة بين عوامل التكوين الجبلي والمرض العضوى . وقد أورد بعض النتائج المختصرة (١٩٤٩) عن بعض المكتشفات التمهيدية حول بعض الأمراض كالسرطان وأمراض المثانة . وقرحة الاثنى عشر ، كما بين أيضا بعض المشاكل الاجرائية التي صادفها في هذا النوع من الدراسات . وعلى أى حال فان مجموع هذه المكتشفات ستظهر في المستقبل في كتاب عن الطب الجبلي .

المكانة الراهنة والتقويم :

قلة من السيكولوجيين هي التي أظهرت مثل ما أظهره شلدون من وحدانية الهدف والمثابرة في متابعة مسالك تجريبية تنبع جميعها من فكرة محورية واحدة . وقد نشر حتى الآن مجموعة متناسقة ومتكاملة من أربعة مجلدات مع وجود عدد - آخر من المجلدات في سبيل الاعداد . وهكذا نجد أن شلدون نفسه قد أظهر نشاطا بارزا ودأبا في محاولاته للوصول الى وسيلة يقدم بها العوامل البيولوجية من خلال وصف البنيان الجسمي . وسوف يوقف ما بقى من عمره بلا شك على توسيع وتوضيح الصياغات والمكتشفات التي عرضنا لها من قبل . والشئ الأكثر أهمية أن بعونه قد أنتجت مجموعة من البحوث التي تدور حولها من جانب الغاضبين أو المهتمين من علماء النفس وأطباء العقل وعلماء الأنثروبولوجيا . وبرغم أن القلة من هؤلاء الباحثين هي التي اهتمت بالصياغات النظرية التي يمكن أو يجب أن تصاحب هذه المكتشفات فانهم برغم ذلك قد قدموا مساهمات تجريبية ثمينة . وسيجد القارئ اشارات الى هذه البحوث في نهاية الفصل .

وان أى محاولة لتقييم الدلالة العامة لأعمال شلدون لابد أن تفعل ذلك في اطار النظريات السيكولوجية القائمة . وكما أشرنا قبل ذلك فان علم النفس الأمريكي انفرد بالتحيز ضد اسهام العوامل البيولوجية أو الوراثية باعتبارها محدثات للسلوك . ومع أن بعض المنظرين في مجال الشخصية

قد اختار معالجة هذه العوامل فانهم عموما لم يبذلوا الا ميلا ضئيلا
لاكمال فروضهم النظرية بأساليب اجرائية لتقييم تلك العوامل
البيولوجية الحاسمة . وهكذا فاننا ندين بفضل كبير لشندون في تذكيره
للسيكولوجيين بان الكائن الانساني الذي يسلك له بنيان جسمى وبان
هذا البنيان الجسمى - زيادة على ذلك - يقدم مفاتيح قيمة لمجموعة من
المحددات الكامنة التي قد تبرهن في النهاية على انها قاهرة وشاملة شأنها في
ذلك شأن العوامل البيئية .

وإذا نحينا جانبا مسألة الإلحاح على العوامل البيولوجية ودور الوراثة
فانه تبقى لنا حقيقة أنه يبدو أن شلدون قد عزل وأبرز مجموعة من
العلاقات التجريبية التي تعتبر معلومات هامة لأى نظرية عن الشخصية .
فقد يمكن للمرء أن يمارى في درجة العلاقة بين البنيان الجسمى
والشخصية أو حتى في العوامل الواسطة في هذه العلاقة الا أن الأدلة الحالية
لا تدع مجالا للشك - على الأقل لدى مؤلف هذا الكتاب - فى ان هناك
شيئا هاما يوجد هنا . وقبل أن يفرض شلدون وجوده على المسرح فان مثل
هذه العلاقة كانت تستبعد عادة فى هذا البلد باعتبارها لا تعدو أن تكون
خرافة أو سطحا .

وبالإضافة الى المساهمات التي تقع مباشرة فى مجال نظريات
الشخصية فمن الواضح أن أساليب شلدون فى ايجاد الطراز البدنى تعتبر
عونا هاما للشخص الذى يدرس الكائن الانساني . فهى لا تختم
فحسب كحلقة وصل جديرة بالاعجاب بين ما هو تشريحي وما هو بيولوجي
بالقوة وما هو سلوكي بل تمدنا كذلك بأسلوب للقياس للفرد المهتم فقط
ببناء الجسم الانساني . فالهندس الانساني ، وعالم الانثروبولوجيا
الطبيعية وغيرهما ممن ليسوا سيكولوجيين قد يستخلصون من ذلك
الأسلوب عونا غريدا لحل مشاكلهم .

ومن الواضح أن احلال المتصلات continua محل الثنائيات
dichotomies أو المتغيرات variables محل الفئات categories
يمثل تقدما هاما فى القياس . فانه من الأسهل للفرد المهتم بقياس البنيان
الجسمى أن يقدم قيما لعدد من المكونات عن أن يحشر الانسان فى
واحدة من ثلاث أو أربع أو خمس فئات . وبالمثل فان تطوير
شلدون لمعامل الطراز الخلطى dysplastic index كقياس كمى لانحراف الطراز
البدنى بين مختلف مناطق الجسم يمثل تقدما عن « موقف سلة المهملات »
الذى كان عليه فى نظام كرتشمير . وفى هذه المنطقة نفسها ، فان تطويره

لأسلوب التصوير الفوتوغرافي جعل من الممكن ادخال درجة من الدقة والضبط لم تكن تخطر على بال عندما كان القياس يستخلص مباشرة من الجسم البشرى .

ان المساهمات الايجابية لأعمال شلدون واضحة ويمكن ذكرها ببساطة ، وكذلك السلبية . وربما كان النقد الشائع لنظرية شلدون في التكوين الجبلي هي أنها ليست بنظرية على الاطلاق . والحقيقة أننا اذا اتخذنا حتى أدنى معايير الدقة الشكلية فاننا سنجد لهذا النقد ما يبرره تماما . الا أننا سبق لنا ان رأينا ان نظريات الشخصية هي على العموم مجموعة غير مستقرة نوعا وانه ليكون نظريا فريفا ذلك الذى يرفع شعار الدقة الشكلية دون ان يكشف أجنحته هو للهجوم . فاذا سلمنا بهذه الحالة العامة لنظريات الشخصية . فلا تظل النظرية الجبلية فقيرة نسبيا فيما يتعلق بالمحكات الشكلية ؟ بلى ! فانه يكاد يكون من المستحيل ان نستنتج منها أية قضايا ، وفي الواقع ، كما سبق لنا ان اكتشفنا ، فان النظرية تتكون من افتراض عام واحد (وهو الاستمرار بين البناء والسلوك) وعدد من المفاهيم الوصفية لقياس البنيان الجسمى والسلوك . ولعله من الانصاف لشلدون ان نذكر أنه طالما بين ان موقفه يجب الا يعتبر محاولة لايجاد نظرية عامة بل المقصود به تفسير لعند محدد من المتغيرات وربما استبعاد عدد من التحيزات الشائعة بين من يعملون فى دراسة السلوك الانساني . ولهذا فقد اقترح ان تكون مهمة احتضان المتغيرات والمكتشفات التي وجدها من نصيب نظرية اعم . ومن الصعب مناقشة ذلك الرأى ولو ان المرء يأسف لأن وجهة النظر هذه لا توجد باستمرار فى كتابات شلدون .

والنقد الآخر الذى يوجهه علماء النفس ضد أعمال شلدون هو ما يتعلق بالأخطاء المنهجية الكامنة فى بحثه . فمع ان الكثير من أعماله معرض لمثل هذا الهجوم فان معظم النقد انصب على مامالات الارتباط العالية بشكل غير عادى والتي وجدها بين متغيرات البنيان الجسمى والمزاج . وبرغم ان شلدون يناقش بشكل مطول مسألة تحيز القائم بالتقدير واختلاط المعلومات (١٩٤٢ ، ص ٤١١ - ٤٢٥) فانه مهما كانت كمية الحجج فلن تؤدي الى اغفال حقيقة أنه فى دراسته للمزاج قام شخص واحد (هو شلدون) بتقدير الطراز البدنى والمزاج . والأهم من ذلك ان شلدون بخبرته فى هذا المجال يستطيع بلا شك ان يصنف الفرد بدقة من ناحية الطراز البدنى فى الوقت الذى يقدر فيه درجات مزاجه . وهكذا فان كبر

معاملات ارتباطه قد تعكس قوة ادراك الباحث بدلا من الارتباط الفعلي بين البنيان الجسمي والمزاج . وقد أشار شلدون في مجال الدفاع عن نفسه ضد هذا النقد الى أن تقديراته للمزاج قد أجريت قبل تقدير البنيان الجسمي وكما تعلم فإن تقديرات البنيان الجسمي موضوعية بدرجة كبيرة وهذا يقلل احتمال تأثير مجموعة من التقديرات على المجموعة الأخرى . الا إن امكان تأثير تقدير البنيان الجسمي الكامن على تقديرات المزاج يظل قائما . وزيادة على ذلك فإنه يصر على أنه من السخف لأن تطلب من المرء اجراء تقديرات للمزاج دون أن ترى المفحوص نفسه . فان طبيعة تقديرات المزاج في حد ذاتها تتطلب أن يكون الفاحص على معرفة وثيقة وعميقة بالشخص الذي يضع له التقديرات ، واذا لم يستطع ملاحظة المفحوص فكيف يتسنى له وضع تقديرات مضبوطة ؟ وفي رأى شلدون أن نقاده يصرّون على ادخال كمية من الجهل كافية لتدمير أى احتمال لاكتشاف مكتشفات ذات دلالة وذلك حتى نتجنب التحيز . ومن الواضح أن هناك الكثير مما يمكن أن يقال في وصف كلا الجانبين ، ومن الواضح أيضا أن فرصة الالتقاء بين شلدون وناقديه من السيكلوجيين فرصة ضئيلة .

ويؤدى ذلك النقد مباشرة الى اعتراض آخر على دراسة المزاج . فالارتباطات من الحجم الذى أورده شلدون لا تتفق مع كل ما هو معروف ومفترض عموما عن السلوك الانساني فخطأ القياس المحتم وجوده في استخدام الأداة التي استخدمها لتقييم المزاج وتعدد العوامل التي لايد من وجود دور لها في تحديد الظواهر السلوكية تتضافر بحيث تجعل من غير المحتمل بالنسبة لمعظم علماء النفس أن يرتبط السلوك والبنيان الجسمي ذلك الارتباط الوثيق الذى يبدو من معاملات ارتباط شلدون . ويرد شلدون على ذلك الزعم بقوله أنه يعتبر السلوك امتدا على متصل يتراوح ما بين النواحي التي تتحدد بوضوح بوساطة الأحداث البيئية أو أحداث الخبرة وما بين تلك النواحي المرتبطة ارتباطا وثيقا ببيولوجيا وبناء الفرد . وقد اختار عن عمد في دراسة نواحي السلوك تلك التي تبدو له واثق ارتباطا بما هو جيل أو بيولوجى وبالتالي فلا مجال للدهشة هنالك من وجود علاقة وثيقة بين مقاييسه السلوكية والبنائية . ومن الطبيعي أن يقل حجم هذه العلاقة اذا ما نسبت نواح أخرى من السلوك الى البنيان الجسمي . ولوجهة نظر شلدون ما يبررها تماما . ولكنها تتركه مع ذلك معرضا للنقد من حيث أنه فشل في جعل ذلك واضحا بما فيه الكفاية في كتاباته وبالتسلسل استبعد حدودا هامة معينة يجب أن توضع على تعميم مكتشفاته .

وغالبا ما اصر النقاد على أن الطراز البدني لا يظل ثابتا في وجه التغيرات الغذائية أو غيرها من التغيرات البيئية ولديهم من الأدلة ما يؤيد هذا الزعم (لاسكر ١٩٤٧ ، نيومان ١٩٥٢) . وكما رأينا فان تمييز شلدون الأخير بين الطراز البدني والطراز الظاهري واصراره على ضرورة القيام بقياسات متتابعة وثبات الغذاء حتى يمكن القيام بتشخيص دقيق للطراز البدني يستل من ذلك النقد الكثير من حداثته . وبرغم ذلك فان شلدون يتنازله عن ثبات تصنيفه للبنيان الجسمي يقلل بدرجة ما من فائدته الممكنة .

وينظر بعض علماء النفس الذين يقدرّون أسلوب التحليل العاطلي حتى قدرها الى نتائج بعض دراسات التحليل العلمي للبنيان الجسمي (ايزنك ١٩٤٧ ، هولز ١٩٥٢ ، ثرستون ١٩٤٦) التي أوردت عوامل مختلفة عن مكونات شلدون الأولية ، ينظرون اليها باعتبارها تثير مشاكل خطيرة بالنسبة لمكتشفاته . ومن الناحية الواقعية فان تلك الدراسات قد استخدمت مصدرا أساسيا لمعلوماتها مقاييس للبنيان الجسمي تختلف من نواح هامة عن تلك التي استخدمها شلدون مما يجعل الموازنة بين مكتشفات الجانبين صعبة جدا . هذا بالإضافة الى وجود عدم اتفاق كاف حول التحليل العاطلي باعتباره أداة تجريبية (انظر الفصل العاشر) بحيث لا يكون من الحكمة تقرير مكانة أعمال شلدون على أساس منها وحدها .

ويرى الكثيرون من المراقبين أنه برغم ما يبدو من أن شلدون قد سلك طريقا استقرائيا في تطوير مفهوماته ومقاييسه فان هناك أدلة قوية على أنه تأثر بمفهومات مسبقة . وهكذا فان متغيراته للبنيان الجسمي تظهر تطابقا مدهشا مع تلك التي استخدمها أسلافه . والأهم من ذلك فانها من المصادفات الملفتة للنظر حقيقة أن تعكس متغيراته للمزاج هذا التطابق الدقيق لمتغيراته للبنيان الجسمي . ويحس هؤلاء النقاد أن تحيز الفاحص هو الذي يفسر هذا التطابق لا طبيعة الأشياء . بل ويذهبون الى أبعد من ذلك قائلين أن بعض تقديراته للمزاج تقترب بشكل خطير من البنيان الجسمي من ناحية السلوك التي تدل عليها . وقد رأينا من قبل كيف فسّر شلدون هذا التوازن الوثيق بين تقديرات البنيان الجسمي والمزاج . ولذا ترتفع تقديراتهما بالضرورة .

والآن ما هي النتائج التي وصلت اليها البحوث التجريبية التي أولتها أعمال شلدون ؟ هل قدمت تلك البحوث العديدة نتائج تؤيد

– عموماً – أو لا تؤيد نتائج شلدون ؟ ان التلخيص الدقيق والتقييم لتلك البحوث يستغرق مساحة لا نستطيع توفيرها وخاصة أن معظم الباحثين قد أدخلوا تغيرات كبيرة في مناهجهم بحيث أصبح من الصعب موازنتهمها ببساطة ببحوث شلدون . ولذلك فإن كل ما نطمح فيه هنا هو تقديم انطباع عام . اننا نعتقد انه اذا تمكن القارئ من دراسة قائمة البحوث الواردة في نهاية هذا الفصل بدقة فسيخرج مقتنعا بأن شلدون كان على صواب في زعمه بوجود ارتباط عال بين البنين الجسدي والشخصية . ورغم ذلك فسيبضح أنه من الناحية الواقعية لم يصل أحد من هؤلاء الباحثين الى ارتباطات بين البنين الجسدي والشخصية تماثل في حجمها تلك التي وصل اليها شلدون . وحتى اذا قبلنا حقيقة أن الارتباطات الصغيرة التي حصل عليها معظم الباحثين تقريبا ترجع جزئيا الى ضعف حساسية أساليبهم القياسية ، فان الفرق بين نتائجهم ونتائج شلدون يظل كبيرا بدرجة توحى أن « الحقيقة » تقع في نقطة متوسطة وهكذا فاننا نمتقد أن التقييم العام للدراسات العديدة التي تمت منذ بدأ شلدون ببحثه ستؤدى بالقارئ الى قبول وجود علاقة هامة ذات دلالة بين البنين الجسدي والشخصية ولكنها ستتركه غير مقتنع بأن تلك العلاقة وثيقة للدرجة التي افترضها شلدون .

ومن المهم في أى تقييم نهائى لنظرية شلدون أن توضع في الاعتبار الثروة الهائلة من الدراسات التجريبية التي قادها شلدون والتي حركتها كتاباته . وفي النهاية فإن قيمة أى نظرية يمكن قياسها بأثرها التجريبي وليس هناك من ينكر أن مكتشفات شلدون وصياغاته قد أثارت العشرات أو ربما المئات من الدراسات المتعلقة بها . ورغم أن القلة من هذه الدراسات أو ربما ولا واحدة منها تمثل محاولة لاختبار استخلاصات من مجموعة من المسلمات فان هذا يعتبر محكما هزليا اذا ما قورن بالسؤال الأقوى كم عدد تلك الدراسات التي قدمت مكتشفات ذات دلالة نهائية . ومن هذه الناحية فانه آن لنا أن نقول : ان أعمال شلدون ستكون لها أهمية بالنسبة للأجيال القادمة . فهما كانت نقائضها ، فقد أدت الى مكتشفات سيكون على المستقبل أن يضعها في الاعتبار .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Sheldon, W. H. (with the collaboration of S.S. Stevens and W. B. Tucker). *The varieties of human physique: an introduction to concker*). *The varieties of human physique: an introduction to constitutional psychology*. New York: Harper, 1940.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of S. S. Stevens). *The varieties of temperament: a psychology of constitutional differences*. New York: Harper, 1942.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of E. M. Hartl and E. McDermott). *Varieties of delinquent youth: an introduction to constitutional psychiatry*. New York: Harper, 1949.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of C. W. Dupertuis and E. McDermott). *Atlas of men: a guide for somatotyping the adult male at all ages*. New York: Harper, 1954.

REFERENCES

- Allport, G. W. *Personality: a psychological interpretation*. New York: Holt, 1937.
- Child, I. L. The relation of somatotype to self-rating on Sheldon's temperamental traits. *J. Pers.*, 1950, 18, 440-453.
- Child, I. L., and Sheldon, W. H. The correlation between components of physique and scores on certain psychological tests. *Character & Pers.*, 1941, 10, 23-34.
- Coffin, T. E. A three-component theory of leadership. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1944, 39, 63-83.
- Eysenck, H. J. *Dimensions of Personality*. London: Routledge & Kegan Paul, 1947.
- Fiske, D. W. A study of relationships to somatotype. *J. appl. Psychol.*, 1944, 28, 504-519.
- Gall, F. J., and Spurzheim, J. G. *Recherches sur le Systeme nerveux*. Paris: Schoell, 1809.
- Hoskins, R. G. *Endocrinology: the glands and their functions*. New York: Norton, 1941.
- Howells, W. W. A factorial study of constitutional type. *Amer. J. phys. Anthropol.*, 1952, 10, 91-118.
- Janoff, Irma Z., Beck, L. H., and Child, I. L. The relation of somatotype to reaction time, resistance to pain, and expressive movement. *J. Pers.*, 1950, 18, 454-460.
- Kline, N. S., and Tenney, A. M. Constitutional factors in the prognosis

- of schizophrenia. *Amer. J. Psychiat.*, 1950, 107, 432—441.
- Kline, N. S., and Oppenheim, A. N. Constitutional factors in the prognosis of schizophrenia: further observations. *Amer. J. Psychiat.*, 1952, 108, 909—911.
- Kretschmer, E. *Physique and character*. New York: Harcourt, 1925. (Translated by W. J. H. Spratt from *Koerperbau und charakter*. Berlin: Springer, 1921.)
- Lasker, G. The effects of partial starvation on somatotype. An analysis of material from the Minnesota Starvation Experiment. *Amer. J. phys. Anthropol.*, 1947, 5, 323—341.
- Lavater, J. C. *Essays on physiognomy: for the promotion of the knowledge and the love of mankind*. London: Whittingham, 1804. *Theoretical foundations of psychology*. New York: Van Nostrand, 1951, pp. 602—655.
- Naccarati, S. The morphologic aspect of intelligence. *Arch. Psychol.*, 1921, no. 45.
- Newman, R. W. Age changes in body build. *Amer. J. phys. Anthropol.*, 1952, 10, 75—90.
- Peterson, D. G. *Physique and intellect*. New York: Century, 1930.
- Rostan, L. *Cours élémentaire d'hygiène*. 2nd Ed. Paris: Béchot jeune, 1824.
- Sanford, R. N., Adkins, Margaret M., Miller, R. B., Cobb, Elizabeth A., et al. *Physique, personality and scholarship*. *Monogr. Soc. Res. Child Developm.*, 1943, 8, no. 1.
- Seltzer, C. C. The relationship between the masculine component and personality. *Amer. J. phys. Anthropol.*, 1943, 3, 33—47.
- Seltzer, C. C., Wells, F. L., and McTernon, E. B. A relationship between Sheldonian somatotype and psychotype. *J. Pers.*, 1948, 16, 431—436.
- Sheldon, W. H. *Psychology and the Promethean will*. New York: Harper, 1936.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of S. S. Stevens and W. B. Tucker). *The varieties of human physique: an introduction to constitutional psychology*. New York: Harper, 1940.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of S. S. Stevens). *The varieties of temperament: a psychology of constitutional differences*. New York: Harper, 1942.
- Sheldon, W. H. Constitutional factors in personality. In J. McV. Hunt (Ed.). *Personality and the behavior disorders*. New York: Ronald Press, 1944, pp. 526—549.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of E. M. Hartl and E. McDermott). *Varieties of delinquent youth: an introduction to constitutional psychiatry*. New York: Harper, 1949.
- Sheldon, W. H. *Early American cents, 1793—1814*. New York: Harper, 1949.
- Sheldon, W. H. (with the collaboration of C. W. Dupertuis and E. Mc-

- Dermott). *Atlas of men: a guide for somatotyping the adult male at all ages*. New York: Harper, 1954.
- Sigaud, C. *La forme humaine*. Paris: Maloine, 1914.
- Smith, H. C. Psychometric checks on hypotheses derived from Sheldon's work on physique and temperament. *J. Pers.*, 1949, 17, 310-320.
- Smith, H. C., and Boyarsky, S. The relationship between physique and simple reaction time. *Character & Pers.*, 1943, 12, 46-53.
- Thurstone, L. L. Factor analysis and body types. *Psychometrika*, 1946, 11, 15-21.
- Viola, G. *Le legge de correlazione morfologia dei tipi individuali*. Padova, Italy: Prosperini, 1909.
- Wittman, Phyllis, Sheldon, W. H., and Katz, C. J. A study of the relationship between constitutional variations and fundamental psychotic behavior reactions. *J. nerv. ment. Dis.*, 1948, 108, 470-476.

الفصل العاشر

نظريات العامل

أصبحت الطريقة المستخدمة في تحليل البيانات النفسية تمثل أمرا على جانب كبير من الأهمية منذ أن طور علماء النفس الأساليب الكمية تطويرا كبيرا . ومع ذلك فربما كان التحليل العاملي فقط هو الأسلوب الكمي الذي بلغ من الدلالة ما أدى إلى قيام نظم نظرية ترتبط به ارتباطا صريحا . ويدعو المدافعون عن مثل هذه النظم إلى أن تحل الإجراءات المنطقية والموضوعية إلى حد كبير محل الطريقة الحدسية غير المحددة عادة والتي صيغت وفقا لها أغلب المتغيرات داخل موضوع الشخصية . ويتكون جوهر مثل تلك النظريات عادة من مجموعة من المتغيرات أو العوامل الفارقة التخصص التي تكمن وراء ذلك التعقيد الشامل للسلوك بل وتفسره . وتستخلص تلك المتغيرات عادة من دراسات السلوك المتسعة المدى التي تشمل عددا كبيرا من الفحوصين ، والتي تستخدم العديد من المقاييس التي تكفل سهولة التقدير الكمي . وهكذا فإنه ينبغي القول بأن نظريات الشخصية التي نشرع في مناقشتها هنا لا تستمد سماتها الفريدة من حجرات المعالجين أو من معمل الحيوانات بل من أسلوب احصائي معين .

وينتسب تطوير تلك المواقف إلى التيار الرئيسي لتقاليد القياس النفسي . وابتداء من تلك الجهود الرائدة التي قام بها ج . ماكين كاتل J. McKeen Cattell في دراسة الفروق الفردية برزت مجموعة عظيمة من علماء النفس الأمريكيين والإنجليز الذين تركز اتجاههم في دراسة السلوك الإنساني حول استخدام الاختبارات الموضوعية . ولقد انصب أغلب جهود تلك المجموعة على دراسة القدرة العقلية برغم أن السنوات الحديثة قد شهدت تزايدا فيما يتعلق بمتغيرات الشخصية . ولقد كان ذلك الاهتمام بالمقاييس الموضوعية التي تؤدي إلى نتائج عديدة مصحوبا بتزايد

في القدرة على التحليل الاحصائي للبيانات الكمية . وكانت احدى نتائج هذا الاهتمام بالتحليل الكمي ظهور التحليل العامل .

ولقد تم تقديم الافكار الجوهرية للتحليل العاملي على يدى سبيرمان Spearman (١٩٠٤) وهو احد علماء النفس الانجليز البارزين ، وقد اشتهر ببحوثه في القدرات العقلية (سبيرمان ، ١٩٢٧) . ويرى سبيرمان أننا اذا فحصنا اى اختبارين من اختبارات القدرات يرتبطان بعضهما ببعض ، فان لنا أن نتوقع وجود نمطين من العوامل يسهمان في ادائها . فاولا هناك عامل عام (مثل الطلاقة اللفظية ، و الذكاء العام او المستوى التعليمي) له أهمية في كلا الاختبارين . وهناك ثانيا العامل الخاص (مثل الذاكرة البصرية ، او الإدراك المكاني ، او المعلومات المتخصصة) الذى ينفرد به كل اختبار . ولقد ظهر التحليل العاملي كوسيلة لتحديد وجود تلك العوامل العامة والاسهام في تعريفها . ولقد تعدلت طريقة سبيرمان في عزل العوامل المفردة بتقديم نرستون Thurstone (١٩٢١) لنظرية العوامل المتعددة . ولقد أدى ذلك الى فتح الطريق امام دراسة الكثير من المشاكل التى أكثر تعقيدا ، وقد ظل هذا منذ ذلك الوقت هو الأسلوب الرئيسى للتحليل العاملي . وادت قوة الحجج التى قدمها نرستون مصحوبة بالنتائج التى توصل اليها سبيرمان نفسه ، بجميع الباحثين فى هذا المجال تقريبا الى التسليم بحقيقة انه لا توجد فحسب عوامل عامة مشتركة بين كل الاختبارات او المقاييس موضع الفحص وعوامل خاصة محدودة بكل اختبار مفرد، بل انه توجد ايضا عوامل طائفية تتوافر في أكثر من اختبار واحد ، ولكنها في الوقت نفسه ليست عامة تماما . ويؤكد التحليل العاملي اليوم تأكيدا خاصا على تلك العوامل الطائفية .

ان الفهم التفصيلي للتحليل العاملى ليس ضروريا لاغراض العرض الذى يتضمنه هذا الفصل ، ولكن بالرغم من ذلك فمن الضرورى أن يلم ائقارىء بالمنطق العام الذى يكمن خلف ذلك الأسلوب . يبدأ صاحب نظرية العامل دراسة للسلوك بعدد كبير من الدرجات لكل فرد من عدد كبير من المفحوصين . وهو قد يأتى بتلك الدرجات من استبيانات ، او من تقديرات ، او من اختبارات موقفية أو من أى مصدر آخر يتيح قياسا ذا دلالة للسلوك ، ويمكن التعبير عنه كما . والأمثل هو أن تتناول تلك المقاييس جوانب عديدة مختلفة من السلوك . وبعد توافر تلك الاسس الظاهرة يبدأ الباحث في تطبيق طريقة التحليل العلمى لاكتشاف

العوامل التي تحرك أو تحدد أو تحكم التباين في المتغيرات الظاهرة . وهو يُمل بذلك أن يتعرف على عدد صغير من العوامل الأساسية التي يفسر تأثيرها أغلب التباين في ذلك العدد الضخم من المقاييس الذي بدأ به .

ولا يقف نتاج التحليل العامل عند حد عزل العوامل الأساسية فحسب بل انه يوفر لكل مقياس او مجموعة من الدرجات تقديرا لمدى اسهام كل من تلك العوامل فيه . ويشار عادة الى هذا التقدير باعتباره تحميل loading المقياس أو تشبعه saturation وهو يعبر ببساطة عن مقدار التباين في هذا المقياس المعين والذي يمكننا أن نعزوه الى كل من تلك العوامل . ويتحدد المعنى النفسي للعامل وكذلك اسمه أو عنوانه الذي يرتبط به الى حد كبير بطبيعة المقاييس المعينة التي يرتفع تشبعها بهذا العامل . ويحاول صاحب نظرية العامل عادة بمعد أن يعرف العوامل الأساسية التي يريد أن يبتكر الوسائل لقياس تلك العوامل بكفاءة أكثر مما كان يستطيعها بالاستعانة بالوسائل الأصلية .

وهكذا ، فإن صاحب نظرية العامل يبدأ بنطاق متسع من المقاييس ثم بعد ذلك يحاول أن يكون وسائل أكثر كفاءة لتقييم تلك العوامل . ولا تختلف العوامل التي يسفر عنها التحليل العامل الا قليلا في مفهومها عن مكونات او محددات المتغيرات التي تقول بها لنظريات الأخرى للشخصية . انها مجرد محاولات لتحديد المتغيرات التي يمكن أن تفسر ذلك التعقيد المتنوع للسلوك الظاهر . والجديد في هذا الاتجاه هو الطريقة المستخدمة لاستخلاص تلك المتغيرات .

وينبغي على القارئ أن يتذكر أنه برغم ما للعوامل العمامة أو الطائفية من أهمية خاصة بالنسبة للمشتغل بالتحليل العامل ، فانها ليست النمط الوحيد من العوامل . لقد قدم بيرت Burt (1941) وصفا لأنواع العوامل التي يمكن استخلاصها من تطبيق التحليل العامل وقد لقي ذلك الوصف قبولا كبيرا . وهو يرى أن هناك عوامل عالمية Universal أو عامة General وتبدو أغلب كتاباته من الناحية النظرية متفقة أيضا عوامل معينة أو طائفية Group تلعب دورا في أكثر من مقياس ولكن ليس في كل المقاييس وهناك بالإضافة الى ذلك العوامل المفردة والخاصة Specific التي تسهم في مقياس واحد فحسب ، وأخيرا هناك عوامل الصدفة أو الخطأ Error التي تظهر مرة واحدة في تطبيق مقياس مفرد وترجع الى خطأ القياس أو الى نقص الضبط التجريبي .

والتحليل العاملى - شأنه شأن أى إجراء آخر - يمكن أن يساء استخدامه . ويؤكد أحكم الباحثين فى هذا المجال حقيقة أنه لا بدليل للأفكار الصحيحة والمعرفة التفصيلية للظاهرة موضع الفحص . وهكذا يقرر ثرستون (١٩٤٨) فى مناقشته لبحوث معمل القياس النفسى الخاص به :

« اننا نبلل فى تصميم الاختبارات التجريبية للدراسة العاملية وقتا أكثر من ذلك الذى نبدله فى كافة بقية الأعمال الحسابية بما فى ذلك الارتباطات واستخراج العوامل ، وتحليل البنيان . وإذا كان لدينا عدة المفروضات متعلقة بموامل مقترحة ، فإننا نضم ونبتكر الاختبارات الجديدة التى تفرق بدقة بين المفروضات المتعددة ، وهذا يحمل نفسى تماما وأن كان يخلو من الحسابات . وهو يتطلب نفس القدر من الاستبصار النفسى من جانب الطلاب والمعلمين . وكثيرا ما نجد أننا قد أخطانا التقدير ، ولكن النتائج عموما تكون مشجعة تماما . واتى إذ أشير الى هذا الجانب من العمل العاملى أمل فى الرد على ذلك الانطباع العام بأن التحليل العاملى يتعلق كلية بالجبر والإحصاءات . أنها يجب أن تكون فى خدمتنا خلال فحصنا للأفكار النفسية ، فالذا لم يكن لدينا أفكار نفسية فلا يحتمل أن نكتشف أى شيء ذى قيمة لانه حتى اذا ما كانت نتائج التحليل العاملى واضحة نظيفة فإن التفسيرات سوف تكون ذاتية شأنها فى أى بحث علمى آخر » (ص ٤٠٢) .

وتقدم المقالة الممتازة لجيلفورد (١٩٥٢) تحذيرا هاما فى اشارتها الى حالات كثيرة لا ينصح فيها باستخدام التحليل العاملى . والقارىء الذى يرغب فى فحص التحليل العاملى بتفصيل أكبر نشير عليه بقراءة كاتل (١٩٥٢) أو جيلفورد (١٩٥٤) ، أو طومسون Thomson (١٩٥١) أو ثرستون (١٩٤٧) .

لقد ذكرنا الكثير عن منطق التحليل العاملى ، فمأذا عن تطبيقه فى مجال بحوث الشخصية ؟ ما هى النظريات أو مجموعات المفاهيم التى قدمها ؟ أن الكثيرين قد قدموا إسهاماتهم فى هذا الخصوص ومن بينهم ل . ل . ثرستون ، و ج . ب . جيلفورد ، و و . ستيفنسون W. Stephenson وعلى أى حال فإن أكثر تلك الإسهامات أهمية من حيث تميزها بالوضوح واتساع التطبيق ، كانت مخططات هانز ج . Hans J. Eysenck ورايموند . ب . كاتل Raymond B. Cattell وستنلخص موقف كل منهما ثم ننظر الى حدود ذلك الاتجاه العام فى الشخصية ونواحي قصوره . وسيجد القارىء المهتم بأعمال الآخرين ممن أسهموا فى هذا المجال تلخيصا وافيا فى فصل كتبه ماكيتون (١٩٤٤) ومسح أكثر حداثة قام به فرنش French (١٩٥٣) .

أبعاد الشخصية لدى أيزنك

تميز أعمال ه . ج . ايزنك بازديادها المتشدد للمفاهيم المسبقة والمعتقدات المتعلقة بالشخصية ، وكذلك باستمداها للدراسة السلوك على نطاق واسع ، واستخدام أساليب معينة في مجالات لم يكن من المألوف تطبيقها فيها . ويجمع ايزنك بين الامتياز التقليدي لعلماء النفس البريطانيين في استخدام الاساليب الكمية وبين الاهتمام بدراسة ظاهرة الشخصية في موقف طبي نفسي . وتعد تلك المحاولة في التوفيق بين التدقيق الاجرائي للمتخصص في القياس العقل وبين استبصارات الاكثينكيين تأكيداً قيماً ومتميزاً . ولقد أبدى ايزنك تفضيلاً لمفاهيم السلوك البسيطة والاجرائية نسبياً . وهو يعتقد أنه في المدى البعيد يجب أن تسير النظرية جنباً الى جنب مع التجربة كما يجب أن تختفي في النهاية تلك النظريات التي تحمل أكثر مما يجب من الاصطلاحات غير المحددة . وفوق ذلك فهو يمتلك حساً نقدياً فائق التطور ولا يتردد في استخدامه في مواجهة أقوى المعامل النظرية والعلمية المعاصرة . وهو يضيف الى كل تلك الصفات القدرة على اجتذاب واثارة مؤازرة مجموعة من الزملاء والتلاميذ القادرين بحيث أن مجموع العمل الذي انجزه خلال العقد الأخير كان ملحوظاً تماماً حتى بالنسبة للمعدلات الأمريكية المرتفعة .

ان عماد نظرية ايزنك الى علم النفس ينبع من اعتقاده أن القياس امر اساسي بالنسبة لأي تقدم علمي ، واعتقاده الأعمق بأننا في علم النفس مازلنا غير متيقنين مما يجب علينا قياسه . وتكشف الفقرة التالية عن مفهومه لكيفية امكان تحسين هذا الموقف .

« اذا كانت مهنتنا الرئيسية هي ان تقدم على الاقل حلاً وقياساً لمشكلة التصنيف في بحوث الشخصية ، فاننا نشغل اوتومايكيا بمشكلة ايجاد الأبعاد المناسبة للشخصية . وينبغي ان نتجه الى التحليل العائلي كطريقة تساعدنا على الحل لانه برغم الصعاب وواجه الضعف المتراف بها في تلك الطريقة فانه لا يوجد في الرحلة الحالية من معرفتنا . اي طريقة اخرى يمكن ان تساعدنا في بحثنا» (١٩٥٢ ، ص ٢٢) .

وهكذا نرى بوضوح باحثاً يعتبر أن تصنيف أو ترتيب السلوك هو الخطوة الأولى الحاسمة ، ويعتقد أن التحليل العائلي هو أكثر الأدوات فائدة لتحقيق هذا الهدف . وحقيقة ان ايزنك قد استخدم أساليب أخرى

كالتحليل التمييزي (ايزنك ، ١٩٥٥) ولكننا سنرى أن الجانب الأكبر من بحوثه يتضمن تحليلا عامليا .

ولد ايزنك في ألمانيا عام ١٩١٦ حيث تلقى تعليمه المبكر . وقد غادر ألمانيا عام ١٩٣٤ تحت تأثير الحركة النازية . وجاء أخيرا الى إنجلترا حيث أكمل دراساته وحصل على درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة لندن عام ١٩٤٠ . وقد خدم خلال سنوات الحرب كإخصائى نفسى فى مستشفى ميل هيل Mill Hill للطوارئ ، وعين على أثر الحرب مدرسا لعلم النفس فى جامعة لندن ومديرا للقسم النفسى فى معهد الطب العقلى الذى يضم مستشفى مودزلى Maudsley ومستشفى بشلم الملكر Bethlem Royal حيث أنجز الكثير من بحوثه . وقد جاء الى الولايات المتحدة خلال ١٩٤٩ - ١٩٥٠ كأستاذ زائر فى جامعة بنسلفانيا ، وقام خلال صيف سنة ١٩٥٤ بالتدريس فى جامعة كاليفورنيا . وفى عام ١٩٥٤ عين أستاذا لعلم النفس فى جامعة لندن . ومن الواضح بشكل عام أن أبحاث ايزنك تدور بالكثير لسبيرمان رائد التحليل العاملي ولكنها تتصل بشكل أكثر مباشرة - كما اعترف بذلك ايزنك - بإسهامات ل.ل. ثرستون L.L. Thurstone وتبدو تغلب كتاباته من الناحية النظرية متفقا مع بحوث علماء الأنماط الأوربيين مثل جينيش Jaensch ويونج Jung وكريلين Kraepelin وكرتشمير Kretschmer ويبدو أن كتابات كارل يونج وإرنست كرتشمير كان لها تأثير خاص عليه ، بحيث أنه يعتبر أن بحوثه مرتبطة ارتباطا وثيقا بصياغاتهم النظرية . وقد أظهرت كتاباته فى السنوات الأخيرة (ايزنك ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ب) تأثير نظرية كلارك هيل Clark Hull

وبرغم أن بحوث ايزنك قد تركزت الى حد كبير فى مجال الدراسات الاكلمينيكية للشخصية فانه قد قام أيضا ببحوث تتعلق بالاتجاهات والفكاهة والجماليات والكثير من المجالات الأخرى . ولقد أدت إنتاجته غير العديدة الى حوالى سبعين مقالا فى المجلات وخمسة كتب تتعلق لثلاثة منها بدراسة ووصف الشخصية : **أبعاد الشخصية Dimensions of Personality (١٩٤٧)** ، **والدراسة العلمية للشخصية The Scientific Study of Personality (١٩٥٢)** ، **وبناء الشخصية The Structure of Human Personality (١٩٥٢)** أما المؤلف الرابع ، **مفاهيم علم النفس ومفهومه Uses and Abuses of Psychology (١٩٥٢)** فانه يتناول قائمة علم النفس فى شئون الانسان اليومية . ويتعلق

أحدث بحوثه بالسلوك السياسي وعنوانه **سيكولوجية السياسة**
• (١٩٥٤) The Psychology of Politics

بناء الشخصية :

ان اعتقاد ايزنك بأن أغلب نظريات الشخصية متعلقة بمتغيرات متشابهة وغير محددة ، الى جانب استخدامه للتحليل العاملي ، قد أفضيا الى نظام للشخصية يتميز بعدد صغير جدا من الأبعاد الرئيسية التي تم تحديدها بدقة فائقة . وسوف نلخص في هذا القسم مفهومه العام في الشخصية ثم نعود الى الأبعاد المعينة التي افترضها .

طبيعة الشخصية :

تستق نظرة ايزنك الشاملة للشخصية اتساقا تاما مع تعريفات مختلفة سبق أن فحصناها ، ويبدو أنها تتفق بشكل خاص مع تعريف أوليورت . ويعرف ايزنك الشخصية بأنها :

« ... المجموع الكلي لانماط السلوك الفعلية او الكامنة لدى الكائن ، ونظرا لانها تتحدد بالوراثة والبيئة فانها تنبثق وتتطور من خلال التفاعل الوظيفي لأربعة قطاعات رئيسية تنظم فيها تلك الانماط السلوكية : القطاع المرقق (الدواء) ، القطاع النزوعي (الخلق) ، القطاع الوجداني (المراج) ، والقطاع البدني (التكوين) »
(١٩٤٧ ص ٢٥) .

وربما كانت أكثر السمات غرابة في هذا التعريف هي اشتماله الصريح على « القطاع البدني » . وينعكس هذا الاهتمام بالتكوين في بحوث ايزنك العملية حيث استخدم مرارا بناء الجسم بوصفه متغيرا مناسباً من متغيرات الشخصية .

وتحتل مفاهيم السمة **trait** وال**الطراز type** مكانا مركزيا في نظرة ايزنك للسلوك . وهو يعرف السمة ببساطة شديدة باعتبارها « تجمعا ملحوظا من النزعات الفردية للفعل » وبعبارة أخرى ، فإن السمة ببساطة هي اتساق ملحوظ في عادات الفرد أو أفعاله المتكررة . أما الطراز فيعرف بأنه تجمع ملحوظ أو سمة ملحوظة من السمات . وهكذا فإن الطراز نوع من التنظيم أكثر عمومية وشمولا ، ويضم السمة بوصفها جزءا مكونا .

وكذلك فإن دراسات ايزنك الحديثة للسلوك السياسي قد أدت به الى مزيد من التأكيد على مفاهيم الاتجاه attitude والايديولوجية Ideology التي أخذت تحتل مكانة فى النطاق المعرفى أو العقل تعادل تقريبا مكانة الطراز والسمة فى مجال الشخصية .

ويبدو واضحا فى كتابات ايزنك تصور الشخصية بوصفها تتكون من الأفعال والاستعدادات التى تنتظم فى شكل هرمى تبعاً لعموميتها وأهميتها . وتحتل الطرز أعلى مستويات العمومية والشمولية ، كما تحتل الاستجابات النوعية أكثر المستويات نوعية وأقلها عمومية ، وفيما بين المستويين تقع الاستجابات المعتادة والسماة .

وليست الاستجابة النوعية أكثر من فعل ملحوظ أو استجابة ملحوظة تحدث فى حالة مفردة . والاستجابة المعتادة أكثر عمومية بعض الشيء حيث أنها تدل على استجابة متواترة تتميز بظهورها فى نفس الظروف أو فى ظروف مشابهة . واستجابات معتادة معينة منها يرتبط بعضها بالبعض الآخر وتنزع الى أن توجد لدى نفس الشخص ، ويشار الى هذا التنظيم على أنه السمة . وأخيرا هناك تنظيم للسماة فى بنیان أكبر عمومية وهو طراز الشخصية . وترجع مستويات الوصف الأربعة هذه الى رابعة طرز من العوامل التى سبق أن أشرنا الى أنها يمكن أن تستخرج من التحليل العامل ، أى أن طراز الشخصية يقابل العامل العام ، والسمة تقابل العامل الطائفى ، والاستجابة المعتادة تقابل العامل النوعى والاستجابة النوعية تقابل عامل الحطأ . ويقترح ايزنك نفس الشكل بالضبط من التنظيم فى المجال المعرفى حيث تكون الايديولوجية هى أكثر المفاهيم عمومية يليها بالترتيب الاتجاه ، فالرأى المعتاد ، ثم الرأى النوعى .

ولنتقل الآن الى فحص أكثر تفصيلا لمفاهيم ايزنك فى السمة والطراز .

سمات الشخصية : برغم وضوح ايزنك التام فى تعريفه للسماة ، فإنه لم يظهر فى عرضه للبحوث التى قام بها الا اهتماما تفصيليا ضئيلا بها - على الأقل تحت تلك التسمية - وقد كان الجانب الأكبر من اهتمامه موجها الى الأبعاد الرئيسية أو طرز الشخصية . ومهما كان الأمر ، فإنه اتساقا مع تعريفه الأسمى فإن الفقرات أو الاختبارات التى تؤلف المصفوفات الارتباطية والتى يستخرج منها أبعاده باستخدام التحليل العامل ، يجب أن تعتبر ممثلة للسماة . فإذا كانت الطرز تمثل انتظامات أو تجمعات

للسمات واذا كانت طرزه ترتكز على انتظامات تلك التقديرات أو الاختبارات الفردية ، فان هذه الأخيرة يجب أن تكون سمات .

وهكذا ، فاننا اذا فحصنا الدراسة الاصلية التي أجريت على سبععانة جندي عصابى (ايزنك ، ١٩٤٧) وجدنا أن الأبعاد الأساسية وهي العصابية neuroticism والانطواء - الانبساط introversion-extraversion قد استخرجت من التحليل العاملي لتسع وثلاثين فقرة اختيرت من صحيفة للبيانات الشخصية تتضمن تقديرات للشخصية الى جانب معلومات واقعية تتعلق بالمفحوصين . وبرغم أن بعض تلك المقاييس يبدو من الصعب تصورها بوصفها سمات للسلوك ، كالسنن فوق الثلاثين والزواج ، والموقف المنزل غير المقبول ، فان اغلبها يقع بسهولة في تلك الفئة ، مثل الاعتماد ، وقلة الطاقة ، والدورى (السيكلوثيمي) وشبه الفصامى (سكيزويد) ، والحوازية ، والبلادة ، والحصر ، والاكتئاب . وفي دراسات تالية أدخل فيها ايزنك (١٩٤٧ ، ١٩٥٢) مقاييس تجريبية خاصة صممت لقياس صفات تبدو على أساس قبلى اميل الى الانتماء لأحد أبعاده الأساسية ، بدا واضحا مرة أخرى أن تلك المقاييس تقيس متغيرات تحتل نفس المكانة المنطقية للسمات فى نظامه .

وعلى ذلك ، فالسمة لدى ايزنك ينبغي أن تعرف اجرائيا أو أن يصحبها اجراء قياسى معين حتى يمكن أن تكون لها اية أهمية أو فائدة . وأبعد من ذلك يجب أن تستمد السمة أهميتها أولا من اسهامها فى التعريف العام للأبعاد الكامنة للشخصية أو طرزها ، وثانيا من استخدامها فى مزيد من التحديد لتلك الأنماط (الطرز) . ويتحقق تحديد طرز ايزنك أساسا - كما سنرى - عن طريق الوصف التفصيلى للسمة ، وهو برغم تركيزه على مشكلة التصنيف الى طرز (التيبولوجية) فإنه يميل الى اعطاء أهمية مستقلة لدراسة السمات ، وتقدم بحوثه عن القابلية للإبهاء الدليل على ذلك (ايزنك ، ١٩٤٣ ، ١ ، ١٩٤٣ ، ب ، ١٩٤٣ ، ج ، ايزنك وفيرنو ، ١٩٤٥ ، ايزنك وويرز ١٩٤٥) .

طرز الشخصية:تتجه جميع بحوث ايزنك الى هدف نهائى هو تعريف الأبعاد الأولية للشخصية مما يسمح بالتالى باقامة تصنيف قوى فريد للطرز (تيبولوجية) . ولقد ترسمت بحوثه الحطى النظرية لكرتشممر ويونج وأدت الى نتائج يبدو أنها تدعم الكثير من أفكار يونج ، على حين فشلت فى اغلبها فى تأكيد التنبؤات المشتقة من نظرية كرتشممر . ولقد تمت أولى دراساته الرئيسية خلال سنوات الحرب على مجموعة

تبلغ حوالي عشرة الآلاف من المفحوصين الأسوياء والعصابيين (ايزنك ١٩٤٧) وتمكن فيها من اكتشاف متغيرين أساسيين . وقد بدأت تلك الدراسة بدراسة سبعمائة من الجنود الذكور العصابيين الذين تم تربيهم بالنسبة لعدد كبير من السمات وفقا لما يراه الأطباء العقليون . وقد توفر لديه أيضا قدر كبير من المعلومات المتعلقة بتاريخ الحياة . وبعد أن تعرضت الترتيبات والتصنيفات للتحليل العاملى استخرج منها عاملان عرفا بالانطوائية - الانبساطية ، والعصابية . وبعد عزل هذين المتغيرين استمر ايزنك وزملاؤه فى استكشافهما فى عدد كبير من الفحوص التالية حتى يمكن تمييز الأبعاد بدقة أكبر ، ويتضمن ذلك عادة مقارنة الأفراد ذوى الدرجات المنخفضة على المتغيرين الأوليين فى أدائهم على مختلف المقاييس المستقلة أو مواقف التقدير . وقد أدت تلك الدراسات الى وصف كامل مركب لصفات الفرد المنطرف على أحد متغيرى العصابية أو الانطوائية - الانبساطية .

ويمثل المتغير الأول الذى عزله ايزنك تمارضا ذا قطبين بين **الانطواء** و**الانبساط** . ويعتبر ايزنك أن نتائجه فى هذا المجال تمثل تأكيدا جوهريا للأفكار النظرية التى قدمها كارل يونج . ولقد تمكن ايزنك فى نهاية سلسلة دراساته من أن يقدم العرض الوصفى التالى « للانطوائى » و « الانبساطى » .

« .. أننا نجد أن المنطوين (العصابيين) يبدوون ميلا الى اظهار اعراض الحصر والاكتئاب ، وانهم يتميزون باليسول الحوازية ، وعدم الاستقرار وبالبلادة ، وانهم يمانون عن عدم ثبات جهازهم العصبى المستقبل . وتبعاً لما قرره هؤلاء أنفسهم ، فإنه يسهل ابداء مشاعرهم واستثارة احساسهم بالذات . وهم عصبيون - ويستسلمون لمشاعر النقص ، ومن ذوى المزاج المتقلب ، ويسهل استفراقهم فى أحلام اليقظة ، ويعتمدون من الاضواء والناسبات الاجتماعية ، ويمانون من الارق .. أما بالنسبة لبنيانهم الجسمى فإن نموهم الرأسى يتفوق على نموهم الانقى ، واستجابتهم بالجهد ضعيفة ويرتفع لديهم مستوى نشاط استراس اوكولين **Choline esterase** وافرار اللعاب لديهم مكثوف ، وذكاؤهم مرتفع نسبيا ، وقوتهم اللفظية متسازة ، ويغلب أن يكونوا مشاربين . وهم يتميزون بالدقة عموما ، ولكن مع البطء ، ويتفوتون فى الأعمال الدقيقة (اختبار اللانط) . كذلك فإن طموحهم مرتفع بشكل غير عادى ولكنهم يميلون الى التقليل من مستوى أدائهم . وبالإضافة الى ذلك فهم اميل للجمود ، ولا يبدوون الا قدراً ضئيلا من التباين الفردى فى السمات الشخصية . وتميل تفضيلاتهم الجمالية الى الصور الهادئة ذات الطابع القديم . أما فى الخلق الجماعى فهم يخرجون تفصيلات متلاحمة كثيرا

ماكون في موضوعات عيانية . وهم لا يرجون بالنكت كثيرا ولا يميلون
بخاسة النكت الجنسية وخطهم في الكتابة ممتاز (١٩٤٧ ، ص ٢٤٦
- ٢٤٧) .

« وفي المقابل يبدى الإنسياطيون المصابيون ميلا لظاهر أعراض
هستيرية تحولية ، وكذلك اتجاهها هستيريا نحو أعراضهم . وفوق ذلك
تبدو طاقاتهم شثيلة واهتماماتهم غيقة ، وتاريخهم المهني سييء ، وهم
يعانون كذلك من نوع المرض . ووفقا لما يقررونه بانفسهم ، فانهم يعانون
من اضطرابات اللعنة ، والتهتية ، والاستهداف للحوادث ، وكثيرا ما
يتروكون العمل بسبب المرض ، ساخطين شاكين من الإوجاع والآلام . أما
بالنسبة لبنياتهم الجسمي فان نوعهم الافقى يتفوق على نوعهم الرأسى
واستجابتهم بالجهد طبيعية تماما وينخفض لديهم مستوى نشاط استراس
الكولين وافرار اللعاب غير مكثوف . وينخفض مستوى ذكائهم نسبيا ،
وكذلك ينخفض محصولهم في المفردات ويبدون نقسا شديدا في الثابرة .
وهم اميل للسرعة وعدم الدقة ، وادأؤهم سييء بالنسبة للأعمال الدقيقة
(اختبار الملائط) كذلك فان مستوى طموحهم منخفض ولكنهم يميلون
الى تضخيم أدائهم وهم ليسوا شديدى الجمود ويبدون قدرا كبيرا من
التباين الفردى في السمات الشخصية وينتج نفضيلهم الجمالى نحو
الصور الحديثة المليئة بالألوان . وبالنسبة للخلق الجمالى فهم يخرجون
تصميمات متناثرة كثيرا ماكون في موضوعات مجردة .. وهم ميالون للنكت
ويغرمون على وجه الخصوص بالنكت الجنسية . وخطهم في الكتابة
ممتاز (١٩٤٧ ، ص ٢٤٧) »

وإذا سلمنا بصحة أغلب أو كل مقاييس ايزنك فلن يكون هناك شك
كبير فى أن النمطين اللذين عزلهما يمثلان نوعين مختلفين تماما من الناس .
ولا تختلف هاتان المجموعتان بعضهما عن بعض اختلافا واضحا فحسب، بل
ان خصب الوصف الموضوعى الذى قدمه ايزنك لتحديد الطرز وللمزيد من
الفهم لها ، كان كاملا تماما . وبخلاف الكثيرين ممن سبقوه ، ممن كانوا
يكتفون بالتأمل فيما يتعلق بالطرز المناسبة ، ثم يعبرون عن تأملاتهم بأمثلة
من الحياة اليومية قدم ايزنك عددا كبيرا من المقاييس الموضوعية ذات الدلالة
النفسية ، والتي يمكن أن تستخدم فى تمييز تلك الطرز . ويرى ايزنك
أن لتلك الطرز علاقة تشابهية على الأقل بالتشريح الفرويدى العقلى بمعنى
أن الهو تبدو مسيطرة لدى المنبسط فى حين يبدو الأنا الأعلى هو الأقوى
لدى المنطوى .

وقد أسفرت تلك السلسلة من الدراسات التى أدت الى وصف
تفصيلى للمنطوى والمنبسط عن نتائج تختص بالفرد المحاصل على درجة
عالية على بعد العصائية ويلخص ايزنك تلك النتائج كما يلى :

« ... ان الجندي المعابي ، هو في المتوسط شخص يشكو
قصورا في العقل والجسم ، وذكائه نحو المتوسط وكذلك ارادته وقدرته
على ضبط الانفعالي ودقة احساسه وقدرته على التعبير عن نفسه -
وهو قابل للايحاء تنقصه المثابرة ، وبطءه في التفكير والعمل ، وغير
اجتماعي ، وينزع الى كبت الحقائق غير السارة » (١٩٦٧ ص ١٦٦) .

ولقد عبر ايزنك عن اعتقاده بأن العوامل الوراثية يحتمل أن يكون
لها بعض الدور في تطور هذا النمط ولكنه يعترف صراحة بأن نتائجه
التجريبية المستخلصة من تلك المجموعة من الدراسات لم تنته الى نتيجة
محددة في هذا الخصوص . وهو يرى كذلك أنه كما أن الذكاء قد يعتبر
عاملا عاما في المجال المعرفي ، والانطواء - الانبساط عاملا عاما في المجال
الانفعالي فكذلك قد تعتبر العصابية عاملا عاما في المجال الدفاعي أو في
مجال السعي . وهكذا فإن ايزنك يعتقد أن العصابية قد تعتبر جزئيا على
الأقل مشكلة لضعف في الارادة أو في قدرة على المثابرة في السلوك المدفوع .

ولقد قدم ايزنك أخيرا (١٩٥٥ ب) نظرية في الحصر والهيستريا
تعتمد بشدة على أبحاث بافلوف وهل التي تؤدي الى بعض التنبؤات المينة
المتعلقة بمتغيرات الانطواء - الانبساط والعصابية . ولقد وجد - كما
تنبأت تلك النظرية - أن السهولة التي يمكن أن تتطور بها الاستجابات
المشروطة عند المفحوصين الآدميين ومقاومة تلك الاستجابات المشروطة
للانطفاء ، ترتبط بمتغير الانطواء - الانبساط ولكنها لا ترتبط بمتغير
العصابية . كما تأكدت أيضا التنبؤات المستقاة من النظرية والمتعلقة
بالأداء في مختلف المواقف التجريبية الأخرى . وتكشف تلك الدراسات
عن اهتمام ايزنك بفحص الأبعاد التي أقامها في أوضاع جديدة ، وتشير
أيضا الى اتجاهه نحو تضمينها في اطار نظري أكثر عمومية .

وقد قام ايزنك (١٩٥٢) في سلسلة تالية من البحوث بعدد من
الدراسات على الأفراد الأسوياء ونزلاء مستشفى الأمراض العقلية - وامتدت
تلك الدراسات الى ثلاثة أبعاد رئيسية تؤدي الى طرز الشخصية والتفكير
الجديد هو الذهانية Psychoticism . ويصف ايزنك الفرد الحاصل
على درجة مرتفعة على هذا البعد بالعبارات التالية :

« اننا نجد ان الذهانين أقل طلاقة ، وأن أداءهم منخفض
في اختبار الجمع المستمر ، وكذلك في اختبار الرسم في المرأة ، ويبدون
تلاذبا ابدا في اختبار عكس المنظور وهم ابدا كذلك في اختبار التتبع
بالقلم ، وهم أقل تحديدا بالنسبة للانجاعات الاجتماعية ، ويبدون
تركيزا أقل ، وذاكرة اضعف ، ويميلون الى القياس بحركات أكبر ،

وينزعمون الى تقدير المسافات والدرجات تقديرا مبالغا فيه ، ويميلون الى القراءة ببطء اكثر . والى النظر ببطء اكثر ايضا وهم يبدون مستويات من الطوح اقل بكثير من الواقع (١٩٥٢ ، ص ٢١٧) .

ويستخلص ايزنك أن تلك الاختلافات بين الذهانيين والأسوياء لا يمكن أن تعزى ببساطة الى ميل الذهانيين للأداء بشكل أضعف من الأسوياء في كل المجالات ، حيث أن هناك العديد من الاختبارات لا يفرق الأداء فيها بين مجموعة الأسوياء والذهانيين .

وهكذا أدت بحوث ايزنك الى تحديد ثلاثة أبعاد أولية (الانطواء ، والعصابية ، والذهانية) تقوم أساسا لتصنيف الأفراد الى طرز ، وهذا المخطط الملحوظ البساطة في أبعاده ، يتسق تماما بالطبع مع استحسانه للاقتصاد في التنظير .

البحوث المميزة وطرق البحث :

لقد سبق أن أشرنا الى أن الكثير من تفرد أعمال ايزنك مستمد من قدرته على تطبيق أساليب معينة في مجالات لم يسبق أن استخدمت فيها من قبل ، ذلك بالإضافة الى الطاقة والترتيب الملحوظين اللذين يتناول بهما ما يهتم به من مشاكل . وربما كانت أكثر اسهاماته في طرق البحث أصالة هي تلك التي يشير اليها باسم تحليل المحك Criterion analysis وسناقش في هذا القسم باختصار طريقة تحليل المحك ونتبع ذلك بالمخطوط العامة للدراسة التي استخدمت فيها تلك الطريقة لاستكشاف أحد أبعاد ايزنك الرئيسية وهو العصابية . وقيل أن نشغل بتلك المهمة سنعرض باختصار لبعض الجوانب المعينة من اعتقادات ايزنك المتعلقة بالكيفية التي يجب أن تسير بها بحوث الشخصية .

استراتيجية بحوث الشخصية :

يتفق ايزنك تماما مع التيارات السائدة في علم النفس الامريكي من حيث تفضيله للبحوث الواسعة النطاق التي يقوم بها مجموعة من علماء النفس تتضافر جهودهم في مواجهة طويلة لمجال معين يمثل مشكلة . كذلك فإن الأكثر تمييزا له الى حد ما هو اعتقاده بأن المهمة الرئيسية لصاحب النظرية المثمرة هي التعليم وليس التوسع أو التقدير الاستقرائي extrapolation وتكشف العبارة التالية بوضوح عن هذين الاتجاهين :

« في رأيي ان الوقت قد حان لكي تغطي المسوح الميدانية لمسات
مجزولة والدراسات الاستكشافية لجماعات صغيرة ، الطريق أمام العمل
المخطط على نطاق اوسع تماما ، على حين ستظل للدراسات الاستكشافية
دائما بالطبع محتفظة بقيمتها في كشف مجالات جديدة ، ويجب ان تؤدي
مثل تلك الاستكشافات في النهاية الى الاندماج اذا ما اريد جنى ثمارها
الكلية . وبالنسبة ، فبينما قدم ذلك العدد الكبير من النظريات التي
برزت في العقود القليلة الماضية الكثير لاثارة الاهتمام بالدراسة العلمية
للمزاج والشخصية ، فان هذه النظريات كانت بعيدة اساسا عن التعريف
الاجرائي والضبط التجريبي لدرجة انه بدا فيها ان التبسيط والطرش
جانبا بلا هوادة اكثر ضرورة من محاولة الاضافة الى ذلك الخلط »
(IX ص ١٩٤) .

على أن موافقة ايزنك الكاملة على أهمية النظرية تبرز بوضوح الى
جانب وجهة نظره في كيفية تحقيق التقدم في النظرية في العبارة التالية
المأخوذة من مقال له يعرض فيه لما يصفه بالنظرية « الافتراضية -
الاستدلالية hypothetico-deductive » في الحصر والهستريا :

يميز هذا النوع من النظرية الجهد العلمي الذي يحاول تخطي
التجريبية (اليمبريقية) الخالصة والاستقراء البسيط الى افتراض
القوانين والنظريات العامة ، والاستدلال منها على كل من المواقف
الملاحظة وغير الملحوظة بعد . وقد كان لا بد لمثل تلك النظرية ان تكون غالبا
في مراحلها الاولى مجملا بالغ التبسيط للعلاقات الشديدة التعقيد التي
تطوى عليها . وعلى ذلك فان تلك النظرية تبدو من وجهة النظر العلمية
اكثر فائدة من غيرها من النظريات التي اكثر تركيبا وسفطة والتي لا يمكن
المراء من التوصل الى استدلالات قاطمة وقابلة للاختبار . وتكمن القيمة
التي يمكن ان تقدر بها النظرية ، في التوصل الى مثل تلك الاستدلالات
واختبارها ، ومن خلال هذا النوع فحسب من الإجراءات التجريبية يمكن
انجاز تلك التحسينات وتحقيق مزيد من التعقيد دون الاقلال من الدقة
(ايزنك ١٩٥٥ ص ٤٧) .

لقد ألحنا الى اهتمام ايزنك بالجمع بين طرق القياس النفسي وبين
المشكلات والإجراءات الاكلينيكية ، وتتضمن تلك العقيدة بصورة متكاملة
فكرة ان اولئك الذين استخدموا التحليل العامل قد وضعوا كل اهتمامهم
في مقاييس السلوك القائمة على الاستبيانات ومقاييس تقدير السلوك مما
نتج عنه الاعتماد على بيانات ذاتية . وهو يشعر من ناحية اخرى بان اولئك
الذين استخدموا مقاييس السلوك التجريبية لم يولوا الكائن الكلي الذي
يريدون فهمه الا اهتماما قليلا . وهو يقترح استخدام المقاييس
التجريبية لتجاشي أخطار الذاتية مع مراعاة استخدامها على اعداد كبيرة

بالاستعانة بالتحليل العامل لتعاشي ضيق النظرة التي تميز التجريبيين .
وبرغم أن ايزنك يعتبر نفسه ذريا ، ويعتقد اعتقادا راسخا في الأهمية
الجوهرية لاعداد مقاييس لابعاد السلوك الانساني تتميز بالوضوح
وبالوضوحية فإنه بصر أيضا على أن الباحث ينبغي أن يستخدم مصادر
عديدة متنوعة لبياناته اذا أراد أن يعلم الكثير عن الشخصية .

« ... ان العمل في ميدان الشخصية ينبغي الا يقيد نفسه في قطاع
ضيق ، بل ينبغي لكي يكون مقنعا ان يحيط بالشخصية من جميع
جوانبها . ومفهوم «الشخصية الكلية» يبدو ان له ما يبرره تماما بالقدر
الذي يقر فيه بأن المناهج الجزئية لا يمكن ان تؤدي الا الى فهم جزئي
فحسب . وينبغي ان تركز البحوث على اساس متسع قدر الامكان يشمل
التقديرات والتقديرات الذاتية واختبارات السلوك الموضوعية والتقديرات
البدنية والقياسات اللاارادية وغيرها من المقاييس الفسيولوجية المناسبة ،
والسير الذاتية وغيرها من المعلومات التاريخية ، وكذلك بالتأكيد ، جميع
انواع المعلومات الواقعية والموضوعية التي قد تستخدم لتدعيم الفروض
موضع التحسس » . (١٩٥٢ ، ص ٣١٩) .

طريقة تحليل المحك : يعتبر ايزنك أن تحليل المحك لا يعدو أن يكون
مجرد جمع بين طريقة اختبار الفروض أو الطريقة الافتراضية - الاستدلالية
وبين أسلوب التحليل العامل . وكما أشار ايزنك ، فإن الكثير من نقاد
التحليل العامل قد اعترضوا على غلبة الاستخدام الوصفي لهذا الأسلوب ،
كما أنهم فضلا عن ذلك قد أبانوا أن الأسلوب يسمح بقدر كبير من التسفيه
في تحديد أي العوامل سوف تستخرج من مصفوفة ارتباطات معينة .

وطبقا للإجراء الذي يراه ايزنك فإنه ينبغي على الباحث أن يبدأ
باعتقاد أو افتراض يتعلق بمتغير أو عامل كامن معين ، ثم يشرع في اعداد
مجموعة من المقاييس أو درجات الاختبارات التي يفترض ارتباطها بهذا
العامل الكامن . وبعد ذلك يجب عليه أن يستخرج الدرجات التي تحصل
عليها مجموعتان متضادتان من حيث درجة هذا المتغير . وبعبارة أخرى فإنه
لا يتعين على الباحث أن يحصل على العديد من المقاييس المطبقة على عدد من
المفحوصين بالطريقة التقليدية فحسب ، بل يجب عليه أيضا أن يوفر
جماعات محك ، أي جماعات تحصل على درجات في هذا المتغير المفترض
تختلف اختلافا مميزا . ثم يحسب الارتباط بين كل اختبار فردي وبين
الثنائي المميز dichotomy بين المجموعتين ، وبذلك تحصل على مقياس
لكل اختبار يوضح مدى ارتباطه بالتمييز الذي تشير اليه جماعات المحك
أي مدى حساسية الاختبار لهذا المتغير على وجه الخصوص .

ويستحيل اعطاء صورة تفصيلية للخطوات التالية دون فهم للمعملية الحسابية للتحليل العائلي ، الا ان الفكرة وراء تلك الخطوات ، فكرة بالغة البساطة ، فبينما كان هناك قبل ذلك عدد من العوامل المختلفة التي كان يمكن اختيارها فان امامنا الآن عاملا واحدا ينبغي عزله بحيث يتفق اسهام الاختبارات الفردية في العامل المختار مع درجة الارتباط بين الاختبار الفردي وجماعات المحك . وفي كلمات اخرى ، فان جماعات المحك تضسع تحديدا صارما على التحليل العائلي ، وتؤكد ان العامل الذي يستخلص في النهاية سوف يكون اكثر اعتمادا على تلك الاختبارات التي اكثر تمييزا بين جماعات المحك .

ومهما كانت المزايا التكنيكية لهذا التهذيب في التحليل العائلي ، فان له ميزة مفردة هي انه يفرض على الباحث تقديرا مسبقا لمشكلته وعلى الأقل تصورا مؤقتا لطبيعة المتغير موضع الدراسة .

القياس الموضوعي للبعد العصائلي : بعد ان اطمان ايزنك (١٩٥٢) الى وجود البعد العصائلي بوصفه عاملا أساسيا يحدد الأداء على العديد من مختلف اختبارات الشخصية وتقديراتها ، عمد هو وزملاؤه الى ابتكار وسائل « القياس الكمي الدقيق » لهذا البعد . وتمثل تلك الدراسة اول تقرير تفصيلي عن تطبيق طريقة تحليل المحك . وقد بدأ الباحثون باختيار مجموعة من الأسوياء ، واخرى من العصائيين ليطبقوا عليهم - وفقا لطريقة تحليل المحك - عددا كبيرا من المقاييس التي يعتقد ان لها علاقة بمتغير العصابية الكامن . وقد تكونت مجموعة الأسوياء من ٢٠٧ من الجنود الذكور الذين أمضوا ستة أشهر على الأقل في الخدمة ، والذين كان مستوى ذكائهم عاديا على الأقل . أما مجموعة العصائيين فقد تكونت من ٢١٥ من الجنود الذكور الذين فصلوا من الجيش لأسباب طبية - نفسية . ولقد كانت الجماعة السوية والعصابية تبدوان متكافئتين بالنسبة لجميع المتغيرات فيما عدا الذكاء حيث كان مستوى ذكاء المجموعة السوية ممتازا بدرجة جوهرية . ولقد حاول ايزنك أن يضع ذلك في اعتباره عند تفسيره لنتائج تلك الدراسة .

وخلال فترة الاختبار التي استغرقت يومين طبق على المفحوصين عدد كبير من الاختبارات التي أدت الى ما يزيد عن السبعين مقياسا من المقاييس الفردية للشخصية ، يفترض ان لها جميعا بعض العلاقة بمتغير العصابية الكامن . وقد فحص كل اختبار بعد ذلك في ضوء قدرته على التمييز بين المجموعة السوية والمجموعة العصابية ، وقد وجد نتيجة لهذا التحليل ان

سلسلة من مقاييس الاستبيان تمييز بكفاءة باللغة بين المجموعتين السوية والعصابية ، كما يتميز بذلك أيضا عدد كبير من المقاييس المشتقة من « اختبارات السلوك الموضوعي » ، في حين فشلت مجموعة المقاييس المعتمدة على الحركات التعبيرية فشلا تاما في التمييز بين المجموعة السوية والمجموعة العصابية ، وقد نجح أيضا في التمييز بين المجموعتين مقياسان يعتمدان على اختبار اسقاطي (رورشاخ) .

وبعد اتمام هذا النمط من التحليل بالنسبة لسته وسبعين مقياسا فرديا اختار الباحثون ثمانية وعشرين مقياسا لاختبارها للتحليل العامل . وقد تم استخراج معاملات الارتباط المتبادلة بين تلك المقاييس بعضها وبعض ثم تعرضت مصفوفة الارتباطات النهائية للتحليل العامل بحيث يستخرج العامل الأول بطريقة تحقق الى أقصى حد اسهام (تحميل أو تشبع) تلك الاختبارات التي كانت أكثر كفاءة في التمييز بين المجموعات السوية والعصابية . ويتحدد هذا العامل في الحقيقة باختيار العامل الذي يقدم أعلى ارتباط بينه وبين مقدار تشبع المقاييس الفردية بذلك العامل ودرجة ارتباط تلك المقاييس بمجموعات المحك . ولقد كان الارتباط بين تشبعات العامل المستخرج والارتباطات بجماعات المحك هو ٤٠ر . وقد اعتبر ايزنك ذلك دليلا كافيا على الوجود الحقيقي لتغير العصابية الكامن . وهو يعتقد - بالإضافة الى ذلك - أن هذا الارتباط كان من الممكن أن يكون أكثر ارتفاعا بكثير إذا لم يكن هناك ذلك العجز غير الواثق عن الضبط بالنسبة للذكاء وهو الذي تدخل في هذه الحالة وافسد مقياس العصابية . وبعد اجراء سلسلة من الاجراءات الاضافية على تلك البيانات متضمنة ارتباطا متعدددا بين المقاييس المختارة والعوامل المستخرج ، توصل ايزنك الى النتيجة العامة التالية .

« يبدو من المعقول اذن ان نستخلص ان صدق بطارية الاختبارات المستخدمة هنا يبلغ تقريبا ٨٠ر او حوالى ذلك . وسوف يتضح فيما بعد ان معامل ثبات بطارية مشابهة يصل على الاقل الى ٨٥ر . وقد يصل الى ما يزيد عن ٩٠ر . وتدم تلك الافرام بشدة الحجة المقدمة في كتاب ابعاد الشخصية وهي اننا في العصابية نتناول عاملا يتعلق بالشخصية ويمكن قياسه بنفس صدق وثبات قياس الذكاء » (١٩٥٢ ، ص ١٥٥) .

ومضى ايزنك بعد بلوغه تلك النتيجة المشجعة في تدعيم حجته ، بذكر نتائج مشابهه لدراسة قام بها هيملويت وبتري (١٩٥١) Himmelweit & Petrie على أطفال أسوياء وعصابيين ، ثم يذكر

دراسة ايزنك وبرل ١٩٥١ Eysenck & Prell التي استهدفت اختبار الفرض القائل بأن البعد العصبي يتحدد جزئياً على الأقل بـ عوامل نشوئية أو تكوينية . وتعتمد تلك الدراسة أيضاً على التحليل العاملي كطريقة رئيسية للتحليل وقد أدت بأيزنك الى النتيجة التالية :

« ... لقد أوضحنا ان التوائم المتطابقة ابدت ارتباطاً على العصاية يبلغ ٨٥١ر. على حين ابدت التوائم الاخوية ارتباطاً يبلغ ٢١٧ر. فحسب ومن هنا يمكن ان نستخلص أن الفروق الفردية بالنسبة للعصاية ، أو الاتزان أو التكامل - اما نشأتنا من أسماء نود اطلاقها على تلك السمعة أو ذلك العامل - تحددها الوراثة الى درجة كبيرة جداً ولا تحددها البيئة الا بقدر بالغ الضآلة » . وتنطبق هذه النتيجة فحسب على ذلك النمط العام من البيئة التي تأتي منها جميع توائمنا ، وربما لا يمكن تطبيقها في ظروف أكثر تطرفاً من حيث المتغيرات البيئية كما قد يحدث في حضارات أخرى » (١٩٥٢ ص ١٨٩) .

سمات الشخصية لدى كاتل

يُجد في رايونود كاتل Raymond Cattell باحثاً لم يترتب على اهتمامه العميق بالطرق الكمية تضييق في مجال اهتمامه بالمعطيات والمشكلات السيكلوجية . ولقد كان التحليل العاملي لديه بمثابة الأداة المعاونة التي يستخدمها لالقاء الضوء على مختلف المشكلات التي تنتظم جميعاً في اطار تنظيمي . وتمثل نظريته أكثر المحاولات شمولاً لجمع وتنظيم النتائج الرئيسية لدراسات التحليل العاملي المدققة للشخصية . وهو يبدي أيضاً انتباهاً كبيراً بالنتائج التي توصل اليها الباحثون الذين استخدموا طرقاً مختلفة في الدراسة ، برغم أن محور موقفه يدور حول نتائج التحليل العاملي ، حيث يستخلص المتغيرات التي يعتبرها أكثر أهمية في تفسير السلوك الانساني . وهو يشبهه جوردون أولبورت Gordon Allport من حيث أن موقفه يمكن بدقّة أن يعتبر بمثابة « نظرية سمات » . ومن ناحية أخرى فهو يشبه ايزنك في اعتقاده بأن الدراسات المتسعة النطاق تمثل مفتاح التقدم المستقل في علم النفس ، وأيضاً من حيث اهتمامه بالتصنيف ، وكذلك في الانتباه الذي أبداه بالاجراءات التي يتم من خلالها تجميع البيانات لدراسة الشخصية . وهو في الحقيقة قد طور عدداً من الأدوات الخاصة لقياس الشخصية ، وكان لديه الكثير ليقوله فيما

يتعلق بتقويم ونقد المقاييس الرئيسية المتاحة حاليا في هذا المجال .
ويتمثل الفرق الرئيسي بين كاتل وايزنك في استخدامهما للتحليل العاملي
في حقيقة أن ايزنك يستخدم في الأصل طريقة تحليل المحك وهي الطريقة
التي سبق أن ناقشناها في حين يستخدم كاتل الطريقة المألوفة بقدر أكبر
وهي طريقة « البنين البسيط » . ومن الصحيح أيضا أن ايزنك يستخرج
في دراساته عادة عاملين أو ثلاثة عوامل فحسب على حين يستخرج كاتل
عدداً أكبر بكثير .

ولد كاتل في ستافورد شابر بإنجلترا عام ١٩٠٥ ، وقد تلقى تعليمه
كاملا في إنجلترا . فقد حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٩٢٤ وعلى
درجة دكتوراه الفلسفة في علم النفس سنة ١٩٢٩ وذلك من جامعة لندن .
وقد عين محاضرا في الكلية الجامعة في أكسستر بإنجلترا منذ عام ١٩٢٨
الى عام ١٩٣١ ، ثم مديرا للعيادة النفسية في لايستر بإنجلترا من
عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٧ . وهذا الجمع غير المألوف بين منصب أكاديمي
تتبعه مباشرة خبرة متسعة في موقف أكلينيكي يقدم بلاشك تفسيراً جزئياً
لاتساع اهتمامات كاتل بعد ذلك . وقد نال كاتل عام ١٩٣٧ درجة الدكتوراه
في العلوم D.Sc. من جامعة لندن لاسهاماته في بحوث الشخصية . وقد
عمل باحثاً زميلاً في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا خلال عام ١٩٣٧ -
١٩٣٨ ، ثم استاذاً لكرسى ج . ستانلي حول لعلم النفس في جامعة كلارك
الى أن عين محاضرا في جامعة هارفارد عام ١٩٤٢ . وفي عام ١٩٤٤ ، قبل
منصب أستاذ لبحوث علم النفس في جامعة الينوي حيث ظل هناك منذ
ذلك الحين .

وكاتل - شأنه شأن غيره من أصحاب النظريات الذين يؤكدون على
طريقة التحليل العاملي - يدين بعمق لذلك العمل الرائد الذي قام به
سبيرمان والتطويرات الشاملة التي أدخلها ثرستون . وقبدو صياغاته
النظرية أكثر ارتباطا بصورة مباشرة بصياغات ماكديوجال - الذي نستطيع
أن نرى كيف أن اهتمامه باكتشاف الأبعاد الكامنة للسلوك والتأكيد على
عاطفة اعتبار الذات قد بدت في ثوب جديد في كتابات كاتل . أما تفاصيل
الكثير من أفكاره النظرية وبخاصة تلك المتعلقة بالتطور ، فانها تبدو
وثيقة الصلة تماما بنظريات فرويد ومن تلاه من كتاب التحليل النفسي .

وخلال خمسة وعشرين عاما ، نشر كاتل عدداً كبيراً من المقالات
التي لا تغطي مجال بحوث الشخصية والقياس العقلي فحسب ،
بل تمس أيضا موضوعات في المجالات التقليدية لعلم النفس التجريبي ،

وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم الوراثة البشري . وقد نشر خمسة كتب تبدأ بكتاب مختصر عنوانه « **الدليل إلى الاختبارات العقلية** A Guide to Mental Testing (١٩٣٦ ، طبعة منقحة ١٩٤٨) ، وبعده كتاب **علم النفس العام** General psychology (١٩٤١) ، وهو مرجع تمهيدى . والأكثر أهمية من وجهة نظر هذا الفصل هما كتاباه التاليان ، وعنوان الأول هو **وصف الشخصية وقياسها و Description Measurement of Personality (١٩٤٦)** وقد حاول فيه أن يستخرج من وجهة النظر العرضية Cross-sectional أساسا وصفا لنظرية مناسبة في الشخصية . أما عنوان الكتاب الثلثي فهو : **الشخصية : دراسة نظمية ونظرية وواقعية (١٩٥٠) Personality : A Systematic, theoretical, and factual study** وقد حاول فيه أن يقيم على الأساس الذي أرساه في الكتاب السابق وجهة نظر تركيبية في الظواهر الكبرى للشخصية ، وتضم كلا من المنظورين الارتقائي والعرضي . أما أحدث مؤلفاته فهو **التحليل العامل : مقلمة ودليل للأخصائي النفسي والأخصائي العلوم الاجتماعية (١٩٥٢) ، Factor analysis : An introduction and manual for psychologist and social scientist.** وهو محاولة للوصول بالقارىء إلى أسلوب البحث الرئيسى الذى اتبعه كاتل ووضع هذا الأسلوب فى منظور مناسب للباحث المهتم بالسلوك الانسانى . وقد أعد كاتل أيضا العديد من الاختبارات منها **الاختبار عبر الحضارى للذكاء (١٩٤٤) The culture free test of intelligence** و**الاختبارات O-A للشخصية (١٩٥٤) واستبيان ال ١٦ عاملا من عوامل الشخصية (بالاشتراك مع د. ر. سوندرز D.R. Saunders و ج. ف. ستايس G.F. Stice (١٩٥٠) .**

طبيعة الشخصية : بناء من السمات

ان نظام المركبات الذى قدمه كاتل يعد من بين أكثر النظريات التى سوف نتعرض لها تعقيدا . وبرغم أن تلك المفاهيم تستمد خاصتها المميزة كما تستمد - فى كثير من الحالات - تعريفها التجريبي من دراسات تستخدم التحليل العامل ، فان بعضها يعد بمثابة اشتقاقات من النتائج التجريبية أو الدراسات القائمة على الملاحظة البسيطة للسلوك . ويعتبر كاتل أن تلك الحالة لا تعدو أن تكون ذريعة فحسب ، ويتضح ذلك من الفقرة التالية :

• ان معرفتنا بعلم النفس الدينامي تنبع اولا من الطرق الاكاديمية والطبيعية ثم ثانيا من التجربة المضبوطة . و «النتائج» من الطرق الاولى وحتى الثانية في طريقها لان توضع على اساس أكثر دسوخا وذلك بتطبيق طرق احتمالية أكثر دقة . وتحتاج التجارب والنتائج التجريبية على وجه الخصوص الى اعادة ارسائها على أسس من التصورات الحقيقية لاي السمات (او البواعث) احادية حقيقة ، ويتطلب ذلك اساسا من بحوث التحليل العاملى « (١٩٥٠ ، ص ١٧٥) » .

ويرى كاتل أن المهمة التفصيلية لتعريف الشخصية ينبغي أن تنتظر الى أن تتم الاحاطة الكاملة بالمفاهيم التي ينوى صاحب النظرية استخدامها في دراسته للسلوك . ولذلك فإنه يعتمد ألا يقدم سوى تعريف بالغ العمومية :

« ان الشخصية هي تلك التي يمكننا من التنبؤ بما سوف يفعله الشخص في موقف معين وعلى ذلك فان هدف البحوث النفسية في الشخصية هو تحديد قوائن تتعلق بما سوف يفعله الافراد المختلفون في جميع انواع المواقف الاجتماعية والبيئية العامة .. ان الشخصية .. تتعلق بكل سلوك الفرد سواء كان سلوكا مريحا او متخفيا » (١٩٥٠ ، ص ٣٠٢) .

ومن الواضح أن هذا التأكيد على أن دراسة الشخصية تتضمن «كل» السلوك لا يتعارض مع ضرورة التجريد والتجزئة اللذين يحدثان في الدراسة التجريبية العادية ، انه مجرد تذكارة بأنه لا يمكن فهم معنى اجزاء السلوك الصغيرة فهما كاملا الا اذا نظرنا اليها داخل الاطار الأكبر للكائن الكلي الفعال .

ويتضح التخصص الأكثر تفصيلا لطبيعة الشخصية من خلال عرض المفاهيم الرئيسية التي استخدمها كاتل . وعندما نفحص معنى اصطلاحات مثل : **السمات** trait و**الدفعة الفطرية** erg و**الدفعة المكتسبة** metaerg و**الذات** self و**معادلة التخصص** specification equation فان ذلك سوف يتيح لنا صورة كاملة نسبيا عن تصور كاتل للشخصية .

: السمات

تعهد السمات أكثر مفاهيم كاتل أهمية وفي الحقيقة فان المفاهيم الاضافية التي سوف نفحصها انما ينظر اليها في الغالب بوصفها حالات خاصة لهذا الاصطلاح العام واذا استثنينا جوردون اولجورت ، فان كاتل

قد تناول هذا المفهوم ، وعلاقته بالمتغيرات السيكلوجية الأخرى في تفصيل يفوق أيا من اصحاب النظريات المعاصرة . وتمتد السمة بالنسبة له وبنينا عقليا ، ، أو استنتاجا نقوم به من السلوك الملاحظ لتفسير انتظام واتساق هذا السلوك . وليس المقصود باصطلاح بنينا الدلالة على الحالة الفيزيقية أو العصبية ، برغم أن كاتل كان صريحا نسبيا في ابرازه للمصاحبات الفيزيقية والفسولوجية التي تكمن وراء السلوك .

ويتفق كاتل مع أولبورت في اعتبار أن هناك سمات مشتركة يتسم بها الأفراد جميعا ، أو على الأقل جميع الأفراد الذين يشتركون في خبرات اجتماعية معينة . وهو يوافق - بالإضافة الى ذلك - على أن هناك سمات فريدة لا تتوافر الا لدى فرد معين ولا يمكن أن توجد لدى أى شخص آخر في هذه الصورة بالضبط . وهو على أى حال يضى خطوة أبعد مقترحا تقسيم السمات الفريدة الى سمات فريدة نسبيا وسمات فريدة جوهريا بحيث تستمد الأولى تفردها من فروق طفيفة في ترتيب العناصر التي تكون السمة ، في حين يتسم الفرد في الأخيرة بسمة مختلفة أصلا ولا يتسم بها أى شخص آخر .

ومن النقاط الرئيسية في وجهة نظر كاتل تمييزه بين سمات السطح surface traits التي تمثل تجمعات من المتغيرات الواضحة أو الظاهرة والتي تبدو متلازمة ، وبين سمات المصدر source traits التي تمثل المتغيرات الكامنة التي تتدخل في تحديد مظاهر السطح المتعددة . وهكذا ، فإننا لو وجدنا أن عددا من الوقائع السلوكية تبدو أنها تحدث معا ، فإننا قد نفضل اعتبارها كمتغير واحد . وقد يشار الى ذلك في المجال الطبي بالترزمة syndrom ولكنها تندمج هنا تحت عنوان سمة السطح . ومن ناحية أخرى لا يمكن تعريف سمات المصدر الا بوساطة التحليل العاملي الذي يمكن الباحث من تقدير المتغيرات أو العوامل التي تعد أساس هذا السلوك السطحي .

ومن الواضح أن كاتل يعتبر سمات المصدر أكثر أهمية من سمات السطح ولا يرجع ذلك فحسب الى ما تبشر به سمات المصدر من اقتصاد أكبر في الوصف نظرا لما يفترض من قلة عددها ، بل ان ذلك يرجع بشكل أهم الى أن :

.. سمات المصدر تبشر بأنها المؤثرات البنائية الحقيقية التي تتحكم في الشخصية وأنه يتحتم علينا التعامل معها في المشكلات الارتقالية والبيكوسوماتية ، ومشكلات التكامل الانبساطي .. وكما يتضح من البحث

حاليا نأ سمات المصدر هذه تقابل لآثرات موحدة حقيقية - عوامل
فسيولوجية ومزاجية ، ودرجات من التكامل اللديناسى ، والتعرض
للمؤسات الإجتماعية - ويمكن اكتشاف المزيد فيما ينمق بها طالما امكن
تريفها ، (١٩٥٠ ، ص ٢٧) .

وتعد السمات السطحية نتيجة لتفاعل بين سمات المصدر ومن
الممكن أن نتوقع بعامه أن تكون أقل ثباتا عن العوامل . ويسلم كاتل بأن
الملاحظ الذى يعتمد على الفطنة قد يميل الى اعتبار سمات السطح أكثر
صدقا ودلالة من سمات المصدر وذلك لأنها أشبه بتلك الأنواع من
التعصيمات التى يمكن التوصل إليها على أساس الملاحظة البسيطة . وعلى
أى حال فلسوف تثبت سمات المصدر على المدى الطويل أنها التى أكثر فائدة
فيما يتعلق بسير السلوك .

ومن الواضح أن أى سمة مفردة قد تمثل نتاج فعل العوامل البيئية
أو العوامل الوراثية مزيج منها معا . ويرى كاتل أنه الى جانب أن
سمات السطح ينبغي أن تمثل نتاج تلك العوامل المختلطة ، فإنه يبدو
ممكنا على الأقل أن تقسم سمات المصدر الى تلك العوامل التى تعكس
ظروفا بيئية وتلك التى تعكس الوراثة أو العوامل التكوينية . وتسمى
السمات التى تنتج عن فعل الظروف البيئية **بالسمات البيئية التشكيل** ،
أما تلك التى تعكس العوامل الوراثية فتسمى **بالسمات التكوينية** .

• إذا كانت سمات المصدر التى نصل إليها بالتحليل العاملى
مؤثرات نقية ومستقلة كما تشير الدلائل الحالية ، فإن سمة المصدر لا يمكن
أرجاعها الى الوراثة والبيئة معا بل انها ينبغي أن تنبثق من واحدة
منها أو من الأخرى . . . وقد تسمى تلك الأنماط المنبثقة من الظروف أو
المؤثرات الداخلية باسم سمات المصدر التكوينية . ولقد تحاشينا اصطلاح
«فطرية» لأن كل مانعرفه هو أن مصدرها فسيولوجى وأنه داخل الكائن
وبالتالى فأن يكون ولاذبا الا فى نطاق معين من الحالات . ومن ناحية
أخرى ينبغي أن يمارس النمط آثاره على الشخصية بواسطة اشيءأخرجة
عنه . . . وقد نطلق على مثل سمات المصدر هذه - التى تبدو كالعوامل -
السمات البيئية التشكيل لأنها تنبع من التناهم المشكل للمؤسات
الإجتماعية ، والوقائع الفيزيقية التى تكون النمط الثقافى (١٩٥٠ ،
ص ٣٣ - ٣٤) .

وقد تقسم السمات وفقا للصور التى تعبر عن نفسها من خلالها ،
فإذا كانت متعلقة بتهيئة الفرد للسمى نحو بعض الأهداف فإنها تعد
سمات ويناعية ، وإذا ما كانت تتعلق بالفعالية التى يصل بها الفرد الى

الهدف فانها تعد سمات **قصوة** • او قد تتعلق عموما بجوانب تكوينية للاستجابة كالسرعة او الطاقة او الاستجابة الانفعالية ، ويشار اليها في تلك الحالة بوصفها سمات **مزاجية** ، وبالطبع فان أى فعل سلوكى منفصل سوف يعبر عن تلك المتغيرات الثلاثة للسمات • ولكن من المهم من وجهة نظر التحليل ابراز التمييز السابق • وتعد السمات الدينامية بالنسبة لدارسى الشخصية أكثر أهمية من سمات القدرة او السمات المزاجية ، لأنها التي أكثر مرونة وقابلية للتعديل ، وبالتالي فانها تسبب اغلب التباين في السلوك • ولهذا السبب فان معظم ما يتبقى اماننا من مناقشة في السمات سوف يركز على السمات الدينامية •

الاستخراج التجريبي لسمات المصدر :

هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية في قياس الشخصية : سجل الحياة والتقدير الذاتى ، والاختبار الموضوعى • ويتعلق **سجل الحياة** بالسلوك في المواقف اليومية ، وقد يتضمن تقديرات سلوكية كوسائل لتقييم مثل ذلك السلوك • أما **التقديرات الذاتى فيقدم** «داخلية عقلية» **mental interior** للملاحظات الموضوعية لطريقة سجل الحياة • وقد تعالج مثل تلك الاستجابات اما بالنظر الى صدقها السطحي باعتبارها انعكاسات صادقة للسلوك الحقيقى للمفحوص واما باعتبارها فقرات من السلوك ينبى ان تحدد دلالتها تجريبيا • وتتضمن **الاختبارات الموضوعية** ملاحظة الفرد في موقف صمم خصيصا بحيث يمكن التوصل الى تنبؤات تتعلق بسلوكه في المواقف الأخرى • وبرغم أنه يحتمل استخدام أى من مصادر البيانات هذه للاستخراج الأساسى لسمات المصدر ، فان كاتل يفضل استخدام طريقة سجل الحياة ، حيث أنه يعتبر أن لمثل تلك البيانات دلالة وأهمية مؤكدتين نظرا لأنها تنبع من مواقف الحياة الحقيقية • ان هذا التفضيل لبيانات **سجل الحياة** في تحديد المتغيرات الأساسية لدى كاتل • يضعه في تناقض مع ايزنك الذى اختار التأكيد بقوة أكثر نوعا ما على اختبارات الشخصية الموضوعية •

والاجراء الأساسى الذى يتبعه كاتل في التعرف على سمات المصدر هو توفير عدد كبير من التقديرات السلوكية على مختلف الأبعاد لمجموعة من الأفراد ثم تعريض تلك المجموعات من الدرجات لتحليل عامل • وقد كفى كاتل يأمل من خلال هذه الوسائل أن يستخرج المتغيرات التى تعدد

أو ترجع الجزء الأغلب من التباين الى عدد كبير من المقاييس الرئيسية . ويؤكد كاتل من خلال البحوث التي قام بها بنفسه أو قام بها الآخرون أنه قد تم تحديد ١٤ أو ١٥ سمة مصدر ببعض الدرجة من الثقة ولكن ست سمات منها فقط قد تكرر تأكيدها وعدم قابليتها للخطأ (١٩٥٠ ، ص ٥٧) وكانت تلك هي : المزاج شبيه الدوري (السيكلوثيميا) *schizothymia* مقابل المزاج شبه الفصامي (السكريزوثيميا) *schizothymia surgency* والقدره العقلية العامة مقابل الضعف العقلي ؛ والاندفاع الصاحب *desurgency* مقابل التردد القلق (ملانخوليسا القلق) ، والمزاج شبه الدوري المخاطر *adventurous cyclothymia* مقابل الفصام المنزوي ، والعقل المطيع المتحضر ، مقابل الطبع الجلف الخشن ، وعدم الاكتراث البوهيسى مقابل الاستعمالية التقليدية . وبعد تقديم تلك العوامل بالأسماء مضملا الى حد ما حيث يبدى كاتل نفسه ثقة ضئيلة في العناوين ، ويرى بالفعل أنه قد يكون من الأفضل في المرحلة الحاضرة من تطور علم النفس الاشارة ببساطة الى المتغيرات بوساطة الأرقام المميزة التي يقدمها * وجوهر التعريف بالنسبة لكل سمة هو قائمة من الفقرات أو المقاييس التي تبدى تشبها مرتفعا بهذا العامل أى الفقرات التي يعزى اليها ذلك العامل غالبا .

ويقدم كاتل (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٥) بالإضافة الى سمات المصدر التي يستنبطها من مصادر سجل الحياة ، قوائم للمقارنة تتضمن السمات المستخرجة من نتائج التقديرات الذاتية والاختبارات الموضوعية . وتمطى قوائم السمات هذه أرقاما رمزية تسمح بالمقارنة الفورية مع السمات المستخرجة من المصادر الأخرى . وهناك ازدواج أو تداخل ملحوظ بين مختلف القوائم الا ان هناك عوامل فريدة لكل قائمة . وقد خصص كاتل حديثا جهدا كبيرا لفحص العلاقة بين العوامل المستنبطة من المصادر المختلفة ولحاولة الوصول الى صياغة شاملة (كاتل ١٩٥٠ وكاتل وسوندرز ، Cattell and Saunders ١٩٥٠) وقد تمكن كاتل نتيجة لبحوثه من تقديم عدد من الاختبارات الموضوعية للشخصية لقياس سمات المصدر الرئيسية (كاتل ١٩٥٤ ، وكاتل وبيلاف Cattell and Beloff ١٩٥٣ وكاتل وسوندرز وستايس Cattell and Saunders and Stice ١٩٥٣)

الاستخراج التجريبي لسعات السطح :

توصل كاتل (١٩٤٣) نتيجة للدراسة الشاملة التي بدأت بكل السمات المذكورة في القاموس غير المختصر ، الى نتيجة هي أن هناك خمسين أو ستين مجموعة من السمات التي يمكن اعتبارها سمات سطح . ولم تفحص المقياس في هذه الدراسة باستخدام التحليل العاطل ولكنها فحصت ببساطة باستخدام الطرق الارتباطية المألوفة . وقد اعتبرت السمات التي تبدي تلازما مثلة لسمة سطح مفردة . ولقد أوضح كاتل (١٩٤٦) أيضا أن الأعداد الكبيرة لسعات السطح يمكن اختصارها بمقدار أكبر الى حوالي عشرين قطاعا ، وذلك بتجميع سمات السطح التي تشارك في شيء ما .

وتقدم سمات السطح هذه (كاتل ١٩٤٦) من خلال فهرس رقمي تصنيفي ، وعنوان وصفي مختصر ، وقائمة من الفقرات أو المتغيرات التي تتكون منها مجموعة السمة ومن أمثلة هذه السمات ما يلي : النزاحة - الغيرية مقابل عدم الأمانة ، وعدم تحمل المسؤولية ؛ الطفلية ، والاحتياج ، والتمركز - حول - الذات مقابل النضج الانفعالي ، وتحمل الاحباط ؛ والكياسة والتفكير المنظم مقابل الحماقة ونقص الإرادة الواضح ؛ والتأكيد الاجتماعي الفج والميل للاستمرار مقابل اطاعة السلطة والتواضع .

عند هذه النقطة ، نكون قد فحصنا مفهوم كاتل عن السمة ورأينا كيف أنه قد استخرج فئتين أساسيتين من السمات ، ويبقى لدينا أن نناقش المزيد من التمييزات المتعلقة بمحددات أو أصول السمة ، وبالإضافة الى ذلك سوف ننظر الى الطريقة التي يعرض بها للتفاعل بين السمات ، وسوف تدور أغلب المناقشات التالية تقريبا - كما سوف يلاحظ القارئ - حول سمات المصدر الدينامية .

السمات النظرية Ergs :

تمد الدفعة النظرية وفقا لأبسط المصطلحات سمة مصدر دينامية . ولقد أتاح هذا المفهوم لكاتل أن يقدم عرضا مناسبا لأهمية المحددات النظرية لحركات السلوك برغم قابليتها للتعديل ، ويكسب تأكيده الكبير على الدفعات النظرية اعتقاده بأن علماء النفس الامريكيين المعاصرين قد

يخسوا قدر المحمدات الموروثة للسلوك . وهو يعرف الدفعه الفطرية
بانها :

« اعتماد فطرى نفسى - فيزيقى يسمح لصاحبه باكتساب
استجابية (انتباه ، تصرف) لانواع معينة من الموضوعات بأيسر مما هي
لانواع اخرى ، كما يتيح له معاملة انفعال معين بالنسبة لتلك الموضوعات ،
وان يشرع فى سلسلة من الافعال التى تتوقف تماما عند هدف خاص
معين اكثر من توقفها عند آخر ويتضمن النمط كذلك طرق تعزيز السلوك
المفضلة الى الهدف المفضل» (١٩٥٠ ، ص ٢١٩) .

وكما أوضح كاتل ، فان لهذا التعريف اربعة اجزاء رئيسية هي
الاستجابة الادراكية والاستجابة الانفعالية والأفعال الأداة للوصله الى
الهدف ، ثم اشباع الهدف نفسه . واذا ما ادمجنا الجزئين الأخيرين
فسوف يتكون التعريف عندئذ من مكونات معرفية ، ووجدانية ، ونزوعية
كما فى تعريف ماكدوجال الشهير للغريزة . وبالفعل فان الدفعه النظرية
تؤدى فى نظرية كاتل عن الشخصية وطيفه تطابق فى الغالب الوظيفة
التي يحققها مفهوم الغريزة أو النزعة الطبيعية Propensity فى نظرية
ماكدوجال .

ولم ينشر كاتل حتى الآن قائمة خاصة بالدفعات الفطرية لأن
الدلائل المتوفرة حاليا فيما يتعلق بطبيعة الأنماط الفطرية مستنبطة أساساً
من الملاحظة الطبيعية والاكليتيكية وهى فى حاجة الى تحييص يجرى قبل
أن يمكن قبولها بمزيد من الثقة . لقد نظر كاتل بعين الاعتبار الى مشكلة
كيف يمكن أن تحدد « الفطرية » تجريبيا ، وناقش الوسائل التى يمكن بها
قياس قوة الدفعات الفطرية . وقد خطط أيضا الطريقة التى ترتقى بها
تلك الدفعات أو تنضج وقد استخدم الدافع الجنى كمثال لتوضيح
مناقشته . وتتبع آراؤه فى هذا الخصوص بشكل اوثق نوعا صياغات
أصحاب نظريات التحليل النفسى . ويهتم كاتل اهتماما بالغا بالقاعدة
الفسولوجية والكيميائية الحيوية للدفعات الفطرية ، وقد مسح بشئ من
التفصيل الأدلة المتاحة فيما يتعلق بالعلاقة بين سلوك الدفعه الفطرية وبين
العمليات البيولوجية (كاتل ، ١٩٥٠ ، الفصلان ١٠ ، ١١) . ولقد توصل
كاتل فى بحث غير منشور الى وضع قائمة دقيقة من عشر طاقات فطرية
هى : الجنس ، وتأكيد الذات ، والهروب (الخوف والحصر) ، والحماية
(السلوك الأبوى) ، والنزعة الى التجمع ، والبحث عن الراحة (النوم)
والاستكشاف (حسب الاستطلاع) ، والجنس النرجسى والمجازبية ، والبناء .

الصفات المكتسبة : Metaergs !

تعد الصفات المكتسبة سمة مصدر دينامية ذات تشكيل بيئي ، وهي بذلك توازي الدفعة الفطرية فيما عدا أنها نتيجة لعوامل خبرة أو لعوامل اجتماعية حضارية وليست لمحددات تكوينية . والصفات الفطرية تظهر - الى حد بعيد - عند الميلاد ، في حين أن الصفات المكتسبة لا تظهر الا مع التطور ، وتدخل في هذه الفئة كل الانفعالات المشتقة كالاتجاهات ، والميول والمواطف .

والعاطفة sentiment هي أكثر الصفات المكتسبة أهمية في نظرية كاتل ، وهي في كلماته :

«... ابنية سمات دينامية رئيسية مكتسبة تسبب في ان ينتج من ينسج بها الى موضوعات معينة او ثقات معينة من الموضوعات ، وان يحس ويستجيب لها بطريقة معينة» (١٩٥٠ ، ص ١٦٦) .

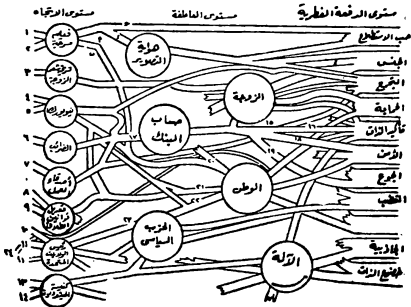
ومرة أخرى يتفق كل من تعريف المفهوم واستخدامه بدرجة كبيرة مع المفهوم المناظر في نظرية ماكديوجال والذي يسمى أيضا بالعاطفة . ويرجع السبب في أن العواطف تفوق من حيث أهميتها الكثير من غيرها من الصفات المكتسبة الى أنها أكثر ثباتا واستقرارا وأنها كثيرا ما تظهر مبكرة في الارتقاء عن الاتجاهات والميول . وفي الواقع أن التمييز بين مختلف فئات الصفات المكتسبة ليس صارما فالعواطف تتواري خلف الاتجاهات التي لا يمكن تمييزها بدورها عن الميول الا بشكل تقريبي . ومرة أخرى فليست هناك قائمة منشورة بالعواطف الا أن بحوث كاتل قد مكنته من تحديد عدد صغير من العواطف الهامة تتضمن : الاهتمام بالهنة ، وبالرياضة والألعاب ، وبالدين ، وكذلك الاهتمامات الميكانيكية ، والوطنية ، وبنيان الأنا الأعلى ، وعاطفة الذات .

مفهوم التبعية : Subordination

أسلوب يمكن به استكشاف العلاقة المتبادلة بين السمات الدينامية من خلال فحصها وفقا لبعض المخطط المقصودة . وعلى ذلك فقد نتوقع اذا ما درسنا عددا من السمات المترابطة أن نجد أن هناك عموما هدفا نهائيا يتم الوصول اليه وسبابة سلاسل من الأهداف التابعة او الأداةية وتعد تلك السمات المتعلقة ببلوغ هدف أول تابعة لتلك المتعلقة ببلوغ هدف

نهائي . وبذلك فان التمييز بين الدفعة الفطرية ، والعاطفة ، والاتجاه ، والميل يمكن أن يتم ببساطة وفقا لتسلسل التبعية . فجميعها سمات دينامية ، الا ان الميول تابعة للعواطف ، على حين ان العواطف عادة تابعة للدفعات الفطرية .

والحقيقة ان التفاعل المتبادل بين السمات الدينامية أكثر تعقيدا مما يتضمنه التحليل السابق ، فلكى تفحص أى فعل معين فاننا سوف نكتشف عادة عن سلاسل متعددة للتبعية تتضمن دفعات فطرية معينة ، وعواطف معينة ، واتجاهات معينة . ويقترح كاتل لتوضيح هذا التعقيد استخدام الشبكة الدينامية dynamic lattice التي تبين تشابك وتداخل الكثير من سلاسل التبعية كما في الشكل رقم ١ . ويبين هذا الرسم تلك السلاسل كمرات تتحرك من اتجاهات وميول معينة على اليسار خلال موضوعات معينة على مستوى العاطفة في الوسط ونحو اهداف دفعات فطرية . وبذلك فان أى موضوع معين قد يكون تابعا لعدد من الدفعات الفطرية وفي نفس الوقت فان العديد من الاتجاهات والميول سوف توجد عادة وتكون تابعة للموضوع .



الشكل (١) فلاح من شبكة دينامية بين التبعية
مقتبسة من كاتل (١٩٥٠) ص ١٥٦

أن الطريق الذي يتبعه الفرد في محاولاته للوصول الى هدف فطري ergic لا يكون دائما مباشرا على الاطلاق ، ويطلق كاتل على العملية التي يتم بها هجر طريق مباشر يوصل الى الهدف الى طريق آخر أقل مباشرة اسم الدوران الطويل long-circuiting وتمد أغلب الأشكال المشتقة من الدفاعية بمشابة دورانات طويلة ناجمة عن عوائق من الاحباطات التي تعترض سبيل الوسائل المباشرة الموصلة للهدف والمفضلة فطريا . ان القابلية المستمرة للتعديل بالنسبة للسمات كافة بما في ذلك السمات الفطرية قد تأكدت في كتابات كاتل ، ولكنه أوضح ان هناك برغم ذلك نزعة مستمرة لدى الكائن لمقاومة التغير ولأن يكون محافظا . وقد أسميت هذه النزعة جهود الاستعداد disposition rigidity ويفترض أنها تختلف من سمة لأخرى كما تختلف من فرد لآخر . وعموما فإن تلك الأشكال من السلوك التي تم اكتسابها أولا تكون أكثر مقاومة للتغير (أى أنها تبنى استعدادا للجمود) بحيث أن الدفعات الفطرية عادة ما تكون أكثر دواما وثباتا من السمات الدينامية المشتقة والتالية لها .

الذات :

والى جانب ذلك البنيان المعقد للسمات وتفاعلها فى الشبكة الدينامية ، فما زال ضروريا أن نقدم بالإضافة الى ذلك مفهومها آخر يتعلق بالانتران والتنظيم البالى الشيع والاهمية فى السلوك الانسانى . ويقدم كاتل فى هذا الخصوص مفهومه المتميز عن الذات وعن عاطفة الذات ، وتعتمد وجهة نظره عن الذات على تصورات التحليل النفسى فى الأنا والانا الأعلى ، وتعكس أيضا اهتمام ماكدوجال بعاطفة اعتبار الذات .

وتتوافر درجة من التكامل فى عملية الارتقاء السوى نتيجة لاتساق الخبرة والتعليم ، الا أن أهم مصدر لتلك الوحدة هو :

• القدرة على استيعاب الذات البدنية والاجتماعية ، حيث يصبح اشباع أى رغبة تابعا جزئيا لعاطفة رعاية الذات الكلية . وتصبح هذه العاطفة من خلال تلك الاسهامات العاطفة التي أكثر قوة فى الشبكة ، فتسيطر على كل العواطف الأخرى بدرجة أو بأخرى ، (١٩٥٠ ، ص ٦٥٤) .

وعلى ذلك فإن الذات البنائية - أو بشكل أكثر دقة الذات المشتقة أو عاطفة الأنا - هى بمثابة المؤثر المنظم الرئيسى الذى يمارس تأثيره على

السمات الدينامية في تفاعلها المعقد ، وبناء على ذلك فان قيام أى سمة دينامية بصلها سوف يتضمن عادة بعض المشاركة من جانب عاطفة الذات . وكذلك فان مدى السهولة التي سوف تعبر بها عن نفسها ستكون مرتبطة جزئيا بمدى اتساقها مع الذات . وهناك بالطبع سمات تنقسم عراها مع الذات ولكنها يقلب أن تعكس مركبات عصبية أو حالات مرضية .

وليس هناك ذات بنائية فحسب ، بل ان هناك أيضا الذات المثالية ideal self والذات الفعلية real self ، وتعتمد كل منهما على عملية الملاحظة الذاتية . والذات الفعلية هي الفرد كما يتعين ان يقر أنه هو في أكثر لحظاته منطقية ، أما الذات المثالية فهي الفرد كما يود أن يرى نفسه . وهكذا فان الذات الفعلية تكون على الأقل في بداية الارتقاء بمثابة انعكاس غير كامل للذات المثالية ، وقد تعتبر تابعة لها . وعلى أى حال فقد يؤدي مرور الوقت والارتقاء السوى الى تكامل هاتين الذاتين في حدود ما تمليه عاطفة الذات .

« ان تبعية الذات الفعلية للذات المثالية تنحو عادة الى أن تصبح مع مرور الوقت عاطفة واحدة للذات ، وذلك من خلال التخلي عن الرموز أو السلوك الذي يمثل نوابا لا يمكن تحقيقه (أو يتحقق دون قدر كبير من حرمان مضاد للدفعات الفطرية) أو من خلال الارتفاع بالذات الفعلية الى المستوى المأمول من الأداء » (١٩٥٠ ، ص ٦٥٦ - ٦٠٧) .

معادلة التخصيص : The Specification Equation .

في ظروف مثالية ، يعرف عالم النفس فيها المتغيرات المناسبة التي تحكم السلوك ، وتتوافر لديه أيضا الوسائل المحكمة لقياس تلك المتغيرات ، يمكن التنبؤ بدقة بسلوك الفرد في موقف معين من خلال وضع الدرجات أو القيم المناسبة في المعادلة التالية :

$$p_{ij} = S_{1j} T_{1i} + S_{2j} T_{2j} + \dots + S_{nj} T_{ni} + S_j T_{ji}$$

حيث تثلل P على سلوك الفرد أو أدائه في موقف معين ، وتدل T على مختلف سمات المصدر التي تعمل في هذا الموقف ، وتدل S على دلالة هذا الموقف الخاص بالنسبة لكل سمة من سمات المصدر . وليس من الضروري بالنسبة لغرضنا الحالي تناول الرموز الصغيرة في هذه المعادلة . وبذلك فإذا ما توافرت لدينا الدرجات التي تعبر بالنسبة لفرد معين عن

لمدى ما يتسم به من مختلف سمات المصدر (وقد تكون سمات مصدر مشتركة بين مواقف عديدة ، أو فريدة بالنسبة لهذا الموقف ، وقد تكون بالإضافة الى ذلك مشتركة بين عديد من الأفراد أو فريدة بالنسبة لهذا الفرد) وإذا توافرت لدينا أيضا درجة تمثل اثر هذا الموقف الحاص على كل من سمات المصدر ، فانه يمكننا أن نضع تلك القيم في معادلة التخصيص وأن نستخلص منها تنبؤا كميًا دقيقًا عن كيفية سلوك هذا الفرد في هذا الموقف .

ولسنا في حاجة الى القول بأن المعادلة السابقة هي وسيلة تخطيطية في الوقت الحاضر وليس لها نفع عملي فوري ، ولكنها تصلح بالرغم من ذلك لتصوير الوجهة التي تؤدي إليها بحوث كاتل . وللمرء أن يقول إن كاتل مهمت أساسا بتعريف سمات المصدر الهامة ، واعداد وسائل لقياسها بدقة وتحديد أهمية S's (المؤثرات الموقفية) أو مساهمة البيئة في عمل سمات المصدر هذه .

نمو الشخصية :

تناول كاتل عملية الشخصية بشمول بالغ في تقديمه لمفاهيمه البنائية وأيضا في مناقشته للسلوك في مستويات العمر المختلفة (كاتل ١٩٥٠) ، بحيث أصبح استخلاص صورة وافية لأرائه أمرا بالغ الصعوبة . ولا نستطيع هنا سوى أن نأمل فحسب تحديد معالجته لعملية التعلم ، وأن نعرض في شكل تخطيطي الى حد كبير أسسه لتكوين الشخصية .

ويبدو من الصواب أن نقول أن كاتل قد استمد ما أقامه من علم نفس ارتقائي من كل من التحليل النفسي ونظرية التعلم ، ولكنه أدخل الكثير من أفكاره الخاصة في الصياغة . وبالنسبة له تتكون عملية الارتقاء أساسا من تعديل الدفعات الفطرية ، وتفصيل الدفعات المكتسبة ، وتنظيم بناء الذات . ويتوقف مدى سهولة هذا النوع من التعديل والنمو على الذكاء . وعلى مقدار جمود الاستعداد ، وقوة الذاكرة .

مبادئ التعلم :

لقد اختار كاتل في عرضه لعملية التعلم أن يركز على سلاسل من نقاط الاختيار أو كما يسميها بالطرق المتقطعة للدينامية

dynamic crossroads والتي تمثل الواقع التي تلى تنشيط بعض الأنماط الفطرية للسلوك . أى أنه حين يبدأ التوافق الأكثر فطرية في العمل ، فإن هذا الميل مصحوبا بالظروف البيئية الخاصة سوف يؤدي الى إحدى النواتج المتعددة . ولقد حاول كاتل أن ينظم تلك النواتج في شكل نمط متعاقب من الاختبارات أو الطرق المتقاطعة .

وقبل أن نحدد تلك الطرق المتقاطعة فلنعرض باختصار لموقف كاتل بالنسبة لقوانين التعلم . فهو برغم قبوله لغصالية كل من التجاور **contiguity** (التشريط التقليدى) ، والتمييز (قانون الأثر) ، فإنه يرى بوضوح أن أكثر القوانين أهمية هو القانون الدينامي للانزاع **dynamic law of effect** ووفقا لصياغة كاتل فإن الاستجابات التي تنزع الى أن تتعلم هي تلك التي تقرب المسافة بين الشخص والهدف ولكنه يضيف الى جانب ذلك أن استجابات المحاولة والمحاظ تستثار طبقا لمبدأ التجاور أو الارتباط .

ويحدث أول تلك الطرق المتقاطعة الدينامية حين يقدم الفرد على محاولة أولية لكفالة اشباع دفعة فطرية معينة ، فهناك أربعة نواتج محتملة قد تتبع اثاره الدفعة الفطرية . فاولا قد يحصل الفرد على الاشباع نتيجة لنمط سلوكي محدد فطريا . وثانيا قد يفشل الفرد فى الحصول على الاشباع لعدم فعالية الأنماط الفطرية للاستجابة ادراكيا وحركيا فى مواجهة العوامل البيئية الحالية ، وثالثا قد يتمدد النمط الفطري أو يظل من خلال تنشيط دفعة فطرية أخرى تابعة له . ورابعا فقد يفشل الفرد فى الوصول الى الهدف بفعل العوائف برغم أن الطريق الى الهدف فيما عدا ذلك مناسب ومدرك بوضوح . ومن المهم بشكل خاص أن نميز هنا بين البديلين الثانى (الحرمان) والرابع (الاحباط) . ويعتبر كاتل الاستجابة المميزة للحرمان هي **response dispersion** الاستجابة وفى هذه الحالة لا يعرف الفرد ببساطة ما يتنبه اليه أو كيف يستجيب لتقليل التوتر الفطري ويؤدي ذلك الى استجابته بطريقة أكثر تنوعا وأكثر بعدا عن التمييز . وعلى العكس فإن الفرد الذى يواجه احباطا يشعر بالغضب ويستجيب بالمدون أو المشاكسة .

ويعتبر كاتل أن ما يترتب فضلا عن ذلك من عواقب للمسارات الأربعة جميعا إنما يقدمها أول طريق متقاطع مشيرا الى أهمية التأثير المشترك **confluence** أو ارتقاء أنماط الاستجابة (العواطف) التي تسمح باشباع دفعتين فطريتين أو أكثر فى نفس الوقت . وهو يشير أيضا الى الدور

الحاسم الذى يلعبه تبعد الاستجابة بالاضافة الى القانون الدينامى للأثر فى التوصل الى ارتقاء أنماط جديدة للسلوك (عواطف) . وقد ركز كاتل بعز يد من التحليل على المسار الرابع أى الاستجابة الفطرية التى تواجه بعائق . وفى الحقيقة فإننا نواجه هنا **الطريق المتقاطع الثانى** . وتكون المسارات المفتوحة أمام الفرد فى هذا الموضع هى : تزايد النشاط المؤدى الى الارضاء ، والغضب الذى يتغلب على العائق ويؤدى الى الارضاء ، والغضب الذى يثبت أنه غير فعال فى مواجهة العائق . وتكمل الاستجابة الأولى والثانية التتالى السلوكى ، وهما ليستا فى حاجة الى مزيد من التعليق ، ولكن الاستجابة الثالثة تتطلب مزيدا من التحليل .

وبذلك فإن الفرد يواجه **الطريق المتقاطع الدينامى الثالث** حين يستجيب بالغضب فى مواجهة عائق ولكنه لا يستطيع التغلب عليه . ونجد هنا أربعة مسارات للاستجابة : اليأس أو التسليم ، الخوف والانسحاب ، والاصرار على المشاكسة غير الفعالة (العدوان) ، والاشباع التخيلى . وإذا استمر الفرد فى الاستجابة بالأسلوب المتضمن فى البدلين الثانى والثالث فإنه أخيرا إما أن يهرب من المجال أو يقتحم الهدف أو يتعين عليه أن يعود الى المسار الأول محاولا انكار مصدر الاستشارة . ولا يعد المسار الرابع حاسما فى هذه النقطة حيث أنه لا يمثل سوى نمط جزئى من الاستجابة بالاضافة الى ما يتضح من أنه يعمل فى نفس الوقت مع كثير من مسارات الاستجابة التى لم تحدد بعد . وبذلك فإن مركز اهتمامنا هنا يصبح البديل الأول .

ويتعلق **الطريق المتقاطع الدينامى الرابع** بالتخلي عن الدفعة الفطرية ومنتقل بتلك الخطوة من التوافقات الخارجية أساسا والتى يمكن للملاحظ رؤيتها الى التوافقات الداخلية أساسا والتى لا يمكن الا استنتاجها . ويعتبر كاتل أن الحصر هو العامل الرئيسى فى انكار الدفعة أو التخلي عنها ، وفضلا عن ذلك فإن تطور هذا الحصر يرتبط ارتباطا وثيقا باستجابة المحرف التى تميز المسار الثانى من التقاطع الثالث . (للحصول على عرض تفصيل لآراء كاتل فيما يتعلق بنشأة الحصر ، انظر الفصلين الثامن والتاسع من كاتل ١٩٥٠) .

وفى مواجهة تلك الضرورة الملحة للتخلي عن النزعة الفطرية يجد الفرد أربعة مسارات مفتوحة أمامه . فهو قد يستجيب بقمع الدفعة الفطرية أى بانكارها اراديا ورفض التعبير عما يتعلق بها من دفعات . وثانيا ، قد يحاول كبتها ، والكبت عملية لا شعورية تستبعد فيها المواد

غير المقبولة من نطاق الشعور . وثالثا ، فانه قد يعطى الدفعة الفطرية شعوريا أى أنه قد يقيم هدفاً بديلاً مقبولاً مع وعيه الكامل بما يفعله . ورابعا ، فانه قد يعود الى تمسكه بسلوكه غير التوافقى أو أن يلجأ الى الجناح أو بعض الأهداف البديلة غير المقبولة اجتماعياً .

وتستحوذ محاولة الكبت من بين تلك البدائل على اهتمامنا الخاص ويمثل هذا التقاطع الخامس . فالفرد يتعرض هنا لأربعة بدائل من الاستجابات فهو قد يلجأ الى التخيلات اللاشعورية التى قد تصحح شعورية أحيانا . وهناك ثانيا احتمال الكبت الناجح . وفى هذه الحالة يحتفظ بالدفعات الفطرية فى مستوى لاشعورى بشكل يمكن الاعتماد عليه . وثالثا قد يكون هناك كبت غير مستقر ، وفى هذه الحالة يحتفظ بالدفعات الفطرية فى مستوى لاشعورى ولكنه غير ثابت بحيث تصحبها عادة نتائج أو تأثيرات غير مباشرة على بقية سلوك الفرد ، ورابعا فهناك امكان الاعلاء اللارادى أو اللاشعورى .

ويمثل التقاطع السادس فى حالة الكبت غير المستقر ، وهنا لا يتم الكبت بنجاح ويتعين على الفرد أن يلجأ الى مناورات دفاعية اضافية . ويرى كاتل أنه يوجد فى ظل تلك الظروف ما يبلغ عشرة مسارات مختلفة مفتوحة أمام الفرد . وتتطابق تلك المسالك عموما مع الحيل الدفاعية التى سبق أن وصفتها نظريات التحليل النفسى وهى : التخييل ، والتكوين العكسى ، والاستقاط ، والتبرير ، والمزيد من الكبت ، وتقييد الأنا ، وحيل دفاعية أخرى ، والنكوص ، والازاحة مع تكوين الأعراض ، ونماذج أخرى من تكوين الأعراض . ويعتبر كاتل أن المسارات السبعة الأولى تمثل استجابات يحدد فيها الأنا بشكل فعال نوع الاستجابة فى حين أن قوى الهى تسود فى الثلاثة الأخيرة .

لقد اتخذنا الدافعية الفطرية كمنال لنا طوال مناقشتنا للطرق المتقاطعة الدينامية ، وفى الحقيقة فانه يمكن القيام بتحليل مشابه للدوافع المشتقة derived والنفعات المكتسبة وأيضا بالنسبة للدوافع التى أكثر التصاقا بالمحددات الفطرية .

ويستخدم كاتل فى نظامه تلك التقاطعات الستة وما يصحبها من مفهومات التحليل النفسى عن الهى والأنا والأنا الأعلى ليوضح كلا من المسار السوى للارتقاء وكذلك الطريقة التى تتطور بها أشكال السلوك العصابية والذهانية وغيرها . من الأشكال المنحرفة . ولسوف يجد القارئ عرضا

لتطبيق تلك المفاهيم على مثل تلك الظواهر في أحدث كتب كاتل عن الشخصية (١٩٥٠) .

السياق الاجتماعي :

لقد ركزنا حتى الآن على الفرد وارتقائه في تفاعله مع البيئة الراهنة وسوف نرجى هنا هذا التحديد لننظر الى الجهود التي قام بها كاتل لكفالة التأكيد المناسب على المحددات الاجتماعية الحضارية للسلوك .

ويرى كاتل أن الأبعاد الموضوعية قد تستخدم لوصف الجماعات بطريقة تماثل تلك التي استخدمت بها السمات لوصف الأفراد . وتمثل تلك الأبعاد شخصية syntality الجماعة (كاتل ١٩٤٨) وهو ما يقابل الشخصية الفردية . وهكذا فإن وصف شخصية الجماعات المختلفة التي تؤثر على شخصية الفرد يعد مهمة هامة بالنسبة لمن يدرس الشخصية في علاقتها بالثقاب الاجتماعي الحضارى ، ولا يستطيع المدارس أن يأمل الحصول على معرفة تفصيلية فيما يتعلق بالتفاعل بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة الا من خلال الوصف الكافي لكل من هذين البناءين .

والكثير من المؤسسات الاجتماعية تمارس تأثيرها في تعديل أو تشكيل الشخصية ولكن أهم تلك المؤسسات هي الأسرة . وإلى جانب هذا المصدر الأساس للتأثير توجد مؤسسات أخرى تلعب دورا يستحق الاعتبار مثل : المهنة ، والمدرسة ومجموعة الأقران ، والدين ، والحزب السياسى ، والأمة . وقد يكون لمثل تلك المؤسسات تأثيرها على الشخصية بأحدى الطرق الثلاثة التالية : فأولا قد يكون هناك قصد متعمد لمخلق نوع معين من المخلق أو الشخصية أى أن تعريف السلوك المقبول اجتماعيا قد يتضمن تخصيصا لسمات الشخصية ، وبالتالي فقد تقوم المؤسسة الاجتماعية بمحاولة واعية لمخلق تلك المميزات . وثانيا فإن العوامل الموقفية أو الايكولوجية قد يكون لها تأثير غير مقصود يمارسه المجتمع أو ما فيه من مؤسسات . وثالثا ، فإنه كنتيجة لأنماط السلوك التي استقرت خلال العملية الأولى أو الثانية ، قد يجد الفرد أنه من الضروري ادخال المزيد من التعديل على شخصيته للتعبير عن الموافح الهامة أو ارضائها .

وبذلك فإنه ينبغي أن يتضمن الفهم الصحيح لارتقاء الشخصية تخصيصا لاسهام مختلف المؤسسات الاجتماعية التي تندرج من الأسرة الى

الامة أو الجماعة الحضارية . وبالإضافة الى ذلك فان هذه الخطوة لا يمكن أن تتخذ الا حين يتم استخلاص الأبعاد المناسبة لوصف تلك المجموعات والمؤسسات والفرقة بينها . ونجد أن التحليل العامل يلمب في وصف شخصية الجماعة نفس الدور الذي لعبه في وصف شخصية الفرد . ورغم أن البحث في هذا اجال ليس الا عملا مبتدئا . فان كاتل قد اورد نتائج دراسة واحدة أجريت على مجموعات صغيرة وادت الى سبعة عوامل أو أبعاد اعتبرها كاتل مباشرة بوصف شخصية الجماعة (كاتل ، ووسب ١٩٤٨) . وكانت تلك العوامل هي : الاستجابية المنبسطة مقابل الانسحاب ؛ وروح الجماعة الذكية ؛ والواقعية والاعتمادية مقابل عدم الاتزان والمراوغة ؛ والاسترخاء الواقعي عن معرفة مقابل الكد والعدوانية الجماعية ؛ الدهاء العملي والعناد مقابل الاسترسال في التخيل والتغير المستمر الدينامي ؛ الجلد مقابل النشاط اللفظي السهل ، والتمددين الودي والكياسة مقابل افتقاد السيطرة الذاتية للجماعة . والى جانب تلك المتغيرات ووسائل قياسها موضوعيا فانه من الممكن أن نتقدم لتخطيط العلاقات بين العائلات التي تختلف من حيث بيئاتها بالنسبة لمثل تلك المتغيرات وبالنسبة لشخصيات الأفراد كما توصف في ضوء سمات المصدر التي سبق أن أهرنا اليها .

ولقد قدم كاتل أيضا (١٩٤٩) مجموعة من الأبعاد لوصف شخصيات syntality الأمم ، وقد استخرج في هذه الحالة عشرة عوامل من دراسة أجراها على سبعين أمة باستخدام ٧٢ مقياسا مختلفا . ومن بين تلك العوامل العشرة لم يظهر سوى ثمانية لها دلالة واضحة وكانت : الحجم ؛ والضغط الحضاري ؛ والوفرة المستتيرة ، والجهد المتأمل، والنظام الإرادي الذاتي الصارم ؛ والمادية البورجوازية ؛ والبوذية - المونجولية ؛ والتكامل الحضاري والروح المعنوية .

وبالإضافة للموقف الذي لحسنه ، فقد كان لدى كاتل الكثير ليقوله فيما يتعلق بتفاصيل كيف تؤثر المؤسسات النوعية على شخصية الفرد . ويكفي هنا أن نتعرف على الدور الكبير الذي أسنده الى مثل تلك المتغيرات الحضارية الاجتماعية ، وأن نرى أن اتجاهه الى الدراسة التجريبية لهذا التفاعل يتسق مع اتجاهه الى دراسة شخصية الفرد في عزلة نسبيا . وفي كلتا الحالتين فان ايضاح المتغيرات الأساسية من خلال استخدام التحليل العامل يمثل خطوة تمهيدية حاسمة .

مبادئ تكوين الشخصية :

بعد أن يقدم كاتل مجموعة مفهوماته المركبة عن الشخصية ، ويناقض في نفس الوقت ثراء الدلائل التجريبية المتعلقة بارتقاء الشخصية ، فإنه يعمم تلك المفهومات والنتائج في سلسلة من سبعة عشر مبدأ أو قانوناً . وتتعلق تلك القوانين بموضوعات كالباعث المفرد ، والتعلم وفقاً للدافع المفرد ، والاحتفاظ ببيان دائري على مدى طويل ، وبنيان الذات، وتكامل الشخصية ، والشخصية وسياقها الأكبر . وتمثل ذلك التعميمات إلى حد كبير تقريراً أكثر رسمية للآراء التي سبق لنا تلخيصها . ونظراً لذلك التكرار فنعرض فحسب لثلاثة التعميمات الأولى من هذا النظام لكي نتيج للقارئ الحصول على مذاقها العام . وسيجد القارئ المهتم عرضاً كاملاً بالطبع لدى كاتل (١٩٥٠) .

« القانون الأول » قانون انماط توتر الهدف الفطري : قد يحلل البعث الفطري إلى توتر هدف شامل وسلسلة من توترات الأهداف الفرعية (الواسائية) ، وبالنسبة لأي توتر فإنه يظهر ويقاس بالانتباه إلى نوع خاص من المنبهات وينزعة (تقاس بطرق مختلفة) إلى نوع معين من الفعل . ويتلأس توتر الهدف الرئيسي بمجرد الوصول إلى الهدف الرئيسي ، كما يتوقف توتر الهدف الخاص فور الوصول إلى هدف وسيط خاص . وترجع قوة الفعل إلى مجموع توترات الأهداف الفطرية (في حالاتها المثيرة المينة) وإلى قوة الموقف المثيرة (ص ٦٢٢) .

« القانون الثاني » قانون الرضا بالجمود : حتى حين يتحقق كسب دينامي من خلال تغيير السمة ، فإن التغير في السلوك قد يقاوم أي قد يحدث ببطء شديد أو ربما لا يحدث على الإطلاق ويرجع ذلك إلى عوامل جمود الاستعداد (ص ٦٢٥) .

« القانون الثالث » قانون التبدد في ظروف الإثارة والحرمان : إن الاستمرار في إثارة الدفقات الفطرية مع التسور بالحرمان من الهدف يؤدي إلى تزايد تنوع المثرات التي ينتج عنها الانتباه وتزايد تنوع السلوك الذي يستجيب به الفرد . (وكذلك تزايد الإثارة المستبطنة) « (٦٢٥) »

البحوث المميزة وطرق البحث :

سنشير في هذا القسم في إيجاز شديد إلى جوانب معينة تميز آراء كاتل المتعلقة بالشخصية ، بالإضافة إلى أننا سنلخص في إيجاز

دراسة قام بها واستخدم فيها منجزات دراسات التحليل العاملي في دراسة المحددات الوراثية للشخصية . وسيتذكر القارئ أننا قد اكتسبنا الفكرة كبيرة ببعوث كاتل نتيجة لاشتراكنا مرارا الى أعماله التجريبية في مناقشتنا لمفوماته النظرية .

طرق البحث : لقد سبق أن أشرنا الى اعتقاد كاتل بأن البحوث الواسعة النطاق سوف تزدى الى أكثر التقدمات دلالة في مستقبل هذا المجال . وهناك الى جانب ذلك فكرته عن أن معظم علماء النفس يتحاشون دون تبصر ضرورة الوصف الدقيق للشخصية من أجل التحرك نحو تمييز ذى تأثير كبير ، كما يتحاشون دراسة الظاهرة الارتقائية . ومن الممكن أن نعتبر ببساطة أن أغلب بحوث كاتل - وخاصة تلك المتعلقة بتعريف سمات المصدر وسمات السطح - كانت محاولة لتحقيق تلك المهمة الوصفية ، وإرضاء أساس محدد يمكن أن تقام عليه البحوث والتصميمات في المستقبل .

وبعد تأكيد كاتل المستمر على مختلف أنماط الدراسات الترابطية التي يجب على الباحث اتباعها واحدا من بين أحدث الملامح في كتاباته . ولقد أشار أولا الى أن هناك دراسات تتبع أسلوب R-technique وهي التي تمثل المنهج المعتاد لعلماء النفس ، حيث يقارن عدد كبير من الأفراد بالنسبة لأدائهم على اختبارين أو أكثر ويكون السؤال الرئيسي هو : هل الأفراد الذين يحصلون على درجات مرتفعة على أحد الاختبارات يحصلون الى الحصول على مثلها في الاختبار الآخر . ويمثل معامل الارتباط الناتج مدى ترابط أو اتفاق تلك الدرجات على الاختبارات . وهناك - ثانيا - أسلوب P-technique حيث تقارن درجات نفس الأفراد على عدد من المقاييس في ظروف متباينة أو في أوقات متباينة وهنا نسال عن مدى اتساق سلوك الفرد ، وتكون النتائج الاحصائية مؤشرا لمدى الترابط أو الاتفاق بين الميئات المختلفة من سلوك نفس الأفراد . وهناك - ثالثا - أسلوب Q-technique حيث يحسب الارتباط بين فردين على عدد كبير من المقاييس المختلفة . ويمثل معامل الارتباط الناتج في هذه الحالة مقياسا للتشابه أو التباين الافتراضي بين فردين . وإذا ما تمت تلك الارتباطات على عدد من الأشخاص فإن الباحث قد يحصل على تصنيف للأفراد الى طرز (تيولوجية) أو تجميع للأفراد الذين يتكسبون صلا على تلك المقاييس .

ورثة الشخصية :

لقد أبدى كاتل كما سبق أن رأينا اهتماما مستترا بدور المحددات الوراثية للسلوك ، وقد انعكس هذا الاهتمام النظرى فى نشاطه فى مجال البحث . ويتضح فى الفقرة التالية اهتمامه بالوراثة فى علم النفس واعتقاده بأنه يمثل مجالا حاسما فى البحث :

« من المؤلف أن يكون موضوع الوراثة فى علم النفس من مفارق الطرق الهائلة ، وهو أمر يشكل مقبة فى الطرق الرئيسية لكل من علم النفس والوراثة - وأسوأ ما يشتمه هذه الأقسام فى مجال الوراثة هو الفشل فى مواجهة التحديات الناشئة من صعوبات منهجية غير مألوفة، ولكن أسباب هذا الإهمال فى علم النفس أقل ذيوما كما أن نتائجه أكثر تدميرا .» فىالنسبة لعلم النفس بعد الانتقار الى أبة معرفة دقيقة ويمكن الركون إليها فيما يتعلق بالتنظيمات والتأثيرات الفطرية بمثابة الأساس فى بنيانه النظرى وشموذة فى تطبيقه التربوية واللاينبكية .» (١٩٥٣ ، ص ٧٦) .

وهناك عدد من دراسات كاتل تدور حول تأثير العوامل الوراثية على الشخصية والذكاء (كاتل ١٩٥٤ ، كاتل ، مولتينو ١٩٥٠ ، كاتل وويلسون ١٩٣٨) . ولكن أكثر مناهجه أهمية تجاه هذه المشكلة يتضمنها بحثان حديثان .

ويتضمن أول هذين البحثين (كاتل ١٩٥٣) محاولة لتطوير وسائل لدراسة اسهامات المحددات الوراثية فى السلوك أرقى من الطرق المستخدمة عادة . ويؤكد كاتل أن علماء النفس قد استخدموا بشكل تقليدى تصميمات وأشكالا من التحليل الإحصائى تكفى فحسب للإجابة عن التساؤل : هل هناك أى تأثير للعوامل الوراثية على الصفات النفسية موضع الاعتبار ؟ . وهو يرى أن هذا ليس بالتساؤل المناسب لأن ما نريد معرفته هو شىء يتعلق بمقدار التأثير الذى تمارسه الوراثة وعلى وجه الخصوص بمقدار ذلك التأثير بالنسبة لتأثير العوامل البيئية . ولتحقيق هذا الهدف أعد كاتل إجراء تباين متعدد يسمح للباحث باستنتاج الاسهامات النسبية للعوامل الوراثية والبيئية فى أبعاد معينة .

وفى البحث الثانى أورد كاتل وبلويت *Blewett* وبيولوف *Beloff* (١٩٥٥) نتائج دراسة اتبعت فيها الخطة التى قدمت فى البحث الأول حيث جمعت البيانات فى هذا البحث من عدد كبير من الفحوصات الخمسة

١٠٤ من التوائم العينية ، و٦٤ من التوائم اللا عينية و١٨٢ من الأشقاء الذين نشئوا معا و٧٢ من الأطفال الذين لا تربط بينهم أواصر القرى ولكنهم نشئوا معا كذلك و ٥٠٤ من الأطفال في المجتمع العام . وكان على كل مفحوص أن يجيب على اختبار الشخصية للمفسر Junior Personality Quiz (كاتل وبيولوف ١٩٥٣) الذي يتضمن مقياسا لاثني عشر بعدا من أبعاد الشخصية تم استخلاصها من دراسات سابقة تعتمد على التحليل العاملي . وبذلك حصل كاتل على قياسات لأفراد يختلفون من حيث تشابههم وراثيا وبيئيا على اثني عشر عاملا من عوامل الشخصية التي ثبتت دلالتها في بحوث سابقة .

وتشير النتائج العامة للدراسة الى أنه يبدو أن المحددات البيئية تلعب دورا سائدا بالنسبة لحمسة من تلك العوامل وهي : سعة الأفق ، والصداية العامة والاندفاع الصاحب : surgency - والتردد والقلق desurgency وضبط الإرادة ، والقلق البدني . ويبدو تأثير البيئة ذا أهمية كبيرة بالنسبة لعاملين من تلك العوامل (الصداية العامة والقلق البدني) في تحديد الفروق فيما بين الأسر في حين أنه يبدو أن الفروق داخل الأسرة تحكمها البيئة الى حد كبير . وقد ظهر أيضا أن تأثير كل من البيئة والوراثة يكون متساويا بالنسبة لأربعة عوامل فيما يتعلق بالفروق داخل الأسرة برغم أن دور الوراثة يكون أكبر كمحدد للفروق بين الأسر ، وتلك العوامل هي : الانصياع النشط ، والسيطرة ، والروح المنوية المطبقة اجتماعيا ، والسيطرة غير الصبور . وهناك أخيرا عوامل ثلاثة هي : المزاج شبه الدوري (السيكلوثايميا) مقابل المزاج شبه الفصامي (السكيزوثايميا) ، والسيكلوثايميا المخاطرة مقابل الخضوعية ، والذكاء العام . ويبدو فيها دور عوامل الوراثة أكثر أهمية على وجه العموم . ويستطيع كاتل أن يقدم بـنسبة لكل عامل أو متغير نسبة مؤقتة تشير الى التأثير النسبي لذلك المتغير بالمحددات الوراثية والبيئية .

ومن الواضح أن تلك النتائج ذات طبيعة تمهيدية ، ومع ذلك فإنها تتيح ضوءا أكثر مما كان متاحا من قبل فيما يتعلق بوراثة الشخصية وتوضيح الدراسة براعة كاتل في تناول المشاكل التي كانت مثلا لانتشال واهتمام علماء النفس وتبين كذلك أنه ما أن تحدد متغيرات الشخصية بصورة ترضى الباحث حتى يصبح ممكنا له أن يتناول العديد من المشاكل الجوهرية التي تعتمد على عزل مثل تلك المتغيرات أو تتطلب ذلك .

الكلمة الرابعة والتقييم :

تعكس نظريات الشخصية المرتكزة على التحليل العامل تركيزا معاصرا في علم النفس على النتائج الكمية التي تنعكس بدورها في عدد كبير من دراسات الشخصية المصنفة خصيصا . ولقد أبدى أيزنك وكاتزل - شأنهما شأن بقية العاملين في هذا المجال - ميلا واستعدادا لتحويل أفكارهم النظرية الى خطوات تجريبية . وبمعكس نظريات الشخصية الأخرى لا يوجد لدى النظرية نزعة الى التطوير بحيث تصبح تجريدا نظريا على حين يظل التقييم التجريبي متخلفا عن ذلك بكثير . وفي الحقيقة . أنه يصعب الفصل بوضوح بين النظرية والتجربة . ولا يبدو ذلك المتشدد التجريبي مؤكدا في المستقبل لا بسبب الواهب الظاهرة للمشتغلين في الميدان بل أيضا لأن الأفراد الذين تجتذبهم النظرية سوف يكون لديهم بالتأكيد اتجاه مشابه . وبعبارة أخرى ، فإن طبيعة الوضع تكفل أن الأفراد الذين يحتلونهم سوف يكونون تجريبيين الى حد كبير . وبالإضافة الى ذلك ، فإن إعجاب علماء النفس المعاصرين بالكم يجعل من غير المحتمل أن يصبح هناك أي عجز في الدارسين المهتمين بتقدم وتطوير هذه الحصيلات من الفكر والنتائج التجريبية .

لقد أدخلت نظريات العوامل في مجال علم النفس الذي يتميز بالحساسية والذاتية ، مرحلة تتطلب الترحيب من صلابة الرأي ومن التركيز على العياني ، فبينما كان يقنع الكثير من أصحاب نظريات الشخصية بصياغة المفاهيم والافتراضات التي تؤدي الى حيث يقع الباحث في مستنقع من التضييقات المتعارضة وغير الواضحة فإن صاحب نظرية العامل ينزع الى تقديم فكرته في صورة مجموعة من الأبعاد أو العوامل البسيطة والواضحة . وبذلك فإن البساطة والوضوح هما الميزتان الرئيسيتان لهذا النوع من النظريات .

ولا يتميز صاحب نظرية العامل بالاتصال والوضوح في نظرياته فمصعب بل يتميز أيضا بأنه لجراني . ويضمن موقفه اهتماما تفصيليا بالتعريف التجريبي الواضح والبيد عن الفروض أكثر مما كتضمنه أغلب الأنواع الأخرى من النظريات النفسية . ولقد أخذ أصحاب نظرية العامل الكثير من خبرة المستغلين بالقياس للنفس في توفير الوسائل المناسبة للقياس ، كما خصصوا بطرح أسئلة فرضية وإن كانت حطفا فيما يحصلون بأحدية الأبعاد *unidimensionality* والانساق الداخلي ، والقابلية للاتصال .

وأصله الأسئلة بالآتي على المفروض في الأقسام الأقل بتفاصيل
المقياس .

وبينما توصل أغلب نظريات الشخصية الى مفاهيم عن المتغيرات
الهامة للشخصية من خلال عملية يسودها الحدس وعدم التخصيص ، فان
هؤلاء المفكرين قد توصلوا الى اجراء موحسوعي قابل للتكرار لتحديد
المتغيرات الكامنة . وبرغم أن المرء قد يعترض على تأكيد أن تلك المتغيرات
انما يحددها التحليل العامل ، فليس هناك محل للاعتراض على التسليم
بأن التحليل العامل يقدم على الأقل اختصارا لما اذا كان المتغير الذي تم
التحرف عليه ، وتضمنه مقياس جهيد ، موجودا بالفعل أم لا . وبعبارة
أخرى ، فحتى اذا كان التحليل العامل يعتمد على أفكار مسبقة ، وهو
كذلك بالتأكيد ، فإنه يتيح الوسائل لتقييم صلاحية تلك الأفكار . وعلى
العكس فلقد ابتكر الكثير من أصحاب نظريات الشخصية الكثير من
متغيرات الشخصية دون اخضاعها على الاطلاق للبوقة التجريبية .

ويتفق مع هذا الرأي الأخير التأكيد على أنه من الوظائف ذات الأهمية
الخاصة في دراسات التحليل العامل تقديم وسيلة مستقلة تماما لتأكيد
أو لنفي المتغيرات التي سبق استنتاجها أو حدسها من خلال الملاحظة
الاكليميكية أو التجريبية . أي أنه حين يكون هناك اتفاق في للمتغيرات
الكامنة بين الاكليميكي وصاحب نظرية التحليل العامل فإن الافتراق الكبير
بين المسارات المتبعة في الوصول الى مجموعات متشابهة من المتغيرات
يقدم تأكيدا بأن الباحث يتناول اتساقات حقيقية وهامة في السلوك .

وتدين أغلب نظريات الشخصية الى الموقف الاكليميكي أكثر مما
تدين به الى غرفة الآلات الحاسبة . وبالتالي فليس من الغريب أن تجد
أن الكثير من علماء النفس يعاملون نظرية العامل كشيء متطفل على مجال
الشخصية . ومن بين أوجه النقد الموجهة الى نظريات العامل نجد أن
أكثرها انتقلا وأغلاها صوتا هو ذلك القائل بأن تلك النظريات انما
تخلق نظاما من المفاهيم المصطنعة التي ليس لها علاقة حقيقية بأي فرد
بالفعل وبالتالي فاتما تحرف الحقيقة وتسيء تمثيلها . ويعرض أولبودت
(١٩٣٥) وجهة النظر بوضوح فيقول :

« يوضع مجتمع بأكمله (وكلما زاد حجمه كان ذلك أفضل) في
مخس ، ويكون الخلط بارما بعيد يصبح الناتج منه عبارة من خلقة من
العوامل التي يتخذ فيها كل فرد موقفه ، تختلف استخداماته باستثناءات
كل فرد آخر . ويملك فان العوامل التي يتم الحصول عليها لاتمثل سوى

نزعاً متوسطة نسبياً ولا يتضح : هل أحد العوامل يمثل حقيقة استمداداً عضوياً في حياة أي فرد . وكل ما يستطيع الفرد قوله بالتأكيد هو ان هذا العامل مكون للشخصية المتوسطة ومستخلص تجريبياً ، وان تلك الشخصية المتوسطة تجريد تام . ويكسب هذا الاعتراض وجماعة حين يشير المرء الى انه نادراً ما تشابه العوامل المستخلصة بتلك الطريقة مع الاستمدادات والسمات المميزة بواسطة الطرق الإكلينيكية حين يدرس الفرد دراسة متممة (ص 242) .

وجوهر هذا الاعتراض هو أن العوامل المستخرجة ليس لها معنى سيكولوجي وبالتالي فانها لا تتفق مع ملاحظات بقية الدارسين للسلوك الانساني . وهكذا ببساطة لا يجد أغلب علماء النفس أن عوامل التحليل العاملي تفيد في وصف سلوك الفرد . وينبغي أن يلحظ القارئ أن القائم بعملية التحليل العاملي يكون هناك في موقف متذبذب نوعاً ما ، حيث أنه اذا ما اتفقت عوامله تماماً مع الملاحظات السابقة عليه للسلوك الانساني فانه سيكون متهما بأنه قد بذل جهداً طويلاً وشاقاً للوصول الى امر واضح سلفاً . واذا ما لم تظهر عوامله مثل هذا الاتفاق فانه سيكون متهما بأنه اُضاف مزيداً من الخلط لموقف مختلط بالفعل . ولقد اوضحت مناقشتنا لسمات السطح والمصدر عند كاتل أن القائم بالتحليل العاملي لا يتوقع بالضرورة أن عوامله سوف تشير الى أي اتفاق وثيق مع نتائج الملاحظة البسيطة للسلوك . ويهدف مثل هؤلاء المنظرين بالتأكيد الى المضى الى ما وراء الملاحظة البسيطة واستخراج متغيرات لم يسبق استنتاجها . وفوق ذلك فان صاحب نظرية العامل يؤكد أنه بمرور الوقت وبتراكم مزيد من النتائج التجريبية فان تلك العوامل ستصبح ذات معنى وأكثر فائدة من تلك المتغيرات النفسانية الشائع استخدامها حالياً . وسيتعين أن ننتظر لنرى : هل ذلك هو واقع الحال .

وهناك نقد شائع آخر هو أن ما يقدمه التحليل العاملي لا يزيد عما يقدم اليه . فالقائم بالتحليل العاملي يعترض على الذاتية ويستبعد ما حيث يواجه بها عادة ولكنه في الواقع يدفع ببساطة الذاتية والحس الى النقطة التي يقرر فيها أي الاختبارات أو المقاييس سيسيدخله في مصفوفته الارتباطية . ويصدق هذا النقد بوضوح حين يؤكد صاحب النظرية أن طريقة التحليل العاملي - دون مساعدة من فروض مسبقة - تكفي للتوصل الى ابعاد أساسية للشخصية الا أن ذلك ليس هو موقف الكثير من اصحاب نظريات العوامل . فطريقة تحليل المعك لدى أيزنك

مثلاً ، توضح بشدة حقيقة أن المرء ينبغي أن يضع طبيعة العامل النفسى فى صورة فرض قبل المضى فى الدراسة .

وتشير الانتقادات الأخرى الى الذاتية المتضمنة حتماً فى تسمية العوامل الناتجة عن التحليل العاملى . وعلى الأخص ، اذا كانت العناصر المكونة للعامل بالغة الاختلاف - وهى كثيراً ما تكون كذلك - فإن الباحث قد يلجأ الى الكثير من التخيل والبراعة للوصول الى عنوان شامل للمتغير بالشكل الذى يستخدمه الأخصائى الاكلينيكي عادة فى وصف حالة مفردة درسها بعمق . ويمكن أن تعمم النقطتان الأخيرتان للدعاء بأن ما يحرص عليه القائم بالتحليل العالمى من اهتمام بالضبط التجريبي الشديد لا يمتد ليشمل عملية البحث كلها . وهكذا يؤكد هؤلاء النقاد أنه بينما قد يجرى التحليل العاملى بقدر كبير من العناية والانتباه فإن نفس القدر من الانتباه لا يتاح دائماً للخطوات التى تؤدى الى الدرجات التى نستخرج منها العوامل أو للعملية التى يفسر بها العوامل النهائية .

والاختلافات الكثيرة التى فى التحليل العاملى فيما يتعلق بخطواته الحسابية أو التفسيرية تمثل هدفاً مباشراً لمن يريد الانتقاص منه . واذا كانت هذه الطريقة على ذلك القدر من الموضوعية والمنطق ، فلماذا ينذر أن يتفق أولئك الذين يعرفون عنها الكثير ، حتى على كيفية سير العملية . واذا كان القائلون بالتحليل العاملى لا يتفقون ، فلماذا يجب على من هم أقل علماً أن يقبلوا كلمة أى فرد من أصحاب نظرية العوامل بوصفه أمراً مقروفاً ؟ وربما كان الأكثر خطورة هو ما يديه الرياضيون من عدم رضاهم عن التفسير الرياضى الكامن خلف التحليل العاملى . والأسلوب الكلى الذى يتضمن مثالب رياضية يكون أكثر عرضة للتجريح من الأساليب الكيفية التى لا تدعى لنفسها المنطقية الكاملة .

لقد شعر الكثير من علماء النفس أن نظريات العامل ليست بالنظريات على الإطلاق . وبعض النظم تحدد ببساطة متغيرات أو عوامل هامة ولكن دون اشارة للاجراءات والخطوات فى تطور العملية أو الافتراضات التفصيلية المتعلقة بالسلوك والضرورية للحصول على تنبؤات فيما يتعلق بالمادة التى ليست فى متناول الملاحظة . وكما رأينا ، فإن ذلك النقد لا ينسحب على موقف كاتل كما أن ايزنك يتحرك فى وجهة تهدف الى تلافى هذا النقد .

ويقلل التأكيد الضروري على الدرجات الكمية من نوع التشاكلي والمتغيرات التي يمكن أن يتناولها القائم بالتحليل العامل . وهكذا ، فإن الكثير من اصحاب نظريات الشخصية يحتجون بأن التأكيد السابق على الكم يؤدي الى تجميد فج ومصطنع لمجال مازال في مرحلة استكشافية . ويؤكد مثل هؤلاء النقاد أنه برغم ما يدل عليه التحليل العامل من احتمال باكتشاف الأبعاد الكامنة للشخصية في صورة عامة تساماً ، فإن نوع البيانات التي يجب أن تستخدم تمثل في الحقيقة قيوداً صسارمة على طبيعة المتغيرات التي قد تستخرج .

ومهما كان قصور نظريات العامل ، فمن الواضح أن تأكيدها على الوضوح وعلى المعايير المناسبة للقياس يمثل تأكيداً طيباً جداً . ولقد يختلف المرء فيما اذا كان محتوى نظريات العامل يؤدي أو لا يؤدي الى اسهامات متمرة للنظريات القادمة المتعلقة بالشخصية ، ولكن طراز أو أسلوب التناول الذي يتبعه أولئك المنظرون سوف يكون له وقع على الطريق الذي سوف تسلكه النظرية القادمة .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Cattell, R. B. *Description and measurement of personality*. New York : World Book Co., 1946.
- Cattell, R. B. *Personality : A systematic, theoretical, and factual study*. New York : McGraw, 1950.
- Eysenck, H. J. *Dimensions of personality*. London : Routledge and Kegan Paul, 1947.
- Eysenck, H. J. *The scientific study of personality*. London : Routledge and Kegan Paul, 1952.

REFERENCES

- Allport, G. W. *Personality : A psychological interpretation*. New York : York : Holt, 1937.
- Burt, C. L. *The factors of the mind*. New York : Macmillan, 1941.
- Cattell, R. B. *A guide to mental testing*. Bickley, Kent, Eng. : Ohio, London Press, 1936, Rev. Ed., 1948.
- Cattell, R. B. *General psychology*. Cambridge, Masa : Sci-Art, 1941.
- Cattell, R. B. The description of personality : basic traits resolved into clusters. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1943, 38, 476-506.
- Cattell, R. B. *The culture free test of intelligence*. Champaign, Ill. : Inst. Pers. and Abil. Test., 1944.
- Cattell, R. B. The cultural functions of social stratification : I. Regarding the genetic basis of society. *J. soc. Psychol.*, 1945, 21, 3-23.
- Cattell, R. B. *Description and measurement of personality*. New York : World Book Co., 1946.
- Cattell, R. B. Concepts and methods in the measurement of group syntality. *Psychol. Rev.*, 1946, 53, 46-63.
- Cattell, R. B. The dimensions of culture patterns by factorisation of national character. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1949, 44, 443-469.
- Cattell, R. B. *Personality : A systematic, theoretical, and factual study*. New York : McGraw, 1950.
- Cattell, R. B. *Factor analysis : an introduction and manual for psychologist and social scientist*. New York : Harper, 1952.
- Cattell, R. B. Research designs in psychological genetics with special reference to the multiple variance method. *Amer. J. Hum. Genet.*, 1952, 2, 76-82.

- Cattell, R. B. *The O-A Personality Tests Battery*. Champaign, Ill.: Inst. Pers. and Abil. Test., 1954.
- Cattell, R. B. The principal replicated factors discovered in objective personality tests. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1955, 50, 291—314.
- Cattell, R. B., and Beloff, J. R. Research origins and construction of the IPAT Junior Personality Quiz. *J. consult. Psychol.*, 1953, 17, 438—442.
- Cattell, R. B., Blewett, D. B., and Beloff, J. R. The inheritance of personality. *Amer. J. Hum. Genet.*, 1955, 7, 122—146.
- Cattell, R. B., and Moltano, E. V. Contributions concerning mental inheritance: II. Temperament. *J. genet. Psychol.*, 1940, 57, 31—47.
- Cattell, R. B., and Saunders, D. R. Inter-relation and matching of personality factors from behavior rating, questionnaire and objective test data. *J. soc. Psychol.*, 1950, 31, 243—260.
- Cattell, R. B., Saunders, D. R., and Stice, G. F. *The 16 personality factor questionnaire*. Champaign, Ill.: Inst. Pers. and Abil. Test., 1950.
- Cattell, R. B., and Wilson, J. L. Contributions concerning mental inheritance: I. Of intelligence. *Brit. J. educ. Psychol.*, 1938, 8, 129—149.
- Cattell, R. B., and Wispe, L. G. The dimension of syntality in small groups. *J. soc. Psychol.*, 1948, 28, 57—78.
- Eysenck, H. J. Suggestibility and hypnosis—an experimental analysis. *Proc. roy. Soc. Med.*, 1943a, 36, 349—354.
- Eysenck, H. J. Suggestibility and hysteria. *J. Neurol. Psychiat.*, 1943b, 6, 22—31.
- Eysenck, H. J. Suggestibility to a visual illusion, as related to primary and secondary suggestibility and other functions. *Brit. J. Psychol.*, 1943c, 34, 32—36.
- Eysenck, H. J. States of high suggestibility and the neuroses. *Amer. J. Psychol.*, 1944, 57, 406—411.
- Eysenck, H. J. *Dimensions of personality*. London: Routledge and Kegan Paul, 1947.
- Eysenck, H. J. Criterion analysis—an application of the hypothetico-deductive method to factor analysis. *Psychol. Rev.*, 1950, 57, 38—53.
- Eysenck, H. J. *The scientific study of personality*. London: Routledge and Kegan Paul, 1952.
- Eysenck, H. J. *The structure of human personality*. New York: Wiley, 1953a.
- Eysenck, H. J. *Use and abuses of psychology*. Harmondsworth, Middlesex: Penguin, 1953b.
- Eysenck, H. J. *The psychology of politics*. London: Routledge and Kegan Paul, 1954.
- Eysenck, H. J. Psychiatric diagnosis as a psychological and statistical

- problem. *Psychol. Reports*, 1955a, 1, 3-17.
- Eysenck, H. J. A dynamic theory of anxiety and hysteria. *J. ment. Sci.*, 1955b, 101, 28-51.
- Eysenck, H. J., and Furneaux, W. D. Primary and secondary suggestibility: an experimental and statistical study. *J. exp. Psychol.*, 1945, 35, 485-503.
- Eysenck, H. J., and Prell, D. B. The inheritance of neuroticism: an experimental study. *J. ment. Sci.*, 1951, 97, 441-465.
- Eysenck, H. J., and Rees, W. L. States of heightened suggestibility: narcosis. *J. ment. Sci.*, 1945, 91, 301-310.
- French, J. W. The description of personality measurements in terms of rotated factors. Princeton, N. J.: *Educ. Test Serv.*, 1953.
- Guilford, J. P. When not to factor analyze. *Psychol. Bull.*, 1952, 49, 26-37.
- Guilford, J. P. *Psychometric methods*. 2nd Ed. New York: McGraw, 1954.
- Himmelweit, Hilda T., and Petrie, Aneseth. The measurement of personality in children. *Brit. J. educ. Psychol.*, 1951, 21, 9-29.
- MacKinnon, D. W. The structure of personality. In J. McV. Hunt (Ed.) *Personality and the behavior disorders*. Vol. I. New York: Ronald Press, 1944, pp. 3-48.
- Spearman, C. «General intelligence» objectively determined and measured. *Amer. J. Psychol.*, 1904, 15, 201-293.
- Spearman, C. *Abilities of man*. New York: Macmillan, 1927.
- Thomson, G. H. *The factorial analysis of human ability*. 5th Ed. Boston: Houghton, 1951.
- Thurstone, L. L. Multiple factor analysis. *Psychol. Rev.*, 1931, 38, 406-427.
- Thurstone, L. L. *Multiple factor analysis: a development and expansion of the vectors of the mind*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1947.
- Thurstone, L. L. Psychological implications of factor analysis. *Amer. Psychologist*, 1948, 3, 402-408.

الفصل الحادى عشر

نظرية المثير - الاستجابة

سنعرض هنا لأكثر نظريات الشخصية حبكة وأكثرها اقتصادا ،
وهي النظرية التي تظهر أوثق الارتباط بأصولها في العلوم الطبيعية .
ومن الممكن أن تصنف نظرية المثير - الاستجابة (م - س) ، على الأقل
بوصفها نظرية معملية في مقابل النظريات الأخرى التي تعرضنا لها
والتي كان دور الملاحظة الاكلينيكية أو الطبيعية فيها أكثر أهمية بكثير .
ويتسق مع تلك الأصول ، جلاء موقفها ، واقتصاد صياغتها ومحاولاتها
المجادة لكفالة الاستقرار التجريبي للمصطلحات الرئيسية في النظرية .

وفي الحقيقة ليس هناك نظرية م - س واحدة ، بل هناك مجموعة
من النظريات التي تشبه كل منها الأخرى بقدر يزيد أو يقل ، ولكن في
نفس الوقت فإن لكل منها صفات مميزة معينة . وتبدأ هذه النظم كمحاولات
لتفسير اكتساب الأشكال الجديدة من السلوك التي تظهر مع الخبرة والاحتفاظ
بها . وبذلك فليس من المستغرب أن نجد أن عملية التعلم تحظى بتأكيد
غلاب . ورغم أن اصحاب نظرية م - س لا يهتمون بالعوامل الفطرية ،
فإنهم يهتمون أساسا بالعملية التي يوفق بها الفرد بين تنظيمه لمجموع
استجاباته وبين التنوع الشديد للاستثارة (داخليا وخارجيا) الذي
يتمرض له .

وبرغم أننا لسنا في حاجة الى الدخول في مناقشة تفصيلية
للأصول المقعدة لنظرية م - س فإنه لن يكون من اللائق أن نقدم تلكا
النظرية دون الإشارة الى اسهامات ايفان بافلوف Ivan Pavlov
وجون ب . واتسون John B. Watson وادوارد ل . ثورنديك
Edward L. Thorndike . وقد استطاع عالم الفسيولوجيا الروسي المتأثر
ايفان بافلوف (١٩٠٦-١٩٢٧) أن يثبت أنه من خلال التقديم معا وفي وقت

واحد لثير غير شرطى (عجينة اللحم) ، ومثير شرطى (صوت صادر من شوكة رنانة) ، فان المثير الشرطى سوف يستطيع فى النهاية استتارة الاستجابة (افراز اللعاب) التى لم يكن يشيرها فى الاصل الا المثير الشرطى ، ويشار الى الاستجابة بافراز اللعاب لصوت الشوكة الرنانة على انها استجابة شرطية (فعل منعكس) ولقد أصبحت عملية التشريط هذه على ايدى عدد من علماء النفس الأمريكين وسيلة لفهم السلوك يمكن بها تحاشى أخطاء الذاتية . ويبدو هنا للمرة الاولى أنه يمكن اقامة علم نفس موضوعى لا يتناول ما يمكن ملاحظته . ولقد تصدر ج . ب . واطسون (١٩١٦ ، ١٩٢٥) هذا الهجوم على الحدس والذاتية ، مركزا على مبدأ بافلوف عن اكتشريط مصحوبا بأفكار سبق أن طورها هو مقما للعالم موقفا آسما « السلوكية » . وسرعان ما أصبحت وجهة النظر الموضوعية والبيئية هذه هى طابع علم النفس الأمريكى . وحتى اليوم فانها ترتبط ارتباطا وثيقا بأغلب السمات المميزة لعلم النفس فى هذا البلد ، وفى نفس الوقت الذى كانت تقع فيه تلك التطورات ، كان ادوارد ل. ثورنديك (١٩١١ ، ١٩٣٢) يبين الاهمية البالغة للثواب والعقاب فى عملية التعلم ، ولقد أصبح قانون الاثر الذى وضعه واحدا من أحجار الزاوية فى النظرية الحديثة للتعلم . وبرغم الطبيعة القاطعة لاسهامات بافلوف ، فان نظرية م - س بتأكيدهما على الموضوعية ، وتركيزهما على التجريب الدقيق ، وطابعهما الوظيفى البارز ، قد احتلت مكانها كأكثر النظريات الأمريكية تفردا من بين كل المواقف التى سوف نتعرض لها .

لقد كرس علماء النفس من فكرهم ونشاطهم لبناء نظرية التعلم ما يزيد عما كرسوه لآى مشروع نظرى ماصر آخر . فلقد أدت أفكار وبحوث ادوارد ل. ثورنديك ، وجون ب. واطسون ، وادوارد س. تومان وEdward C. Tolman وادوين ر . جاتسرى Edwin R. Guthrie وكلاارك ل . هل Clark L. Hull وغيرهم الى أن ينتقل الاهتمام النظرى السائد بين علماء النفس خلال الحقبة الثالثة من هذا القرن نحو عملية التعلم . وخلال سنوات تلك الفترة كانت أكثر القضايا النظرية أهمية فى علم النفس تناقش فى اطار نظرية التعلم . وليس صحيحا أن كل تلك التطورات يمكن أن يطلق عليها نظريات م - س . والحقيقة أن احدى القضايا الرئيسية فى نظرية التعلم تتعلق بهذه المشكلة هل التحديد لقد تركز أغلب تلك المناقشة حول الاسهامات أخلاقية لادوارد س . تومان والتى انتهت من محاولة تطوير موقف نظرى لا يتصور التعلم بوصفه

عملية تطوير لارتباطات م - س . وقد قام ليفين Lewin أيضا بهجمات في هذا الاتجاه برغم أن اهتمامه بعملية التعلم لم يكن عميقا ولا مستمرا . ومثل هذا التمييز بين نظريات كينزليات تولمان وليفين من ناحية ، وهل وجاترى من ناحية أخرى يدرج عادة تحت عنوان مقابلة بين النظريات المعرفية ونظريات م - س . وسوف نهتم هنا - كما يدل على ذلك عنوان هذا الفصل - بالصياغات الأخيرة فقط . والقارى المهتم يجد تلخيصا ممتازا للأنماط الرئيسية كافة من نظرية التعلم ، بما فى ذلك النظرية المعرفية ، فى كتاب هيلجارد Hilgard (١٩٥٦) .

وبين تلك النظريات التى قد يطلق عليها بدقة نظريات م - س يظل هناك تمييز آخر له أهمية بالنسبة لمناقشتنا ، فبعض تلك المواقف نجده يتبنى كافتراض رئيسى المبدأ المتعلق بالتعزيز (التعديم) أو الثواب على حين يؤكد البعض بشدة على الاقتران أو الارتباط أى أن بعض النظريات تعتبر أن الشرط الجوهرى لتكوين ارتباطات م - س جديدة هو التعزيز أو الثواب الذى يصحب الاستجابة . وتعتبر النظريات الأخرى أن الحدوث الفورى (الاقتران) للمثير والاستجابة هو الذى يؤدي الى ارتباط جديد بين المثير والاستجابة . وبعد موقف ادوين جاترى نُشهر الأمثلة على النمط الاقترانى والارتباطى للنظرية . وتمتد نظرية كلارك هل احسن الأمثلة تطورا لموقف التعزيز . ومرة أخرى : ان تركيزنا فى هذا الفصل محدد تماما ، وذلك أننا سوف نركز على نظرية التعزيز فقط . وبتخصيص أكثر ، فاننا سنهتم أساسا بمحاولات تعميم أو تطبيق الموقف النظرى لكلارك هل (١٩٤٣ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢) على الظواهر التى تهتم علماء النفس المشتغلين بالشخصية .

ما هى أسباب تضييق اهتمامنا فى مجموعة الصياغات النابعة من هل وكتاباته ؟ أولا وقبل كل شيء فان هذا الموقف النظرى هو أكثر نظريات التعلم حكمة وتطورا . فلقد طرحت وجهة النظر بوضوح أكبر ، كما صيغت بصورة أكثر كفاءة ، الى جانب أن هناك ثراء فى البحث التجريبي المتعلق بها أكثر منه فى حالة أى نظرية أخرى فى التعلم . وثانيا ، وهو الأكثر أهمية فان تلاميذ هل كانوا هم الذين بذلوا محاولات جادة ومنظمة لتطبيق نظرياتهم المطورة معمليا فى فهم الشخصية . وهناك الكثير ممن يشعرون بأن نظرية تولمان تقدم على الأقل ما تقدمه نظرية هل من حيث تطبيقها على الشخصية والظواهر الاجتماعية ، ولكن هذا الأمل يظل فى أغلب جوانبه فى حاجة الى التحقيق . وذلك فان تأكيدنا

لا يحدده أى اعتقاد بأن نظرية التميز هي بالضرورة صورة نظرية التعلم الأكثر فائدة بل تحدده بالاحرى حقيقة أن هذه الصورة هي التى أكثر تطورا حاليا ، وبالتالى : انها تقدم أكبر قدر من الصياغة والبحث الواضحين والبعيدين عن الغموض ، وسوف يظل الاختيار من بين صياغات جاترى، وهل ، وسكنر ، وتولمان وغيرهم ، بحثا من نظام واحد من المركبات يكون أكثر جدوى بصورة فريضة مهمة من مهام المستقبل .

وعلى عكس النظريات التى سبق لنا مناقشتها ، فان مبادئ هذا الموقف قد تطورت من خلال اتصالها ببيانات لا يبدو أنه يتوفر لها الا تشابه ضئيل بتلك البيانات التى تمثل أهمية لدى علماء النفس المشتغلين بالشخصية . وقد يكون من المبالغة القول بأن الفار الابيض قد أسهم فى تشكيل هذه النظرية أكثر مما أسهم به المخصوصون من البشر ، ولكن من الصحيح بالتأكيد أن أعضاء الاجناس الدنيا قد اسهمت بالفعل فى تطور النظرية بأكثر من اسهامها فى النظريات الاخرى التى تعرضنا لها . ولا ينبغي للمرء على أى حال أن يبالغ فى تأكيد أهمية الموضوع الاصلى لهذه النظرية ، فالنظرية يجب أن تقيم فى ضوء ما تقدمه وليس فى ضوء من أين أتت . ولقد أوضح هل - الأب الفكرى لهذا الموقف - هدفه فى جلاء ، وهو بناء نظرية عامة فى السلوك البشرى وذلك منذ البدايات الأولى فى مجهوداته النظرية . وقد اختار أن ينمى أفكاره الأولى على أساس ارضية ثابتة نسبيا من السلوك الحيوانى وفى مواقف تجريبية مضبوطة بدقة ، وذلك لأسباب استراتيجية . وهكذا فان تطوير جوهر هذه النظرية من دراسة الكائنات الدنيا لا يرجع الى الاعتقاد بأن جميع المشاكل السلوكية يمكن أن تحل بهذا الاسلوب ، بل كان المتوقع أن تسمح بساطة الكائنات الدنيا بأرساء أسس معينة ، يمكن أن تصبح - بعد صياغتها من خلال دراسة السلوك الانسانى المعقد - عماد نظرية عامة فى السلوك . ويتضح فى أعمال الكثير من تلامذة هل ، هذا الاستعداد للتفسير ولامتداد الجزء الهامشى من النظرية ، وفى نفس الوقت الاحتفاظ بمفاهيم وافتراسات محورية معينة . ولن نحاول هنا - اتساقا مع وجهة النظر هذه - أن نحدد تفاصيل نظرية هل بل سنركز أكثر على المحاولات التى بذلت لتعديل أو لتفصيل النظرية بحيث تتناول السلوك ذا الأهمية الحاسمة لدى علماء النفس المشتغلين بالشخصية . ونجد المثل البارز لمثل تلك النظريات المشتقة فى أعمال دولارد و ميللر Dollard & Miller وسبوجه هذا الفصل انتباها كبيرا لهذا الموقف . وما يهنا فى هذا المجال أيضا كتابات ماورر Mowrer

وسيرز Sears ، رغم أن ضيق المجال لن يسمح لنا بأكثر من تناول
عابر لاسهاماتهما .

وقبل أن ننتقل الى تفصيلات تلك النظريات ، ينبغي أن نقال كلمة
فيما يتعلق بمعهد العلاقات الانسانية Institute of Human Relations
في جامعة ييل Yale University . فلقد أنشئ هذا المعهد عام ١٩٣٣
تحت اشراف مارك ماى Mark May في محاولة لتحقيق المزيد من
التعاون والتكامل بين علم النفس ، والطب العقل ، وعلم الاجتماع ،
والانثروبولوجيا . ولقد ضم المعهد جميع الاقسام التى تكون منفصلة
تقليديا . ولقد كانت الحقبة الأولى من وجوده تمثل أكثر الفترات خصبا
فى أى من الجامعات الأمريكية من حيث التعاون بين العلوم السلوكية .
وبرغم أن كلارك هل قد قسم الاسس النظرية لتلك المجموعة ، فان
نشاطها لم يكن مركزا أساسا على علم النفس التجريبي على الاطلاق .
فالانثروبولوجيا الاجتماعية - أى دراسة الجوانب الاجتماعية للانسان
فى المجتمعات غير المتحضرة - تمثل عاملا هاما فى الإطار الفكرى لهذه
المجموعة . ولقد كان هناك اهتمام شديد بنظرية التحليل النفسى التى
أسهمت فى كثير من الافكار النظرية والبحوث لأعضاء تلك المجموعة .
وخلال فترة السنوات العشر هذه تلقت مجموعة كبيرة من الشبان تدريبا
سواء بحكم أنهم طلبة جامعيون أو أعضاء شبان فى هيئة التدريس ،
وكان يبدو أن تلك الخبرة قد تركت لديهم جميعا تأثيرا قويا ومستمر
ومن أبرز أعضاء تلك المجموعة جون دولارد John Dollard
وايرنست هيلجارد Ernest Hilgard وكارل هوفلاند Carl Hovland
ودونالد ماركيس Donald Marquis ونيل ميللر Neal Miller و أ . هـ
ماورر O.H. Mowrer وروبرت سيرز Robert Sears وكينيث سبنس
Kenneth Spence وجون وايتنج John Whiting لقد كان معهد العلاقات
الانسانية باشراف مارك ماى ، متشربا بأفكار كلارك هل ، ومستمتدا
حيويته من الزمالة الخلاقة للأفراد الذين أشرنا اليهم - هو الذى أدى الى
التطورات التى تناولها فى هذا الفصل .

نظريّة التعزيز عند دولارد وميللر

تمثل هذه النظرية جهود فردين حاولا عن طريق الفحص المعمل والاكليينكي تعديل وتبسيط نظرية هل عن التعزيز بحيث يمكن استخدامها بسهولة وفعالية في تناول الوقائع ذات الاهمية الكبيرة لدى عالم النفس الاجتماعي والاكليينكي . ولم تتشكل تفاصيل النظرية بفضل نظرية هل فحسب بل أيضا بفضل نظرية المحليل النفسي وتناج وتصميمات الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وكما سنرى فان مفهوم المادة الذي يمثل رابطة مستقرة بين المثير والاستجابة (م - س) يعد حاسما في هذا الموقف . وفي الحقيقة فان أغلب النظرية يتعلق بتعريف الظروف التي تتشكل في ظلها العادات وتنحل والعدد الصغير نسبياً من المفومات التي تخدم هذا الغرض قد استخدمه المؤلفون ببراعة فائقة لتفسير ظواهر ذات أهمية رئيسية للاخصائي الاكليينكي مثل الكبت والازاحة والصراع . ولقد حاول المؤلفون في كثير من الموضوعات ان يستخلصوا من كتابات المحللين النفسيين ومن الملاحظة الاكليينكية حكمة لها وزنها الملموس فيما يتعلق بالسلوك ، وقد أفادوا منها في مفوماتهم عن م - س . وعلى ذلك ، فان قدرا كبيرا من تطبيق النظرية يتكون من ترجمة الملاحظة العامة أو الصياغات النظرية الغامضة الى مصطلحات نظرية هس التي أكثر نقاء . وبرغم ان الترجمة في حد ذاتها لاتمثل هدفا هاما على وجه الخصوص فكثيرا ما قدم الجهد استبصارات وتنبؤات جديدة تتعلق بالوقائع التجريبية التي لا يمكن ملاحظتها ، وتمثل تلك الوظائف ارقى مراتب الاسهام النظري .

ان محور هذا الموقف - كما سبق أن اتفقنا - هو وصف عملية التعلم ، ولقد عبر ميللر ودولارد بوضوح عن فكرتهما العامة عن هذه العملية وعناصرها المكونة في الفقرة التالية :

« ماهي ان نظرية التعلم ؟ انها في ايسر صورها دراسة الظروف التي تربط فيها استجابة بمثير دليل Cue stimulus . وبعد ان يتم التعلم ، فان الاستجابة والدليل يرتبطان معا بحيث ان ظهور الدليل يستثير الاستجابة . ويحدث التعلم وفقا لقواعد نفسية محددة . فالمدرسة لا تؤدي دائما الى الكمال ولا يمكن ان تقوى الرابطة بين الدليل والاستجابة الا تحت ظروف خاصة ، فبينما ان يدلع التعلم الى أداء الاستجابة وان يثب لاستجابته في وجود الدليل ، وقد يعبر عن ذلك

بطريقة بسيطة بالقول بأنه لكي يتعلم المرء ينبغي عليه أن يريد شيئا ما ،
 وإن يلاحظ شيئا ما ، وإن يفعل شيئا ما ، وإن يحصل على شيء ما ،
 وإذا مررنا بشكل أكثر دقة فإن تلك العوامل تكون عبارة من 'الباث' ،
 والدليل ، والاستجابة ، والثواب . ولقد تم بعناية استكشاف تلك
 العناصر في عملية التعلم ، كما اكتشف المزيد من التعقيدات ، ولقد
 أصبحت نظرية التعلم عبارة من هيكل شديد التماسك من الاسس النافذة
 في وصف السلوك الانساني (١٩٤١ ، ص ١ - ٢) .

ويبدى جون دولارد في بعض المجالات تعارضا صارخا مع نيل ميلر
 على حين يبدو تشابه كبير بينهما في مجالات أخرى . فهما يختلفان
 من حيث أن ميلر قد قدم أفكارا ونتائج عامة تقع أساسا في موضوع
 علم النفس التجريبي ، في حين أن دولارد قد قدم اسهامات انثروبولوجية
 واجتماعية بارزة . وعلى أى حال فلقد تأثر كلاهما بشدة بتجربتهما في
 معهد العلاقات الانسانية ويتفق ذلك مع انتمائهما الى هل وفرويد . وربما
 ترجع فائدة تعاونهما الى هذا المحور المشترك لعقيدتهما والذي شاد كل
 منهما عليه قوى تجريبية ونظرية فريدة .

وقد ولد جون دولارد في ميناشا Menasha بويسكونسين Wisconsin
 في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٠٠ ، وحصل على بكالوريوس الاداب من جامعة
 ويسكونسين سنة ١٩٢٢ ثم حصل على درجة الماجستير (١٩٣٠)
 والدكتوراه (١٩٣١) في علم الاجتماع من جامعة شيكاغو . وقد عمل
 منذ ١٩٢٦ حتى ١٩٢٩ مساعدا لمدير جامعة شيكاغو . وفي سنة ١٩٣٢ قبل
 منصب استاذ مساعد الانثروبولوجيا في جامعة ييل وأصبح في السنة
 التالية استادا مساعدا لعلم الاجتماع في معهد العلاقات الانسانية الذي
 كان حديث الانشاء وقتئذ . ثم أصبح سنة ١٩٣٥ زميلا باحثا في المعهد
 ومنذ سنة ١٩٤٨ أصبح زميلا باحثا وأستاذا لعلم النفس . ولقد تدرب
 على التحليل النفسى في معهد برلين ، وهو حاليا عضو في جمعية نيوانجلند
 الغربية للتحليل النفسى . ولا تنعكس معتقادات دولارد واهتمامه الشخصى
 بتوحيد العلوم الاجتماعية في منشوراته فحسب بل أيضا في تلك الحقيقة
 الملحوظة وهي أنه قد حصل على مناصب أكاديمية في الانثروبولوجيا
 وعلم الاجتماع وعلم النفس وجميعها في نفس الجامعة . وينبغي أن يكون
 ملحوظا أن هذا النشاط المتشاك قد حدث في وقت كانت فيه العلوم
 الفردية أقل تملقا بالتكامل عما هي عليه في الوقت الحاضر بكثير . ولقد
 كتب دولارد العديد من المقالات الفنية في العلوم الاجتماعية التي تراوحت
 بين علم الانثروبولوجيا والعلاج النفسى ، كما ألف عددا من الكتب التي تعكس

نفس هذا الاهتمام المتسع . ويعتبر كتابه **الطائفة والطبقة في مدينة جنوبية** (1937) *Caste and Class in a Southern Town* دراسة ميدانية عالية التقدير تتعلق بدور الزوج في مجتمع جنوبي وتمثل واحدة من الامثلة الاولى لتحليل الشخصية والحضارة . ولقد اتبع هذا الكتاب بمجلد مرتبط به هو **اطفال العبودية** (١٩٤٠) *Children of bondage* تعاون في تاليفه مع آيسون دافيز Allison Davis . ولقد نشر دولار مجلدين يتعلقان بالتحليل السيكولوجي للخوف هما : **التغلب على الخوف** (١٩٤٢) *Victory over fear والخوف في المعركة* (١٩٤٣) *Fear in battle* كما نشر مقالا هاما يتعلق باستخدام مواد تاريخ الحياة بعنوان **محكات لتاريخ الحياة** (١٩٣٦) *Criteria for a Life History* وقد نشر اخيرا بالاشتراك مع فرانك اولد Frank Auld وآليس هوايت Alice White **خطوات في العلاج النفسي** (١٩٥٣) *Steps in Psychotherapy* وهو كتاب يعرض لطريقة العلاج النفسي ويتضمن وصفا تفصيليا لشخص اثناء العلاج .

أما نيل ميللر فقد ولد في ميلووكي Milwaukee في ويسكونسين Wisconsin في ٣ أغسطس سنة ١٩٠٩ . وحصل على بكالوريوس العلوم واشتغل عام ١٩٣١ ثم حصل على الماجستير من جامعة ستانفورد عام ١٩٣٢ ثم الدكتوراه من جامعة ييل سنة ١٩٣٥ . ولقد عمل منذ ١٩٣٢ حتى ١٩٣٥ مساعدا في علم النفس في معهد العلاقات الانسانية كما عمل عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ زميلا متنقلا في مجلس بحوث العلوم الاجتماعية حصل خلالها على تحليل تدريبي في معهد فيينا للتحليل النفسي ومن عام ١٩٣٦ حتى ١٩٤٠ عمل محاضرا ثم أستاذا مساعدا في معهد العلاقات الانسانية ثم أصبح عام ١٩٤١ زميلا باحثا ثم أستاذا زميلا ومن عام ١٩٤٢ حتى ١٩٤٦ أشرف على مشروع بحث نفسي للقوات الجوية المسلحة ثم عاد سنة ١٩٤٦ الى جامعة ييل ومنذ عام ١٩٥٠ وهو يشغل منصب أستاذ علم النفس في جامعة ييل (كرسي جيمس رولاند أنجيل) . والى جانب اشتراكه مع جون دولارد - فان أشهر ما عرف به ميللر في علم النفس هو بحوثه التجريبية والنظرية الدقيقة في اكتساب الدوافع ، وطبيعة التعزيز ، ودراسة الصراع . ولقد عرضت تلك البحوث بالتفصيل في الدوريات ورغم أن الكثير منها قد نشر ملخصا في فصلين متتازين (ميللر ، ١٩٤٤) ، (ميلر ١٩٥١ أ) .

ولقد نشر عدد من أعضاء هيئة الدراسات الانسانية عام ١٩٣٩ ومن بينهم دولار وميللر كتابا بعنوان **الإحباط والعوان Frustration**

and aggression ولقد كان ذلك مثالا مبكرا وهاما لنوع التطبيق الذي سوف نهتم به في هذا الفصل . وقد حاول المؤلفون تحليل الاحباط وما يترتب عليه في ضوء مفهومات م - س وعرضوا في مقالهم نظريا منظما لهذا الموقف الى جانب قدر كبير من الفحوص والتنبؤات الجديدة فيما يتعلق بالوقائع التي لم تتعرض بعد للملاحظة . ولا يصور هذا البحث تكامل مفهومات م - س مع نظريات التحليل النفسى مع الدلائل الانثروبولوجية فحسب بل انه يقدم دليلا على فائدة هذا الاندماج حين يؤدى الى مجموعة من الدراسات التجريبية المترابطة . ولقد كتب دولارد وميللر معا كتابين يمثلان محاولة لتطبيق صورة مبسطة من نظرية هل عن التعزيز على المشكلات التي تواجه الاخصائى فى علم النفس الاجتماعى (التعلم الاجتماعى والمحاكاة) (١٩٤١) (Social learning and imitation) وعلى المشكلات التي تواجه المتخصص فى علم النفس الاكلينيكي أو فى دراسات الشخصية (الشخصية والعلاج النفسى ١٩٥٠) (Personality and psychotherapy) ولسوف تشكل محتويات هذين الكتابين فى المقام الأول - وبخاصة الكتاب الأخير - أساس عرضنا التالى .

بناء الشخصية :

لقد أبدى كل من دولارد وميللر قدرا كبيرا من الاهتمام بالتعلم وبعملية النمو ويتسق ذلك مع ما أبدياه من قدر أقل بكثير من الاهتمام بالعناصر البنائية أو غير المتغيرة نسبيا فى الشخصية . واذ ما سلمنا بعدم تركيزها على تلك النواحي البنائية ، فما هو المفهوم الذى استخدمناه للتعبير عن الحصاص المستقرة والدائمة للشخص ؟ ان العادة - وهى احدى المفهومات الرئيسية فى نظرية م - س تقوم بهذا الدور .

العادة :

العادة هى وصلة أو ارتباط بين مثير (دليل) واستجابة . وكما سنتبين ، فان جوهر هذه النظرية يتعلق بتحديد الظروف التي تتشكل فى ظلها تلك العادات وتنحل أو تستبدل . وبالرغم من ذلك ، فانه لا يوجه سوى انتباه ضئيل أو لا يوجه انتباه على الاطلاق الى تحديد فئات للعادات أو قوائم الانواع الرئيسية من العادات التي أمكن ملاحظتها . وبرغم أن الشخصية تتكون أساسا من العادات فان البنيان المعين لهنه

العادات سسيتمتع على تلك الوقائع الفريدة التي تعرض لها الفرد .
وذلك الى جانب أن هذا بناء مؤقت فقط ، حيث أن عادات اليوم قد تتغير
نتيجة تجربة الفرد . وقد اكتفى دولارد وميللر بتحديد القواعد التي تحكم
تكون العادة تاركين للأخصائي الاكلينيكي الفرد أو للباحث الفرد مهمة
تحديد العادات التي تميز أى شخص معين .

وينبغي أن يكون واضحاً أن العادات ليست القطاع الدائم الوحيد
من الشخصية حيث أن هناك دوافع أولية وثانوية أو مشتقة كما أن هناك
تدرجات (هيراركيات) للاستجابات . وكل هذه يمكن أن تعتبر جزءاً
من بناء الشخصية الا انه من الافضل مناقشة هذه المفاهيم في الاجزاء
التالية .

ديناميات الشخصية :

لقد كان دولارد وميللر واضحين في تحديدهما لطبيعة الدافعية
وفي تحديدهما - بتفصيل واف - لارتقاء الدوافع وتشكلها ، لكنهما
مرة أخرى ، لم يهتمتا بالتصنيف وبدلاً من ذلك ركزا على دوافع بارزة
معيّنة وحاولا في تحليلهما تصوير العملية العامة التي يمكن أن تتوقع
فعاليتها بالنسبة لجميع الدوافع .

الباعث Drive

يعد الباعث ببساطة منبها يبلغ من القوة القدر الذى يكفى لدفع
الفرد الى النشاط أى أنه يثير السلوك ولكنه فى حد ذاته لا يوجهه .
فقد يصبح أى منبه باعثاً اذا ما وصل الى قدر كاف من الشدة . وبرغم
دقة هذه العبارة نظرياً فإنه من الحقيقى أيضاً أن هناك قدراً صغيراً من
المثيرات (الداخلية فى الغالب) التي تصل بوجه خاص الى قدر من الشدة
يكفى لأداء تلك الوظيفة الدافعة ، ويشار الى تلك البواعث عموماً
بوصفها بواعث فطرية أو أولية . وترتبط تلك البواعث عادة بالعمليات
الفسيولوجية وغالباً ما يكون التخفف من الحاح هذه البواعث المنبهة
ضرورياً لحياة الكائن . ومن أمثلة البواعث الأولية الألم ، والجوع ،
والعطش ، والجنس . وسوف نتوقف بالطبع أهمية مثل تلك البواعث
فى سلوك أى فرد على شدتها ويرتبط هذا بدوره باتاحة الفرص للاشباع
المطلوب للبواعث المنبهة أو التخفف من الحاحها . وهكذا فإذا ما توافر

للفرد باستمرار تمييز كاف من الطعام فان باعث الجوع لن يكون محمدا هاما لسلوك هذا الفرد . وان حقيقة أن أغلب البيئات الانسانية تتيح قدرا يقل أو يزيد من الوسائل الاوتوماتيكية للتخفيف من الحاح بواعث أولية معينة مثل العطش والحصول على الهواء يجعل من غير الممكن عادة ملاحظة عمل تلك البواعث بسهولة .

والباعث إذن على وجه العموم عبارة عن مثير قوى يدفع الفرد الى أن يسلك أو يستجيب بطريقة أو بأخرى الى أن يقل الحساح المثير أو يتلاشى .

ويتكون التعلم أساسا من تنمية الوسائل المناسبة لتقليل الحاح مشيرات الباعث .

الباعث الثانوى :

ان تأثير البواعث على الانسان تأثير معقد نتيجة للعدد الكبير من البواعث المشتقة أو المكتسبة والتي تأخذ مكانها فى النهاية . فخلال عملية النمو يكتسب الفرد السوى عددا كبيرا من البواعث الثانوية التى تؤدى الى اثاره وتوجيه سلوكه . ويتم اكتساب تلك البواعث المتعلمة على أساس من البواعث الأولية ، وتمثل تطورا لها ، وتعمل ستارا تخفى وراءه وظائف البواعث الفطرية الكامنة . (١٩٥٠ ، ص ٣١ - ٣٢) .

ان استثارة الباعث الثانوى يحل عموما محل الوظائف الأصلية لاستثارة الباعث الاوى فى المجتمع الحديث العادى . فالفرد لا ينتظر به استثارة الباعث الاوى (تقلصات المعدة أو التغيرات فى كيمياء الدم) لى يلجأ الى الاستجابات التوافقية المناسبة (الأكل) بل انه يستجيب على الأرجح لاستثارة الباعث الثانوى الذى قد يرتبط بالحدود الزمنية أو المكانية أو اللفظية . ويدل ذلك على أن أهمية البواعث الاولية لا تنضع فى أغلب الاحوال من خلال الملاحظة العارضة للراشد النطبع اجتماعيا بل ان المرء لا يمكن أن يلاحظ بوضوح عملية البواعث الاولية الا من خلال عملية الارتقاء أو فى فترات الازمة (انها أنماط التكيف المفروضة حضاريا) .

ولكى نفهم اشتقاق البواعث الثانوية من الاولية يجب أن نفهم عملية التعلم - ويقودنا ذلك الى المشكلة العامة لارتقاء الشخصية وسوف يكون لدينا المزيد لقوله فيما بعد فيما يتعلق بالبواعث الثانوية أو المتعلمة .

نمو الشخصية :

ان التحول من الرضيع البسيط الى الراشد المعقد يعد أمرا ذا أهمية ضئيلة لدى بعض أصحاب النظريات ، ولكن دولارد وميلر قد أحكما صياغة هذه العملية على الوجه الاكمل . وسوف نعرض لمعالجتهما لهذه المشكلة بادئين بنظرة مختصرة للتجهيزات الفطرية لدى الرضيع ثم نتبع ذلك بمناقشة تفصيلية لعملية التعلم وتطبيقها على اكتساب البواعث وعلى التفكير . وبالإضافة الى ذلك فسوف نعرض باختصار لأهمية السياق الاجتماعى للسلوك وللراحل الارتقائية ، كما سوف نعرض فى النهاية لتطبيق تلك المفهومات على ظاهرتى الكبت والصراع .

التجهيزات الفطرية :

لا يكون الفرد عند الميلاد وبعده بقليل مزودا الا بقدر محدود فحسب من التجهيزات السلوكية ، فهو يمتلك فى البداية عددا صغيرا من **الأفعال المنعكسة النوعية** التى تعد فى أغلبها استجابات منفصلة لمثير أو لنوع من المثيرات الفاتحة النوعية . ثم هو يملك ثانيا عددا من التنظيمات المتدرجة الفطرية للاستجابة التى تعد بمثابة نزعات لظهور استجابات معينة قبل استجابات أخرى معينة فى مواقف استثارة خاصة ، فمثلا قد يكون من الأمور المحددة فطريا ، أنه حين يتعرض الطفل لمثيرات ذات خطورة معينة فإنه يحاول الهروب أولا من المثيرات قبل أن يصرخ . ويتضمن هذا الافتراض أن ما يسمى بالسلوك العشوائى ليس عشوائيا على الإطلاق بل انه يتحدد بتفصيلات استجابية تنتج أساسا فى فترة مبكرة من ارتقاء الكائن ، عن عوامل فطرية ولكنها تتأثر من خلال الارتقاء بخليط مركب من الخبرة ومن تلك **التنظيمات المتدرجة الفطرية** . ويمتلك الفرد - ثالثا - مجموعة من البواعث الأولية التى - كما سبق أن رأينا - تكون فى الحالة العادية عبارة عن مثيرات داخلية بالغة القوة البواعث الفرد الى العمل ولكنها عموما لا ترشد هذا العمل أو توجهه، والثبات وترتبط عادة بعمليات فسيولوجية معروفة . وتدفع تلك بحيث انه فيما قبل التعلم لا يكون ثمة موجة للسلوك سوى الأفعال المنعكسة النوعية والتنظيمات المتدرجة للاستجابة .

وهكذا يكون لدينا فى البداية فرد غير قادر الا على استجابات قليلة ومجازة وممايزة نسبيا لمثيرات نوعية وهو يمتلك أيضا مجموعة من

البواعث الاولية التي تدفعه الى العمل أو السلوك تحت شروط عضوية معينة ولكنها لا توجه هذا النشاط . وينبعث التوجيه الاول الوحيد للاستجابات من تنظيم مندرج فطري لنزعات استجابية تمارس سيطرة كبيرة أو عامه على الترتيب الذي سوف تظهر به استجابات خاصة في مواقف محددة . وفي هذه الحالة المبدئية ، ينبغي على نظريتنا في الارتقاء أن تأخذ في حسابها (١) امتداد الاستجابات الحالية الى مثيرات أو مواقف استشارة جديدة ، (٢) ارتقاء الاستجابات الجديدة ، (٣) ارتقاء الدوافع الجديدة أو المشتقة ، (٤) انطفاء أو تلاشي الترابطات القائمة بين مثيرات واستجابات . ولقد صممت مفاهيم التعلم التي سوف تعرض فيما يلي لوضع أساس لفهم هذه الارتقاءات .

عملية التعلم :

يرى دولارد وميللر أن هناك أربعة عناصر تصورية هامة في عملية التعلم وهي : الباعث ، والدليل ، والاستجابة ، والتعزيز (المكافأة) ولقد سبق أن عرضنا للباعث بطريقة مؤقتة وسوف ننتقل الآن الى المفاهيم الأخرى .

الدليل منه يرشد استجابة الكائن ، فمثيرات الباعث المنبه تهيب الفرد للعمل ، أما الأدلة فهي توجه أو تحدد طبيعة الاستجابة بالدقة ، أن الأدلة هي التي تحدد متى سوف يستجيب ، وأين سوف يستجيب ، وأي الاستجابات سوف يصدرها الفرد ، (دولارد وميللر ، ١٩٥٠ ، ص٣٢) وقد تختلف الأدلة من حيث النوع أو الشدة ، فهناك أدلة بصرية وأدلة سمعية وهناك أيضا ومضات من الضوء خافتة ومضات من الضوء تعمي البصر . وهناك أدلة سمعية ترتبط برنين الجرس ، وأدلة سمعية ترتبط بالحبال الصوتية البشرية ، كما أن هناك أيضا أصوات رنين رقيقة لا تكاد تسمع وهناك أصوات رنين صاخبة هادرة . وقد يرتبط قيام المثير بوظيفته كدليل بتغيرات في الشدة أو النوع ورغم أن ما يؤدي الى ذلك يكون في اغلب الأحوال تغيرات في النوع ، فأي صفة تميز المثير قد تصلح كأساس للدليل ويسهل في الأحوال العادية التمييز على أساس التغيرات في النوع أكثر منها في الشدة ولا تصلح المثيرات كدالة وهي فرادى فحسب بل في تجمعات أيضا أي أن التمييز لا يعتمد على الفروق بين المثيرات الفردية فحسب بل انه قد يعتمد على نمط أو تجميع مثيرات

متعددة مختلفة ، ومثال ذلك ان نفس الحروف المفردة قد تستخدم في تجميعات مختلفة لتشكيل كلمتين أو أكثر يكون لهما تأثيرات مختلفة تماما على التلاميذ . ولقد سبق أن أشرنا الى أن أى مشير لا يمكن أن يصبح باعنا إلا اذا بلغت شدته قدرا كافيا وهكذا يصبح لنفس المشير قيمته كباعث وكدليل أى أنه قد يثير السلوك ويوجهه .

ويجب أن يوجه التعلم قدرا بالغا من الأهمية الى عوامل الاستجابة وكما استنتج دولارد وميللر فإنه قبل أن ترتبط استجابة معينة بدليل معين يجب أن تحدث تلك الاستجابة أولا ، وهكذا ، فإن اصدار الاستجابة المناسبة بعد مرحلة حاسمة في تعلم الكائن ، كفى أى موقف معين سوف تكون هناك استجابات معينة أكثر احتمالا فى ظهورها من الأخرى . ويشار الى الترتيب بالنسبة لأفضلية الاستجابة أو احتماليتها حين يحدث الموقف لأول مرة بأنه **التنظيم المتدرج المبدئى للاستجابات** ، فإذا ما اتضح أن هذا التنظيم المتدرج الأول قد حدث دون وجود أى تعلم فقد يشار اليه بوصفه **التنظيم المتدرج الفطرى للاستجابات** والذى سبق أن أشرنا اليه كجزء من تجهيزات الفرد البدائية . وبعد أن تؤثر الخبرة والتعلم على سلوك الفرد فى هذا الموقف فإن الترتيب المستخرج يطلق عليه **التنظيم المتدرج الناتج** . وتذكرنا تلك المفاهيم ببساطة بأن الاستجابات الكامنة التى قد تصدر عن الفرد فى أى وضع بيئى تختلف من حيث احتمال حدوثها ويمكن أن ترتب فى ضوء ذلك الاحتمال .

ومن خلال الارتفاع يصبح تدرج الاستجابة مرتبطا ارتباطا وثيقا باللغة وذلك لأن استجابات معينة تصبح مرتبطة بكلمات وبالتالى فإن الكلام قد يصبح هو الوسيط أو المحدد للتنظيم المتدرج المعين الذى سوف يمارس فعاليته . وهكذا فإن نفس الموقف الذى يشار اليه باعتباره « خطرا » أو « مرحا » سوف يثير تنظيمات استجابات متدرجة بالغة التنوع . والتدرج المعين الناتج يتأثر بشدة أيضا بالحضارة التى يطبع فيها الفرد اجتماعيا حيث أن مواصفات الحضارات كافة تتضمن اشارات الى الاستجابة المفضلة أو التى أكثر احتمالا بالنسبة للمواقف ذات الأهمية الاجتماعية .

وما أن تحدث الاستجابة فإن مصيرها يتحدد بما يتبعها من تعزيز أو عدم تعزيز ، فالوقائع التى تقوى من الرابطة بين استجابة معينة ودليل خاص تسمى **تعزيزات reinforcements** أو مكافآت **rewards** ويفترض عادة أن التعزيز لا يحدث الا حيث يكون هناك خفض مقبول للمثير

الباعث يتم وقت حدوث الاستجابة • وعلى أى حال فليس من الممكن دائما اثبات ذلك مباشرة • والتعريف الكلاسيكي لمكونات التعزيز تعريف دائرى واضح حيث أن وجود التعزيز ينبثق من حقيقة أن التعلم قد حدث بالفعل، أو أن رابطة م - س قد قويت • ويتفق دولارد وميللر مع ميل Meehl (١٩٥٠) فى تقرير أن هذا التعريف ليس دائريا تماما حيث أنه بمجرد أن يتضح أن واقعة معينة قد لقيت تعزيزا (تقوية رابطة م - س) فإن ذلك يفرض عموما أن نفس الواقعة سوف تعزز أو تشجع التعلم فى مواقف أخرى • وتعنى انتقالية التعزيز أو المكافأة من موقف لآخر أنه بمجرد أن يظهر الأثر الأصيل ، فإنه يمكن للباحث أن يحدد المكافأة دون الاعتماد على رابطة م - س المعنية التى يود دراستها •

وتفترض وجهة النظر التى تبناها دولارد وميللر أن المكافأة لا يمكن أن تحدث الا حين يكون المثير الباعث فعالا ، بالإضافة الى أن هناك دائما تقيلا أو خفضا للمثير الباعث فى عملية المكافأة • ويتضمن ذلك أنه ما لم تتدخل بعض العوامل الخارجية لزيادة قوة المثير الباعث ، فإن المكافآت مستحيلة • ويدعم ذلك حقيقة أن الفرد لا يكرر نفس الاستجابات المكافأة الى ما لا نهاية •

وقد تعزز استجابة معينة من خلال تقليل المثير الباعث الاوى كالجوع والعطش والألم أو قد تعزز من خلال تقليل المثير الباعث الثانوى أو المكتسب كالقلق والحجل والانصياع • ومن الواضح أن أغلب المعززات فى الحياة العادية للأفراد من البشر تتم بوساطة تقليل المثير الباعث المتعلم أو الثانوى • وينبعت التعزيز الثانوى بالطبع من التعزيز الاوى ويعتمد عليه • ولقد سبق أن استنتجنا أن البواعث الثانوية تمثل اشتقاقات من البواعث الاولية وأنها تظل فحسب لتبين أن آثار تقليل الباعث الثانوى لن تستمر فى تدعيم التعلم بلا نهاية وفى غياب تقليل أى باعث اولى • وسوف نتضح تلك النقطة أكثر فى مناقشتنا للانطفاء وفى عودتنا لتعليل الدوافع •

ويعتقد دولارد وميللر شخصيا أن التعلم لا يتم الا بتوافر شروط خفض الباعث ، ولكنهما يريان أنه من الممكن للمرء - اذا شاء - أن يستوعب نظريتهما دون التسليم بهذه الفكرة • فاذا ما شاء الباحث أن يقبل فكرة خفض الباعث كتعزيز فإنه لا يحتاج لافتراض أن جميع التعزيزات تتكون من خفض للباعث • كما أنه ليس من الضروري

افتراض أن آثار المكافأة أو التمييز تتحقق شعوريا ، فقد يتقبل الفرد أولا يتقبل دور المكافأة كحدد في تعلمه .

وتلعب المواقف التي تتضمن استجابات يستطيع الفرد أن يقوم بها على الفور دون أن يتبعها خفض للباعث أو تعزيز ، تلعب دورا حاسما في نمو استجابات جديدة ومدى أوسع من السلوك التكييفي . وتستوجب **معضلات التعلم learning dilemmas** هذه - كما أسماها دولاورد وميللر - استجابات جديدة أو تثير استجابات أكثر بعدا على التنظيم المتدرج للاستجابة ، ذلك هو صلب تعلم استجابات جديدة . وإذا كانت استجابات الفرد القديمة كافية تماما لخفض توترات بواعثه كافة فليس هناك من سبب يدعو إلى إصدار استجابات جديدة ، ويظل سلوكه دون تعديل .

عرفنا الآن أن العادات أو روابط الدليل - الاستجابة تتشكل نتيجة لخفض الباعث أو التعزيز . ويتفق ذلك مع فكرة أن العادات تكف عن أن تكون فعالة أو تصبح أضعف نتيجة لغياب المكافأة أو التعزيز . ويشار إلى إضعاف العادة أو خفض النزعة الاستجابية على أنه انطفاء **extinction** وفقا لهذا المبدأ ، فكلما ازداد وقوع استجابة معينة في حضور دليل معين وحالة باعثة معينة دون خفض للمثير الباعث ، قل احتمال أن يثير ذلك الدليل هذه الاستجابة في المستقبل . وبالطبع فانه إذا كانت العادة بالغة القوة فانها قد تتطلب تكرارات عديدة في غياب المكافأة لكي تنطفئ الاستجابة . وهذا مبدأ بالغ الوظيفية أو التكييفية لأنه يتضمن أن الاستجابات التي لا تؤدي إلى الحالة المرغوبة من التعزيز أو المكافأة ، تصبح بالتدريج أقل قابلية للحدوث وذلك بتكرارها دون مكافأة . وكما أشرنا فإن الانطفاء عملية متدرجة ويتوقف طول الزمن الذي سوف يستغرقه انطفاء عادة معينة على قوتها الأولى وأيضا على قوة الباعث خلال عملية الانطفاء .

وإذا ما ظلت إحدى الاستجابات المنطفئة دون أن تثار لفترة من الزمن ، فانه ما إن يقم الدليل المناسب مرة أخرى ، حتى يبدي الفرد - غالبا - الاستجابة التي سبق أن انطفأت . ويشار إلى ميل العادة إلى استعادة مكانتها فيما بعد الانطفاء بالاستعادة **التلقائية spontaneous recovery** . وإذا ما استمرت عملية الانطفاء فترة ممتدة بقدر كاف فإن الكائن سوف يصل إلى حالة تختفي فيها الاستعادة التلقائية .

وقد يدافع المرء عن افتراض أن الفرد لا يواجه أبدا بنفس الموقف المثير تماما في مناسبتين أو أكثر ، فهناك دائما اختلافات قليلة وإن كانت مميزة بين أى تقديم لمثيرين تفصلهما فترة زمنية . فالأدلة التي تقدم في المناسبة التالية تتضمن دائما فروقا طفيفة عن تلك الأدلة التي قدمت في المناسبة الأولى ويقع على عاتق مفهوم التعميم **Generalization** الجانب الرئيسي في تدعيم ذلك الميل من جانب الفرد إلى إصدار نفس الاستجابة حتى ولو كان هناك اختلاف في موقف الدليل . ويتضمن هذا المفهوم ببساطة أن الماديات التي يتم تعلمها في موقف معين سوف تميل إلى الانتقال أو التعميم في مواقف أخرى بقدر تشابه المواقف الجديدة مع الموقف الأصلي . فكلما ازداد تشابه الأدلة الأصلية ، قويت النزعة نحو التعميم في الموقف الجديد . ويطلق على هذا الاختلاف في النزعة إلى نقل الاستجابة المتعلمة إلى مواقف جديدة ومختلفة ، مصطلح مدرج التعميم **gradient of generalization** بمعنى أن مواقف الاستثارة يمكن أن تدرج أو ترتب وفقا لتشابهها ، وإن ذلك التشابه سوف يحدد إمكان أن تستثار استجابة سبق تعلمها في أحد المواقف في موقف استثارة جديدة . وعموما فكلما قوى المثير للاستجابة ازدادت النزعة نحو التعميم إلى أدلة جديدة ، فمثلا ، الشخص الشديد الجوع - يجرى لمابه عند رؤية موضوعات لا يمكن أن تثير إفراز اللعاب عادة .

ولا ينبغي على الفرد أن يتعلم فحسب أن يستجيب في اتساق في المواقف التي تختلف إلى حد ما ، بل عليه أيضا أن يتعلم أن يستجيب استجابات مختلفة في المواقف المتشابهة . وهكذا فإن البيئة تلقى على عاتق الفرد بهذين المطلبين المتعارضين : التعميم والتخصيص . وعلى الفرد في مجتمعنا عادة أن يصدر استجابات متشابهة حيال الأفراد الذين في مواقع السلطة حتى ولو لم يكن بينهم ثمة تشابه فيزيقي على الإطلاق . ومن ناحية أخرى عليه أن يستجيب حيال نوعين متطابقين ولكنها على علاقة متباينة معه - كالزواج مثلا - بطريقة فردية تماما . ومن خلال التعزيز المتتالي لاستجابة معينة حيال مجموعة بالذات من الأدلة وعلم تعزيز نفس الاستجابة حيال مجموعة أخرى من الأدلة الوثيقة الشبه بالأولى يصبح ممكنا إقامة تمييز **discrimination** بين الأدلة بحيث تكف النزعة إلى التعميم . ويتضمن التمييز زيادة في تخصيصية الأدلة المناسبة لاستثارة استجابة معينة ، على حين يقلل التعميم من تلك التخصصية ومن الواضح أنه كلما زاد التمايز بين دليلين أصبح من السهل تعلم التمييز بينهما .

و يتم تعلم الاستجابات التي تحدث قبل التعزيز مباشرة بسرعة أكبر
اذ ان ارتباطها بالدليل يصبح أكثر قوة عن تلك الاستجابات التي تحدث
في وقت أكثر بعدا عن التعزيز . وهناك انتشار للأثر أو **مفوج للتعزير**
gradient of reinforcement يحاكي تلك الاستجابات الملائمة زمنيا
للكافاة أو السابقة عليها مباشرة . وهكذا فانه اذا كانت هناك سلسلة
من الاستجابات استثارها دليل معين . وكانت تلك السلسلة تؤدي الى
تعزير فان آخر تلك الاستجابات سوف يكون أوثق ارتباطا بهذا الدليل
عن الاستجابات التي حدثت في فترة أسبق . وقصلا عن هذا المفهوم فان
السبب في تفضيل أقصر الطرق الى الهدف عن أطولها يبدو واضحا
حيث أن الاستجابات في الطريق الأقصر تكون أكثر التصاقا بالتعزير
وبذلك تكون لديها نزعة أقوى للاستثارة من خلال موقف الدليل المعين
هذا .

و كنتيجة للتعميم والمدرج التعزير فان الفرد الذي سبق أن تعلم
تسلسلا من الاستجابات المؤدية الى هدف ، سوف يبدي كثيرا من
الاستجابات الاستباقية anticipatory responses أى تلك الاستجابات
التي تحدث في التسلسل مبكرة عن حدوثها في التعلم الأصيل . ولتلك
الاستجابات الاستباقية وظيفة استبعاد الحطوات غير الضرورية أو اللقوسية
في الطريق الى الهدف . وبالطبع فانه في كثير من الاحوال قد تصعب تلك
الاستجابات المحنوفة جوهرية للحصول على المكافاة وفي هذه الحالة
يجب أن يتعلم الفرد ألا « يستيق » . ومن المهم أن نؤكد من جديد أن
عملية ادراج الاستجابات الاستباقية في التسلسل المتعلم للسلوك
ليست ارادية في العادة بل أنها تحدث دون قرار شعوري أو وعي من
جانب القائم بها .

والى هنا ، نكون قد فحصنا الأدوات التصورية الأساسية التي
يستخدمها دولارد وميللر في تحليلهما للسلوك وتقديهما له . وهناك
بالطبع الكثير من الافتراضات الإضافية سوف يحتمها تطبيق هذه
المفاهيم وسوف يصبح بعضها واضحا من خلال عرضنا التالي .

البواعث الثانوية وعملية التعلم :

سبق أن رأينا أن الطفل يولد بقدر محدود من البواعث الأولية
التي تصبح من خلال النمو والخبرة منمجة في مجموعة متنوعة ومركبة

من البواعث المشتقة أو الثانوية . ولنعد الآن مرة أخرى للنظر الى ارتقاء تلك البواعث المكتسبة في ضوء مفهومات التعلم التي ناقشناها توا ، و يتركز تناولنا حول تعلم الخوف وذلك ببساطة لأن هذا الباعث هو الأكثر اكتمالا من حيث فهمه عن الكثير من البواعث الثانوية الاخرى ونحن نفترض أن عملية التعلم بالنسبة لهذا الباعث هي نفسها بوجه عام بالنسبة لأي باعث آخر .

والخوف باعث متعلم - على الأقل جزئيا - حيث أن استجابة الخوف يمكن أن ترتبط بأدلة أو بمثيرات لا تسبب الخوف لدى الفرد الساذج . ومن المشروع أن نعتبر الخوف باعثا لأنه يدفع الكائن الى السلوك كما أن خفض الخوف يكون بمثابة المكافأة أو التعزيز . وقد اعتمد دولارد وميللر في تدعيم تلك التوكيدات بشكل رئيسي على الفحوص التي أجريت على الحيوان والتي كانت الفئران تتعرض فيها لصدمة في ماوى ابيض ويسمح لها بالهرب الى ماوى أسود حيث لا توجد صدمات . وبعد عدد معين من المحاولات يصبح الماوى الابيض (وهو دليل محايد في الاصل) مثيرا للخوف . وخلال ذلك تكون الحيوانات قد تعلمت أفعالا وظيفية كالضغظ على قضيب أو ادارة عجلة للهرب من الماوى (خفض مشيرات الباعث) حتى لو لم يكن الباعث الأولى (الصدمة) قائما . ويشير دولارد وميللر الى أن هناك تشابها قويا بين الفأر الابيض الخائف من ماوى ابيض عديم الأذى وبين أنواع الحصر والمخازف غير المنطقية التي يمكن ملاحظتها لدى الأفراد من البشر . وإذا كان الملاحظ قد شاهد عملية التعلم التي تسبق الخوف من الماوى الأبيض فإنه لن يكون هناك غموض فيما يتعلق بخوف الحيوان ، وبالمثل إذا كان قد شاهد عملية التعلم التي تسبق العرض العصائى فلن يكون هناك ما يشير الدهشة أو ما يكون بعيدا عن الاتساق فيما يتعلق بالطريقة التي يسلك بها الفحوص من البشر . ولا يبدو سلوك الفحوص غريبا أو غير منطقي الا حين تبدأ الملاحظة في مرحلة ختامية من عملية التعليم .

ويقترض دولارد وميللر ان الخوف والبواعث الثانوية الأخرى ، هي في نفس الوقت استجابات ومصادر للمثيرات . أى أن الكائن في ظل ظروف معينة يصدر استجابة مركبة تسمى الخوف ، وتقوم هذه الاستجابة أيضا بدور المثير أو الدليل الذي قد يوجه أو يضبط الاستجابات التالية . وبرغم أن طبيعة الاستجابة وخصائصها المثيرة لا يمكن تحديدها بدقة فإنه من الممكن اظهار أن الخوف يتبع نفس الأسس الوظيفية للمثيرات

والاستجابات التي يمكن ملاحظتها مباشرة ، ويبدو تبعا لذلك أن افتراض الحوف عبارة عن استجابة تخلق دليلا له ما يبرره .

وترجع قوة الحوف المتعلم الى نفس العوامل التي تحدد قوة الصفات الأخرى المتعلمة ، فشدّة الباعث الأولى التي يتضمنها التمييز المؤدى الى الحوف المتعلم ، وكذلك عدد ونمط المحاولات المعززة ، كل ذلك يعد بمثابة محدودات هامة لشدّة الحوف . فإذا ما استخدمت صدمة ضعيفة وعدد قليل من المحاولات فإن الغار سوف يبدى خوفا من الماوى الأبيض أقل بكثير مما كان سوف يبدىه إذا ما استخدمت صدمة قوية وسلسلة طويلة من المحاولات . وكذلك ينطبق أيضا مديرج التمييز وتعميم المثير فتلك المثيرات الأكثر التصاقا بالتمييز سوف تكون أكثر اثاره للخوف ، وكذلك فإن استجابة الحوف سوف تعمم على الأدلة التي تشبه الدليل المتعلم بحيث تثير الأدلة الأكثر شبيها خوفا أكثر . والحوف شأنه في ذلك شأن أى عادة أخرى - لا يتعلم فقط بل أيضا ينطفىء بنفس الطريقة برغم أن انطفاء استجابات الحوف يكون - لأسباب معقدة - أكثر صعوبة من انطفاء العادات الأقل منها من حيث شحنتها العاطفية . وعموما ، فإن المواقف التي لا تتبع فيها استجابة الحوف بتمييز سوف تؤدي بالتدرج الى انطفاء استجابة الحوف . ويمكن أن يتلاشى الحوف أيضا من خلال الربط بين بعض الاستجابات المناقضة للخوف وبين الدليل المتعلم بشكل أقوى من استجابة الحوف .

ويمكن أن تقوم البواعث المكتسبة بدور الأدلة بنفس الطريقة كأي مشيرات أخرى . فقد يتعلم الفرد أن يستجيب لكلمة « خائف » في المواقف المثيرة للخوف ، وذلك هو ما يسمى بالباعث الثانوى ، وسوف يؤدي هذا الدليل المثير للاستجابة فيما بعد الى نقل الاستجابات المتعلمة في الموقف الاصلى المثير للخوف الى الموقف الحالى . ويسمى هذا النقل بما يتضمنه من استجابة تعمل كدليل تعميمات ثلثوية secondary generalization ويستطيع الفرد أن يتعلم التمييز بين درجات الشدة المختلفة لاثارة الخوف كما هو الحال بالنسبة للمثيرات الأخرى بحيث أن قيمة الدليل للباعث المكتسب قد تعتمد على شدة هذا الباعث .

وملخص ما سبق هو أن الحوف قد يتعلم أو يرتبط بأدلة جديدة كانت أصلا محايدة ، وفي هذه الحالة تثير تلك الأدلة نمطا فطريا من الاستجابة أو نمطا فطريا تم تعديله من خلال تعلم لاحق . واستجابة الحوف دليل كما أنها استجابة ، وهي استجابة مركبة تعمل كدليل لاثارة

تلك الاستجابات التي سبق تعلمها في مواقف أخرى مشابهة مليئة بالخوف . ويمكن أن يعمل الخوف كباعث (متعلم) بمعنى أنه سوف يثير الكائن ويدفعه الى الاستجابة وإن خفضه سوف يعزز تلك الاستجابات المرتبطة بالخفض . وبعبارة أخرى فإنه - أي الخوف - يعمل تماما كأي باعث آخر . وأحد أسباب تلك الأهمية الشديدة للخوف المتعلمة يرجع الى أنه حين يكون ثمة عقاب على الاستجابات الضرورية لخفض البواعث الأخرى ، فإن الفرد قد يبدى خوفا مكتسبا يرتبط بتلك الاستجابات ، وبذلك فإن التعارض أو الصراع سوف يقوم بين الباعث الأصلي والخوف المتعلم فعلى سبيل المثال قد يعاقب أحد الأطفال كثيرا وبشدّة في أثناء تناوله الطعام بحيث تصبح تلك الاستجابة مثيرة للخوف مما يؤدي الى وقوعه مستقبلا في صراع بين باعث الجوع والخوف من تناول الطعام .

ولقد أوضحنا مناقشتنا لتعلم الخوف أن الدوافع المكتسبة تتطور وفقا لنفس أسس التعلم التي تحكم تكوين وحل العادات . ويمكن أن ينطبق هذا التحليل للخوف على البواعث الأولية الأخرى كافة مما يفسر امتدادها الى مواقف أدلة جديدة . وفضلا عن ذلك فمن الواضح أنه سوف يحدث كثيرا أن تنشط مجموعات مختلفة من تلك البواعث في نفس الوقت مؤدية الى بواعث مكتسبة ليس لها تماما نفس خصائص أي باعث فطري منفرد . وبهذه الطريقة ، فإن البنیان الدافعي للفرد بنيان معقد وربما لا يبدى في المستقبل سوى تشابه ضئيل مع النظام الأصلي للبواعث الأولية .

العمليات العقلية العليا :

تتكون تفاعلات الفرد مع بيئته من نوعين : تلك التفاعلات المباشرة التي يوجهها دليل منفرد أو موقف دليل منفرد وتلك التي تتوسطها عمليات داخلية . وذلك النوع الأخير من الاستجابات هو ما يعيننا هنا ، أي تلك التي تتوسطها الاستجابات المصدرة للأدلة Cue producing responses ويتفق دولارد وميللر مع هسل في التفرقة بين الاستجابات الوظيفية والتي لها بعض الأثر المباشر على البيئة ، وبين تلك التي تصدر الأدلة والتي تكون وظيفتها الرئيسية إثارة أو فتح الطريق أمام استجابة أخرى . ومن الواضح أن أغلب الاستجابات المصدرة للأدلة تتضمن لغة برغم أنها ليست بالضرورة لغة منطوقة .

ومن أهم الاستجابات المصدرة للأدلة عنونة أو تسمية الوقائع والخبرات . وقد يزيد الفرد على الفور من التعميم أو النقل بين موقفين أو أكثر من مواقف الأدلة عن طريق وضعها تحت نفس العنوان ، فمثلا عن طريق تعيين موقفين مختلفين تماما بوصفهما « مهديين » قد يزيد الفرد من احتمال أن يسلك بنفس الأسلوب في كلا الموقفين أو قد يميز الفرد تمييزا حادا بين موقفين متشابهين عن طريق إعطائهما أسماء مختلفة فمثلا ، قد يعنون شخصين يتشابهان كثيرا من الناحية الموضوعية بوصفهما « صديق » « وعدو » على التوالي مما يؤدي إلى الاستجابة لهما بطريقة فردية تماما . وفي كل حضارة يتم تأكيد تميمات وتمييزات حاسمة ويصبح ذلك أسهل عن طريق البنين اللفظي . ويتضح هذا المبدأ في الأمثلة الكثيرة التكرار عن القبائل التي تكون فيها سلعة معينة - كالبقر أو جوز الهند - ذات أهمية كبيرة وحيث تحتوي اللغة على عدد هائل من العناوين التمييزية لتلك الأشياء .

ولا يقتصر دور الكلمات على تسهيل التعميم أو كفة ، بل انها تقوم أيضا بوظيفة هامة في إثارة البواعث . وفضلا عن ذلك فان الكلمات قد تستخدم في الإثابة أو التحزيز . والأكثر أهمية من كل ذلك انها تستخدم كميكانيزمات للربط الزمني ، تسمح للفرد بتأكيد أو تعزيز في السلوك الحاضر في ضوء العواقب القائمة في المستقبل ولكنها قابلة للتمثيل اللفظي في الحاضر . ومن الواضح أن التدخل اللفظي في متتالية الباعث - الدليل - الاستجابة - التعزيز هو ما يجعل فهم السلوك البشري أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد ، ويفسر في نفس الوقت الكثير من الفروق بين الانسان والاجناس الدنيا .

والاستدلال في جوهره عملية استبدال للاستجابات الداخلية المصدرة للأدلة بأفعال ظاهرة ، وبذلك فانه أكثر كفاءة بكثير من المحاولة والمحاظ الظاهرين ، وهو لا يقوم فحسب بمهمة الاختيار الرمزي لمختلف التفضيلات ، بل انه أيضا يتيح إمكان ابدال الاستجابات الاستباقية التي قد تكون أكثر فعالية من أي بدائل استجابات ظاهرة. مضافة أصلا . ومن الممكن من خلال استخدام الاستجابات المصدرة للأدلة (الأفكار) البسه بموقف الهدف ثم التراجع حتى الوصول إلى التعرف على الاستجابة الوظيفية الصحيحة ، وهي ميزة لا يمكن تحقيقها عادة من التعلم الحركي . ويمكن لتخطيط نوعا خلاصا من الاستدلال حيث يكون التركيز على الأفعال المستقبلية .

ولكى يحدث أى من الاستدلال أو التخطيط يبنى على الفرد أولا أن يكون قادرا على كف أو تأجيل الاستجابة الوظيفية المباشرة حيال المنير الباحث والدليل . فهذا الكف هو الذى يتيح للاستجابات المصدرة للأدلة فرصة أن تعمل ، ولذا يبنى لاستجابة « عدم الاستجابة » هذه أنه تعلم شأنها شأن أى استجابة جديدة . ومن الضرورى أيضا أن تتميز الاستجابات المصدرة للأدلة بالكفاءة والواقعية وأخيرا أن تؤدى الى الافعال الوظيفية المناسبة أو الظاهرة .

وتتأثر القدرة على استخدام اللغة وغيرها من الاستجابات لمصدرة للأدلة بالسباق الاجتماعى الذى ينشأ فيه الفرد . ووفقا لكلمات دولارد وميللر :

« ان حلول المشكلات التى تحققت بجهد بالغ عبر قرون من المحاولة والخطأ وعن طريق أرقى مراتب الاستدلال الحلاق لقسلة نادرة من المباشرة قد تم حفظها وتجميعها بوصفها جزءا من الحضارة . . . ويتلقى الناس قدرا هائلا من التدريب الاجتماعى على تجميع الكلمات والجمل معا بحيث تؤدى الى الحلول التكيفية للمشكلات ، (١٩٥٠ ، ص ١١٦) .

ان استنباط النظرية الفيتاغورية يعد عملا نادرا وخلقا ، ولكن تعلمها بعد ذلك فى أى وقت ومكان مناسبين لا يعد أمرا بالغ الصعوبة بعد أن تكون قد عرفت بالفعل . وهكذا تقدم اللغة المفتاح الذى تنتقل به الحكمة من الماضى الى الحاضر .

ونظرا للأهمية العظمى للغة فانه من المناسب تماما وجوب تدريب الطفل على التنبيه الى الادلة اللفظية والاستجابة لها ثم اصدارها فى النهاية ومن المحتمل أن استخدام الرموز اللفظية فى الاتصال بالآخرين يسبق استخدامها فى الأفكار . ويدور قدر كبير من تفاعلات الطفل مع بيئته حول كيفية اصدار تلك الادلة فى الظروف المناسبة ، وبالمثل حول كيفية فهم ما يصدره الآخرون من تلك الأدلة .

واللغة - كما سبق أن أشرنا - نتاج اجتماعى واذا ما سلمنا بدلالة عملية اللغة فانه يبدو معقولا أن يكون الوسط الاجتماعى الذى يتفاعل فيه الفرد على قدر من الأهمية . ولنعد الآن الى تناول هذا العامل .

السياق الاجتماعي :

من المرجح تماما بالنسبة لاي نظرية او منظر متأثر بالانثروبولوجيا الاجتماعية أن يبرز دور المحددات الاجتماعية الحضارية للسلوك ، ولاستثنى نظريتنا الراحنة من هذه القاعدة . فدلوراد وميللر يؤكدان باستمرار حقيقة أنه لا يمكن فهم السلوك الانساني الا بالادراك الكامل للسياق الحضارى الذى حدث فيه السلوك . وتمدنا سيكلوجية التعلم بفهم لاسس التعلم Principles of learning ولكن عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية او من يشابهه يمدنا بشروط التعلم Conditions of learning وكلا من هذين التخصصين يبلغ من الاهمية بالنسبة للفهم الكامل للنمو الانساني ما يبلفه الآخر .

ان احدا من علماء النفس لا يجرؤ على التنبؤ بسلوك قار دون ان يعرف في اى من لوامى متاعة T وضع الطعام وفي اياها تقع المتعة الكهربائية . والتنبؤ بسلوك الانسان ليس اسهل من ذلك دون معرفة ظروف متاعته ، اى بنيان بيئته الاجتماعية . والحضارة - كما يفهما علماء الاجتماع - هى توضيح لتصميم المتاعة البشرية ، ولتنوع الكفاة التى تتضمنه ، واى الاستجابات يجب أن تكافأ . وهى بهذا المعنى وصف للتعلم ، ويكون قبول هذه المناقشة اسر عندما تقارن مجتمعات شديدة الاختلاف بعضها ببعض . ولكن حتى داخل نفس المجتمع ، قد يبدو المتاعات التى يطمحها فردان متطابقة ولكنها تكون بالفعل مختلفة تماما . . ولا يمكن لاي تحليل لشخصية فردين . . ان يكون دقيقا اذا لم يؤخذ في الاعتبار تلك الفروق للحضارية ، اى الفروق في انماط الاستجابات التى كوفئت (ميللر ودولارد ، ١٩٤١ ، ص ٥ - ٦) .

وكما تشير تلك الفقرة ، فان صاحب نظرية التعلم يترى بيانات عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية بامداده بالاسس التى تساعد على التفسير المنظم لاهمية الوقائع الحضارية ، على حين يمد عالم الانثروبولوجيا صاحب نظرية التعلم بما يحتاج اليه من معلومات لتزويد أسسه بالخبرة الفعلية للبشر . وبشكل ما فان وجهة النظر هذه تفترض ان التعريفات الاجرائية للمتغيرات النفسية تصحح مستحيلة دون حكمة وبيانات عالم الانثروبولوجيا .

وهكذا ، فان موقف دلوراد وميللر يسلم بنوع من العمومية عبر الحضارية لاسس التعلم (او لبعضها على الاقل) ولكنه في نفس الوقت يقبل - بل وحتى يؤكد - أن الصيغة الدقيقة للسلوك الذى يبديه فرد معين سوف تتأثر متأثرا هائلا بالمجتمع الذى هو عضو فيه .

مراحل النمو المرحلة :

ويفترض دولارد وميللر أن الصراع اللاشعوري - الذى يتم تعلم الجزء الأكبر منه خلال فترتى المهد والطفولة - يشكل الأساس لأكثر المشاكل الانفعالية شدة فى مراحل الحياة التالية ، وهما يتفان مع أصحاب نظريات التحليل النفسى فى اعتبار أن خبرات السنوات الست الأولى من الحياة بمثابة محددات حاسمة لسلوك الراشد .

ومن المهم أن نؤكد أن الصراع العصابى لا يتعلمه الطفل فحسب بل انه يتم أساسا نتيجة لظروف يخلقها الوالدان . وتنبعث تلك المقدرة الضارة للوالدين على الاسامة الى نمو الطفل من حقيقة أن الموصفات الحضارية المتعلقة بالطفل متناقضة وغير مستمرة كما تنبعت أيضا من حقيقة أن الطفل خلال فترة المهد لا يكون مهيا تماما لمواجهة المتطلبات المعقدة للتعلم حتى لو كانت متسقة . وهكذا فإن المجتمع يتطلب من الطفل أن يتعلم أن يكون عدوانيا فى بعض المواقف وخاضعا فى مواقف أخرى تشبهها الى حد كبير ، وهو تمييز صعب فى أحسن الاحوال . والأسوأ من كل ذلك أن هذه المطالب قد تأتى فى وقت لا يكون الطفل فيه مزودا بجميع الوظائف الرمزية للغة بحيث أن مثل تلك التمييزات قد تتجاوز ببساطة قدرته على التعلم بما يؤدى اليه ذلك من احباط واضطراب انفعالى . وقد تحدث حالة مشابهة لذلك من الظروف الداهية فى الرشد فى ظل ملابس استثنائية كالحرب . وكما يجب أن نتوقع فإن مثل تلك الظروف كثيرا ما تؤدى الى العصاب .

ويمثل العجز البالغ للطفل جانبا هاما فى خبرة الطفولة . ففى فترة المهد أساسا يكون الطفل - بقدر يزيد أو يقل - غير قادر على تناول بيئته وبذلك يكون عرضة لهجمات مثيرات البواعث الممزقة والاحباطات الداهية . وخلال عملية الارتقاء المعتادة سوف يبتكر ميكانيزمات لتحاى المواقف الشديدة الاحباط وفى فترة المهد ليس أمامه اختيار سوى أن يعيش تلك المواقف .

و ليس هناك ما يدعو للدهشة ان نلاحظ الصراعات الانفعالية الحادة خلال الطفولة . فالرضيع لم يتعلم الانتظار لانه لا يعرف اجراءات العالم التى لا مهرب منها ولم يتعلم أن يامل ، أى أن يؤكد لنفسه ان اللحظة السعيدة سوف تعود وان الطرف السيئ سوف يمر ، ولم يتعلم ان يفكر وان يخطط . وبذلك يتفادى من الاضطراب الراهن عن طريق تشييد

المستقبل بطريقة مضمبوطة بل أن الطفل مدفوع في العلاج ويأس ، ولا تخطيط ، يعيش من لحظة لأخرى في ألم مقيم لم يجد نفسه فجأة سابحا في نعيم لا نهائي . فالطفل الصغير يتصف بالضرورة بتقيدان الوجهة ، وبالاضطراب ، والخلط ، وبالواجس والهلوس ، أي أن كديه باختصار لك الاغراض التي تعرفها كدعان لدى الراشد . وفترة المهد يسكن ان ينظر اليها حقيقة بوصفها فترة لثمان انتقال . والبيوعات الفلورية داخل المرشح تدفعه الى الحصل ولاكتيف حلل الجوامت من طريق الاجل او مفهوم الزمن ، ولا تستطيع العمليات العقلية العليا (الأنا) ان تقوم بعملها المحمود في تهدئة وتوجيه الجهد ، ووضع العالم في سياق مخطط . وطى ذلك ظن ما ذهب ان يمرد . والام العالي لم ينطت مطلقا . تلك من الظروف المسطربة التي يمكن ان تخلق لهما الصراحت العقلية اللاشمورية القاسية . ولا يمكن ان تحف وطاة تلك الظروف ذات الطبيعة النجة الناسبة إلا حين يكون الطفل قد علم ان يتكلم وان يفكر على مستوى عال نوما (دولارد وميللر ، ١٩٥٠ ، ١٣٠ - ١٣١) .

ويتفق مع وجهة النظر هذه ، ما ينصح به من أنه خلال المراحل الأولى في الحياة ينبغي أن يكون الدور الرئيسي للوالدين هو الاحتفاظ بثبات البيوعات في مستوى يحتفظ وانه يجب أن يتصف الوالدان بالتسامح والتقبل ولا يفرضوا سوى القليل من مطالب التعلم الى أن تنمو مهارات لغة الطفل .

ويعم التسليم بحقيقة أن كل حضارة تفرض العديد من المطالب على الفرد ليمارس فيها حياة فعالة ، فلن هناك بعضا من تلك المطالب يتميز بقابليته على وجه الخصوص لخلق صراع واضطراب انفعاليين ويحدد دولارد وميللر أربعة من المواقف تكون فيها المواصفات الحضارية - كما يفرضها الوالدان - ذات قابلية خاصة لأن يكون لها نتائج مدمرة على الارتقاء السوي . وتلك المواقف هي ، موقف التغذية في فترة المهد ، وموقف التدريب على الاخراج أو النظافة ، والتدريب الجنسي المبكر ، والتدريب للسيطرة على الغضب والعنوان .

ويرى دولارد وميللر أن تحليلهما لتلك المواقف الصراعية هو إعادة تعبير عن صياغات فرويد في ضوء خطة تصوراتهما الخاصة . ولهذا السبب لن نحاول أن نستعرض هنا كل ما قالاه عن تلك المراحل الحرجة ولكننا ببساطة سوف نعرض باختصار لتحليلهما لموقف التغذية لنوضح استفادتهما من مفاهيم التعلم في هذا المجال . ومن أهم ما ينبغي على القارئ الاحاطة به أن هذه النظرية تفترض أن لتلوجات المبكرة في

الارتقاء أهمية رئيسية في تأثيراتها على السلوك وأنها ترى فضلا عن ذلك أن تلك الوقائع تتسق تماما مع عملية التعلم التي سبق أن حددنا معالمها .

وتعد مشيرات البواعث المرتبطة بالجوع من أوائل المشيرات القوية التي يتعرض لها الفرد . وبالتالي يمكننا أن نتوقع أن يكون للوسائل التي يبتكرها الفرد لتقليل تلك المشيرات أو السيطرة عليها دور هام كنموذج للحيل المستخدمة في الحياة فيما بعد لتخفيف غيرها من مشيرات البواعث القوية . وترى النظرية بهذا المعنى أن موقف التغذية يقوم بدور النموذج ذي النطاق الضيق الذي يحدد جزئيا توافقات الراشد الواسعة النطاق . وهكذا يرى دولارد وميللر أن الطفل الذي يبكي حين يجوع ويجد أن ذلك يؤدي لتناوله الطعام قد يتخذ الخطوات الأولى المؤدية إلى اتجاه نشيط وعمل تجاه خفض الباعث . ومن ناحية أخرى فإن الطفل الذي يترك « ليمزق نفسه بكلام » قد يضع الأساس لرد فعل سلبي لا مبال حيل مشيرات البواعث القوية . فضلا عن ذلك فإنه إذا سمع لمشيرات الجوع أن تتزايد دون حدود فقد يربط الطفل فيما بعد بين مشيرات الجوع المعتدلة وبين المشيرات البالغة القوة الشديدة الأيلام التي سبق أن أحس بها في مناسبات كثيرة ، وبهذه الطريقة قد يصبح مبالغا في استجابته لمشيرات البواعث المعتدلة إلى حد ما أي أن مشيرات الباعث المعتدلة تكتسب قوة باعث ثانوي تعادل مشيرات البواعث البالغية الشدة . ومن الآثار الخطيرة أيضا لترك الطفل يتعرض للمشيرات الشديدة لباعث الجوع أنه قد يبدي على هذا الأساس خوفا من الوحدة ، فإذا كان الطفل يتعرض - عندما يكون وحيدا لمشيرات الجوع البالغة الأيلام ، وإذا كانت تلك المشيرات لا تقل الا عندما يظهر الولدان أخيرا ، فإن ذلك التعزيز القوي (خفض مشيرات الجوع) قد يؤكد الاستجابة التي تسبق ظهور الوالدين مباشرة - أي استجابة الخوف . وهكذا ، حين يصبح الطفل أو الراشد وحيدا في المستقبل ، فإنه سوف يستجيب باستجابة الخوف هذه التي سبق تعزيزها وسوف يعنى نمطا نموذجيا للخوف من الظلام أو الوحدة .

وربما كان أكثر جوانب موقف التغذية أهمية هو ما يليه من نتائج يتوقع أن يكون لها تأثير كبير على مستقبل العلاقات الشخصية المتبادلة . وينبع ذلك من حقيقة أن خبرة التغذية ترتبط بأولى العلاقات الشخصية الحميمة المتبادلة وهي تلك التي بين الأم والطفل . فإذا كانت

التغذية ناجحة وتميزت بخفض الباعث واشباعه فإن الطفل سوف يربط بين تلك الحالة السارة وبين وجود الأم وتصبح تلك العلاقة بفضـل عملية تعميم المثير مرتبطة بالأشخاص الآخرين بحيث يصبح وجودهم هدفا أو ثوابا ثانويا . أما إذا لم يكن موقف التغذية ناجحا أو إذا كان مصحوبا بالألم والغضب فيمكن أن نتوقع العكس . ومن المرجح على وجه الخصوص أن يكون لعملية النظام والاضطرابات الهضمية نتائج سيئة على الطفل حيث أنها تضيء على الموقف ألما وازعاجا ، وتعقد من موقف التعلم الذى يستنفد منذ البداية قدرة الطفل الكاملة .

العمليات اللاشعورية :

سبق أن لاحظنا أن دولاود وميللر يعتبران أن اللغة تلعب دورا حاسما فى نمو الإنسان . ويعد من الطبيعي تماما - تبعا لوجهة النظر هذه أن تلك المحددات اللاشعورية للسلوك أو التى تستبعد اللغة سوف تلعب دورا هاما فى الاضطرابات السلوكية . وتتفق تلك النظرية تماما مع نظريات التحليل النفسى فى قبولها للعوامل اللا شعورية كمحددات هامة للسلوك . إلا أن التفسير الذى يقدمه دولاود وميللر لئشأ تلك العمليات اللاشعورية لا يبدى الا تشابها ضئيلا مع وجهة النظر الفرويدية .

ويمكن تقسيم المحددات اللاشعورية الى تلك التى لم يسبق لها أن كانت شعورية على الإطلاق ، وتلك التى يرغم أنها كانت شعورية ذات يوم فإن ذلك لم يستمر طويلا . وتتضمن المجموعة الأولى كل تلك البواعث ، والاستجابات ، والأدلة التى تم تعلمها قبل ظهور الكلام والتى لم يقدم لها مجتمعا سوى أسماء قليلة أو غير مناسبة . وتتفاسى التسميات الشائعة عن الأدلة والاستجابات المتعلقة بالحركة والاحساس بها ، ولهذا السبب لا يسهل مناقشتها وقد تعتبر لا شعورية الى حد كبير . وبنفس الطريقة ، فهناك مجالات معينة من الخبرات الجنسية أو غيرها من الخبرات المحرمة لا تصحبها عادة تسميات مناسبة ، وبذلك لا تبدو الا قليلا فى المستوى الشعورى . وتتضمن المجموعة الثانية جميع الأدلة والاستجابات التى سبق أن كانت شعورية ولكنها من خلال الكبت لم تعد موجودة فى الشعور . والعملية التضمنة فى المجموعة الأولى واضحة بقدر كاف ، وسوف نكرس انتباهنا لظاهرة الكبت .

الكبت عبارة عن عملية تجنب لأفكار معينة ، ويتم تعلم هذا التجنب ودفعه بنفس الطريقة بالضبط التي يتم بها ذلك بالنسبة لاي استجابة متعلمة أخرى . وفي هذه الحالة ، فإن الاستجابة « بعدم التفكير » **not-thinking** فهي أشياء معينة تؤدي الى التعزيز والى خفض الباعث ويصبح بذلك جزءا أساسيا من الأدوار التي يقوم بها الفرد . وهناك أفكار وذكريات قد اكتسبت القدرة على إثارة الخوف (مثيرات الباعث الثانوية) وتؤدي الاستجابة بعدم التفكير أو التوقف عن التفكير فيها الى خفض مثيرات الخوف وبذلك يتم تعزيز الاستجابة « بعدم التفكير » . وبينما يقوم الفرد - في بداية عملية التعلم بالتفكير أولا في الفعل أو الواقعة المخيفة ثم يعيش ذلك الخوف ثم يترك التفكير بفضل ما ينتج من تعزيز ، فإن استجابة « عدم التفكير » تصبح بعد الخبرة استجابة استباقية وتحدث قبل أن يعيد الفرد فعلا بناء الواقعة أو الرغبة « وعدم التفكير » كاستجابة استباقية لا تبعد الأفكار المثيرة للخوف عن الشعور فحسب ولكنها تصطدم أيضا بعملية الانطفاء العادية حيث أنه اذا لم تحدث الاستجابة فإن انطفائها يكاد يصبح ممكنا حتى ولو اختلف المصدر الأصلي للتعزيز منذ ذلك الحين .

ويعتبر دولارد وميللر أن الكبت يوجد على متصل يمتد من النزعات البسيطة الى عدم التفكير في أشياء معينة الى أشد أنواع تجنب المواد المهددة . وهما يعتبران أيضا أنه من الممكن أرجاع هذه النزعة عموما الى التدريب الذي يحدث في الطفولة والذي يميل الى خلق الخوف من أفكار معينة . وبمجرد أن يظهر الخوف من الفكرة ، فإن عملية الكبت تصبح مفهومة تماما في ضوء التحليل لخفض مثيرات البواعث عن طريق « عدم التفكير » . وكثيرا ما يعاقب الأطفال على استخدام كلمات محرمة معينة ، وبذلك يصبح مجرد الرمز اللفظي المنطوق دون العمل كافيا لإثارة العقاب أو قد يعن الطفل عن رغبته في فعل بعض الأشياء الخاطئة، فيعاقب قبل أن يرتكب أيا منها ، وفي حالات أخرى ، قد يفكر الطفل في أشياء معينة بما لا يعبر عنها حتى لفظيا ولكن الوالدين يستنتجها بالمدق بالمدقة من خلال السلوك المبرر أو غيره من الأدلة ومن ثم يعاقب الطفل عليها . وكثيرا ما يعاقب الطفل على أعمال حدثت في الماضي بحيث أن ما يصحب العقاب هو التفكير في تلك الأفعال وليست الأفعال نفسها . وتنحى كل تلك الخبرات وغيرها الى إقامة تعميم من الفعل أو السلوك الظاهر الذي يؤدي الى العقاب على مجرد التفكير أو التمثيل الرمزي لهذا الفعل . ولا يستطيع الفرد أن يعمم من السلوك الظاهر

لأن التفكير فحسب بل انه يستطیع أيضا أن يميز بين الاثنين . وبعد ذلك بالنسبة للشخص الجيد التوافق عطية بالغة الأهمية والكنافة ، فمثل ذلك الشخص يعرف أن أفكارا معينة يجب عدم التعبير عنها مطلقا في مواقف معينة ولو أنه سوف يشعر بحرية نسبية في معالجة تلك الأفكار بينه وبين نفسه .

ويتوقف الكيب من حيث شموله وشدته على عوامل عديدة من بينها الاختلافات المحتملة في القوة الفطرية لاستجابة الخوف ، ودرجة الاعتماد على الوالدين ، وبالتالي مدى شدة الفزع من فقدان الحب الذي يتعرض له الطفل ، وشدته الصدمات أو المواقف المخيفة التي تعرض لها الطفل .

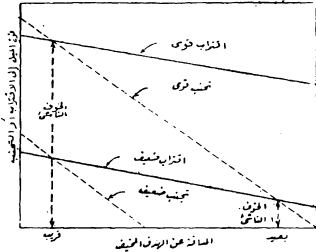
وتتوقف الأهمية الملائمة للشعور على دلالة التسميات اللفظية في عملية التعلم ، وخصوصا بالنسبة لعمل الصلوات للعقلية العليا . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن عطيات التعميم والتمييز يمكن أن تكون أكثر كفاءة بواسطة الرموز اللفظية وأنه إذا ما استجهدت للتسميات فإن المفرد يتصرف بوضوح في مستوى فكري أكثر بدائية . وبذلك يصبح عليه أن يكون أكثر عيانية وارتباطا بالثمر ويصبح سلوكه أشبه بسلوك الطفل أو الكائن الأدنى حيث لا يكون دور وسيط اللغة متطورا إلى حد كبير .

الصراع :

لا يوجد انسان تبلغ تصرفاته من الفعالية إلى حد أن تصبح جميع نزعاته متفقة ومتكاملة تماما . وعلى ذلك فإن على جميع أصحاب نظريات الشخصية أن يتناولوا مباشرة أو بشكل غير مباشر المشكلات التي يواجهها الكائن من خلال تصارع نزعاته أو دوافعه . ويتمثل السلوك الصراعى لدى ميللر ودولارد فى ضوء خمسة افتراضات رئيسية هى امتدادات للمبادئ التى سبق لنا مناقشتها .

فيها يريان **لولا** أن النزعة إلى الاقتراب نحو الهدف تصبح أكثر قوة كلما كان الفرد أكثر قربا من الهدف ويطلق على ذلك مدرج الاقدام **gradient of approach** وهما يريان ثانيا - أن الميل إلى تحاشي المثيرات السلبية يصبح أقوى كلما ازداد الفرد قربا من المثير ويطلق على ذلك مدرج **الأحجام gradient of avoidance** . ومن الممكن اشتقاق تلك الافتراضات من أسس تعميم المثيرات ومدرج التعزيز التى سبق لنا

مناقشتها • والافتراض الثالث هو أن مدرج الاحجام أكثر حدة في انحداره من مدرج الاقدام ويتضمن ذلك أن المعدل الذي تتزايد به نزعات الاحجام بالاقتراب من الهدف أكبر من المعدل الذي تتزايد به نزعات الاقدام في نفس الظروف • ويفترض - قابلاً - أن زيادة الباعث المرتبطة بالاقدام أو الاحجام سوف ترفع من المستوى العام للمدرج • وهكذا فسوف تظل هناك زيادة في قوة الاقدام أو الاحجام بزيادة الاقتراب من الهدف ، ولكن هذه النوعت سوف تصبح حينئذ أكثر قوة في كل مرحلة من مراحل الاقدام • ويفترض - خلاصاً - أنه حينما توجد استجابتان متعلومتان فإن التي هي أقوى تحدث • وتمكن تلك الافتراضات بالإضافة الى المفهومات التي سبق أن ناقشها ميللر ودولارد من التوصل الى تنبؤات فيساً يتطرق بالطريقة التي سوف يستجيب بها الفرد لدى مواجهته بأنواع الصراع المختلفة •



تخطيط يعطل مراحل الصراع نقلاً عن ميللر (١٩٥٩ ص ٢)

ومن أكثر أنواع الصراع أهمية ذلك الذي يتعلق بالتعارض بين نزعات الاقدام والاحجام التي يثيرها نفس الموضوع أو نفس الموقف في آن واحد لو افترضنا أن شاباً أحس بجاذبية شديدة تجاه فتاة ولكنه وجد نفسه مرتبكاً وقلقاً (خائفاً) في وجودها ، وكما تنبئنا الفروض الثلاثة الأولى السلبية ، فإن زوال استجابة الاحجام (البعد عن الفتاة) يكون أكثر حدة من استجابة الاقدام كلما تحرك الشخص بعيداً عن الهدف (الفتاة) ويمثل

ذلك في التخطيط الموجود في الشكل السابق حيث الخطوط المتقطعة التي تمثل استجابات الأحجام تنحدر بزوايا أكثر حدة من الخطوط المتصلة التي تمثل استجابات الأقدام . ومن ثم فإن النزعة الى الاحجام قد تكون أعلى أو أكثر شدة من استجابة الأقدام عندما يكون الفرد قريبا من الهدف (الفتاة) . ولكن حين يعتمد عنها بمسافة معينة (الى ما بعد نقطة تداخل المدرجين كما هو ممثل في التخطيط) فان استجابة الأقدام سوف تصبح أقوى من استجابة الأحجام (بعد أن يترك الفتاة قد يحدثها أو يكتب إليها لترتيب موعد آخر) . ويبدى الفرد قمة تردده وصراعه عند النقطة التي يتداخل فيها المدرجان (ولنقل ، حين يدخل نفس العرفة مع الفتاة) حيث تكون الاستجابتان المتعارضتان متساويتين ومتعادلتين تقريبا . وحين تكون استجابة الأقدام أقوى من استجابة الأحجام فان الفرد سوف يقترب دون صراع ، وبالعكس حين تكون استجابة الأحجام هي التي أقوى . ولن يجد الفرد صعوبة في اصدار استجابة مناسبة الا حين تتساوى الاستجابتان من حيث قوتهمما .

وإذا ما تزايدت قوة أى من استجابة الأقدام ، أو الاحجام فان ذلك سوف يؤثر على رفع المستوى الكلى لذلك المدرج كما هو واضح في التخطيط في الجزء الأعلى من مدرجى الأقدام . وسوف يؤدي ذلك بطبيعة الحال الى نقط مختلفة للتداخل بين المدرجين ، أى أنه اذا ما تزايدت قوة النزعة الى الأقدام فان المدرجين سوف يتداخلان وهما أكثر قربا من الهدف ، ويتضمن ذلك أن الفرد سوف يكون أكثر قربا من الهدف قبل أن يتردد في صراع . وكلما ازداد قربا من الهدف قويت استجابة الاحجام ، واشتد صراعه بالتالي . أى أنه كلما اقترب من الفتاة ، ازداد انزعاجه وارتباكاه . وعلى العكس اذا ضعفت النزعة الى الأقدام (اذا ما كان حبه للفتاة أقل) فانه لن يقترب من الهدف الى هذا الحد قبل أن يتداخل المدرجان (لن يحافظ على مواعده مع الفتاة) وسوف يكون صراعه واضطرابه أضعف لأن شدة استجابات الاحجام واستجابات الأقدام سوف تكون أقل عند هذه النقطة . وإذا ما تزايدت قوة النزعة الى الاحجام (اذا ما تزايد انزعاجه) فسوف يؤدي ذلك الى تداخل المدرجين في نقطة أكثر بعدا عن الهدف (قد يفكر في ترتيب موعد آخر ولكنه لا يرتبه أبدا بالفعل) وبذلك فان شدة الصراع سوف تقل . وعلى العموم فكلما ازدادت نقطة تداخل المدرجين اقترابا من الهدف ، ازدادت قوة النزعتين المتعارضتين وازدادت بالتالي شدة الصراع . وينبئ على المرء أن يلاحظ

انه اذا أمكن زيادة قوة استجابة الاقدام على الهدف الى الحد الذى تصبح فيه أقوى من استجابة الاحجام عنه (ويتمثل ذلك فى الشكل السابق فى مدرجى الاقدام القوى والاحجام الضعيف) فان الفرد سوف يمضى مباشرة الى الهدف وسوف يقضى على الصراع . وهكذا فاذا بلغ التجلبد لغتى نحو الفتاة الحد الذى يمكنه من البقاء فى تقارب وثيق معها حتى بالرغم من شعوره مدم الارتياح فان الصراع سوف يحل فى النهاية .

ونلتقى بالنوع الثانى من انماط الصراع حين يواجه الفرد منافسة بين استجابتى احجام ، فقد يشعر طفل صغير مثلا ، بالخوف من التسلق ، وفى نفس الوقت يرغب فى تحاشى أن يطلق عليه زملاؤه لفظ الجبان . وهكذا فكلما ازداد اقترابا من الهدف الواحد (كلما تسلق الى أعلى) قويت استجابة الاحجام وازداد احتمال تراجعهم . ولكنه ، فى تراجعهم سوف يصبح أقرب الى الهدف الآخر (أن يسمى جباناً) وتتزايد استجابة الاحجام الثانية على حين تقل الاستجابة الاولى . وهكذا يبدى الفرد تذبذباً ، فيتحول اولاً من هدف لآخر ثم يعود الى الاول وهكذا بمعنى انه يتسلق الى ارتفاع معين ثم ينزل . واذا ما تزايدت قوة احدى استجابات الاحجام فان ذلك سوف يغير من نقطة التداخل بحيث يصبح الموقع الذى سوف ينكص فيه الفرد عن هدفه أكثر بعداً . وسوف يزيد ذلك ايضا من شدة الصراع حيث أن قوة كل من المدرجين سوف تزداد عند نقطة التداخل . ومرة أخرى ، اذا قويت احدى الاستجابتين عن الأخرى بالنسبة للهدف ، فان الفرد سوف يستمر ببساطة فى الانسحاب مبتعداً عن الموقف الأكثر اثاراً للخوف حتى يتجاوز الموقف المتعارض وينتهى الصراع : فلما أن يتسلق حتى الارتفاع الضرورى واما أن يقبل حقيقة انه يجب أن يسمى جباناً .

ولا يعتبر ميللر ودولارد التنسازع بين استجابتى اقدام ممثلاً لمشكلة واقعية . فهما يشيران الى أن الفرد بمجرد أن يبدأ فى التحرك نحو أحد الاهداف الابدائية ، فان قوة استجابته سوف تتزايد (تبعاً للافتراض الاول) الى جانب أن الاستجابة المنافسة سوف تتناقص قوتها . وعلى ذلك فان الفرد سوف يمضى مباشرة الى هدفه . وحتى لو بدأ الفرد وهو متوازن تماماً بين الهدفين فان الاختلافات فى الموقف المثير أو داخل الكائن سوف تقلب هذا التوازن قليلاً . وبمجرد حدوث ذلك فسوف يستمر الفرد حينئذ فى التحرك نحو أقرب الاهداف . وحيث يبدو أن الأفراد يعانون صراعاً بين متغيرين ايجابيين تكون هناك دائماً استجابات احجام كامنة أو مختفية تمارس عملها .

ويجب على القارئ للحصول على مزيد من الوصف التفصيل لهذه النظرية في الصراع أن يطلع على كتابات ميللر (١٩٤٤ ، ١٩٥١) حيث سيجد أيضا عددا ملخصا من الدراسات التجريبية التي اختبرت مختلف مشتقات هذا الموقف . وعموما فإن نتيجة تلك الدراسات تقدم دليلا قويا على منفعة النظرية .

البحوث المميزة وطرق البحث :

أورد دولارد وميللر قدرا كبيرا من البحوث التي توضح أو تختبر ما يستنتج من هذا الموقف النظري . وفي مجلدهما **التعلم الاجتماعي والمحاكاة** (١٩٤١) Learning and imitation تلخيص لعدد من الدراسات على الانسان والحيوانات الدنيا وهي تمثل محاولات للتثبت من التنبؤات المنبثقة من نظريتهما . ولقد أجرى ميللر - كما سبق أن أشرنا - عددا من الدراسات التجريبية المتعلقة بمختلف جوانب النظرية ، ولقد ورد تلخيص لكثير منها في فصول كتابيه (ميللر ١٩٤٤ ، ١٩٥١ أ) . وسوف نناقش هنا مجموعة من الدراسات التي تتعلق بمفهوم الاذاحة . ولا تبدي البحوث اهتماما فحسب بعبور الهوة بين نظرية التحليل النفسي ومفومات م - س بل انها تقدم أيضا دليلا تجريبيا على صلاحية عدد من المفومات التي سبق أن ناقشناها .

يشغل مفهوم الاذاحة موقعا رئيسيا في نظرية التحليل النفسي ، حيث يستخدم عادة في الاشارة الى قدرة الكائن على اعادة توجيهه الاستجابات او الدفعات نحو موضوع جديد حين ينكر عليها التعبير نحو موضوعها الاصل . وفي ضوء نظرية دولارد وميللر يمكن تفسير تلك الظاهرة بسهولة تامة من خلال مفهوم تعميم المثير . ولقد حاول ميللر في سلسلة من التجارب ان يتناول الظاهرة التجريبية وأن يوضح استمرار تعميم اذاحة المثير ، وأن يقدم التفسير النظري الذي سوف يسمح بتنبؤات جديدة فيما يتعلق بتلك الوقائع .

ولقد حاول ميللر ويوجسكي Bugelaki (١٩٤٨) في دراسة اولي لهما توضيح الاذاحة لدى الأفراد من البشر . ولقد طبق الباحثان مجموعة من الاستبيانات لتقدير الاتجاهات نحو المكسيكيين واليابانيين على جماعة من الاولاد المنضمين الى معسكر صيفي . ولقد اجبر الاولاد في أثناء ملتهم تلك الاستبيانات على ان يتخلفوا عن مناسبة اجتماعية ذات أهمية بالغة ، ثم تمت مقارنة الاتجاهات التي عبروا عنها نحو جماعات الاقلية قبل وبعد الاجباط . ولقد اوضحت النتائج انه كلن هنالك تزايد

ملحوظ في الاتجاهات السلبية التي عبر عنها الأولاد نحو جماعة الأقلية بعد الاجتياح . ولقد كان تفسير ذلك التزايد في الكراهية هو انه ازاحة للكراهية التي أثارها القائمون بالتجربة بأعاقبتهم الأولاد عن مشاهدة تلك المناسبة الاجتماعية . وبتعبيرات التحليل النفسي ، فقد نقل المفحوصون ما يستشعرونه من كراهية حيال القائمين بالتجربة الى أعضاء جماعة الأقلية ، وفي لغة م - س فانهم قد عمووا الاستجابة من موضوع مثير الى موضوع مثير آخر مشابه له ، وعلى أى حال فقد أوضحت الدراسة أن الظاهرة محل البحث تحدث بين البشر ويمكن خلقها تجريبيا .

ولقد تم توضيح نفس العملية فيما بعد ، باستخدام الفئران البيضاء محل المفحوصين (ميلر ، ١٩٤٨) . فلقد وضع اثنان من الفئران البيضاء في صندوق تتكون أرضيته من شبكة مشحونة كهربيا ، ثم تعرضا لصدمة كهربية قوية تكفى لجعلهما يبدلان محاولات حركية نشيطة للهروب منها ، وقد لاحظ القائم بالتجربة الفأرين من خلال نافذة وحين اقترب كل منهما من الآخر واقفا على قدميه الخلفيتين أوقفت الصدمة فوراً ، وقد تكررت تلك العملية حتى تعلم الحيوان أن يتخذاً بسرعة وضع الوقوف على القدمين حالما يحسان بالصدمة ، ثم تطلب الأمر منهما بعد ذلك أن يضرب كل منهما الآخر قبل أن تتوقف الصدمة واستمرت فترات التدريب هذه حتى تعلم الحيوانان ان يقفا على قدميهما الخلفيتين وأن يضرب كل منهما الآخر بمجرد الاحساس بالصدمة - ولقد كانت الفئران في محاولات الاختبار توضع في قفص مع دمية صغيرة من نفس حجم الفأر ، وقد أبدت الفئران بعد ذلك نزعة الى ضرب تلك الدمية . ولكن في حالة وجود الدمية والفأر الآخر معا كانت كل الفئران تضرب الفأر الآخر أكثر من ضربها الدمية . وتشير تلك النتائج الى أن الاستجابة التي تم تعلمها حيال موضوع مثير قد تنقل أو تزاح الى موضوع آخر ولكن قابليتها للحدوث تصبح أقل عنها حيال الموضوع الاصلى . وبمدنا ذلك بمثال واضح على تعميم المثير وعلى شبيهه لما قد يسميه المحلل النفسي ازاحة .

ويعتقد ميلر أن كلا من نظرية التحليل النفسي ونظرية م - س تفترض أن استجابة معينة قد تعمم ليس فحسب من مثير لآخر بل ايضا من باعث لآخر . ولقد سلم فرويد منذ فترة مبكرة جدا بقدر كبير من القابلية للتغيير المتبادل أو التبادل بين البواعث أو الفرائز ، اما

بالنسبة لأصحاب نظريات م - س فإن البواعث ليست نوعاً واحداً من المثيرات وبالتالي فمن الطبيعي تماماً أن يوجد تعميم للباعث الى جانب تعميم المثير . ولاختبار هذا التنبؤ ، تلقت مجموعة من الفئران تدريباً في ظل دافع العطش على اجتياز ممر وكانت المكافأة هي شرب الماء . ثم قسمت تلك الحيوانات فيما بعد الى مجموعتين كل منهما مرتوية من الماء ، ولكن واحدة منهما محرومة من الطعام والأخرى ممتلئة طعاماً . وكان التنبؤ هو أن استجابة اجتياز المتاهة (التي سبق تعلمها في ظل العطش) سوف تعمم أو تزاح الى باعث الجوع . وبالتالي فإن الفئران الجائعة ينبغي أن تعبر بسرعة أكبر من سرعة الفئران غير الجائعة . ولقد أسفرت نتائج الدراسة عن تأكيد واضح كهذا التنبؤ . ولقد كان من الممكن أيضاً أن يتضح تجريبياً أن استجابة عبور المتاهة التي سبق أن عززت أصلاً بخفض مثيرات باعث العطش قد تلاشت حينما استمرت الحيوانات في عبور المتاهة دون تقليل لمثيرات الباعث . وكان مما يتفق أيضاً مع نظرية م - س ملاحظة أنه بعد أن تلاشت الاستجابة جزئياً فإن فترة خالية من المحاولات يمكن أن تؤدي الى استعادة تلقائية للحالة السابقة أو الى عودة الى مستوى أعلى من امكان الاستجابة . ولقد أقام الباحث أيضاً الدليل على تعميم الاستجابة من باعث الجوع الى بواعث الألم والخوف الأبعد نسبياً . وهذا البعد الكبير بين الخوف والجوع من حيث عدم تشابههما يجعل ذلك وكأنه اختبار أكثر احكاماً من الدراسة السابقة لتعميم الباعث .

وفضلاً عن تلك النتائج التجريبية ، فإن ميلر يدمجها بوصفها مشتقات من سلسلة مكونة من خمسة افتراضات تشبه شبهها وثيقاً تلك التي ناقشناها فيما يتعلق بتحليل الصراع . والفرق الرئيسي بين هاتين المجموعتين من الافتراضات هو أن الافتراضات المنصبة على الصراع تتعلق بالمسافة بين المفحوص والهدف على حين تتركز الافتراضات الحالية حول التشابه بين موضوع المثير الأصلي وموضوعات بديلة معينة .

ويسلم هذا النموذج بحقيقة أنه حينما تحدث الإزاحة فإنه توجد استجابة تنافس الاستجابة المباشرة وتكون أقوى منها . وهكذا فإن استجابة الطفل العدوانية تجاه أبيه لا تبلغ من القوة ما يمكنها من التغلب على استجابة الخوف التي يثيرها نفس الموضوع . ولهذا السبب فإن الطفل لا يستطيع أن يعبر عن عدوانه مباشرة تجاه والده ، وفوق ذلك فإن النموذج يفترض أن الاستجابة المباشرة للمثير الأصلي تعمم الى

المثيرات المشابهة وان الاستجابة المناهضة تبدي نفس التعميم للمثير . وكلما ازداد تشابه المثير الجديد بالمثير الأصلي ازدادت درجة التعميم . ولكن مدرج التعميم بالنسبة للاستجابة المناهضة (الكفوفة) يبطل أو يتناقص بسرعة أكبر من مدرج التعميم بالنسبة للاستجابة المباشرة . وهكذا فبينما قد تكون استجابة المناهضة أقوى بكثير من الاستجابة المباشرة في مواجهة المثير الأصلي ، فإنه حين تعمم الاستجابتان إلى مثيرات على درجة معينة من البعد فقد ينعكس ترتيب القوى بمعنى أن الطفل قد يبدي حبال والده خوفا بدلا من أن يبدي غضبا ولكنه يبدي غضبا من دمية تشبه الوالد بدلا من أن يبدي خوفا .

ولا تسمح تلك الافتراضات باستتقاق الظواهر التجريبية التي سبق أن لخصناها كالازاحة أو تصميم الباعث المثير فحسب ، بل أنها تقودنا أيضا إلى عدد من التنبؤات الإضافية التي يرجع بعضها إلى العلاقات التي لم يكن الوقت بعد لاختيارها تحت ظروف امبيريقية مضبوطة . ولقد أورد ميللر العديد من الدراسات التي تقدم المزيد من الأدلة التجريبية المتصلة بهذه النظرية ، وكان أغلب تلك الأدلة مؤكدا لها (ميللر وكرايكنج Kraeiling ، ١٩٥٢ ، ميللر وموراى ، ١٩٥٢ ، موراى وميللر ، ١٩٥٢) .

ولقد حاول حديثا اثنان من تلامذة ميللر (موراى وبيركن Murray and Berkun ، ١٩٥٥) الجمع بين نظريات الازاحة والصراع واختبرا نتائج معينة لهذا النموذج الأكثر عمومية . ويرى الباحثان ان محاولة تطبيق نظرية الصراع على السلوك الانساني المركب تعاني من عجز النظرية عن تفسير ظاهرة الازاحة . وهكذا فقد وجد موراى (١٩٥٤) أنه من الضروري استخدام كلتا النظريتين : الازاحة والصراع من أجل تفسير النتائج التي حصل عليها حين سجل عدد عسارات الكراهية التي أوردتها أحد المرضى متعلقة بالأب والمم والآخرين (الذين أقل أهمية) خلال ١٥ جلسة متتالية من جلسات العلاج . وكننتيجة لهذه الملاحظة أقام موراى وبيركن نموذجا ثلاثي الأبعاد يجمع بين خصائص نموذجى م - س السابق وضعهما (الصراع والازاحة) . وبفضل هذا النموذج تمكن موراى وبيركن من التنبؤ تنبؤا صحيحا بسلوك الفئران التي دربت أولا على الجرى عبر ممر مع تلقى مكافأة من الطعام ، ثم تعرضت لصدمة كهربية في أثناء تناولها الطعام حتى لم تعد تقرب من الطعام بعد ذلك . وأخيرا تعرضت لمرات أخرى لها أوجه مختلفة

من التشابه مع المر الأصلي . وعموما فقد ازداد اقتراب الفئران من الطعام في المرات البديلة وكانت تفاصيل اقترابها تتفق عموما مع التنبؤات المسبقة التي قدمها النموذج . ولقد طبق المؤلفان النظرية أيضا في عرض تصويرى لبروتوكول جلسة علاجية .

وتؤكد الدراسات التجريبية التي سبق شرحها والتعليقات النظرية التي صحبتها بوضوح تام كيف أن تماسك نظريات وفحوص هؤلاء المنظرين كان أقوى بكثير منه لدى أغلب الباحثين في مجال الشخصية . ولقد رأينا بوضوح أيضا ، تفصيل الدراسات النموذجية التي تتضمن الحيوانات كمسادة للفحص ، ولكن الى جانب دراسات مناسبة تجرى على الانسان وتساعد على عبور الهوة بينهما . ومن الواضح أن تلك الفحوص لم تسهم فحسب في فهم الأزاحة أو تعميم المثير بل أنها أدت أيضا الى عدد كبير من التأكيدات التي يمكن اختبارها والتي حين تتخذ الخطوات الأمبيريقية المناسبة قد تؤدي الى تدعيم فعالية هذه النظرية الى الحد منها .

بعض الصياغات النظرية الأخرى في هذا المجال

لقد اغفلت مناقشتنا حتى الآن العديد من الاسهامات التي قدمها في هذا المجال أفراد آخرون غير دولارد وميللر . وبرغم أننا لا نستطيع أن نأمل أن نوفي تلك الكثرة من الباحثين وأصحاب النظريات حقهم فإنه سوف يكون مجحفا تماما أن نمر دون اشارة الى الجهود الممتازة لروبرت ر. سيرز Robert R. Sears و ا . هوبيرت ماورد O. Hobart Mowrer

لقد كان سيرز عضوا في احدى الجماعات الأولى في معهد العلاقات الإنسانية والتي كانت رائدة في تطبيق نظرية هل على الظواهر الاجتماعية وعلى ظواهر الشخصية ولقد كان واحدا من مؤلفي مجلد **الأحباط والغضب Frustration and aggression** كما أجرى عددا من الدراسات التجريبية بهذه المشكلة (سيرز، ١٩٤١ ، ١٩٥٠ ؛ سيرز ؛ هوفلاند ؛ وميللر ؛ ١٩٤٠ ؛ سيرز وسيرز ١٩٥٠) . وفضلا عن ذلك فقد كان واحدا من أوائل من أبدوا اهتماما جادا في الوصل بين مفاهيم التحليل النفسى ومفاهيم م - س .

ويشمل مقاله بعنوان مسح للدراسات الموضوعية لمفاهيم التحليل النفسي
(١٩٤٣)

Survey of objective studies of psychoanalytic concepts

ونفصل له مشابه في أحد الكتب (سيرز ١٩٤٤) محاولات لتنظيم وتلخيص الأدلة التجريبية المتصلة بنظرية التحليل النفسي . ولقد توجت تلك المقالات بسلسلة من الدراسات التجريبية في هذا المجال ، وقد أجراها بنفسه (سيرز ١٩٣٩ ، ١٩٣٧ ب) . ولقد أجرى مع زملائه وتلامذته خلال السنوات التي عمل فيها أستاذا لعلم نفس الطفل ومديرا لمركز رعاية الطفل في جامعة ايوا ، ثم أستاذا للتربية وعلم نفس الطفل ومديرا لمعمل النمو الانساني في جامعة هارفارد، عددا كبيرا من البحوث التي تركزت حول عملية التنشئة الاجتماعية أو النمو النفسي للطفل . وقد صورت هذه الدراسات في الاطلس الذي تقدمه نظرية م - س . وسوف يظهر الجزء الأكبر من تلك البحوث في مجلد قادم ولكن بعضها قد نشر بالفعل في صورة مقالات في المجلات (سيرز ؛ ١٩٤٨ سيرز ؛ ودافيز وآخرون ١٩٤٨ ؛ سيرز ؛ بنتلر ؛ وسيرز ١٩٤٦ ، هو يتينج ، نوليس ، وسيرز ١٩٥٣ ، سيرز ووايز ١٩٥٠) . وما زالت تلك البحوث مستمرة في جامعة ستانفورد حيث أصبح سيرز منذ ١٩٥٣ رئيسا لقسم علم النفس بها .

ولا تمتاز بحوث سيرز بما تبديه من اهتمام شديد بنمو الطفل فحسب بل أيضا باستمرارها عبر فترة زمنية طويلة وبجميعها المدقق بين الأساليب العملية والمقلية . وهكذا ، فإن أفكاره كثيرا ما استكشفت وطورت داخل حدود المعمل التجريبي ، ولكن كانت هناك في نفس الوقت بحوث عديدة تتضمن دراسات على تجمعات واسمة النطاق ، وتدور غالبا حول فروض صقلت داخل المعمل .

وعموما فإن موقف سيرز النظري يتفق تماما مع نظرية دولارد وميللر ، ولعل أكثر ما أكدته كتاباته النظرية بعدا عن المؤلف هو ما ورد في خطابه الأخير في الجمعية النفسية الأمريكية (سيرز ، ١٩٥١ أ) والذي فصل في توسع الى حد ما في مطبوعات تالية (سيرز ١٩٥١ ب) . وفي هذه الكتابات أشار معترضا على تفضيل علماء النفس لقصر بؤرة اهتمامهم على الفرد المنفرد ، ووفقا للكلمات سيرز فانهم يهتمون بالوحدات الفردية monadic أكثر من اهتمامهم بالوحدات الزوجية dyadic وهو يستخدم هنا تعبير زوج dyad ليشير الى تجمع اثنين أو أكثر.

ويرى سيرز أن علم النفس ينبغي أن يتناول أساسا **الفعل** أو **السلوك** ، وبرغم أن الإدراك والدافعية والعمليات المتخصصة الأخرى قد تلعب دورا حاسما في محاولة تمثيل وتفسير **الفعل** ، فإن عالم النفس ينبغي أن يتذكر أن **الفعل** هو الشيء الحاسم وليس الإدراك ولا غيره من العمليات الوسيطة . ويجب على عالم النفس ألا يتناول **الفعل** فحسب ، بل يجب عليه أيضا أن يكون مستعدا لتناول **الفعل** الاجتماعي - الوقائع السلوكية التي تتضمن شخصية أو أكثر في تفاعل - لأنه يتضمن أكبر القطاعات وأكثرها دلالة في السلوك الإنساني جميعه . وتنبعث تلك الضرورة الاستراتيجية في تناول سلوك العديد من الفاعلين في وقت واحد من حقيقة أن شخصية الفرد تتأثر بالوضع الاجتماعي الذي يوجد فيه ، كما أن شخصية الفرد هذه تؤثر في نفس الوقت على الوقائع الاجتماعية التي يشارك فيها . وتشير هذه النظرة التفاعلية إلى أنه من الضروري ابتكار الوسائل لعبور الفجوة بين المفاهيم المستخدمة في تمثيل شخصية الفرد ، وتلك المستخدمة في تمثيل البيئة الاجتماعية .

وتلك هي النقطة التي يصبح عندها التمييز بين الوحدة الفردية والوحدة الزوجية أمرا حاسما ، وعموما فإن دارسي السلوك يفشلون في محاولاتهم الربط بين الفرد ووسطه الاجتماعي لأنهم يعتمدون في وصفهم للفرد على وحدة لا تتضمن سوى الفرد فحسب - أي وحدة فردية . والصواب أنهم يجب أن يستخدموا الوحدات الزوجية التي تتضمن تمثيلا في نفس الوقت لأفعال فردين أو أكثر . وبعد أن يعلن سيرز التحدي فإنه يمضي في توضيح نمو وحدة زوجية باستخدام المفاهيم المألوفة م - س .

ويبدأ سيرز بالنموذج المألوف م - س لسلوك الفرد المنفرد والذي فيه يواجه الفاعل أدلة ومثيرات باعث فيستجيب بأفعال يكون لها آثار على البيئة وتؤدي بالتالي إلى استجابة الهدف وخفض مثيرات الباعث . ويشير سيرز إلى أن الوقائع البيئية التي أدت إلى استجابة الهدف كثيرا ما تكون عبارة عن استجابات من جانب شخص أو أشخاص آخرين . وهكذا فإن الأم عندما تواجه بطفلها بصرخ فإنها تستغرق في أفعال وظيفية (تحمل الطفل وتدله) سوف تؤدي إذا ما نجحت إلى أن يبتسم الطفل مما يقلل من مثيرات الباعث لدى الأم (الحوف ، والاثم) وبالمثل إذا ما نظرنا إلى المواقف من وجهة نظر الطفل فإن أفعال الأم ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك التالي للطفل ، أي

ان استجابة الام هى التى تسمح بخفض مثيرات الباعث لدى الطفل .
ويتكون الموقف الزوجى اذن - لدى سيرز - من اى حالة يكون فيها
سلوك احد الاشخاص مرتبطا وظيفيا باستجابة شخص آخر . ولا
يدخل سلوك الشخص الآخر فى التابع متصلا بالافعال الوظيفية وتأثيرها
على البيئة فحسب ، بل أنه جزء جوهرى ايضا من الباعث الاول وموقف
الدليل ، ففى المثال السابق رؤية الطفل يصرخ لها وظيفتا الباعث
واندليل لدى الام . وهكذا فان استجابات شخصين أو أكثر قد تكون
- وعادة ما تكون - مرتبطة فى جوانب هامة منذ بداية السلوك وطوال
الطريق حتى النتيجة الناجحة للتابع السلوكى .

ولا يكفى ان نشير ببساطة الى أن تابع استجابات شخصين أو
أكثر يكون مرتبطا ، فمن الواضح ان لتلك العلاقات فى الغالب صفة
محددة البناء دائمة لا يتوقف حدوثها على المصادفة السعيدة المصاحبة
لفعل وظيفى معين اتفق أن صدر كاستجابة من جانب الشخص الآخر
الذى قام مصادفة بدور خفض مثيرات الباعث لدى الفاعل . ان تلك
التفاعلات صفة الاستمرار واتخاذ أنماط معينة مما يكفل الثبات
للعلاقات الشخصية المتبادلة . ويرى سيرز فى محاولة تفسير هذه
الاعتمادية انه فى الموقف النموذجى يتكون لدى الفاعل توقع مؤداه انه
إذا ما سلك بطريقة معينة فسوف يؤدي ذلك الى الواقعة السلوكية
المرغوب فيها (استجابة الآخر) وتعتبر تلك التوقعات ببساطة نوعا
خاصا من الاستجابة الاستباقية للهدف وانها تقوم بدور الاستجابات
المصدرة للأدلة الداخلة فى اثاره الفعل الوظيفى المناسب .

ويصل سيرز بذلك الى تأكيد عام مؤداه ان النظرية الملائمة للسلوك
ينبغى أن تتجه نحو كل من الوحدات الفردية والزوجية للسلوك وان
الانتئين ينبغى أن تتكاملا بشكل ما . وهو يشير اشارة موفقة كذلك الى
ان الوحدات الزوجية يمكن ادخالها دون صعوبة تذكر من خلال التنظير
انتقليدى ل م - س . ويقدم سيرز فى النهاية دليلا واضحا على أنه لا
يمكن فهم ظواهر تجريبية معينة الا فى اطار تصورى زوجى للسلوك .
وان تطوير مثل وجهة النظر هذه الى السلوك وتطبيقاتها التفصيلية
ما زالت مهمة من مهام المستقبل .

ولقد كان ماورر ايضا واحدا من أوائل من شاركوا فى بحوث وبناء
نظريات هيئة معهد العلاقات الانسانية . وبرغم حصوله على درجة
الدكتوراه (١٩٣٣) من جونز هوبكنز Johns Hopkins فانه مضى الى

جامعة ييل بعد ذلك بفترة قصيرة وأمضى ست سنوات هامة في نيوهافن . وقبل سنة ١٩٤٠ وظيفة في جامعة هارفارد حيث قام بالتدريس حتى ١٩٤٨ حين أصبح أستاذا لبحوث علم النفس في جامعة الينوى حيث يوجد حاليا . وهو أيضا أحد مؤلفي مجلد **الإحباط والعصوان** كما شارك أيضا سيرز في اهتمامه المبكر بالوحدة بين التحليل النفسي ونظرية م - س (ماورر ، ١٩٤٠ ، أ ، ماورر وكلاكهون ، ١٩٤٤) . ورغم أن أغلب بحوثه خلال هذه الفترة تتكون من دراسات عملية فقد كانت له ممارسة واحدة على الأقل في المجال الاكلينيكي وذلك في دراسة لمعالجة البوال (ماورر ١٩٣٨ ، ماورر وماورر ١٩٣٨) ولقد كانت أهم مساهماته في اطار نظرية التعزيز هي فكرته عن أن تقليل البواعث الثانوية كالقلق قد تؤدي الى تعزيز الاستجابات كما تؤدي الى تقليل البواعث الأولية سواء بسواء (ماورر ١٩٣٩ ، ١٩٤٠) ولقد ابدى ماورر اخيرا اهتماما كبيرا بسيكولوجية اللغة (ماورر ١٩٥٢ ، ١٩٥٤) ، ماورر وفيك (١٩٤٥) ، وبالعديد من المشكلات الاكلينيكية بما في ذلك العلاج النفسي (ماورر ، ١٩٤٨ ، ١٩٤٩) . وقد انعكس اهتمامه بالعلاج النفسي كأشد ما يكون وضوحا في مجلد حديث اشرف عليه وكتب فيه عدة فصول وهو **بحوث ونظريات العلاج النفسي** (١٩٥٣) *Psychotherapy theory and Research* وقد وردت بالتفصيل جميع المقالات التي سبق أن اشرنا اليها الى جانب غيرها من الدراسات المتعلقة بها في مجلد من المقالات المجمة بعنوان **نظرية التعلم وديناميات الشخصية** (١٩٥٠) .

والاهمية التاريخية لاسهامات ، ماورر في التعلم والدوافع وعمل تلك الدوافع المتعلمة بوصفها معززات ليست محل تساؤل ، بل أن نظرية دولارد وميلر تدبر بالكثير لبحوثه في هذا المجال . وبالمثل فان تحليله للسلوك العصابي في ضوء مفاهيم م - س كان مبتكرا ومهما . ويعتقد ماورر فيما يعتقد أن عدم المنطقية الواضحة في السلوك العصابي قد تعزى الى النقطة الزمنية التي يحدث فيها التعزيز والعقاب تاليا للاستجابة العصابية ، وبذلك فان الفرد اذا ما استغرق في نوع من السلوك المؤدى الى مكافأة صغيرة على الفور والى عقاب كبير فيما بعد فان الاستجابة قد تستبقى نظرا لانتشار الأثر مما يؤدي بتلك الاستجابات التي اقرب الى التعزيز الى أن يصبح تعزيزها أشد قوة . وقد يتلقى الفرد عقابا صغيرا وعاجلا يتبعه ثواب كبير في وقت تال ، وفي هذه الحالة سوف يحاى مدرج التعزيز العقاب العاجل مؤديا بالفرد

الى الاقلاع عن الاستجابة . وهكذا فان عدم الاهتمام البالغ من جانب العصابى بما يترتب على سلوكه يجد تفسيراً له في دور العوامل الزمنية ومدرج التعزيز . وكما قد يتوقع المرء ، فان الدوافع الثانوية كالقلق أو الحوف تلمب دوراً بالغ الأهمية في هذا النوع من مواقف التعلم .

ومع التسليم بأهمية الاسهامات التى أشرنا اليها فان محور اهتمامنا هنا سوف يكون الجهود التى قام بها ماورر (1947 ، 1951) في سبيل تطوير نظرية ثنائية للتعلم . ولقد سبق أن اتفقنا على أن بعض اصحاب نظريات التعلم يؤكدون على التعزيز ، على حين يؤكد آخرون على الاقتران وينتمى ماورر بوصفه تلميذاً لهل الى المجموعة الأولى ، ولكنه بمرور الزمن تخلى عن هذا الموقف ، واخذ بذلك يعمل بنشاط على تدعيم وتطوير موقف تكاملى أو ثنائى .

لقد حاولت خلال عشر سنوات أن اقيم مفهوماً احادياً للتعلم ولكنى اجبرت على الاقلاع عن ذلك . فهناك اعتبارات كالميكانيكية ، وتجريبية ، ومنطقية ، وشائمة ترجح كلها ان هناك عمليتى تعلم مختلفتين ، قد يكون من الافضل الإشارة اليهما بتعلم الحل **solution learning** وتعلم الإشارة **sign learning** ويكتسب المرء في الحالة الاولى نوعة الى الفعل الذى يمد حلاً لمشكلة ما قد تكون باعفاً اولياً أو ثانوياً .. اما في الحالة الثانية فيكتسب الفرد مآخذ يشار اليه بشكل اكثر شمولاً على أنه توقع أو استعداد أو اعتقاد او حالة تهيؤ . ومن خلال هذا النوع الاخير من التعلم تصبح البواعث الثانوية أو الانفعالات مرتبطة بالموضوعات الجديدة وبذلك تخلق « مشكلات » لم تكن موجودة قبلاً . وبمبادرة اخرى فان تعلم الحل انما هو حل للمشكلة وخفض للباعث وحصول على اللذة ، على حين انه كثيراً - بل وربما دائماً - ما يكون تعلم الإشارة أو التشريط صانماً للمشاكل . ويبدو هاتان الصورتان للتعلم مختلفتين من الأساس من حيث نظم التأثير والممرات العصبية المتضمنة في كل منهما ، وكذلك الظروف التى حدث فيها كل منهما (ماورر 1950) .

ان ما يفترضه ماورر هو أن هناك نمطين رئيسيين للتعلم : تعلم الإشارة وتعلم الحل . ويتميز الأول بشموله للجهاز العصبى المستقل ، وأنه يؤدي عادة الى ابدال المثير أو تحويل ارتباطى ، ويشمل الاخير الجهاز العصبى المركزى ويؤدي الى ابدال الاستجابة . والشرط الاولى في حالة تعلم الإشارة هو الارتباط أو الاقتران اما في حالة تعلم الحل فالشرط الاول هو التعزيز أو المكافأة . ويعنيها ضيق الحيز من أن نلخص تفصيلاً الأدلة والحجج التى اوردها ماورر للدفاع عن مفهومه

عن التعلم . الا ان تلك الحجج تتركز حول الصعوبات التي تواجهها النظرية الاحادية للتعزير في تناولها لتعلم الاحجام .

ومن المهم ان يلاحظ المتأريء ان ماورر بعكس ميللر ودولارد ، قد ترك ذلك الموقف النظرى الذى يرتكن تماما الى التعزير ، مفضلا ذلك المفهوم الذى يضم كلا من التعزير والاقتران . وليست تلك بالفكرة الجديدة تماما ، فكل من سكينر (١٩٣٥) وسكولزبرج Scholoberg (١٩٣٧) قد صاغا من قبل نفس الافتراض من حيث الجوهر ، برغم انهما قد فشلا في صياغة وتطوير الفكرة الى الحد الذى وصل اليه ماورر . ولقد أبدى ماورر في أحدث كتاباته (١٩٥٤) بعض مايدل على نقلة نحو ما يسمى بموقف اصحاب نظريات المعرفة ، حيث أشار الى ان التعلم ليس مسألة تشكيل للروابط بين المثير والاستجابة بقدر ما هو ارتقاء « للاتجاهات والمعانى والتوقعات » .

ولاعمال ماورر وسيرز اهمية خاصة لدينا لانها تمدنا ببعض التفسير للعديد من الطرق المختلفة التى قد تتطور اليها نظرية م - س حين تواجهها مشكلات وتطبيقات تجريبية جديدة . ولا يتوفر حاليا البرهان الذى يسمح بالاختيار المحدد بين هذه البدائل النظرية المختلفة . هذا فضلا عن ان موافق ماورر وسيرز لم تكتمل صياغتها بعد بحيث تسمح بالموازنة المنصفه بينها وبين موقف التعزير التقليدى .

الكلمة الراهنة والتقييم :

لقد تم تطبيق مفاهيم م - س على الوقائع السلوكية خارج العمل خلال السنوات الخمس والعشرين او الثلاثين الماضية في الغالب . ولقد تجمع في هذه الفترة قدر بالغ الضخامة من البحوث التجريبية ذات الدلالة ، وفضلا عن ذلك فان عددا من علماء النفس الشباب الكفاء قد اكملوا تدريبهم خلال السنوات الأخيرة - وخاصة في جامعتي ييل وايوا وهم مزودون بالمهارة الفنية والفكر النظرى الضرورىين لزيادة القدر الموجود من مثل تلك الأدلة التجريبية زيادة ضخمة . ولم يشهد الماضى القريب ثورة تجريبية في هذا المجال فحسب بل شهد كذلك ظهور عدد كبير من الأفراد الذين يبدون اهتماما نشيطا بتوسيع وتعديل المفاهيم التى سبقت لنا مناقشتها . وبالإضافة الى دولارد وميللر وماورر وسيرز هناك افراد مثل ج.س براون وإرفين شايلد ، و.أ. فلوير ، وإيرنست هيلجارى ، وجون وايتنج ممن قدموا ويقدمون حاليا

اسهامات نظرية هامة . ويبدو واضحا على العموم ان هذا الفرع من نظرية الشخصية يلقى دعما من مجموعة بالغة القوة من الانتصار وعلى عكس ما يعتقد اوريده الكثيرون من اصحاب النظريات المعرفية او الكلية فليس هناك ثمة تهديد ظاهر بان تلك المدرسة النظرية سوف تندثر في المستقبل القريب نتيجة لعدم المبالاة بها .

ولقد اوضحت مناقشتنا لنظرية وبحوث دولارد وميللر عددا من الحقائق . كما ان المفاهيم الرئيسية في هذه النظرية قد نشرت بوضوح وربط بينها - بشكل عام على الاقل - وبين انواع معينة من الواقع التجريبية . وتتصف كتابات هؤلاء المنظرين بندرة حقيقية في التوريات الغامضة او الرغبة في الحدس . وسوف يجد القارئ الايجابي المتوقد الدهن الكثير في بحوث منظري م - س في علم النفس مما يحظى باعجابهم وفوق ذلك فان تلك الموضوعية الواضحة لا تمنع الكثيرين من اصحاب نظريات م - س من ان يكونوا على استعداد وفي تشوق لاحتواء مدى اوسع من الظواهر التجريبية بادواتهم التصورية . وبرغم ان نظرياتهم قد بدأت في العمل فانهم لم يبدوا تقاسما في التقدم بتلك النظريات نحو اكثر الظواهر السلوكية تعقيدا .

وتبدو ابرز اسهامات نظرية م - س في موضوع الشخصية متضمنة في ذلك التفصيل الدقيق الذي عرضت به النظرية عملية التعلم . ومن الواضح ان تحول السلوك نتيجة للخبرة يعد امرا حاسما لاي نظرية ملائمة للشخصية، ولكن الكثيرين من المنظرين يتجاهلون هذه المشكلة او يعمرون عليها مكتفين بالقليل من العبارات النمطية الجامدة . اما نظرية م - س فانها تقدم في هذا الخصوص نموذجا ليحتذبه اصحاب المواقف النظرية الاخرى .

وان ترحيب دولارد وميللر باستخراج الحكمة من الانثروبولوجيا الاجتماعية والتحليل النفسي الاكينيكي يمثل سمة بارزة اخرى في موقفهما . كما انهما يتفوقان تقريبا على جميع اصحاب النظريات الاخرين الذين ناقشناهم فيما سبق من حيث استخدام المتغيرات الحضارية الاجتماعية بوضوح اكثر ، ولقد رأينا ان نظرياتهم تدين بالكثير لتأثير التحليل النفسي ، وقد يكون الاستعداد والحلق الذي ادخلت به المتغيرات الاجتماعية الحضارية في هذه النظرية مرتبطين بحقيقة ان علماء الانثروبولوجيا الحضارية قد طبقوا تلك النظرية على نطاق اكثر اتساعا من اى نظرية اخرى للشخصية باستثناء التحليل النفسي .

وان ما ابداه اصحاب نظريات م - س بوضوح من تأكيد وظيفة النظرية كموجه للبحث ، ورغبتهم في اخضاع الخلافات النظرية للاختبار التجريبي يمثلان تفوقا حاسما لتلك المجموعة على غالبية اصحاب النظريات الاخرين . وعلى العموم فقد كان لدى هؤلاء المنظرين تذوق لطبيعة ووظيفة النظرية في النطاق التجريبي أفضل من أي مجموعة أخرى من اصحاب نظريات الشخصية . وهم يتميزون في كتاباتهم عن بقية اصحاب النظريات بقلة ما يمكن ملاحظته لديهم نسبيا من الاحيائية أو المجادلات العقيمة حول الكلمات الى جانب زيادة استعدادهم للنظر الى النظريات بوصفها مجموعات من القواعد التي تستخدم فقط حين يثبت أنها اكثر فائدة من مجموعات القواعد الأخرى . وهذا الحلق المنهجي مسئول دون شك عن الوضوح النسبي والكفاءة الشكلية للنظرية . وقد يكون من العدل القول بان هذا الموقف يبدو اقرب ما يكون الى ما يجب أن تكون عليه النظرية من أي نظرية أخرى في الشخصية .

ولقد أصبحت نظرية م - س تشمل بشكل نموذجي المنهج التجريبي الموضوعي في معالجة السلوك الانساني . وبهذا فقد كانت هدفا لنقد الكثيرين من علماء النفس الذين يعتقدون أن الفهم اللائم للسلوك الانساني ينبغي أن يتضمن شيئا أكثر من التطبيق اللبيل للمناهج التجريبية الخاصة بالعلوم الطبيعية . ويشعر هؤلاء النقاد أنه بالرغم من أن مواقفهم النظرية الشخصية قد تكون عرضة للهجوم من حيث أنها تعتمد على الملاحظة التجريبية غير المضبوطة بشكل كاف ، فإن تلك الملاحظات على الأقل على صلة بالوقائع التي يستهدفون تناولها . أما في حالة نظرية م - س فإن كل البحوث الدقيقة لا تتعلق فحسب بالسلوك البسيط أكثر من السلوك المركب ، بل الأهم أنها تتم على سلايات من الحيوانات التي تبعد كثيرا من حيث نشوء النوع عن الكائن البشري وتختلف عنه بوضوح في كثير من الجوانب الهامة . إذن ما جدوى التحديد الدقيق الصارم في الموقف التجريبي اذا كان الباحث سوف يضطر فيما بعد الى صياغة افتراض هزيل عن استمرارية نشوء النوع حتى يتمكن من تطبيق نتائجه على الوقائع الهامة ؟ لقد سبق أن رأينا ان اصحاب نظريات م - س يعتبرون البحوث على الحيوانات مجرد خطوة على الطريق نحو فهم السلوك الانساني وأنهم يسلمون فضلا عن ذلك بأن دراساتهم ينبغي أن تستند في النهاية الى دراسات تجريبية تستخدم أفرادا آدميين وهكذا فإن لدينا هنا اتفاقا جوهريا

فيما يتعلق بأهمية التنسيق بين البحوث وتصبح المشكلة الوحيدة هي الى أى حد يمكن ان نضع ثقة كبيرة في النظريات الى ان يتم اجراء مثل تلك الدراسات بقدر كبير .

وكثيرا ما يوجه نقد آخر الى نظرية م - س يرتبط بالنقد السابق ويزعم أن أغلب الصفات الإيجابية لتلك النظرية بما في ذلك دقة تعريفاتها ووضوحها وخصب بحوثها ، إنما توجد فحسب عند تطبيق النظرية على سلوك الحيوان أو على دوائر ضيقة الحدود من السلوك الإنساني . وحالما تطبق النظرية على السلوك الإنساني المركب فإن شأنها يصبح شأن بقية نظريات الشخصية تماما حيث أن التعريفات المحدودة ، والاستدلال على أساس التشابهات ، تمثل القاعدة وليس الاستثناء . ويفترض هذا النقد أن تلك الكفاءة الصارمة للنظرية إنما هي مجرد وهم حيث أنها توجد فحسب عند تطبيق النظرية في نطاق محدود تماما . وبمجرد أن تعمم النظرية فإن المفهومات التي تبلورت بوضوح تصبح غامضة كما أن التعريفات التي كانت متماسكة تصبح مائعة . ولقد أوضح النقد للملاح الذي أبداه كوش (١٩٥٤) لنظرية هل أن نظرية م - س حتى في إطار حدودها ليست بمنأى عن النقد على أسس شكلية .

وربما كانت أهم الاعتراضات النقدية على هذه النظرية ، والنقطة التي تلتقي عندها جميع أوجه النقد التي أشرنا إليها هو الزعم بأنها لا تقدم تفسيرات مسبقة مناسبة للمثير والاستجابة . فهذان المصطلحان التحليليان يملآن بكفاءة تامة في الكائن المحدود في بيئة مقيدة . أما بالنسبة للكائن الراشد الإنسان والذي في بيئة طبيعية فإن تخصيص المثير لا يمكن أن يتحقق الا بعد توافر فهم مكتمل نسبيا للواقعة السلوكية محل التساؤل . ويمكن أن نشير في ثقة تامة الى أنه اذا استطاع عالم النفس أن يعرف المثير تعريفًا تامًا فإن عمله يكون بالفعل قد وصل الى نهايته ، واذا ما كان الأمر كذلك فانه يعني أن التعريفات اللازمة لنظرية م - س لا يمكن أن تقدم الا بعد الواقعة . واذا كانت النظرية لا يمكن أن تعمل بكفاءة الا على أساس بعدى فمن الواضح ان عموميتها وكفاءتها التنبئية تضاران بذلك كثيرا . ويمكن ان يثار نفس الاعتراض تقريبا بالنسبة لتعريف الاستجابة . ويقتضينا الانصاف أن نذكر لدولارد وميللر أنهما كانا منتهيين تماما لتلك الصعوبة وأنهما حاولا تحسين التعريفات المعتادة ، للمثير والاستجابة (ميللر ودولارد ١٩٤١ ، دولارد وميللر ١٩٥٠) . ولقد أشر ميللر

على سبيل المزاج الى انه من الافضل ان نسمى نظرية م - س - نظرية
الوصلة حيث ان لديها ما تقوله عن الصلة بين المثير والاستجابة اكثر
مما لديها عن أى من المثير او في حد ذاته الاستجابة .

وكما رأينا فان هذه النظرية ليس لديها سوى القليل لتقوله
فيما يتعلق بأبنية الشخصية واكتسابها وهذا هو السبب بلا شك في
ان الكثيرين من اصحاب نظريات م - س قد وجدوا ان نظرية التحليل
النفسى ذات فائدة بالنسبة لتفكيرهم وبحوثهم . ويشير هذا الاعتراض
الى ان نظرية م - س ليست سوى نظرية جزئية حيث انها تتناول
عملية التعلم ولكن في عزلة عن نتائجها . وأين المكونات الثابتة
نسبياً للشخصية تعد عنصراً جوهرياً في محاولة فهم السلوك
الانسانى .

وبالتأكيد فان اكثر الانتقادات ترددا بالنسبة لنظرية م - س
تشير الى تبسيطها وتفتيتها للموقف . ويشعر اصحاب النظريات
الكلية بان النظرية هي في الصميم منهج مجزا ، مفتت ، ذرى في تناول
السلوك ، وهم يزعمون ان ما يرى من سياق السلوك انما هو قدر بالغ
الضآلة بحيث لا يستطيع المرء ان يأمل من خلاله فهم السلوك
الانسانى او التنبؤ به بكفاءة . كما انه ليس هناك أى احساس بأهمية
الكل فضلا عن التفاضى عن تنميط الأجزاء في سبيل فحصها
ميكروسكوبيا . ومن الصعب ان نفرق في خضم تلك الاعتراضات بين
ما هو هجومى وجلبى ووجدانى وبين ما هو جائز ومشروع فكرياً .
وفي معرض الدفاع عن النظرية - فانه من الواضح بالتأكيد انه
لا يوجد في موقف م - س ما يشير الى ان المتغيرات ينبغي ان تعمل
منفردة او في عزلة . بل ان التفاعل المتبادل بين المتغيرات امر مقبول
تماماً ، وبذلك فان هذه الدرجة على الأقل من الكلية تتفق مع النظرية
برغم انها ليست نقطة تأكيد خاص . وفضلاً عن ذلك ففيما يتعلق
بأنماط المتغيرات فانه اذا كان من الممكن تخصيصها بكفاءة ، فليس
هناك ما يدعو النظرية لتجاهل مثل تلك الظواهر . وربما كان محور
هذا الاعتراض هو الاعتقاد بان مجموعة المتغيرات التى يستخدمها
اصحاب نظريات م - س بالغة الصغر والمألوفية بحيث انها لا تصلح
 لتمثيل السلوك الانسانى بكفاءة . ومرة أخرى فذلك امر موكول
للتقدير الشخصى . ومن المستحيل ان نحدد اليوم : هل التقدم
في النهاية سوف يبدأ بشكل أسرع من النموذج المركب الذى يتحرك

نحو التخصيص والتفصيل أو من النموذج البسيط الذى يتحرك نحو الشمولية والتمقيد .

ويشير بعض النقاد الى أن نظرية م - س لا تزيد عن كونها نوعا من تحسين الفطنة الشائعة ، فمن السهل بالنسبة للفرد العادى أن يعتبر السلوك محددًا بسلسلة من العلاقات بين المثير من ناحية والاستجابة من ناحية أخرى . وبالإضافة الى ذلك ، فإن بعض الافتراضات الرئيسية المتضمنة فى تلك النظريات وخصوصا تلك المتعلقة بأهمية التعزيز ، تتفق أيضا مع الافتراضات التى يصل إليها الملاحظ غير المدرب فيما يتعلق بمحددات السلوك . ومع ذلك فمن الصعب قبول ذلك على أنه نقد لأن الفطنة الشائعة فى جوهرها استنتاج لا يتفق مع المقدمات وذلك من حيث تقييم الشخصية . فتقييم النظرية ينبغى أن يركز على ارضيات من الثراء التجريبي وليس على اتفاقها أو عدم اتفاقها مع التصورات المعتادة للسلوك .

والخلاصة ان لنظرية م - س موقفا نظريا أمريكيا خالصا فى كثير من جوانبه . وهو موقف موضوعي ، ووظيفي ، ويضع أهمية كبيرة على البحث التجريبي ولا يهتم الا فى أضيق الحدود بالجانب الذاتى والحدسى فى السلوك الانسانى وهو بذلك يمثل تعارضا صارخا مع الكثير من النظريات التى سبق أن ناقشناها والتى تدين بعمق لعلم النفس الأوروبى ، ومما لا شك فيه أن صرامة تفكيرها وقوتها التجريبية عملت وسوف تظل تعمل فى سبيل تقديم اسهامات فريدة فى هذا المجال من مجالات علم النفس .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Dollard, J., and Miller, N. E. *Personality and psychotherapy: an analysis in terms of learning, thinking and culture*. New York: McGraw, 1950.
- Miller, N. E., and Dollard, J. *Social learning and imitation*. New Haven: Yale Univ. Press, 1941.
- Mowrer, O. H. *Learning theory and personality dynamics*. New York: Ronald Press, 1950.
- Sears, R. R. Social behavior and personality development. In T. Parsons and E. A. Shils (Eds.). *Toward a general theory of action*. Cambridge, Mass.: Harvard Univ. Press, 1951b, pp. 465-476.

REFERENCES

- Davis, A., and Dollard, J. *Children of bondage*. Washington, D.C.: American Council on Education, 1940.
- Dollard, J. *Caste and class in a southern town*. New Haven: Yale Univ. Press, 1937.
- Dollard, J. *Criteria for the life history*. New Haven: Yale Univ. Press, 1938. (Reprinted, New York: Peter Smith, 1949.)
- Dollard, J. *Fear in battle*. New Haven: Yale Univ. Press, 1943.
- Dollard, J., Auld, F., and White, Alice. *Steps in psychotherapy*. New York: Macmillan, 1953.
- Dollard, J., Doob, L. W., Miller, N. E., Mowrer, O. H., and Sears, R. R. *Frustration and aggression*. New Haven: Yale Univ. Press, 1939.
- Dollard, J., and Miller, N. E. *Personality and psychotherapy: an analysis in terms of learning, thinking and culture*. New York: McGraw, 1950.
- Hilgard, E. R. *Theories of learning*. Rev. Ed. New York: Appleton-Century-Crofts, 1956.
- Hull, C. L. *Principles of behavior*. New York: Appleton-Century-Crofts, 1943.
- Hull, C.L. *Essentials of behavior*. New Haven: Yale Univ. Press, 1952.
- Koch, S., Clark L. Hull. In *Modern learning theory*. New York: Appleton-Century-Crofts, 1954, pp. 1-176.
- Meehl, P. E. On the circularity of the law of effect. *Psychol. Bull.* 1950, 47, 52-75.
- Miller, N. E. Experimental studies of conflict. In J. McV. Hunt (Ed.).

- Personality and the behavior disorders*. Vol. 1. New York: Ronald Press, 1944, pp. 431-465.
- Miller, N. E. Theory and experiment relating psychoanalytic displacement to stimulus response generalization. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1948, 43, 155-178.
- Miller, N. E. Learnable drives and rewards. In S. S. Stevens (Ed.), *Handbook of experimental psychology*. New York: Wiley, 1951a, pp. 435-472.
- Miller, N. E. Comments on theoretical models: illustrated by the development of a theory of conflict behavior. *J. Pers.*, 1951b, 20, 81-100.
- Miller, N. E., and Bugelski, R. Minor studies in aggression: II. The influence of frustrations imposed by the in-group on attitudes expressed toward outgroups. *J. Psychol.*, 1948, 25, 437-442.
- Miller, N. E., and Dollard, J. *Social learning and imitation*. New Haven: Yale Univ. Press, 1941.
- Miller, N. E., and Kraeling, Doris. Displacement: greater generalization of approach than avoidance in a generalized approach-avoidance conflict. *J. exp. Psychol.*, 1952, 43, 217-221.
- Miller, N. E., and Murray, E. J. Displacement and conflict; learnable drive as a basis for the steeper gradient of avoidance than of approach. *J. exp. Psychol.*, 1952, 43, 227-231.
- Mowrer, O. H. Apparatus for the study and treatment of enuresis. *Amer. J. Psychol.*, 1938, 51, 163-165.
- Mowrer, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. *Psychol. Rev.*, 1939, 46, 553-566.
- Mowrer, O. H. An experimental analogue of "regression" with incidental observations on "reaction-formation." *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1940a, 35, 56-87.
- Mowrer, O. H. Anxiety reduction and learning. *J. exp. Psychol.*, 1940b, 27, 497-516.
- Mowrer, O. H. On the dual nature of learning—a reinterpretation of "conditioning" and "problem-solving." *Harv. educ. Rev.*, 1947, 17, 102-148.
- Mowrer, O. H. Biological versus moral "frustration" in personality disturbances. *Progressive Educ.*, 1949, 26, 65-69.
- Mowrer, O. H. *Learning theory and personality dynamics*. New York: Ronald Press, 1950.
- Mowrer, O. H. Two-factor learning theory: summary and comment. *Psychol. Rev.*, 1951, 58, 350-354.
- Mowrer, O. H. Speech development in the young child: I. The autism theory of speech development and some clinical applications. *J. Speech Disorders*, 1952, 17, 263-268.
- Mowrer, O. H. *Psychotherapy theory and research*. New York: Ronald Press, 1953.
- Mowrer, O. H. The psychologist looks at language. *Amer. Psychologist*, 1954a, 9, 660-694.

- Mowrer, O. H. Ego psychology, cybernetics, and learning theory. In *Learning theory, personality theory and clinical research*. New York: Wiley, 1954b, pp. 81-90.
- Mowrer, O. H., and Kluckhohn, C. Dynamic theory of personality. In J. McV. Hunt (Ed.). *Personality and the behavior disorders*. Vol. 1. New York: Ronald Press, 1944, pp. 69-135.
- Mowrer, O. H., and Mowrer, W. M. Enuresis: a method for its study and treatment. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 1938, 8, 436-459.
- Mowrer, O. H., and Viek, P. Language and learning: an experimental paradigm. *Harv. educ. Rev.*, 1945, 15, 35-48.
- Murray, E. J. A case study in a behavioral analysis of psychotherapy. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1954, 49, 305-310.
- Murray, E. J., and Berkun, M. M. Displacement as a function of conflict. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1955, 51, 47-56.
- Murray, E. J., and Miller, N.E. Displacement; steeper gradient of generalization of avoidance than of approach with age of habit controlled. *J. exp. Psychol.*, 1952, 43, 222-226.
- Pavlov, I. P. The scientific investigation of the psychical faculties or processes in the higher animals. *Science*, 1906, 24, 613-619.
- Pavlov, I. P. *Conditioned reflexes*. (Trans. by G. V. Anrep.) London: Oxford Univ. Press, 1927.
- Schlosberg, H. The relationship between success and the laws of conditioning. *Psychol. Rev.*, 1937, 44, 379-395.
- Sears, R. R. Experimental studies of projection: I. Attribution of traits. *J. soc. Psychol.*, 1936, 7, 151-163.
- Sears, R. R. Experimental studies of projection: II, Ideas of reference. *J. soc. Psychol.*, 1937a, 8, 389-400.
- Sears, R. R. Initiation of the repression sequence by experienced failure. *J. exp. Psychol.*, 1937b, 20, 570-580.
- Sears, R. R. Non-aggressive reactions to frustration. *Psychol. Rev.*, 1941, 48, 343-346.
- Sears, R. R. *Survey of objective studies of psychoanalytic concepts*. New York: Soc. Sci. Res. Council, Bull. No. 51, 1943.
- Sears, R. R. Experimental analysis of psychoanalytic phenomena. In J. McV. Hunt (Ed.). *Personality and the behavior disorders*. Vol. 1. New York: Ronald Press, 1944, pp. 306-332.
- Sears, R. R. Personality development in contemporary culture. *Proc. Amer. phil. Soc.*, 1948, 92, 363-370.
- Sears, R. R. Relation of fantasy aggression to interpersonal aggression. *Child Developm.*, 1950, 21, 5-6.
- Sears, R. R. A theoretical framework for personality and social behavior. *Amer. Psychologist*, 1951a, 6, 476-482.
- Sears, R. R. Social behavior and personality development. In T. Parsons and E. A. Shils (Eds.). *Toward a general theory of action*. Cambridge, Mass.: Harvard Univ. Press, 1951b, pp. 465-478.

- Sears, R. R., Davis, H. V., et al. Effects of cup, bottle, and breast feeding on oral activities of newborn infants. *Pediatrics*, 1948, 3, 549—558.
- Sears, R. R., Hovland, C. I., and Miller, N. E. Minor studies of aggression: I. Measurement of aggressive behavior. *J. Psychol.*, 1940, 9, 275—294.
- Sears, R. R., Pintler, Margaret H., and Sears, Pauline S. Effect of father separation on pre-school children's doll play aggression. *Child Developm.*, 1946, 17, 219—243.
- Sears, R. R., and Sears, Pauline S. Minor studies of aggression: V. Strength of frustration-reaction as a function of strength of drive. *J. Psychol.*, 1940, 9, 297—300.
- Sears, R. R., Whiting, J. W. M., Nowlis, V., and Sears, Pauline S. Some child-rearing antecedents of aggression and dependency in young children. *Genet. Psychol. Monogr.*, 1953, 47, 135—236.
- Sears, R. R., and Wise, G. M. Relation of cup-feeding in infancy to thumbsucking and the oral drive. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 1950, 20, 123—138.
- Skinner, B. F. Two types of conditioned reflex and a pseudo type. *J. gen. Psychol.*, 1935, 12, 66—77.
- Thorndike, E. L. *Animal intelligence: experimental studies*. New York: Macmillan, 1911.
- Thorndike, E. L. *The fundamentals of learning*. New York: Teachers College, 1932.
- Watson, J. B. The place of the conditioned reflex in psychology. *Psychol. Rev.*, 1916, 23, 89—116.
- Watson, J. B. *Behaviorism*. New York: Norton, 1925.

الفصل الثاني عشر

نظرية الذات عند روجرز

خلال التاريخ الطويل لتساؤل الانسان حول اسباب سلوكه ، وكذلك خلال الفترة التي هي أقصر منذ عام ١٩٦٠ عندما أصبح علم النفس رسميا علما من العلوم ، أثبتت ونوقشت مرارا وتكرارا مسألة الوسيط النفسى الذى ينظم ويرشد ويضبط سلوك الانسان . وربما كان أشهر المفاهيم ذيوغا عن وجود كينونة entity داخلية تصوغ مصير الانسان هو مفهوم الروح ، ووفقا لهذا المفهوم فان الظواهر العقلية تمتبر مظاهر لجوهر معين يختلف كلية عن الجوهر المادى . والروح فى نظر الفكر الدينى خالدة وحررة وذات أصل الهى . وبظهور علم النفس العلمى ظهرت النزعة الى الرفض الحازم لفكرة الروح أو أى وسيط نفسى آخر كالعقل أو الأنا أو الارادة أو الذات .

ولكن خلال السنين الأخيرة عاد الاهتمام بمفهوم الذات الى البروغ بين علماء النفس . فمهد ويليام جيمس بالفصل الشهير الذى كتبه عن الذات فى « مبادئ علم النفس » (١٨٩٠ الفصل العاشر) الطريق للنظريات المعاصرة ، والكثير مما يكتب اليوم عن الذات وإلنا مستمد مباشرة من جيمس ويعرف جيمس الذات أو الأنا التجريبية *Emperical Me* فى أكثر معانيها عمومية بأنها المجموع الكلى لكل ما يستطيع الانسان أن يدعى أنه له - جسده ، سماته ، وقدراته ، ممتلكاته المادية ، أسرته ، أصدقائه ، وأعدائه ، مهنته وهواياته ، والكثير غير ذلك . ويناقش جيمس الذات تحت ثلاثة عناوين :

- ١ - مكوناتها .
- ٢ - مشاعر الذات .
- ٣ - نشاط البحث عن الذات وحفظ الذات .

ومكونات الذات هي ، الذات المادية ، والذات الاجتماعية ، والذات الروحية والأنا الحالصة . وتتكون الذات المادية من ممتلكاته المادية ، وتتكون الذات الاجتماعية من كيف ينظر زملاؤه اليه ، وتتكون الذات الروحية من ملكاته النفسية ونزعاته وميوله . وقد تصارع جيمس مع مفهوم الأنا الحالصة حتى وصل في النهاية أنه بالنسبة لعلم النفس الطبيعي يمكن تعريف الأنا بأنها ذلك التيسار من التفكير الذي يكون احساس المرء بهويته الشخصية .

ولكلمة **الذات** كما تستعمل في علم النفس معنيان متميزان . فهي تعرف من ناحية باتجاهات الشخص ومشاعره عن نفسه ، ومن ناحية أخرى تعتبر مجموعة من العمليات السيكلوجية التي تحكم السلوك والتوافق . ويمكن أن نطلق على المعنى الأول ، **الذات كموضوع self-as-object** حيث أنه يمين اتجاهات الشخص ومشاعره ومدركاته وتقييمه لنفسه كموضوع . وبهذا المعنى تكون الذات فكرة الشخص عن نفسه . ويمكن أن نطلق على المعنى الثاني **الذات - كعملية self-as-process** فالذات هي فاعل بمعنى أنها تتكون من مجموعة نشيطة من العمليات كالتفكير والتذكر والادراك .

ويختلف هذان المفهومان عن الذات اختلافاً متميزاً بحيث يكون من الأفضل أن نوجد تعبيرين منفصلين لهما . وقد درج بعض الكتاب على استعمال تعبير الأنا **Ego** عندما يريدون الإشارة الى مجموعة العمليات النفسية وأن يحتفظوا بتعبير الذات **self** لنظام مفهومات الشخص عن نفسه . إلا أن هذا الاستعمال لا يتبعه الجميع . فأحياناً يستخدم التعبيران : الأنا وذات في عكس المعنى الذي قمناه توا ، وأحياناً يستخدم أحدهما الأنا أو الذات ليشير الى كل من العمليات والموضوع الذي يدرك .

ويجب أن نشير وأن يكون مفهوماً بوضوح أنه لا توجد نظرية حديثة للذات تعتقد وجود وسيط أو عامل **agent** نفسى أو شبيه داخلي **inner manikin** ينظم أفعال الإنسان . فالذات سواء اعتبرت موضوعاً أو عملية أو الاثنين معا ليست انساناً صغيراً بداخلنا أو « شخص داخل الصدر ، أو روحاً ، بل هي تشير الى موضوع العمليات النفسية أو الى تلك العمليات نفسها ، ويفترض أن تلك العمليات يحكمها مبدأ السببية . وبعبارة أخرى فإن الذات ليست مفهوماً ميتافيزيقياً أو دينياً وإنما هي مفهوم يقع داخل دائرة علم النفس العلمى . وتمثل نظرية الذات محاولة جديدة لتفسير بعض الظواهر وأن تصوغ في مفهومات

ملاحظات المرء لبعض نواحي السلوك . وفي اشارتنا للذات بوصفها فاعلا لا نعني بهذا شيئا سوى أنها اسم لمجموعة من العمليات .

وقد رأينا في الفصول السابقة أن عددا من المنظرين في مجال الشخصية قد تركوا مكانا للذات في نظمهم النظرية . وسوف نركز في الفصل الحالي بشكل مباشر على هذا المفهوم ونفحص دوره في نظريات الشخصية الحالية . وقد اخترنا كمينه لهذه النظريات نظرية كارل روجرز لانها اكمل عرض تام النمو لنظرية الذات . فضلا عن ذلك فان روجرز قد دعم افتراضاته بعتاد من الاسانيد التجريبية . وقبل أن نتناول روجرز سنعرض لبعض الأساليب التي استخدمت بها الذات والأنا عند مجموعة مثثلة لعلماء النفس . وسيظهر من هذا العرض الموجز أنه لا يوجد اتفاق عام على طريقة محددة لاستخدام هذين التعبيرين .

عينات من الآراء عن الذات والأنا

Symond's self and ego الذات والأنا عند سيمونز

لعلها نقطة بداية حسنة أن نبدأ بكتاب سيمونز الصغير الأنا والذات (١٩٥١) فهو يعرف الأنا تبعا لنظرية التحليل النفسي - بأنها مجموعة من العمليات هي الإدراك والتفكير والتذكر المستولة عن تطوير وتنفيذ خطة عمل للوصول الى اشباع استجابة للبواعث الداخلية (ص٤) كما يعرف الذات بأنها الأساليب التي يستجيب بها الفرد لنفسه . وتتكون الذات من أربعة جوانب :

- ١ - كيف يدرك الشخص نفسه .
- ٢ - ما يعتقه أنه نفسه .
- ٣ - كيف يقيم نفسه .
- ٤ - كيف يحاول من خلال مختلف الأفعال تعزيز نفسه أو الدفاع عنها . ويشير سيمونز الى أن الشخص ربما لا يكون على وعي بهنه الإدراكات ، والمفهوما والتقييمات، والاستجابات التمييزية أو الدفاعية .

فقد يكون الشخص شعوريا مفهوم عن نفسه على حين قد يكون له رأى مناقض لاشعورى . وربما لا يعى حقيقة أنه يقف موقفا دفاعيا اذا ادرك نفسه بطريقة بعينه . ويحذر سيموندى القارىء من أن يعتبر أن ما يقوله الشخص عن نفسه هو تعبير مضبوط عن حقيقة مشاعره ، ويورد تجارب و.رلف (١٩٣٣ ، ١٩٣٥) وهنتلى (١٩٤٠) التى تبين أن التقييم الشعورى للذات لا يتفق بالضرورة مع التقييم اللاشعورى للذات .

ويعتقد سيموندى وجود تفاعل بين الذات والانا . فاذا كانت عمليات الأنا فعالة فهى مواجهة كل من المطالب الداخلية والواقع الخارجى فان الشخص عندئذ ، يميل الى أن يرى فى نفسه رأيا حسنا . كذلك اذا كان الشخص حسن الظن بنفسه فان عمليات الأنا لديه ستميل الى القيام بوظائفها بفعالية . وعلم أى حال فانه يجب أن تظهر أولا فعالية الأنا قبل أن يستشعر الشخص احترام - الذات أو الثقة فى النفس .

الذات الظاهرية عند سنيج وكومز

Snygg and Combe' Phenomenal self

يعتبر سنيج وكومز من أنصار علم الظاهريات (الفينومينولوجيا) فهما يعتقدان أن السلوك كله بلا استثناء يتحدد ويتعلق بالمجال الظاهرى للكائن القائم بالسلوك (١٩٤٩ ص ١٥) . ويتكون المجال الظاهرى من مجموع الخبرات التى يعانيتها الشخص فى لحظة الفعل . ويتراوح الوعى بين مستوى منخفض ومرتفع ومن المفروض أنه لا بصير ولا شعوريا تاما أبدا . وهما يعتقدان أن على علم النفس أن يقبل الفكرة الشائعة أن الوعى سبب للسلوك وأن ما يمتدده المرء وما يستشعره يتحدد ماسوف يفعله .

وتمايز الذات الظاهرية *phenomenal self* من المجال الظاهرى . وتشتمل تلك الذات الظاهرية على أجزاء المجال انظاهرى الذى يخبره المرء كجزء أو سمة مميزة لنفسه (١٩٤٩ ص ٥٨) . وقد يبدو للوهلة الاولى أن الذات الظاهرية عند سنيج وكومز هى نوع من مفهوم انذات كموضوع الا أن الفحص المدقق يكشف عن أنها موضوع وفاعل فى الوقت نفسه . فهى فاعل لأنها جانب من المجال الظاهرى الذى يحدد السلوك كله . وأنها موضوع أيضا لأنها تتكون من خبرات الذات . ويتضح ذن

أن ذات سنيج وكومز موضوع وعملية في آن واحد . وفي رسالة شخصية الى مؤلفي هذا الكتاب يقرر كومز موقفه فيما يتعلق بالاستخدام الثنائي للذات باعتبارها موضوعا وعملية فيقول « يبدو ذلك لي شيئا ممكنا تماما ، بل انه سمة مميزة لكل ما نعرف في عالم العلم ، أى أن كل تنظيم يتكون من أجزاء معينة على حين يؤثر في الوقت نفسه على التنظيمات الأخرى التي يصطلم بها . فالصخرة تتكون من جزيئات معينة وتكون بذلك ناتجا ، ولكنها بحكم وجودها تؤثر على العالم من حولها أو على العالم الذي تقع فيه وبذلك تكون أيضا عملية أو ديناميكية . وبنفس الطريقة تتكون الذات من ادراكات تتعلق بالفرد . ولهذا التنظيم من الادراكات بدوره آثار حيوية وهامة على سلوك الفرد » .

الذات الذاتية عند لندهورم

Landholm's Subjective Self

ميز لندهورم (١٩٤٠) تمييزا مفيدا بين اللات الذاتية ، والذات الموضوعية . فتنكون الذات الذاتية من تلك الرموز - الكلمات مثلا - التي يعي الفرد بنفسه من خلالها، على حين تتكون الذات الموضوعية من تلك الرموز التي يصف الآخرون الشخص من خلالها . وبعبارة أخرى فإن الذات الذاتية ، هي ما اعتقدته في افسى « والذات الموضوعية » هي ما يعتقدته الآخرون في ويشير لندهورم الى أن صورة الذات الذاتية ليست ثابتة وانما تتسع وتضيق اعتمادا على عوامل مثل التعاون أو الصراع مع الآخرين ودرجة الجهد المطلوب لانجاز مهمة معينة . ولا يذكر لندهورم الأنا مطلقا .

الأنا عند شريف وكانتريل

Sherif and Cantrill's Ego

يصرف شريف وكانتريل في كتابهما الموسوعي « سيكولوجية انشغالات الأنا » ، The psychology of ego-involvements (١٩٤٧) بأنها مجموعة من الاتجاهات من نوع « ما أظنه في نفسي ، ما أقيمه ، ما هو لي

وما أتبعن به ، وهكذا عرفا الأنا بأنها الذات كموضوع وليست الأنا الفاعلة .
 فى نظرية التحليل النفسى . وهما يؤكدان بأنه « خارج تلك المجموعة من
 اتجاهات الأنا لا توجد كينونة entity تدعى الأنا » (١٩٤٧ ، ص ٤) .
 الا أنه بالتضمن تكون الأنا لديهما شيئا أكثر من الذات كموضوع ، لانه
 اذا أصبحت الأنا منشغلة أو مبالية فانها تدفع السلوك . ويمتلىء كتابها
 فى الحقيقة بدراسات ونماذج للأنا - كدافع ويعتقد شريف وكانتريل أنه
 عندما تنشط اتجاهات - الأنا (الذات) فانها تنشط وتوجه وتضبط
 سلوك الانسان . وهناك دوافع اخرى لا أنوية تقوم بنفس العمل ، الا أن
 احدى القضايا الرئيسية فى كتابها هي أن اتجاهات الأنا أكثر فعالية فى
 دفع السلوك من الدوافع الا أنوية الأخرى . فاذا عهد الى شخص بانجاز
 مهمة ما فانه سيقوم بأدائها بطريقة روتينية بدرجة أو بأخرى ما لم تثر
 اتجاهاته الانوية . فاذا أحس مثلا أن المسألة تتعلق باحترامه لذاته فسوف
 يبذل جهدا أكبر . ومن المؤسف - كما يرى أحد من عرضوا ذلك الكتاب
 (شيرز ١٩٤٨) - أن شريف وكانتريل لم يميزا بوضوح أكبر بين الذات
 كموضوع والأنا كعملية .

الذات عند ساربين

Sarbin's Self

يعتبر ساربين (١٩٥٢) الذات بناء معرفيا يتكون من أفكار المرء عن
 مختلف نواحي وجوده . فقد يكون للمرء مفهومات عن جسمه (الذات
 البدنية) وعن أعضاء الحس لديه وبنائه المضلي (الذات المستقبلية - الموردة)
 وعن سلوكه الاجتماعى (الذات الاجتماعية) وتكتسب هذه الذوات ، التى
 تعتبر أبنية تحتية للبناء المعرفى الكلى ، خلال الخبرة وبالتالى يتحدث
 ساربين عنها بوصفها ذوات تجريبية وهو يعتقد أن مختلف الذوات هذه
 تبرز فى تتابع ارتقائى منتظم فالذات البدنية أولا وفى النهاية الذات
 الاجتماعية . ويستخدم ساربين لفظى ذات والأنا بمضهما محل بعض
 ولا يهتم بتطوير نظرية عن الأنا كعملية .

الذات والانا عند برتوش

Bertocci's Self and Ego

بعد أن نقد برتوش أولبورت لاستخدامه لفظ انا بمعنيين كعملية .
وكموضوع للمعرفة (١٩٤٥) دعا الى استخدام تعبيرين مختلفين للمعنيين
الذين عبر عنهما أولبورت بكلمة انا . فيسمى برتوش الأنا كعملية ،
الذات على حين يسمي الذات كموضوع الأنا، وهذا قلب مباشر للمعنى المعتاد
لهذين الاصطلاحين . والذات عند برتوش هي نشاط موحد مركب
للاحساس والتذكر والتصور والادراك والحاجة والشعور والتفكير . وهذه
هي الأنا عند فرويد . ولكن الأنا عند برتوش من ناحية أخرى هي مجموعة
من القيم التي يمكن أن تتجسد في شكل سمات تعين الأنا معها نجاحها .
فالأنا عند برتوش تشبه الأنا عند شريف وكانتريل .

الذات المستخلصة عند هيلجارد

Hilgard's Inferred Self

عندما ألقى هيلجارد خطاب الرئاسة الافتتاحي امام الجمعية
النفسية الامريكية عام ١٩٤٩ ، دعا فيه الى دراسة الذات بوصفها شيئا
لا يمكن الاستغناء عنه للوصول الى فهم كامل لميكانيزمات دفاع الأنا
الفرويدية . فكل هذه الميكانيزمات كما يشير هيلجارد تتضمن احواله الى
الذات . و فان بالذنب فمعناه ان تدرك الذات كوسيط قادر على
الاختيار الحسن والسيء . وهكذا يبدو انه عند النقطة التي يندمج عندها
القلق مع مشاعر الذنب تتدخل الاحاله الى الذات . فاذا اردنا أن نفهم
دفاعات الشخص ضد مشاعر الذنب فيجب أن نعرف شيئا عن صورته عن
نفسه ، (١٩٤٩ ، ص ٣٥٠) وهذا هو ما تعنيه الذات عند هيلجارد -
صورة الانسان عن نفسه .

ويطرح هيلجارد بعدئذ سؤالا هو كيف يمكن للمرء تحديد طبيعة
صورة الذات أو مفهوم - الذات . وهو يرفض أسلوب سؤال الشخص
عما يظنه في نفسه لانه يشعر أن العوامل اللاشعورية يمكن أن تشوه

صورة الذات الواعية • وهو يفضل أن نستنتج أو نستخلص صورة الذات من مادة غير استبطانية مثل الوسائل الاسقاطية والمقابلات الاكلينيكية وما شابه • وتسمى الصورة المستخلصة من مثل هذه المادة الذات المستخلصة •

وقد اعطى هيلجارد فى خطابه مفتاحا قيما لمعرفة السبب فى وجود مفهومين شائعين للذات : الذات كعملية والذات كموضوع • فيقول ان الواقع ان الشخص أميل الى أن يرى نفسه المنفذ الفعلى لسلوكه • فضا يقصده أو يريدته يقوم به • فبالنسبة لرجل الشارع يبدو السلوك شيئا تحده الذات كلية، وهو بالتالى يعتبر نفسه مسئولاً عن أعماله • ويذكرنا هيلجارد بأن فكرة الرجل العادى هذه عن صورة الذات غير دقيقة • فالسلوك ليس نتاجاً للذات ، بل الأخرى أنه نتاج لعمليات سيكولوجية مركبة تنيرها منبهات قريبة وبعيدة لا يعيها الشخص بشكل كبير • ومع ذلك فان علماء النفس يعتقدون خطأ اعتبار ان الذات هى العامل النشط المحدد للسلوك وبالتالى يخلطون بين الذات كفاعل وبين الذات كموضوع •

الذات عند ستيفنسن

Stephanson's Self

يقدم ستيفنسن الى القارىء فى كتابه المثير « دراسة السلوك » (١٩٥٣) منهجا جديدا فى دراسة مفهومات الشخص عن نفسه • وهو - مثله مثل بقية علماء النفس - لا يطبق أى تصور يوحى بوجود وسيط نفسى يحدد السلوك • فهو يعتقد أن الشخص يستطيع أن يفكر ويتحدث عن نفسه مثلما يفكر ويتحدث عن بقية الأشياء ، وأن انعكاسات - الذات هذه هى جزء من سلوكه شأنها شأن أى شيء آخر يقوم به • وقد قدم ستيفنسن الأساس المنطقي والأدوات الاساسية التى يسميها منهجية ك (Q methodology) للدراسة الكمية لانعكاسات - الذات لدى الشخص • وقد استخدم هنا المنهج بتوسع من جانب أنصار نظرية الذات (انظر ص ٤٩١ - ٤٩٦ فى الأصل)

الذات والآخر عند شين

Chen's Self and Ego

دفع خطاب أوليورت عن الأنا في علم النفس المعاصر (١٩٤٣) شين (١٩٤٤) الى محاولة صياغة نظرية موحدة للأنا والذات . فالذات ليست موضوعا للوعى مثل الجسد بل الأخرى أنها محتوى الوعى وليس لها وجود واقعى خارج هذا الوعى . فهى مانعته عندما نستخدم اصطلاح الوعى بالذات . فالذات لا تقوم بأى عمل ، اذ أن ذلك من نصيب الأنا . فالأنا بناء دافعى - معرفى يبنى حول الذات . وتخدم دوافع وافكار الأنا أغراض الدفاع عن الذات وحفظها ومدعها وتعزيزها . فعندما تتعرض الذات لحظر تسارع الأنا الى نجدتها . وعلى أى حال فلا تقع كل دوافع الفرد وافكاره داخل الأنا فهناك جزء لا انوى من الشخصية يحدد الفعل أيضا . ونتيجة لذلك فهناك بعض الافعال تنسفل بها الأنا والبعض الآخر لا تنسفل به .

ويبدو رأى شين عن الذات والأنا متفقاً مع الرأى السائد القائل بأن الذات هى مايمهه الانسان على حين أن الأنا هى مجموعة من العمليات . أما السمة المميزة لوجهة نظره فهى أنه توجد عمليات أخرى تحدد السلوك خارج تلك التى تشملها الأنا . ولا يفصح شين عما اذا كانت تلك العمليات تشابه الهى والأنا الاعلى عند فرويد أو اللاشعور الجمعى عند يونج .

الذات عند ميد

Mead's Self

قدم جورج هيربرت ميد . وهو واحد من أكثر الفلاسفة الاجتماعيين نفوذاً فى هذا القرن ، مفهومها عن الذات كان له وقع قسوى على التفكير السيكولوجى (١٩٣٤) . والذات عند ميد موضوعا للوعى أكثر منها نظاما من العمليات . وهى تنمو بالطريقة التالية . فى البداية لا توجد ذات لان الشخص لا يمكنه الدخول فى خبراته الخاصة مباشرة أى أنه لا يعى بذاته فطريا ، فهو يستطيع أن يخبر الناس كموضوعات ويقوم بذلك بالفعل ولكنه لا يعتبر نفسه ابتداء موضوعا . وعلى أى حال فان الآخرين

يستجيبون له بوصفه موضوعا ، وتخبر هذه الاستجابات بواسطة الشخص الذى توجه اليه . ونتيجة لهذه الخبرات فإنه يتعلم أن يعتبر نفسه موضوعا وتنشأ لديه مشاعر واتجاهات عن نفسه فيستجيب الشخص لذاته كما يستجيب الآخرون لها . فالذات عند ميد هي ذات تكونت اجتماعيا . ولا يمكن لها أن تنشأ الا فى ظروف اجتماعية وحيث توجد اتصالات اجتماعية ، انه يصبح ذاتا فى حدود اتخاذه لاتجاه الآخر والتعامل مع نفسه كما يتعامل الآخرون ، (١٩٣٤ ص ١٧١) .

ويرى ميد أنه يمكن أن تنشأ عدة ذوات تمثل كل منها مجموعة من الاستجابات مستقلة بدرجة أو بأخرى وهكتسبة من مختلف الجماعات الاجتماعية . فقد تنمو لدى الشخص مثلا ذات عائلية تمثل بناء الاتجاهات التى يعبر عن العائلة وذات مدرسية تمثل الاتجاهات المبررة عن معلميه وزملائه . . . وذوات أخرى كثيرة .

الأننا والذات عند كوفكا .

Kofka's Ego and Self

الأننا عند كوفكا (١٩٣٥) جزء منجزل عن المجال الكلى . فهى مدفونه داخل البيئة السلوكية التى تحيط بها والتى تتفاعل معها . وتنفصل الأننا عن المجال الكلى نتيجة للخبرات ذات الطبيعة المتنوعة أو غير المتجانسة . فالشخص يدرك نفسه بوصفه شيئا يحتل المكان بين ما هو أمامه وما هو خلفه . وبين ما هو فوقه وما هو تحته . فالمرء يخبر اذن عدة أنواع من الخبرات بهذه الكينونة entity المنعزلة مكانيا وتلتحم هذه الخبرات بعضها وبعض وفقا لقاعدة القرب لتكون الأننا . وتوجد خبرات لا شعورية مثلما توجد خبرات شعورية . فتكون الخبرات الشعورية الأننا الظاهرية phenomenal Ego وهو الاسم الذى أطلقه كوفكا على مفهوم الذات بوصفها موضوعا .

الا أن كوفكا يوضح فى غير لبس أن الأننا فاعل مثلما هى موضوع . فهى تتكون من نظم من التوترات تتفاعل مع البيئة . وتمزى التغيرات فى السلوك الى « تغيرات فى أنا - المجال الجشطالتيه العظمى » وتشبه الأننا عند كوفكا فى هذه الناحية الشخص عند ليفين ، وهو تشابه يعترف به

كوفكا نفسه • فالأنا بوصفها تنظيمًا يتكون من نظم التوترات تؤدي عملاً • ويعقد كوفكا الصورة بادخال مفهوم آخر هو المنفذ executive • فالمنفذ يضبط السلوك الا أنه منفصل عن الأنا ولا يوضح لنا كوفكا لماذا يكون من الضروري افتراض وجود منفذ الى جانب الأنا •

وبالإضافة الى الأنا التي هي موضوع وعملية الوقت نفسه ، والمنفذ وهو عملية يعترف كوفكا أيضا بوجود ذات • والذات هي لب أو نواة الأنا •

أراء أخرى عن الأنا والذات

ويمكن للقارئ أن يرجع أيضا الى صياغات أخرى عن الأنا والذات وردت في هذا الكتاب لمنظرين آخرين في مجال الشخصية مثل فرويد ، ويونج وآدلر وسوليفان وأولبورت ومورفي وآنجبال وكاتل وموراى •

ويشير هذا العرض الموجز لبعض الآراء الشائعة فيما يتعلق بالذات والأنا ، الى حقيقة أنه لا يوجد اتساق كبير في الطريقة التي يستعمل بها مختلف الكتاب هذين الاصطلاحين ولكم يتمنى المرء أن يكون من الممكن اصدار أمر يحدد تعريف الذات والأنا ويجعل من غير الشرعى استخدامهما بأى معنى آخر الا أنه في عالم العلم ، المر بدرجة أو بأخرى ، لا تحل قضايا الخلاف باصدار أوامر أو وضع قوانين ، فيجب أن يتم الاتفاق بالطريقة التي هي أبطأ وأكثر ديموقراطية وهي المناقشة الحرة والاتفاق المتبادل •

نظرية الذات عند كارل روجرز

يرتبط كارل روجرز في أعين العالم السيكولوجى بطريقة للعلاج النفسى ابتدعها وطورها • ويسمى هذا النوع من العلاج بالعلاج غير الموجه أو العلاج المتمركز - حول - العميل • وبعبارة مبتهمة ، فإن العلاج المتمركز - حول - العميل الذى يتم في الظروف المثلى ••

.. يعنى ان المالم قد تمكن من للدخول في علاقة شخصية وثيقة
وفائية مع ذلك المميل - وهي علاقة ليست كعلاقة العالم بموضوع
دراسته ، ولا كعلاقة الطبيب يتوقع ان يشخص وان يشفى ، وانما هي
علاقة شخص بشخص . انما تعنى ان المالم يحس بان هذا المميل
شخص ذو قيمة في حد ذاته بلا قيد أو شرط ، له قيمة بصرف النظر عن
حالته وسلوكه ومشاعره . انما تعنى ان المالم يستطيع ان يطلق لنفسه
العنان في فهم هذا المميل . وانه لن تمنوه اى موانق داخلية عن الاحساس
بوضع نفسه في مكان للمميل في كل لحظة من لحظات العلاقة . وانه
يستطيع ان يتقل بمضا من هذا الفهم المتناظف الى المميل . انما تعنى
ان المالم قد ارتاح تماما الى اللخول في تلك العلاقة ودون ان يدرى
معرفيا بما ستؤدى اليه مكتفيا بتوفير جو سيجحر المميل ليصبح ذاته .

وبالنسبة للمميل فان هذا العلاج الامثل يعنى استكشافا لشاعر
مجهولة وخطيرة ومتزايدة الغرابة في نفسه ، ولا يصبح هذا الامر ممكنا
الا لان المميل يدرك تدريجيا انه مقبول بلا تيد أو شرط . وهكذا يعرف
على عوامل في خبرته اتركت نيماء مضي على الوعى بوصفها مهددة ومدمرة
لبناء الذات ، فيجد نفسه يخبر هذه الشاعر بكليتها وتماما في العلاقة
بعيث يكون في لحظة هو خوله أو غضبه أو وقته أو قوته . وانه عيشه
لهذه الشاعر الواسعة التنوع بكل درجات شدتها يكتشف انه يخبر
نفسه وانه هو كل تلك الشاعر . ويجد سلوكه ينثر بطريقة بناءة وفقا
لهذه اللات الماشة الجديدة . ويقترب من ادراك انه لم يعد بخلاف
ما ثابى به الخبرة بل يستطيع ان يفتح لها ذراعيه مرحبا كجزء من ذاته
المتفرقة النامية (١٩٥٥ ، ب ص ٢٥٢) (للزيد من الناقشة للسلاج
التمركز حول المميل والبالغة في اصطناعها الطابع الشخصى ارجع الى
دوجرز ١٩٥٥ ج وقد ظهر اكمل مرض له في كتاب « العلاج المتمركز حول
المميل ، ١٩٥١ ، ٢٤ .

ولقد نال العلاج غير الموجه رواجا كبيرا بين المستشارين النفسيين
لانه مرتبط تاريخيا بعلم النفس أكثر من ارتباطه بالطب . ويقال انه من
السهل تعلمه ولا يتطلب لاستخدامه معرفة - أو معرفة فضائية - بتشخيص
الشخصية ودينامياتها . فضلا عن ذلك فان فترة العلاج قصيرة نسبيا
بالموازنة مثلا بالتحليل النفسى ، ويقال ان بعض العملاء قد استفادوا بعد
عدة جلسات علاجية .

وعلى اى حال فان العلاج النفسى ليس محور كتابنا هذا ، وانما
ذكرناه لأن نظرية روجرز فى الشخصية قد نشأت من خبراته كمعالج
بطريقة العلاج المتمركز حول المميل . وقد أمدته ملاحظاته خلال العلاج
بمصدر ثمين من المادة الملاحظة ذات قيمة لا تقدر بالنسبة للدراسة
الشخصية ، (١٩٤٧ ، ص ٣٥٨) . كما أن صياغة نظرية فى الشخصية

قد ساعدت أيضا على الفقاء الضوء على أساليب روجرز العلاجية وتوضيحها .
وقد ولد كارل روجرز في أوك بارك في ولاية إلينوى في ٨ يناير سنة ١٩٠٢ ، وكان الابن الأوسط في عائلة كبيرة مرتبطة بعضها ببعض أشد الارتباط حيث كان العمل الجاد والمسيحية البروتستانتية المحافظة يحترمان على قدم المساواة ، (٢١ ، ١٩٥٥ ، ص ٢) وعندما بلغ كارل الثانية عشرة من عمره انتقلت الأسرة الى مزرعة وأصبح مهتما بالزراعة العلمية . وحمله اهتمامه هذا بالعلم الى الجامعة حيث افتتن في عامه الأول بعلوم الفيزياء والبيولوجيا . وبعد تخرجه من جامعة ويسكونسين عام ١٩٢٤ التحق بحلقة البحث اللاهوتية الاتحادية في نيويورك حيث تعرف على وجهة النظر الفلسفية الليبرالية فيما يتعنى بالدين . وانتقل بعد ذلك الى كلية المعلمين بجامعة كولومبيا حيث وقع تحت تأثير جون ديوى وتعرف على علم النفس الاكلينيكي على يد السيدة ليتا هولنجورث . ونال درجة الماجستير في عام ١٩٢٨ ثم الدكتوراه عام ١٩٣١ من جامعة كولومبيا . وحصل على خبراته العملية الأولى في علم النفس الاكلينيكي والعلاج النفسى بوصفه معالجا مقيما في معهد توجيه الأطفال الذى كان ذا صبغة فرويدية قوية . ويقول روجرز « انه أحس احساسا عميقا بالتناقض الحاد بين التفكير الفرويدى التاملى الى درجة كبيرة فى المهده وبين الآراء الاحصائية والمستقتاة من ثورندايك والتي تلقاها فى كلية المعلمين » (١٩٥٥ ، ١ ، ص ٣) .

وبعد حصوله على الدكتوراه فى علم النفس انضم روجرز الى هيئة العاملين بمركز التوجيه فى روشستر ثم أصبح مديرا له فيما بعد .

« وكان العاملون ممن يعملون على التوفيق بين مختلف الاجامات ومن ذوى الخلفيات المتنوعة ، وكانت مناقشاتنا الكثيرة المستمرة لاساليب العلاج مؤسمة على خبراتنا اليومية فى العمل مع الاطفال والمراهقين والبالغين من مملاتنا . وكان هذا بداية جهد ، وكان معناه بالنسبة لى منذ ذلك الوقت ، ان اكتشف النظام الذى يوجد فى خبراتنا فى العمل مع الناس وكان كتاب « العلاج الاكلينيكي للطفل المشكل » (١٩٢٩) هو نتيجة ذلك الجهد » (١٩٥٥ ، ١ ، ص ٣) .

وتأثر روجرز خلال تلك الفترة بأوتورانك المحلل النفسى الذى كان قد انفصل فى ذلك الوقت عن التعاليم الاصلية لفرويد .

وفى عام ١٩٤٠ قبل روجرز منصب استاذ علم النفس فى جامعة ولاية أوهيو . وكان هذا الانتقال من الجو الاكلينيكي الى البيئة الاكاديمية نقلة عنيفة بالنسبة لروجرز اذ اضطر تحت تأثير ما استثاره من نقد طلابه

وفضولهم العقل الى أن يجعل آراهم في العلاج النفسي أكثر وضوحاً، وهذا هو ما فعله في كتابه « الارشاد والعلاج النفسي » (١٩٤٢) . وفي عام ١٩٤٥ انتقل روجرز الى جامعة شيكاغو أستاذاً لعلم النفس ومسكراً تنفيذياً لمركز الارشاد بها وهو المنصب الذي يشغله الآن . وكان رئيساً للجمعية النفسية الأمريكية عام ١٩٤٦ - ١٩٤٧ .

ويركز روجرز في تقييمه لما اثر على تفكيره على

.. الخبرة اللائنيكية المستمرة مع الافراد الذين يدركون - او يدرك الآخرون - أنهم في حاجة الى عون شخصي . فمثل عام ١٩٢٨ ، ولفترة تقرب الآن من ثلاثين عاماً انفتحت في المتوسط من ١٥ الى ٢٠ ساعة اسبوعياً - فيما عدا العطلات - محاولاً فهم وتقديم المساعدة العلاجية لهؤلاء الافراد . وهم يبدون بالنسبة لي الحافز الأكبر لتفكيرى السيكولوجي . فمن هذه الساعات ومن هذه العلاقات مع هؤلاء الناس حصلت منظم ما قد يكون لدى من استبصار بمعنى العلاج وديناميات العلاقات المتبادلة بين الأشخاص ، وبناء الشخصية وقابليتها بوظائفها (١٩٥٥ ص ٥) .

وتمثل نظرية روجرز في الشخصية توليفة من علم الظاهريات (الفيونيمولوجيا) كما قدمها سنيج وكومز ومن النظرية الكلية والعضوية كما تظهر متطورة في كتابات جولد شتين ، ومازلو ، وأنجيسال ، ومن نظرية سوليفان في العلاقات الشخصية ومن نظرية الذات التي ترجع الى روجرز أساساً ولو أنه يعترف بدينه فيها لرسمى (١٩٤٣) ، وليكى (١٩٤٥) .

وتتلخص التصورات الرئيسية المكونة لنظرية روجرز فيما يلي :

١ - الكائن العضوي organism وهو الفرد بكليته

٢ - المجال الظاهري phenomenal وهو مجموع الخبرة

٣ - الذات وهي الجزء المتميز من المجال الظاهري وتتكون من نطف للدراكات والقيم الشعورية بالنسبة لـ «أنا» و «ذو» المتكلم، Me or I

ويملك الكائن الخصائص الآتية : (أ) أنه يستجيب ككل منظم للمجال الظاهري حتى يشبع حاجاته (ب) أن له دافعا أساسياً واحداً وهو أن يحقق ، وأن يصون ، وأن يميز ذاته (ج) أنه قد يرمز الى خبراته بحيث تصبح شعورية ، أو قد ينكر عليها الرمز بحيث تظل لا شعورية ، أو قد يتجاهلها كلية . وللمجال الظاهري خاصية أن يكون شعورياً أولاً

«شعوريا» وذلك على حسب ما اذا كانت الخبرات التى تكون المجال تحولت الى رموز أم لا .

أما الذات وهى المفهوم النواة فى نظرية روجرز عن الشخصية ، فلها خصائص عديدة منها : (أ) أنها تنمو من تفاعل الكائن مع البيئة (ب) أنها قد تمتص قيم الآخرين وتدرکها بطريقة مشوهة (ج) تنزع الذات الى الاتساق (د) يسلك الكائن بأساليب تتسق مع الذات (هـ) الخبرات التى لا تتسق مع الذات تدرك بوصفها تهديدات (و) قد تتغير الذات نتيجة للنضج والتعلم .

وقد أبرز روجرز طبيعة هذه المفهومات وعلاقتها المتداخلة فى سلسلة من تسع عشرة قضية . وسوف نقدم هذه القضايا ونناقشها بالترتيب الذى قدمها به روجرز فى كتابه «العلاج المتمركز حول العميل» (١٩٥١) .

١ - « يوجد كل فرد فى عالم من الخبرة دائم التغيير ، هو مركزه » (ص ٤٨٣) . « وعالم الخبرة المتغير » هذا هو المجال الظاهرى عند سنيج وكومز ولو أن روجرز لا يفترض مثلهما أن جميع الخبرات تدرك شعوريا وفى الحقيقة فإن روجرز يقرر أن المحتمل أن جزءا صغيرا (فقط) هو الذى يدرك شعوريا (ص ٤٨٣) وتشير كلمة الخبرة الى كل ما يطور بداخل الكائن فى أى لحظة معينة بما فى ذلك العمليات الفسيولوجية ، والانطباعات الحسية ، والنشاطات الحركية . ومعظم خبراتنا اللاشعورية قادرة على أن تصبح شعورية عندما تدعو الحاجة الى ذلك . أى أنها بلغة التحليل النفسى توجد فى القبشعور لافى اللاشعور . ويتكون الشعور عند روجرز مما يمكن ترميزه (تحويله الى رمز) وهى خاصية لشكل المجال الظاهرى الذى تكون خلفيته لا شعورية بدرجة أو بأخرى .

ويعتقد روجرز أن هذا العالم الخاص من الخبرة لا يمكن أن يعرف « بمعنى أصيل وكامل » الا للفرد نفسه . وأن السيكلوجى بأساليبه لتعيين وقياس خواص المثير واختباراته لتقييم الشخصية لا يمكنه أن يعرف المجال الظاهرى للشخص بالشكل الكامل الذى يمكن به للفرد أن يعرفه . وبالطبع فإن الشخص ربما لا ينمى أبدا هذه المعرفة بالذات ولو أن لديه الاستعداد للقيام بذلك .

ووفقا لهذه القضية فإن الشخص هو أحسن مصدر للمعلومات عن نفسه . ولما كانت عباراته ترمز للخبرة الداخلية فإن السيكلوجى

لا يمكنه أن يعلم ما يوجد في عالم عميله الخاص إلا بالاستماع إلى ما يقوله .
وإن موقف العلاج المتمركز - حول - العميل بتأكيد على التسامح والقبول
غير المشروط لكل ما يقوله العميل يوفر جوا مواتيا بشكل خاص للحصول
على تقريرات ذاتية حرة وصريحة .

٣ - « يستجيب الكائن للمجال كما يخبره ويدركه ، وهذا المجال
الإدراكي هو « واقع » بالنسبة للفرد (١٩٥١ ص ٤٨٤) وتؤكد هذه
القضية أن الشخص لا يستجيب للمثيرات الخارجية أو الاضطرابات
الداخلية كما هي وإنما هو يستجيب إلى خبراته عن الظروف الدافعة أو
المثيرة . فالواقع عنده هو ما يظنه الحقيقة بصرف النظر عن احتمال أنه حقيقي
أو غير حقيقي ، وهذا الواقع الذاتي هو الذي يحدد كيف يسلك . وبالتالي
فإن المعرفة بالمثير لا تكفي للتنبؤ بالسلوك إذ يجب أن يعرف المرء كيف
يدرك الشخص المثير . فالمرء لا يستطيع التنبؤ بأن شخصا سيضع ملحا
في قهوته ما لم يكن عالما بأنه يظنه سكرًا . وتفسر لنا هذه القضية أيضا
لماذا يستجيب الناس بطرق مختلفة لنفس الموقف أو بطريقة واحدة لمواقف
مختلفة .

ويعترف روجرز بأن الشخص يميل إلى أن يراجع خبراته بالعالم
على العالم كما هو بالفعل . ويمده اختبار الواقع هذا بمعرفة موثوق بها
عن العالم بحيث يستطيع أن يسلك سلوكا واقعا . ومع ذلك فإن بعض
المدركات تظل غير مختبرة أو تختبر اختبارا غير كاف وتتسبب في أن
يسلك المرء سلوكا غير واقعي يصل إلى حد الأذى وعلى الرغم من أن روجرز
لا يناقش موضوع الواقع « الحقيقي » هذا ، فإنه من الواضح أن لكل
شخص بالضرورة تصورا لمعيار خارجي أو لاشخصي للواقع ، وبدون هذا
المعيار يصبح الشخص عاجزا عن مراجعة صورته الداخلية الخاصة عن
الواقع على الواقع « الموضوعي » . والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف
يتكهن الشخص من أن يفرق بين الصورة الذاتية التي تمثل الواقع تمثيلا
خاطئا وتلك التي تمثله تمثيلا صحيحا . أي كيف يستطيع الإنسان أن
يفصل الحقيقة عن الخيال في عالمه الشخصي ؟ تلك هي المفارقة الكبرى في
الفيونيمولوجيا .

ويزيل روجرز المفارقة بأن يتخلى عن الاطار النظري للفيونيمولوجيا
الحالصة فليس كل ما يخبره الشخص ويعتقده هو الواقع بالنسبة إليه ،
بل هو مجرد فرض عن الواقع موضوع تحت الاختبار ، قد يتحقق وربما
لا يتحقق . ويطلق الفرد الحكم على هذا الفرض حتى تحين له فرصة اختباره .

ولكن ما هو هذا الاختبار ؟ انه مراجعة لدى صحة المعلومات التي تلقاها
 وبنى على أساسها فرضه بمقارنتها بمصادره الأخرى للمعلومات . مثال
 ذلك ، شخص يريد أن يضع ملحا لطعامه ، وأمامه ملاحظتان متشابهتان
 تماما ، تحتوى احدهما ملحا والاخرى فنغلا . ويعتقد هو أن الملاحظة ذات
 العيون الواسعة تحتوى ملحا ولأنه ليس متيقنا تماما ينثر بعضا منها على
 ظهر يده . فإذا كان المتساقط منها أبيض لا اسود فانه يحكم بقدر معقول
 من اليقين أن هذا ملح . وربما كان الشخص أكثر حيلة فلا يكتفى بهذا
 بل يضع بعضا منه على شفتيه فهناك احتمال أن يكون هذا فلغلا أبيض
 وليس ملحا . وليس ما نحن بازائه سوى اختبار لفكرة بناء على معطيات
 حسية متنوعة . فالاختبار مراجعة لمعلومات أقل يقينية على نوع من المعرفة
 أكثر مباشرة . وفي المثال السابق كان الاختبار الأخير هو المذاق ، أى
 نوع خاص من الاحساس حدد هذه المادة بأنها ملح .

٣ - « يستجيب الكائن الحى الى المجال الظاهرى ككل منظم » (١٩٥١)
 (ص ٤٨٦) . وتشير كلمة كل منظم الى مفهوم يؤكد على أهمية دراسة
 الظاهرة من خلال الكائن الحى organismic أو الكل holistic وهو مفهوم
 شاع استخدامه بفعل سيكولوجيا الجشطالت وجولد شتين ، وغيرهم
 ويقصد روجرز حين يستخدم هذه الكلمة أن ينأى بوجهة نظره عن أى
 منهج للبحث يقوم على تجزئة الانسان . وهو يرفض سيكولوجيا المثير -
 الاستجابة ويؤيد السيكولوجيا التي تؤكد أهمية دراسة « الاستجابات
 الكلية المنظمة ، الهادفة » .

« فالكائن الحى بناء منظم على الدوام يعقب التغيير فى احد أجزائه
 تغيير فى كل جزء آخر » (ص ٤٨١) .

٤ - « للكائن الحى نزعة tendency واحدة أساسية هى تحقيق
 وإبقاء وتقوية الكائن الحى الذى يعيش الحيرة » (١٩٥١ ص ٤٨٧) . ولقد
 استعار روجرز هذه القضية من سنيج وكومز وهى تتفق مع فكرة مشابهة
 نجدها فى كتابات انجيل ماسلو . وتقوم هذه الفكرة على دعوى أن الكائن
 الحى نظام واحد دينامى يمد الباعث الواحد فيه تفسيراً كافياً للسلوك
 بأكمله . وتدعى هذه الفكرة أيضا أن الشخصية حين تفصح عن نفسها
 انما تسير وفق الخطوط التى تحددها طبيعة الكائن الحى نفسه . فهناك
 من ناحية ، قوة دافعة واحدة ، وهناك من الناحية الأخرى هدف واحد
 للحياة .

ويحقق الكائن الحى ذاته طبقا للخطوط التى أرستها الوراثة • وهو يتجه فى نضجه نحو قدر أكبر من التمايز والاتساع والاستقلال والمشاركة فى الحياة الاجتماعية وسنرى هذه النزعة الأساسية نحو النمو - نحو قدر أكبر من تحقيق الذات وتوسيع نطاقها - أكثر ما تكون وضوحا اذا لاحظنا الفرد عبر فترة طويلة • فهناك حركة للأمام فى حياة كل شخص ، وهذه النزعة المستمرة هى القسوة الوحيدة التى يمكن أن يعتمد عليها المعالج حقا فى أحداث تحسن فى حالة عميله •

ولا يتم للفرد تحقيق ذاته دون كفاح أو مشقة ولكنه يتصدى للكفاح ويتحمل المشقة لما للدافع الإبداعي للنمو من أثر بالغ القوة عليه • لذلك يتعلم الطفل المشى على الرغم من عثراته الكثيرة فى أول الأمر ، كما يتعلم المراهق الرقص برغم ما يعانیه من خجل وحرَج •

ويضيف روجرز سمة جديدة الى مفهوم النمو حين يبدى ملاحظة مؤداها أن النزعة الى الحركة للأمام لا تؤتى ثمارها دون ادراك واضح للاختيارات ، ودون أن تتحول هذه الاختيارات الى درجة مناسبة من التصور الرمزي • ولا يتيسر للفرد أن يحقق ذاته ما لم يكن قادرا على أن يميز طرائق السلوك التى تؤدى به الى التقدم من تلك التى تؤدى به الى التكويس • فليس فى الفرد صوت داخلى يدل على مسار التقدم ، وليست هناك ضرورة عضوية تقف به الى الأمام بل عليه أن يعرف قبل أن يختار وما ان يعرف حتى يختار طريق النمو ويرفض طريق التكويس •

٥ - « السلوك فى أساسه محاولة موجة نحو هدف هو اشباع الحاجات التى يخبرها الكائن الحى فى مجاله كما يدركه ، (١٩٥١ ، ص ٤٩١) • ولا يناقض هذا الفرض القائل « بـعدة حاجات » فكرة وجود دافع واحد ، فعلى الرغم من وجود حاجات كثيرة فإن كلا منها يخضع للنزعة الأساسية للكائن الحى لصيانة ذاته ودعمها •

ويظل روجرز على تمسكه بوجهة النظر الظاهرية حين يستخدم عبارات وصفية من نوع « كما يخبر » ، « كما تدرك » ، ولكن روجرز فى مناقشته تلك القضية يقر بأن الحاجات تثير سلوكا ملائما حتى ولو لم تخبر هذه الحاجات شعوريا (أى تحولت الى رموز بصورة مناسبة) •

٦ - « يصاحب الانفصال السلوك الموجه نحو هدف ويسهل له مهمته ، بوجه عام ، فيرتبط نوع الانفصال بتلك النواحي من السلوك التى تجد فى الطلب وذلك مقابل النواحي الاستهلاكية للسلوك كما ترتبط شدته بمعنى

الأهمية المدركة للسلوك في الحفاظ على الكائن الحي وتدعيمه ، (١٩٥١ ص ٤٩٣) ، وتمتد هذه القضية على نظرية برسكوت (١٩٣٨) وليبير (١٩٤٨) في الانفعال ، وهي تقرر أن الانفصال ليس عاملا من عوامل الهدم بل هو شيء نافع لتحقيق التوافق . فإذا أخذنا انفعالات الاستثارة وجدنا الغضب مساعدا للفرد على سلوك السعي والكدح ، أما الانفعالات التي أكثر هدوءا مثل الشعور بالرضا فتساعده على الفعل الاستهلاكي لموضوع الهدف . ويدفع الغضب الشخص الى بذل جهد مضاعف من أجل الحصول على الطعام، على حين يسهل الشعور بالرضا مهمة هضم الغذاء الذي أكله الفرد بالفعل . وتباين شدة الانفعال طبقا لما يحمله الموقف من دلالة بالنسبة للفرد . فإذا تهددت حياته بالخطر زادت شدة خوفه ، أما إذا كان الخطر نافها فسيقل خوفه بما يتناسب مع الموقف . ويناقض هذا الرأي نظريات الشخصية التي تركز على الآثار الضارة والموقفة للحصر .

٧ - « ان أحسن موقع ممكن لفهم السلوك هو من خلال الاطار المرجعي الداخلى للفرد نفسه » (١٩٥١ ، ص ٤٩٤) وتبرز هذه القضية ايمان روجرز بتقارير الفرد عن نفسه كمصدر ممتاز للبيانات النفسية . فان محاولة فهم الفرد على أساس من اطار مرجعي خارجي ، أى باستخدام استنتاجات قائمة على نتائج الاختبارات ، أو الملاحظات أو السلوك التعبيري للفرد ، وانعاله ، تعد قاصرة اذا قورنت بتساؤل الفرد من خلال اطاره المرجعي الداخلى الخاص كما يفصح عنه في اتجاهاته ، ومشاعره التي تظهر في موقف العلاج المتمركز - حول - العميل ، وهو موقف يتميز بالتسامح والحلو من التهديد .

ويعترف روجرز بأن تقارير الفرد عن نفسه لا تعطي صورة كاملة لشخصيته أو تكشف عن كل محددات سلوكه . فقد يكون الشخص واعيا بأسباب سلوكه ولكنه لا يستطيع أن يترجم هذه الأسباب الى كلمات تنقل المعنى الذى يقصده منها . وربما لا يكون الفرد واعيا بكل خبراته . وفى مثل هذه الحالة يصبح نقلها الى آخرين أمرا غير ممكن . بل وأكثر من ذلك فقد يكون الفرد واعيا بخبراته وقادرا على التعبير اللفظي عنها سوى أنه لا يريد أن يفعل . وإذا فرض عليه ضغط للدلاء بإجابة عمد الى التويه على من يسأله . وعلى الرغم من هذه العقبات يفضل روجرز استخدام تقارير الفرد عن نفسه كمحاولة لفهم الشخصية والسلوك من خلال اطار الشخص المرجعي الخاص كما يفصح عن نفسه فى الموقف المشجع للعلاج المتمركز - حول - العميل .

وتمتاز القضايا السبع السابقة بأنها ظاهرية في أساسها ؛ وتشير جميعا الى الكائن الحى القائم بالسلوك . أما القضية الثامنة فستضيف مفهوم الذات self وستقوم القضايا التالية عليها بإحكام هذا المفهوم فى شكل سيكولوجيا للذات كاملة تقريبا بدرجة أو بأخرى .

٨ - « يتمايز جزء من المجال الإدراكى الكلى بالتدرج ليكون الذات » (١٩٥١ ؛ ص ٤٩٧) . يتبع روجرز آراء سنيج وكومز فيؤكد أن الذات انظرية تتمايز من المجال الإدراكى الكلى . والذات هى وعى الفرد بوجوده ونشاطه . أو هى بتعبير آخر ، الذات كموضوع أى مجموع الخبرات التى تنسب جميعها الى شئ واحد هو «أنا» أو «ضمير المتكلم» . كيف تتمايز هذه الذات من المجال الكلى ؟ ذلك هو ما تجيب عنه القضية التالية .

٩ - « نتيجة للتفاعل مع البيئة ، ومع الأحكام التقويمية للآخرين بشكل خاص يتكون بناء للذات - نمط تصورى منظم ، مرن ولكن متسق ، من ادراكات وعلاقات ال «أنا» أو «ضمير المتكلم» مع القيم التى ترتبط بهذه المفهومات (١٩٥١ ص ٤٩٨) . ومن بين أنواع التمييز التى يتعلمها الطفل تمييزه لذاته كشيء بارز عن البيئة التى يعيش فيها . وحين يتعلم الطفل هذا التمييز ، يدرك أن بعض الأشياء تخصه على حين ينتمى بعضها الآخر الى البيئة . وكذلك يشرع فى بناء تصور خاص عن نفسه فى علاقته بالبيئة . وتخلع على هذه الخبرات قيمة ، قد تكون فى طبيعتها ايجابية « أحبها » أو سلبية « لا أحبها » وعندئذ يصبح بناء الذات « صورة منظمة قائمة فى الوعى كشكل (شعور واضح) أو كإرضية (غامضة أو لاشعور) للذات وللذات فى علاقة (بالبيئة) وللقيم الإيجابية أو السلبية التى ترتبط بهذه الصفات والعلاقات التى تدرك بوصفها موجودة فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل » (١٩٥١ ، ص ٥٠١) .

ولا تضاف القيم الى صورة الذات كنتيجة للخبرة المباشرة بالبيئة فحسب بل قد تؤخذ هذه القيم عن الآخرين ويدركها الشخص كما لو كان قد خبرها مباشرة بنفسه . ويعطى روجرز اهتماما خاصا لهذا النوع من الاستمماج أو التمثل لدرجة أن جعل منه موضوعا خاصا لقضية مفردة .

١٠ - « القيم المرتبطة بالخبرات والقيم التى تشكل جزءا من بناء الذات هى فى بعض الحالات قيم يخبرها الكائن الحى بصورة مباشرة ، وفى بعض الحالات قيم يستمدجها أو يأخذها عن آخرين ولكن تدرك

بطريقة مشوهة كما لو كانت قد خبرت بطريقة مباشرة ، (١٩٥١ ص ٤٩٨)
ويجد الطفل متعة في اتيان أفعال كثيرة يثيبه والدها على بعضها ويعاقبها
على بعضها الآخر . ويعانى الطفل الذى عاقبه والدها على فعل يراه مصدر
لذة صراعا بين رغبة في اجتلاب اللذة ورغبة في تجنب الألم . وكل هذا
الصراع قد يضطر الطفل الى مراجعة صورة ذاته ومجموعة القيم لديه ،
وتؤدى هذه المراجعة الى تشويه قيم الطفل ومشاعره . وهو ما نراه مائلا
في الحالة التالية : صبي يرى صورة لذاته انه ولد طيب ومحسوب من
والديه ولكن هذا لا يمنعه من الاستمتاع بتعذيب اخته الصغرى التى
يعاقب بسببها . ونتيجة لهذا العقاب يجد الطفل نفسه مضطرا لمراجعة
صورة ذاته وقيمه متبعا في ذلك احدى الطرق الآتية :

(أ) « أنا ولد شرير » .

(ب) « لا يحبني والداي » .

(ج) « لا أحب أن أضايق أختي » .

وقد يتضمن أى من هذه الاتجاهات نحو الذات تشويها للحقيقة .
فإذا فرضنا أنه تمسك باتجاه « لا أحب أن أضايق أختي » فإنه يكون قد
أنكر حقيقة شعوره . ولا يعنى الانكار توقفا فعليا لهذه المشاعر ، فلابد
أنها ستسمر فى التأثير على سلوكه بطرق متعددة حتى ولو لم تكن
شعورية . وسوف ينشأ حينئذ صراع بين قيمه المستدمجة الشمورية
الزائفة التى يدعيها وقيمه الأصيلة واللاشعورية . وإذا تزايدت « القيم
الحقيقية » التى تستبدل لدى الفرد بقيم مستعارة أو مأخوذة عن آخرين ،
ولكن تدرك فى نفس الوقت وكأنها تخصه تصبح الذات وكأنها بيت
انقسم على نفسه . وسيشعر هذا الفرد بالتوتر والضيق وبأنه ليس على
سجيته . وبخالفه شعور بأنه لم يعد يعرف حقيقة نفسه أو رغباته .

ويشير روجرز الى أن حدة هذا الصراع بين القيم يخف بتقبل
الوالدين لقيم طفلها ، ولو كانا لا يوافقانه عليها . وفى مثل هذه الحالة
لا يتعرض الطفل للشعور بفقدانه الأمن نتيجة لتبنيه ، اذ يختفى كل تهديد
لصورة ذاته ، ويصبح بإمكانه أن ينمى « ذاتا صحيحة البناء خالية من كل
انكار أو تشويه للخبرات » (١٩٥١ ص ٥٠٣) .

١١ - تتحول خبرات الفرد التى تحدث له فى حياته :

(أ) الى صورة رمزية تدرك وتنظم فى علاقة ما مع الذات .

(ب) يتجاهلها الفرد حيث لا تدرك لها علاقة ببناء الذات .

(ج) يحال بينها وبين الوصول الى صورة رمزية أو تطمى لها صسورة

رمزية مشوهة لأنها لا تتسق مع بناء الذات (١٩٥١ ص ٥٠٣) .

وتسلم هذه القضية بأن الإدراك انتقائي ويتحدد هذا الانتقاء بحكم أساسى هو مدى اتساق الخبرة مع صورة الذات لدى الفرد فى أثناء عملية الإدراك . فعندما تتضمن صورة الذات فى لحظة ما شعورا بالجووع فإن الفرد سوف ينتقى من بين جميع المثيرات التى تمارس أثرها عليه تلك المتعلقة بأشباع جوعه ، ويتجاهل المثيرات الأخرى . وبعبارة أخرى فإن بناء الذات الحالى هو الذى يحدد نوع الخبرات التى يمكن أن تقبل .

ولا يتساوى انكار الخبرة مع رفضها . فالانكار تزييف للواقع سواء كان ذلك بالقول بانعدامه أم بإدراكه بصورة مشوهة . فقد ينكر الفرد مشاعره العدوانية لأنها لا تتفق مع صورته عن نفسه بوصفه انسانا مسالما ودودا . وفى مثل هذه الحالة تعبر المشاعر التى إنكرها هذا الشخص على نفسه عن طريق التصوير الرمزى ، المشوه ، مثل اسقاط هذه المشاعر على آخرين . ويقول روجرز ان اللسان يصرون غالبا على حفظ ودعم صورة للذات تختلف اختلافا كاملا عن الواقع . كذلك الحال بالنسبة للشخص الذى يرى نفسه انسانا عديم القيمة اذ يعمل على ابعاد أى دليل يناقض هذه الصورة عن وعيه ، أو يعيد تفسيره حتى يتفق مع شعوره بتفاهته . فاذا منح علاوة فى عمله قال « ان رئيسى يشفق على » أو « انى لا أستحقها » بل قد يصل الأمر بأشخاص آخرين الى أداء ردىء لهم المنصب الجديد حتى يثبتوا لأنفسهم ولمن حولهم ان لا نفع فيهم .

ولكن كيف يتسنى لفرد أن ينكر تهديدا لصورة ذاته دون أن يعي أولا بهذا التهديد ؟ يجيب روجرز بأن هناك مستويات للتمييز تحت مستوى التعرف الشعورى ، وقد يدرك الموضوع المههد ادراكا ولا شعوريا أو ادراكا ناقصا Subcepted . على حد تعبير لازارس وماكليرى (١٩٤٩) - قبل أن يدرك . ويحدث الموضوع أو الموقف المههد ردود أفعال حشوية مثل زيادة ضربات القلب التى يخبرها الفرد شعوريا كاحساسات بالحصر وان ظل عاجزا عن تحديد سبب الاضطراب . وتؤدى مشاعر الحصر الى تنشيط ميكانيزم الانكار أو الكبت اللذين يعملان على منع الخبرة المهدة من بلوغ مرتبة الوعى .

١٢ - « تتسق معظم الطرق التي يختارها الفرد لسلوكه مع مفهومه عن نفسه » (١٩٥٦ ص ٥٠٧) وتمثل هذه القضية المحور الأساسي لكتاب ليكي الصغير « اتساق الذات » (١٩٤٥) ، الذي ناقشناه في الفصل الخاص بالنظرية العضوية . وإذا صدقت هذه القضية ، فإن أحسن طريقة لاجتياز تعديل في السلوك يكون باحداث تغيير في مفهوم الذات وهذا هو ما تحاوله نظرية العلاج المتمركز - حول - العميل . فالعلاج المتمركز - حول - العميل علاج متمركز حول الذات .

١٣ - « قد يصدر السلوك عن خبرات وحاجات عضوية لم تصل الى مستوى التعبير الرمزي . وربما لا يتسق هذا السلوك مع بناء الذات ، وفي مثل هذه الحالات لا يكون السلوك منتميا للفرد » (١٩٥١ ، ص ٥٠٩) وتعد هذه القضية تكملة ضرورية للقضية السابقة لان جزاء من سلوك الفرد يتناقض تناقضا واضحا مع بناء الذات لديه . وعندما يخرج شخص ما على اتساق الذات هذا ، نجده مدفوعا لأن يقول « لقد خرجت عن طوري ، أو لم يكن هذا خليقي » أو « لماذا أقدمت على هذا ، أو « لابد أن شيئا » قد داخلني ، أو « لقد فعلت هذا رغما عن نفسي ، ومعنى هذا أنه يعلنا عدم صدور هذا السلوك عنه ضمانا للابقاء على صورة من اتساق الذات .

وعندما نأخذ القضيتين ١٢ - ١٣ مما في اعتبارنا ، يتبين لنا أن روجرز يبرز وجود جهازين لتنظيم السلوك ، الذات والكائن الحي . وقد يعمل هذان الجهازان مما في انسجام وتعاون أو يعارض كل منهما الآخر فتكون النتيجة توترا وسوء تكيف كما سنتبين في القضية ١٤ ، أما اذا عملا مما فستكون النتيجة تكيفا صحيحا كما تبين القضية ١٥ .

١٤ - « ينشأ سوء التوافق النفسي حين يمتنع الكائن الحي عندما من خبراته الحسية والمشوية ذات الدلالة من بلوغ مرتبة الوعي ، ويؤدي هذا بدوره الى الحيلولة دون تحول هذه الخبرات الى صور رمزية والى عدم انتظامها في جشطات بناء الذات ، ويسبب مثل هذا الموقف قدرا كبيرا أو أساسيا من التوتر النفسي » (١٩٥١ ، ص ٥١٠) .

١٥ - « يتوفر التوافق النفسي عندما يصبح مفهوم الذات في وضع يسمح لكل الخبرات الحسية والمشوية للكائن الحي بأن تصبح ممثلة في مستوى رمزي وعلى علاقة ثابتة ومتسقة مع مفهوم الذات » (١٩٥١ ص ٥١٣) .

فكما أن لفرويد هو وأنا ، وليونج شعور ولا شعور ، فإن لروجرز أيضا جهازين هما الكائن الحى والذات ، وقد يعارض كل منهما الآخر . وقد يمنع الكائن الحى بعض الخبرات التى لا تتسق مع الذات من أن تصبح شعورية كما أن الذات لديها القدرة على اختيار الخبرات التى تتسق مع بنائها . اما نتائج هذه القسمة الثنائية الكائن الحى - الذات والتعارض بينهما فيتضح فى القضية التالية .

١٦ - « تدرك أى خبرة لا تتسق مع تنظيم أو بناء الذات كتهديد ، وكلما زاد هذا النوع من المدركات ازداد الجمود فى تنظيم بناء الذات حتى يتسنى له المحافظة على بقائه » (١٩٥١ ص ٥١٥) . وتقيم الذات دفاعاتها ضد الخبرات المهددة عن طريق انكارها على الشعور . وهى اذ تفعل ذلك ، تزيد صورة الذات تباعدا عن واقع الكائن الحى ، مما يقتضى مزيدا من الدفاعات الضرورية للبقاء على الصورة المزيفة التى تصر الذات على التمسك بها . وهكذا تنقطع الصلة بين الذات والخبرات الفعلية للكائن الحى ، وينشأ التوتر نتيجة للمعارضة المتزايدة بين الواقع والذات . وينتج عن هذا كله أن يسوء تكيف الفرد أكثر فأكثر .

ولكن كيف يمكننا أن نزيل حدة هذا الموقف ؟ ان العلاج المتمركز - حول - العميل هو القادر على احداث التكامل المتناسق بين الذات والكائن الحى اما « الشروط الخاصة » لهذا العلاج المتمركز - حول - العميل فهو موضوع القضية التالية .

١٧ - « فى ظل ظروف خاصة تتضمن أساسا انتفاء أى تهديد للذات ، يصبح ادراك الخبرات التى لا تتسق مع مفهوم الذات امرا ممكنا ، كما يصبح من الممكن مراجعة بناء الذات بشكل يسمح بتمثل هذه الخبرات وجعلها متضمنة فى بناء الذات » (١٩٥١ ص ٥١٧) .

وفى العلاج المتمركز - حول - العميل يجد الشخص نفسه فى موقف خال من كل تهديد لأن المبالغ يتقبل كل كلمة يقولها تقبلا كاملا . ويشجعه هذا الاتجاه الدافئ والمتقبل من جانب المصالح على اكتشاف مشاعره اللاشعورية ورفعها الى مستوى الوعى . ثم يتلمس طريقه ببطء حتى يسيطر اللثام عن المشاعر المهددة لأمنه التى لم تتخذ صورة رمزية . وفى ظل الأمان الذى توفره العلاقة العلاجية يتم تمثل هذه المشاعر التى كانت عاملا مهددا لبناء الذات . وقد يستلزم هذا التمثل نوعا من الانقلاب فى تنظيم مفهوم ذات العميل حتى يتسق مع واقع خبرات الكائن الحى .

وعندئذ سيصبح ماهو باعتباره كأننا حيا ، بشكل أكثر وحدة ، وذلك هو فيما يبدو جوهر العلاج (١٩٥٥ ، ص ٢٦٩) . ويعترف روجرز بمقدرة بعض الناس على انجاز هذه العملية دون اللجوء الى العلاج .

ويعود تقبل وتمثل الخبرات التي سبق منعها من التحول الى صورة رمزية على الشخص بنفع اجتماعي هو زيادة قدرته على فهم وتقبل الآخرين . وتنصب القضية التالية على توضيح هذه الفكرة .

١٨ - « عندما يدرك الشخص ويتقبل في جهاز متسق ومتكامل كل خبراته الحسية والحشوية فانه يصبح بالضرورة أكثر تفهما للآخرين وأكثر تقبلا لهم كاشخاص منفصلين » . (١٩٥١ ص ٥٢٠) . فالشخص الدفاعي ميال للشعور بالعداء للآخرين الذين يرى في سلوكهم تمثيلا للمشاعر التي ينكرها . وعندما يشعر شخص ، بالتهديد ازاء دفاعاته الجنسية فالأرجح أن يصد الى انتقاد الآخرين الذين أصبح يدرهم كما لو كانوا يسلكون بطريقة جنسية . أما اذا تقبل مشاعره الذاتية الجنسية والعدوانية فانه يصبح أكثر احتمالا لتعبير الآخرين عن هذه المشاعر . وتكون النتيجة أن تتحسن علاقاته الاجتماعية وتقل احتمالات التعرض للصراعات الاجتماعية .

ويعتقد روجرز أن المتضمنات الاجتماعية لهذه القضية تدعو الى « امتداد الحيال واتساعه » (ص ٥٢٢) . بل وربما تضمنت القضية المفتاح الذي سيوصلنا الى القضاء النهائي على الصراع الدولي .

وفي القضية الأخيرة ، يبرز روجرز مدى الأهمية لاعادة اختبار الفرد لقيمه حتى يحافظ على تكيفه العام .

١٩ - « عندما يدرك الشخص ويتقبل في بناء ذاته المزيد من خبراته العضوية يتكشف أنه يستبدل جهاز القيم الحالي لديه - وهو قائم في المقام الأول على ما استمدجه عن الآخرين وأعطى له صورة رمزية مشوهه - بعملية تقييم متصلة ومستمرة » (١٩٥١ ، ص ٥٢٢) . وينصب التأكيد هنا على كلمتي جهاز وعملية اذ تحمل كلمة جهاز «معنى ثابت واستاتيكي» ، على حين تدل كلمة عملية على شيء في حالة صيرورة . وحتى يتحقق للفرد توافق متكامل وصحي لابد له أن يقيم خبراته باستمرار حتى يحدد ما اذا كانت هناك ضرورة لاحداث تعديل في بناء القيم . فان وجود مجموعة ثابتة من القيم يمنع الفرد من الاستجابة الفعالة للخبرات الجديدة . ولابد

أن يكون الفرد مرنا حتى يصبح بإمكانه أن يتكيف تكيفا مناسباً لظروف الحياة المتغيرة .

ويشير روجرز سؤالا بهذا الخصوص هو : هل تؤدي عملية التقييم المستمرة لخبرات الفرد الى حالة من الفوضى الاجتماعية ؟ وهو يجيب بالنفي لأن لكل الناس نفس الحاجات الأساسية ، بما فيها الحاجة للتقبل من الآخرين ، (ص ٥٢٤) . ولذلك سنتصف قيمهم بدرجة عالية من الاتفاق ، (ص ٥٢٤) .

وفي ختام مناقشته للتسع عشرة قضية يضع روجرز النتائج النهائي لوجهة نظره في هذه العبارات المحددة .

« تمد هذه النظرية ظواهرية الطابع في أساسها وترتكز في المقام الأول على الذات كمفهوم تفسيري . وهي تصور نقطة النهاية لارتقاء الشخصية بوصفها انفاذا أساسيا بين المجال الظاهري للخبرة والبناء التصوري للذات - وذلك موقف اذا تحقق فإنه يمثل تحمرا من الاجساد الداخلى والقلق ، ومن الاجهاد المحتمل ، وهذا هو حد الكمال في التوافق الوجه واقصيا ، ومعناه اقامة نظام فردي للقيم وعلى جانب كبير من الاتفاق مع نظام القيم لاي انسان آخر له نفس القدر من التوافق السوي » (ص ١٦٥١ ، ص ٥٢٢) .

وفي عرض جديد لنظريته في الشخصية لم ينشر بعد (١٩٥٥) ، أدخل روجرز ثلاثة مفهومات توحيدية جديدة . هي :

- ١ - الحاجة الى الاعتبار الايجابي .
- ٢ - الحاجة الى اعتبار الذات .
- ٣ - شروط التقدير .

والحاجة للاعتراف الايجابي من الآخرين ، حاجة عامة وان لم تكن بالضرورة فطرية وهي ترتقي بظهور الوعي بالذات . وقد تصبح هذه الحاجة أكثر إلحاحا من عملية التقييم العضوية . بحيث يسعى الفرد الى الحصول على تقدير الآخرين أكثر مما يسعى الى الخبرات التي يقدرها الكائن العضوي الحي .

ونتيجة لخبرات الذات باشباع أو احباط حاجتها الى الاعتبار الايجابي يكتسب الفرد حاجة الى اعتبار الذات وتعمل هذه الحاجة مستقلة عن

العلاقات مع الآخرين بحيث يمارس اعتبار الذات في العلاقة بأى نوع من أنواع خبرات الذات .

وفى النهاية وكنتيجة لأن الحاجة لاعتبار الذات تعمل على نحو انتقائي يكتسب الفرد شروط التقدير . وشرط التقدير هو الحد الذى يساعد الفرد على تجنب بعض خبرات الذات والسعى وراء بعضها الآخر بناء على استحقاقها أو عدم استحقاقها لاعتبار الذات .

ولهذه المفهومات الثلاثة فائدتها فى المساندة على ايضاح الفروق بين الذات والخبرة ، ومفارقات السلوك والخبرات المهددة والعمليات الدفاعية، وعملية استعادة التكامل .

البحوث المميزة وطرق البحث

كان روجرز باحثا رائدا فى مجال الارشاد والعلاج النفسى ، وهو جدير بالتقدير لأنه اثار الاهتمام بالبحث ونفذ بحوثا تتوفر على دراسة طبيعة العمليات الحادثة فى أثناء العلاج الاكلينيكي . ولا يخفى علينا أن الدراسات التى تتمتع بدرجة عالية من الضبط للعلاج النفسى تعد بالغة الصعوبة من ناحيتى التصميم والتنفيذ وذلك للطبيعة الخاصة والدقيقة لموقف العلاج النفسى . ولقد كان المعالجون مترددين فى اخضاع مصلحة المريض لحاجات البحث التى تتطلب انتهاكا لخصوصية حجرة العلاج . أما روجرز ، فقد بين أن تسجيل المقابلات العلاجية بعد موافقة المريض لا تمثل ضررا بالغا بالنسبة لسير العلاج . وواقع الأمر أنه ما أن تنقضى لحظات حتى يتجاهل المريض والمعالج وجود جهاز التسجيل ويسلك بصورة طبيعية تماما . ولقد أتاح تراكم عدد من التسجيلات الكاملة للجلسات العلاجية التى قام بها روجرز ومساعدوه فرصة دراسة سير عملية العلاج بطريقة موضوعية وكمية . وبفضل مجهوداته أصبح بإمكاننا أن نشرح فى تعلم بعض الأشياء عن عمليات العلاج النفسى (انظر على سبيل المثال روجرز وديموند ١٩٥٤ ، سيمان وراسكين ١٩٥٣) .

وعلى الرغم من أن الدراسات التجريبية التى قام بها روجرز ومعاونوه كانت تهدف أساسا الى فهم وتوضيح طبيعة عملية العلاج النفسى، فإن الكثير من نتائج هذه الدراسات كان مصدرا مباشرا لنظرية فى الشخصية هى نظرية الذات لريبي (١٩٤٣) وروجرز . والواقع أن نتائج

البحوث هي التي أملت على روجرز صياغته المذهبية لنظرية الذات ، التي لم تكن بحال من الأحوال وجهة نظر قبلية حددت طبيعة واتجاه أي من العلاج أو البحث وفي هذا يقول روجرز « لم تكن الذات مفهوما شائعا في علم النفس طوال سنوات عديدة وما لا شك فيه أن المعالجين الذين مارسوا العمل العلاجي طبقا لاتجاه العلاج المتمركز - حول - العميل لم يعتمدوا اعتمادا مسبقا على كلمة الذات كمفهوم تفسيري » (١٩٥١ ص ٩٣٦) .

ومنذ أن صاغ روجرز نظريته في الشخصية وهي نظرية الذات عمد الى توسيع نطاق برامج البحث في العلاج حتى تتضمن اختبارا للاستنتاجات المستمدة من هذه النظرية .

الدراسات الكيفية :

استخدم روجرز طريقة كيفية اجرائية لشرح الكثير من أفكاره عن الشخصية ، وتعتمد هذه الطريقة على عرض مقتطفات من التسجيلات اللفظية للعميل توضح ماهي صورة الذات لديه ومايجرى عليها من تغيرات في أثناء العلاج . وتزخر كتابات العلاج غير الموجه أو العلاج المتمركز - حول - العميل بالعديد من أمثلة هذه الدراسات (روجرز ١٩٤٢ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥١ ، روجرز وديموند ١٩٥٤ ، روجرز و والن ١٩٤٦ يانش و روجرز ١٩٤٦ ، وسيندر وآخرين ١٩٤٧) . ويبدو أن روجرز نفسه يفضل هذه الطريقة لعرض أفكاره وان لم يكن يعتمد بطبيعة الحال على المقتطفات التي يأخذها من تسجيلات حالاته كدليل على صحة نظريته في الشخصية . بل تستخدم هذه المقتطفات بهدف تعريف القارئ بالظواهر المرضية التي تحدث خلال المقابلات العلاجية و ابراز الجبرات التي تحتاج الى تفسير .

تحليل المحتوى :

تعتمد هذه الطريقة في البحث على وضع مجموعة من الفئات تصنف فيها تعبيرات العميل اللفظية . وفي دراسة رائدة ، وضع بورتر (١٩٤٣) الأساس للعديد من الأعمال التي تلت حول تصنيف محتوى التسجيلات التي تؤخذ من المقابلات العلاجية ، ذلك بان أوضح أماكن المصنوع على

نتائج ثابتة باستخدام هذه الطريقة في التحليل . وفي دراسة مبكرة أخرى لأحد تلامذة روجرز (ريسى ١٤٩٨) . أجرى تحليل للتغيرات الأساسية التي تصيب الاشارات الى الذات في أثناء العلاج . ولهذا الغرض استخدم ريسى الفئات الآتية : اشارة للذات ايجابية أو محابية ، اشارة للذات سلبية أو غير محابية ، اشارة الى الذات متناقضة ، اشارة للذات غامضة ، اشارة الى موضوعات أو أشخاص خارجيين ، وأسئلة . وقد قسمت تسجيلات أربع عشرة حالة كانت قد تمت مقابلتها بين مرتين واحدى وعشرين مرة الى فقرات ثم صنفت بحسب الفئات الست السابقة وحسب مجموع الفقرات في كل فئة في المراحل المتعاقبة لعملية العلاج . ولقد تبين أن العملاء يعطون في بداية العلاج عددا كبيرا من الاشارات للذات غير المحابية أو المتناقضة ، ويتقدم عملية العلاج يظهر التذبذب في تأييد الذات مصحوبا بارتفاع في كمية التناقض . وفي نهاية العلاج يعطى العملاء الذين حكم بأن حالاتهم تتحسن ، مزيدا من الأحكام المحابية للذات ، ويستمر العملاء الذين لم تتحسن حالتهم في اعطاء الأحكام غير المحابية للذات . وحصل بعض الباحثين الآخرين (سيندر ١٩٤٥ ، ليبكن ١٩٤٨ ، سيمان ١٩٤٩) على نفس النتائج تقريبا .

وفي مجموعة أخرى من الدراسات التي استخدمت تحليل المحتوى أجريت محاولة لاختبار الفرض القائل بأن الشخص الذي يصبح أكثر تقبلا لنفسه يصبح أكثر تقبلا للآخرين أيضا . فوضعت مجموعة من الفئات الايجابية والسلبية والمتناقضة للمشاعر الموجهة نحو الذات ونحو الآخرين ثم استخدمت هذه الفئات للتصنيف مع عدد من الحالات التي يجري علاجها وفي احدى هذه الدراسات (سيمان ١٩٤٩) زاد عدد الاشارات الايجابية للذات على حين انخفض عدد الاشارات السلبية في أثناء العلاج ، وذلك دون أن يكون مصحوبا بأى تغيير في المشاعر نحو الآخرين . ولم يستطع باحث آخر (ستوك ١٩٤٩) باستخدام منهج مشابه لتحليل المحتوى أن يكشف عن وجود تغيرات في المشاعر الموجهة نحو الذات تسبق وتؤدي الى تغير المشاعر الموجهة نحو الآخرين . وفي دراسة نالته (شيدر ١٩٤٩) ، تدعم هذا الفرض الى حد ما وان لم تكن التغيرات الحادثة في الاتجاهات نحو الآخرين تساوى من حيث الوضوح والانتظام تلك التغيرات الحادثة في الاتجاهات نحو الذات . أما احدى الدراسات التي أجريت لاختبار هذا

الفرض (جوردون وكارترايت ١٩٥٤) فقد اعتمدت على عدد من الاختبارات المقاييس بدلا من تحليل المحتوى وقد أخفقت في تعميم الفرض القائل

بأن الزيادة في تقبل الذات تؤدي الى زيادة في تقبل الآخرين .

وعلى أية حال فانه مما تجدر الاشارة اليه ظهور معامل ارتباط دال

الى حد ما (٥١ر) في دراسة شيدر ، وفي دراسة ستوك (١٩٦٦) بين تصور الذات وتصور الآخرين . ويعنى هذا انه اذا احسن الشخص الظن بنفسه فالأرجح انه سيحسن الظن بالآخرين أيضا ، وانه اذا لم يكن راضيا عن نفسه فالأرجح انه لن يرضى عن الآخرين كذلك . ولقد وجد فيليبس في بحث له عن المشاعر نحو الذات ونحو الآخرين لدى أشخاص ليسوا تحت العلاج (١٩٥١) عددا من معاملات الارتباط تقارب هذه الأرقام .

دراسات أسلوب ك Q Technique Studies

كان لظهور عالم النفس الانجليزي وليام ستيفنسون في جامعة شيكاغو فضل كبير على روجرز وزملائه . وعلى الرغم من أن ستيفنسون نفسه لا يعد واحدا من أنصار نظرية الذات فان طرق البحث التي ابتكرها تناسب تماما فحص مفهوم الذات بطريقة الحالة الفردية . ولقد سمي ستيفنسون هذه الطرق باسم أسلوب ك .

وهناك فارق بين أسلوب ك لستيفنسون والأساس المنطقي الذي يستند اليه ، وهو ما سماه بمنهجية ك Q methodology فالفروض المنطقية تستمد من منهجية ك ، وتختبر باستخدام أسلوب ك . ولا أن الباحث قد يستخدم أسلوب ك دون أن يستخدم منهجية ك . وهو ما فعله روجرز وزملائه ، ويظهر الفرق بين نوع البحوث التي اشرفه عليها ستيفنسون ، وتلك التي سيطر عليها تأثير روجرز من مقارنة دراسات نانالي (١٩٥٥) وهو أحد تلامذة ستيفنسون بدراسات تلميذ روجرز بتلر وهاي (١٩٥٤) . ولقد درس كل منهما تصورات الذات قبل وبعد العلاج . واستخدام نانالي منهجية ك في تصميم تجربته كما استخدم كل مستلزمات أساليب ك ، بما في ذلك التحليل العاقل ، على حين استخدم بتلر وهاي فقط طريقة ك للفرز ومعاملات الارتباط للشخص الواحد intrapersonal هذا فضلا عن أن نانالي استخدم حالة واحدة ، كما يوضى ستيفنسون ، على حين درس بتلر وهاي عددا من الحالات .

ولكن ما هو أسلوبك ؟ انه في أساسه طريقة لدراسة منظمة لأفكار الشخص عن نفسه وان استخدم في عدد من الأغراض الأخرى . وفيه يعطى الشخص مجموعة من الصفات ويطلب منه أن يصنفها على حسب توزيع أعد سلفا طبقا لتصل *continuum* يبدأ بالصفات التي يرى القائم بالتنصيف أنها أدق الصفات انطباقا عليه ، وينتهي بالصفات التي تراها لا تصفه على الإطلاق . ويقرب هذا التوزيع من التوزيع الاعتدالي ويظل ثابتا بالنسبة لكل المفحوصين في التجربة الواحدة . وتسهل صفة الثبات هذه معالجة النتائج معالجة احصائية طالما أن جميع التصنيفات تتبع بالضرورة توزيعا واحدا له نفس المتوسط والانحراف المعياري .

وربما لا يكتفى بأن يجرى الشخص تصنيفه على أساس ما يراه في نفسه الآن ، بل وعلى أساس ما يتمنى أن يكون ، وهو ما يسمى بالتنصيف المثالي ، أو على أساس ما كان عليه عندما كان في الخامسة عشرة ، أو كما تراه أمه وهكذا ، وهناك تصنيفات كثيرة متنوعة لكل منها اسمه على حسب اختيار الباحث . ولقد استخدم بودلير (١٩٥٥) على سبيل المثال ٢٥ تصنيفا في دراسة له على مرضى الصرع تحت العلاج . ويمكننا أن نحلل نتائج مثل هذه التصميمات المتعددة الأبعاد عن طريق استخدام الطرق الارتباطية ، والتحليل العاملي ، وتحليل التباين .

وتوضع فقرات أسلوبك بطرق متعددة . فاما أن تصاغ بحيث تطابق نظرية معينة من نظريات الشخصية ، وهو ما نجد له أمثلة كثيرة في كتاب ستيفنسون (١٩٥٣) ، أو تختار من بين عدد كبير من الفقرات التي تأخذ من تسجيلات علاجية كاملة ، أو أوصاف للذات ، أو اختبارات للشخصية أو ما شابه .

ولنوضح الكيفية التي استخدم بها روجرز وزملاؤه أسلوبك كسنعرض للدراسة التي قام بها بتلر وهاي (١٩٥٤) . لقد وضع هذان الباحثان لنفسيهما هدفا هو اختبار الدعوى القائلة بأن الأشخاص الذين يطلبون العلاج غير راضين عن أنفسهم ، وأن نجاح العلاج يعقبه خفض في عدم الرضا . وقد اختيرت فقرات أسلوبك في هذه الدراسة بطريقة عشوائية من عدد من تسجيلات العلاج . ومن أمثلة هذه الفقرات «أنا شخص انقيادي» ، «اننى أعمل بكل اجتهاد» ، «اننى محبوب» ، «اننى انسان متفتح» وقبل البدء في عملية العلاج طلب من كل عميل أن يصنف الفقرات بطريقتين طبقا للتعليمات الآتية :

التصنيف الذاتي : صنف هذه البطاقات لتصف نفسك كما تراها الآن ،
صنفها مبتدئا بأقلها انطباقا عليك الى أكثرها انطباقا عليك .

التصنيف المثالي : والآن صنف هذه الفقرات لتصف شخصك المثالي - أي
الشخص الذي تحب من أعماقك أن تكونه .

وبعد ذلك تحسب معاملات الارتباط بين التوزيعين بالنسبة لكل
شخص على حدة وكان متوسط معاملات الارتباط بين تصنيف الذات
والتصنيف المثالي صفرا ، مما يبين أنه ليس هناك اتفاق بين الطريقة التي
يرى بها الشخص نفسه وما يجب أن يكون عليه . وقد قام بنفس التصنيفين
أفراد من مجموعة ضابطة متكافئة مع مجموعة العملاء ، فيما عدا أنهم لم
يطلبوا العلاج ، وكان متوسط الارتباط بين تصنيف الذات والتصنيف المثالي
بالنسبة لهذه المجموعة (٠.٥٨) مما يثبت أن المجموعة التي ليست بحاجة
الى العلاج أكثر رضاء عن نفسها من المجموعة التي تطلب العلاج . وبعد انتهاء
العلاج (أجريت أكثر من ٣١ مقابلة لكل عميل في المتوسط) ، طلب من
العملاء أن يقوموا بعملية التصنيف الذاتي والتصنيف المثالي مرة أخرى .
وقد ارتفع متوسط معاملات الارتباط في هذه المرة الى (٠.٣٤) وهي زيادة
ذات دلالة عما كان الحال عليه قبل العلاج وان لم تبلغ مستوى معاملات
الارتباط في العينة الضابطة . وقد أعيد اختبار العينة الضابطة بعد
انقضاء فترة من الزمن تساوى الفترة التي انقضت حتى أعيد اختبار عينة
العملاء ، فلم يظهر أى تغيير على متوسط معاملات الارتباط بين تصنيف
الذات والتصنيف المثالي ٠٠ وكانت هناك مجموعة ثالثة تطلب العلاج ولكنها
أخبرت بأن عليها أن تنتظر ٦٠ يوما قبل البدء فى العلاج ، ولم تظهر هذه
المجموعة تغيرا فى معاملات الارتباط بين تصنيف الذات والتصنيف المثالي
بفعل انقضاء فترة الانتظار .

وكنوع من المراجعة لدى ثبات التغيير الحادث فى تقدير الذات لدى
العملاء أجريت دراسة تتبعية لهم بعد انقضاء فترة بين ستة شهور وسنة
على انتهاء العلاج . وكان متوسط معاملات الارتباط بين التصنيف الذاتي
والتصنيف المثالي قريبا جدا مما كان عليه بعد انتهاء العلاج مباشرة (٠.٣١ -
مقابل ٠.٣٤) وقد استنتج الباحثان أن تقدير الذات - وتعرفها عندهما
هو اتفاق تصنيفات الذات والتصنيفات المثالية - يزداد كنتيجة مباشرة
للعلاج المتمركز - حول - العميل . وقد يتبادر الى ذهن القارئ أن الزيادة
فى متوسط معاملات الارتباط من صفر الى ٠.٣٤ يمكن أن يكون نتيجة لتغير
فى مفهوم الذات فى الاتجاه المثالي ، أو لتغير فى المثالي فى اتجاه مفهوم الذات

أر أنها نتيجة للتغير في كلا الاتجاهين . وفي دراسة أخرى (راديكوف ١٩٥٤) وجد أن المثالي ينخفض قليلا في اتجاه صورة الذات في أثناء العلاج مما يوحي بحدوث كلا النوعين من التغيير .

ويجدر بنا أن نلاحظ بعض التغيرات التي تحدث في معاملات الارتباط الفردية قبل العلاج وبعده وعند متابعته . وقد بدأت بعض معاملات الارتباط منخفضة ثم زادت زيادة ملحوظة في أثناء العلاج ، وظلت على حالها في أثناء فترة المتابعة . وتوضح الحالة التالية هذا النمط ولنسمه أوك .

أوك	قبل العلاج	بعد العلاج	المتابعة
	٢١	٦٩	٧١

وتظل بعض المعاملات منخفضة من البداية الى النهاية مثل باك .

باك	قبل العلاج	بعد العلاج	المتابعة
	٣٦-	٥٤	١٩-

وهناك فئة أخرى تبدأ منخفضة ، ثم تزيد في أعقاب العلاج ، ولكنها تعود للانخفاض في أثناء فترة المتابعة مثل بييل .

بييل	قبل العلاج	بعد العلاج	المتابعة
	٢٨	٥٢	٤-

أما بالنسبة لنمط آخر من الأشخاص ، فتبدأ معاملات الارتباط منخفضة ثم ترتفع في أثناء العلاج ، وتستمر في الزيادة بعد انتهائه مثل حالة بت .

بت	قبل العلاج	بعد العلاج	المتابعة
	٣٧-	٣٩	٦١

وقد يتراعى للبعض أن هذه الأنماط المختلفة من التغيير ترتبط بمقدار التحسن بفعل العلاج . ولكن الأمر ليس كذلك . فعندما قسم المفحوصون طبقاً لأحكام قضاة من المالجين وبناء على سجلات الاختبارات الاسقاطية الى مجموعتين : مجموعة تحسنت وأخرى لم تحسن ، لم يظهر أي خلاف بينهما من حيث معاملات الارتباط الذاتية - المثالية عند انتهاء

العلاج ، وان كانت هناك نزعة الى ارتفاع هذه المعاملات ارتفاعا طفيفا في المجموعة التي تحسنت عند الاعادة التتبعية لاجراء تصنيف ك .

ويفسر بتلر وهامى هذا الاخفاق في ايجاد علاقة بين معاملات الارتباط الذاتية - المثالية ومدى التحسن في العلاج بما أسسناه « بالتصنيفات الدفاعية » ، *defensive sortings* . ويعنى التصنيف الدفاعى ان يعطى الفرد صورة مزيفة عن نفسه ليظهر كما لو كان متوافقا . وهو فى حقيقة امره ليس كذلك . فمثلا وجد فى دراسة اخرى ، أن أعلى معاملات الارتباط الذاتية - المثالية قد بلغت حدا متطرفا هو ٠.٩٠ ، حصل عليها شخص كانت حالته مرضية واضحة .

وقد نالت مشكلة الدفاعية اهتماما كبيرا من روجرز وزملائه لأنها كانت كفيلا باثارة بعض المشكلات المطيرة فيما يتعلق بصديق تقارير الذات . فاذا قال شخص على سبيل المثال ، انه راض عن نفسه فهل نصدق انه حقيقة كذلك ؟ وهل يعطى الاطار المرجحى الداخلى صورة دقيقة عن الشخصية ؟ لقد قام هاى (١٩٤٩) بعدد من الدراسات الخاصة للسلوك الدفاعى فوجد أنه يتخذ صوراً متعددة مثل الانكار، والانسحاب، والتبرئة، والتبرير ، والامسقاط والعدائية . وتنخفض هذه الدفاعية لدى بعض العملاء فى أثناء العلاج ، على حين ترتفع لدى البعض الآخر . ويميل هاى ، على أى حال ، الى التقليل من أهمية السلوك الدفاعى الى أقصى درجة ممكنة . وهو يدعى أن معظم هذا السلوك الدفاعى محاولة للفش مقصودة من جانب العميل ، ليحفظ بها ماء وجهه . وتناقض هذه النظرة بوضوح نظرية التحليل النفسى التى تعتبر ميكانيزمات الدفاع عمليات لا شعورية .

وتلقى دراسة اخرى لفريد مان (١٩٥٣) مزيدا من الضوء على مشكلة الدفاعية . وفى هذه الدراسة قام أفراد ثلاثة جماعات من البيض الذكور : من الأسوياء ومن العصبيين ، ومن المرضى بفصام البارانونيا باجراء تصنيفات ك الذاتية والمثالية . وكان وسيط معاملات الارتباط للعينية السوية وعددها ٦٠ شخصا هو ٠.٦٣ ، على حين كان للمصابين وعددهم ٦٠ شخصا ٠.٣٠ وكان ٤٣ر بالنسبة للذهانيين وعددهم ٦٠ أيضا . وبعبارة أخرى ، أظهر الذهانيون تقديرا لذواتهم يفوق ما أظهره العصبيون بدرجة واضحة ، ولا يقل كثيرا عما أظهره الأسوياء . ويستنتج فريدمان من هذه الدراسة « أن الاعتماد على معامل الارتباط المرتفع بين ادراك الذات المثالية كحك وحيد للتكيف سيؤدى بنا الى وصف عدد كبير من الأفراد غير المتكيفون وبخاصة مرضى فصام البارانونيا بالتكيف » (ص ٧٣) .

وقام تشودوركوف (١٩٥٤) بدراسة أخرى أقام فيها علاقة ارتباطية بين مقياس للدفاعية والاتجاهات نحو الذات وتقدير الشخصية باستخدام ملاحظين خارجيين وقد حصل الباحث على تقارير عن الذات لثلاثين طالبا جامعا بأن طلب منهم أن يقوموا بتصنيف ١٢٥ فقرة في ثلاثين خانة متدرجة من أكثرها وصفا للذات الى أقلها . وبعد ذلك طلب من أربعة من «الحكام» الذين أطلعوا على معلومات عن تاريخ الحياة وسجلات اختبار ورشاش وملخص لدرجات ورشاش وبيانات مأخوذة من اجراء اختبار تداعي الكلمات وسجلات اختبار تفهم الموضوع لكل حالة ، أن يقوموا بعملية تصنيف كلكل مفحوص مستخدمين نفس ال ١٢٥ فقرة . وقد استخدم مقياس للدفاع الإدراكي يقوم على عرض كلمات حيادية ومهددة على المفحوص بسرعة عرض كبيرة في البداية بحيث تكون دون عتبة ادراكه **subliminal** ثم تزداد مدة العرض بالتدريج حتى يتمكن المفحوص من التعرف على كل هذه الكلمات ويقاس الدفاع الإدراكي بحساب الفرق بين العتبة الإدراكية للتعرف على الكلمات الحيادية والعتبة الإدراكية للتعرف على الكلمات المهددة .

وكانت الفروض التي يرغب تشودوركوف في اختبارها هي :

(١) كلما زاد الاتفاق بين وصف الشخص لنفسه ووصف الآخرين له قل ما يظهره من دفاع ادراكي .

(٢) كلما زاد الاتفاق بين وصف الشخص لنفسه وتقييم الحكام له زادت كفاية توافقه الشخصي .

(٣) بزيادة كفاية التوافق الشخصي تقل كنية الدفاع الإدراكي التي يبديها الشخص .

وقد استخدم الباحث اختبارين للتوافق الشخصي هما :

- (١) قائمة مونرو لمراجعة فحص اختبار ورشاش .
- (٢) تقديرات الحكام على أحد عشر مقياسا للتوافق .

وحققت النتائج كل هذه الفروض . فكلما زاد الاتفاق بين وصف الشخص لنفسه ووصف الآخرين له قل الدفاع الإدراكي وارتفع مستوى التوافق الشخصي . كذلك أظهر المفحوصون الذين أكثر توافقا قلدا أقل من الدفاع الإدراكي .

وتوضح هذه الدراسات أهمية بعد الدفاعية في حكم الناس على أنفسهم ، كما تبين أنه لا يمكن الاعتماد على تقارير الذات كوسيلة للوصول الى صورة عن الشخصية تطابق الصورة التي تحصل عليها عن الشخصية من حكام خارجيين .

مناهج تجريبية أخرى : يرغم أن الأوصاف الكيفية ، وتحليل محتوى التسجيلات العلاجية ، واستخدام أسلوب ك تكون أهم المناهج التجريبية التي استخدمها روجرز وزملاؤه في دراسة الشخصية فانهم استخدموا أيضا عددا من الطرق الأخرى . وتقوم هذه الطرق الأخرى على تناول الفرد بالدراسة على أساس من اطار مرجعي خارجي فطبقت على العملاء تحت العلاج الاختبارات المألوفة مثل الرورشاخ (مينسن ١٩٤٧ ، كار ١٩٤٩ ، هاموفيتز ١٩٥٠ موزاك ١٩٠٥ ، هاموفيتز وهاموفيتز ١٩٥٢) واختبار تفهم الموضوع TAT (ديموند ١٩٥٤ ، جرامون وجون ١٩٥٤) واختبار مينوسوتا المتعدد الأوجه (موزاك ١٩٥٠) واختبار بل للتوافق (مينسن ١٩٤٧ ، موزاك ١٩٥٠) واختبار كنت - روزانوف لتداعي الكلمات (مينسن ١٩٤٧) واستخدام أحد تلامذة روجرز (تيتفورد ١٨٤٩ ، ١٩٥٢) مؤشرات فسيولوجية للتوتر والانفعال . وهكذا يتضح أن روجرز لم يقتصر في عمله العلمي وبحوثه على اختبار الفروض المستمدة من نظرية الذات فحسب .

المسألة الرابعة والتقويم :

يجب أن يقر في أذهاننا ونحن بصدد محاولة لتقويم شامل لنظرية الذات لروجرز أن هذه النظرية ليست كاملة الصياغة ، ونظراً لأن روجرز يفضل أن تظل تأملاته النظرية أوثق صلة بالمعطيات التجريبية ، فهو ينزع إلى الحذر وتقديم الفروض بصفة مؤقتة في بنائه للنظرية ، وهو يحجم عن التوسع في نظريته بأسرع مما تسمح به النتائج . وبناء على ذلك يحسن أن يأخذ أي نقد لهذه النظرية في حسابه حقيقة انها غير تامة وأنها تحت المراجعة والتوسع المستمرين .

وعندما كان روجرز يطور طريقة العلاج - المتمركز - حول - العميل - لم يكن يشغل نفسه بنظرية في الشخصية ، ويبسود أنه كان يعتبر النظرية عبئاً على ممارسة المالح لنشاطه العلاجي . ولكن ما ان اكتشمت

طرقه وأساليبه في العلاج انطلاقتها حتى بدأ يدرك الحاجة الى وضع مجموعة من المفاهيم والافتراضات التي تساعد على تنظيم وتفسير التقارير اللفظية لعملائه وعلى زيادة قدرته على فهم عميله كشخص . وتبعاً لذلك فإن نوع النظرية التي أبدى روجرز تفضيلاً لها هو ما يناسب نوع المعطيات التي تتجمع لديه خلال هذه الطريقة المعينة في العلاج . وهناك حقيقة يحسن أن نذكرها ، وهي أن نظرية روجرز للانسان قد تحددت الى قدر كبير بالممارسات العلاجية . والآن وبعد أن صاغ روجرز نظريته في الشخصية فإنه يكون مما يدعو الى الدهشة بالطبع ، ألا تؤثر آراؤه النظرية في ممارساته العلاجية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك منذ البداية .

وكما رأينا في الفصول السابقة فإن حجرة العلاج كانت هي البداية لعدد من النظريات الأخرى في الشخصية . ولقد كان كل من فرويد ، ويونج ، وأدلر ، وهورني ، وسوليفان مجالين نفسيين في المقام الأول ، ونشأت آراؤهم في الشخصية من خلال خبرتهم في العمل مع المرضى المضطربين انفعالياً . والغريب أن كلا من هؤلاء المنظرين قد وصل الى صياغات مختلفة الى قدر كبير عن الآخرين ، على أساس من نوع واحد تقريباً من الملاحظات وهو التقارير اللفظية للمرضى في موقف العلاج . وفي أغلب الأحيان فإن المنظر المتأثر بوجهة نظر التحليل النفسي يشعر بالحاجة الى تفسير ما يقوله المريض ويعترف عن تقبل الفاظ المريض على أساس قيمتها الظاهرة أو السطحية . وهو يفتش فيما وراء المحتوى الظاهر لما يردده المريض بحثاً عن مجرى ثرى متشعب من المحتوى الكامن يتغلغل في أعماق الشخصية . وهذا المحتوى الكامن لا شعوري ويمكن التوصل اليه عن طريق الاستنتاج فقط ، ولا يمكن الوصول اليه بأي حال من الأحوال عن طريق الملاحظة المباشرة .

وعلى النقيض من شك المحلل النفسي في حقيقة ما يقوله المريض ، ومن اصراره على البحث واستتار المعنى الخافي ، يعلن روجرز عن موقفه في امكان الاستفادة من التقارير الذاتية كصدر مباشر للمعلومات عن الشخص . وبناء على ذلك فليست هناك حاجة للاستتار أو التفسير أو لقيام بعمليات تحليل مستفيضة وشاقة للأحلام ، أو للكشف عن طبقة اثر طبقة من التكوين النفسي ، لأن الشخصية في نظر روجرز تصنع عن نفسها فيما يقوله الشخص عن نفسه . والذات كموضوع وهي تمثل الجانب المحوري من نظرية روجرز تخبر شعورياً ، ويفرض روجرز أن هذه الخبرات يمكن أن تنقل مباشرة الى الفاحص . وليس لمفهوم الدافعية اللاشعورية دور يذكر في تفكير روجرز فالشخص هو في الأغلب ما يقوله عن نفسه ولا تختلف

هذه النظرة كثيرا عن الآراء التي يتمسك بها الرجل العادي والتي تسود التفكير الشائع حول موضوع الشخصية ، ولذلك لقيت نظرية الذات قبولا من عامة الناس فاق قبول المشتغلين بعلم النفس لها .

أما وجه النقد الأساسي الذي يواجه كثرة من علماء النفس الى نظرية الذات لروجرز فهو قيامها على أساس نوع فح من الظاهرية (انظر سميت ١٩٥٠ مثلا) وهناك شواهد لا حصر لها على وجود عوامل دافعة المسبوك وان لم تكن في تناول الشعور وعلى أن ما يقوله شخص عن نفسه يصطبغ الى حد كبير بصيغة الدفاعات المختلفة وبناله التحريف . وتفقر تقارير الأشخاص عن أنفسهم الى الثبات بطريقة واضحة للعيان ، ولا يرجع هذا النقص الى تعمد الشخص خداع المستمع ، بل الى أنه لا يعرف كل الحقيقة عن نفسه أيضا . فليست الشخصية شعورا فحسب . وبالرغم من هذه الدلائل يتخذ روجرز موقفا مناقضا ويظل على تمسكه بأن « أحسن نقطة ممكنة لفهم السلوك هي من الاطار المرجعي الداخلي للمفرد نفسه » .

ولا يجدر بنا أن نتحسس كثيرا الآن للنقد الموجه الى الظاهرية الفجة لان الكتابات الحديثة لروجرز تدل على أنه قد بدأ يتشكك أو يتخلى بالتدريج عن فكرة وجود ذات مظهرية طاغية تسيطر سيطرة كاملة على الشخصية .

كذلك بدأ روجرز يتنبه الى التشويه الخطير الذي قد يصيب صورة الذات بفعل الدفاعات ، وهو يدرك المآزق الذي تقع فيه نظرية الذات بسبب السلوك الدفاعي . « ويجب البعض أن نحل هذه المشكلة بأن نلقي بعيدا بأى محاولة موضوعية لقياس المجال الظاهري » (١٩٥٤ ص ٤٣٠) ولكن روجرز لا يبدى بحال من الأحوال استعدادا للتخلي عن وجهة نظر كانت وما زالت في رأيه ثمرة الى أقصى درجة . وهو يقول « وبناء على ذلك فإنا نفضل معايشة هذه العضلة حتى تتعمق في فهمها وربما استطعنا أن نضع من النظريات ما هو أكثر حساسية وأن نصمم من الأدوات ما هو أكثر كفاية حتى تتمكن من التصدي لها » (١٩٥٤ ، ص ٤٣١) ولكن يبدو أن روجرز ليس راضيا عن استنتاجه هذا ، لانه يعود بعد صفحات قليلة الى طرح سؤال حول البحث عن الشخصية والحقيقية .

« ربما كان علينا أن نستبدل هذه الحقيقة الفرضية المفردة بالاعتراف أن مواضع إدراكية مختلفة يمكن أن تفيد في النظر الى الشخص واحدا هو النظر الى الشخص من خلال شعوره هو . وستؤدى بنا شواهدنا بكل تأكيد الى الاقتناع بتوفر الشربة والانتظام الداخلي لكل من مواضع النظر الإدراكية هذه . وهناك أيضا ما يوحي بوجود علاقات

ذات دلالة بين هذه الأجهزة الإدراكية المختلفة وربما يكون من الممكن التنبؤ بها . ولكن يبقى السؤال قائما وهو هل هناك حقيقة واحدة قد يتناولها علم الشخصية ؟ .

ويقصد روجرز بكلمة « مواضع إدراكية منفصلة » مختلف الطرق لملاحظة السلوك ووصفه . فيمكننا مثلا أن ندرس استجابات الشخص في موقف اختبار مقنن كذلك الذي يوفره أسلوب رورشاخ ، أو اختبار تفهم الموضوع أو اختبار منيسوتا المتعدد الأوجه كذلك يمكننا أن نقيس التغيرات الفسيولوجية المصاحبة لحالات التوتر والانفعال . ويمكن ملاحظة سلوك شخص آخر في موقف من مواقف الحياة اليومية . ولم يتردد روجرز في أدائه لدوره كباحث علمي أن يستخدم كل هذه الوسائل وغيرها . ولم يقصر ملاحظاته بأى حال من الأحوال على التقارير الظاهرية عن الذات ، برغم استحسان نظريته لهذا النوع من التقارير .

ومهما يكن من أمر مستقبل نظرية الذات لروجرز ولو قام واضعها بتعديلها إلى الحد الذي يسقط عنها صفتها الأساسية كنظرية للذات . فخلقت أصابت هذه النظرية هدفا حين جعلت من الذات موضوعا للبحث التجريبي .

وقد أفرد عدد كبير من علماء النفس مكانة نظرية للذات ولكن يعود لروجرز الفضل في أن صياغاته المتعلقة بالذات الظاهرية قد فتحت طريقا مباشرا إلى وضع التنبؤات وإلى مناقشة في البحث . ومن هذه الزاوية ، كانت نظريته نافعة إلى أبعد حد .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Rogers, C. R. *Counseling and psychotherapy; newer concepts in practice*. Boston: Houghton, 1942.
- Rogers, C. R. Some observations on the organization of personality. *Amer. Psychologist*, 1947, 2, 358—368.
- Rogers, C. R. *Client-centered therapy; its current practice, implications, and theory*. Boston: Houghton, 1951.
- Rogers, C. R., and Dymond, Rosalind F. (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954.

REFERENCES

- Allport, G. W. The ego in contemporary psychology. *Psychol. Rev.*, 1943, 50, 451—478.
- Bertocci, P. A. The psychological self, the ego and personality. *Psychol. Rev.*, 1945, 52, 91—99.
- Bowdlear, C. Dynamics of idiopathic epilepsy as studied in one case. Unpublished doctor's dissertation, Western Reserve Univ., 1955.
- Butler, J. M., and Haigh, G. V. Changes in the relation between self-concepts and ideal concepts consequent upon client-centered counseling. In C. R. Rogers and Rosalind F. Dymond (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954, pp. 55—76.
- Carr, A. C. An evaluation of nine nondirective psychotherapy cases by means of the Rorschach. *J. consult. Psychol.*, 1949, 13, 196—205.
- Chern, I. The awareness of self and the structure of the ego. *Psychol. Rev.*, 1944, 51, 304—314.
- Chodorkoff, B. Self-perception, perceptual defense, and adjustment. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1954, 49, 508—512.
- Dymond, Rosalind F. Adjustment changes over therapy from Thematic Aperception Test ratings. In C. R. Rogers and Rosalind F. Dymond (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954, pp. 109—120.
- Friedman, I. Phenomenal, ideal and projected conceptions of self, and their interrelationships in normal, neurotic and paranoid schizophrenic subjects. Unpublished doctor's dissertation, Western Reserve Univ., 1953. See also Friedman, I. Phenomenal, ideal and

- projected conceptions of self. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1955, 51, 611—615.
- Gordon, T., and Cartwright, D. The effect of psychotherapy upon certain attitudes towards others. In C. R. Rogers and Rosalind F. Dymond (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954, pp. 167—195.
- Grummon, D. L., and John, Eve S. Changes over client-centered therapy evaluated on psychoanalytically based Thematic Apperception scales. In C. R. Rogers and Rosalind F. Dymond (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954, pp. 121—144.
- Haigh, G. Defensive behavior in client-centered therapy. *J. consult. Psychol.*, 1949, 13, 191—189.
- Haimowitz, Natalie R. An investigation into some personality changes occurring in individuals undergoing client-centered therapy. Unpublished doctor's dissertation, Univ. of Chicago, 1950.
- Halmowitz, Natalie R., and Haimowitz, M. L. Personality changes in client-centered therapy. In W. Wolff and J. A. Precker (Eds.). *Success in psychotherapy. Pers. Monogr.*, 1952, 3, 63—93.
- Hilgard, E. R. Human motives and the concept of the self. *Amer. Psychologist*, 1949, 4, 374—382. Reprinted in H. Brand (Ed.). *The study of personality*. New York: Wiley, 1954, pp. 347—361.
- Huntley, C. W. Judgments of self based upon records of expressive behavior. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1940, 35, 398—427.
- James, W. *Principles of psychology*. 2 vols. New York: Holt, 1890.
- Koffka, K. *Principles of gestalt psychology*. New York: Harcourt, 1935.
- Lecky, P. *Self-consistency*. New York: Island Press, 1945.
- Leeper, R. A. A motivational theory of emotion to replace «emotion as disorganized response.» *Psychol. Rev.*, 1948, 55, 5—21.
- Lipkin, S. The client evaluates nondirective psychotherapy. *J. consult. Psychol.*, 1948, 12, 137—146.
- Lundholm, Helge. Reflections Upon the nature of the psychological self. *Psychol. Rev.*, 1940, 47, 110—127.
- McCleary, R. A., and Lazarus, R. S. Autonomic discrimination without awareness. *J. Pers.*, 1949, 18, 171—179.
- Mead, G. H. *Mind, self, and society*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1934.
- Mosak, H. Evaluation in psychotherapy: a study of some current measures. Unpublished doctor's dissertation, Univ. of Chicago, 1950.
- Muench, G. A. An evaluation of non-directive psychotherapy by means of the Rorschach and other tests. *Appl. Psychol. Monogr.*, 1947, no. 13.
- Muench, G. A., and Rogers, C. R. Counseling of emotional blocking in

- an aviator. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1946, 41, 207-215.
- Nunnally, J. C. An investigation of some propositions of self-conception: the case of Miss Sun. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1956, 50, 87-92.
- Phillips, E. L. Attitudes toward self and others: a brief questionnaire-report. *J. consult. Psychol.*, 1951, 15, 79-81.
- Porter, R. H., Jr. The development and evaluation of a measure of counseling interview procedures. *Educ. psychol. Measmt.*, 1943, 3, 105-126, 215-238.
- Prescott, D. A. *Emotion and the educative process*. Washington: American Council on Education, 1938.
- Raimy, V. C. The self-concept as a factor in counseling and personality organization. Unpublished doctor's dissertation, Ohio State Univ., 1943.
- Raimy, V. C. Self-reference in counseling interviews. *J. consult. Psychol.*, 1948, 12, 153-163.
- Rogers, C. R. *The clinical treatment of the problem child*. Boston: Houghton, 1939.
- Rogers, C. R. *Counseling and psychotherapy; newer concepts in practice*. Boston: Houghton, 1942.
- Rogers, C. R. Some observations on the organization of personality. *Amer. Psychologist*, 1947, 2, 358-368.
- Rogers, C. R. *Dealing with social tensions: a presentation of client-centered counseling as a means of handling interpersonal conflict*. New York: Hinds, 1964.
- Rogers, C. R. *Client-centered therapy; its current practice, implications, and theory*. Boston: Houghton, 1951.
- Rogers, C. R. A theory of therapy, personality, and interpersonal relationships, as developed in the client-centered framework. Unpublished manuscript, 1955a.
- Rogers, C. R. The concept of the fully functioning person. Unpublished manuscript, 1955b.
- Rogers, C. R. Persons or science? A philosophical question. *Amer. Psychologist*, 1955c, 10, 267-278.
- Rogers, C. R., and Dymond, Rosalind F. (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954.
- Rogers, C. R., and Wallen, J. L. *Counseling with returned servicemen*. New York: McGraw, 1946.
- Rudikoff, Esselyn C. A comparative study of the changes in the concepts of the self, the ordinary person, and the ideal in eight cases. In C. R. Rogers and Rosalind F. Dymond (Eds.). *Psychotherapy and personality change; co-ordinated studies in the client-centered approach*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1954, pp. 85-98.
- Sarbin, T. R. A preface to a psychological analysis of the self. *Psychol. Rev.*, 1952, 59, 11-22.

- Scheerer, M. Review of *The psychology of ego involvements* by M. Sherif and H. Cantril. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1948, 43, 106—112.
- Seeman, P. A study of the process of non-directive therapy. *J. consult. Psychol.*, 1949, 13, 157—168.
- Seeman, J., and Raskin, N. J. Research perspectives in client-centered therapy. In O.H. Mowrer (Ed.). *Psychotherapy*. New York: Ronald Press, 1953, pp. 205—234.
- Sheerer Elizabeth T. An analysis of the relationship between acceptance of and respect for self and acceptance of and respect for others in ten counseling cases. *J. consult. Psychol.*, 1949, 13, 169—175.
- Sherif, M., and Cantril, H. *The psychology of ego-involvements*. New York: Wiley, 1947.
- Smith, M. B. The phenomenological approach in personality theory: some critical remarks. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1950, 46, 516—522.
- Snyder, W. U. An investigation of the nature of nondirective psychotherapy. *J. gen. Psychol.*, 1945, 33, 193—223.
- Snyder, W. U., et al. *Casebook of nondirective counseling*. Boston: Houghton, 1947.
- Snygg, D., and Combs, A. W. *Individual behavior*. New York: Parper, 1949.
- Stephenson, W. *The study of behavior*. Chicago: Univ. of Chicago Press, 1953.
- Stock, Dorothy. An investigation into the interrelations between self-concept and feelings directed toward other persons and groups. *J. consult. Psychol.*, 1949, 13, 176—180.
- Symonds, P. M. *The ego and the self*. New York: Appleton-Century-Crofts, 1951.
- Thetford, W. N. The measurement of physiological responses to frustration before and after nondirective psychotherapy. Unpublished doctor's dissertation, Univ. of Chicago, 1949.
- Thetford, W. N. An objective measurement of frustration tolerance in evaluating psychotherapy. In W. Wolff and J. A. Precker (Eds.). *Success in psychotherapy, Pers. Monogr.*, 1952, 3, 26—62.
- Wolff, W. The experimental study of forms of expression. *Character & Pers.*, 1933, 2, 1 68—176.
- Wolff, W. Involuntary self-expression in gait and other movements: an experimental study. *Character & Pers.*, 1935, 3, 327—344.

الفصل الثالث عشر

نظرية مورفي الاجتماعية- الحيوية

تبدو بعض نظريات الشخصية وكأنها قد ولدت من رموس اصحابها مثل اثينا الالهة اليونانية . وتظهر هذه النظريات دون سلف سيكولوجي، ولا تنتمي الى اى تقليد معروف داخل علم النفس ، ولا تكاد تشبه ساعة ميلادها اى نظرية اخرى من نظريات الشخصية . ويتصف هذا النوع من النظريات بالتفرد والاصالة . ومن امثلة هذه الفئة نظرية فرويد في الشخصية . اما النظريات الاخرى فهي تفترض كميات متفاوتة من المفهومات ، والمبادئ والقوانين ، والبديهيات والافتراضات المخزونة المتراكمة على مر السنين . ويمكننا بسهولة ان نعرف هذه النظريات بان نحدد الاصل الذى نشأت عنه والتقليد العلمى الذى تنتسب اليه . وتتشابه هذه النظريات بعضها مع البعض الاخر بقدر اعتمادها على الافتراض من مصدر واحد . وتكمن اصالة هذه النظريات فى تنظيم جديد او فى اطار جديد تضيفه على ما جمعت من اخلاط قديمة ، او فى مادة جديدة تضيفها او فى نوع من الالواح النسبى على المكونات المختلفة للنظرية . وينطوى تحت هذا النمط عدد كبير من النظريات الحديثة فى الشخصية . وربما كانت نظرية جاردنر مورفى مثالا حيا على هذا النوع من النظريات التى افرطت فى الافتراض من المخزون السيكولوجى . وتعد هذه النظرية ، التى يسميها مورفى اجتماعية - حيوية Bio-social تاليفية Eclectic الى اقصى حد ، ومن عرض مورفى لها فى كتابه ، « الشخصية : منهج اجتماعى حيوى فى الاصل والبناء (١٩٤٧)

Personality : A Biosocial approach to origins and structure

يتبين أنها تحتوي على معظم ، ان لم يكن كل ، المفهومات والمبادئ والمسلمات العامة والمألوفة فى علم النفس الحديث .

وتأليفية مورفي مقصودة ، فاذا عدنا الى الوراء الى عام ١٩٢٢ حين وضع مع فريدريك جينسين كتابهما « مناهج في التشخيص » **Approaches to personality** نجد يدعو بصورة مقنعة الى « نوع جديد من التأليفية » . ويختلف هذا النوع الجديد من التأليفية عن تأليفية اللصق التي تنتزع المفاهيم والمبادئ من سياقها الأصلي ثم تثبتها بعضها بجانب بعض . فان على هذه التأليفية الجديدة أن تستفيد من اسهامات النظريات المختلفة دون أن تسلبها حيويتها ، وكذلك فان عليها أن تثبت قدرتها على وضع فروضها الاصلية الخاصة . وبعد خمسة عشر عاما ، وفي محاولته الغلة لعرض صورة جديدة لتعقيدات الشخصية ووضع نموذج للانسان متعدد الابعاد ، نجد مورفي لا يزال على تمسكه بترديد مناقب ومميزات التأليفية البناءة والمبدعة .

« لقد استخدمنا مما بل وفي وقت واحد كلا من ملعب الجشطالت في الاستيعار ومبادئ التحليل النفس في الديناميات السيكلوجية ، وبخاصة ما يتعلق منها بموضوع البواعث اللاشعورية . » والمذهب الترايطية الخاصة بالتشكيل التدريجي للارتباطات العقلية ، وانتقال أثر التدرب وتراكم الاثر summation وحل الترابط .. » ورغم ان المفكرة الحالية قد تخطىء في مواضع كثيرة فان هدفها ليس ان تقصر نمدا من العناصر النشافة المنزعة من نظريات مختلفة على الالتقاء بل هي تعتبر ان كل البادئ السابق الاشارة اليها موجودات منسجة تماما في داخل الكائن الحي » (١٩٢٧ ص ٤٦٦) .

ويتعين جاردنر مورفي باعداده المتأثرة للقيام بالدور التأليفي . . ولا يدانيه في الملمه الواسع بالموضوعات الأساسية في علم النفس العلمى سوى قلة من علماء النفس . وتفطى كتاباته مدى واسعا من الموضوعات . فلقد آتم في عام ١٩٢٩ عرضا لتاريخ علم النفس في كتاب حظى بالاحترام التام هو « مدخل تاريخي الى علم النفس الحديث » **Historical introduction to modern psychology** واشترك بعد عامين مع زوجته لوى باركلي مورفي في نشر عرض شامل للأعمال التجريبية التي تمت في مجال علم النفس الاجتماعي . ولقد أترك كتاب « علم النفس الاجتماعي التجريبي » **Experimental social psychology** في نمو علم النفس الاجتماعي كفرع من فروع علم النفس العام التجريبي . ويتلخص رأى مورفي في هذا الخصوص في العبارات الآتية :

يوضح لنا هذا الكتاب كله ، فيما نعتقد ، تفضل جلدور علم النفس الاجتماعي في علم النفس العام ، وان قولتين هذا العلم لا تخرج عن كونها قوانين سيكولوجية ، وهو يستمد وجوده على الدوام من المفاهيم والطرق السيكولوجية ، وحين يحسن الوقت كي يحتل علم النفس الاجتماعي مكانه كعلم نظامي مضبوط فانه سيحتل مكانه بوصفه جزءاً من علم النفس النظامي والمضبوط (من ٢٧) .

وقد شهد العام التالي وهو عام ١٩٣٢ نشر كتاب « مناهج في الشخصية » بالتعاون مع فريدريك جنسن ، ويكشف هذا الكتاب عن تمكن مورفي من فهمه لتعقيدات نظريات الشخصية المختلفة . وأخيراً ظهر في عام ١٩٣٩ ، كتاب مورفي علم النفس العام *General psychology* وهو مرجع للدراسة التمهيدية لعلم النفس وسيكون من العسير أن نجد من يطاول هذا الانجاز العظيم بتأليف أربعة كتب أساسية في فروع متباينة من علم النفس في مدة قصيرة لا تربو على خمس سنوات . ويوضح هذا الانجاز معرفة مورفي الموسوعية بعلم النفس العلمي ، وقدرته على هضم وتشكيل وتنظيم هذه الثروة من المادة التجريبية والنظرية واقتناعه الأكيد بوجود وحدة أساسية تضم شتى المجالات ووجهات النظر المتباينة في علم النفس .

وقد أعيد اصدار ثلاثة من هذه الكتب الأربعة بعد تنقيحها وهي ، علم النفس الاجتماعي التجريبي ، عام ١٩٣٧ بالتعاون مع مؤلف ثالث هو تيودور نيوكب ، ومدخل تاريخي الى علم النفس الحديث في عام ١٩٤٩ ، وعلم النفس العام في عام ١٩٥١ تحت عنوان جديد هو المدخل الى علم النفس .

فمن هو هذا العالم والكاتب الغد ؟ ولد جاردنر مورفي في الثامن من يوليو عام ١٨٩٥ في شيليكوث ، أوهايو ، حيث عمل والده واعظاً في الكنيسة الأسقفية البروتستانتية . وقد أسهمت ثلاث جامعات كبيرة في تعليمه . فحصل من ييل على درجة البكالوريوس في سنة ١٩١٦ ومنحته هارفارد درجة الماجستير في عام ١٩١٧ ومنحته جامعة كولومبيا درجة الدكتوراه سنة ١٩٢٣ . وقد انقطعت دراسته ابان الحرب العالمية الأولى حين خدم مع القوات الأمريكية الاستكشافية . وظل مورفي مدة تصل الى عقدين كاملين من ١٩٢١ الى ١٩٤٠ عضواً بهيئة التدريس في جامعة كولومبيا حيث حظي بسمعة عظيمة كمحاضر لامع وأستاذ ملهم . وقلد في عام ١٩٣٢ ميدالية بترل تقديراً لاسهاماته في الجامعة . وأشرف على عدد من الرسائل ، وخاصة في ميدان علم النفس الاجتماعي

فكان له أعمق الأثر في نفوس طلابه ومنهم من أصبح من علماء النفس البارزين . وفي هذه الفترة كتب مع رنسيس ليكوت كتاب الرأي العام والفرد (1938) Public opinion and the individual الذي أسهم اسهاما عظيما في انشاء مجال جديد في دراسة الرأي العام وقياس الاتجاهات . وفي عام 1940 نصب مورفي رئيسا لقسم علم النفس في سيمتي كوليج أوف نيويورك وظل بها حتى عام 1952 حين دعي لشغل منصب مدير البحوث بمؤسسة ميننجر في توبيكا ، كانساس .

ويحظى مورفي باحترام كبير كأحد المشتغلين بعلم النفس وقد تقلد عدة من المناصب الكبرى مسئولة في المنظمات المهنية لعلم النفس . فكان رئيسا لجمعية الدراسة النفسية للقضايا الاجتماعية ، 1938 ، ورئيسا لجمعية النفسية الشرقية ، 1942 ، ورئيسا لجمعية النفسية الأمريكية ، 1944 ، . ويكشف مورفي عن قيمه الانسانية والديمقراطية في اهتمامه بالمشكلات العالمية وبالذور الذي يمكن أن يؤديه عالم النفس في تخفيف حدة التوترات الدولية . وقد كتب مورفي عددا من المقالات في مجال العلاقات الدولية والسلام العالمي ، كما كان مسئولا الى حد كبير عن تخطيط وتحرير الكتاب السنوي لجمعية الدراسة النفسية للقضايا الاجتماعية الذي صدر بعنوان الطبيعة الانسانية والسلام الدائم (1954) Human nature and enduring peace وقد كتب فعلا جزءا كبيرا منه . وفي سنة 1949 طلبت وزارة التربية في الهند من منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) أن توفد مستشارا الى الهند لتنظيم عمل فرق البحث عن أسباب التوترات الاجتماعية في الهند . وقد طلبت المنظمة من مورفي أن يعمل مستشارا لهذا البحث ، وقام بهذا العمل لمدة ستة شهور في عام 1950 . وقدم مورفي تفسيراً غير تكتيكي non-technical عن انطباعاته وعن تقارير البحث التي أعدها ثمانية من علماء الاجتماع الهنود عن التوترات الاجتماعية في الهند والقوى البناة العاملة من أجل الوحدة الوطنية هناك . وقد نشر هذا التقرير تحت عنوان مبر هو «في عقول الرجال» (1953).

وقد أبدى مورفي اهتماما كبيرا كذلك بالمجال المعروف باسم البحث النفسي للظواهر الخارقة للطبيعة psychical research أو parapsychology وقام بمدد من الدراسات للظواهر الخارقة للطبيعة وهي الاستشفاف والتخاطر clairvoyance and telepathy كما تولى رئاسة جمعية لندن لبحوث الظواهر الخارقة للطبيعة .

وبرغم أن بنور نظرية مورفي الاجتماعية - الحيوية قد غرست في الطبعة الأولى من كتاب علم النفس الاجتماعي التجريبي ونبتت هذه البذور الى حد ما في مراجعته لهذه الطبعة بعد ست سنوات ، فانها لم تصل الى ازدهارها الكامل الا حين نشر مؤلفه الكبير عن الشخصية في عام ١٩٤٧ . ويمثل هذا الكتاب قمة شغف مورفي طوال حياته بموضوع بناء ، وديناميات ، وارتقاء الشخصية . وهو يعبر ، كما سبق أن بينا عن التزامه بمنهج جد تاليفي في فهم الشخصية . وتمتد أبعاد نظريته في واقع الأمر هي نفس أبعاد علم النفس برمته .

ويسمى مورفي نظريته في الشخصية بالمنهج الاجتماعي - الحيوي لانه يتصور الانسان بوصفه كائنا بيولوجيا حيا يرتبط مع بيئته المادية والاجتماعية بعلاقة متبادلة . والشخصية نتاج عملية ثنائية الأقطاب ، قطبها الأول في داخل الجسم والثاني في العالم الخارجي . والانسان - بتعبير مورفي - « نقطة عقدية nodal region » ، ومجال منظم داخل مجال أكبر ومنطقة للتفاعل المستمر ، وحركة متبادلة للطاقات الصادرة والواردة » (١٩٤٧ ص ٧) وتعمل هذه الضغوط الخارجية والداخلية التي تمارس فعلها على الكائن العضوي على تكوين شخصية الراشد . وهي لذلك بيولوجية واجتماعية معا .

ويستند منهج مورفي الاجتماعي - الحيوي بشكل اساسي على نظرية المجال . فهو لا ينظر الى الانسان بوصفه جهازا فرديا متمايزا ومنفصلا عن الأفراد الآخرين ، ولا بوصفه كلا محددنا لبناء يمكننا أن نعرفه اعتمادا على خصائصه البنائية فحسب ، بل هو « مجال يضم الكائن الحي والبيئة في بناء واحد محدد يرتبط كل جانب فيه برابطة دينامية مع بقية الجوانب الأخرى » (١٩٤٧ ص ٨) . وتقترب نظرة مورفي هذه كثيرا من الموقف الذي يتخذه ليفين .

ويختلف مورفي - على الرغم من ذلك - عن ليفين في انه يولي للأسس البيولوجية الاجتماعية اهتماما خاصا . وبينما يغفل ليفين ذكر الفسيولوجيا في الغالب ، يرى مورفي في أنسجة الجسم حقائق واقعية بالغة الأهمية . ولقد ظهر الاتجاه البيولوجي المميز لمورفي واضحا للعيان منذ عام ١٩٣١ حين اشترك مع زوجته في تأليف كتاب علم النفس الاجتماعي التجريبي . وتحظى الحقائق والمبادئ الخاصة بعلم الوراثة والأجنة والكيمياء الحيوية باهتمام خاص من مورفي يماثل الاهتمام الذي يسطيه للحقائق ومبادئ علم النفس التجريبي ، وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا الحضارية .

بناء الشخصية :

يعرف مورفي البناء بأنه الطريقة التي يحدد بها كل جزء من أجزاء الكل موضعه ومكانه بجانب الأجزاء الأخرى (١٩٤٧ ص ٩٩٧) . ويشير هذا التعريف سؤاليين الأول ما هي هذه الأجزاء ؟ والثاني كيف يوضع كل جزء بجانب الآخر ؟

ويختص السؤال الأول بتحديد الوحدات التي تتألف منها الشخصية على حين يختص الثاني بطريقة تنظيم هذه الوحدات . وعلى الرغم من أن مورفي يستخدم كلمتي بناء وتنظيم كل منهما مكان الأخرى ، فإننا سنتحدث عن محتويات الشخصية تحت عنوان بناء الشخصية وعن العلاقات المتبادلة بين هذه الأجزاء تحت عنوان آخر هو تنظيم الشخصية .

ويعتقد مورفي أن الشخصية تتكون من :

١ - استعدادات فسيولوجية تنشأ عما لدى الفرد من استعدادات تكوينية وجينية كامنة .

٢ - التقنية canalization وتتكون في بواكير الحياة .

٣ - الاستجابات الشرطية وتفرس في الأعماق بفعل التعزيز

المتكرر .

٤ - العادات المعرفية والادراكية وهي المشترك لكل من التقنية والاستجابات الشرطية (ص ٦٧٦٤ - ٧١٥) وبرغم أن هذه المكونات ليست غير قابلة للتغيير فإنها تقاوم التغيير فعلا وهي ثابتة نسبيا . وإذا توفرت لهذه المكونات بيئة مستقرة نسبيا فإنها تعمل على ضمان الاستمرار للشخصية .

أما الاستعدادات الفسيولوجية فهي سمات عضوية ، وهي ثلاثة أنواع :

١ - استعدادات عامة للأنسجة مثل معدل الهدم والبناء .

٢ - استعدادات خاصة ببعض الأنسجة مثل التوتر السنوي للمضلات .

- ٣ - استعدادات تنشأ عن ترتيب الأنسجة المتمايزة مثل الجوع .
 • وتعبير آخر فإن السمات العضوية تتكون من توترات الأنسجة .

وتتحول الاستعدادات الفسيولوجية الى سمات رمزية بفعل عملية الاشراف • conditioning فيتعلم الشخص أن يستجيب لمثير بديل أو رمز كما كان يستجيب للتوتر الأصلي في الأنسجة فعندما يتعلم الشخص أن يربط على سبيل المثال فكرة « أنا جائع » مع الحالة العضوية للتوتر الخاصة بالجوع ، فإن التمثيل الرمزي (أى الفكرة) يمكن فى حد ذاتها أن تستثير سلوك البحث عن الطعام ونشاط الاكل • الا أن هذه السمات الرمزية يعكس السمات العضوية تختفى اذا لم تعزز فى صورة نوع من الاشباع بين آونة وأخرى •

وكذلك يمكن أن توجه السمات العضوية اجتماعيا الى أشكال معينة من السلوك فيحدد المجتمع للانسان الذى يعيش فيه ، مثلا نوع الطعام الذى يأكله ، وطريقة اعداده بل وطريقة تناوله أيضا • ويسمى مورفى هذه العملية بعملية التقنية ويعرفها بأنها خطوة الى الامام • فى الاستجابة الفارقة للوسائل المختلفة لاشباع الباعث • (ص ٩٨١)

وكل سمات الشخصية هى فى نهاية الامر ، سمات عضوية ارتبطت ارتباطا شريطيا بمثيرات بديلة أو وجهة الى أشكال معينة من السلوك •

ويقدر مورفى أن « العناصر النهائية فى بناء الشخصية هى الحاجات أو التوترات » (١٩٤٧ ، ص ٦٤١) والتوتر تركيز للطاقة فى نسيج خاص أو مجموعة من الأنسجة • وترتبط التوترات بعضها ببعض ارتباطا وظيفيا بحيث ينتقل التوتر فى منطقة ما الى المناطق الأخرى • « والنتيجة جهاز للتوتر ، يفصح بناؤه التنظيمى عن نفسه فى القوى النسبية للتوترات والجمود النسبى للعوائق التى تحول دون انتشارها » (١٤٩٧ ، ص ٦٤١) •

ويظهر عدد آخر من المحتويات شبه البنائية فى نظام مورفى • فهو يكثر من استخدام مفهوم الدور role بشكل واضح • والدور طريقة ثابتة نوعا للسلوك تفرضها الحضارة على الفرد • وتستقر هذه الأدوار ، فيما يبدو ، فى الشخصية تماما كتوترات الأنسجة وتتفاعل بعضها وبعض كما هو الحال بالنسبة للحاجات •

والذات جانب بنائي آخر في نظام مورفي ، وهو يعرفها ببساطة بأنها ادراكات الشخص وتصويراته لوجوده الكلي ، فهي « الفرد كما يعرفه الفرد » (١٩٤٧ ص ٩٩٦) الا ان الأمر يتكشف عن أن هناك عددا من الذوات فمثلا يحدثنا مورفي عن ذات مثالية وذات مجبطة . ويفترض أن هذه الذوات ترتبط بعضها ببعض ارتباطا ديناميا ، تماما كما ترتبط أدوار الشخص وحاجاته وسماته ارتباطا بنائيا في شكل تنظيم كلي يضمها جميعا .

ويستخدم مورفي أيضا كلمة أنا ego التي يعرفها بأنها جهاز للأنشطة المعتادة التي تدعم الذات أو تحميها مثل ميكانيزمات التبرير والتمهين والتعويض . وفي حالات نادرة ، مثل حالات تعدد الشخصية ، قد يوجد في الشخصية جهاز أو أكثر من الأنا كل منها مستقل عن الآخر . ويتبع مورفي في استخدامه لكلمات أنا وذات الطريقة التي استخدمها شين (١٩٤٤) .

وأخيرا ، فإن مورفي يستخدم عددا من المفاهيم الأخرى مثل عادة ، وقيمة واتجاه ، ومدرك ، وتصور ، وصورة ، وخلق ، ويعتبر كل مفهوم من هذه المفاهيم بنائيا طالما أننا نتصوره بوصفه مكونا من مكونات الشخصية . وعلى أي حال فكل هذه المفاهيم نتاج لتوترات الأنسجة التي خضعت لعمليات التقنية والأشراط . وتمثل توترات الأنسجة أو السمات العضوية ، كما يذكرنا مورفي دائما ، أحجار البناء للشخصية ، وهي وحدات بنائية للبيان النفسي للإنسان غير قابلة للتجزئة . ومفهوم السمة العضوية هذا هو واحد من أهم الملامح المميزة لنظرية مورفي ويحتل مكانا بارزا في منهجه في معالجة الشخصية .

تنظيم الشخصية

هناك ثلاث مراحل في تنظيم الشخصية : المرحلة الكلية والمرحلة التمايزية والمرحلة المتكاملة . وتتأقرب هذه المراحل الثلاث ؛ بشكل عام ؛ الواحدة بعد الأخرى خلال الارتقاء بالترتيب .

وفي الشكل الكلي من التنظيم ، لا توجد أجزاء متبايزة ، فكل شيء محتاجس فليست هناك تنوعات أو مدرجات أو سمات أو مناطق . وتنتشر الطاقة في الجهاز الكلي الذي ينشط ككل في الاستجابة للاستشارة الخارجية ويشمار عادة الى هذا النوع من السلوك الكلي بكلمة نشاط كتلي *mass activity* وتلك هي أول أو أقدم صورة من صور التنظيم ، وهي قالب غير متمايز ، ويبدأ ببداية الحياة نفسها .

وفي الشكل المتمايز من التنظيم ، توجد أجزاء منفصلة أو متميزة . فيستبدل انتشار الطاقة في الشخصية كلها ، بتوزيع لها على الأجهزة المتمايزة في الشخصية وهكذا تصبح استجابات الشخص نوعية بعد أن كانت عامة ، وتصبح ادراكاته وذكرياته واتجاهاته وأفكاره وقيمة متميزة بعد أن كانت موحدة . ويصير **الاتجاسي** والانفصالية ؛ والاستقلال ، خصائص أساسية مميزة لهذا التنظيم المتمايز .

أما النوع الثالث وهو المتكامل فإنه يمثل توحيد الأجزاء المتميزة في جهاز متشابك متواصل يعتمد كل جزء فيه على الأجزاء الأخرى . وتنتقل الطاقة فيه بكل سهولة من منطقة الى أخرى حتى يبلغ التواصل بين مكونات الشخصية المختلفة أقصى مدى له . وهكذا ينتظم سلوك الفرد ويصبح توافق الشخص بكليته مع بيئته هو الاعتبار الرئيسي . فالاعتماد المتبادل هو النعمة الرئيسية في هذا الأسلوب من التنظيم .

وليست هذه الأشكال الثلاثة من التنظيم سوى تجريدات ملأمة . ولا يعتقد مورفي وجود أي منها في حالة نقيه ، إذ يمكن أن توجد جوانب من كل هذه الأنواع الثلاثة في أي وقت في الشخصية ، وإن كانت شخصية الراشد أقرب في الغالب الى أن تكون منظمة طبقا للنموذج المتكامل ، على حين تميل شخصية الطفل الى النموذج الكلي .

ديناميات الشخصية :

« يدور هذا الكتاب كله (الشخصية) حول الدافعية ، حيث ينظر الى كل جانب من جوانب الشخصية في ضوء صياغة الدوافع وتمثلها وتداخلها وإخفائها والتعبير غير المباشر عنها » (مورفي ١٩٤٧ ص ٨٦) والدافع هو مدرج *gradient* للتوتر في نسيج ، وليس له بداية محددة أو نهاية محددة ، بل يرتفع وينخفض دائما في سلسلة مستمرة من تغيرات الطاقة . ويشل التوتر تركيزا للطاقة الحيوية أو العضوية في نسيج أو

في عدد من الأنسجة • وعندما يخف هذا التركيز ، ينخفض مدرج التوتر وعندما يزداد يرتفع المدرج الى أعلى وعموما فان خفض التوتر يعنى الاشباع كما أن ارتفاعه يعنى عدم الارتياح • ونحن نستخدم كلمة وعموما هنا لأن مورفي يلاحظ ارتباط الاشباع بارتفاع التوتر لا انخفاضه في بعض الأحيان • ويصدق هذا على المتعة التي تصاحب بلوغ قمة الهياج الجنسي ، أو تلك التي تصاحب ركوب جواد جامح • ولقد ظلت مشكلة ارتباط المتعة بزيادة التوتر مشكلة من مشكلات علم النفس وقد اعترف مورفي بعجزه عن حلها •

وليست الدوافع «محركات» أو «مخازن للوقود» عند مورفي بل هي « تجريدات على متصل continuum للنشاط لا يمكن تحديدها الا بشكل عام على أساس من موضعها أو من آثارها الشكلية» (١٩٤٧ ، ص ١٢٣) ويعد دافعا كل ما يحدث تركيزا للطاقة في منطقة معينة من الجسم كالمجموع أو العنصر أو الجنس أو ما يبعث النشاط في الجسم كله كالمنافسة أو الحب ، سواء كان ذلك بفعل تغيرات داخلية أو تنبيه من الخارج وقد يكون الدافع تقصا داخليا كالمجموع أو ميلا لنشاط خاص في مجموعة من العضلات أو حاجة حسية للون ، أو صوت أو ملمس أو ذوق ، أو انفعال خاص • وفي لغة مورفي الخاصة تحل كلمات توتر ، وحاجة ودافع بعضها محل بعض • ويتحقق تبادل الاتصال بين مختلف الدوافع عن طريق انتقال الطاقة من منطقة لأخرى في الجسم وتنشأ عن تبادل الاتصال شبكة من الدافعية • وتتكون هذه الشبكة من « جهاز من مراكز تجمع متباينة الشدة ، وتعمل الشبكات أو أجهزة الاتصال على نقل الطاقة من وإلى مراكز التوتر هذه ، ويكون النشاط العام للكائن الحي بمثابة القالب أو الوعاء ، وتعمل الاستجابات النوعية للمثيرات الداخلية أو الخارجية كمراكز للبلورة » (١٩٤٧ ص ١٢٠) • ولا توجد أي دوافع منفصلة ومتميزة طالما أن كل دافع هو جزء من بناء أو جهاز دافعي كلي • والغالب أننا نستطيع أن نتحدث فقط عن دافع معين بوصفه مركز تجمع أو منطقة متمايزة داخل الكائن الحي الكلي • ويهتم مورفي بالتمييز بين الحاجات البيولوجية والاجتماعية لأنه ينظر الى البيولوجي والاجتماعي لا بوصفهما مجالين منفصلين بل بوصفهما مجالا واحدا • وهكذا يصبح البيولوجي اجتماعيا والاجتماعي بيولوجيا •

ويعترض مورفي على الرأي القائل بأن الأنشطة المركبة تنتج عن إعادة توجيه الأشكال البدائية من الطاقة • بل تنتج الأنشطة المركبة لديه عن

وجود بناء دافعى مركب ، وهى لا تحدث لمجرد أن الأشكال البسيطة من النشاط قد شقت لنفسها قنوات جديدة . وتتفق هذه النظرة الى السلوك المركب مع مسلسلة أساسية لمورفى مؤداها أن الارتقاء يتقدم من حالة بسيطة لا متميزة أو شاملة خلال مرحلة من التمايز الى منتهى التكامل . وعندما يصبح نظام أجهزة التوتر أكثر تركيباً فان خفض التوتر يتطلب أنواعاً من النشاط أكثر تعقيداً . وليست دوافع الراشد مجرد اشتغاقات عن حاجات الرضيع ، بل ان لها خصائصها التى تظهر على أساس عامل تزايد التعقيد .

وتتميز نظرية مورفى الدافعية بالحاجتها على الحاجات الحسية والحركية وهو يعتبر تغيير التوترات فى أعضاء الحس والعضلات أساساً لشعور الانسان بالابتهاج لمنظر غروب غلاب مثلاً ، أو نغمة موسيقية أو ضربة جولة صائبة ، والكثير غيرها من المناشط الجمالية والحركية . واخلاقاً مع النظريات الأخرى فى الدافعية التى تختزل الاهتمامات الفنية واليدوية الى بواعث مثل الجنس أو الجوع أو الانجاز ، يعتقد مورفى أن هذه الاهتمامات تنشأ كنتيجة مباشرة لتوترات فى مناطق خاصة فى الجسم والحقيقة أن أشياء مثل تذوق الموسيقى وحب المصارعة ليست سوى سمات عضوية . وتذهب متضمنات هذه الخاصية المميزة لنظرية مورفى فى الدافعية الى مدى بعيد جداً . فهى تعنى مثلاً أن ما تسميه النظريات الأخرى بواعث مكتسبة أو متعلمة لا يخرج عن كونه فى حقيقة الأمر سوى بواعث عضوية . وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو الى أن نلجأ الى مفهوم الدافعية الثانوية أو الاستقلال الوظيفى تفسيراً لاستمرار هذه الدوافع . وهذه الدوافع تستمر لأنها داخلة فى بنى الكائن الحي بحكم التطور وليس بحكم التعلم . وقد يحب الشخص نوعاً خاصاً من الموسيقى لأنه يهدىء أو يهيج توتراته العضوية ، لا لأنه يرتبط بذكرى سارة عن هدهدته لينام ، أو عن مشاركته فى اللعب بمصاحبة هذا النوع المفضل من الموسيقى . وعلى الرغم من أن مورفى لا ينكر وجود دوافع مكتسبة فان مفهومه عن الحاجات الحسية وحاجات النشاط يعلى كثيراً من مجال سيطرة التوترات الأصلية الفطرية .

وخلال الارتقاء تصبح ديناميات الشخصية أكثر اتزاناً وجموداً فتقاوم ضغوط البيئة أو تتطلب « طريقة مرتبة قبلاً الى حد كبير أو قليل » (١٩٤٧ ص ٧٣٠) حتى تمارس هذه الضغوط فعلها على الانسان . أى أن الشخص ينتقى من بيئته ما يتناسب مع حاجاته ، على حين يظل غافلاً عن

كل ملامح العالم الخارجي غير ذات الدلالة بالنسبة له . اما اذا نم يوفى العالم الخارجى للفرد موضوعات هادفة مناسبة (حرمان) أو اذا فرض نفسه عليه على الرغم منه (خبرة صادمة) فان الاتزان ينهار فى ديناميات الفرد النفسية . وذلك أمر لا يحتمل وقوعه بالنسبة للشخص المتكامل .

ولما كان التمييز بين العقل والجسم أمرا غير ذى موضوع فى نظر مورفى فانه لا يرى ضرورة لتمييز الطاقة النفسية عن الطاقة الفيزيائية كما انه لا يرى داعيا لمناقشة كيفية تحول الطاقة من شكل لآخر .

نمو الشخصية :

تعد وجهة نظر مورفى فى أساسها نظرة تكوينية فى الشخصية . ولقد كرس معظم جهوده من أجل وضع فروض محددة وشاملة معاً ، لارتقاء الشخصية ، فالشخصية متصل متدفق لوقائع الكائن الحى - البيئية ، (١٩٤٧ ص ٢١٠) .

مراحل النمو :

يتبنى مورفى وجهة نظر عامة فى مسار الارتقاء تقول بأنه يتكون من ثلاث مراحل . الأولى مرحلة كل لا تمايز حيث يستجيب الجسم للتنبية ككل تقريبا . وتجسم حركات الرضيع الدودية هذا النوع من الاستجابة . وفى المرحلة الثانية . تمايز بعض الوظائف المستقلة من هذا النسيج الأم وتتضافر هذه الوظائف المتمايزة فى المرحلة الأخيرة فى وحدة منظمة ومنسقة . وعلى الرغم من اعتماد وجهة النظر هذه على دراسات خاصة بالنمو الجسمى ، فان مورفى يعتقد أنها تصلىق أيضاً وبفهم العرجة على ارتقاء الشخصية . وليست هناك حدود زمنية قاطعة بين مراحل الارتقاء الكلية الثلاث، الشاملة والمتمايزة والمتكاملة بل تتداخل الوحدة مع الأخرى . وقد نرى تفهقرا للخلف الى مرحلة سابقة من مراحل النمو (نكوص) أو تقفعا للامام الى مرحلة تالية (استباق) . بل وقد يسبق الارتقاء فى بعض مكونات الشخصية بعضها الآخر ، ويتباين مستوى والارتقاء لدى الافراد المختلفين تبايناً واسماً . وتسفر كل مرحلة فى نهايتها عن عدد من الوظائف المميزة لها التى يصعب تتبع نشأتها فى مراحل سابقة .

الكائن العضوى والبيئة :

اختلف علماء النفس طويلا حول مشكلة التأثير النسبى للوراثة والبيئة على السلوك وهى ما تسمى عادة بمشكلة « الطبع والتطبع » ، « nature versus nurture » . ويلج بعض علماء النفس الحاحا على المحددات التكوينية ، على حين يعتبر البعض الآخر البيئة محددا أكثر أهمية للسلوك . ويدلى مورفى بدلوه فى هذا الخلاف فيقدم فكرة حكيمة مبتكرة . فهو يرفض تماما الفكرة الشائعة التى تضع الوراثة فى مقابل البيئة كفهومين متعارضين ، بل ويعتقد أن القول بتوريث سمات معينة تامة النمو واكتساب بعضها الآخر عن طريق الأشراف البيئى ليس الا كلاما من قبيل ماثور القول الشعبى . ما الذى يراه مورفى اذن ؟ انه يقول :

« ولكن اذا كان الكائن الحى جهازا من الانسجة المتغيرة بفعل دينامياته الخاصة من ناحية وفاعله مع العالم الخارجى من ناحية اخرى ، فهو يكتب اذن خصائص جديدة باستمرار ، وهو لا يكتب هذه الخصائص بمعنى اضافة جديد الى القديم ، بل من الاحوال بل بمعنى تعديل لما هو موجود بالفعل . فلذا اختلف كائن من غيره من حيث التكوين اصبح اكتسابه لنفس النزعات ونفس الطريقة امرا مستحيلا » وتكشف كل خاصية مكتسبة من التكوين الموروث للكائن الحى مثلما تكشف عن فعل القوى الخارجية . فليست النزعات والسمات والصفات الجديدة التى يكتبها الكائن الحى اشياء تلصق او تثبت كطوايح البريد التى تلصق على الخطاب . بل ينمو الكائن الحى الى مراحل جديدة من السلوك بفعل صورة او اخرى من صور الضغط الخارجى ، ما دامت الحياة مستمرة . وبالمثل يعد استخدام كلمة « سمات مكتسبة » حاصل حاصل لان كل السمات تكتسب بتأثير نوع او آخر من انواع التفاعل مع قوى البيئة . وقد اى حين من الدهر لم تكن فيه اية سمعة من السمات الموجودة حاليا ، وان شئنا الدقة قلنا ان اى سمعة موجودة بالفعل لن تبقى على حالها طويلا » (ص ٥١) .

ويستطرد مورفى قائلا « واذا صح القول الدارج بأنه لا يوجد شيء مكتسب صح القول أيضا بأنه لا يوجد شيء موروث » (ص ٥١) لأنه ما ان يبدأ الحمل وتلتقى كروموزومات الأب بكروموزومات الأم حتى تشرع القوى الخارجية المؤثرة على الخلية الحية فى تشكيل ارتقاء الكائن الحى الجديد .

التعلم :

يسطر مورفي الى التعلم بوصفه عملية تتضمن تفاعلا بين كائن حي له تكوينه الفردي وبين بيئة خاصة أو نوعية . وكنتيجة لهذا التفاعل تنشأ مجموعة من الارتباطات بين الحاجات والاستجابات ، وبين التوترات وطرق السلوك التي تغير التوتر . وتتكون الارتباطات بين حالة الأنسجة الداخلية وبين صور السلوك النوعية عن طريق عمليتين هما التقنية **Canalization** والأشراط **conditioning** . وتعمل هاتان العمليتان معا على انجاز كل التعديلات البيئية للسلوك .

التقنية :

استعار مورفي كلمة تقنية من العالم والطبيب النفسى الفرنسى بيير جاتيه ولكنه أضاف كثيرا الى دلالة هذا المفهوم . وهو قريب الشبه من تعبير التحليل النفسى ، شحن الموضوع **cathexis** وكذلك يشبه مفهوم التثبيت **Fixation** الى حد كبير . والتقنية هى العملية التى من خلالها يجد الدافع أو تركيز الطاقة طريقه للتفريغ فى السلوك . وهى ، شأنها فى ذلك شأن عدد كبير من تعبيرات علم النفس ، كلمة مصورة ، أو استعارة أو كناية ، بلغة البلاغة . والصورة التى يفترض أن الفرد يراها هنا هى صورة قناة أو قنطرة . ولذلك توحى ؛ كما قصد مورفي بوجود مخزن أو تركيز للطاقة فى منطقة من الجسم ، وأن هذه الطاقة تنتقل خلال قنوات الى منطقة أخرى من الجسم مثل المنطقة العضلية حيث تستخدم فى أداء عمل . وهكذا يشبه الكائن الحى المقنى مشروع وادى تينيسى **T.U.A.** الذى توزع فيه مصادر الطاقة (عمليات الهدم والبناء) على منطقة ضخمة وتستخدم فى عدة اغراض متنوعة .

ولكن كيف تنشأ تقنية معينة ؟ يشرح الانسان فى البداية فى اكتشاف خواص بيئته ويجرب فيها استجابات متنوعة بطريقة المحاولة والخطأ . ولكن سلوك المحاولة والخطأ هذا لا يجرى بصورة عشوائية تماما ؛ لان استجابات الفرد السابقة تعمل على ارشاده وتوجيهه فى اتجاهات شبيهة محددة . وهكذا يميل الطفل الذى يعانى حاجات سمعية تفوق حاجاته البصرية الى اختيار عينات سمعية أكثر من اختيار عينات بصرية . وعندما تثبت استجابة معينة لحاصية معينة من خصائص البيئة قدرتها على تحقيق

الاشباع يميل الشخص الى التنبئ على هذه الوسيلة في تفرغ الطاقة .
وفي كل مرة يتكرر هذا السلوك مصحوبا بالاشباع الناتج عنه تزداد القناة
الموصلة بين الحاجة والاشباع عمقا .

وتعتمد قوة التقنية على أربعة عوامل :

- ١ - قوة الحاجة ، أى مدى تركيز الطاقة داخل الأنسجة .
- ٢ - شدة الاشباع وهو مقدار التغير الحادث في التوتر .
- ٣ - مرحلة الارتقاء المعينة التي بلغها الشخص نفسه .
- ٤ - تواتر الاشباع .

ومع أن مورفى لا يقدم على محاولة تقدير الاسهام النسبي لكل من
العوامل فانه يسلم بإمكان قيام أى منها بوظيفة الأخرى . وربما كانت
حاجة الشخص واشباعها ضعيفين ؛ ولكن التكرار الكافي للخبرة قد يؤدي
الى تقنية على جانب من القوة . ومن الناحية الأخرى فقد يؤدي الاشباع
المفاجيء لحاجة ملحة محبطة الى تقنية قوية دون حاجة الى أى ممارسة
أخرى لهذه الخبرة .

ويلج مورفى على أهمية أنواع التقنية التى تتم فى بواكير الحياة -
وهو يعتقد أن تأثيرها يظل فعالا ما دامت الحياة مستمرة . وقد تطمس
هذه التقنيات المبكرة بتراكم التقنيات الجديدة فوقها ، ولكنها لا يمكن أن
تختفى تماما من الوجود . وتعود هذه التقنيات الى الظهور فى صورتها
الأصلية فى ظروف معينة مثل الاحباط ، أو الصراع أو القلق ، ويمكننا أن
نرجع كثيرا من صور النكوص الطفلى لدى الكبار فى أوقات الشدة الى هذا
السبب . وهناك حقيقة أهم من النكوص ، تلك هى أن هذه التقنيات المبكرة
هى الأساس الذى تبنى عليه التقنيات اللاحقة .

« ليست الشخصية الانسانية حاجات نصب وليست ارتباطا
متبادلا بينها ، وكذلك فهى ليست نمطا عارضا من العلاقات بين حاجاته
داخلية والثيرات الاشرافية للحياة اليومية » بل هى فى الغالب الأهم
جهاز للحاجات منظم بطريقة تجعله يتجه نحو أنواع مألوفة من مصادر
الاشباع فهى جهاز من الاستباكات anticipations أو الإمدادات
preparations للدائرة بأكملها من الخبرات ذات قيمة قاهرة
لاتها الطرق النوعية التى تحولت من خلالها الحاجات المنتشرة والمعتمة فى
الماضى من تورات الى اشباعات . وتبدو هذه العملية كما لو كانت تسير
فى طريق واحد لا يمكن الرجوع فيه ، فتقدم مجلة الحياة بتزايد
اتجاهها نحو التبلور أو التجمع فى عدد من الانماط النمائير الثينة
البناء » (١٩٤٧ ص ١٧٠) .

لما كانت وجهة نظر مورفي في الدافعية تفترض وجود عدد لانهاثي من الحاجات والتوترات التي لا يحدها سوى عدد من الأنسجة والتغيرات وتجمعات التوترات الناشئة من هذه الأنسجة فان عدد التقنيات التي تحدث في حياة الانسان لابد أن يكون « لا نهائيا » أيضا . وربما كانت نظرية مورفي أكثر النظريات توفيقا في تفسير تعدد وتنوع الجوانب في الانسان . ففي نظريات كثيرة أخرى نرى الانسان في صورة نمطية وكانما صب في قالب واحد ، مقتصر على عدد محدود من الدوافع الأساسية التي يرجع اليها كل نشاط في شخصيته . أما مورفي فيضفي على الانسان تنوعا عظيما حين يقر بوجود عدد كبير جدا من الطاقات النوعية .

ويبرز مورفي أن التقنيات التي تجرى في جسم الانسان هي أساس نشأة مفهوم الذات لديه . اذ يؤدي التكرار المستمر لخبرات المتعة الحسية الجسدية الى تركيز الانتباه على الجسم وتمييزه عن جميع موضوعات العالم . وليست الذات في أساسها سوى صورة لجسم الشخص ، تنشأ بفعل التقنيات المحاذية لتوجيه جسمه وتبدي هذه التقنيات مقاومة كبيرة للتغير لأنها تمد الانسان بأشباع متصل . ومن مثل ذلك ، الصعوبة الشديدة التي نواجهها حين نحاول منع طفل عن مص أصابعه . ويفترض مورفي أن تقنيات - الذات هي النواة التي تتكون حولها جميع الأنواع الأخرى من التقنيات .

وللبواعث الحسية والحركية أهمية خاصة في تخطيط مورفي لتنظيم الأمور . فبدلا من أن يعتمد على عدد قليل من البواعث الأساسية ليفسر الطبيعة المركبة لتقنيات الراشد، كما فعل معظم المنظرين للشخصية، فسر مورفي الجهاز المحكم لاهتمامات الراشد وقيمه ، واتجاهاته وتفضيلاته ، بناء على اشباعها المباشر للحاجات الحسية وحاجات النشاط . فالشخص يأكل لأنه يشعر بالجوع ، ولكنه يفضل الاسباجتى على السلامون لأنه يحب مذاق الاسباجتى في فمه أكثر مما يحب مذاق السلامون . ويظل تفضيله للاسباجتى باقيا ، لا لارتباطه أو اشتقاقه عن دافع آخر عن طريق الاشراف ، بل لسبب بسيط هو أنه في كل مرة يأكل فيها الاسباجتى يجد أن الحبرة مصدر لذة في ذاتها ولذاتها .

ويوسع مورفي ، نطاق استخدام مفهوم التقنية ، بحيث يساعد في القاء الضوء على الكثير من مشكلات علم النفس . ولنأخذ على سبيل المثال

مشكلة الصراع • يوضح مورفي « أن في إمكاننا أن نصف الصراع وصفا نطليا بأنه صراع بواعث في صورتها المقناة ومن أمثلته حب موجه الى فردين وكلاهما مستحيل المال ، أو صراع ناشئ عن اتجاهات متناقضة • • خالتقنيات تؤدي الى سلوك متناقض نحو موضوع واحد (بما في ذلك الذات) ، (ص ٣٠٣) • ويمكننا دون صعوبة أن نتبين إمكان رد عديد من الصراعات الى أساس مشترك هو التقنيات المتعارضة ، وهو تصور بسيط ولكنه بالغ الفعالية بالنسبة لناحية بالغة الأهمية من سلوك الانسان • ولقد كان مفهوم التقنية واحدا من أكثر اسهامات مورفي نفعا بالنسبة لنظرية الشخصية •

الإشراط :

يقر مورفي بأن التقنية لا يمكن أن تحمل بمفردها عبء تفسير عملية التعليم • فما لا يخفى على أحد أن كثيرا من صور السلوك المتعلقة لا تؤدي الى اشباع مباشر للانسان بل وقد تؤله وتؤدي به الى شعور حاد بعدم الارتياح فالنشاط الذي لا يؤدي الى خفض التوتر ، يؤدي الى زيادته • ويصدق هذا على حالة ادخار النقود • فلماذا يعتاد الناس التوفير وينكرون على أنفسهم متعة الانفاق ؟ ويجب مورفي بأن ذلك نتيجة الاشراط •

والاستجابة الشرطية ، كما يعبر عنها مورفي نفسه « هي استجابة اعدادية preparatory أو استباقية anticipatory للانسجة المستعدة أو المتأهبة لخفض التوتر » (١٩٤٧ ، ص ١٩٣ - ١٩٤) ويعبر عن هذا بكل بساطة بأنه « باعث أعيد توجيهه » • وهكذا تتحول استجابة الفرد نحو النقود من الانفاق الى الادخار ولا يرجع السبب في ذلك الى أن الادخار مصدر لذة في ذاته ، بل لانه مرحلة ضرورية سابقة لأي انفاق على مدى واسع • فكلما زادت قدرة الفرد على الشراء شعر بلذة أكبر • والادخار استجابة شرطية لانه اعداد لانفاق نهائي • أما اذا قبل فرد على الادخار لجرد اشباع رغبته في تكديس المال ، كما يفعل البخيل فاننا نصبح بازاء تقنية لا استجابة شرطية •

والتقنية استجابة استهلاكية دائما بمعنى أنها تحدث تغييرا في مستوى التوتر والاستجابة الشرطية هي دائما اعداد لتغيير في التوتر، ولكنها

لا تتضمن تمييزا في ذاتها . واذا نشأت التقنيات فهي لا تختفى أبدا برغم أنها يمكن أن تتمثل أو تقمع . وتختفى الاستجابة الشرطية تماما اذا لم يتحقق ما هو مستيق منها فافلاس البنوك أو التضخم النقدي يُلْغى أن يؤدي الى احجام الناس عن الادخار . ولقد امتنعت كلاب بافلوف عن افراز اللعاب عندما لم يعقب الطعام الجرس . واذا كان افراز اللعاب استجابة لمثير سمى مصدرا حقيقيا للذة عند الكلب استمر في افراز اللعاب سواء وجد الطعام أو لم يوجد . وقد تحل الاستجابات الشرطية بعضها محل البعض ، فيحل الشراء بالتقسيط محل الادخار ، أما التقنيات فلا يمكن أن يستبدل بعضها بالبعض الآخر . وهكذا لا تَفْنِي حلوى البودنج في اشباع شهية الانسان الى السردين .

ويسهل تعميم الاستجابات الشرطية . ويعنى هذا أن الطريقة المعينة للاستجابة لموضوع معين في البيئة قد تتحول الى موضوعات بيئية أخرى . فيؤدي ادخار النقود الى جمع الطوابيع . واذا انتشرت الاستجابة الشرطية لدى الشخص الى عدد من الموضوعات أمكننا أن نقول أنه لديه نمط معمم من السلوك أو سمة *trait* ومن أمثلة ذلك أن يتخذ الشخص اتجاهاها استحواذيا معمما ازاء بيئته فيصبح مسكا يقشبت بكل ما يحصل عليه . وتتصف جميع التغيرات عن الاستجابة الشرطية المعممة بأنها اعدادية لا استهلاكية . فيعتمد الشخص المقتصد الى الادخار لأن الادخار سيساعده على تحقيق هدف نهائي مثير . وليس الاقتصاد مثيرا في ذاته ، بل الأخرى أنه وسيلة للاشباع .

وللأشراط وظيفة أخرى هامة بالاضافة الى اعداد الشخص لاشباع قادم . فالاستجابة الشرطية قادرة على اثارة التوترات الكامنة فربما لا يشعر شخص بالجوع مثلا ، ولكن شهيته للأكل تظهر فجأة حال رؤيته للطعام . ويرجع السبب في ذلك الى أن مرأى الطعام قد ارتبط ارتباطا شرطيا بالجوع في مرات سابقة . ويستثير الطعام عند ظهوره توترات الجوع التي ارتبطت به . الا أن هذا لا يعنى بحال أن المنبه الشرطي قادر على خلق الباعث . فاذا كان الشخص شعبان فانه لن يستجيب بالأكل لمنظر الطعام ، بل ولن يشعر بالجوع أيضا . ولا بد من وجود توتر قبل أن يتمكن المنبه الشرطي من أن يحدث أى تأثير . ويظل مورفي على اخلاصه للفكرة الأساسية القائلة بأن طاقات الجسم هي مصدر كل الدافعية ويستطيع المجتمع أن يوجه اتفاق الطاقة عن طريق انشاء عدد من الاستجابات الشرطية لدى الفرد وبتشجيع أو خطر تكوين تقنيات معينة ، ولكنه لن يقدر على غرس بواعث جديدة أو

إزالة بواعت قديمة • فالبواعت خصائص ملازمة للكائن الحي ، وهي المعطيات الأساسية في الشخصية • وبالطبع تختفي البواعت القديمة وتظهر الجديدة كنتيجة لعمليات عضوية مثل النضج • ولكن لا يمكن أن تكتسب البواعت بالتعليم كما لا يمكن أن يلغى تعلمها •

والى التقنية والأشراط مجتمعين ترجع كل أنماط الفعل المتعلمة • فإذا تعلم شخص أن يأتي فعلا معيناً ليعود عليه بأشباع مباشر ، كان هذا تقنية • أما إذا فعل شخص شيئاً حياً أو سلبياً فيما يتعلق بالخفض المباشر للحاجة ، ولكنه يقود في النهاية إلى حالة من الأشباع - فإن هذا يكون إشراطياً • والمبدأ الفعال في كلتا الحالتين هو التعزيز ، كما تسميه النظرية الحديثة في التعلم ، أو مبدأ اللذة كما يسميه التحليل النفسي • وتتفق نظرية مورفي في التعلم مع عدد كبير من النظريات (ثورنديك ، هيل ، وفرويد) من حيث أنها تقوم على مبدأ المنفعة hedonistic فنحن نتعلم الأشياء التي تمدنا باللذة ، وأن أكبر مآثر الإشراط كميدياً تفسيري هو قدرته على تفسير مداومة الإنسان على تحمل المشقة وتكوين عادات خالية خلوا واضحا من كل متعة • فهو يتعلم الأشياء لأنها ضرورية أو لأنه يعتقد أنها ضرورية لأشباعه النهائي • وهكذا يعنى دفتر التوفير لشخص ما رمزاً لسيارة في مستقبل حياته •

التعلم الإدراكي :

كانت نظرنا إلى التقنية والأشراط فيما سبق مقصورة على الاهتمام بهما من حيث علاقتهما بتعلم أفعال أو استجابات • وتصديق قوانين التعلم أيضا على ما أسماه مورفي « عادات الإدراك العميقة الجذور » وتنبئ هذه العادات من جانب على أساس من التقنيات التي تستند إليها ومن جانب آخر على أساس من جهاز الرموز الإشراطي conditioned symbol system وهي تعمل على تحديد معالم العالم المحيط بنا ، وإضافة معنى عليه وتوفير الاتزان له وكذلك إضفاء المعنى والاتزان على الذات في علاقتهما به • (ص ٧١٥)

ويسر النمو الإدراكي في مساره خلال المراحل الثلاث : السكلية ، وخلالها يظهر العالم كنوع من المميات الباهتة أمام الرضيع ، ومرحلة التمايز وفيها تبرز بعض الأشكال على الأرضية ، ومرحلة التكامل وتتكون فيها الأنماط الإدراكية • وعملا بتمسك مورفي بالخصائص الوظيفية لجمع العمليات النفسية ، فإن الإدراك توجهه الحاجة ، أو كما عبر مورفي في

كلمات نابضة « تظل الحاجات سابقة على المبركات ، فتوجد الحالة الدافعية أولا وتمارس تأثيرها على كيفية ادراك الانسان للعالم . فاذا تأثر النمط الإدراكي بالحاجة سمينا ذلك ذاتية autism » يعكس نمط العالم المبرك بدرجة كبيرة نمط الحاجات المنظم في الداخل» (ص ٣٥١) . ولكنه يعكس العالم الخارجي أيضا - فالادراك في حقيقة الأمر عملية ذات قطبين تنتظم طبقا للعالم الداخل بما فيه من توترات في الأنسجة ولعالم خارجي له وجود واقعي خارجي .

ويتسق نمط الإدراك أيضا مع نمط الفعل بقدر كبير أو صغير ، بحيث أن ما يفعله الشخص يعكس ما يدركه الى حد ما . وبعبارة أخرى يلعب مورفي على الوحدة الأساسية بين الدوافع والمبركات والأفعال . ولكن الحاجات هي التي تحتل مقعد القيادة وتقوم بتوجيه وضبط المسار الذي يسير فيه الإدراك والفعل .

ولقد بينا فيما سبق أن اعتبار الذات جانبا متميزا من الشخصية ينشأ من التقنيات الموجهة نحو جسم الشخص . وتعمل هذه التقنيات على وضع الجسم بأجزائه المختلفة في بؤرة الإدراك ، وهي اذ تجعله على صلة ارتباطية شرطية برموز لفظية معينة مثل « ذاتي » و « لي » و « ملكي » و « نفسي » و « أنا » تكون قد وضعت تحديدا للذات ك موضوع . وعندما يتم هذا - وهو يتم في السنتين الأوليين من الحياة- تصبح الذات شكلا إدراكيا مهيئا تنزع الى أن تنتظم حوله كل ادراكات الفرد وأنشطته . وهكذا تصبح الإدراكات « ادراكاتي » والأفعال « أفعالي » . وتنشأ « الأنا » I ك مفهوم توحيدى بارز في نظرية مورفي الاجتماعية الحيوية ، ويرجع الفضل في شعور الفرد باستمراريته برغم حياته وسط عالم متغير الى مفهوم الذات هذا .

التنشئة الاجتماعية :

لا ينكر مورفي دور الحضارة في صياغة الشخصية . وفي رأيه أن الحضارة تؤثر في الشخصية بأربع طرق مختلفة . فأولا لكل مجتمع جهازه التقليدي للإشارات أو الأدلة cues وبه يرتبط الطفل ارتباطا شرطيا وهو يتعلم النتائج المترتبة على الأفعال ما الذي يؤدي الى ماذا في مجتمعه المين . فاذا كانت العادة المرعية في مجتمع ما عقاب الطفل على البكاء ، فانه يتعلم أن يربط بين البكاء وغاقبته السيئة . وفي مثل هذا المجتمع يصبح

البيكاه أقل نسبيًا إذا قورن بمتعم آخر يتوقع فيه الطفل رعاية والديه حين يبكي . وهكذا يعد تعلم أوامر المجتمع وطاعة تعليماته في معظمه مسألة اشراط وتعلم ادراكي .

وثانيا يساهم المجتمع في تكوين الشخصية بفتح بعض المنافذ لتفريغ طاقة الباعث على حين يفلت بعضها الآخر . وبعبارة أخرى يساعد للجتمع الصغار من افراده على تقنية طاقاتهم عن طريق منظماته agents المختلفة وأولها الأسرة .

ثالثا ، يرى مورفي أنه يمكن احداث تحول كفي في الحياة الاندفاعية impulsive للكائن الحي الى حد ما عن طريق اثابة بعض الدفعاة وعقاب بعضها الآخر . ولا تختفي الدفعاة المعاقبة دائما ، بل قد تكبت وتعود للظهور مرة أخرى في صورة متكررة .

وأخيرا ، فإنه يمكن للمجتمع أن يشكل العمليات الادراكية والمعرفية لافراده حتى يتعلموا كيف يفكرون طبقا لمعايير مجتمهم ، وحتى ينزعوا الى اكتساب اتجاهات ومشاعر مشتركة .

ويؤدى بنا هذا الشرح الموجز لتأثير الحضارة على الشخصية الى اظهار كليهما ، الحضارة والشخصية ، كما لو كانتا كيانين مستقلين ومنفصلين . ولكن مورفي يرفض مثل هذه النظرة . فليس ثمة شيء مستقل ومنفصل بالنسبة له ، وان كنا نلجأ بهدف تسهيل المناقشة والشرح الى مثل هذا الخيال . وهو يعتقد أنه من الأهمية بمكان أن نقره بادراك الفرد لنفسه كشكل في نمط يضم شكلا وأرضية هي كل جماعة اجتماعية وان الشخصية ترتقى عضويا مع هذا الادراك للنظام الكلي الذي يحتوى الشكل والأرضية معا ، (ص ٧٦٦ - ١٩٤٧)

الأدوار :

يشغل مفهوم الدور role وتفاعلات الدور الذي صاغه بيتسون (١٩٣٦) مكانا بارزا في شرح مورفي لعملية التطبيع الاجتماعي للفرد . وهو ينظر الى الشخص المطبع اجتماعيا كما لو كان يؤدي عددا من الأدوار التي حددها له مجتمعه بناء على عمله ، وجنسه ، وعنصره ، ومهنته ، ودينه ، وبناء على انتصائه لجماعات أخرى . فالتوقع من الطفيل أن يؤدي دورا مختلفا تماما عن الدور الذي يؤديه الراشد . وهناك دور للذكور وآخر

مختلفة عنه للاناث • ويلعب ساقى « البار » دورا مختلفا عن دور صاحب البنك الذى يقوم بخدمته ويختلف دور الكاثوليكي عن الدور المحدد للبروتستانتى ، وكلاهما مخالف لدور اليهودى • فاللور يبدو وظيفة اجتماعية يتولاها الفرد ويتوقف على كونه عضوا فى جماعة •

ولا يقتضى اكتساب الدور مبدءا جديدا للتعلم • اذ تكفى التقنية والاشراط والتعلم الادراكى لتفسير تعلم الدور كما تكفى لتفسير بقية أنواع التعلم •

وقد تتصارع ادوار الفرد بعضها وبعض فتؤدى الى اضطراب شخصيته فقد يشعر الشخص بضيق شديد لأن دوره كمسيحي لا يتفق كلية مع دوره كرجل أعمال • ولا يقبل الفرد كل الأدوار راضيا بل قد يلجأ للمجتمع غالبا الى كثير من الضغط حتى يؤدى الشخص دورا معيناً • وقد تنجح الحركة المنسقة لمجموعة من الناس فى تغيير دور معين ، ومن مثل ذلك حركة حقوق المرأة • ولا تشتق الأدوار من التزامات الفرد نحو مجتمعه فحسب بل وتنشأ أيضا استجابة لأدوار الآخرين فيتكيف دور الحامد مع دور السيد ، ويشمل نظام الأدوار لدى الشخص عادة بعض ما يوازن أو يعوض الأدوار الأخرى فى النظام • وقد يوازن الدور السلبي الدور الايجابى ويوازن الدور الذكرى الدور الأنثوى • ويتعلم الفرد بالحبرة كيف يحدد مجموعة الأدوار التى تؤدى به الى حد أقصى من الاشباع •

الموقفية situationism

تنبه مورفى الى أن اتباع منطق نظرية الدور يؤدى الى منهج جديد فى دراسة الشخصية ، ذلك هو الموقفية • تلح الموقفية ببساطة على أن الناس يستجيبون على حسب ماتليه عليهم المواقف وأنهم يتخذون لانفسهم الصفات التى يتطلبها الموقف ، ان كانوا قادرين على التعلم ، بالغا ما يبلغ تباينهم البيولوجى •• فان صادف الانسان موقفا متغيرا كانت النتيجة دورا متغيرا وبالتالي شخصية متغيرة • (ص ٨٦٧ - ٨٦٨) وبعد اكتشاف فوائد هذا المنهج فى دراسة الشخصية ، وبعد أن لاحظ مورفى ميل علماء النفس الامريكيين الى تجاهل المواقف التى يواجهها الناس ، توصل الى استنتاج حكيم هو أن الموقفية تمدنا بشائسة اضييق بكثير من أن تعرض عليها الصورة الكاملة للشخصية • وهو يقترح على منظرى الشخصية أن يستفيدوا من نظرية المجال فيها يتم التوفيق والتكامل بين بناء وديناميات

كل من الكائن الحي والبيئة • والسبب كما يقول مورفي : « اننا لا نستطيع أن نعرف الموقف تعريفاً اجرائياً الا من حيث علاقته بكائن حي معين يحتويه هذا الموقف ، ولا يمكننا أن نعرف الكائن الحي اجرائياً بطريقة تمكننا من الوصول الى قدرة تنبئية بالسلوك الا من حيث علاقته بالموقف • فكل منهما يعمل على تعريف الآخر • وهما قابلان للتعريف اجرائياً ماداماً داخل مجال الكائن الحي - الموقف » (ص ٨٩١) .

البحوث المميزة وطرق البحث

تركزت اسهامات مورفي التجريبية أساساً في ثلاثة مجالات : دراسات في الاتجاهات خلال العشرينات والثلاثينات في جامعة كولومبيا ودراسات في الذاتية في أوائل الأربعينات في سيتي كولج ، وتجارب في بحوث الظواهر الحارقة للطبيعة *psychical* منذ ١٩٤٠ حتى يومنا هذا • وسنولى بحوث الذاتية اهتماماً خاصاً لأنها أكثر بحوثه ارتباطاً بالنظرية الاجتماعية الحيوية • ولكن مادام مورفي نفسه يعد البحث في الظواهر الحارقة للطبيعة باباً يفتح على زوايا جديدة للرؤية في نظرية الشخصية فاننا سنفرد قسماً خاصاً لعرض محاولات مورفي في هذا الصدد • ونحن اذ نترك كتابات مورفي المبكرة عن الاتجاهات وقياسها جانباً لا نعتى أن هذه الدراسات ليست بذات أهمية • فالعكس هو الصحيح ، فهناك اعتراف عام بأن الجهودات مورفي في هذا المجال صدقوا واسموا في العلوم الاجتماعية • ولقد كان مورفي وزملاؤه من أوائل من نظروا الى الاتجاهات بوصفها نابعة عن الشخصية وليس بوصفها استجابات لفظية أو آراء منفصلة عن الانسان ككل • ولذلك جمعت بحوثهم (انظر مورفي وليكرت ١٩٣٨ على سبيل المثال) بين الطرق التي تستخدم العينات الكبيرة واتجاهات السكان وبين الطرق ذات الطابع الاكليتيكي الصريح • وقد استخدمت دراسة ليكرت ومورفي التراجع الشخصية كوسيلة لاعطاء لمحة شخصية للبيانات الكمية وكذلك لتوفير الاستبصارات بمحددات الشخصية وراء هذه الاتجاهات ولقد عولج هذا الموضوع بدقة كبيرة في الطبعة المنقحة من كتاب « علم النفس الاجتماعي التجريبي » (١٩٢٧) .

دراسات الذاتية :

يشكل البحث في العلاقات المتبادلة بين مكونات الشخصية والعمليات المعرفية واحداً من أكثر مجالات البحث السيكولوجي ايجابية في هذه

الأيام . ولقد أظهر عدد كبير من الدراسات أن كلا من الإدراك ، والتعلم والتذكر والتفكير ، يتأثر بالحاجات والقسم والميول والمشاعر والحالات المزاجية والانفعالات (بارتليت ١٩٣٢ ، بليك ورامزي ١٩٥١ ، برونر وكريش ١٩٥٠ ، شريف ١٩٣٥ ، ١٩٣٦) وكانت نتيجة هذه الدراسات أنه لم يعد مناسباً أن نقيم حداً فاصلاً بين المعرفية والدافعية أو بين التفكير والوجدان أو بين العقل والفريضة .

وبرغم أن الفروض التجريبية الخاصة بالعلاقات المتبادلة بين الشخصية والمعرفية مشتقة ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، من عدد من المصادر النظرية مثل روشاك ، وموري ، وبارتليت ، وفرويد - فإن الكل يعترف بأن نظرية مورفي في الشخصية هي أكثر النظريات ملامية للتصدي لهذا المجال التجريبي الجديد . ولقد تم عدد كبير من دراسات الإدراك والشخصية قبل نشر مورفي لكتابه « الشخصية » ولكن هذا لا ينفي حقيقة أن تفكير مورفي منذ بداية الثلاثينات كان عاملاً مساعداً في توفير المناخ الذي ازدهرت فيه هذه الدراسات . وبالإضافة إلى ذلك ، قدم مورفي في عام ١٩٤٧ في كتابه أساساً نظرياً قوياً لهذه الدراسات حين أبرز أن الإدراك لا يمكن أن يكون عملية مستقلة بل هو مختلط دائماً بالخصائص الدينامية . ومعنى هذا أن الإدراك شخصي دائماً ولأنه كذلك فإن كل صفة من صفات الفرد تسهم فيما يدرسه . وكذلك قدم مورفي وتلامذته عدداً من الإسهامات التجريبية الهامة من خلال ما قاموا به من دراسات في الذاتية . وهي ما سنعرض له الآن .

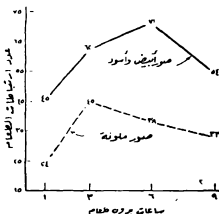
كان الطبيب النفسي السويسري يوجين بلورين هو الذي نحت كلمة ذاتية autism وتعرف بانها حركة العملية المعرفية في اتجاه اشباع الحاجة . يفكر الجماع في الطعام . ويتخيل المسافر الظالم . أنه يرى نبعا للماء على بعد . ويحيى العجوز ذكريات مآذاته الماضية . وتلدور أحلام بقطة المراهق حول انتصارات بطولية . وتلك كلها أمثلة للذاتية . حيث العمليات المعرفية تخدم حاجات الفرد .

ولتوضيح كيفية تأثير حاجة معينة ، الجوع على الإدراك مثلاً في ظل ظروف تجريبية ، قام ليفين وشبين ومورفي (١٩٤٢) بالبحث التالي : عرضت ثمانون صورة كل على حدة من خلف حاجز زجاجي يؤدي إلى جعل هذه الصور غامضة ومشوشة . فأصبحت رؤية المتحوص لهذه الصور غامقة لدرجة تسنح بعدد من التفسيرات . وبذلك كانت الصور من هذه الناحية تشبه بقع اختبار زورشاخ . وكان نصف عدد الصور ملوناً

والنصف الآخر أبيض وأسود وطلب من المحوصين أن يذكروا تداعيا عن كل صورة .

ولتوفير درجات متباينة القوة من باعث الجوع أجرى الاختبار على نفس المحوص بعد بقائه ساعة دون طعام ثم بعد ثلاث ساعات ، ثم بعد ست ثم بعد تسع ساعات . وكانت العينة التجريبية خمسة أفرادا اختبروا في ظل تلك الظروف . واختبر خمسة آخرون على أربع مرات منفصلة . فاختبر المحوص الأول بعد ٤٥ دقيقة من تناوله الطعام ، والثاني بعد ساعة من تناول الطعام ، والثالث بعد ساعة ونصف الساعة ، والرابع بعد ساعتين ، والخامس بعد ساعتين ونصف الساعة . ومن هؤلاء المحوصين الخمسة تكونت العينة الضابطة .

وأظهر أفراد المجموعة التجريبية الخمسة تزيادا في عدد المستعجات التي تدور حول الطعام (اعتبرت مواد الطعام وأدواته تداعيات طعام) ، بتزايد مدد الجوع التي تراوحت بين ساعة وثلاث ساعات . إلا أن نتائج الاختبارات التي أجريت بعد فترات جوع تزيد على ثلاث ساعات أظهرت اختلافا بين الاستجابات للصور الملونة وصور الأبيض والأسود . فأنخفض عدد مستعجات الطعام بالنسبة للصور الملونة على حين ازداد عددها بالنسبة لصور الأبيض والأسود عند الاختبار بعد ست ساعات جوع وعادت فأنخفضت عند الاختبار بعد تسع ساعات . ويبين الشكل الآتي هذه النتائج .



ولم يظهر أفراد العينة الضابطة اختلافات منتظمة في عدد مستدعيات الطعام عند استجابتهم في نهاية كل فترة .

ويفسر الباحثون نتائجهم على النحو التالي . فالإدراك كما يقولون يتأثر بعلميتين : ذاتية وواقعية وتؤدي العملية الذاتية بالفرد الى أن يرى ما يجب أن يراه . وفي هذه التجربة أدت العملية الذاتية بالشخص الجائع الى إعطاء مستدعيات طعام استجابة لصورة غامضة . وتؤدي العملية الواقعية بالشخص الى رؤية الأشياء كما هي في الواقع بصرف النظر عن رغباته الخاصة . وتورجح الزيادة في عدد مستدعيات الطعام الى رجحان كفة أثر العملية الذاتية على حين يعزى النقصان في عدد مستدعيات الطعام الى الأثر الأكبر للعملية الواقعية . ولا يخفى علينا أنه كلما زاد جوع الفرد اشتدت قوة العملية الواقعية .

وتدعم هذه النتيجة شواهد أخرى من نفس التجربة . فعندما يحجز المفحوص عن إعطاء مستدعيات لصورة من الصور يسمى هذا رفضاً وقد زاد عدد مرات الرفض من ٤١ مرة عند إجراءه بعد ثلاث ساعات الاختبار بعد ساعة جوع واحدة الى ٤٩ عند إجرائه بعد ثلاث ساعات جوع ثم الى ٦٥ بعد ست ساعات ثم ٨١ بعد تسع ساعات . فعندما ازداد المفحوصون جوعاً أصبح من الصعب عليهم تخيل رؤية شيء خفى معنى في الصور الغامضة . أي أنهم أصبحوا مدفوعين الى التخلي عن موقف ، هو من وجهة النظر الواقعية البحث خال تماماً من كل أمل في الإشباع .

ويفسر الفرق بين منحى الصور الملونة وصور الأبيض والأسود كالاتي : يقل الفموض في صور الألوان عن صور الأبيض والأسود . وتتيح قلة الفموض فرصة أكبر للعملية الواقعية .

ونتيجة لذلك تقل مستدعيات الطعام في الصور الملونة فتصبح ١٤٠ في مقابل ٢٣٢ وكذلك يتناقص عدد مستدعيات الطعام فيما بعد بفعل تزايد الجوع .

وتبين هذه التجربة فيما يمتد أثر الحاجة على الإدراك كما تؤكد نتائج الأعمال السابقة لسانفورد (١٩٣٦ ، ١٩٣٧) التي يعتبرها مورفي جاكورة التجارب في هذه المشكلة .

وفي التجربة التالية التي أجراها شافر ومورفي (١٩٤٣) على الدائية تحكمت الظروف التالية : كانت الحاجة المستخدمة هي الرغبة

في كسب النقود وعرض على المفحوصين أربعة رسوم جانبية (بروفييل) للوجه كل على حدة ، وطلب منهم أن يحفظوا أسماءها ولم يكن لتعلم هذه الأسماء أى علاقة بالتجربة سوى أنها تثير اهتمام المفحوصين بالنظر الى البروفيلات أثناء فترة التدريب . وكان المفحوص يمنح جائزة مالية صغيرة في كل مرة يظهر فيها البروفيلان ١ ، ٢ على الشاشة أما في حالة ظهور ٢ ، ٤ فكان يقتطع منه مبلغ صغير .



وبعد انتهاء مرحلة التدريب هذه ، ضم البروفيلان - بروفييل ١ الذي كان يثاب الى بروفييل ٢ الذي كان يعاقب - معا بحيث يكمل كل منهما الآخر في بروفييل واحد مشترك ، وكذلك اندمج البروفيلان ٣ ، ٤ في صورة واحدة (انظر الشكل الآتي) ثم عرض الشكلان على المفحوصين وطلب منهم أن يصفوا ما رأوا .



وقد أدرك المفحوصون جميعا البروفيلات المثابة عددا أكبر من المرات عن البروفيلات المماثلة خلال ستة عشر عرضا للأشكال المدمجة ويوضح الجدول الآتي هذه النتائج . وبعد انتهاء العرض السادس عشر بدأت الاستجابة للبروفيل المثاب في الانطفاء .

المسؤول

المفحوص	رأى البروفيل المثاب	رأى البروفيل المعاقب	لم يميز أيًا من البروفيلين
١	١٢	٣	١
٢	٩	٣	٣
٣	١٢	صفر	٤
٤	١٠	٦	صفر
٥	١٠	١	٥
المجموع	٥٤	١٣	١٣

وتوضح نتائج هذه التجربة الطريقة التي يدرك بها شخص ما شكلا غامضا ، أى شكلا يمكن أن يرى بطريقة من اثنتين يمكن التحكم فيهما بإثابة أحد الإدراكين وعقاب الثاني . كما تبين أيضا أن الذاتية لا يتعين أن تشوه أو تقمع أى عنصر حسي ، بل أنها قد تغير فقط العلاقات البنائية في الإدراك . وفي مثل تلك الحالة تصبح العلاقة البنائية هي العلاقة المألوفة للشكل - الأرضية التي اكتشفها علم نفس الجشطالت . وهكذا يصبح البروفيل المثاب شكلا على حين يصبح البروفيل المعاقب أرضية .

وهناك تجربة أخرى مماثلة وان استخدمت مادة ومفحوصين مختلفين . وهي التجربة التي أجراها بروشاكس ومورفي (١٩٤٢) . ففي المرحلة الأولى من اجراءات التجربة وهي المسماة بمرحلة قبل التدريب . طلب من المفحوصين أن يقدروا اطوال بعض الخطوط ونقل بعض الأوزان . وفي المرحلة الثانية وهي مرحلة التدريب . طلب منهم أن ينظروا الى بعض الخطوط وأن يتحسوا بعض الأثقال دون أن يعطوا تقديرا أو أى استجابة ظاهرة أخرى . وفي كل مرة يعرض فيها على المفحوص خط أطول أو تقبل أخف بمنح مكافأة مالية صغيرة . ويؤخذ منه مبلغ من المال في كل مرة يعرض عليه فيها خط أقصر أو وزن أثقل ، أما الخطوط والأثقال المتوسطة فكانت تثاب في بعض الأحيان وتعاقب في أحيان أخرى بطريقة عشوائية تماما . وكان الفرض من هذه المثيرات الوسيطة هو منع المفحوص من أن يكون

شعوريا قاعدة تحكم النظام المستخدم: للثواب والعقاب . وفي المرحلة الثالثة من التجربة وهي مرحلة ما بعد التدريب طلب من المفحوصين أن يقدروا أطوال بعض الخطوط وتقل بعض الأوزان مرة أخرى .

والبعت نفس الإجراءات مع مجموعة أخرى تتكون من ثلاثة غير أنهم لم يمنحوا أى مكافآت أو توقع عليهم أى عقوبات في المرحلة الثانية من التجربة بل كانوا ينظرون الى الخطوط ويتحسسون الأوزان فحسب .

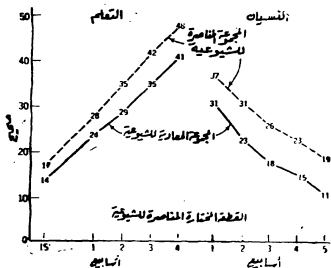
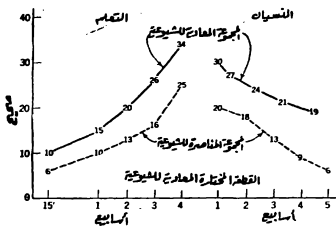
وقد وجد أن كل المفحوصين الذين منحوا المكافآت ووقع عليهم العقاب في حالة الخطوط التي هي أطول والأوزان التي هي أخف ، قد رفعوا معدل تقديراتهم للخطوط ، وخفضوا معدل تقديراتهم للأوزان في مرحلة ما بعد التدريب بالموازنة بمرحلة ما قبل التدريب . ولم يظهر أفراد العينة الضابطة أى تغيير منتظم في تقديراتهم بين مرحلة قبل التدريب وما بعد التدريب .

وتدعم هذه النتائج اقتناع مورفي الخاص بأن الإدراك يتجه في حركته نحو اشباع الحاجة . فعندما تصاحب الحبرة السارة (الجائزة المالية) إدراكا لنوع خاص من التنبيه وهو في هذه التجربة الخطوط التي هي أطول ، والأوزان التي هي أخف ، يميل الفرد الى ادراك كل الخطوط والأوزان وكأنها أطول وأخف مما هي في واقع الأمر . وهكذا يتعدل الإدراك بفعل حركته صوب الحبرة السارة ، وابتعاده عن الحبرة المؤلمة .

وقد بحث ليفين ومورفي (١٩٤٣) اثر الحاجة على التعلم والنسيان . فافترضا أن تعلم الفرد وحفظه لمادة تتساق مع اتجاهاته سيكون أكثر اشباعا (خفضا للتوتر) مما لو حفظ وتعلم مادة لا تتسق مع اتجاهاته . وقد أجريت هذه الدراسة على النحو التالي .

أختبرت مجموعتان من الطلبة على أساس أن أحدهما مناصرة للشيوعية والثانية معادية للشيوعية . وتعلم أفراد المجموعتين قطعتين من النثر أحدهما تؤيد الشيوعية على حين تنتقد الثانية . وطلب من كل مفحوص ان يقرأ فقرة منهما مرتين وبعد خمس عشرة دقيقة طلب منه ان يسترجمها من الذاكرة . وبعد استراحة قصيرة طلب منه أن يتعلم الفقرة الثانية بنفس الطريقة . وأعيدت كل هذه الإجراءات مرة كل أسبوع على مدى أربعة أسابيع . وبعد ذلك طلب من المفحوصين أن يستعيدوا هذه الفقرات مرة كل أسبوع وعلى مدى خمسة أسابيع

دون اناحة اى فرصة لتنشيط ذاكرتهم بقراءتها . وكانت النتائج تتفق والاتجاه الذى توقعه الباحثان . فكان تعلم وحفظ الطلبة المناصرين للشيوعية للقطعة المختارة التى تؤيد الشيوعية احسن من تعلم وحفظ الطلبة المعادين للشيوعية لها . وكذلك تفوق الطلبة المعاون للشيوعية على الطلبة المناصرين للشيوعية فى حفظ القطعة التى تنتقد الشيوعية ويبين الشكلان (ا) ، (ب) هذه النتائج بالرسم .



وقام بوستمان ومورفي (١٩٤٣) بدراسة مشابهة على تلاميذ الصف الثامن لتحديد أثر الاتجاهات على الذاكرة فأعدا في البداية مقياسا للاتجاه طبقاه على المفوضين لمعرفة اتجاهاتهم نحو النازيين واليابانيين وغيرهم ممن اشتروا في الحرب العالمية الثانية . وقد استخرجت بعض الكلمات الأساسية من عبارات الاختبار لتشكّل قائمة من أزواج الكلمات التي كان على المفوضين أن يتعلموها ومن مثل هذه الأزواج : نازيون - أمناء فإذا وافق الطفل تماما على العبارة التي تقول أن النازيين أمناء اعتبر هذا الزوج متفقا اتفاقا عاليا مع اتجاه الطفل ويعطى له الوزن + ٢ أما إذا لم يوافق الطفل اطلاقا على هذه العبارة فإن هذا الزوج يعتبر غير متفق أبدا مع مشاعر الطفل فيعطى له الوزن - ٢ . وتعطى للمشاعر التي أقل تطرفا في إيجابيتها وسلبيتها الأوزان + ١ ، - ١ . وهكذا حسبت لكل طفل درجة اتفاق مع كل زوج من أزواج الكلمات وبعد ذلك تعلم الأطفال قائمة الكلمات كلها باتباع طريقة أزواج المستدعيات كما تعلموا قائمة أخرى من أزواج الكلمات التي تتكون من كلمات مختارة وموضوعة في أزواج بطريقة عشوائية مثل دعوة - خوخ ، مر - زبد .

وظهرت ثلاث نتائج هامة . أولاها ، حفظ الأطفال أزواج الكلمات المتفقة تماما (+ ٢) أو غير المتفقة أبدا (- ٢) مع اتجاهاتهم بمستوى أحسن من حفظهم لأزواج الكلمات المتوسطة من حيث اتفاقها أو عدم اتفاقها مع اتجاهاتهم . وكان تفسير بوستمان ومورفي لهذه النتيجة مزدوجا فالكلمات ذات الدرجة العالية من الاتفاق قد تبرز بوصفها أشكالا ذات معنى ، مشبعة ، جيدة البناء لأنها تتفق مع اتجاهات الطفل ولأنها أشكال جيدة يسهل تعلمها وتذكرها . ويتفق هذا التفسير مع النظرية العامة في اللدائية عند مورفي التي تقرر أن العمليات المعرفية تتحرك صوب اشباع الحاجة . والعملية المعرفية هنا هي التذكر والحاجة المشبعة هي الاتفاق مع الاتجاهات الموجبة . .

ولكن لماذا كان تذكر أزواج الكلمات غير المتفقة بتاتا مع اتجاهات الطفل أحسن من تذكر الأزواج التي أكثر حيادا ؟ السبب هو أن الأزواج غير المتفقة كانت تبرز لأنها تمثل تحديدا لقيم الفرد وتهديدا لأمنه . فكان الاشباع في هذه الحالة اشباعا للحاجة الى حماية الذات . فنحن نوجه اهتمامنا نحو خطر من أخطر البيئة بقصد إزالته .

وكانت النتيجة الثابتة أن تذكر الأزواج المتفقة أفضل من تذكر

الانواع غير للتفقه . وتوحى هذه النتيجة بان الاشباع الموجب المتضمن في ادراك شيء محبوب يفوق في تأثيره على عملية الحفظ الاشباع السالب للمتضمن في وقاية الذات من خطر خارجي في البيئة .

وبينت النتيجة الثالثة الهامة ان حفظ القائمة الضابطة التي تتكون من ازواج غير متلازمة من الكلمات كان احسن من حفظ قائمة الاختبار . ويقدم بوستمان ومورفي التفسير التالي لهذه النتيجة - : وهو ان كلمات مثل زيد ، مدرسة ، خوخ ، ومعر لها ارتباطات ودلالات اكبر بالنسبة للطفل ولذلك تكون ابرز من كلمات مثل نازي وامين وايطالي ووحشي وياپاني ، ولانها اشكال جيدة فان حفظها يكون افضل .

وتؤيد هذه الدراسات فرض مورفي القائل بان العمليات المعرفية مشبعة بالديناميات الدافعية . ولكننا نخطيء اذ نستنتج ان الحاجات هي المحدد الوحيد لما ندركه او نتعلمه او نتذكره او نفكر فيه . فهناك محدد آخر لا يتوانى مورفي عن ابرازه وهو طبيعة الواقع نفسه . فمهما كان الجوع الذي يشعر به الشخص ضاريا فلن يدرك الكتاب على انه قطعة لحم او مقبض الباب على انه ثمرة بطاطس مشوية بل يظهر العامل الدائى في اقوى صورة عندما يكون الموضوع المنبه غامضا او عندما لا يعرف الفرد عن هذا الموضوع الا اقل القليل . ففي الظروف العادية غالبا ما تكون ادراكاتنا دقيقة تملأ .

ولم تغفل نظرية مورفي عن الدائبة او تجاربه التي اقام على اساسها هذه النظرية من التحديات . فقد تعرض باستور (١٩٤٩) لهذه النظرية وتلك التجارب بنقد مفصل . وتقوم وجهة نظره الاساسية فيما يبدو ، على اساس ان مورفي ومعاونيه لم يميزوا بين الحكم او التفسير وبين الادراك . ففي تجربة بروشانسكى ومورفي مثلا لم يوضحا لنا ان المفحوصين قد ادركوا بالفعل ، اى مروا بخبرة رؤية الخطوط القصيرة وكاتها اطول . فربما اقتصر الامر على انهم اعتقدوا فحسب انها اطول . اى ان باستور يقيم تمييزا هنا بين ادراك تقى وبين تفسير للادراك او حكم عليه فمن المنصور كما يشير باستور ان التفسير قد يتاثر بالحاجة دون ان يتغير الادراك باى طريقة بفعل هذه الحاجة .

اما بالنسبة لتجارب لفين وشيبن ومورفي فيعلق باستور بقوله : انهم لم يوضحوا لنا : هل المفحوصون قد راوا الاشكال الغامضة فعلا وكانها طعام او انهم حكموا عليها بذلك فحسب ؟ ويقيم باستور هنا ايضا

فاصلا بين الادراك بوصفه نوعاً من الخبرة الحسية المباشرة وبين الحكم بوصفه عملية معرفية فيقول مورفي أن الحاجة تؤثر على الادراك ، على حين يفترض باستور أنها ربما لا تؤثر على الادراك بل على المعنى الذي ينسب الى الادراك .

وقد رد مورفي وزملاؤه (شين وآخرون ١٩٥١) على انتقادات باستور فوجهوا اليه تساؤلا عن كيفية التمييز بين الادراك والتفسير بطريقة اجرائية وتجريبية . وهم يعتقدون أن التفسير والمعنى مما ليسا سوى جزء من العملية الادراكية ذاتها وآته ليس بإمكاننا أن نقيم تمييزا بينهما .

وأثار باستور أيضا سؤالا مرتبطا الى حد ما بنفس الموضوع حول الفرق بين التشويه الادراكي والانتقائية الادراكية . وقصد باستور بالتشويه الا يكون الموضوع المنبه مائلا بدقة في الادراك . فمثلا يدرك الخط (يحكم عليه) الذي طوله ثلاث بوصات على أنه أربع ، وترى الصورة الغامضة (لا تفسر) على أنها حقيقة شيء له معنى . أما الانتقائية فتعني عند باستور ادراك ملامح معينة في البيئة . فربما أدرك شخص جائح تفاحة ملقاة على الأرض دون أن يدرك عددا من الأشياء اللاصقة لها . وكلنا يسلم بوجود علاقة قوية بين الحاجة والاهتمامات وبين الادراك الانتقائي . ولكن بيت القصيد هو ، هل تشويه الحاجات والرغبات الادراك ؟ وهو ما لم يشرحه مورفي وزملاؤه كما يعتقد باستور ، ويصر مورفي وزملاؤه على امكان الاعتماد على الانتقائية الادراكية والتشويه الادراكي كوسائل لبيان اثر الدافعية على الادراك . كما يؤكدون أن الانتقائية والتشويه ليسا مستقلين بعضهما عن بعض . فاذا زادت الانتقائية أدت الى أحداث تشويه في ادراك المنبه .

البحث الروحاني (في الظواهر الخارقة للطبيعة) :

يمد جاردنر مورفي أحد كبار علماء النفس ممن ابدوا اهتماما ايجابيا بالبحث في المجال المعروف بالبحث الروحاني وهو المجال الذي يشمل ظواهر مثل الاستشفاف clairvoyance والتخاطر العقلي mental telepathy ويسمى هذا الفرع من علم النفس الذي يشمل البحث الروحاني ما وراء علم النفس الباراسيكولوجي وتضع أهمية استدلالات مورفي في الباراسيكولوجي - وهي

نظرية وتجريبية في الوقت نفسه - من انتخابه لمنصب رئيس جمعية لندن للبحث الروحاني .

وليس في نيتنا أن نعرض الأعمال التي قام بها مورفي وزملاؤه لأن ضيق المساحة يحول بيننا وبين أن نعرض بطريقة شافية لمسيح التعقيدات الموجودة في هذا المجال من البحث ، وهو مجال بالغ الصعوبة والتحدى . ويرجع السبب في ذكرنا له على الإطلاق الى أن آراء مورفي فيما يتعلق بالعمليات فوق العادية paranormal انما تمثل جانباً أساسياً من نظرية مورفي في الشخصية ولذلك فهي تقتضى منا قدراً ، ولو ضئيلاً ، من الاهتمام اذا اردنا أن نحصل على صورة كاملة عن مفهومه غي الشخصية . ولقد عرضت الآراء التي لم ترد في كتابه (الشخصية) بشيء من الاستفاضة في الخطاب الذي القاه عند الاحتفال بتنصيبه رئيساً لتلك الجمعية (١٩٤٩ ، انظر أيضاً ١٩٤٥ ب) .

ويعتقد مورفي أن هناك من الشواهد ما يبرر افتراض أن كل الشخصيات الانسانية قادرة على القيام بالعمليات فوق العادية ولكن هذه القدرة تزوى عادة بفعل عوامل مختلفة مثل الانشغال بالعمل الحسي المباشر أو الدافعية أو الحواجز النفسانية الداخلية أو الجور الاجتماعي . ويكشف الناس القادرون على انتزاع انفسهم من سيطرة أعضاء الحس والذين يتوفر لديهم الدافع الى اجتياز التجارب فوق النفسية بنجاح والمقتنعون بالاستشفاف والتخاطر العقلي وممن لديهم قدر معقول من التوافق ، يكشف هؤلاء الناس غالباً عندما يختبرون في ظروف تتفق مع تكوين شخصياتهم عن امكانيات فوق عادية . فقد حصل بعض المفوضين ممن يقتنعون بالاستشفاف على درجات زادت زيادة ذات دلالة عما تسمح به الصدفة عندما طلب منهم تسمية عدد من الأشكال الهندسية البسيطة المخيأة عن ناظرهم (شميدلر ومورفي ١٩٤٦) . أما المفوضون الذين لا يعتقدون الاستشفاف فقد حصلوا على درجات تختلف اختلافاً ذا دلالة عما تسمح به الصدفة ولكنها في اتجاه سلبي . وتوضح هذه النتائج أن « ارادة عدم الاقتناع » تؤثر على أداء الشخص مثلما تؤثر « ارادة الاقتناع » لديه .

وفي دراسة تتبعية قام بها شميدلر تبين أن الأشخاص المتواقفين اجتماعياً (وفقاً لمقياس رورشاخ) سواء كانوا مقتنعين أو غير مقتنعين يحصلون على درجات تفوق أو تقل عن أثر الصدفة بشكل ملحوظ على حين لا يزيد أداء المقتنعين أو غير المقتنعين من غير المتواقفين اجتماعياً من أثر

الصدفة . وتوحى هذه النتائج وأمثالها التي تقيم علاقة ارتباطية بين أبعاد الشخصية ونتائج البحوث فوق العادية الى مورفي بأن هناك أبعادا فوق عادية في الشخصية يرجح أنها تتبع القوانين التي تتبعها الأبعاد العادية .

ويستخلص مورفي من المكتشفات المتعلقة بأثر الجو الاجتماعي على ظهور أو كف الظواهر فوق العادية فرضا مثيرا . إذ تبين هذه النتائج أن شخصية المجرى عامل هام في إحراز النجاح أو الاخفاق . فقد يحصل المجرى غير المقتنع بالتخاطر على نتائج سلبية ، على حين يحصل مجرب آخر مقتنع به على نتائج ايجابية . وفيما يلي النص الذي ورد فيه هذا الفرض من خطابه الافتتاحي في جمعية لندن للبحث الروحاني :

« أتى اطلب اليكم ان تنظروا في فرض بسيط نوعا وساذج ومثير للاضطراب وهو تصور يشير لا الى الروعة البارزة والاستقلال المتبع للشخصية ، كما نحب دائما أن نصورها : بل الى الشخصية كنقطة ارتكاز او منطقة تركيز نسبي وسط مجال من القوى المتداخلة الشاملة والركبة حيث لا يوجد ثمة تفرد تام لاي منا ولا انجراف تام في لجة كونية من اللاشخصية » (١٩٤٩ ، ص ١٤) .

ويوحى مورفي في كلمته البليغة هذه بوجود أبعاد نفسية تتماهى *transcena* على الشخص الفرد ذات طبيعة عبر شخصية *transpersonal* وبين شخصية *interpersonal* . وإذا صح هذا الرأي فانه يوجد هناك مجال لعلم النفس الاجتماعي تبرز قواعده فوق دراسة الشخصيات بوصفها كينونات فريدة .

وفي ختام هذا الجزء يجدر بنا أن نذكر أن مورفي قد استطاع بما له من المام واسع بالنظرية السيكلوجية وبطرائق البحث أن يجري عددا من التجارب الأصلية والماهرة في الباراسيكلوجي . وقد تجاوز مورفي في محاولته تحقيق التكامل بين البحث في الشخصية والبحث الروحاني حدود المجالين . ورغم عبوس علماء النفس في وجه هذه الجهود . فان مورفي يواصلها لاعتقاده الراسخ بانها تزيح الستار عن أبعاد جديدة في الشخصية . وربما تبين فيما بعد أن هذه هي أهم أعمال مورفي على الإطلاق .

الكلمة الراحنة والتقويم :

ان تقويم منهج مورفي الاجتماعى الحيوى فى الشخصية وتقدير مكانته فى الموقف المعاصر يواجهنا ببعض الصعوبات . فليس لمورفي مجموعة متميزة من الحواريين تعمل على تنمية ونشر وجهة نظره كما هو الحال مع الكثيرين من المنظرين مثل فرويد ويونج وليفين وسوليفان وروجرز . حقيقة أنه قد فتح الطريق أمام عدد من علماء النفس الشبان مثل رنسيس ليكوت ، وبراهاام ماسلو ، وتيودور - نيوكمب، وليوبوستمان الذين أصبحوا من العلماء البارزين فيما بعد ، ولكنهم ليسوا حواريين بحال من الأحوال . كما أن موقف مورفي لم يسبق أن طرح للفحص والنقد العام بأى درجة كبيرة . فليس له من المناصرين من يرتفع صوته ، وليس له من الناقدين من تسمع كلمته . ولم تكن النظرية الاجتماعية الحيوية أرضا للسباق ولا ميدانا للقتال . ولكن هل يعنى هذا أنه ليس للنظرية الاجتماعية الحيوية أى تأثير أو أنها قد مرت مرور الكرام ، أو أنها نظرية ميتة ، بعثت من بين الأموات فى هذا الكتاب ؟ بالطبع لا .

اننا نعتقد ان المنهج الاجتماعى - الحيوى الذى صاغه مورفي يعد واحدا من اكثر تيارات علم النفس الحديث حيوية ونفوذاً . ولم تكن هذه النظرية بحاجة الى مرئدين متعصبين كما لم يكن لها سوى القليل من النقاد لانها بنيت داخل عصب علم النفس ذاته .

وادلتنسا على ذلك هي الآتى : أن النظرية الاجتماعية - الحيوية نظرية تاليفية ، وظيفية ، كلية ، ونظرية مجال . وهى كلها صفات يحترمها معظم علماء النفس فى أى صياغة نظرية . وسنعرض لهذه الصفات فى علاقتها بمورفي من ناحية وفى علاقتها بالموقف المعاصر من ناحية أخرى .

ان منهج مورفي الاجتماعى - الحيوى ، كما سبق أن أشرنا فى بداية الفصل هو نظام تاليفى . وهو تاليفى لا لأنه يستمر المفومات والمبادئ والقوانين والفروض والبدهييات من غيره من النظريات فحسب وانما لأنه يدخل فى اعتباره أيضا جميع نواحي الفرد ويبنته وجميع فروع علم النفس - الطفلسل ، والفسبولوجى ، والاجتماعى واللاكلينيكى . . الخ . فاذا كانت الفئدة هامة ، فان النواحي الاجتماعية هامة كذلك . والحتمية البيوكيميائية لا تزيد ولا تقل فى أهميتها

عن المجتمعية الاقتصادية . والوراثة والبيئة لهما نفس المكانة وكذلك
النضج والتعلم . وتظل البواصت الداخلية مفهومات ذات سيادة حتى
يقرا المرء تفسير مورفي للموقفية . هناك كائن عضوي ولكن هناك ذات
كذلك . فكل ما يعتبره علماء النفس هاما لفهم الشخصية موجود
لديه . ولا يأخذ مورفي الأمر مأخذ الهواية ، وليست لديه شهوات
أو محظورات قوية أو كليشيهات أو شعارات ولا لغة مشتقة جديدة
أو أساليب مفضلة . وهو لا يقطع الصلة بالماضي ولكنه يعالج بشكل
متزن الموضوعات التي طالما ترددت وأقضت مضجع علماء النفس
لاجيال . وتعتبر النظرية الاجتماعية - الحيوية بالنسبة لمعظم
السيكولوجيين شيئا يقبله العقل ، على الأقل عقل السيكولوجيين .
فهي لا تنتهك أي قيمة من قيمهم الأساسية . وربما لا يتفوقون مع
الكثير مما يقوله مورفي ، وقد يرغبون في زحزحة مركز الثقل هنا
أو هناك أو يستبدلون بعبارة مورفي بعضا من عباراتهم المفضلة الا أن
هذه الخلافات تظل دائما خلافات عائلية . فعالم النفس العادي
يتوحد بشدة مع نظرية مورفي في الشخصية لأنها من نوع علم النفس
الذي تعوده .

وتأليفية مورفي ليست ترقيعا . فقد اظهر ذوقا وتمييزا فيما
استعاره من الآخرين وكان خلافا في ابتداع تنظيم جديد لما استعاره
من مواد ، كما انه فتح نوافذ جديدة كثيرة للنظر الى الشخصية . وفي
الوقت الذي ترتفع فيه أسهم المدرسة الحضارية في علم النفس
أو المدارس الاجتماعية النفسية ، فانه من المفيد أن يقرأ المرء الفصول
التي كتبها مورفي عن الكائن العضوي الحي . واذا حدث أن عاد لتحيز
البيولوجي الى علم النفس فان المرء يستطيع أن يعود الى قراءة
الفصول التي كتبها مورفي عن الفرد والجماعة ، ليستعيد النظرة
المتزنة الى الأمور . فالتوازن والتناسب والتنظيم والتأليف الخلاق
هي السمات البارزة في تأليفية مورفي .

والجانب الثاني من موقف مورفي الذي يجعله جذابا بالنسبة
للكثير من علماء النفس هو وظيفيته فمعد أيام وليم جيمس وجون
ديوى وج . آتجل اعتبر علم النفس الأمريكي أن العمليات النفسية
تلمب دورا وظيفيا في مساعدة الانسان على التوافق مع بيئته أو
السيطرة عليها . وهكذا فان العمليات النفسية في التحليل الأخير تملك
قيمة معاشية survival ، ومع أن جميع نظريات الشخصية المعاصرة
وظيفية بدرجة أو باخرى فان اتجاه مورفي الوظيفي أكيد وثابت .

والنظرية الاجتماعية الحيوية كما صاغها مورفي ذات اتجاه كلي **holistic** قوى . فكما لاحظنا في عدة مناسبات سابقة . لا توجد عمليات داخل الشخصية يمكن دراستها في حد ذاتها . فكل عملية تشترك في الكل . والادراك يتضمن القائم بالادراك والقائم بالادراك هو دائما شخص بكامله ذو احساس وانفعالات وحاجات واتجاهات للذات وميكانيزمات للآنا وباقي تلك الاشياء كلها . والفرد عندما يدرك فانه لا يتوقف عن الاحساس أو الاحتياج أو الدفاع عن نفسه فالادراك مشبع بجميع العمليات النفسية القائمة (مورفي وجونبرج ١٩٥١) .

وعندما يميز والاش (برونر وكرتشى ، ١٩٥٠) بين عملية ادراكية اولية وآثار الذاكرة فان مورفي يؤنبه لحلقه وانشقاقا في داخل الكائن وخلق تمييز مفتعل لا معنى له فلا توجد عند مورفي على الاطلاق عمليات معزولة وإنما تيار متدفق دائم من العمليات . وهو ينتقد كلاين لوقف مشابه . لتصوره الاتجاه عملية مستقلة عن الفردية البيولوجية للقائم بالادراك ويتساءل مورفي « لماذا لا يكون العامل المشترك الذي يربط هذه الأنواع (التي يتحدث عنها كلاين) بعضها ببعض استعدادا بدنيا صيغ خلال الحياة الاجتماعية في هذا الاطار المعين من العمليات الشكلية ، وبذلك يعكس كلا من العوامل الاجتماعية والبيولوجية في الوقت نفسه وخلال تداخلهما الكامل ؟ » (برونر وكرتشى ١٩٥٠ ، ص ٥٢) . ولا توجد في نظرية مورفي في الشخص أى انشقاقات أو انقسامات أو فواصل ، فالتداخل المتبادل والكلية الدينامية شاملتان . والشخص وحدة واحدة .

وفي النهاية فان مورفي من اصحاب نظرية المجال . فالكائن العضوي لديه لا يفصل عن العالم ولكنه كما يجب ان يقول ، « نقطة التقاء » **node** في مجال من القوى المتداخلة فيما بينها . ويمكن ان تنقسم هذه القوى الى فئات فيزيقية واجتماعية واقتصادية وهكذا ، ولكنها كلها عند مورفي مكونات لمجال موحد واحد . واذا تفسر أى واحد منها فان المجال كله ، بما في ذلك الشخصية ، يعتبره التغير ولن يكون الشخص هو هو في بيئة مختلفة . ووفقا لنفس المبدأ المجالى فانه عندما تتغير الشخصية ، تتغير أيضا قوى العالم الخارجى المتداخلة . فالشخص الجائع والشخص السبعان لا يوجدان في نفس المجال ولو كانا واقفين بعضهما الى جوار بعض . فكل منهما يستجيب للقوى الموقفية المتلازمة مع ديناميته الداخلية . ويرفض مورفي صياغات الكائن في مقابل البيئة ، وكذلك الكائن والبيئة ويفضل

عليهما الكائن - البيئة باعتبار ان الشرطة تمثل التداخل وعدم القابلية للانفصال .

ولقد وجه النقد الى المنهج المجالى للشخصية من حيث انه يبدو انه يشبه الشخص بسفينة لا دفة لها في بحر هائج في حين انه من الواضح انه يوجد قدر واف من الثبات والاستمرار فى الشخصية . وقد واجه حورفى هذا النقد بما عهد فيه من صراحة وبعد نظر . فاشير الى انه لا يوجد فى نظرية المجال شىء جوهرى يتطلب تفيرا لا نهائيا فى انماط القوى داخل الشخص او فى العالم الخارجى . فالمجال يستطيع ان يظل ثابتا معظم الوقت بل هو يظل كذلك . فهناك على سبيل المثال المتصلات البيولوجية التى تعتمد على الخلية الحية وعلى تناوبات النضج . والسكانن الحى لا يوجد فى تيار متغير دائم بل هو اميل الى ان تكون له انماط للنمو يمكن التنبؤ بها . كما ان التقنيات الاولى توفر نوعا من الثبات خلال حياة الشخص كلها . فضلا عن ذلك - كما يقول مورفى . فان قدرا كبيرا من استمرارية الشخصية يرجع الى تكرار نفس المطالب القديمة ونفس الضغوط القديمة على الفرد» (١٩٤٧ ، ص ٨٩٩) . وفى النهاية فان الثبات يتوفر عن طريق نمو نظام شديد الدقة من العادات التى تصبح غير قابلة للتغير نسبيا . ونظرية المجال كما صاغها مورفى تفسر كلا من التغير وعدم الاستمرار فى الشخصية كما تفسر ثباتها واستمراريتها .

هذه هى اذن نظرية مورفى الاجتماعية - الحيوية - انتاج ضخم ذو مجال واسع وابعاد عميقة . وربما كان مورفى نفسه اول من يعترف بان النظرية لم تتم وان وصفها بكلمة « منهج » اكثر صدقا من وصفها بكلمة « نظرية » وعلى اى الاحوال فان النظريات سواء كانت تلمة او غير تامة على درجة عالية من القابلية للاستهلاك . فما ان تؤدي غرضها فى اثناء الضوء على المناطق المهملة من البحث حتى يجب تنقيتها لتفسح الطريق لغيرها من الاضواء النظرية ويكتب مورفى بعقلية عالم النفس المتشكك فيقول :

« برغم كل هذه الدروس - دروس المانى - فاننا نكتب ونتكلم اليوم كما لو كان المحتوى والتكوين الكامل للانسان قد مرقا فى النهاية - ولكننا كاسلافنا سنعمل على استبعاد الاخطاء ، لا تلك التى تنشأ اساسا من التناقضات البسيطة فى المنطق ، وانما بالاعتراف باوجه القصور الاساسية لنظام التصورات القائم كله . ان الاعداد لهذا الهدم واعادة ميلاد المعرفة هو الذى يجب ان تتجه اليه البحوث الجادة » (١٩٤٧ ص ٩٢٧) .

BIBLIOGRAPHY

PRIMARY SOURCES

- Murphy, G. *Personality: a biosocial approach to origins and structure*. New York: Harper, 1947.
- Murphy, G., and Jensen, F. *Approaches to personality*. New York: Coward, 1932.
- Murphy, G., and Murphy, Lois B. *Experimental social psychology*. New York: Harper, 1931. Rev. Ed. (with T. M. Newcomb), 1937.

REFERENCES

- Bartlett, F. C. *Remembering*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1936.
- Blake, R. R., and Ramsey, G. V. (Eds.). *Perception: an approach to personality*. New York: Ronald Press, 1951.
- Bruner, J. S., and Krech, D. (Eds.). *Perception and personality*. Durham: Duke Univ. Press, 1950.
- Chein, I. The awareness of self and the structure of the ego. *Psychol. Rev.*, 1944, 51, 304-314.
- Chein, I., Levine, R., Murphy, G., Proshansy, H., and Schafer, R. Need as determinant of perception; a reply to Pastore. *J. Psychol.*, 1951, 31, 129-136.
- Levine, J. M., and Murphy, G. The learning and forgetting of controversial material. *J. abnorm. soc. Psychol.*, 1943, 38, 507-517.
- Levine, R., Chein, I., and Murphy, G. The relation of the intensity of a need to the amount of perceptual distortion: a preliminary report. *J. Psychol.*, 1942, 13, 283-293.
- Murphy, G. *Historical introduction to modern psychology*. New York: Harcourt, 1929. Rev. Ed., 1949.
- Murphy, G. *General psychology*. New York: Harper, 1933.
- Murphy, G. (Ed.). *Human nature and enduring peace*. Boston: Houghton, 1945a.
- Murphy, G. Field theory and survival. *J. Amer. Soc. psych. Res.*, 1945b, 39, 181-209.
- Murphy, G. *Personality: a biosocial approach to origins and structure*. New York: Harper, 1947.
- Murphy, G. Psychical research and personality. *Proc. Soc. psych. Res.*, London, 1949, 49, 1-15.

- Murphy, G. *Introduction to psychology*. New York: Harper, 1951.
- Murphy, G. *In the minds of men: the study of human behavior and social tensions in India*. New York: Basic Books, 1953.
- Murphy, G., and Hochberg, J. Perceptual development: some tentative hypotheses. *Psychol. Rev.*, 1951, 58, 332-349.
- Murphy, G., and Jensen, F. *Approaches to personality*. New York: Coward, 1932.
- Murphy, G., and Likert, R. *Public opinion and the individual*. New York: Harper, 1938.
- Murphy, G., and Murphy, Lois B. *Experimental social psychology*. New York: Harper, 1931. Rev. Ed. (with T. M. Newcomb), 1937.
- Pastore, N. Need as a determinant of perception. *J. Psychol.*, 1949, 28, 457-475.
- Postman, L., and Murphy, G. The factor of attitude in associative memory. *J. exp. Psychol.*, 1943, 33, 228-238.
- Proshansky, H., and Murphy, G. The effects of reward and punishment on perception. *J. Psychol.*, 1942, 13, 295-305.
- Sanford, R. N. The effects of abstinence from food upon imaginal processes: a preliminary experiment. *J. Psychol.*, 1936, 2, 129-136.
- Sanford, R. N. The effects of abstinence from food upon imaginal processes: a further experiment. *J. Psychol.*, 1937, 3, 145-159.
- Schafer, R., and Murphy, G. The role of autism in a visual figure-ground relationship. *J. exp. Psychol.*, 1943, 32, 335-343.
- Schneider, G. R., and Murphy, G. The influence of belief and disbelief in ESP upon individual scoring levels. *J. exp. Psychol.*, 1946, 36, 271-278.
- Sherif, M. A study of some social factors in perception. *Arch. Psychol.*, 1935, no. 187.
- Sherif, M. *The psychology of social norms*. New York: Harper, 1936.

الفصل الرابع عشر

وجهة نظر في نظرية الشخصية

ولقد وصلنا الآن الى نهاية مطافنا عبر اثني عشر نوعا رئيسيا من نظريات الشخصية . ولعل القارئ الذي اكمل تلك الجولة بشكل جدى سوف يبهره بالتاكيد ذلك الاختلاف والتمعيد في وجهات النظر هذه . فلقد أثبت كل نوع انه يتسم بلامح مميزة . كما أننا وجدنا في كل وجهة نظر شيئا ما ينبئ الموافقة عليه وتحبيته . ويبدو من المناسب هنا أن نتوقف وأن نحاول التعرف على ما يوجد من اتجاهات مشتركة بين نظريات الشخصية برغم اختلافاتها الشاسعة . ومن المهم أن يكون لدى الطالب احساس بفردية وتميز كل من وجهات النظر ، ولكن الذي لا يقل أهمية عن ذلك هو أن يكون واعيا بأى من الصفات المشتركة قد توجد في خضم ذلك العباب من التأكيدات المتصارعة والتعبيرات الفردية .

وفي هذا الفصل الأخير سوف نرجع الى نظريات الشخصية التي نحن بصددنا منقبين عن العمومية ، وسوف تنتظم مناقشتنا حول الأبعاد التي اقترحت في الفصل التمهيدي كأبعاد مناسبة لموازنة نظريات الشخصية بعضها ببعض . وسوف نقدم أيضا عددا صغيرا من القضايا التي تبدو لنا مهمة في تحديد التطورات القادمة في هذا المجال . وسوف نبين كملاحظة ختامية الى أى حد يكون من اللائم محاولة التاليف بين نظريات الشخصية للوصول الى نظرية عامة تحظى بالحد الأقصى من قبول جميع المشتغلين في هذا المجال وتكون في نفس الوقت أكثر فائدة من أى نظرية موجودة بالفعل .

الموازنة بين نظريات الشخصية :

سوف نركز في مقارنتنا بين نظريات الشخصية على الفروق في المضمون أكثر من تركيزنا على الفروق في الشكل . ويرجع السبب

الرئيسي في تجاوزنا عن الفروق الشكلية الى اعتقادنا بأنه في هذه المرحلة من التطور لا يوجد أساس للمفاضلة بين تلك النظريات من حيث تلك الفروق . اذ تفتقر تلك النظريات جميعا الى قدر كبير من التحسينات قبل أن يمكن اعتبار أنه قد توفر فيها حتى الحد الأدنى من الصلاحية بالنسبة للمحكات الشكلية كوضوح العبارة وكفاية التعريف . ورغم أن هناك بعض الفروق الملحوظة بين النظريات بالنسبة لتلك المحكات ، فإن تلك الفروق أقل بروزا وأهمية من تلك الفروق الموجودة في المادة أو في المضمون . وعلى أي حال فهناك ما يجب أن يقال فيما يتعلق بالخصوبة النسبية لمختلف وجهات النظر باعتبارها مصادر الهام للبحث . وسوف نمود للنظر في هذا الموضوع حين تكمل مناقشتنا للفروق بين النظريات من حيث المادة .

ويتضح من مناقشتنا لنظريات الشخصية المعاصرة أن أهمية تصور الكائن البشري كائنا كادحا وساعيا وغرضيا purposive قد أصبحت اليوم تحتل مكانة أقل مما كانت عليه منذ عشرين أو ثلاثين عاما . ولقد كان ذلك - خلال الثلث الأول من هذا القرن - يمثل نقطة خلاف فاصلة بين مختلف أصحاب النظريات النفسية . فلقد ركز ماكديوجال وواطسون وتولمان وغيرهم من الشخصيات الرئيسية الكثير من انتباههم على مشكلة ما اذا كان الإنسان غرضيا بالضرورة . حقيقة أن بعض أصحاب النظريات المعاصرين - مثل أولبورت وموراى وجولدشتين وروجرز وأنجيل وآدلر - يلمحون بشدة على الطبيعة الغرضية للسلوك إلا أن وجهة النظر هذه لا تلقى معارضة شديدة . وحتى أصحاب النظريات من أمثال ميللر ودولارد وشيلدون وايزنك وليفين الذين لم يظهر انهم ينظرون الى الفرض باعتباره امرا فاصلا في فهم السلوك ، لم يحاولوا وضع هذا الأمر كتمييز رئيسي بين موقفهم هم وبقية النظريات . ولقد يعتبر المرء أن تلك المشكلة العامة نسبيا والمتعلقة بطبيعة الإنسان الغرضية قد استبدلت بسلسلة من المشاكل التي أكثر تخصصا والمتعلقة بأمور كدور الثواب ، وأهمية الذات ، ومركز الدافعية اللاشعورية . ويبدو على العموم أن أغلب أصحاب نظريات الشخصية ينظرون الى الإنسان باعتباره كائنا غرضيا ، ولكن حتى حيث لا يسلمون بذلك فإن الأمر لا يبدو موضوعا لخلاف حاد .

وتظل الأهمية النسبية للمحددات اللاشعورية للسلوك في مقابل أهمية المحددات الشعورية عاملا رئيسيا في التمييز بين مختلف نظريات الشخصية . ورغم أن ذلك يبقى قضية رئيسية فإنه يبدو أن الأسس

المحددة لعدم الاتفاق بين المنظرين قد تغيرت كثيرا في السنوات الأخيرة . ولقد كان الخلاف يدور في الأصل حول حقيقة أو وجود الدافعية اللاشعورية ولكن لا يبدو أن المشكلة الآن هي : هل مثل تلك الدوافع موجودة أو لا بل أنها أكثر تعلقا بمدى قوة هذه الدافعية والظروف التي تعمل في ظلها . ولقد كفلت نظرية فرويد بوضوح أقوى تأكيد للعوامل اللاشعورية ، كما أن العديد من النظريات التي تأثرت بالموقف التقليدي للتحليل النفسي كنظرية موراي ونظرية يونج قد أعطت مثل تلك العوامل وزنا كبيرا . ونجد على النقيض أنه لدى نظريات أخرى كنظرية أولبورت وليفين وجولدشتين وروجرز ينعدم التأكيد على الدوافع اللاشعورية ولا تعطى لها أهمية إلا لدى الفرد غير السوي فحسب . والحقيقة أن أصحاب نظريات الشخصية قد أبدوا ميلا نحو زيادة تقبلهم لدور الدوافع اللاشعورية ولكن يظل هناك قدر كبير من الاختلاف بين المنظرين في مدى تأكيد هذا الدور .

ويلقى الدور المركزي للثواب أو التعزيز كمحدد للسلوك أكبر تأييد في نظرية ميللر ودولارد عن التعزيز ، وفي مبدأ المذة لدى فرويد ، وفي مفهوم مورفي في التقنيّة canalization ويتقبل كل من كاتل وموراي وسوليفان أيضا قانون الأثر باعتباره الشرط الأول للتعلم بتحفيزات معينة . وعلى العكس كان أولبورت وأنجيلال وجولدشتين وليفين وروجرز واضحين نسبيا في انزال الثواب إلى مرتبة ثانوية . وعلى العموم فإن الصياغات المعاصرة تبدو أقل الحاحا من صياغات الماضي في تضمينها أن الإنسان مدفوع بمحاولة شعورية للوصول بالمذة إلى أقصى حد والانخفاض بالألم إلى أدنى درجة . وتؤكد تلك الصياغات وظيفة الثواب كمحدد للسلوك ، بصرف النظر عما إذا كان الفرد واهيا بدوره أم لا . ويبدو أن هناك ميلا متزايدا لدى أصحاب نظريات الشخصية نحو الاهتمام صراحة بموضوع الثواب أما باعتبارها أهمية رئيسية وأما باختصاصه لمبادئ أخرى .

وقد حظى مفهوم الترابط association أي الربط المكاني والزماني بين واقعتين - بتأييد أقل وضوحا من مفهوم الثواب لدى أصحاب نظريات الشخصية . فبرغم الأهمية التاريخية الفائقة للدراسات بالفلوف في الإشراف فإننا نجد أن ماورر فحسب هو الذي يبدو أنه قد جعل من هذا العامل أحد الدعائم الرئيسية لموقفه النظري . وعلى العكس ، فإن ميللر ودولارد قد أخضعا هذا المبدأ بوضوح للثواب . ويبدو أن نظرية فرويد تضيء بعض الأهمية على الترابط في عملية تكوين

الأعراض والتحويل الرمزي باعتبار أن طبيعة العرض أو الرمز قد تتحدد جزئياً وفقاً لصلات ترابطية في الماضي . وعلى أي حال ، فإن أغلب أصحاب نظريات الشخصية ، أما أنهم لا يبالغون الترابط صراحة ، وأما أنهم يسندون إليه دوراً ضئيلاً في تحديد السلوك . ومن المحتمل أن تعكس تلك الحالة شعور أغلب هؤلاء المنظرين بأن الترابط لا يكفي وحده لتفسير السلوك كما أن دور الترابط كعامل ضئيل في تحديد السلوك أمر واضح لا يحتاج إلى تأكيد . ومن الصحيح كذلك أن أصحاب نظريات الشخصية منشغلون تماماً بالعملية الدافعية وأن الترابط البسيط دون التأثير الملزم للدوافع يبدو أمراً غير مقبول - إن لم يكن كفوياً - في نظر من يركزون اهتمامهم على الدافعية .

وهناك تباين كبير بين النظريات من حيث اهتمامها بعملية التعلم ، ويقف في أحد الطرفين ميللر ودولارد بما قدمناه من عرض تفصيلي ، على حين لا توجد - في الطرف الآخر - أي معالجة خاصة للتعلم في نظريات شيلدون ويونج وروجرز . ولقد أولى أوليولورت وكاتل اهتماماً كبيراً لتلك العملية ولكن أفكارهما كانت تمثل في أغلبها محاولات للتوفيق بين الأسس التي قدمها غيرهم من المنظرين . ولقد قدم ليفين بعض الإسهامات الأصيلة في التعلم ولكنه لم يركز جهوده النظرية في هذا المجال على الإطلاق . ولقد قنع أغلب أصحاب نظريات الشخصية بالنظر إلى الارتقاء development في ضوء أسس شاملة ، كالنضج ، والتفرد ، والتعيين ، وتحقيق الذات ، أو ما شابه ذلك بدلاً من محاولة تقديم صورة تفصيلية لعملية التعلم .

ورغم أنه قد يكون هناك بعض التجاهل لعملية التعلم ، فإن هناك اهتماماً وافراً بنتائج التعلم أو مكتسبات الشخصية . وتعد الخطط العديدة والمتميزة لإبراز بناء الشخصية من أبرز ملامح نظريات الشخصية . ومن بين أصحاب المعالجات التي أكثر تفصيلاً لبناء الشخصية ، أولبورت ، وكاتل ، وايزنك ، وفرويد ، ويونج ، وموراى ، وشيلدون . ومن الناحية التاريخية ، فإن أولئك المنظرين الذين توجه أغلب اهتمامهم نحو عملية التعلم ، كانوا أقل اهتماماً بمكتسباته ، والعكس بالعكس . وحالياً ، فإن المنظرين الذين تتخلف معالجتهم للتعلم أو للبناء تتخلف شديداً ، يتجهون إلى تعويض هذا التخلف عن طريق استعارة مجموعة من الصياغات من نظرية أخرى تهتم اهتماماً مركزياً ، بذلك المجال المهمل . ولعل أفضل مثال لهذا الاتجاه يبدو في مساهم ميللر ودولارد لدماج المفاهيم البنائية للتحليل النفسي في نظريتهما عن التعلم . وليس

هناك من شك في أن صاحب نظرية الشخصية الماذق يتحمل اليوم مسؤولية تناول كل من عملية التعلم ونواتج تلك العملية .
ولقد سبق أن أشرنا الى حقيقة أن علماء النفس الأمريكيين في مجموعهم قد قللوا من دور العوامل الوراثية كمحددات للسلوك . ومع ذلك فإن الكثيرين من أصحاب النظريات التي تناولناها قد أكدوا بحسب ووضوح أهمية مثل تلك العوامل . فشييلدون يعتقد أهمية المحددات الجبلية ويأمل أن اتجاهه في دراسة السلوك سوف يلقي الضوء على تفاصيل العلاقة بين الوقائع الجبلية والسلوكية . ونقد أبدي كل من ايزنك وكاتل اهتماما نظريا وتجريبيا بدور الوراثة في السلوك . ولقد أسفرت بحثوئهما بالفعل عن تدعيم قوى لمتقداتهما النظرية في هذا الاتجاه . وتتمتع نظرية يونج بشدة على أهمية العوامل التكوينية كما أن كلا من فرويد ومورفي قد اعتبر العوامل الوراثية ذات أهمية فائقة . ويتقبل كل من موراي وأولبورت أيضا دلالة الوراثة برغم أن تأكدها على هذا الموضوع يقل أي حد ما عن سبق أن أشرنا اليهم من أصحاب النظريات . ويبدو أن فروم ، وهورني ، وليفين ، وروجرز ، وسوليفان ، كانوا - من بين من تعرضنا لهم من أصحاب نظريات الشخصية - الذين أقل ابرازاً لمثل تلك العوامل . ولعله مما يشير دهشتنا الى حد ما ان نجد أغلبية أصحاب نظريات الشخصية يتقبلون أو يؤكدون أهمية العوامل الوراثية وأن الكثيرين منهم قد جمعوا بين هذا التأكيد النظري وما يتفق معه من بحث تجريبي .

وتمثل المقابلة بين الموقفين النظريين لفرويد وليفين بوضوح ذلك التباين بين أصحاب نظريات الشخصية في تأكدهم لدلالة العوامل المعاصرة في مقابل دلالة الوقائع التي تحدث في بواكير الارتقاء . وتتفق كل من نظرية المثير - الاستجابة لميللر ودولارد ، ونظرية مورفي الاجتماعية الحيوية ، ونظرية علم الشخصية لدى موراي ، ونظرية سوليفان عن العلاقات الشخصية المتبادلة ، تتفق كل تلك النظريات مع نظرية فرويد في التأكيد على الخبرات المبكرة ، في حين تتفق نظريات أولبورت وروجرز مع موقف ليفين في التأكيد على العوامل المعاصرة . وقد يتوارى أحيانا ما يوجد من اختلافات نظرية حقيقية وهامة بين الاتجاهين خلف ما يقال من أن أصحاب النظريات الذين يبرزون الخبرات المبكرة انما يفعلون ذلك لافتتاتهم بالتاريخ أو الماضي فحسب وليس بسبب القدرة التنبئية أو الدلالة الحاضرة لمثل تلك الوقائع . ويرى المدافعون عن أهمية الحاضر المستمر أن الماضي يمكن أن تكون له دلالة في الحاضر من خلال تأثير العوامل المعاصرة . وبذلك فإنه اذا ما توفر لنا فهم كامل للحاضر لم

تمد بنا حاجة الى تناول الماضي . ومن الناحية الفعلية لا توجد اية معارضة حقيقية لحقيقة ان الماضي يؤثر على الحاضر فقط من خلال فعالية العوامل والقوى والمؤثرات المعاصرة (الافكار ، والنماذج الأولية ، والدكريات ، والاستعدادات) . وبرغم ذلك ، فان من يؤكد اهمية وقائع الماضي يرى انه لا غنى عن الماضي لفهم الارتقاء وايضا لتوفير المعرفة بالقوى التي تعمل في الحاضر . ويتركز الخلاف الرئيسي بين هذين المعسكرين النظريين حول مسألة ما اذا كانت العوامل التي تؤثر في السلوك الحاضر يمكن التوصل اليها تماما من خلال النظر الى السلوك الحاضر فحسب او ما اذا كانت المعرفة المتعلقة بوقائع الماضي لا تقدم معرفة خاصة ذات طبيعة حاسمة . ويبدو اصحاب نظريات الشخصية اكثر انقساما حول هذا الموضوع .

وتبدو اكثر التأكيدات المحاسا على **استمرارية الارتقاء** **continuity of development** في نظريات فرويد وميلر ودولارد برغم ان الفكرة تظهر بدرجة اقل في نظريات ادلر وانجيل مورفي وسوليفان . وتشير تلك النظريات بوضوح الى ان الوقائع التي تحدث في الحاضر انما ترتبط بانتظام بوقائع حدثت في الماضي ، وان الارتقاء عملية منتظمة ومستمرة ويمكن حصرها في ضوء مجموعة واحدة من الاسس . وعلى العكس من ذلك ، فان اولبورت وليفين والى حد ما روجرز يؤكدون بوضوح افتقار الارتقاء الى الاستمرار كما يؤكدون الاستقلال النسبي للراشد الناضج عن وقائع فترة المهد او الطفولة . ويؤكد بونج ايضا تفكك الارتقاء برغم انه يرى ان الانقطاع الرئيسي انما يحدث في منتصف انعمر حيث تحل الاحتياجات الحضارية والروحية محل الدوافع البيولوجية . ويرى كل هؤلاء المنظرين اننا نحتاج الى اسس مختلفة بعض الشيء لتفسير ما يحدث في مختلف مراحل الارتقاء . ولايبدى كل نظريات الشخصية اهتماما كبيرا بعملية الارتقاء ولكن معظم النظريات التي تبدي هذا الاهتمام يبدو انها تتصور الارتقاء بوصفه عملية مستمرة يبنى التعرض لها في ضوء مجموعة مفردة من الاسس النظرية .

ولقد سبق ان اتفقنا على ان احدى السمات التي تميز نظرية الشخصية تاريخيا عن مختلف النظريات النفسية هي تاييدها على الكلية **holism** ويتفق مع هذه الملاحظة حقيقة ان اغلب اصحاب النظريات المعاصرة في الشخصية قد يصنفون بدقة باعتبارهم عضوين **organismic** فهم كمجموعة يؤكدون اهمية اعتبار الفرد وحدة كلية فعالة . وهكذا فان اولبورت وانجيل وجولشتين وموراى وروجرز وشيلدون يؤكدون جميعا حقيقة انه لا يمكن فهم عنصر

من عناصر السلوك إذا ما درس في عزلة عن بقية الشخص الفعال بما في ذلك بنيانه البيولوجي . ويبدو أن ايزنك وميللر ودولارد هم فقط المستعدون لقائمة ما اتفق عليه في هذه المسألة وهم يشككون في أهمية دراسة « الفرد الكلى » . ولقد اهتم كل من أنجيل وليفين ومورفي وسوليفان بابرار أهمية المجال . ولكن ليفين وموراي هما فقط اللذان حاولا تقديم مجموعة تفصيلية من المتغيرات التي يمكن أن يظل المجال على أساسها . وهذا الافتقار الى الاهتمام بتفاصيل التحليل نتاج منطقي للأفكار الكلية لدى أصحاب نظريات المجال مما أدى بهم الى الحرص على مجموعات خاصة من المتغيرات . ولا يوجد تقريبا من ينكر أهمية الموقف الذي يحدث فيه السلوك ، برغم أن أولبورت وايزنك ويونج وشيلدون يولون هذا الموضوع اهتماما أقل وضوحا من غيرهم من المنظرين الذين عرضنا لهم ومن الواضح اذن أن النظرية المعاصرة الشائعة في الشخصية تلقى ثقلا كبيرا على أهمية دراسة السلوك « عضويا » organically دون محاولة عزل شرائح صغيرة من السلوك للدراسة الميكروسكوبية . وهناك في نفس الوقت نزعة متزايدة لدى أصحاب نظريات الشخصية لتقديم عرض شامل للموقف أو السياق الذي يحدث فيه السلوك .

ولقد يفضل المرء الذي يتقبل النظرية الكلية اتجاها أو اثنين لتمثيل السلوك . فهو قد يعتبر ببساطة أن النظرية الناجحة ينبغي أن تكون مركبة ومتعددة الجوانب وتشمل الرجوع الى الموقف الذي حدثت فيه الوقائع السلوكية كما تشمل الرجوع الى الوقائع السلوكية الأخرى التي قام بها الفرد . ومن ناحية أخرى فإنه قد يعتبر أن كل سلوك الفرد إنما يتلاحم بشدة ببعضه البعض ، وفوق ذلك فإنه يرتبط بشدة بسياقه البيئي بحيث أن أية محاولة لتجريد عناصره أو متغيراته بهدف الدراسة مصيرها الفشل . وتسلم وجهة النظر الأولى بتعمد السلوك وترى أن نموذجا من السلوك معقدا بقدر معقول ضروري لتحقيق قدر كبير من الكفاية في التنبؤ بالسلوك . وتتخذ وجهة النظر الثانية من تعمد السلوك منطلقا لتأكيد وابرار أن « كل » جوانب انفراد وموقفه ينبغي أن تنال ما تستحقه من عناية قبل أن يتحقق التقدم المرجو . ومن السهل أن نفهم ان تلك النظريات التي تمثل الموقف الأخير تضع عادة تأكيدا قويا على تميز الفرد أو تفردّه وحيث أن النظرية تحرص على أن ينظر الملاحظ الى المزيد والمزيد من مختلف أوجه الفردية فان سلوك الفرد وسياق ذلك السلوك وتميز كل فرد بل وكل فعل أيضا ينبغي أن يكون موضع اهتمام واضح . ولعل نظرية أولبورت هي

التي أكثر شمولاً في الماحها على أهمية توجيه الاهتمام الكامل الى الفردية .
وفي الحقيقة فان هذا التأكيد - كما رأينا - قد أدى بأولبورت الى
المناداة بتوجيه قدر أكبر من الاهتمام بالمنهج الفردى (الايديوجرافى)
فى دراسة السلوك . ولقد حظيت نفس وجهة النظر العامة هذه باهتمام
رئيسى فى نظريات آدلر وفروم ولفين ومورفى وموراى . أما نظريات ايزنك
وميللر ودولارد فهى قاطعة فى انكار الدلالة الحاسمة لفردية السلوك . وبرغم
أن هناك عددا من أصحاب نظريات التعلم الذين أولوا اهتماما مركزيا
لتفرد السلوك فان ذلك يبدو أقل تمثيلا للنظرية الحديثة للشخصية من
الإلتحاح على الفهم العضوى .

ولقد سبق أن رأينا أن أصحاب نظريات الشخصية قد استخدموا
مفهوم الذات بعبان متعددة . فلقد اعتبرت الذات كمجموعة من العمليات
النفسية التى تعمل كمحددات للسلوك أو مجموعة من الإتجاهات والمشار
التي يكونها الفرد تجاه نفسه . وعلى أى حال ، فان الذات تحتل - بصورة
أو بأخرى - مكانا هاما فى أغلب الصياغات النظرية المعاصرة . فالأمر
ليس مقصورا على نظريات تعرف بأنها نظريات الذات كنظرية روجرز ،
بل أن عددا كبيرا من النظريات الأخرى يستخدم هذا المفهوم باعتباره
عنصرا نظريا مركزيا . ويصد آدلر وأولبورت وأنجيبال وفرويد ،
وجولدشتين ، ويونج ، ومورفى ، وموراى ، وسوليفان من بين أصحاب
النظريات الذين يستخدمون - بطريقة أو بأخرى - مفهوم الأنا أو الذات
استخداما واسعا . ولا يبدو أن هناك من يتصور السلوك بطريقة لا تولى
للذات دورا هاما سوى ايزنك ، وميللر ودولارد ، وشيلدون . ومن
الصحيح أن الكثير من الصياغات النظرية المعاصرة للذات قد تحاشت
أو قللت من الذاتية التى لازمت التصورات المبكرة فقد ظهر اتجاه واضح
ينزع الى تقديم العمليات التى يمكن من خلالها قياس الذات أو قياس
جوانب منها . ويمكن القول أنه فى الفترة المبكرة من التنظيرات النفسية
كانت الذات تنزع الى أن تشمل تضمينات غيبية أو حيوية *vitalistic*
على حين يبدو أن الذات المعاصرة قد فقدت تلك الصفات باكتسابها -
جزئيا على الأقل - وسيلة للقياس . ومن الواضح أن أصحاب نظريات
الشخصية يتميزون اليوم بتزايد اهتمامهم بالذات وما يتبعها من
عمليات .

ويتفق أغلب أصحاب نظريات الشخصية على أهمية البيئة
السيكولوجية ، أو عالم الخبرة فى مقابل عالم الواقع الفيزيقي ، ويحتل
ذلك الأمر بؤرة اهتمام الكثيرين منهم . ويعد ليفين وروجرز أكثر
أصحاب النظريات وضوحا وشمولا فى تطويرهم لوجهة النظر هذه .

وفي الحقيقة فلقد أخذ على كل منهما ذلك التجاهل الشديد لعالم الواقع نتيجة لاهتمامهما بعالم الخيرة . وتلقى وجهة النظر هذه اهتماما كبيرا ، أيضا في جميع نظريات التحليل النفسي وفي نظرية موراي . وبرغم أن أحدا لا يعترض على أن الطريقة التي يدرك بها الفرد واقعة معين لها بعض التأثير على الأسلوب الذي سوف يستجيب به لتلك الواقعة ، فإننا نجد أن هذه العملية لا تلقى سوى اهتمام ضئيل في نظريات كاتل ، وايزنك ، وميللر ودولارد ، وجولدشتين . وعلى العموم فمن المنطقي تماما القول بأن أصحاب نظريات الشخصية كانوا أكثر تأثرا بأهمية البيئة السيكولوجية عنهم بأهمية البيئة الفيزيقية .

وتعد أهمية عضوية الجماعة بوصفها من محددات السلوك أمرا يسود الاتفاق على تأكيده بين تلك النظريات التي تأثرت بشدة بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا . ويتضح ذلك في مواقف فروم وميللر ودولارد ، وموراي ، وسوليفان . ويولي أدلر وليفين أيضا أهمية كبيرة لتلك المحددات برغم أن العلاقة بين نظريتهما وبين تطورات العلم الاجتماعي أقبل وضوحا . ومن الطبيعي تماما أن هؤلاء المنظرين الذين يؤكدون « المجال » الذي يحدث فيه السلوك ، سوف يبدون أيضا اهتماما بالجماعات الاجتماعية التي ينتمى إليها الفرد . ويتفق ذلك مع حقيقة أن كل من أشرنا اليهم آنفا من أصحاب النظريات - باستثناء ميللر ودولارد - يمكن اعتبارهم من أصحاب نظريات المجال . ولا يوجد بين أصحاب النظريات التي تناولناها من يرى عدم الأهمية لعوامل عضوية الجماعة برغم أن أوليورت وأنجيلال وجولدشتين ويونج وروجرز وشيلدون قد فضّلوا عدم التركيز على تلك العوامل . وعلى العموم ، يبدو أن هناك ميلا متزايدا لدى أصحاب نظريات الشخصية للاهتمام بوضوح بالسياق الاجتماعي الحضاري الذي يحدث فيه السلوك .

ولقد لاحظنا أنه من المعتاد لدى أصحاب نظريات الشخصية أن يحاولوا التوصل إلى دعائم لنظرياتهم تعتمد على نتائج العلوم الأخرى Interdisciplinary anchoring ولقد تركزت أغلب تلك الجهود حول إمكان المزج بين المفاهيم السيكولوجية وبين نتائج ومفاهيم العلوم البيولوجية . ويتضح هذا الميل في نظريات أوليورت وفرويد وجولدشتين ، ويونج ومورفي ، وشيلدون . ولا يبدو بين أصحاب نظريات الشخصية الذين تعرضنا لهم من يتجه كلية نحو الربط بين صياغاته النظرية وبين نظريات الأنثروبولوجيا والاجتماع اللهم إلا ليفين إلى حد ما . وعلى أي حال فلقد أبدى كل من دولارد وميللر ، ومورفي ، وموراي ، وسوليفان ، اهتماما متوازنا بأقامة الروابط

النظرية بين نظرياتهم وبين كل من البيولوجيا والعلوم الاجتماعية .
ومن هنا يتضح أن أصحاب نظريات الشخصية كمجموعة يتجهون الى
العلوم البيولوجية أكثر من اتجاههم نحو العلوم الاجتماعية . إلا أن
هناك اتجاهها نحو تزايد الاهتمام بنتائج ونظريات الاجتماع
والأنثروبولوجيا .

وتعترف نظريات أولبورت ، وكاتل ، وليفين ، ومورفي ، وموراي ،
اعترافا كاملا بتنوع وتمدد الدافعية لدى الانسان . ففي كل من تلك
النظريات كان هناك تأكيد حاسم لحقيقة أن السلوك لا يمكن أن
يفهم إلا من خلال تعريف ودراسة عدد كبير من المتغيرات الدافعية .
وتمثل نظريات كاتل وموراي المحاولات الفعلية الوحيدة لتحويل ذلك
التعدد الى مجموعة من المتغيرات المحددة . ويبدو لدى كل من آنجيلال،
وايزنك ، وفرويد ، وجولدشتين ، ويونج وروجرز وشلدون ،
وسوليفان ، استعداد لتناول دراسة السلوك الانساني من خلال مجموعة
مختصرة من التصورات الدافعية . وهكذا ، فبرغم أن أصحاب
نظريات الشخصية يشتركون في الاهتمام بالعملية الدافعية ، فانهم
ينقسمون بنفس القدر الى أولئك الذين اختاروا عرض الدافعية في
ضوء عدد صغير نسبيا من المتغيرات . وأولئك الذين يعتبرون من
الضروري توافق عدد كبير جدا من تلك المتغيرات .

ولقد كانت مناقشتنا في هذا الخصوص عامة تماما ، ولم يبذل
سوى جهد ضئيل لتقييم كل نظرية فيما يتصل بكل قضية . ولقد
كان اهتمامنا بالوضع العام لنظرية الشخصية المعاصرة أكثر من اهتمامنا
بالموازنة التفصيلية بين النظريات الميئة . وبعد الجدول الآتي بمثابة
تدارك جزئي لتلك العمومية وذلك بأن يعرض بالنسبة لكل نظرية : هل
تؤكد أو لا تؤكد كل موضوع على حدة أو أنه يشغل لديها موقعا
متوسطا . ومن المؤكد أن تلك الأحكام عرضة وتقريبية . ويرجع
افتقارها للدقة الى تلك الفئات البالغة العمومية والتي استخدمت
في التقييم ، وأيضا الى تعقيد تلك النظريات الذي يجعل من المستحيل
في ظروف معينة معرفة الموقف المحدد الدقيق لمنظر معين حيال موضوع
معين . وعلى أي حال ، فان مبررات تلك التقديرات قد سبق عرضها
في الفصول السابقة مصحوبة بالأحالات المناسبة للمصادر الأصلية .
وبالتالي ، فليست هناك حاجة بالقارىء الى تقبل احكامنا دون نقد ،
حيث أنه يمكنه بسهولة أن يكون تقديراته هو الشخصية مستخدما نفس
مصادر البيانات التي استخدمناها .

الجدول رقم ١

موازنة بين أبعاد نظريات الشخصية

نوع والدواش	الانحياز	الانفتاح	التعقيد	الاستقرار	الانحياز	التعقيد	الاستقرار	الانحياز	التعقيد	الاستقرار	الانحياز	التعقيد	الاستقرار	الانحياز	التعقيد	الاستقرار	الانحياز	التعقيد	الاستقرار	الانحياز	التعقيد	الاستقرار
١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٤	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٥	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٦	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٧	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٨	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٩	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٠	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٢	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٣	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٤	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٥	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٦	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٧	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٨	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
١٩	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٠	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٢	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٣	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٤	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٥	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٦	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٧	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٨	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٢٩	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٠	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٢	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٣	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٤	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٥	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٦	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٧	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٨	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٣٩	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١
٤٠	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١	١

× : تشير منتصف

= : تشير شرط

✓ : تشير مع

ويدل الرمز × في الجدول على أن النظرية تؤكد أهمية هذا الموضوع أو تلك المجموعة من المحددات ، ويدل الرمز = على أن النظرية تهتم اهتماما متوسطا ، ويشير الرمز × الى أن الموضوع لا يحظى باهتمام في هذه النظرية .

ويؤدى بنا ذلك الى مشكلة كيف قامت تلك النظريات المختلفة بدورها على الوجه الاكمل كمولدات للبحث . واقد سبق ان اتفقنا على أن ذلك يمثل اهم الموازنات التقييمية التي يمكن القيام بها بين النظريات ، الا انه لسوء الحظ اكثر الموازنات صعوبة في اجرائه والاطمئنان الى نتائجها . لقد قامت كل النظريات ببعض الاسهام كمولدات للبحث ، ولكن تنوع طبيعة الدراسات الناتجة ، الى جانب تعقد العلاقة بين النظرية نفسها وبين البحث المناسب لها كل ذلك لا يجعل في الامكان سوى اصدار احكام تقريبية .

ومع التسليم بما تتميز به طبيعة أحكامنا من ذاتية ووقئية ، فإننا نرى أنه يمكن تقسيم النظريات الى ثلاث مجموعات من حيث ما حققته كثيرات للبحث . وتضم المجموعة الأولى النظريات التي أدت الى قدر كبير من البحوث التي تم انجازها في مختلف المجالات وعلى أيدي مجموعة مختلفة من الباحثين . ونضع هنا نظرية فرويد ، ونظرية المشير - الاستجابة ، ونظرية ليفين . وفي كل من تلك الحالات تتخطى رسالة النظرية حدود مجموعة واحدة صغيرة تعمل في تعاون وثيق بحيث أن الموضوعات المتصلة بالنظرية يتم استكشافها في العديد من المواقف المتنوعة وعلى أيدي أفراد يمثلون خلفيات متنوعة . وكذلك البحوث المتعلقة بالتحليل النفسي تقسم أفضل مثال على ذلك ، حيث أن طبيعة الأفراد الذين قاموا بالبحوث التي تعتبر متفقة مع نظرية فرويد يمتدون على مدى يتراوح من أولئك الذين يقعون مباشرة في المجرى الرئيسي للتقليد الطبي في التحليل النفسي الى أولئك الأشخاص الذين ينتمون الى تراث تجريبي أو بيولوجي . وهناك العديد من المصادر التي تثبت الكمية البالغة الضخامة من مثل تلك البحوث ومن أمثلتها ما أورده هول وليندزي ١٩٥٤ ، وهيلجارد ١٩٥٢ ، وسيرز ١٩٤٣ . ولم يكن للنظرية تأثير ضخم على البحوث السيكولوجية فحسب ، بل كان لها أيضا تأثير كبير على الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية الى جانب تأثير أقل على غير ذلك من العلوم الاجتماعية والأدب والفنون الجميلة والدين .

ومن الواضح بنفس الدرجة أن نظرية ليفين قد أدت الى قدر كبير من البحوث المتعلقة بها وأن الكثير من تلك البحوث قد قام به أفراد لم يكونوا من تلامذة ليفين . ورغم أن تأثير هذه النظرية على المجالات التي تقع خارج نطاق علم النفس كان أقل بشكل ملحوظ عن تأثير نظرية فرويد ، فإن تأثيرها داخل نطاق علم النفس قد امتد الى مجالات لم يكدها يلمسها تأثير نظرية فرويد . ومن الواضح أن نظرية ليفين كان لها أبلغ تأثير في كل من علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشخصية من حيث كمية ونوعية البحوث التي أثارتها .

ومن الواضح أن نظرية هل Hull في المثير - الاستجابة - كما عدلها ميلر ودولارد وآخرون - قد أدت الى قدر كبير جدا من البحوث المتعلقة بمدى واسع من الموضوعات . وقد طبقت النظرية في الصلاحيات النفسى ، والسلوك الاجتماعى وعلم النفس التعليمى ، كما طبقت أيضا في المجالات المعتادة للتعلم لدى الحيوان والإنسان . ولقد كان للنظرية أيضا تأثير يفوق تأثير أى نظرية أخرى - ماعدا نظرية فرويد - في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية . فضلا عن ذلك فإن كمية البحوث التجريبية التى أنجزت والمتصلة بتلك النظرية تعد أكثر بكثير من أى بحوث أجريت فى ظل أى نظرية أخرى قد عرضنا لها . ومن الصحيح أيضا أن هناك فدرا أكبر الى حد ما من الاتساق فى الخلفيات بين الباحثين هنا عنه بالنسبة لنظريات ليفين وفرويد . وعلى أى حال فإننا نجد هنا كذلك أن قدرا كبيرا من البحوث قد تم انجازه على أيدى أفراد ليس لهم سوى اتصال ضئيل بصاحب النظرية .

وتضم المجموعة الثانية ، تلك النظريات التى صاحبها قدر ضخم من الدراسات التى تميزت اما بتحديد تام فى هدفها أو تم انجازها على أيدى أفراد لهم علاقة وثيقة بالنظرية أو بتطويرها . ويجب أن نضع فى هذه المجموعة نظريات أولبورت وكاتل ، وإيزنك ، وجولدشتين ، ويونج ، ومورفى ، وموراي ، وشيلدون ، وسوليفان ، وروجرز . وكما اتضح من الفصول الواردة فى الكتاب أن كل نظرية قد نبعت من البحوث المتعلقة بها أو صاحبت قدرا كبيرا من هذه البحوث . فانه فى معظم الحالات كانت تلك البحوث تتعلق بمدى محدود من المشاكل أو بتطبيق عدد صغير من الأساليب ، وبالإضافة الى ذلك فمن المعتاد أن انجاز تلك البحوث كان يتم على أيدى عدد صغير من الباحثين المرتبطين بعضهم ببعض ارتباطا وثيقا . وتتكون المجموعة الثالثة من تلك النظريات التى تفتقر الى ما يدل على ما صاحبها من بحوث وتضم تلك المجموعة أدلر وأنجيل وفروم وهورنى .

ومما يدعو الى الاطمئنان أن نظريات الشخصية برغم حدودها كمولدات للبحث فإن الغالبية العظمى منها كان مصحوبا بقدر كبير من البحوث .

ومهما كانت القيود الإجرائية التي استلزمها تلك البحوث ، سوف يظل حقيقيا أنها سجلت اهتمام أصحاب النظريات باختبار فعالية نظرياتهم حيال البيانات التجريبية . ومن الصعب أن نصدق أن هذا الاتجاه لن يؤدي في المدى الطويل الى تغيرات تقدمية سوف ينجم عنها نظريات أكثر فاعلية .

بعض التاملات في نظرية الشخصية المعاصرة :

ماذا عن مستقبل تطور نظرية الشخصية ؟ هل هناك صفات نفتقدها حاليا في المجال النظرى ويجب اضافتها ؟ هل هناك أوجه قصور يمكن تحديدها بالنسبة للمنهج النظرى لدى أغلب علماء النفس ؟ يبدو لنا أن ذلك موجود بالفعل ورغم أن علماء النفس لن يوافقونا جميعا - ولا حتى أغلبهم - على ذلك فيما يتعلق بالطبيعة المحددة لتلك الصفات وأوجه القصور .

نحن نعتقد أن مجال الشخصية سوف يستفيد تماما من ازدياد صقل علماء النفس لطبيعة ووظيفة الصياغة النظرية . وبينما توجد جوانب ونواح عديدة لهذا الصقل ، فربما ينبغى أن يكون أكثرها أهمية هو فهم الأهمية الرئيسية للنظريات بوصفها وسائل لتوليد أو استشارة البحوث . وينبغى أن يرفض عالم النفس فكرة أنه يكون قد وفى بالتزاماته اذا ما قدم صياغة نظرية تضع في اعتبارها أو تتفق مع ما هو معروف بالفعل في مجال تجريبى معين . أن النظرية اذا لم تفعل شيئا سوى تنظيم الحقائق المعروفة فإننا سوف نظل بذلك على المستوى الوصفى مهملين عملية التنظير . والقضية هنا ببساطة هي أن النظريات يجب أن تقوم في ضوء قدرتها على توليد بحوث جديدة. وينبغى أيضا أن يبنى علماء النفس أنفسهم رغبة أكبر في تقبل حقيقة أن الفروض المتعلقة بالسلوك والتي ليس لها نتائج نهائية فيما يتعلق بنوع التنبؤات المطلوبة ، أو نمط البيانات التي ينبغى جمعها ، هي فروض عديدة الجلوى ومضیعة للوقت والمجهود والطباعة . فليركز صاحب النظرية انتباهه على الصياغة التي لها علاقة ذات معنى الى حد ما بالعمل الذي يقوم به وهو دراسة السلوك .

ويرتبط بهذه الحاجة الى ازدياد صقل المنهج ، الحاجة الى قدر أكبر من التخصصية في التمييز بين الأسلوب الأدبي المؤثر والتنظير المتمكن ومن الواضح أنه من وجهة نظر القارئ ، فإنه كلما استطاع صاحب النظرية أن يقدم نظامه بشكل أكثر بلاغة وتشويقا ، كان ذلك أفضل . الا أنه يجب أن يكون من الواضح بنفس الدرجة ، أن أناقة العرض لا أهمية لها كقياس لمدى نفع النظرية كأداة تجريبية . ويميل الكثيرون من علماء النفس حاليا الى تقييم النظرية في ضوء المدى الذي يكون فيه خالق النظرية مقنعا في عرض نظريته . وبرغم أن حيوية الأسلوب وتأثيره يلعبان دورا هاما في إثارة الاهتمام بالنظرية ، فإن تقييم جدوى النظرية ينبغي أن يركز على أرضية مختلفة تماما . وجوه هذه النقطة هو أن قيمة صاحب النظرية ينبغي أن تقاس بخصوبة البحث بالنسبة لنظريته أكثر من قياسها بنبوغه الأدبي .

ان كلا من نظرية الشخصية وبحوثها في حاجة الى المزيد من كل من الاتجاهين التجديدي والمحافظة معا . ولقد يفضل المرء أن يعبر عن ذلك بصورة بديلة بأنهما في حاجة الى المزيد من التصورات الخلاقة والتقييم النقدي . وينبغي على المنظر الناجح أن ينسى دون افعال من عزمه على أن يغير في عنف الاقتراحات العامة المتعلقة بالسلوك . ويجب أن يكون متمكنا بقدر الامكان من تحرير نفسه من التصورات الشائعة المسبقة المتعلقة بطبيعة السلوك . فإذا ما استطاع أن يظهر القدرة على ابتكار أو خلق النظرية التي لا ترتبط ارتباطا وثيقا بالتصورات القائمة عن السلوك فإنه يتمكن على صاحب النظرية أن يبدي محافظة مشددة حيال ما يترتب على وجهة النظر هذه من نتائج من حيث توسيع مداها وصياغتها بصورة شكلية واختبارها . وبعبارة أخرى فإن صاحب النظرية يجب أن يكون محطما للتقاليد ولكن بمجرد ارسائه مجموعة جديدة منها فإنه ينبغي عليه أن يكون مستعدا لأن يستكشف بأسهاب متضمنات تلك التقاليد . ومن المستحيل اختيار نتائج أى نظرية ما لم يكن صاحبها مستعدا للبقاء في موقع واحد لمدة تسمح بتأسيس واتمام اجراءات التحقيق . ولا يعنى ذلك أن الشخص ينبغي أن يظل متمسكا بصياغاته بعناد في وجه ما يناقضه تجريبيا ، بل أنه يعنى أنه بقيام جسم ثابت للنظرية ، فإن التغيير ينبغي أن يكون ناتجا عن الأدلة التجريبية المضبوطة وليس عن النزوة أو الملاحظة العابرة . ومن الأمور ذات الأهمية الفائقة أن يكرس صاحب النظرية وانصاره أنفسهم للفحص التجريبي المضبوط وليس بالمناقشات الجدالية

أو اللغوية ، فليس من الأمور البالغة الأهمية معرفة أى أصحاب نظريات الشخصية هو البطل الأكثر تكبرا في الموقمة ، ولكن الأمر ذا الأهمية الفائقة هو معرفة أى نظريات الشخصية هى التى أكثر فائدة فى توليد نتائج تجريبية هامة ويمكن التحقق منها .

ولقد آن الأوان الذى يتعين فيه على صاحب نظرية الشخصية أن يتحرر من الالتزام بتبرير الصياغات النظرية التى تبعد عن وجهات النظر المعيارية أو المعتادة الى السلوك . ومن الشائع تماما أن نجد نظرية معينة تتعرض للنقد من أجل حقيقة أنها تبرز بشدة الجوانب السلبية فى السلوك أو تبالغ فى إبراز أهمية الدوافع الجنسية . صحيح أن وجهة النظر الشائعة الى السلوك ترى أن المرء يمتلك خصائص حسنة وخصائص سيئة وانها فضلا عن ذلك تعتبر أنه لا يتسم بدوافع جنسية فقط بل بدوافع أخرى أيضا . الا ان ذلك استنباط لا يتفق مع المقدمات كلية فيما يتعلق بتطوير نظرية فى السلوك . ان لصاحب النظرية مطلق الحرية - كما سبق أن أكدنا - فى أن يعتمد عن التصورات المعتادة للسلوك وليس عليه سوى أن يضع من القضايا السلوكية ماله فائدة تجريبية . أما مشكلة أن تلك القضايا ترضى أو تضايق الفرد العادى فهى ليست بذات أهمية على الإطلاق . ومن الممكن تماما أن تسفر أكثر نظريات السلوك فائدة فى النهاية عن مضايقة شديدة للمضو العادى فى مجتمعنا . وبالطبع فإن البديل المقابل ممكن تماما أيضا . ان ما نعينه هنا ليس أنه يجب على صاحب النظرية أن ينتكر للنظرة الشائعة الى السلوك ، أو أن عليه أن يتقبلها ، فهو فى حل من اتباع أى من الطريقين . ان موقفه حيادى بالنسبة لوجهات النظر هذه ، وهو قد ينصاع لها أو يخرج عنها طالما أنه يهدف الى أن يقيم قراره على أساس محكات بعيدة تماما عن تقبل أو انحراف نظريته عن المعيار العام - ولعل الكثير من أوجه النقد الأخرى التى توجه الى الصياغات النظرية والتى كثيرا ما تواجهنا تكون فى مكانة مشكوك فيها بنفس القدر . وهكذا فإن القول بأن نظرية معينة مسرفة فى التجزئة أو فى العقلانية ، أو فى الميكانيكية يعكس ببساطة التصورات المسبقة عن السلوك لدى الناقد المعين . وتكشف تلك الملاحظات عن موقف الناقد أكثر من تقييمها للنظرية . وفى التحليل الأخير ، فإن النقد الوحيد القوي لنظرية قائمة هو نظرية بديلة أفضل منها . فإذا ما قال المرء أن نظرية معينة مسرفة فى التجزئة فعليه أن يثبت أن نظرية بديلة تستخدم وحدات أكبر فى التحليل أقدر على القيام بكل ما تستطيع النظرية الأولى القيام به بل وأكثر منه .

ولقد يجادل المرء بأن علم النفس حاليا لا يعطى سوى قيمة ضئيلة للبحث التجريبي الذي يستند مباشرة الى نظريات قائمه بالفعل ، فى نفس الوقت الذى يضيف فيه قيمة أكبر على اسهامات الصياغات أو التأملات النظرية الجديدة التى تقدم بعد ملاحظة مجموعة معينة من المكتشفات . فهناك قدر من الاحترام يرتبط فى أذهان الكثيرين من علماء النفس بعملية خلق نظرية جديدة وان كانت تافهة ، ولا تحرز الا قليلا من التفوق للموس على النظريات القائمة ، أكبر من الاحترام المرتبط بالقيام بالبحوث ذات الأهمية الحاسمة بالنسبة لأحدى النظريات الهامة القائمة بالفعل . ولقد أدى شعور علماء النفس بالرهبة حيال النظرية وفشلهم فى التمييز بين التفسير الذى يلى الحقيقة وبين الخُنبُ السابق عليها ، أدى الى خلق مجموعة من الظروف التى توفر فى ظلها الحد الأقصى من الاهتمام بخلق نظريات جديدة والحد الأدنى من الاهتمام بفحص نتائج النظريات الموجودة بالفعل .

ولعل الخاصية المكدره بل والتي قد تكون خبيثة أيضا والتي تظهر لدى بعض أصحاب نظريات الشخصية المعاصرين هى ميلهم نحو ما قد يسمى **بالامبريالية النظرية** . ونحن نشير هنا الى تلك المحاولة التى تبذل - بمجرد تحقق موقف نظرى معين - لاقتناع القارىء بأن تلك هى الطريقة العملية الوحيدة التى يمكن أن تصاغ بها نظرية للسلوك ، فمثلا يؤكد العديد من علماء النفس أن الأسلوب النظرى الوحيد الذى يمكن الدفاع عنه هو ذلك الذى يتضمن تفاعلا مستمرا مع العمليات الفسيولوجية، ويرى آخرون أن لا جدوى الا فى الصياغات « الكلية » ، ويظل علماء آخرون يرون أن السياق الاجتماعى يجب أن يحتل بؤرة انتباه صاحب النظرية . ولا نقصد من ذلك الى القول بأن هؤلاء المنظرين مخطئون بالضرورة فيما يعتقدونه ، ولكن هدفنا هو فقط ابضح ان الصياغة النظرية هى «مشروع حر» اذا كان هناك شىء بهذا الاسم على الاطلاق . فلا يملك اى من المنظرين عى الاطلاق الحق فى أن يحدد مهام زملائه من المنظرين ، فهو يملك تماما التعبير عن معتقداته الخاصة وربطها بأكثر قدر ممكن من الإثبات التجريبي لنفعها . وقد يضيف الى ذلك الجدول المنطقي الذى يجده مقنعا فى تفسير لماذا سوف يثبت هذا المنهج جدواه فى النهاية . ولكن الإيحاء بأن ذلك هو الطريق الذى يجب أن يسلكه التقدم النظرى هو لغو لا يؤدى الا الى بلبلة الدارس فى هذا المجال . فليقدم صاحب النظرية نظريته بأكثر الطرق التى فى متناول يده قوة ولكن فليضع فى اعتباره حقيقة أنه ليس هناك ما يسمى باليقين النظرى .

وينبغي أن يحاذر القارئ من تفسير ما قلناه باعتباره دلالة على الاحساس باليأس وخيبة الأمل بالنسبة للوضع الحالي لنظرية الشخصية . صحيح أن هناك الكثير مما يمكن تقديمه على سبيل النقد للنظريات الحالية ، وخاصة حين مقارنتها بمعايير مطلقة أو مثالية . لكن الأكثر دلالة ، هو حقيقة أنه عند مقارنة تلك النظريات بنظريات كانت قائمة منذ ثلاثين أو أربعين عاما فاننا لا يمكن أن نخطئ في تبين دلائل التقدم السريع . لقد ظهرت كمية هائلة من البحث التجريبي المتعلق بالنظريات خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية أساسا ، كما تعمقت في نفس هذه الفترة بالمثل المناقشات المتعلقة بإسهامات العلوم القريبة من علم النفس وفي نفس الوقت ، اتجهت النظريات الى أن تصبح أكثر وضوحا في تقريراتها ، وتوجه قدرا أكبر من الانتباه نحو مشكلة تقديم تعريفات تجريبية كافية . فضلا عن ذلك ، فقد حققت الأفكار والمفاهيم المتعلقة بالسلوك اتساعا كبيرا في مداها . وعلى العموم ، فاننا نعتقد انه مهما كانت أوجه القصور الظاهرة في تلك النظريات فان ما تضمه من أفكار كان له تأثير شامل ومنمّر على علم النفس . وليس هنا من سبب لأن نتوقع أن يتناقض ذلك التأثير في المستقبل .

التأليف النظري في مقابل العدد النظري

سبق أن رأينا أنه بالرغم من تشابه نظريات الشخصية وتقاربها بعضها من بعض فإن أوجه الخلاف وعدم الاتفاق تظل صارخة . فبرغم التجمع الموجود حول مواقف نظرية نموذجية معينة ، لم يتحقق سوى تقدم ضئيل في اتجاه خلق موقف نظري واحد يلقي قبولا واسعا . وقد يتعجب المرء بالفعل من تلك المهارة الظاهرة وغير المحدودة لدى علماء النفس في ابتكار طرق جديدة لفهم وتنظيم ظواهر السلوك . ولقد أدت تلك الظروف بسيرز Sears في دراسته المسيحية للتراث العلمي في الشخصية الى أن يلاحظ :

« إن أي نظرية تكون صحيحة فحسب في الحدود التي تثبت فيها جدواها في التنبؤ أو فيما تقدمه من ضبط للسلوك ؛ فليس هناك صواب أو خطأ في الأمر بل المهم هو الملاءمة فحسب . ونظرا لأنه لا توجد بعد نظرية اثبتت فعاليتها الفائقة في تنظيم البيانات المتعلقة بالوحدات الكبرى من السلوك لتحقيق تلك الأهداف ، فربما لا يكون من المستغرب

أن يندفع عدد كبير من علماء النفس نحو محاولات جديدة لإقامة مجموعة منظمة من متغيرات الشخصية ، (سيرز ، ١٩٥٠ ، ص ١١٦) .

فإذا ما سلمنا بوجود ذلك التعدد النظرى وإذا ما سلمنا أيضا بوضوح العوامل التى أدت الى تلك الحالة ، أفليس من غير المرغوب فيه أن يكون هناك ذلك العدد الكبير من وجهات النظر المتصارعة فى مجال تجريبى واحد ؟ ان يكون من الأفضل خلق وجهة النظر الواحدة التى تتمثل كل ما هو طيب وفعال فى كل من تلك النظريات بحيث نستطيع بالتالى أن نعتقد نظرية واحدة يقبلها كل الباحثين العاملين فى المجال ؟ ومن المؤكد أن الكثير من النظريات التى ناقشناها يتضمن من أوجه القوة ما لا تتضمنه نظريات أخرى . أفلا نستطيع أن نجتمع بين تلك القوى الفردية بحيث نخلق نظرية قوية متفردة تتيح لنا المزيد من الاستبصار بالسلوك الانسانى وتستخرج من التنبؤات المتعلقة بالسلوك ما هو أكثر فهما ودقة من تلك التى توفرها أى من نظريات الشخصية على حدة ؟

وبرغم أن هذا الخط فى التفكير يثير الاهتمام ويلقى الكثير من التأييد من جانب علماء النفس المعاصرين ، فإن هناك برغم ذلك عدد من الاعتراضات الخطيرة التى يمكن أن تقوم فى وجهه . فأولا : تفترض وجهة النظر هذه أن نظريات الشخصية القائمة لديها قدر كاف من الوضوح الشكلى بحيث يمكن تلمس طبيعتها المحددة ، وبالتالى يمكن لمن يقوم بعملية التأليف أن يتعرف بسهولة على المكونات المشتركة ، والعناصر المتباينة . وكما سبق أن رأينا فليس ذلك هو الوضع على الإطلاق . فالكثير من النظريات تبعد فى صياغتها عن الدقة بحيث يصبح من الأمور البائغة الصعوبة القيام بأية موازنة مباشرة بين عناصرها وعناصر نظرية أخرى . ويشير ذلك الى أن التأليف سوف يكون بالضرورة عملية تحت رحمة الصدفة الى حد ما حيث أن العناصر التى يتضمنها التحليل لم تحدد الا تحديدا يشوبه الضموض . ثانيا : تفترض القضية أنه لا توجد ثمة صراعات لا يمكن حلها بين محتوى مختلف المواقف النظرية أو أنه إذا ما وجدت تلك الصراعات فإنه يمكن حلها بسهولة من خلال اختبار « حقائق الأمر » . ومن الواضح أن هناك الكثير من النقاط التى تثير خلافا صريحا بين النظريات . فضلا عن ذلك فكثيرا ما تكون نقاط الخلاف هذه مرتبطة بظاهرة تجريبية لم تدرس دراسة كافية على الإطلاق . وفى الحقيقة فإن العديد من تلك الفروق النظرية يتعلق بموضوعات تجريبية ذات تنوع بالغ المروعة ، بحيث أن « حقائق

الأمر ، لا تكون واضحة على الإطلاق . ثالثا : أنها تفترض أن لكل أو لأغلب تلك النظريات اسهاما فريدا وإيجابيا عليها أن تقدمه في سبيل نظرية قوية في السلوك . وحقيقة الأمر أن بعض تلك النظريات بعيدة تماما عن أن تكون ذات فائدة تجريبية ملموسة . وإذا ما استثنينا علم نفس الحيوان فإن مقدار الاختبار التجريبي للنتائج التي يمكن استخلاصها من نظرية نفسية لا يكاد يقارن باتساع مدى المشاكل التي تستهدف النظريات تناولها . رابعا : تفترض وجهة النظر هذه أنه تتوفر حاليا أفضل حالات الانسجام والاتفاق النظرى . ففي المرحلة التي تكون فيها النتائج التجريبية المتفعة بالغة الضآلة ، وحيث لا يبدو لموقف نظرى منفرد تفوق حاسم على كافة المواقف الأخرى ، فإن المرء قد يكون على حق تماما حين يتوصل الى أنه قد يكون من الأحكم بدلا من احتواء كل ما فى حوزتنا حاليا في نظرية واحدة أن نقوم باستكشاف نشيط للمجال من خلال الاستفادة من مختلف المواقف النظرية فى آن واحد . وإذا كان ما نعلمه على وجه اليقين ضئيلا فلماذا نضع كل آمال المستقبل فى سلة نظرية واحدة ؟ اليس من الأفضل أن ندع التطور النظرى يتبع مسارا طبيعيا بعيدا عن القيود ، متوقعين - توقعا كبيرا - أنه بتكرار النتائج التجريبية المستقرة ، وبزيادة تحديد النظريات الفردية فى المستقبل ، فإن ذلك قد يصل بنا الى التكامل بشكل طبيعى وعلى أساس تجريبى حاسم ، بدلا من أن يكون ذلك فى صورة عملية مصطنعة تتحدد على أساس التدفق والاعتقاد الشخصيين ؟

ترى ما هى القيمة التعليمية لأن يقدم للدارس وجهة نظر منظمة واحدة للشخصية بدلا من ذلك الركام المتلاطم من الأفكار المتناقضة التي رأيناها فى هذا الكتاب ؟ قد يكون الأفضل من حيث الصحة العقلية أن يقدم للدارس موقف نظرى واحد محدد بوضوح ولكن ذلك يعتبر بالتأكيد اعدادا سيئا للدارس لكى يقوم بعمل جاد فى المجال . فإذا ما اعتقه الدارس أنه ليس هناك سوى نظرية واحدة ذات فائدة ، فمن السهل عليه أن يشعر أنه ممسك بالحقيقة بين يديه تماما ، وأن يتجاوز بالتالى عن أهمية الدراسة التجريبية وما تفرضه نتائج تلك الدراسة من امكان التغييرات فى النظرية . لماذا يتحتم علينا أن نعطى الدارس احساسا زائفا بالانسجام ؟ فلندعه يرى المجال كما هو موجود بالفعل : أصحاب نظريات مختلفة يضعون افتراضات مختلفة عن السلوك ، ويركزون على مشكلات تجريبية مختلفة ، ويستخدمون أساليب مختلفة فى البحث . ولندعه

يفهم أيضا أن هؤلاء الأفراد يتحدون في اهتمامهم المشترك بالسلوك
الإنساني ، وأن هدفهم النهائي هو الحصول على بيانات تكفل التوصل
الى قرار نهائي يتعلق بما هو صحيح وما هو خطأ نظريا .

ويتصل بالمناقشة السابقة ذلك الاعتبار الملح بأن النظريات انما
تكون ناعمة أساسا للشخص الذي يحتملها ويحاول بأسلوب متسق
وحساس أن يستخلص نتائجها . ان فكرة التأليف العام أو التكامل تنقل
الى الدارس الحاجة الى الحذر والى أن يضع في اعتباره جميع وجهات النظر
وأن يتجنب الاستغراق الانفعالي في موقف نظري معين أحادي الجانب .
وينبغي قبل التسليم بأى نظرية معينة أن تقارنها بسواها ، وأن نرى أنها
على نفس القدر من الجودة من كل النواحي ، وأن نقرأ الانتقادات التي ينبغي
توجيهها لها . وعلى العكس من ذلك التصور ، فاننا نوصي بشدة أن يتبنى
الدارس بمجرد أن يلم بالنظريات المتاحة عن الشخصية ، موقفا نظريا
معينا دون تسامح وفي حماس . وليكن الفرد متحمسا ومشعبا
بالنظرية قبل أن يشرع في اختبارها بشكل نقدي . وليس من المتوقع أن
تسهم نظرية الشخصية بالكثير من القول أو الفعل بالنسبة للفرد الذي
يتناولها عن بعد موجها اليها الانتقادات ومتحفظا حيالها . ان ذلك سوف
يعمل المشكلات على ذلك الفرد المتحمس ويستثير فيه الرغبة في البحث
ولكن مثل ذلك لن يتحقق بالنسبة للملاحظ العزوف اللامبالي . فليحتفظ
الدارس بطافته النقدية وعدته المدرسية التفصيلية لكي يتيقن ان
البحث الذي قام به قد أنجز على الوجه الأكمل بحيث أن النتائج قد تقع
حيث ينبغي أن تكون ، . واذا ما استخلص الفرد نتائج من النظرية ،
وانشغل في البحوث المتعلقة بها ، فسوف تكون لديه فرصة سانحة
لمعارضة النظرية وقطع الرجاء في كفاءتها ، وقد ينتهي به الأمر مقتناعا انه
لا جدوى منها . وسوف تكون لديه الفرصة - على الأقل - لاكتشاف
ما تستطيع النظرية أن تقدمه له بالدقة .

ونحن نقترح على الدارس - بشكل عام - أن يبدأ أولا بالتعرف
بشكل عام على مجال الشخصية ، وهذا بالتحديد هو ما يستهدفه هذا
الكتاب . ولندعه بعد ذلك يستغرق كلية في احدى نظريات الشخصية .
فليتمسك فيها ، وليصل فيها ، وليتشر بها ، وليتعرف عليها تماما ،
وليعتبر أنها أفضل الطرق الممكنة لفهم السلوك . وليظل محتفظا في ركن
صغير من عقله فحسب بأن البوتقة النهائية لأية نظرية هي عالم الحقيقة
الذي تتم دراسته تحت ظروف مضبوطة . وبعد أن تنتهي القصة ،

وتنجم إحدى النظريات في اجتذاب الباحث ، فإنه يشرع في مهمة البحث الشاقة والهادئة بهدف أن يعرف : هل ارتباطه النظرى سسوف يصمد أمام تشويه الواقع .

ونحن اذن نعتقد اعتقادا راسخا أن هذا ليس بالوقت المناسب ولا بالظروف المناسبة لمحاولة التأليف بين نظريات الشخصية أو تحقيق التكامل بينها . وفي أبسط العبارات ، فإننا نشعر أنه ليس من الحكمة أن نحاول التأليف بين نظريات مازالت فاندتها التجريبية غير محددة الى قدر كبير . لماذا تقدم على الترتيب التصورى فى ضوء الاستجابة الجمالية والاتساق الداخلى فى حين أن الموضوع الهام هو كيف تصمد تلك العناصر فى مواجهة البيانات التجريبية ؟ ان التطوير والتخصيص الدقيقين لنظرية قائمة مفردة مع التنبه فى نفس الوقت للبيانات التجريبية المناسبة لهو فى اعتقادنا أمر أكثر جدوى من أية محاولة للوصول الى نظرية سائمة . والاجابة النهائية لأى قضية نظرية تكمن فى البيانات التجريبية المضبوطة جيدا ، وسوف تتحدد بكفاءة طبيعة تلك البيانات عن طريق تطوير تلك النظريات نفسها فحسب . ان تغيير النظرية فى ضوء البيانات التجريبية التى تفرض على صاحب النظرية بعض التغيرات الجوهرية ، أمر يختلف تماما عن تغيير النظرية بسبب بعض القضايا المتصارعة أو التقويمية . ونحن نعتقد أن أى نظرية تقريبا اذا ما توسعت بشكل منظم وصحبها بحث تجريبى ممتد فإنها سوف تمثل أملا فى التقدم أكبر مما يمثله دمج النظريات القائمة والتى يتصف بعضها بضعف الصياغة وضعف الارتباط بالبيانات التجريبية .

BIBLIOGRAPHY

- Hall, C. S., and Lindzey, G. Psychoanalytic theory and its applications in the social sciences. In G. Lindzey (Ed.). *Handbook of social psychology*. Vol. 1. Cambridge, Mass.: Addison-Wesley, 1954, pp. 143—180.
- Hilgard, E. R. Experimental approaches to psychoanalysis. In E. Purnpian-Mindlin (Ed.). *Psychoanalysis as science*. Stanford, Calif. Stanford Univ. Press, 1952, pp. 3—45.
- Sears, R. R. *Survey of objective studies of psychoanalytic concepts*. New York: Soc. Sci. Res. Council, Bull. No. 51, 1943.
- Sears, R. R. Personality. In C. P. Stone and D. W. Taylor (Eds.). *Annual review of psychology*. Vol. 1. Stanford, Calif.: Annual Reviews, 1950, pp. 105—118.

ثبت المصطلحات

Abilities	قدرات
Achievements	منجزات
Action research	بحث - هو - الفعل (ليفين)
Active imagination	التخيل الايجابي (يونج)
Activity needs	الحاجات الابداعية
Anal Complexes	عقد شرجية (موراي)
Analytical psychology	علم نفس تحليلي (يونج)
Anima	الأنيسا (يونج)
Anticathexis	شحنات مضادة (فرويد)
Anxiety	حصر
Archetype	نمط اولي (يونج)
«Asif» psychology	سيكولوجية كان (أدلر)
Associationist doctrine	المذهب الترابطي
Attitudes	اتجاهات
Autism	الذاتية

(B)

Behaviour	السلوك
Bionegative	حيوية سلبية
Biosocial theory	النظرية الاجتماعية الحيوية
Biosphere	المجال الحيوي
Birth trauma	صدمة الميلاد (فرويد)
Bisexuality	الجنسية المزدوجة (فرويد)
Boundaries	حدود (ليفين)

(C)

Canalization	تقنية (مورفي)
Castration anxiety	حصر الخصاء
Castration complex	عقدة الخصاء
Catabolism	عملية الهدم (فى الايض)
Causality	العلية
Cerebrotonia	مخى (شيلدون)
clairvoyance	الاستشفاف
Claustal complexes	مركبات صومعية (موراي)
Collective unconscious	اللاشعور الجمعى
Compensation	تعويض
Compulsion	اجبار
Concreteness	العيانية
Conditioning	الاشراط
Configuration	صياغة كلية
Conflict	صراع
Conscience	ضمير
Consciousness	شعور
Constancy	الاتساق
Constitutional psychology	علم النفس الجبلى
Content analysis	تحليل المحتوى
Contiguity	التجاور
Correlational methods	مناهج ترابطية
Criterion analysis	تحليل المحك (أيزنك)
Cue	دليل (دولار وميللر)
Cycloid personality	شخصية شبه دورية (شيلدون)
Cyclothymic state	حالة مزاجية شبه دورية (شيلدون)

(D)

Death instincts	غرائز الموت (فرويد)
Deduction	الاستقراء
Defense mechanisms	الميكانيزمات الدفاعية (فرويد)
Development	نمو - تطور
Diagnosis	تشخيص
Differentiation	تمايز - تفاضل
Discrimination	تمييز
Displacement	ازاحة
Dominants	المسيطرات
Drive	محرك - باعث
Durance	الفترة (موراي)
Dyadic units	وحدات زوجية (سيرز)
Dynamic crossroads	طرق دينامية متقاطعة (كاتل)
Dynamic Lattice	طرق دينامية (كاتل)
Dysplasia	طراز خلطي (شيلدون)

(E)

Eclecticism	تأليفية
Ectomorphy	المكون الخارجي التركيب (شيلدون)
Ego	الانا (فرويد)
Ego-ideal	الانا المثالي (فرويد)
Ego-involvement	انشغالات الأنا (شريف وكاوتريل)
Ego-psychology	علم نفس الأنا
Emotions	انفعالات
Empirical Me	الانا التجريبية
Empirical self	الذات التجريبية
Endomorphy	المكون الداخلي التركيب (شيلدون)
Energy	طاقة

Entropy	الانتقال (يونج)
Equalization	تصادل
Equilibrium	توازن
Erg	دفعة فطرية
Erogenous zones	مناطق شبكية (فرويد)
Expressive behaviour	سلوك تعبيرى (أولبورت)
Expressive movements	حركات تعبيرية (أولبورت)
Expressive trait	سمة تعبيرية (أولبورت)
Extinction	انطفاء

(F)

Factor analysis	التحليل العاملي
Factor theories	نظريات العامل
Fictional finalism	الاهداف النهائية الوهمية (أدلر)
Field theory	نظرية المجال (ليفين)
Fixation	تثبيت
Foreign hull	الغلاف الغريب (ليفين)
Frame of reference	الاطار المرجعي (روجرز)
Free association	التداعي الطليق (فرويد)
Frustration	الاحباط
Functional autonomy	الاستقلال الذاتى الوظيفى (أولبورت)

(G)

General factor	العامل العام
Generalization	تعميم
Genotype	الطراز الأصيل أو السببي
Gestalt psychology	سيكولوجيا الجشطالت
Goal-directed behaviour	السلوك الموجه نحو الهدف
Gradient of approach	مدرج الاقدام (ميللر)

Gradient of avoidance	مدرج الاحجام (ميللر)
Gradient of generalization	مدرج التعميم (ميللر)
Group factor	العامل الطائفي
Group syntality	شخصية الجماعة
Guilt feelings	الشعور بالذنب (فرويد)
Gynandromorphy	المكون الأنثوي التركيب (شيلدون)

(H)

Hallucination	هلوسة
Hedonism	مذهب المنفعة
Hierarchy	تنظيم متدرج
Hodology	علم المسارات
Holism	مذهب الكلية
Homonymy	الاندماج - المشاركة
Humanistic Communitarian Socialism	الاشتراكية الانسانية الجماعية (فروم)

(I)

Id	الهو (فرويد)
Identification	التعيين الذاتي
Idiographic	فردى (أوليورت)
Imagos	الصور
Induction	استنباط
Inferiority feelings	مشاعر الدونية
Instinct derivative	مشتق الغريزة
Integration	تكامل
Intentions	المقاصد
Interview	مقابلة شخصية
Introjection	استدماج (فرويد)
Introversion	انطواء

(L)

Libido	الليبيدو (فرويد)
Life instincts	غرائز الحياة
Life record	سجل الحياة
Life space	حيز الحياة (ليفين)
Locomotion	الحركة
Learning dilemma	معضلة التعلم
Latency period	فترة الكمون (فرويد)

(M)

Metabolism	الأبيض الحيوى (الهضم والبناء)
Mythological image	الصورة الأسطورية
Masculine protest	الاحتجاج الذكري
Manipulation drive	الباعث الى المعالجة أو التناول
Microsplanchnic	الجسم الصغير
Macro splanchnic	الجسم الكبير
Morphogenotype	الطراز البنائى
Mesomorphy	المكون المتوسط التركيب
Multiple factor analysis	نظرية العوامل المتعددة
Metaerg	طاقة مكتسبة - دفعة مكتسبة
Monadic units	وحدات فردية
Maladjustment	سوء التوافق
Malevolent transformation	التغير الحاقه
Mandala	الماندالا (الحلقة السحرية)
Motivation	الدافعية
Motive	دافع

(N)

need for relatedness	الحاجة الى الانتماء
Need for transcendence	الحاجة الى التعالي
Need for rootedness	الحاجة الى الارتباط بالجذور
Need for identity	الحاجة الى الهوية
Need for a frame of orientation	الحاجة الى اطار توجيهي
Non metric	لا مترى
Non metric mathematics	الرياضيات اللامتريّة
Nomothetic	جمعي (اولبورت)
Normosplanchnic	الجسم العادي (شيلدون)
Neuroticism	العصابية
Need integrate	تكامل الحاجة

(O)

Object cathexis	شحنة الموضوع
Oral	فمي
Oedipus complex	عقدة أوديب (فرويد)
Occultism	علوم السحر
Orientation	التوجه
Organismic	عضوية

(P)

Primary process	العملية الأولية (فرويد)
Pleasure principle	مبدأ اللذة
Psychic energy	طاقة نفسية
Phobia	مخافة مرضية
Primal scene	مشهد الجماع (فرويد)
Postulate	مسألة
Projection	الاستقاط

Phallic	قضيبي
Pregenital	قبل التناسلي
Persona	التنوع (الشخصية القناعية)
Primordial images	الصور الاولية البدائية
Personifications	التشخيصات
Prototaxic	خبرات خام (لا رابطة بينها)
Prataxic	خبرات متتالية (دون رابطة منطقية)
Preoccupations	الانشغالات
Part-whole relationship	علاقة الجزء بالكل
Permeability	القابلية للنفاذ
Proprium	الجوهر
	عدم القابلية الجزئية للمودة الى الحالة السابقة
Partial irreversibility	السابقة
Phenomotives	الدوافع الظاهرة
Performances	آداءات
Processes	عمليات
Pyknic physique	الطراز الجسمي البدين
Phenotype	الطراز الظاهري
Psychoticism	الانفصالية
Phenomenology	علم الظاهريات
Para psychology	ما وراء علم النفس
Purposive	مغرضي

(Q)

Q-technique	أسلوب « ك »
Q-methodology	منهجية « ك »

(R)

Reality principle	مبدأ الواقع
Reflex action	الفعل المنعكس
Reality testing	اختبار الواقع
Regression	تكوي
Repetition compulsion	اجبار التكرار (فرويد)
Repression	السكبت
Reaction formation	تكوين رد الفعل
Region	منطقة (ليفين)
Reinforcement	تعزيز - تدعيم

(S)

Subliminal	دون الوعي
Self-actualization	تحقيق الذات
Synchronicity	التزامن
Social interest	الاهتمام الاجتماعي
Style of life	أسلوب الحياة
Stereotypes	الأنماط المعمة الجامعة
Syntactic	خبرات تركيبية (فى ترتيب منطقي)
Self-expansion	امتداد الذات
Self-determination	تصميم الذات
Self-surrender	استسلام الذات
Self-consistency	اتساق الذات
Setting	التأهب
Schizoid state	حالة شبه فصامية
Schizothymic state	حالة مزاجية شبه فصامية
Somatotype	الطراز البدني
Specific factor	العامل الخاص
Specification equation	معادلة التخصيص
Surface traits	سمات السطح
Source traits	سمات المصدر

Surgency	الاندفاع الصاحب
Subsidiation	التبعية
Stimulus-response	مثير - استجابة
Spontaneous recovery	شفاء تلقائي
Self theory	نظرية الذات
Super-ego	الآنا الأعلى
Sublimation	تسامى - أعلاه
Self-identity	هوية الذات
Synthesis	التأليف (بين النقيض)

(T)

Teleology	الفائية
Transpersonal	غير الشخصي
Transcendental function	وظيفة متعالية
Telepathy	التخاطر
Topology	الطوبولوجيا
Tension	توتر
Trait	سمة
Type	طراز
Textural aspects	الجوانب النسيجية
Trauma	صدمة

(V)

Vector	الموجه - الكمية المتجهة أو الموجهة
Viscerotonia	المزاج الحشوي

(W)

Will to power	ارادة القوة
Wish fulfillment	تحقيق الرغبة
Wishfull thinking	التفكير الراجب

(Z)

Zigzag effect	اثر زيجزاجي
---------------	-------------



الطبعة الثانية

رقم الأيداء جداول الكتب ٥٨٤٢ / ١٩٧١

الشيخ ١٤٠٠ ق ٣٣٣